

٩

ركائز القدوة فى تفسير الدعوة

تأليف

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق
جامعة الأزهر

(۲)

(٣)

(٩)
ركائز القدوة
في تفسير الدعوة

(٤)

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

﴿حقوق الطبع محفوظة للمؤلف﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

(٦)

المجلد التاسع
يشمل هذا المجلد تفسير

- سورة "الإسراء".
- سورة "الكهف".
- سورة "مريم".
- سورة "طه".
- سورة "الأنبياء".
- سورة "الحج".

(^)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ،،

فكان من توفيق الله تعالى لى أن أعاننى على الانتهاء من المجلد الثامن الذى انتهى بتفسير سورة "النحل" .

وها هو المجلد التاسع أبدأ فيه بتفسير سورة "الإسراء" ، وأسأل الله سبحانه وتعالى المعونة والتوفيق حتى أستفيد بعمري فيما يفيدنى عند ربي .

وأحب أن أوضح المنهج الذى بينته في المجلد الأول ، حيث التزمت بالمعنى الذى ذكره المفسرون القدامى والمعاصرون ، وبخاصة من نحا منهم نحو عرض الآيات ، وإبراز ما فيها من حجج وبراهين وساقها إلى الغايات التى نزلت لتحقيقها .

وأذكر أن مرجعى هى كتب التفسير ، وعلوم القرآن التى ذكرتها في مقدمة المجلد الأول على أن أبسط ما يحتاج لبسط منى ، وأن أوجز في الآيات التى لا تحتاج لبسط .

وأبين أن غايتى من هذا التفسير هى إبراز ركائز القدوة من خلال التفسير لتكون منارات ساطعة توضح المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله تعالى .

إن من إعجاز القرآن الكريم إirاده للآيات الكونية ، وتكرارها في آيات وسور كثيرة بأساليب وطرق متعددة ، ولغايات مختلفة بلا ملل ، أو سامة ... حتى نرى الموضوع في كل مرة جديدا في أسلوب عرضه ، وطريقة تناوله ،

(١٠)

وفى ملامسته لعناصر الإنسان المختلفة ، وفى توجهه كل مرة إلى طائفة من الناس ... ودائما يظهر في كل مرة جديدا متجددا .

ولعل هذا التنوع يقدم الركائز الدعوية العديدة لأن كل حالة تقدم نموذجا معيناً يمكن الاستفادة به فيما يشبهه من الحوادث ، والأشخاص .

ونلاحظ في هذا التنوع تصويره لعناصر الإنسان التى يوضحها مع الحدث ، فتارة يتضح التركيز على الجانب العقلى والفكرى ، وتارة يظهر إثارة الجانب النفسى العاطفى ، ومرة يجسد الجانب العدوانى في الإنسان ، وفى حالات كثيرة نرى الجحود والجمود الذى يعيش فيها الظالمون .

وهكذا تتخذ الآيات وهى تعرض البراهين اتجاهات عديدة لمصلحة الإنسان وهدايته .

إن القرآن الكريم هو دستور الدعوة ، وكل آياته بيان للدعوة في كل أركانها ، وكافة جوانبها ، وصدق من قال : إن القرآن الكريم يدور حول موضوع واحد هو الإسلام دين الله تعالى ، وكل آياته تتحرك في هذا الموضوع لتثبت كل آية جزءا في هذا الموضوع حتى تتمه وتكملة .

فالدعاة يتعلمون من الآيات الصورة العملية لحياتهم ، ومعاملاتهم مع الناس .

وغايات الدعوة هى الغايات التى نزل القرآن الكريم لتحقيقها ، ونشرها لمصلحة الناس .

ولعل أعظم ما يقدمه القرآن للناس تصويره لحقيقة الإنسان على تنوع فكره ، ومذاهبه ، وأخلاقه ، واتجاهاته ، وتحديد الأسلوب الأمثل لمخاطبة كل فريق من الناس وفق منهج القرآن الكريم ، وبذلك يفيد القرآن الكريم قضيته ، ويتعامل مع الإنسان لاقتناعه بهذه القضية بمنهج حسن ، وأسلوب جميل .

وأحب أن أوضح سبب إيرادى لكثير من الأحاديث النبوية الواردة في بعض الموضوعات ... وذلك لغرض في نفسى وهو أن يجد الدعاة زادا واسعا من الأحاديث الصحيحة المبينة لمراد الآيات ، يستفيدون بها في أحاديثهم ، وكلماتهم في هداية الناس ، ودعوتهم إلى الله تعالى .

أسأل الله تعالى :

أن يبارك في جهدى ، وأن ينفع به الناس ، وأن ينفعنى به في الدنيا والآخرة .

وأن يسدد خطاى ، ويمدنى بقوة منه لأتمكن من هدف اتمناه من رى في هذا التفسير الذى أرجو أن يصاحبنى ثوابه في قبرى وعند رى .

وأن يفتح الله لهذا التفسير القلوب ، والعقول ، فهو الغاية ، وهو الأمل ، وهو على كل شئ قدير .

وأورد في النهاية أملا أكرره مع كل ما أكتب ، وهو أن يأتينى نصح العلماء ، وتوجيهات المخلصين ، ومشاركة الدعاة ... ولو حدث ذلك فهو فضل من الله أتمنى أن يمتعنى به .

إن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة ، ودائما تشد الفكرة ما بعدها ، ويولد البحث بحثا آخر ، ولذلك يتضاعف العلم ، وينقسم إلى فروع متعددة ليقدم كل فرع علما جديدا ، والعلم رحم بين العلماء يجمع حوله العقول والقلوب ، وكلما ازداد علم العلماء كلما زاد تواضعهم ، وكثر حبهم للآخر ، لأنهم يشعرون بأهمية الآخر ، ومدى حاجتهم إليه ، والعلم حلقات متتابعة ومتراصة تظهر ما مضى ، وتصله بما حضر ، وتوطئ لما سيأتى .

ولكل هذا يحدونى الأمل في هبة العلماء والدعاة لمواصلة العمل والبحث لأنال شيئا من علمهم ، وخبرتهم ، وعقولهم .

(١٢)

إن علوم الدعوة إلى الله تعالى يجب أن تستفيد بعلوم العصر الإنسانية
لتقدم منها للدعاة يتلألمون به مع المدعوين ... وقد أثبتت التجارب العلمية
أن ثقافة الداعية الواسعة تفيد في حركته بالدعوة ، ولهذا حاولت أن أجعل الآية
مصدر الركائز المفيدة للدعوة والدعاة .

اللهم إني متوكل عليك . أملئ كبير في عفوك ورحمتك ، وغايتي رضاك
ورضوانك ، فوفقني لما تحب وترضى .
وأنت على كل شيء قدير ...

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

غرة رجب ١٤٣٣هـ
م. نصر في }
٢٢ مايو ٢٠١٢م

التعريف
بـسورة "الإسراء"

(١٤)

التعريف بسورة "الإسراء"

يحتاج التعريف بسورة "الإسراء" إلى بيان المسائل التالية :

- أولا -

تنزيلات السورة

أجمع جمهور المفسرين على أن السورة مكية ، وأنها نزلت قبيل الهجرة إلى المدينة المنورة حيث كان نزولها بعد معجزة الإسراء والمعراج^(١) .
 وذهب بعض المفسرين إلى وجود آيات من السورة مدنية .
 فذكر بعضهم آيتين مدنيتين هما قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَإَ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ،
 وَإِذَا لَمْ تَحْذُوكَ حَلِيلًا ﴾^(٢) .

﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ
 إِلَّا قَلِيلًا ﴾^(٣) .

وزاد البعض على هاتين الآيتين آيتين أخريين هما قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ
 إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَخُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ
 إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾^(٤) .

(١) تفسير الألوسي ج ٨ ص ٢ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٧٣ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٨٥ .

(٤) سورة الإسراء ، الآية ٦٠ .

(١٦)

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾^(١) .

وزاد بعضهم خمس آيات أخرى هي قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾^(٢) .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ ﴾^(٣) .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾^(٤) .

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾^(٥) .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ﴾^(٦) .

وذهب البعض إلى مدنية هذه الآيات لاشتغالها أحكاماً شرعية فقهية لم تنزل في المرحلة المكية ، وقد وجه العلماء هذه الآيات لتناسب الآيات المكية .

وعدد آيات السورة مائة وعشر آيات عند الجمهور ، ومائة وأحد عشر آية عند الكوفيين .

وقد نزلت السورة بعد سورة "القصص" .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٠ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٣٣ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٣٢ .

(٤) سورة الإسراء ، الآية ٥٧ .

(٥) سورة الإسراء ، الآية ٧٨ .

(٦) سورة الإسراء ، الآية ٧٣ .

(١٧)

- ثانيا -

مسميات السورة

اتفق المفسرون من الصحابة والتابعين على تسمية السورة بسورة "الإسراء" لنزولها بعد معجزة الإسراء ، وبدئها بالحديث عن الإسراء تلك المعجزة التي جعلها الله لرسول الله ﷺ تثبيتاً له بعد وفاة عمه أبا طالب وزوجته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها^(١) .

وتسمى السورة بمسمى سورة "سبحان"^(٢) لأنها السورة الوحيدة التي صدرت بهذا المصدر "سبحان" .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يسمونها سورة "بنى إسرائيل" . ففي سنن الترمذي جاء في أبواب الدعاء عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبنى إسرائيل^(٣) .

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال : "في بنى إسرائيل والكهف ومريم إنهن من العتاق الأول ، وهن من تلادي"^(٤) أى من قديم السور نزولا .

فذكر البخاري والترمذي ثبوت مسمى "بنى إسرائيل" للسورة ، إلا أن بعض المتأخرين يستبعد هذه التسمية ، ويرى أن القول بها من الدخيل في التفسير ، لأن من فعل ذلك يريد أن يذكر بنى إسرائيل عند ذكر معجزة الإسراء والمعراج ، وبذلك يبقى ذكر الإسرائيليين في العقل الإسلامي عند ذكر الأحداث الكبرى ، وبخاصة التي لها صلة بالمسجد الأقصى^(٥) .

(١) فتح القدير ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٢) تفسير الألوسي ج ٨ ص ٢ .

(٣) سنن الترمذي . كتاب أبواب الدعوات ج ٥ ص ٤٧٥ .

(٤) صحيح البخاري . كتاب تفسير القرآن ج ٦ ص ٨٢ .

(٥) انظر التفسير القرآني للقرآن ج ١٥ ص ٧ .

(١٨)

ونطمئن صاحب هذا القول بأن هذه التسمية خافتة ، وليس لها أثر في العقل الإسلامى ، ولم تؤد هذه التسمية إلى ما يخاف منه ، وبخاصة أن بداية السورة تتحدث عن إفساد بنى إسرائيل في الأرض .

- ثالثا -

صلة سورة "الإسراء" بسورة "النحل"

ترتبط سورة "الإسراء" بسورة "النحل" بعدة أوجه ... منها :

الوجه الأول :

ختمت سورة "النحل" بقوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا حَزَنَ عَلَيْهِمْ وَلَا تَلُكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (١٧٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (١٧٨) ، وهذه دعوة لرسول الله ﷺ ليصبر على عنت قومه ، ولا يحزن على كفرهم ، ويعلم أن الله معه ليستمر في تقواه ، واحسانه ... وجاءت سورة "الإسراء" مبتدئة بمعجزة الإسراء والمعراج التى استضاف الله فيها رسوله ، وبين له مقامه مع الأنبياء جميعا تسلية له ﷺ ، وتنبيها لقلبه في المواقف الصعبة التى كان يعيشها رسول الله ﷺ ، وبذلك تطابقت خاتمة سورة "النحل" مع أول آية في سورة "الإسراء" .

الوجه الثانى :

لما ذكرت سورة "النحل" أصحاب السبب في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١) جاء في سورة "الإسراء" بشريعة أصحاب السبب .

(١) سورة النحل ، الآية ١٢٤ .

يقول ابن عباس رضي الله عنه : إن شريعة أهل السبت التي شرعها الله في التوراة جاءت في خمس عشرة آية من سورة "الإسراء" ، وذكر الله فيها عصيانهم ، وفسادهم ، وكافة مواقفهم مع المسلمين في المدينة .

الوجه الثالث :

ذكرت سورة "النحل" نعمًا كثيرة وأحدها النحل الذي أوحى الله إليه ، ليسكن ، ويأكل من كل الثمرات ويخرج من : ﴿ بُطُونُهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾^(١) ... وجاءت سورة "الإسراء" بعدد من النعم ، ومنها القرآن الكريم الذي قال الله عنه : ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) .

الوجه الرابع :

بينت سورة "النحل" أن الله تعالى : ﴿ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَى ﴾^(٣) ... وجاءت سورة "الإسراء" بقوله تعالى : ﴿ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا ﴾^(٤) .

الوجه الخامس :

تتضمن السورتان عديدا من أساليب الدعوة المختلفة من تأكيد ، وتشبيه وترغيب وترهيب ... وغير ذلك من الأساليب .

الوجه السادس :

بينت سورة "النحل" مكائد الشيطان للإنسان ، وحددت طرق النجاة من حيله فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

(١) سورة النحل ، الآية ٦٩ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٢ .

(٣) سورة النحل ، الآية ٩٠ .

(٤) سورة الإسراء ، الآية ٢٦ .

(٢٠)

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(١)
وجاءت سورة "الإسراء" تؤكد ذلك فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾^(٢) .

الوجه السابع :

بينت سورة "النحل" موقف الكفار من القرآن الكريم وذلك فى قوله تعالى :
﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ۚ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) وجاءت سورة "الإسراء" تؤكد عدم تصديق الكفار
للقرآن مهما جاء به يقول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ
مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾^(٤) .

الوجه الثامن :

تبين سورة "النحل" أن كل ما فى الكون يسجد لله تعالى يقول الله تعالى :
﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٥) وتوضح سورة "الإسراء" هذه الحقيقة وذلك فى قوله تعالى :
﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(٦) .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٦٥ .

(٤) سورة الإسراء ، الآية ٨٩ .

(٦) سورة الإسراء ، الآية ٤٤ .

(١) سورة النحل ، الآيات ٩٨ ، ٩٩ .

(٣) سورة النحل ، الآية ١٠١ .

(٥) سورة النحل ، الآية ٤٩ .

- رابعا -

موضوعات سورة "الإسراء"

تتضمن سورة "الإسراء" على عدد من الموضوعات كسائر السور المكية وأهم هذه الموضوعات ما يلي :

(١) تقدم السورة عقيدة التوحيد صافية ، وتقدم الأدلة المثبتة لها من خلال الاستدلال بآيات الليل والنهار وما فيهما من البراهين العديدة الدالة على ألوهية الله الواحد ، وتفرد سبحانه وتعالى في الخلق والإبداع ، مما يوجب أن تكون العبادة خاصة له .

ويتكرر أمر تنزيه الله تعالى عن الشريك والشبيه خلال السورة . ففي مطلعها : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾^(١) وفي أمر بني إسرائيل بتوحيد الله يذكرهم بأنهم من ذرية المؤمنين مع "نوح" : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾^(٢) ... وعند ذكر دعاوى المشركين عن الآلهة يعقب الله تعالى بقوله : ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ غُلُوا كَبِيرًا ﴾^(٣) ... وفي حكاية قول بعض أهل الكتاب حين يتلى عليهم القرآن : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾^(٤) ... وتختتم السورة بالآية : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ﴾^{(٥)(٦)} .

(١) سورة الإسراء ، الآية ١ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٣ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٤٣ .

(٤) سورة الإسراء ، الآية ١٠٨ .

(٥) سورة الإسراء ، الآية ١١١ .

(٦) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٩٩ .

(٢) تثبت السورة رسالة محمد ﷺ ، ومدى تكريم الله له ، وانزال القرآن الكريم

عليه ﷺ فتحدث عن الإسراء به ليلا ، وتكريمه في بيت المقدس وانزال القرآن الكريم عليه ، وتعريفه بمنهج الاستعانة به . يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾^(١) ، وترد مزاعم المشركين عن رسول الله وعن القرآن

الكريم ، وافساد كيدهم ومكرهم .

(٣) تثبت السورة وجود الملائكة وعلى رأسهم جبريل عليه السلام الذي صاحب رسول

الله ﷺ في رحلة الإسراء .

(٤) تبين السورة كثيرا من الأخلاق الإسلامية التي تصلح الفرد والجماعة ،

وتساهم في إيجاد الأمة الصالحة في أرض الواقع . يقول الله تعالى :

- ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا ۚ إِنَّمَا يَبْغُنَ

عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا

وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾^(٢) .

- ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ

كُفُورًا ﴾^(٣) .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٤٥ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٢٣ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٢٧ .

سورة "الإسراء"

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

معجزة الإسراء برسول الله ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية معجزة الله الكبرى لرسوله ﷺ الذي أسرى خلالها به من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس تثبيتاً لروحه ، وبياناً لقدره مع إخوانه الرسل .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ "سبحان" مصدر سبى ، ومعناه تنزيه الله عن كل ما عداه ، وتعالىه عن كل نقيصة ، وبعده التام عن كل ما لا ينبغي مع جلاله وعظمته .

وقد عبرت الآية عن الله بأنه هو الذي أسرى بعبد له لبيان أهمية معجزة الإسراء للنبي ﷺ وفي مسار الدعوة في الحياة الإسلامية وللتذكير بقدرة الله تعالى .

وقد أجمع المفسرون على أن المراد بعبد هو محمد ﷺ ، وقد أضافه الله إليه تشريفاً ، وتكريماً ، وتقخيماً له ﷺ .

ومعنى ﴿ أَسْرَى ﴾ المشى ليلاً في خفية .

﴿ لَيْلًا ﴾ أى ساربه جبريل ﷺ في الليل ، وفائدة ذكر ﴿ لَيْلًا ﴾ بعد ﴿ أُسْرَى ﴾ بيان أن الإسراء استغرق فترة قصيرة من الليل .

﴿ مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أى كان بدء الإسراء من المسجد الحرام ويراد به البيت الحرام أو الحرم كله ، ولذلك ذهب بعض العلماء إلى أن الإسراء كانت من البيت الحرام ، وقال غيرهم كانت الإسراء من بيت أم هانئ ابنة عمه ، أخت علي بن أبي طالب رضى الله عنهم .

﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ أى إلى مسجد بيت المقدس ، وسمى الأقصى لبعده عن مكة لأنه لم يكن وراءه مسجد آخر يومذاك .
وقد بنى المسجد الأقصى بعد المسجد الحرام بأربعين عاما .
سئل النبي ﷺ عن أى بيت وضع في الأرض أولا ؟
قال ﷺ : المسجد الحرام .
قيل : ثم أى ؟
قال ﷺ : المسجد الأقصى .
قيل : كم بينهما ؟
قال : أربعون سنة^(١) .

﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ أى إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله بإكثار الثمر ، والشجر ، والأنهار ، وجعله مقر النبوات ، ومهبط الوحي ، وقبله الأنبياء قبل محمد ﷺ فعنده بعث موسى وعيسى عليهما وسائر أنبياء بنى إسرائيل السلام .

(١) صحيح البخارى . كتاب أحاديث الأنبياء ج ٤ ص ١٤٥ .

وكون البركة حول المسجد الأقصى إشارة إلى الفيوضات التي تحيط به من كل جانب ، ومعنى هذا أن البركة تتحقق فيه ، وفي كل ما يحيط به .

فإن قيل : إن مقصود الإسراء هو تكريم النبي ﷺ بالصعود إلى الملائكة الأعلى ، فلم جاء ذكر الإسراء إلى بيت المقدس والاكتفاء بذكره في هذه الآية دون الإشارة إلى عروجه ﷺ ؟

أقول : كان المقصود الأسمى هو العروج إلى السموات العلا إلا أن الله أراد أن يسرى برسوله أولاً إلى المسجد الأقصى على ظهر البراق ، ثم صعوده بعد ذلك إلى السماء بالمعراج لتحقيق عدة أمور :

أولاً : لو أخبر رسول الله ﷺ أهل مكة بصعوده إلى السموات العلا لاشتد إنكارهم ، وزاد ضلالهم .

ثانياً : إن ذهابه إلى المسجد الأقصى جعله يقدم لأهل مكة بعض العلامات التي شاهدها ، ووصفها لهم ، وهم يعرفونها ، فصدقه بعضهم ثم انتقل ﷺ من ذكر الإسراء إلى المعراج ، وبذلك يكون التصديق بالإسراء توطئه للتصديق بالمعراج .

ثالثاً : إن وصول النبي ﷺ إلى البيت المقدس ، وصلاته فيه إماماً بالأنبياء حقق له عدداً من الحقائق :

أولها : أن يرى أنبياء الله ، ويتعرف بهم قبل أن يلتقى بهم أثناء عروجه إلى السماء .

ثانيها : تحقيق الهيمنة الإسلامية على كل أديان الله التي جاء بها الرسل قبل محمد ﷺ ، وكأنما أريد بذلك إعلان قيادة الرسول ﷺ لسائر المقدسات في الأرض ، وارتباط الإسلام بسائر الرسالات قبل محمد ﷺ .

ثالثها : أن تتحمل الأمة الإسلامية مسئولية حماية المسجد الأقصى أمام أعداء الله في الأرض لسابق علم الله تعالى أن أعداء الحق من اليهود

والصهيونيين سيحاولون السيطرة على بيت المقدس ، ويدنسونه بمعتقداتهم الباطلة ، ولذلك جعل الله شد الرحلة إلى بيت المقدس قضية مشروعة . يقول النبي ﷺ : " لا تشد الرجال إلا إلى ثلاث : مسجدي هذا ، والمسجد الحرام والمسجد الأقصى بالقدس" (١) .

وقد ضاعف الله ثواب الصلاة في المسجد الأقصى لتبقى قلوب المسلمين معلقة به تعلقها بمسجد المدينة ، والمسجد الحرام .
ومن المعلوم أن المعراج بينته آيات سورة "النجم" .

﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا ﴾ أى ليرى محمد ﷺ ببصره ، وبصيرته آيات الله وقدرته سبحانه وتعالى التى جعلته يصل لبيت المقدس ، ويصلى بالمسجد الأقصى ، ويصعد إلى السماء ، ويعود إلى الأرض ، ويرجع إلى مكة في وقت يجد حرارة فراشه الذى كان ينام فيه .

وآية الآيات ظهور الطاقات المخبوءة في كيان الإنسان حيث عقله المدرك ، وروحه الوثابة ، وعواطفه الملهمة ... واستعداده الراقى ليكون عبدا ربانيا ، يستفيد بعباء الله تعالى .

والآية تبين أن الله أرى محمدا ﷺ كثيرا من الآيات في السموات والأرض وفى الإنسان ، وفى الأديان ، وفى كل ما هو كائن ، وبعض ما سيكون ، وهذه الرؤى أوسع ، وأكبر من ملكوت السموات والأرض لأنها أعم واشمل .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى هو السميع

لكل ما يقال ، البصير بكل ما يقع في ملكه .

ولأهمية الإسراء في الحياة الإسلامية أود بيان القضايا التالية :

(١) صحيح مسلم . كتاب الحج . باب سفر المرأة مع محرم ج ٢ ص ٩٧٥ .

- أولا -**الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد**

يذهب جمهور علماء السلف ، والخلف من الفقهاء ، والمفسرين ، والمحدثين إلى أن الإسراء والمعراج كانتا يقظة بالجسد والروح ، ويستدلون على ذلك بما يلي :

(١) يقول الله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ

هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ، فقد ذكرت الآية أن الإسراء كان بعبدته المكون من

الجسد والروح ، لأنهما حقيقة العبد ، وظاهر اللفظ يدل على هذه الحقيقة

ومن المعلوم أنه لا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند استحالة

حقيقة الظاهر ، ولا استحالة في قدرة الله أن يسرى بعبدته ، روحاً ، وجسداً

فلزم أن يكون الإسراء بهما .

(٢) يقول الله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ ^(١) ففي الآية إثبات

واضح على أن الرؤية كانت بالبصر ، وأسندها الله للبصر احترازاً عن رؤية

القلب .

(٣) يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ ^(٢) ، ففي الآية دلالة

على الرؤية البصرية ، لأنها لو كانت مناماً ما كانت كبرى ، ولسلم بها من

سمعتها من كفار مكة .

(١) سورة النجم ، الآية ١٧ .

(٢) سورة النجم ، الآية ١٨ .

(٣٠)

يروى البخارى فى صحيحة عن ابن عبسة عند قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا
الرَّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ ^(١) وهى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ
ليلة الإسراء ^{(٢)(٣)} .

- ثانيا -

ثبوت الإسراء والمعراج

ثبت حدوث الإسراء والمعراج لرسول الله ﷺ بالقرآن الكريم ، وبالسنة النبوية
، وبشهادة الصحابة رضوان الله عليهم ... وهى :

(١) شهادة القرآن الكريم :

أثبت القرآن الكريم وقوع الإسراء والمعراج فى سورتين من سور القرآن
الكريم . يقول الله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ^(٤) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ
وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۚ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۚ ذُو
مِرْقَةٍ فَاسْتَوَىٰ ۚ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۚ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۚ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ

(١) سورة الإسراء ، الآية ٦٠ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب التفسير ج ٦ ص ١٦٠ .

(٣) ولا صحة لمن ذهب إلى أن الإسراء والمعراج كانتا بالروح أو كان أحدهما بالروح والآخر
بالجسد ، لأن القول بالروح يجعله أمرا عاديا لا إعجاز فيه ، ولا حاجة إليه ، لأن رؤيا
الأنبياء حق ، ولو كانت بالروح ما اعترض عليها أحد من المشركين .

(٤) سورة الإسراء ، الآية ١ .

أَدْنَى ﴿٦٠﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿٦١﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿٦٢﴾ أَفَتُمْنُونَهُ
 عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿٦٣﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿٦٤﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٦٥﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ
 الْمَأْوَىٰ ﴿٦٦﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿٦٧﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿٦٨﴾ لَقَدْ رَأَىٰ
 مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴿١﴾ . والآيات تتحدث عن رحلة الإسراء ، ورحلة
 المعراج ، حيث تضمنت آيات سورة الإسراء رحلة الإسراء ، وتضمنت آيات سورة
 النجم رحلة المعراج .

وفى الرحلتين رأى رسول الله آيات من آيات ربه الكبرى ، وقابل الرسل ورأى
 الملائكة ، وشاهد حقائق الحياة ، وصور النماذج البشرية التى رآها ، أو سوف
 يراها ، وتأكد من قدرة الله ، وأنه سبحانه وتعالى سيجازى كل نفس بما كسبت
 بلا ظلم ، ولا نسيان .

(٢) شهادة السنة النبوية :

أخرج مسلم عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ قال أتيت بالبراق ، وهو
 دابة بيضاء طويلة ، فوق الحمار ، ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه
 فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، فربطته بالحلقة التى يربط بها الأنبياء ، ثم دخلت
 المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت فجاءنى جبريل ﷺ بإناء من خمر ،
 وإناء من لبن فاخترت اللبن ، فقال جبريل ﷺ اخترت الفطرة .

ثم عرج بنا إلى السماء الأولى فاستفتح جبريل فقل : من أنت ؟؟

قال : جبريل .

قليل : ومن معك ؟

قال : محمد .

(٣٢)

قيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بآدم عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل عليه السلام .

فقيل : من أنت ؟؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بابن الخالة عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا

صلوات الله عليهم فرحبا ، ودعوا لي بخير .

ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل .

فقيل : من أنت .

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

قيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه .

ففتح لنا ، فإذا أنا بيوسف عليه السلام ، وقد أعطى شطر الحسن ، فرحب ،

ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام .

قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

(٣٣)

قال : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإدريس عليه السلام ، فرحب ، ودعا لي بخير ،

قال الله عز وجل : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ^(١) .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قيل : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه ففتح لنا ، فإذا بهارون عليه السلام ، فرحب ، ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل عليه السلام .

قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه ففتح لنا ، فإذا أنا بموسى عليه السلام ، فرحب ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل .

فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد ﷺ .

قيل : وقد بعث إليه ؟

(١) سورة مريم ، الآية ٥٧ .

(٣٤)

قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون منه ، ثم ذهب بى إلى سدره المنتهى ، وإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال .

فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها .

فأوحى الله إلى ما أوحى ، ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى عليه السلام ، فقال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة .

قال موسى عليه السلام : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم . فرجعت إلى ربى ، فقلت يا رب خفف على أمتى فحط عني خمساً . فرجعت إلى موسى ، فقلت حط عني خمساً .

قال موسى عليه السلام : إن أمتك لا يطيقون ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف . يقول عليه السلام : فلم أزل أرجع بين ربى تبارك وتعالى ، وبين موسى عليه السلام ، حتى قال الله تعالى : يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر ، فذلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرًا ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى عليه السلام فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

فقال رسول الله ﷺ : فقلت قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه^(١) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي . باب الإسراء برسول الله ﷺ ج ٢ ص ٢١٠ . ٢١٥ ، يقول القاضى عياض : لم يأت أحد بأصوب من هذا الحديث (الشفاء ج ١ ص ١٧٩) .

(٣٥)

(٣) شهادة أصحاب رسول الله ﷺ :

شهد الصحابة بصدق رسول الله ﷺ في خبر الإسراء والمعراج ، وسلموا بما عرض عليهم أثناءها ، وقد عبر أبو بكر رضي الله عنه عن جمهور الصحابة حين سأله مشركو مكة عن تصديقه لمحمد في خبر الإسراء والمعراج في جزء من الليل ، مع أن القوافل تقطع هذه المسافة في عدة أشهر ، قال لهم : إنني أصدق محمدا فيما هو أكثر من ذلك ، إنا نصدقه في خبر الوحي يأتيه وهو بيننا .

ولقد روى أحاديث الإسراء أكثر من ثمان وثلاثين صحابيا وصحابية ، ولو كان عندهم أدنى شك في الإسراء ما رووا عنه شيئا .

- ثانيا -

بعض مشاهد المعراج

وأخرج البيهقي ، وابن جرير بسندهما ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : وسار مع رسول الله ﷺ جبريل فأتى على قوم يزرعون في يوم ، ويحصدون في يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان .

فقال النبي ﷺ : يا جبريل ما هذا ؟

قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمئة ضعف ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه .

ثم أتى على قوم ترضخ رؤسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء .

فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين تتناقل رؤسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على إقبالهم رفاع ، وعلى أدبارهم رفاع ، يسرحون كما تسرح الإبل ، والنعم ، ويأكلون الضريع ، والزقوم ، ورضف جنهم ، وحجارتها .

قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

(٣٦)

قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله شيئاً .
ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر ، ولحم آخر نئى خبيث ، فجعلوا يأكلون من النئى الخبيث ، ويدعون النضيج الطيب .

قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتى رجلاً خبيثاً فتبيت معه ، حتى تصبح .

ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ، ولا شئ إلا خرقتة .
فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه .
ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يزيد عليها .
فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يحمل عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم ، وشفاهم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شئ ، قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟
قال : هؤلاء خطباء الفتنة .

ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج ، لا يستطيع .
فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .
ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة ، وشم ريح مسك ، وسمع صوتاً .
فقال : يا جبريل ما هذا ؟

(٣٧)

قال : هذا صوت الجنة تقول : يارب آتني ما وعدتني ، فقد كثرت. غفري ،
واستبرقي ، وحريري ، وسندسي ، وعبقرتي ، ولؤلؤي ، ومرجاني ، وفضتي ،
وزهبي ، وأكوابي ، وصحافي ، وأبارقي ، ومراكبي ، وعسلي ، ومائي ، ولبني
وخمري ، فآتني ما وعدتني .

فقال الله لها : لك كل مسلم ، ومسلمة ، ومؤمن ، ومؤمنة .

قالت : رضيت .

ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً ، ووجد ريحاً منتنة .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت جهنم تقول : يارب آتني ما وعدتني ، فلقد كثرت سلاسلي
وأغلالي ، وسعيري ، وحميمي ، وضريعي ، وغساقلي ، وعذابلي ، وقد بعد قعري ،
واشتد حري ، فآتني ما وعدتني .

قال : لك كل مشرك ، ومشركة ، وكافر ، وكافرة ، وكل خبيث ، وخبيثة وكل
جبار لا يؤمن بيوم الحساب .

قالت : قد رضيت^(١) .

- ٣ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله أسرى بمحمد ﷺ ليلاً من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد
الأقصى ببית المقدس ليرى آيات الله العديدة ، وهو سبحانه السميع العليم بكل
شيء .

(١) حجة الله على العالمين ص ٣٥٨ .

(٣٨)

- ٤ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية عددًا من الركائز ... وهى :

الركيزة الأولى

ضرورة الثقة فى معونة الله

اشتد الخطب على المسلمين ، ونشط الكفار فى اضطهادهم لرسول الله وللمسلمين فى مكة ، وضاعفوا عداوتهم له بعد وفاة عمه أبى طالب ، وزوجته خديجة رضى الله عنها ، وخططوا لقتل رسول الله ﷺ .

وكان لكل هذه الأحداث وقع مؤلم على رسول الله ﷺ ... وهنا جاءت معجزة الإسراء والمعراج لتؤكد لمحمد ﷺ أنه فى معية الله ، وأن العناية الربانية تصونه وتحميه ، وأن الكفار لن ينالوا منه ، ولا من رسالته شيئاً ... وما يقوم به الكفار قدر من الله ليميز الله به الخبيث من الطيب .

والدعاة المعاصرون عليهم أن يمثلوا ثقة فى الله الذين يدعون لدينه فهو العزيز الحكيم ، وليعلموا أن تمام الثقة يحتاج من الدعاة أن يقوموا بواجبهم الذى لزمهم .

عليهم أن يكونوا مؤمنين حق بالإيمان . ، متمكنين من معرفة دعوتهم ، صادقين فى عملهم ، وأداء رسالتهم ، متحملين أى أذى يلحق بهم ، وهم فى سبيل الله يعملون .

إن نصر الله يأتى لمن يستحق ، ويظهره الله لعباده المخلصين فى النهاية : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ۖ ﴾ ^(١) ، ليعلم الدعاة أن قدرة الله غالبية ... وجنوده أكثر ... ونصره للحق أكيد ...

(١) سورة يوسف ، الآية ١١٠ .

(٣٩)

الركيزة الثانية

عقوبة الظالم لا مفر منها

رأى النبي ﷺ فى رحلة المعراج أقواماً ، وهم يعذبون على مظالمهم التى ارتكبوها فى الدنيا ، وهى جرائم متنوعة تدور حول العرض ، والمال ، والضلال ، والكذب ... الخ .

وفى ذلك درس يجب التنبيه له ، وهو أن الظلم لا ينتهى ، والظالم سينال عقوبته حتماً ، وهو إن نجا فى الدنيا ، فلن يفلت من العقوبة الأخروية . وهو أمر لابد أن يعيه كل مسلم ، والدعاة فى المقدمة .

لا يصح أن يعمل الدعاة بغير ما يدعون إليه ، ولا يجوز أن يهمل أحد من الدعاة القيام بالواجب الذى تحمله ، ولا عذر له فى أى تقصير يرتكبه .

ويجب أن. تحدد. مسئولية الدعوة إلى دين الله تعالى أمام كل مسلم ، سواء كان حاكماً أو محكوماً ، صغيراً أو كبيراً ، غنياً أو فقيراً ، رجلاً ، أو امرأة ...

ليعرف الكل أن الله سوف يحاسبه على موقفه من مسئوليته ... ولن يفلت مقصر من العقاب ، لأن تقصيره ظلم لنفسه ، وعدوان على دين الله تعالى .

الركيزة الثالثة

قيام الدعوة على الوضوح والبيان

أرى الله رسوله عقوبة الظالمين فى صور عملية تمثيلية ، وهذا أوضح فى البيان ، والتفصيل لتوضيح صورة العقوبة ، ومدى مناسبتها للجرم الذى ارتكبه المعتدى .

وهذا درس يتعلم منه الدعاة ضرورة توضيح ما يقولونه للمدعويين ، لأن الفكرة إذا لم تظهر وتتضح لا تكون شيئاً ، ولا يسأل عنها أحد ، لبقائها فى عالم المجهول الذى لا حقيقة له .

(٤٠)

إن فريقا من خصوم الإسلام يصورون الإسلام بعكس ما هو عليه ،
ويزعمون فيه ما ليس منه ، أيعد ذلك دعوة إليه !!
فى مجال التربية والتعليم يهتم المعلمون بالوسائل التعليمية لإيصال
المعلومات إلى مستمعيهم واضحة بيّنة .
والدعاة فى حاجة إلى هذا التوضيح ، وعليهم أن يستفيدوا فى هذا المجال
بالصورة ، والحكاية ، وضرب المثل ... وغير ذلك من صور التوضيح .
وعليهم الحذر من كل دخیل مدسوس يرونه فى المؤلفات المدونة الموجودة
... وياليت المشرفون على عملية الدعوة يقومون ببيان الحقيقة فى القضايا المثارة
وتعريف الدعاة بها ، وبكل ما يجد فى هذا المجال الهام .

الركيزة الرابعة **بيان تعنت المشركين**

اتجه رسول الله ﷺ بدعوة الله إلى مشركى مكة ، وأظهر لهم كثيرا من
المعجزات. التى جعلها الله مصدقة له إلا أنهم تعنتوا ، وطلبوا معجزات تبهر
أنظارهم وعقولهم ، فلما حدثت الإسراء وفيها انتقل الرسول ﷺ إلى أماكن عديدة
متباعدة فى لحظات قليلة ، ودلل لهم على صدق وقوع الإسراء والمعراج ، وهى آية
مبهرة إلا أنهم لم يتأثروا بها ، ولم يؤمنوا بعدها ، فدل ذلك على تعنتهم وجحودهم
لآيات الله تعالى ، وبينوا أن طلبهم للآيات جزء من عننتهم وسفاهتهم .
لو نظر المشركون نظرة اعتبار وتدبر لآمنوا بالله لمجرد أنه سبحانه وتعالى
خلقهم من نطفة ، وجعلها سببا لتكوين إنسان حى له عقل وفهم ، ومعه جوارح
وجسد ، وهىأه لتعمير الكون وتسخير خلق الله ... لو صدق المشركون فى النظر
لآمنوا إلا أنهم متعنتون يتهربون بطلبهم من الواجب عليهم .

(٤١)

إنهم يجهلون قدرة الله تعالى التى يتساوى أمامها الكبير والصغير والخطير والدقيق ، وخالق النحلة الصغيرة والجبل الضخم ، ومن يخلق ذلك قادر على أن يخلق كل ما فوق السموات والأرض ، وكل ما فوق التصور والخيال .

الركيزة الخامسة **أهمية الدعوة العملية**

اتفق علماء التربية والدعوة ، والإعلام على أن التوجيه العملى أكثر تأثيرا من التوجيه النظرى ، ولذلك وجدنا الإسلام يهتم بالمشاركة فى حياة الناس ، والاعتماد على البراهين الحياتية التى يعيشونها .

وقد رأينا ذلك فى رحلة الإسراء والمعراج ، فلقد تم بيان هيمنة الإسلام على الأديان قبله عمليا بصلاة النبى ﷺ فى بيت المقدس ، موطن النبوات السابقة إماما بسائر الرسل ليعلم الجميع دور الإسلام مع رسالات الله تعالى .

وفى رحلة المعراج رأى النبى ﷺ صوراً عديدة من العصاة والكافرين وما هم فيه من ويل وثبور ... وقد بينه الرسول للناس ليعلموا الواقع الذى ينتظر المشركين والمذنبين .

والركيزة المستفادة من ذلك ضرورة الاستفادة بالجانب العملى فى الدعوة إلى الله تعالى فهو أقوى تأثيرا ، وأشد فائدة .

إن الوقائع التى بينها رسول الله ﷺ هى ترهيب من المصير السئ ، وترغيب فى العمل الصالح ، وتلك مهمة الدعاة .

(٤٢)

رسالة "موسى" ﷺ لبنى إسرائيل

يقول الله تعالى :

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلها

بعد أن ذكرت الآية السابقة بيت المقدس ، والبركات التي أحاطت به جاءت هذه الآيات للحديث عن بنى إسرائيل لأن الله جعل لهم بيت المقدس وقال لهم موسى ﷺ : ﴿أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(١) .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الله أرسل موسى ﷺ لبنى إسرائيل ليهديهم إلى الحق ، ولا يتخذوا غير الله وليا ، وأن يكونوا كأبيهم نوح ﷺ .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أى أنزلنا الوحي على موسى ﷺ ، وأتيناه التوراة ، واختارناه رسولا لبنى إسرائيل ، يدعوهم إلى دين الله ، والاستقامة على منهجه .

(١) سورة المائدة ، الآية ٢١ .

(٤٣)

﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أى جعلنا التوراة سبيلا للمعونة

والتوفيق ، ونورا يهذى بنى إسرائيل إلى الله تعالى .

وبنو إسرائيل هم أبناء يعقوب عليه السلام ، وهم اتباع موسى وعيسى عليهما السلام . إلا أن الاطلاق يخص اتباع موسى بالاسم ، وهم اليهود الذين اتبعوا موسى عليه السلام ، كما يطلق مسمى النصارى على من آمن بعيسى عليه السلام واتبعه .
ويسمى بنو إسرائيل بأهل الكتاب لأن الكتب السماوية نزلت لهم كالطورة ،
والصحف ، والألواح ، والزبور ، والإنجيل .

﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾ أى قلنا لهم لا تتخذوا غير الله ربا

وكفيلا يتولى أمركم ، وينصركم ، ويعينكم لأن اتخاذ غير الله يبعدكم عن الإيمان الصحيح ، ويبعدكم عن توحيد الله تعالى .

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ أى يا سلالة من حملناهم فى السفينة مع

نوح عليه السلام وحرف النداء دلت عليه القراءة وهذا النداء يعم البشرية بعد نوح عليه السلام لأن المياه أغرقت سائر الأرض ، ولم ينج من الهلاك إلا من ركب سفينة نوح عليه السلام ، ولذلك عد نوح عليه السلام أبا البشرية الثانى وصارت دعوته عالمية لأنها كانت للأحياء جميعا ، إلا أنها تختلف عن عالمية الدعوة الإسلامية لأن عالمية الإسلام تعتمد على تعاليم الإسلام ، ونظمه .

أما عالمية نوح عليه السلام فأساسها وضع الناس لا حقيقة الدعوة .

والنداء يصح أن يكون لبنى إسرائيل كما هو الظاهر ، ويصح أن يكون نداء

لغيرهم معهم .

وفى هذا النداء منهج فى الدعوة ، وهو بيان نسبة المدعوين إلى أصولهم الخيرة المؤمنة ، حثا لهم على الإيمان والاستقامة ، ودعوة للمدعوين لينهجوا منهج

آبائهم فى الصلاح والاستقامة ، فقد آمنوا بنوح عليه السلام ، وركبوا السفينة معه وكانوا على ما كان عليه من دين وخلق .

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ أى أن نوحا عليه السلام كان عبدا لله تعالى كثيرا

لشكر الله ، صارفا كل نعم الله فى الوجه الذى خلقت له ، وكلف به ، فالبصر للتأمل والنظر فى آلاء الله وآياته ، والعقل للفهم والإدراك ، واللسان للذكر والدعاء ... والشكر إقرار الفضل لصاحبه ، ومكافأته عليه ، والإنسان يرى فضل الله فى كل مخلوقاته ، وعلى الإنسان أن يشكر الله بالقول ، والعمل ، والتأمل ، والطاعة ، والانقياد ، فلقد كان نوح عليه السلام أبو البشرية الثانى واضح العبودية لله تعالى ، كثير الشكر والانقياد .

إن المسلم العاقل إذا أكل قال الحمد لله الذى أطعمنى ، ولو شاء أجاجنى ، وإذا شرب قال : الحمد لله الذى سقانى ، ولو شاء أظمأنى ، وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذى كسانى ، ولو شاء أعرانى ، وإذا احتذى قال : الحمد لله الذى حذانى ، ولو شاء أحفانى ، وإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذى أخرجنى من أذى فى عافية ، ولو شاء حبسه^(١) .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله أنزل التوراة على موسى عليه السلام ليهدى قومه اليهود إلى دين الله تعالى ، ويدعوهم ، ويهديهم للحق ، ويوضح لهم الصراط المستقيم ، وقد أمرهم موسى عليه السلام أن لا يتخذوا غير الله ولدا يلى أمرهم ، أو وكلا يعينهم أو نصيرا ينصرهم ، فهم سلالة قوم آمنوا بنوح عليه السلام ، وركبوا السفينة معه ، واتبعوه فى العبودية لله ، ومداومة الثناء والشكر .

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ١٣٦ .

(٤٥)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية حسن الخطاب في الدعوة

أمر الله رسوله بدعوة الناس إلى دين الله بالحسن في القول ، والسلوك والجدل ... لأن حسن القول يؤدي إلى فهمه ، وإدراك معانيه ، وحسن الخلق يجمع القلوب ، ويفتح العقول ، ويدعم التواصل الاجتماعي بين الناس ، والحسن في الجدل يفيد حصر الحوار في الموضوع ، ويعرض القضية بوجهها الصحيح بعيدا عن اللغو والضجيج .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۚ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۚ ﴾^(١) ، وذلك لأن غلظ القلب يؤدي إلى قسوة الحديث وسفاهة الخلق والتعدي على الآخرين .

ويقول النبي ﷺ : "إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم"^(٢) .

إن إيجاد مساحة مشتركة بين الداعي والمدعوي مسألة ضرورية ، وبخاصة مع الباحثين عن الحق ، البعيدين عن التعصب والعُدوان .

ومن هذا الحسن تذكير المدعوي بما كان عليه أبائهم من صدق وإيمان ليتشبهوا بهم ، ويكونوا مثلهم في الإيمان والطاعة ، فلقد آمنوا بنوح ﷺ ، واستقاموا معه على دين الله ، وعاشوا عبيدا لله ، شاكرين لفضله ونعمه .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

(٢) مسند البزار . مسند أنس بن مالك ج ١٦ ص ١٩٣ .

ومن حسن الخطاب تذكير المخاطبين بنعم الله عليهم ، وعلى آبائهم ، ومنها هذه السفينة التى صنعها نوح عليه السلام بأمر الله تعالى ، وحمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأجراها فوق الماء الذى ملأ الأرض كلها ، ونجى من ركبها ، وأهلك من لم يركبها ، ولولا هذه السفينة التى قدرها الله تعالى ، وأمر بصنعها لهلكوا جميعا ، ولخلت الأرض من الناس .

ومن حسن الخطاب تذكيرهم برسالة نوح عليه السلام الذى دعا إلى عبادة الله وحده ، ونبذ عبادة الأصنام ، لأنها نفس دعوة النبى ﷺ ، وهذا يعنى أن محمدا ﷺ يدعوهم إلى ما كان عليه نوح عليه السلام .

الركيزة الثانية دعائم الإيمان فى الإنسان

الدين فطرة فى الإنسان ، ولولا الشيطان ، والهوى ، والضالون لاستقام الناس على ما أمرهم به الله تعالى .

لقد استقر فى الضمير الإنسانى أساسيات الإيمان بالله تعالى ، وذلك أن الإنسان بصورة عامة يقر بتفاوت إمكانياته ، وتعدد طاقاته ، وهو لذلك يرى طاعة الصغير للكبير ، واستجابة الضعيف للقوى ، واليد العليا خير من اليد السفلى ... كما يرى ضرورة إسناد الفضل لصاحبه ، ومكافأة أصحاب المعروف على ما قدموه لغيرهم . يقول النبى ﷺ : "من أتى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له"^(١) .

هذه المبادئ الفطرية يمكن أن تصير عمدا للإيمان فى حياة الناس ، لأن العاقل حين ينظر فى آيات الله ، ويتأمل فى دعوات الرسل سبرى أن القدرة الإلهية قد تجلت ، وعلت ، وعمت ، وشملت ، وهذا يدفع الإنسان إلى الاستعانة بهذه

(١) سنن النسائى . كتاب الزكاة . باب من سأل بالله عز وجل ج ٥ ص ٨٢ .

(٤٧)

القدرة ، والتوكل عليها ... كما أنه سيرى نعم الله ، وآياته فى نفسه ، وفى كل مخلوق ... وهذا يجعله شاكرا للمنعم العظيم .

وإذا كان الإيمان يتجلى فى العبودية والشكر فإن طبيعة الإنسان الفطرية تحقق هذه العبودية بما فيها من تعظيم لقدرة الله ، وإخلاص فى طاعته ، واستسلام تام لأمره ونهيه ، كما تدفعه لشكر صاحب النعم وهو الله تعالى على أن يداوم الشكر لكثرة النعم ودوامها .

وبذلك يتلاقى الإنسان مع أساسيات الإيمان ، فيعجب العقل بقدرة الله ، ويندهش بعظيم آياته ، ويحب ربه لنعمه وفضله .

إن الإنسان حين ينظر لنفسه مع ربه يسعد بعبوديته لله ، وحين يتأمل ما فيه من خير يستمر فى شكر الله المنعم العظيم .

وعلى الدعاة :

إيقاظ أفهام الناس على الدعائم الإيمانية فى الوجود فهى أساس الاقتناع والرضى .

وبحسن إيقاظ الأفهام على الواقع الحياتى للمدعوين لأنها الوسيلة الأيسر للدعوة والخطاب ، والإحساس بالمنعم طريق لشكره ، والإيمان بقدرة الله تعالى دعوة للاستعانة به ، وطلب توفيقه ودعمه .

فتوفيق الطالب فى بحثه ، وعلمه ، وإدراكه نعمة يشعر بها صاحبها .
وعافية البدن ، ونماء الزرع ، وإدراك الضرر نعمة يشعر بها من يقوم بالأمر .
ونعم الله عديدة لا تعد ولا تحصى ، وكلها تنادى بالعبودية القانتة لله تعالى وتحقق الشكر الشامل والدائم لله رب العالمين .

فساد بنى إسرائيل فى الأرض

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ
عُلُوًّا كَبِيرًا ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ
شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۖ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ
عَلَيْهِمْ وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ۖ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ إِنَّ أَحْسَنَ
أَحْسَنُمْ لَأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْطَفُوا
وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا
عَلَوْا تَبِيرًا ۖ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُمْ
عُدْنَا ۚ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة منزلة بيت المقدس ، ودعوة موسى عليه السلام لبنى
إسرائيل ، جاءت هذه الآيات لبيان ما صنعه بنو إسرائيل حول بيت المقدس وما
فعلوه معه حين دعاهم إلى الله تعالى ، وتبين كيف عاقبهم الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات ما قضى الله على بنى إسرائيل من الإفساد فى بيت المقدس ،
والعلو فيها ، واهلاكها ، كما توضح استمرارية هذه الحال فى بنى إسرائيل .

(٤٩)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ أى وأوحينا إلى بنى إسرائيل

فيما أنزلناه عليهم فى التوراة المنزلة على موسى ﷺ ، فأعلمهم به ، وعرفهم أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين .

والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ ، والقول بهذا أولى من أن يكون المراد به التوراة ، لأن الله وصف التوراة بأنها هدى لبني إسرائيل ولا يتفق هذا الوصف مع كونها تضمن دعوتهم إلى الإفساد والتجبر فى الأرض ... وأيضا فإن نزول هذا القضاء على بنى إسرائيل يرفع عنهم التكليف بشريعة التوراة بعد أن قضى الله عليهم بما أراد ، وعرفهم به .

﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ أى قضينا على بنى إسرائيل بالإفساد فى

الأرض مرتين ، ومع تحديد العدد جاء تعريف صورة الإفساد ، وكيفية القضاء به . وقد اتفق جمهور المفسرين على وقوع هاتين المرتين إلا أنهم اختلفوا فى ماهية هاتين المرتين اختلافا بيّنا .

فمنهم من يرى أنهما وقعتا فى الزمن القديم .

ومنهم من يرى أنهما لم يقعا فى الزمن القديم ؟

ومنهم من يرى أن أحدهما وقع ، ولم يقع الآخر ؟ ...

ويسأل العقل : وهل ينحصر إفساد بنى إسرائيل على هاتين المرتين . أم

أن العدد قابل لأكثر من المرتين ؟

ذهب المفسرون القدامى إلى أن هاتين المرتين من إفساد بنى إسرائيل قد

وقعتا فى القديم . على أن الفساد الأول كان عند الأسر البابلى على يد "بختنصر"

الذى استولى على دولة بنى إسرائيل ، ودمرها تدميرا شديدا ، وهدم بيت المقدس ،

وساق الإسرائيليين أسرى إلى بابل ، وذلك بعد أن تجاوزوا أحكام التوراة ، ونشروا الفساد ، وقتلوا النبي "أشعيا" ...

وأما الإفساد الثانى فقد وقع بعد أن قتلوا النبي أرويا ، ويحيى ، وزكريا ، وأفسدوا فى الأرض ، وقد سلط الله عليهم الفرس والروم . فقتلهم ، وسبهم ، وقضوا على دولتهم .

ويذهب هؤلاء المفسرون إلى أن هذا العدد ليس هو نهاية ما قضى الله به على بنى إسرائيل ، فإن حكم الله فيهم مستمر لقوله تعالى : ﴿وَإِنْ عُدَّتُمْ عِدْنَا﴾ ولقد عادوا إلى الإفساد فى الجزيرة العربية فسلط الله عليهم من أخرجهم منها ، وأفسدوا فى العالم الغربى فسلط الله عليهم من دمرهم وأحرقهم وشدد عليهم ... وما هم اليوم يفسدون فى فلسطين ، ويستولون على المسجد الأقصى ، ويحرمون العرب من أوطانهم ، ويهددون البلاد ، والعباد ، والدين ، والأمل فى الله أن يحقق فيهم وعده^(١) .

هذا ...

ويذهب بعض المعاصرين إلى أن المرة الأولى قد وقعت دون الثانية ، ذلك أن بنى إسرائيل علو علوا كبيرا بعد سليمان عليه السلام الذى أقام لهم دولة ، وأنشأ لهم ملكا كبيرا ، وأنهم بعد أن ورثوا هذا الملك العريض ، وملكوا هذا السلطان العتيد بغوا وطغوا ، وأقلقوا من حولهم من أمم وشعوب ... فسلط الله سبحانه وتعالى بعضهم على بعض أولا ، فانقسموا إلى مملكتين ، مملكة "يهودا" فى الجنوب ، وتضم بيت المقدس ، ومملكة "إسرائيل" فى الشمال ، وتضم سامريا ... ثم سلط الله

(١) انظر تفسير البيضاوى ج ٣ ص ٢١٠ ، وحاشية الشيخ حى زاده ج ٣ ص ٢١٠ ، وتفسير الألوسى ج ٨ ص ١٦ ، وتفسير الرازى ج ٢٠ ص ١٥٩ ، وتفسير فتح القدير ج ٣ ص ٢٠٩ ، وتفسير القرطبى ج ١٠ ص ٢١٥ ، ٢١٨ ، والتحرير والتنوير ج ١٥ ص ٢٩ ، ٣٨ ، وتفسير الخازن ج ٤ ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

على المملكتين من يضربهما الضربة القاضية ، ويقضى عليهما القضاء التام . فقام الآشوريون فى عام (٨٥٣ ق.م) وقضوا على مملكة إسرائيل ، وضموها نهائيا إلى آشور ، وقضوا على كل وجود للشخصية الإسرائيلية حيث وقع معظمهم تحت القتل ، ومن نجا منهم من القتل ، وقع فى الأسر ، وأصبح سلعة تباع فى الأسواق

...

ولما ورث البابليون دولة الآشوريين فى العراق ، فعلوا فى مملكة "يهودا" ما فعله الآشوريون فى مملكة "إسرائيل" .

فى سنة (٥٨٦ ق.م) غزا البابليون مملكة "يهودا" بقيادة ملكهم بختنصر ، واستولوا عليها ، ودمروا الهيكل ، وقادوا القوم ورؤساءهم أسرى ...

وهكذا أصبحت مملكة سليمان كلها تحت الحكم البابلي ، أو الأسر البابلي^(١) .

يذهب هؤلاء المفسرون إلى أن المرة الثانية لم تقع بعد ، ويرون أن المرة الأولى انتهت بدخول المسلمين المسجد الأقصى فى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويبنى هؤلاء العلماء رأيهم هذا على الحقائق التالية :

— أن الذين يتسلطون على بنى إسرائيل فى المرة الثانية ، سيدخلون المسجد الأقصى ... ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ . وهذا يعنى أمورا .

— أن الذين يدخلون المسجد الأقصى هذه المرة ، قد كان لهم دخول إليه من قبل ، وأنهم إنما يفعلون فى هذه المرة ، ما فعلوه فى المرة السابقة ...

— ودخول المسلمين المسجد الأقصى أول مرة ، كان فى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد ظل فى أيديهم إلى أن دخله بنو إسرائيل عام ألف وثلاثمائة وسبعة وثمانين للهجرة حين استولوا على فلسطين ، وزعموها وطنا لهم ... نعم ... خرج المسجد الأقصى من يد المسلمين إلى يد الصليبيين

(١) التفسير القرآنى للقرآن ج ١٤ ص ٤٤٥ .

... ثم أعيد إليهم مرة أخرى ، على يد صلاح الدين ... ولم يكن لبنى إسرائيل حساب أو تقدير فى هذا الأمر ...

– ودخول المسلمين إلى المسجد الأقصى وانتزاعه من يد الصليبيين ، ليس له شأن بالدخول الذي سيدخله المسلمون والذي تكلمت عنه الآية ، بعد أن ينتزعوا هذا المسجد من يد بنى إسرائيل ، لأن بنى إسرائيل لم يدخلوا المسجد ، ولم يستولوا عليه منذ الفتح الإسلامى ، حتى وقع فى أيديهم فى هذه الأيام – فهذه إرهابية من إرهابات المرة الثانية ، أو وعد الآخرة ، وهى أن يكون المسجد الأقصى فى يد بنى إسرائيل ، ثم يجئ إليهم من يخرجهم منه وينتزعهم من أيديهم ، وهم أولئك الذين كان ﴿ الْمَسْجِدَ ﴾ مسجدهم الذي ﴿ دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ! وليس المسجد إلا مسجد المسلمين ، وليس الذي يدخله للمرة الثانية وينتزعهم من اليهود ، إلا المسلمين ...

– والإرهابية الثانية ، هى الحال التي عليها اليهود أنفسهم ، وهى أن يكونوا على الصفة التي وصفهم الله بها ، حين يفسدون فى الأرض ، ويعلمون علوا كبيرا ، وحين يدخل عليهم أصحاب المسجد كما دخلوه أول مرة ، ليسوءوا وجوههم ، أي يلبسوهم الخزي والسوء ، وقد اختصت الوجوه بهذا ، لأنها الصفحة التي ترتسم عليها أحوال الإنسان كلها ، وما يمسه من خير أو شر ، وما يلقاه من نعيم أو بؤس^(١) .

والرأى الذى أميل إليه أن المرة الثانية لم تقع بعد ، وأنها ستقع على أيدي المسلمين المعاصرين يعد بغى الإسرائيليين ، وظلمهم ، وعتوهم ، وعدوانهم .

(١) التفسير القرآنى للقرآن ج ١٤ ص ٤٥١ .

﴿وَلْتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا﴾ أى يقسم الله على ما قضى به على بنى إسرائيل فى العلو فى الأرض ، والإفساد ، ونشر الظلم ، والعلو الكبير يعنى الاستعلاء الشديد ، والظلم البالغ الحد ، والعدوان على القيم الإنسانية ، وهدم الأخلاق الكريمة ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِهِمَا﴾ أى إذا جاء وقت وميعاد العلو الكبير ، والفساد الواضح فى المرة الأولى ، وقد وقع ذلك منهم بمخالفتهم أحكام التوراة وارتكاب الحرام ، وقتل الأنبياء .

﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أى أرسلنا جنودا من العباد ، صالحين اختصهم الله لنصر دينه ، وجعلهم أصحاب قوة ، وبطش فى الحرب والقتال .

﴿فَجَاسُوا خَلَلِ الدِّيَارِ﴾ أى داروا وسط البلاد يدمرون ، ويبحثون عنكم لقتلكم واهلاككم ، وقد جعل الله هؤلاء العباد المبعوثين عبادا له ، ونسبهم إليه مع أن منهم من لم يكن مؤمنا ، ولا مستقيما لأن الخلق جميعا عباد الله مؤمنهم وكافرهم . يقول الله تعالى : ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾^(١) ... ويقول سبحانه : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(٢) .

فإن قيل : كيف يسلط الله الوثنيين وهم "بختنصر" وقومه على بنى إسرائيل وهم موحدون ؟

(١) سورة مريم ، الآية ٩٣ .

(٢) سورة الحجر ، الآية ٤٢ .

أقول : أن بنى إسرائيل ، وإن كانوا أهل كتاب ، فإنهم قد مكروا بآيات الله وبغوا فى الأرض ، وملأوا الدنيا من حولهم ظلما وبغيا ... فهم . وإن كانوا مؤمنين ظاهرا . لم يكونوا أحسن حالا من الوثنيين فى أفعالهم السيئة المنكرة ... والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ^(١) أى كذلك يبتلى الله الظالمين بالظالمين ، أو بمن هم أشد ظلما منهم ، فهى نقم تضرب فى وجه نقم ، وظلم يسوء وجوه الظالمين !

﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ أى وكان هذا القضاء فى بنى إسرائيل حكما باتا لا محالة فى إيقاعه بهم ، وقد وقع هذا الوعد بعد فساد قلوبهم ، وتلبس الشيطان لنفوسهم ، وأعجبهم بالضلال والمعاصى ، فلما مالوا وأحبوا الفساد أضل الله أعمالهم ، وقضى فيهم ما هو معلوم منذ الأزل ، وما هو مكتوب فى اللوح المحفوظ ، ولا يظلم ربك أحدا .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى قدر الله أن يعود العلو والتمكن لبنى إسرائيل فى الأرض مرة أخرى بعد مده طويلة ، فالخطاب لبنى إسرائيل لبيان علوهم الثانى ، والالتفات فى الآية لبيان إن الظلم لا يدوم ، وأن التمكين فى النهاية للمؤمنين .

ويذهب الشيخ أبو زهرة رحمه الله إلى أن هذا الخطاب لمحمد ﷺ وأمتة لأن بنى إسرائيل تمكنوا من الأرض ، ولم يحدث منهم فساد بعد ذلك ، ولم تحدث ردة الكرة عليهم إلا ببعثة محمد ﷺ ، وأن المعنى رددنا إليكم أيها المسلمون القوة على بنى إسرائيل ، ونصركم الله عليهم ، فأخرجتموهم من جزيرة العرب ، وفتحتم بيت المقدس ، وسادت الخلافة الإسلامية الأرض كلها .

وما ذهب إليه الشيخ أبو زهرة يؤيد من قال أن التدمير الثانى لم يقع بعد .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢٩ .

﴿وَأَمَدَدْتَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أى قدر الله

أن يرزقكم أيها المسلمون رزقا واسعا ، ويكثر أموالكم ، وأبناءكم ، ويمكنكم فى الأرض حتى تملكوا جندا كثيفا ، ورجالا أكثر قوة ، وأشد بطشا فى الحرب والقتال .

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أى إن استقمتم

أيها الإسرائيليون على صراط الله المستقيم ، وتمسكتم بهديه ، وعملتكم على تطهير المسجد ، وإنقاذه من سيطرة المفسدين ، وتحرير أهله الأسرى ، وإعادة مسرى النبى ﷺ إلى المؤمنين ، فهو إحسان لأنفسكم ، وآثاره لكم ، وإن خالفتم ، وتقاعستم فى العمل الجاد ، وعن السلوك القويم فعاقبه ذلك ستكون عليكم ، فأنتم المسيئون المرتكبون للأعمال التى لا يرضى الله عنها .

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْطَوْاُ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ

كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الفاء للترتيب والتعقيب . والمعنى فإذا جاء وقت العلو

الثانى بعد أن قصرتم فى الطاعة ، وملتكم إلى شهوات الدنيا وملذاتها جاء أعداؤكم للعلو عليكم ، والحاق الأذى والهوان بكم ، ودخول مسجد بيت المقدس بعد أن أخرجوا منه بعد المرة الأولى فى عهد الرومان ، وبعد قتلهم يحيى وزكريا ، ولم يتمكن اليهود من المسجد الأقصى إلا بعد احتلالهم أرض العرب فى فلسطين .

فإن قيل : إن عمر أخرجهم من المسجد الأقصى فهل هو المرة الثانية ؟

أقول : إن الذى كان متمكنا من المسجد الحرام عند الفتح الإسلامى كانوا

النصارى ولم يكن لبنى إسرائيل وجود فى فلسطين ولا فى العالم ، لأنهم تفرقوا فى البلاد ، ولم يكن لهم وجود سياسى فى أى مكان .

﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتَّبِرًا ﴾ أى ويهلكوا ما أقامه الإسرائيليون ، ويدمروا ما فعلوا ، ويزيلوا دولتهم فى بيت المقدس .

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم ﴾ أى إن تبتم أيها الإسرائيليون ، واستقمتم فالمرجو أن تعمكم رحمة الله تعالى .

﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ أى إن عدتم لمعصية الله ، ومعارضة دينه ، وخالفتم أوامر الله ، فإن الضرر يعود إليكم بالإساءة والحاق الأذى .

﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ أى وجعلنا جهنم للكافرين بالله تعالى فراشا مبسوطا يقيمون فيه ، ويستقرون عليه فى نار السعير .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله قدر وقضى بأن يفسد بنو إسرائيل فى أرض المقدس مرتين يعلن فيهما ، ويسيطرون عليها ، وينشرون الفساد خلالهما ، وتوضح أن الله يسلط عليهم فى المرتين جنودا ، وقوة من الناس تقضى عليهم ، وتخرجهم من المسجد ، وتسئ إليهم ، وتخزيهم ، وتقيم دولة العدل والخير ، والطاعة .
وتبين الآيات أهمية الإحسان فى العمل ، والخلق والاستقامة على دين الله وعلى طاعته سبحانه وتعالى ، وضرورة الالتزام به ليرحمهم الله ، ويعمهم بالخير والنعم .

وفى تحديد موعد وقوع مرتى إفساد بنى إسرائيل أراء للعلماء سبق بيانها فى التفسير .

(٥٧)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الفساد طبيعة بنى إسرائيل

اشتهر بنو إسرائيل بالفساد فى الأرض ، فبعد أن جاء بهم يوسف عليه السلام من البادية إلى مصر عاشوا فى عزلة عن المصريين ، وخرجوا منها بعد أن استولوا على ذهب المصريين وحليهن ، وصنعوا منه عجلا عبده فى سيناء ، وكل ما أثر عنهم هو العدوان والظلم ، ونشر الفساد فى الأرض .

ومن يقرأ العهد القديم يدرك الجرائم التى قام بها اليهود .

فلقد شبهوا الخالق بالمخلوق ، وصوروا الله مصارعا ، ومنهزما ولا علم له بكل خلقه . وحاشاه .

واعتدوا على مقام الأنبياء فذكروا حمل بنتى لوط عليهما السلام من أبيهم ، وقتلوا الأنبياء ، وأفسدوا الأخلاق ، فنشروا الهوى والعشق زاعمين أنه من كلام الله تعالى كما جاء فى سفر "تشيد الانشاد" .

وأباحوا استغلال المرأة فى أعمال التجسس ، وهزيمة غير اليهود كما هو فى "سفر استير" ، واستمر اليهود فى الاضلال والإفساد حتى قضى الله عليهم ، وسقوط مملكتى "إسرائيل" و "يهودا" .

وتثبت كتبهم أنهم قتلوا الأنبياء ، وكذبوا ، واتهموهم فى سلوكهم وأعمالهم .

واستمر اليهود فى مسلكهم السيئ حتى جاء الإسلام ، وكانوا ينادون باتباعه فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلموا أنه من العرب كفروا به ، وبدعوته .

ولم يرض اليهود بأن تظهر دولة الإسلام فى المدينة المنورة ، فحاربوا المسلمين ، وساعدوا المنافقين وأهل مكة ضد المسلمين ، فكان أن طردهم المسلمون ، وطهروا المدينة منهم .

ولم يتوقف فساد اليهود إلى الوقت الحالى فعاثوا فى الأرض فسادا ، وطردوا المسلمين من ديارهم ، واستولوا على بيت المقدس ، وعلوا فى أرض الله علوا كبيرا ، واستمروا فى الإفساد والإضلال .

والواجب :

عودة المسلمين إلى الإسلام ، والتمسك بالحق والعدل ، والاستقامة على الصراط المستقيم ، ومواجهة فساد بنى إسرائيل بالوسيلة المكافئة ، وضرورة تطهير بيت المقدس منهم ، وتحريره من قبضتهم ، والعمل على المحافظة على الهوية الإسلامية فى سائر البلاد الإسلامية .

الركيزة الثانية

العدل هو ميزان النصر

فى الدنيا والآخرة

تؤكد الآيات أن الله فوق عباده جميعا يأمر بالعدل ، وينهاهم عن الظلم ، ويحذرهم من معية الظلم والعدوان .

وقد تمكن الشيطان من اللعب بهوى اليهود فزين لهم المتع المادية ، وحسن لهم سلطان القوة ، فبغوا وظلموا ، وكان لهم أن استولوا على بيت القدس وعلوا فى الأرض علوا كبيرا .

لقد غاب العدل عن بنى إسرائيل فأذلهم الله تعالى ، وسلط عليهم من سحقهم وأهانهم ، وكلما علوا سقطوا وانهاروا .

وثبت من تاريخ بنى إسرائيل أن العدل أساس الملك ، وطريق النصر ، وسبب الفوز فى الدنيا وفى الآخرة .

وقد بينت الآيات أن بنى إسرائيل كلما أفسدوا سقطوا ، وكلما ظلموا أخرج الله لهم من انتقم منهم .
وثبت بالدليل أن النصر الحقيقى يحتاج إلى الاستقامة ، وإلى العدل فى القول ، والعمل ، والسلوك ، وهذه حقيقة تؤكد ضرورة الاستقامة على الحق ، وطاعة الله سبحانه وتعالى .

الركيزة الثالثة

مسئولية المسلمين تجاه بيت المقدس

يئن بيت المقدس بوضعه الحالى ، فهو تحت سيطرة الصهيونيين ، وهم يحاولون هدمه لقيام حائط الميكي مكانه ، وحرمان المسلمين من المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله .

إن مسؤولية المسلمين أن يقوموا بالعمل الجاد لتحرير المسجد الأقصى من اليهود ، وإعادة أرض فلسطين إلى المسلمين مرة أخرى .

إن وقوع أرض إسلامية تحت يد معادية يوجب الجهاد على المسلمين حتى تعود الأرض إلى أصحابها .

والمسلمون اليوم يتعرضون لمؤامرات عديدة من أعداء الله الذين يعملون لهدم الإسلام ، وإضعاف المسلمين .

وهذا يحتم يقظة المسلمين ، وأخذ الحذر ، والاستقامة على منهج الله تعالى .

يقول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِأَهْدَىٰ دِينٍ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١﴾ .

(١) سورة الصف ، الآية ٨ ، ٩ .

(٦٠)

دور القرآن الكريم فى الدعوة إلى الله

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة فساد بنى إسرائيل وعقوبات الله لهم جاءت هاتان الآيتان لبيان أن القرآن الكريم يهدى للتى أقوم ، ويبشر المؤمنين ، وينذر الكافرين .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الله أنزل القرآن الكريم يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعلمون الصالحات ، وينذر الكافرين بالعذاب الأليم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ أى أن القرآن الكريم المنزل على محمد ﷺ يهدى المؤمنين إلى أصوب وأعدل الطرق القولية والعملية فى الحياة الدنيا ، فهو لأنه منهج الله الذى أنزله للناس ، وبدأت الآية بالتأكيد ،

وأشارت إلى القرآن بـ ﴿ هَذَا ﴾ لبيان قربه الكبير من القلوب والعقول ، وأنه وحده السبيل القويم للهداية والإيمان .

﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أى أن القرآن الكريم يحمل البشرى والأنباء السارة الطيبة للمؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة ، ويجمعون بين الإيمان بالله تعالى والالتزام بكل ما أمر به ، ويقومون بكل عمل صالح دعا الله إليه ... هؤلاء تبشرهم الآية بالأجر الكبير فى الآخرة ، وهو دخول الجنة ، ورؤية الله تعالى .

﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى ومما بينه القرآن الكريم عاقبة الكافرين الذين لا يؤمنون بالله ، ولا يصدقون باليوم الآخر ، فلقد أعد الله للكافرين عذابا مؤلما شديدا .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن القرآن الكريم يهدى للصرط المستقيم ، ويبشر المؤمنين بجنات النعيم ، وينذر الكافرين بعذاب أليم ينالهم فى الآخرة .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

أهمية القرآن

فى الدعوة إلى الله

أنزل الله تعالى القرآن الكريم على رسول الله محمد ﷺ وجعله مصدر الهداية ، وأساس النظم ، ومبدأ الخلق والسلوك ، وترك رسوله الله القرآن الكريم كاملا وتاما

ليستقيم المسلمون على تعاليمه ، ويهتدوا بهديه ، وقد أشارت الآيتان إلى القضايا الرئيسية التالية :

أولاً : يهدى القرآن الكريم إلى الأصوب والأحق في مختلف القضايا ، فهو يهدى إلى الأصوب والحق في العقيدة ، ويفصل هذا الجانب بتوضيح حقيقته واطهار أدلته وآياته ، ورد الشبه والمزاعم التي يثيرها أعداء الإسلام . وهو يدعو إلى الأقوام والأصلح في كافة جوانب الحياة ، بوضع النظم ، وتحديد مقاصد الإسلام الكبرى لتستمر الحياة في سيرها على الأصلح وهو يحدد المسؤولية في الحياة الدنيا ، ويكلف كل إنسان بما وجب عليه . وهو يبين مكارم الأخلاق فيدعو إلى الصدق والأمانة ، والحب والتعاون والمودة ... الخ .

وهو يحقق قضاياه في عالم الواقع ويؤديها بالبراهين والأدلة والآيات .
ثانياً : يربط القرآن الكريم الدنيا بالآخرة ، ويبين أن المسلم الذي يؤمن بالله ، ويتمسك بالإسلام ، ويستمر في عمل الصالحات في الحياة الدنيا ينال خيراً في الآخرة .

يبيشر القرآن الكريم هذا الإنسان بما أعدّه الله له عنده ، ويبين له أنه أجر يستحقه ويناله بعمله الصالح ، وهو أجر كبير ، ينعم فيه بالفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء ، ويرى الله تعالى كما يرى الشمس في وضوح النهار .

ثالثاً : تبين الآيات العقوبة المؤلمة التي أعدّها الله للكفار والمشركين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ويكفرون بالإسلام ... وقد أعد الله لهم العذاب الأليم في الآخرة .

والواجب :

أن يضع المسلمون القرآن الكريم في موضعه ، فهو دستور وقانون ، وهو علم وعمل ، وهو دعوة جادة لدين الله تعالى .

الإنسان الضال يعادى نفسه

يقول الله تعالى :

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيتان السابقتان دور القرآن فى الهداية والدعوة جاءت هذه الآية لتبين تخطيط الضال الذى لا يستفيد بالقرآن الكريم .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الإنسان الضال يعادى نفسه ، ويدعو على نفسه وولده وماله بالشر بدل الخير حين يضطرب ويضجر .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أى أن الإنسان لا يتحمل

المكروه ، وإذا أصيب بضر فإنه يتخبط ويدعو على نفسه ، وماله ، وولده بالشر بدل أن يدعو بالخير والفلاح ، ولذلك لا يستجيب الله له ، لأنه لو استجاب له لأهلكه ، وأهلك من دعا عليه بالشر ، وبذلك يظلم الأبرياء ، ويهلك القوم كلهم .

إن رحمة الله تعالى بالإنسان أنه قضى بعدم عذاب الاستئصال ، وعدم الاستجابة لدعاء البائسين ، والمضطربين .

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ أى أن طبيعة الإنسان الضجر لا يصبر على

سراء ، ولا ضراء ، ويتأثر بالحوادث حين تفاجئه ، وينفعل بالمشيرات المادية .

(٦٤)

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الإنسان الضال يعادى نفسه ، ويتعجل السوء وهو لا يدري ، ويدعو على نفسه بالشر بدل أن يدعو لها بالخير .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

الاضطراب سمة غير المؤمنين

يحقق الإيمان لصاحبه الرضى والهدوء ، لأنه بالإيمان يتيقن بأن كل شئ بقدر الله تعالى ، فما يصيبه من خير أو من شر ، وما يناله من مال ، أو علم ، أو زوجة ، أو ولد مقدر عند الله منذ الأزل ، وذلك يبعده عن التفكير فى الحدث بعد وقوعه ، ويسلم أمره لله ، ويعمل على مرضاته .

إنه قبل العمل يفكر ، ويسعى ، ويرجو من الله التوفيق والسداد ... وبعد وقوع العمل يراه تدبير الله ، فيرضى به على أى صورة حدث ... وبهذا يعيش راضيا ، مطمئنا ... مدركا أن الأمر كله خير له ، لأنه مع السراء يشكر الله ومع الضراء يصبر كما أمر الله تعالى .

أما غير المؤمن فهو مغرور بعقله ، ولا يرى قدرة لغير ذاته ، وحينما تأتى الأحداث بغير مراده يصاب بالجزع والضجر ، ويسيطر الألم والعجز على نفسه وعقله ، ويعود إلى النزعة الغضبية فيها ، ويسيطر عليه الشيطان ، ويأتية من ناحية ميوله ، وأمانيه ، وهو غاضب حزين .

وتشتد حيرته حين يرجو ويطلب فيدعو على نفسه ، وولده ، وماله بالسوء وهو لا يدري وقد يستجيب الله ، فيضيع ماله ، ويهلك أهله ، ويزداد بؤسه وشقاؤه ، وينمو فيه الجانب الشهوى ، ويتعجل النتائج مع أنه لم يعمل لها .

(٦٥)

إن العاقل يوازن بين المؤمن والكافر ليرى أى الرجلين خيرا فى فكره ،
واستقامته ، وتسليمه الأمر لله تعالى .
وعليه أن ينتقل بعد التوازن إلى العمل ، والاستقامة على منهج الله تعالى .

آيتا الليل والنهار

يقول الله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ
مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ
فَصَّلَّيْنَاهُ تَفْصِيلًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن الإنسان إذا عصى ضل وأصبح قلقا فاقدا للنظر
السليم ، فيدعو بالشر دعاءه بالخير جاءت هذه الآية لبيان آيات الله فى الليل
والنهار ليهتدى ويترك الضلال والخبيل .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله خلق الليل والنهار ، وخلق الشمس والقمر لفائدة الإنسان
حتى ينظم حياته ، ويعرف السنين والحساب ، ويتعود على الثبات ، وطاعة الله .
فهو العليم الخبير ، والله ذو الفضل العظيم .

(٦٦)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ أى وخلقنا الليل والنهار لمسار الحياة

الدنيا ، وجعلناهما علمين يدلان على قدرة الله تعالى ، ووحدانيته ، وليعرف الناس بهما أن الله خلق المتضادين ، وقدر ترابطهما ، وجعل حاجة كل منهما للآخر من أوضح البراهين على وحدانية الله تعالى وعظمته فى الخلق والإيجاد .

فلولا الليل ما وجد النهار ، ولولا النهار ما كان لليل قيمة ، ومثلها الشر والخير ، والدنيا والآخرة ، والإيمان والكفر .

﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ أَلِيلِ ﴾ أى طمسنا آية الليل ، وجعلناها مظلمة ، وقدرنا

فيها محو الضوء ، وطمس النور . لا يرى المبصر ما فيها بسبب الظلام الذى يسودها .

﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ أى جعلنا النهار منيرا بضوء الشمس ليرى

الناظر كل شئ أثناء النهار حتى لو غطت السحب شعاع الشمس .

وظلام الليل ونور النهار متضادان متعاقبان ، لا بد من كل منهما للآخر .
ففى ضوء النهار يعمل الإنسان ، ويسعى ، ويكدح ، ويأتى الليل بظلامه لينام الإنسان ويستريح ، ويهدأ ، ويستعد لشقاء يوم جديد .

فإن قيل : فى الليل نور القمر . فكيف نفهم المحو فيه ؟

أقول : إن نور القمر لا يعم الليل كله ، ولا سائر الليالى ، وهو ضعيف لا ينير كل شئ ، وقياسه بضوء الشمس يؤكد المراد من المحو .

﴿ لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى جعل النهار منيرا لتتوصلوا بنوره إلى

مباشرة العمل ، وتعمير الكون ، ومباشرة كافة أنشطة العمران ، وأداء معرفة ما تريدون معرفته للمعاش والحياة .

﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ أى لتعرفوا حركة الزمن ، وتتعلموا الأعداد والحساب ، ولولا التجدد بين الليل والنهار ما علمتم حساب الأوقات ، ولتعطلت الأعمال ، ولتوقفت أمور الحياة .

ولو تصورنا الشمس والقمر بلا حركة ، وبقاء كل منهما فى صورة وجودهما الأول ما عرف الليل والنهار ، ولما تمكن الإنسان من تحديد أوقات العبادات ، وما علم شيئا عن الفصول الأربعة .

إن معرفة الليل والنهار ، وسريانهما فى فلك ثابت يؤدى إلى معرفة عناصر الزمان ، وهى الدقيقة ، والساعة ، واليوم ، والأسبوع ، والشهر ، والسنة ، والعقود ، والقرون .

وذكرت الآية حكمة نور النهار دون ظلام الليل لوضوح نعمة النهار ، واكتفاء بالإدراك العقلى لأن من يرى نعمة السكون والهدوء فى الليل يدرك أهميته بعد العمل والتعب حتى يستريح ويتمكن بعده من استئناف النشاط والحركة .

إن آيات الليل والنهار ، والشمس والقمر من آيات الله الكبرى التى يستفيد بها الإنسان والحيوان ، والزرع ، والنبات وكل ما خلق الله تعالى ، ودلالاتها على توحيد الله تعالى ، وكمال قدرته ، وتمام كل كمال يليق بذاته سبحانه وتعالى .

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ أى وضحنا كل شئ ، وفصلناه تفصيلا واسعا شاملا لكل جوانب الدنيا ، وأحوال الآخرة .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله خلق الليل والنهار ، وجعل الليل لباسا والنهار معاشا ، ومتع الإنسان بهذا ليعمل بالنهار ويرتاح بالليل ، ويتمكن من معرفة الأوقات ، ومعرفة الحساب والأعداد . فقد فصل الله كافة الأمور تفصيلا كبيرا .

(٦٨)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيه

تتضمن الآيه ركيزة هامة ... هى :

دقة الآيات

فى دلالاتها الإيمانية

آيات الله التكوينية والتنزيلية علامات وشواهد على وجود الله ووحدانيته وقدرته .

ونلاحظ فى آيات القرآن الكريم الدقة ، وملامسة الواقع ، حيث تدور الآيات نحو دلالاتها فى عدة خطوات :

فهى . أولا . تحدد المجال ، وتختار منه الجزئيات المؤثرة التى يشهد قوة تأثيرها فى الناس .

وهى . ثانيا . تظهر الجزء المؤثر بصورة وأسلوب أقوى تأثيرا فى المستمعين .

وهى . ثالثا . تبين الفوائد المباشرة للآية ، وبخاصة تلك الفوائد المتصلة بالمدعويين بصورة مباشرة .

ولهذا ذكرت الآيه الليل والنهار ، وركزت على نور النهار وظلام الليل لارتباط حركة الإسلام بهما فهو فى النهار يعمل ويسعى ، ويتحرك ، وهو فى الليل ينام ويستريح ويهدأ ... ومع ذلك يستفيد الإنسان من تتابع الليل والنهار ، ويعلم الحساب ، والعدد ، ومرور الأوقات ، وانقضاء التاريخ .

إن هذه الدقة موجودة فى سائر آيات الله الكونية والتنزيلية ، وفيها درس لكل الدعاة لتقديم البرهان الدقيق ، والبينة المقنعة .

وعلى الدعاة :

الاهتمام بأسلوب الدعوة ، وتقديمه للناس جديدا مثيرا للنظر ، والعقل .

حالة الإنسان يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ۚ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝ مِّنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلهما

لما بينت الآية السابقة آيات الله في الليل والنهار وفائدتها لمصلحة الإنسان وهدايته وذلك مندرج في الترغيب والترهيب جاءت هاتان الآيتان لبيان أحوال الإنسان في الآخرة وهو من نظام الترغيب والترهيب .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيتان أن كل إنسان يحشر في يوم القيامة ومعه عمله يلزمه ، وسوف يظهر كتاب لكل إنسان دونته الملائكة ، فيه حسناته وسيئاته ، ليقرأه ، ويراه يوم القيامة ، ويعلم ما يستحقه في الآخرة .
إن الحساب يوم القيامة دقيق ، وكل إنسان مجزى بعمله ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

(٧٠)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ يصور الله ما يحصل لكل إنسان في الآخرة عند الحساب ، حيث يلزمه عمله الذي قدره الله له ، من خير أو من شر ، ويجزى به .

والمراد بطائره عمله في الدنيا ، وملزمة العمل للعنق كناية عن اللزوم وشدة المصاحبة ، فهو مثل ملازمة العقد والقلادة للعنق .

وخصت الآية العنق بملازمة العمل لأنه محل القلائد ، ومكان الطوق والغل في الإنسان ، وبه يظهر الحسن والجمال ، ويبدو القبح والشتين .
ومعنى الآية أن الإنسان يعيش في الآخرة مع نتيجة عمله في الدنيا إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أى ونظهر لكل إنسان كتابه الذى يحتوى على كل عمله ، فلقد وكل بكل إنسان ملكا يكتبان حسناته وسيئاته في الدنيا ، فإذا جاء أجله ، وتوقف عمله طويت الصفائف في كتاب واحد يعلق في عنقه ، ولا ينشر إلا في يوم القيامة ، ونشره يكون بإظهاره مكتوبا ومصورا أمام صاحبه ، وأمام سائر الخلائق .

﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ أى يخزيه الله تعالى ، ونقول له الملائكة بأمر الله تعالى

إقرأ كتابك ، وتذكر عملك فيقرأه ، ويراه مصورا .

فإن قيل : كيف يقرأ وقد كان أميا في الدنيا لا يعرف القراءة أو كان أعمى ؟

أقول : إن الله يقرئه بقدرته ، ويعيد له حواسه ليقرأ ويرى بنفسه ما فعل في الدنيا .

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أى إقرأ عملك ، وانظر إليه وحاسب نفسك ، وكن حسيبا عادلا ، وهذا بيان لعدل الله تعالى المطلق ورحمته الشاملة ، فقد دعاهم إلى الدين فى الدنيا ، وعرفهم بأن عملهم مكتوب عليهم ، وبين لهم أن سائر أعمالهم مدونة ، وأن كل إنسان معه الملائكة الذين يكتبون كل ما ينطق به وما يعمل ، وقد بين الله ذلك ليكون الإنسان على بينة من أمره ، يعمل لنفسه ، ويقر بعدل الله معه فى الآخرة .

﴿ مِّنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أى أن الكتاب شاهد أمين على عمل الإنسان ، وهو يقدم ما يستحقه الإنسان فى الآخرة عن عمله وحده ، فلا يأخذ ثواب غيره ، ولا يتحمل وزره ... فثواب العمل الصالح مختص بفاعله ، وعقاب الذنب مختص بفاعله أيضا ، ولا يتعدى جزاء العمل صاحبه إلى غيره .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أى لا تحمل نفس مذنبية ذنب غيرها ، ولا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، بل كل إنسان مختص بذنبه وعمله .

فإن قيل : الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، لما رواه ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه^(١) .

وقد ثبت أن جنازة يهودى مرت برسول الله ﷺ ، وأهله يبكون عليه ، فقال ﷺ : إنهم ليبيكون عليها وإنها لتعذب^(٢) . فكيف نفهم هذا على ضوء معنى الآية ؟

أقول : إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه إن كان سببا فيه بأن أمرهم به ، أولم ينههم عنه ، أولم يبين لهم حكمه ، أو شاهده وهى حى وسكت عنه ، مع علمه

(١) صحيح مسلم . كتاب الكسوف . باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه ج ٢ ص ٦٣٨ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الجنائز . باب قول النبى ﷺ يعذب الميت ببكاء أهله ج ٢ ص ٨٠ .

بالحكم ، وقدرته على النهي عنه ، والتحذير من الوقوع فيه ... فهو يعذب لكونه سببا لقول الله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾^(١) .

ويقول ﷺ : "من سن في الإسلام سنة حسنة فلها أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيء"^(٢) .

ويقول ﷺ : "ما من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم كفل من دمها ، ذلك أنه كان أول من سن القتل"^(٣) .

وان قيل : لم تتحمل العاقلة الدية ؟

أقول : تتحمل العاقلة الدية من قبيل التعاون والمساواة وفق نظام شرعه الله في الدنيا للمحافظة على حقوق المقتول ، ولا صلة له بتبعات الآخرة .

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ أي أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدا على ذنب أو كفر إلا بعد أن يرسل رسولا يبلغ دعوة الله تعالى ، وبذلك تسقط معاذيره ، وتبطل حججه ، فقد كفر بعد أن بلغته الرسالة بلغة بينة ووضوح تام .

ومجئ الرسول بالآيات والبراهين إقامة للحجة على الإنسان قبل أن يحاسبه الله تعالى في الآخرة .

(١) سورة النحل ، الآية ٢٥ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الكسوف . باب الحث على الصدقة ج ٢ ص ٧٠٤ .

(٣) سنن الترمذی . كتاب أبواب العلم . باب ما جاء في الدال على الخير ج ٥ ص ٤٢ .

(٧٣)

ومن رحمة الله بالإنسان أن الرسول يأتي للإنسان ويخاطبه ، ويدعوه بالأدلة التي يتصورها العقل ، وتصل به إلى اليقين ، فإذا آمن جاء الرسول بالشرعة التي تنظم حياة الإنسان ، وتعرفه بكافة جوانب الطريق المستقيم .

ولا يصح تفسير الرسول بالعقل لقوله تعالى : ﴿ تَبَعَتْ ﴾ لأن البعث لا يكون إلا بإرسال رسول إلى الناس يبلغهم الوحي الذي ينزل عليه .

فإن قيل : وأين العقل وتقديره ؟

أقول : خطاب الرسل للعقل تقدير له ، واقناعه إثبات لدوره في طاعة الله ، والعمل بشريعته ، وشرط الاقتناع بالآيات والبراهين إشارة واضحة إلى تقدير العقل واهتمام به ، وبيان قيمته في حياة الإنسان .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله يبعث الخلائق يوم القيامة ، ويسوقهم للمحشر ، ويظهر لكل إنسان كتابه الجامع لأعماله ، ويأمره بقراءته فيقرؤه ، ويقر به كما يأمره الله أن يحكم على نفسه ، ويحاسبها .

في يوم القيامة يرى الإنسان نتيجة عمله فمن عمل صالحا ، واستقام على دين الله تعالى فلنفسه ، ومن ضل وبعد عن الاستقامه فوزره لنفسه ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وكل نفس بما كسبت رهينة .

وقد اسقط الله حجج الإنسان فبعث الرسل دعاء إلى الدين ، وهداة للحق ليختار الإنسان عمله بعد البيان والتوضيح .

(٧٤)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

شواهد ثبوت العمل يوم القيامة

يبعث الله الخلائق على ما كانوا عليه فى الدنيا ، ولن يغيب شئ من عملهم وسلوكهم ، ولن يتمكن عاص من الإفلات والهرب لأن الشواهد المثبتة للعمل عديدة حيث تشهد الجوارح ، والأرض ، والملائكة ، ورسول الله ﷺ ، وتتحدث الآيات عن السجل الذى تدون فيه السيئات والحسنات ، الذى يخرج فى كتاب . يقرؤه صاحبه ليعلم استحقاقه لما هو فيه من عذاب ، ويكلفه الله بالنظر والقراءة ليحكم بنفسه على نفسه ، ويجد نفسه مضطرا للحكم الصادق ، لأن الشهود سترد قوله إن كذب فيه .

وسوف يندم العصاة يوم القيامة فى وقت لا ينفع فيه الندم ، فلقد جاءهم الرسول فكذبوه ، واستحقوا اللعنة والعذاب الذى أعده الله لهم .

الركيزة الثانية

الحساب والعقوبة فى الآخرة فردية

الفرد المكلف مسئول عن عمله ، والكل سينال جزاءه إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . يقول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (١) .

(١) سورة الزلزلة ، الآية ٧ ، ٨ .

وقد أعدت الملائكة بأمر الله تعالى كتابا يشمل كل أعمال الإنسان ،
يصحبه ، ويلزمه ويكون معه فى المحشر .

يبحث الظالم يوم القيامة عن نصير ينصره ، أو ولى يتولى أمره ، أو
شافع يشفع له فلا يجد أحدا ... ويتبرأ منه الشيطان . يقول الله تعالى :
﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾^(١) وكل فرد فى البعث مشغول بنفسه يقول الله تعالى : ﴿ لِكُلِّ
أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾^(٢) .

إن يوم البعث شديد ، والحساب دقيق ، والمسئولية فردية . يقول الله تعالى
: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾^(٣) .

والعاقل هو الذى يستعد فى الدنيا لهذا اليوم بالحرص على العمل الصالح
والاستقامة على أمر الله تعالى ليسعد بكتابه أمام الخلائق أجمعين ، وينادى
وهو يرفعه كما حكى الله تعالى فى قوله : ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ ﴾^(٤) إِنِّي طَنَنْتُ
أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَةَ ﴾^(٤) .

فى هذا اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، ولن تخفى خافية فى يوم
الحساب ، ومن رحمة الله تعالى أن عرف الناس بمجريات يوم القيامة ، وحدد
عوامل الفوز ، وأسباب الضياع ، ودعا إلى الحق ، ونادى بالتوبة ، والرجوع
إليه ، وحض كثيرا للاستعداد لهذا اليوم .

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٢٢ .

(٢) سورة عبس ، الآية ٣٧ .

(٣) سورة الدخان ، الآية ٤١ .

(٤) سورة الحاقة ، الآية ١٩ ، ٢٠ .

وبين بوضوح أن كل فرد مسئول عن عمله . يقول الله تعالى : ﴿ مِّنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ^(١) .

إن يوم الآخرة هو يوم الفصل ، وهو يوم الجزاء . يقول الله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رُبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۚ وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ۚ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۚ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ۚ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَاهُ أَحَدًا ۚ يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۚ أَرْجَعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ۚ فَأَدْخُلِي فِي عِبْدِي ۚ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ۚ ﴾ ^(٢) .

ألا ...

فليتنبه الناس ، وإن غدا لناظره قريب .

الركيزة الثالثة

ضرورة التعريف بالإسلام

إن الله تعالى لم يكلف الناس إلا بعد أن أرسل لهم الرسول مصحوباً بأدلة صدقه ، ومبيناً حقيقة الإسلام بالحجج الواضحة ، والبيانات الدالة على صدقة ، وصدق تعاليمه ، ونظمه ... لأن عدم البيان عذر لمن لم يؤمن .

إن الدعاة هم ورثة النبوة ، وعليهم تقع مسئولية التعريف بالإسلام على وجهه الصحيح ، وبخاصة أن خصومه يدعون للناس أنه خاص بالعرب ، أو أنه يؤدي إلى التخلف ، ويخفونه عنهم ... ولذلك كان التعريف الصحيح بالإسلام واجب على المسلمين ، والدعاة في مقدمتهم .

(١) سورة الإسراء ، الآية ١٥ .

(٢) سورة الفجر ، الآيات ٢٢ . ٣٠ .

عاقبة الترف والمترفين

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ۝ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝ كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًا ۖ وَهَنُورًا ۖ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۖ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۖ آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن كل إنسان يحاسب على عمله كاملاً في الآخرة جاءت هذه الآيات للتحذير من الترف ، وتوضيح أن الفسق والكفر أهم جرائم المترفين ، وبيان أن لكل نفس ما قدمت في الدنيا ليختار كل إنسان لنفسه ما يريد

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المترفين هم قادة المعصية ، وأن الله قد أهلك كثيراً من الأمم بعد نوح عليه السلام بسبب معاصيهم ، وتوضيح أن الله يقضى بين الناس يوم القيامة بما يستحقون ، والواجب الاستقامة على أمر الله تعالى في الدنيا .

الدلالات اللغوية

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أى إذا أراد الله أن يهلك أهل قرية ، وذلك

بعد قيام أهلها بما يستحقون به هذا الإهلاك الذى يقع بإرادة الله تعالى وقدرته .
والقرية هى المدينة الكبيرة ، وإرادة الله تعنى القضاء النافذ ، والله منذ الأزل يعلم ما عليه أحلام ، وأمانى كل إنسان ، ويريد له سبحانه ما يناسب أماله وميوله فيقضى به ، ويحاسبه على ميوله النفسية .

﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ فى قوله تعالى : ﴿أَمَرْنَا﴾ ثلاث قراءات

متواترة لإفادة ثلاث معان مختلفة :

القراءة الأولى : "أمرنا" بفتح الهمزة والميم من غير مد الهمزة . ومعناها سهلنا لمترفيها أسباب الترف المؤدى إلى الفساد ، والأمر هنا مجازى لأن الله لا يأمر بالفحشاء ، والمقصود لازم الأمر لأن القوم لما فسدت طوبيتهم أمرهم الله بالطاعة ففسقوا وأفسدوا فحق عليهم القول .

القراءة الثانية : "آمرنا" بفتح الهمزة والميم مع مد الهمزة بمعنى أكثرنا عددهم فغلبوا غيرهم بفسادهم ، وصاروا كثرة فى الناس ، وأصبحت حياة أهل القرية فسادا وفسقا .

القراءة الثالثة : "أمرنا" بفتح الهمزة مخففة من غير مد وتشديد الميم أى جعلناهم أمراء يحكمون الناس ، ويقودونهم إلى الفساد .

يقول النبى ﷺ : "إذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم أسخياءكم ، وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من باطنها ، وإذا كان أمراؤكم شراركم ، وأغنياؤكم بخلاءكم ، وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظاهرها"^(١) .

(١) سنن الترمذى . كتاب بواب الفتن ج ٤ ص ٥٢٩ .

والمترفون هم أصحاب المعاش الوافر ، والنعم الواسعة فى الدنيا ، التى يصرفونها فى شهواتهم ، ومتعهم ، أما من أعطاه الله مالا ، ووسع عليه رزقه فصرفه فى الحق الذى أمر الله به ، فليس من المترفين .

﴿ فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾ أى أن المترفين إذا بدلوا الأمر وفسقوا بدل أن يصلحوا ، أو كثر عددهم ، أو صار الأمراء منهم فإن الفساد سينتشر فى القرية التى فسدوا فيها ، وبذلك يحق عليها التدمير الذى أمر الله به .

﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ أى إذا نزل بهم أمر الله تعالى تم تدميرها تدميرا كليا كما حدث للأمم السابقة فقد استأصلهم العذاب ، وأهلكهم ما نزل بهم .

وهذا الهلاك عقوبة رهيبة تحدث إذا كثر الخبث ، وعم الفساد .

عن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها ذات يوم فزعا ، وهو يقول : لا إله إلا الله ، وبل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج ... "مثل هذه ، وخلق بأصبعيه الإبهام والسبابة" .

قلت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟

قال ﷺ : نعم إذا كثر الخبث^(١) .

وهذا تحذير للعرب من فساد بدأ يظهر بينهم ، يقرب الهلاك منهم ، وتأكيدا لهذا الإنذار قال الله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾

"وكم" خبرية تدل على كثرة من أهلكهم الله تعالى من أهل القرون الذين جاءوا بعد نوح عليه السلام ومنهم قوم هود ، وقوم صالح ، وقوم شعيب ، وقوم لوط عليهم السلام فقد أهلكهم الله تعالى ، وجعلهم مثلا لينذر به مشركى مكة .

(١) صحيح البخارى . كتاب أحاديث الأنبياء . باب قصة يأجوج ومأجوج ج ٤ ص ١٣٨ .

وقد خص الله هؤلاء الأقوام بالذكر لعلم أهل مكة بهم ، ولوجود بقايا مدنهم ومواطنهم ، وقد كان أهل مكة يرونها أثناء رحلات التجارة فى الصيف والشتاء .

﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أى أن علم الله المحيط كاف فى إظهار معاصيهم ، ومعاقبتهم عليها فهو سبحانه عليم بكل خلقه ، بصير بكل ما يبصر ، خبير بسائر ما فى الوجود .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ أى من كان يريد بعمله الدار الدنيا الفانية فقط يعجل الله له فيها ما يشاء تعجيله منها ، وفق مشيئته سبحانه وتعالى .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ أى يقدر الله جهنم لمن يريد العاجلة ، يصطلى بنارها لأنه أغتر بالدنيا ، ونسى الآخرة ، ولذلك استحق جهنم فى الآخرة ، وهو مذموم فى خلقه ، مخذول فى مصيره .

﴿ وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أى ومن قصد بسعيه ثواب الآخرة ، وتمسك بالإيمان ، والتزم فى أعماله المنهج المستقيم .

﴿ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴾ أى من يعمل للآخرة مخلصا فى إيمانه ، صادقاً فى سعيه يشكر الله عمله ، ويثيبه عليه .

﴿ كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًا وَهَنُوًا مِنَّا مِن عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ أى إن كلا من مريدى العاجلة ، ومريدى الآجلة ، يعطيه الله كثيرا من نعمه وفضله ، فمن جعل سعيه للآخرة ، وهو مؤمن بالله يمدده ربه بعطاءه ، ويوسع عليه الرزق ، ويكثر الأولاد وغيرهما من زينة الدنيا ، فإن عطاءه سبحانه وتعالى ليس بالمنوع عن أحد من خلقه مؤمنا كان أو كافرا ، فكلهم مخلوق فى دار العمل

، فوجب إزالة العذر ، ورفع العلة ، وإيصال متاع الدنيا إليهم على القدر الذي يقتضيه صلاحهم ، ثم يختلف مصير الفريقين في الآخرة ، ففريق العاجلة إلى جهنم وبئس المهاد ، وفريق الآجلة إلى جنات تجري من تحتها الأنهار ، ونعم عقبى الدار .

ثم وضع الله ما مر من الإمداد ، وبين عدم محظورية العطاء على أحد فقال تعالى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي انظر يا محمد ، وأخبر أمتك بعطائنا للفريقين في الدنيا ، كيف فضلنا بعضهم على بعض ، فأوصلنا رزقنا إلى مؤمن بالله متمسك بشرع الله ، وقبضناه عن مؤمن آخر ، وأوصلناه إلى كافر ومنعناه عن كافر آخر ، ولهذا حكم وأسباب بينها سبحانه بقوله : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا ﴾ ^(٢) .

﴿ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ أي إن تفاوتهم في الدار الآخرة ، وتفاضلهم فيها أكبر من تفاضلهم في الدار الدنيا ، فإن منهم من يكون في الدرجات السفلى في جهنم ، مصفدا بالسلاسل والأغلال ، ومنهم من يكون في الدرجات العليا في نعيم وحبور ، وكل فريق يتفاوت فيما بينه .
ففي الصحيحين : "إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في السماء" ^(٣) .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٦٥ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية ٣٢ .

(٣) سنن الترمذی . كتاب أبواب المناقب . باب مناقب أبي بكر ج ٥ ص ٦٠٧ .

وقد أعد الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وروى ابن عبد البر عن الحسن البصري رضى الله عنهم قال : حضر جماعة من الناس باب عمر رضي الله عنه وفيهم سهيل بن عمرو القرشي ، وأبو سفيان بن حرب ، وصهيب ، وبلال ، ومشايخ من قريش رضى الله عنهم جميعا ، فأذن عمر رضي الله عنه لصهيب وبلال وأهل بدر ، وكان يحبهم . فقال أبو سفيان : ما رأيت كالיום قط إنه ليؤذن لهؤلاء ، ونحن جلوس لا يلتفت إلينا .

فقال سهيل وكان أعقلهم : أيها القوم إني والله قد أرى الذي في وجوهكم ، فإن كنتم غضايا فاغضبوا على أنفسكم ، إنهم دعوا ودعينا فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر ، فكيف التفاوت في الآخرة ، ولئن حسدتموهم على باب عمر فإن ما أعد الله لهم في الجنة أكبر ... إن القوم قد سبقوكم بما ترون ، ولا سبيل لكم والله إلى ما سبقوكم إليه ، فانظروا هذا الجهاد ... فألزموه عسى الله أن يرزقكم الجهاد والشهادة^(١) .

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ هذا نهى

موجه لكل إنسان مكلف .. والخطاب فيه لرسول الله ﷺ من باب توجيه الأمر والنهي للقائد أولا ، والمقصود به جنوده واتباعه ، وهو نهى عن اتخاذ شريك مع الله تعالى ، فهو مالك الملك ، وله الأمر كله ، وليس له شبيه ، أو شريك ، أو نظير ... لأن القضاء له من قبل ومن بعد ... ومن خالف أمره ، وعبد غيره يعيش في الدنيا وفي الآخرة بعيدا عن الثناء والحمد ، محروما من الفوز والنصر وليس له من دون الله ولي ولا نصير .

(١) المستدرك على الصحيحين . كتاب معرفة الصحابة . ذكر سهيل بن عمرو ج ٣ ص ٣١٨ .

(٨٣)

وبرغم أن النهى فى الآية عام إلا أنه جاء بصيغة المفرد ليعلم كل إنسان أن الأمر خاص به ، وله أهميته ، وأن الاعتقاد مسألة شخصية يسأل عنها كل شخص وقد حذرت الآية من الشرك لما يعقبه من خذلان يقعد صاحبه عن الأمل .
وجاء النهى عمن الشرك لرسول الله ﷺ مع أنه أول المؤمنين لبيان أن قائد الجماعة يتحمل أى تقصير مع قومه ، وأنه المسئول الأول عنهم ... وليعلم من هم أقل منه خطورة الشرك ، وأضراره .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله مطلع على نفوس عباده ، عليم بما يميلون إليه ، فيأمرهم بالطاعة إلا أنهم يفسقون ، ويتخذون من بينهم أمراء ينشرون الفساد فى أهل القرية فينزل بهم قدر الله ، ويدمرهم تدميرا شديدا .

ولقد أهلك الله أقواما كثيرين من بعد نوح ﷺ بسبب كفرهم ، وقد قضى الله بين الناس أن من أراد الدنيا ، ونسى الآخرة ، وفرح بالمتع العاجلة يعجل الله بعض متاعه فى الدنيا ، ولا نصيب له فى الآخرة ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فله الجزاء الحسن فى الآخرة . فلقد جمع الله خلقه فى الدنيا بنعمه وفضله ، وعرفهم بالصراط المستقيم فمن استقام فله الجنة ، ومن عصى الله فلا نصيب له فى الآخرة ، والمتأمل فى عطاء الله يجد عدله ورحمته فهو الله الواحد المستحق للعبادة وحده ، ومن يعبد غيره لا نصير له من دون الله تعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

دور الترف فى الفساد

خلق الله كل شئ ، وقدر له غايته ، وخلق الإنسان ، وكلفه بطاعة الله فى

صراط مستقيم عرفه به ... ويسط رزقه لمن يشاء ، وقدره عمن يشاء ، إلا أن الشيطان (وقد أنظره الله تعالى) تمكن من توجيه نعمتى الصحة والمال فى الإنسان إلى غير ما أمر الله به . فصرف الإنسان شبابه وصحته فى شهوات مادية وغرائز فاسدة ، وأنفق المال على غير وجهه ، وأسرف فى المعاصى والفساد ، وبذلك كثر السرف ، وانتشر التبذير ، وشاعت المعاصى .

وقد حذر الله من الترف ، والفسق ، والمعاصى ، وبين أنها تؤدى إلى خراب العمران ، وانزال عقوبة الله على الظالمين .

لقد بينت الآيات أن كثيرا من الأمم السابقة أهلكها الله تعالى بسبب ظهور الترف والفسق فى أغنيائها ، وأمرائها ليحذر غيرهم من هذا المصير الكئيب .
إن الله عليم بجميع خلقه ، بصير لأعمالهم ، ولن يخفى على الله من الناس شئ ما ...

إن الأمر يحتاج إلى الاستقامة ، وترك الترف ، ومقاطعة المترفين ، وعدم الثقة فيهم ، وعدم توليتهم ولايات عامة أو خاصة ليستقيم الأمر ، وينجو المؤمنون .

الركيزة الثانية

الآخرة هى دار الفصل والجزاء

الدنيا هى دار السعى ، والعمل ، والآخرة هى دار الحساب والجزاء ، ولذلك يمد الله سائر الناس بفضله وعطائه ، وفق إرادته ومشيئته ، فمن أراد الدنيا ونسى الآخرة أعطاه الله بعض ما عمل له ، وليس له فى الآخرة من نصيب .
ومن أراد الآخرة ، وسعى لها فى الدنيا ، وهو مؤمن أعطاه الله فى الدنيا بعض ما يريد ، ويسر له الطاعة ، وأدخله الجنة ومتعته برضوان الله تعالى .

وهكذا ...

أعطى الله جميع خلقه أرزاقهم فى الدنيا ، إلا أنه خص نعيم الآخرة بمن عمل لها جزاء من ربك عطاء حسابا .

وهذا يدفع إلى عدم الاغترار بمظاهر الدنيا . فقد يعلو بها عاص وينتصر فيها ظالم ، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .

ويوم القيامة هو يوم الفصل والجزاء . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي

نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي حَجِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ

﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا

تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾ ۝ (١)

الركيزة الثالثة

ضرورة الإخلاص

فى العبودية لله تعالى

الله رب العالمين إله واحد ، خلق فسوى ، وقدر فهدى ، وعلى الإنسان أن يستقيم لله ، ويؤمن به ، ويطيعه وحده ، ويبتعد ابتعادا تاما عن الشرك بصورة ظاهرة أو خفية حتى يبعث يوم القيامة سعيدا بعمله ، متمتعا برضوان ربه ، فرحا بمقعده مع الصالحين والقانتين .

إن الخزى والسوء سيحل يوم القيامة على الكافرين والمشركين والعصاة وسيكونون محل اللوم ، والتأنيب ، والذم ، والخذلان .

والإنسان فى الدنيا يعمل للآخرة فلينتبه العقلاء ، وليحذروا الخزى يوم القيامة .

(١) سورة الانفطار ، الآيات ١٩ . ١٣ . ١٩ .

تشريعات بناء المجتمع الصالح

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَهَرَّهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ ﴿٢٢﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۖ ﴿٢٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ۖ ﴿٢٤﴾ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبَذِيرًا ۖ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۖ ﴿٢٦﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۖ ﴿٢٧﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۖ ﴿٢٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۖ ﴿٢٩﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ۖ ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۖ ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۖ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّهُ سُلْطٰنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ۚ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ۖ ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۚ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۖ ﴿٣٣﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۖ ﴿٣٤﴾ وَلَا

(٨٧)

تَقَفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٨٧﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٨٨﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الناس يفترقون إلى فريقين فريق يعمل للدنيا وينسى الآخرة ، وفريق يعمل للآخرة ، ويسعى لها في الدنيا . جاءت هذه الآيات لتوضيح بعض الأحكام الشرعية التي قضى بها سبحانه وتعالى ، وأوجبها على سائر المؤمنين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تتضمن الآيات عددا من الأحكام التي شرعها الله لإصلاح الحياة ، وبناء أركانها على أسس سليمة تبني الإنسان الصالح ، وتخرج الأمة الصالحة ، وهي أحكام بدأ تشريعها قبل الهجرة .

وظهور هذه التشريعات في مكة تعريض بالمشركون لأنهم خالفوا هذه التشريعات بصورة واضحة .

وسوف أوضح هذه الأحكام حكما حكما من خلال دلالة آيات كل حكم ، على أن اتبع كل حكم ببيان معناه وسوف أورد أهم الركائز في نهاية تفسير الأحكام كلها .

ملحوظة هامة

نلاحظ أن مضمون الأحكام الشرعية ورد في حديث القرآن الكريم عن الأمم الماضية في سورة "الأنعام" الذى وجه الله الخطاب فيها إلى المشركين ، ليعرفوا قواعد ضلالهم، وفيها يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ^ط أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ^ط وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا ^ط وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ^ط نَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ^ط وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ^ط وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥٦﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ^ط وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ^ط لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ^ط وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ^ط وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٧﴾ ١٥٦ . وقد

اختلف الأسلوب فى هذه الآيات التى تحدثت عن المشركين عنه فى الآيات هنا . فمن هذا الاختلاف بين الأسلوبين أن الآيات هنا بدأت بفعل يفيد الإلزام والاقتضاء هو ﴿ وَقَضَى ﴾ وهو مناسب لخطاب أمة تمتثل أمر ربها ، وتعريف لها بواجباتها الشرعية ... أما فى سورة "الأنعام" فهو مجرد عرض لأهم ما عليه المشركين من مخالفة لما حرم ربهم عليهم .

ومن الاختلاف أن الآيات هنا جعلت أول ما قضى الله به هو عبادة الله وحده ، وهو أساس طاعته فى كل ما أمر الله به من أحكام ... بينما سورة "الأنعام" تحدثت عن المحرم على المشركين وأوله الإشراف بالله تعالى .

(٨٩)

وان الآيات هنا فصلت الأحكام ليؤديها المؤمن عالما بتفاصيلها . بينما جاء إيرادها في سورة "الأنعام" مجملا لإظهار ضلالات المشركين .

فإن قيل : سبق الاقتضاء لبنى إسرائيل في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ فلم القول بأن اقتضاء الأحكام نزل خاصا بالمؤمنين ؟

أقول : إن معنى قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ قدرنا ، وحكمنا ، وليس بمعنى ألزمتنا كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ .

وبعد ذكر هذه الملاحظة نورد الأحكام الشرعية التي قضى الله بها حكما حكما بتوفيق الله تعالى .

الحكم الأول من خلال دلالة الآيات

- ٣ -

العبادة لله وحده

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ أى حكم الله حكما ملزما لا بد منه للإيمان وهو عبادة الله وحده ، وعدم عبادة غيره ...

وهذا الحكم ضرورة حتمية لازمه لأمر :

أولها : أن العبودية أساس التأليه ، والإعراض عنها كفر وضلال ، فمن عبد غير الله فقد أشرك ، ولا يصح أن يعود الإنسان إلى الكفر بعد الإيمان .

ثانيها : أن العبودية أساس الطاعة ، لأن الطاعة تقوم على الحب والخوف ممتزجين في النفس البشرية ، فمن أحب أطاع محبوبه ، ومن خشيه تجنب مخالفته

(٩٠)

ثالثها : أن عبودية الإنسان تجعله يعيش فى الدنيا متوازنا مع كون الله المخلوق . يقول الله تعالى : ﴿ **إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا** ﴾ ^(١) . ويقول سبحانه : ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ ^(٢) .

رابعها : أن العبادة هى الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن له حق الإنعام والإفضال على عباده ، ولا منعم إلا الله فكان هو المستحق للعبادة وحده .

خامسها : إن الإنسان خلق مفطورا على العبودية التى ولد عليها ، ولا يصح له أن ينتكس عن أصل خلقته ، وعليه أن يتجنب نزغات الشيطان ، ويداوم على طاعة الله ، ويسعد بعبوديته الله تعالى .

إن العبودية لله تاج على رعوس الصالحين ، يسعدون به فى الدنيا ، وينعمون بها فى الآخرة ، ولذلك كان أول ما قضى الله به ، وألزم به المؤمنين هو أن لا يعبدوا إلا الله ، وقد بينت الآية دواعى هذه العبودية فى ربوبية الله المنعم المتفضل فى قوله : ﴿ **رَبُّكَ** ﴾ .

وقد بدأت الآيات بهذا الحكم الهام الذى لابد منه لكل عمل ... وأى عمل بدونه لا يكون مقبولا مهما كان شأنه .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية فى جزئها الأول أن العبادة لا تكون إلا لله تعالى ، وذلك حكم الله وأمره ، ولا يصح غيره ، وبه يستقيم الأمر ، ويتحقق الدين فى الواقع العملى فى حياة الناس .

(٢) سورة النحل ، الآية ٤٩ .

(١) سورة مريم ، الآية ٩٣ .

(٩١)

الحكم الثانى
من خلال دلالة الآيات

- ٣ -

بر الوالدين

﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ الواو حرف عطف ما بعدها على ما قبلها ،
وقدمت الجار والمجرور ﴿وَالْوَالِدَيْنِ﴾ لبيان اختصاصه بالإحسان ، وحاجته
إليه ، وقد حكم الله ، والزم الأبناء ببر الوالدين ، والإحسان إليهما بأن قرن كثيرا
بين عبادة الله وحده وبر الوالدين . يقول الله تعالى : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا
بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ
رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾^(٢) .

وربطت الآية بين الأمر بعبادة الله تعالى وبين الإحسان للوالدين ، لأن
الله هو الذى أوجد وخلق فاستحق أن يعبد ، والأبوان هما مظهر إيجاد الولد
فاستحقا الإحسان .

إن الأبوين يتحملان الكثير من أجل الولد ، ويحرصان على سلامته ،
ويسهران على حمايته والمحافظة عليه .

ثم لا يقف أمر الوالدين عند حد ولادة المولود ، بل إنهما يقومان على
أمره ، ويسهران على كفالاته ، وتنشئته ، حتى يجاوز مرحلة الطفولة والصبا ،
وفى مرحلة الشباب لا تنقطع رعاية الأبوين ، ولا عنايتهما بأولادهما ... ويبقى
حرص الوالدين على أبنائهما مع امتداد العمر .

(١) سورة النساء ، الآية ٣٦ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٥١ .

ومن هنا كان للأبوين حق البر في عنق الأبناء ، وهو حق توجبه المروءة ، وتقتضيه العدالة ، قبل أن يوجبه الدين ، وتقتضيه الشريعة ...

وقد دعت الشريعة إلى أداء هذا الحق ، في صورة عامة مجملة ، وهو الإحسان إليهما ، لصورة مطلقة ، الذي يشمل كل خير ، ويضم كل إحسان ... سواء بالقول ، أو بالعمل ... فكل ما هو داخل في باب الإحسان ينبغي على الأبناء أن يقدموه إلى آبائهم ... ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ .

وجاء الأمر للأبناء دون الآباء لأن إحسان الآباء للأبناء أمر جبلي فطري لا يحتاج فيه الآباء إلى التوجيه والأمر .

وقد حفلت السنة النبوية بالإرشادات الكثيرة التي توجه إلى ضرورة بر الوالدين ، وحسن مصاحبتهم ، والإحسان إليهما .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحبتي ؟

قال : أمك ، ثم أمك ، ثم أباك ، ثم أدناك فأدناك ^(١) .

وعنه رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : رغم أنفه ، رغم أنفه ، رغم أنفه قيل : من يا رسول الله ؟

قال : من أدرك والديه عند الكبر ، أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة ^(٢) .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "لن يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه" ^(٣) .

(١) صحيح ابن حبان . كتاب البر والإحسان . باب حق الوالدين ج ٢ ص ١٧٧ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب البر والصلة والآداب . باب رغم أنف من أدرك أبويه ج ٤ ص ١٩٧٨ .

(٣) شرح مشكل الآثار ج ١٣ ص ٤٣٩ .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : "جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد .

فقال له ﷺ : أحي والداك ؟

قال : نعم .

قال ﷺ : ففيهما فجاهد" (١) .

وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : "رضا الرب في رضا الوالد وسخط الرب في سخط الوالد" (٢) .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله تعالى .

وقال : الصلاة لوقتها .

قلت : ثم أي ؟

قال : بر الوالدين .

قلت : ثم أي ؟

قال : الجهاد في سبيل الله تعالى" (٣) .

ولقد بالغ عز وجل في التوصية بهما ، حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده سبحانه ، ونظمها في سلك القضاء بهما معا ، ثم ضيق الأمر في باب مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر ، مع ماله من موجبات الضجر ، وختمها بأن جعل رحمته التي وسعت كل شيء مشبهة بتربيتهما .

(١) صحيح البخارى . كتاب الجهاد والسير . باب الجهاد بإذن الأبوين ج ٤ ص ٥٩ .

(٢) المستدرک على الصحيحين للحاكم . كتاب البر والصلة ج ٤ ص ١٦٨ .

(٣) شرح مشكل الآثار ج ٥ ص ٣٦٨ .

إن الولد قطعة من أبيه تتحرك على الأرض ، ولذلك يستمر الأب حريصا
على ابنه ، ولو بلغ به العمر مبلغه ... وصدق من قال :
أولادنا أكبادنا

تمشى على الأرض

إذا هبت الريح على بعضهم

امتنعت عيني عن الغمض

وقد فصلت الآيات صورة الواجب على الأبناء فى برهم لآبائهم فقال تعالى
: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا
تَهَرَّهْمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ ﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ
الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۖ ﴾ أي إذا وصل الوالدان
عندك ، أو أحدهما إلى حال الضعف والعجز ، وصارا عندك فى آخر العمر ،
كما كنت عندهما فى أوله . وجب عليك أن تشفق عليهما ، وتحنو لهما
وتعاملهما معاملة الشاكر لمن أنعم عليه ، ويتجلى ذلك بأن تتبع معهما
الأمر الخمسة الآتية :

(أ) ألا تتأفف من شئ تراه من أحدهما أو منهما مما يتأذى به الناس ولا
تضجر بأدنى رموز الضجر وهو أن تقول لهما ﴿ أُفٍّ ﴾ ، ولكن اصبر
على ما تتأذى به منهما ، واحتسب الأجر عليه ، كما صبرا عليك فى
صغرك .

(ب) ألا تتغص عليهما بكلام تزجرهما به ، وفى هذا منع من إظهار المخالفة
لهما بالقول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما وهذا معنى ﴿ وَلَا
تَهَرَّهْمَا ﴾ .

(ج) أن تقول لهما قولا حسنا ، وكلاما طيبا ، مقرونا بالاحترام والتعظيم ، مما يقتضيه حسن الأدب ، وترشد إليه المروءة ، كأن تقول يا أبتاه ويا أماه ، ولا تدعوهما بأسمائهما ، ولا ترفع صوتك أمامهما ، ولا تحديق فيهما بنظرك .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي الهذاج قال : قلت لسعيد بن المسيب : كل ما ذكر الله تعالى في القرآن من بر الوالدين فقد عرفته إلا قوله : ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أى ما هذا القول الكريم .

فقال ابن المسيب : قول العبد المذنب للسيد اللفظ^(١) .

(د) أن تتواضع لهما وتتذلل ، وتطيعهما فيما أمراك به مما لم يكن معصية لله رحمة منك بهما وشفقة عليهما ، إذ هما قد احتاجا إلى من كان أفقر الخلق إليهما ، وذلك منتهى ما يكون من الضراعة والمسكنة . وقوله : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ أى كن ذليلا أمامهما ، ومتواضعا فى تعاملك معهما ، وأن يكون ذلك التذلل رحمة بهما ، لا من أجل امتثال الأمر ، وخوف العار فقط ، فتذكر نفسك بما تقدم لهما من الإحسان إليك ، وبما أمرت به من الشفقة والحدب عليهما . وقد مثل حاله معهما بحال الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه لتربيته ، فإنه يخفض له جناحه ، فكأنه قال للولد : اكفل والديك ، بأن تضمهما إلى نفسك ، كما فعلا ذلك حال صغرك .

(هـ) أن تدعو الله أن يرحمهما برحمته الباقية ، كفاء رحمتها لك فى صغرك وجميل شفقتها عليك تطبيقا لقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ .

(١) الجامع لابن وهب . باب الأسماء ج ١ ص ١٧٢ .

وعلى الجملة فقد بالغ سبحانه فى التوصية بهما من وجوه كثيرة ، وكفاهما أن شفع الإحسان إليهما بتوحيده ، ونظمهما فى سلك القضاء بهما معا .
وبر الوالدين واجب الأبناء ، وطاعتهم ضرورية ، وإن لم يكونا مسلمين يقول الله تعالى :

- ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

- ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلُهَا فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۖ ﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) ، والآيات توضح ضرورة إحسان الأولاد لأبائهم ، ولو كانا مشركين ، ولو دعوا إلى الشرك .

ولما وفدت أم أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما إليها جاءت إلى رسول الله ﷺ وقالت له : يا رسول الله إن أُمى جاءت إلى وهى راغبة (أى فى وصلى) أأصل أُمى ؟
قال لها ﷺ : نعم صلى أمك (٣) .

ولا يقف البر على حياة الآباء بل هو ممتد بعد وفاتهما . فقد ثبت أن رسول الله ﷺ سئل : هل بقى من بر أبوى شئ أبرهما به بعد موتهما ؟

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٨ .

(٢) سورة لقمان ، الآية ١٤ ، ١٥ .

(٣) صحيح مسلم . كتاب الكسوف . باب فضل النفقة ج ٢ ص ٦٩٦ .

قال ﷺ : نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وانفاد عهدهما ، واکرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما^(١) ، فهذا الذى بقى من برهما بعد موتهما .

وبر الوالدين يجب أن يكون نابعا من القلب ، ومرتبطا بنية حب الوالدين والإخلاص في خدمتهما وقصد المحافظة على حقهما ، ولذلك قال الله تعالى :

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ

لِلْأَوَّيِينَ ﴿١٠﴾ أَى أَنْ اللَّهَ أَعْلَمَ مِنْكُمْ بِمَا فِى أَنْفُسِكُمْ ، مُحِيطٌ بِمَدَى

بركم بآبائكم ، فاحذروا أى عقوق منكم ، يلحق بهم ، وهو سبحانه مطلع على نياتكم فإن كنتم صالحين فى طاعة الآباء ، وبرهما رفع شأنكم ، وأجل عطاءكم ، وقبل توبتكم ، وغفر ذنوبكم ، وأما إن كان حالكم عقوقا فإن عقاب الله شديد .

إن الوالد يرى الولد جزءا منه ، ولا يتصوره إلا مطيعا ، صاغرا ، ولذلك كان عقوقه سيفا قاطعا ، وسكيناً يدمى القلب ، ويقتل الروح ، ويولد عند الآباء الحسرة والألم .

يروى أن رجلا جاء للنبي ﷺ يقول له : إن ابني له مال كثير ، ولا ينفق علي ، فنزل جبريل وأخبر النبي أن الرجل انشد في ولده شعرا قال فيه :

غذوتك مولودا وعلتك يافعا .: .: تعل بما أجنى عليك وتتهل

إذا ليلة ضاقتك بالسقم لم أبت .: لسقمك إلا ساهرا أتململ

كأني أنا المطروق دونك بالذي .: طرقت به دوني فعيني تهمل

(١) سنن أبي داود . كتاب الأدب . باب في بر الوالدين ج ٤ ص ٣٣٦ .

(٩٨)

تخاف الردى نفسى عليك وانها .: لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي .: إليها مدى ما كنت فيك أوامل
جعلت جزائى غلظة وفضاظة .: كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى .: فعلت كما الجار المجاور يفعل

ولذلك :

كان من حسن التربية الإسلامية تكليف الأبناء بالمحافظة على حقوق
أصحاب الفضل . فالله هو صاحب الفضل العظيم ، والآباء هم رحماء الدنيا
على الأبناء ، ومن أراد أن يعرف دور الآباء فليتنظر لولده حينما يصير أبا ليعلم
أن آباءه فعلوا معه مثل ما يفعله مع ابنه مع تغاير الامكانات ، والطاقات .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أمر الله الملزم ، وقضائه الواجب فى بر الوالدين ، والإحسان
إليهما ، فإذا بلغا الكبر أحدهما أو كلاهما فليتنجب الولد إيذاءهما بأدنى كلمة ،
وأقل فعل ، ولا يزرجهما أبدا ، وليكن حسنا فى قوله ، وتصرفاته معهما ، وليكن
شفوقا بهما ... وليعلم أن الله تعالى عليم به فإذا صلح مع والديه وفقه الله وغفر
له ، وبربه ابنه بعد ذلك ، وإن كان عاقا لهما فجزاؤه أليم فى الدنيا والاخرة .

(٩٩)

الحكم الثالث
من خلال دلالة الآيات

— ٣ —

المحافظة على حقوق ذوى القربى والضعفاء

﴿ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ يأمر الله فى

هذه الآية بإيتاء ذوى القربى حقوقهم ، وذوو القربى هم الأقرب إلى الإنسان نسبا ، ومكانا ، وذلك يشمل الإخوة ، والأخوات ، والأهل ، والأقارب ، والجيران ، والضيوف ، فهؤلاء لهم حقوق عديدة فلهم حق القرابة القريبة ، وحق الإخوة الإنسانية ، وحق المواساة والتعاون ... يقول الله تعالى :

— ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ

وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ

بِالْجُنُبِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ

مُخْتَلًا فَخُورًا ۚ ﴾^(١) .

— ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ

مِنْكُمْ ۚ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ۚ ﴾^(٢) .

(١) سورة النساء ، الآية ٣٦ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٧٥ .

ويقول النبي ﷺ : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره"^(١) .

ويقول ﷺ : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه"^(٢) .

وكما أمرت الآية بإيتاء ذوى القربى حقوقهم أمرت بأداء حق المسكين وابن السبيل فلهما فى الزكاة المفروضة نصيب ، ولهما فى غير الزكاة حقوق .
ومقصد الإسلام من الاهتمام بذوى القربى وذوى الحاجات فى المجتمع تحقيق غاية نفسية ، وغاية عمرانية .

أما الغاية النفسية فهى تربية الناس على المحافظة على حقوق الآخرين ، والاعتراف بدورهم فى المجتمع ، واحساس الإنسان بأنه عضو فى المجتمع الإسلامى الكبير .

وأما الغاية العمرانية فهى أن يتعاون الجميع على إقامة المجتمع الإسلامى على أساس النصرة والولاء ليقوم كل بدوره فى تبليغ الإسلام ، وإقامة منهج الله بين الناس .

لقد أمر الله بصلة الرحم ، وحذر من قطعها ، وقضى على أعذار يعتذر بها من يقطع رحمه . يقول النبي ﷺ :

– ليس الواصل بالمكافئ إنما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة^(٣) .

– من سره أن ينسأ له فى أثره ، وأن يبسط له فى رزقه فليصل رحمه^(٤) .

وبهذا الحكم يتحول المجتمع المسلم إلى مجتمع متماسك مترابط .

(١) صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب الوصاة بالنساء ج ٧ ص ٢٦ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب الحث على إكرام الجار والضيف ج ١ ص ٦٨ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب الأدب . باب ليس الواصل بالمكافئ ج ٨ ص ٦ .

(٤) صحيح البخارى . كتاب البيوع . باب من أحب البسط فى الرزق ج ٣ ص ٥٩ .

(١٠١)

- ٤ -

معنى الآية

تأمر الآية بالمحافظة على حقوق ذوى القربى والضعفاء والمحتاجين فى المجتمع ليتماسك الجميع ، ويحققوا التكافل الاجتماعى السليم .

الحكم الرابع والخامس من خلال دلالة الآيات

- ٣ -

التوسط فى الإنفاق وترك التبذير والشح

﴿ وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا ﴾ أى لما أمر الله بالإنفاق على ذوى القربى واليتامى والمساكين وضع حدا لهذا الإنفاق فنهى سبحانه وتعالى عن التبذير وقال : ﴿ وَلَا تُبْذِرْ ﴾ وأكد به بقوله تعالى : ﴿ تَبْذِيرًا ﴾ ، والمراد بالتبذير صرف المال فى غير وجهه ، أو بصورة مبالغ فيها ، أو إنفاقه فى المعاصى والشهوات ، والمظاهر الكاذبة ، والخيلاء ، والتعالى .
والإنفاق المشروع هو إنفاق المال فى الجوانب الشرعية مع التوسط ، يقول الله تعالى فى وصف إنفاق عباد الله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾^(١) .

وذهب كثير من العلماء إلى أن الإنفاق فى الخير لا يعد إسرافا . قال عثمان بن الأسود رضي الله عنه : كنت أطوف المساجد مع مجاهد رضي الله عنه حول الكعبة فرفع رأسه إلى أبى قبيس (جبل بمكة) وقال : لو أن رجلا أنفق مثل هذا فى طاعة

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٧ .

(١٠٢)

الله لم يكن من المسرفين ، ولو أنفق درهما واحدا فى معصية الله كان من المسرفين^(١) .

وأنفق بعضهم نفقة فى خير وأكثر فقل له : لا خير فى السرف ، فقال : لا سرف فى الخير^(٢) .

وذهب بعض العلماء إلى أن الاقتصار على إخراج الزكاة كاف فى الإنفاق فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : أتى رجل من تميم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني ذو مال كثير ، وذو أهل ، وولد ، وحاضرة ، فأخبرني كيف أنفق ، وكيف أصنع ؟

فقال رسول الله ﷺ : تخرج الزكاة من مالك إن كان ، فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقباءك ، وتعرف حق السائل والجار والمسكين .

فقال : يا رسول الله أقلل لى .

قال ﷺ : فات ذا القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل ، ولا تبذر تبذيرا" .

فقال الرجل : حسبي يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك ، فقد برئت منها إلى الله ورسوله .

فقال رسول الله ﷺ : نعم إذا أديتها إلى رسولى فقد برئت منها ، ولك أجرها ، واثمها على من بد لها^(٣) .

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ أى أن السفهاء الذين

يبدرون أموالهم فى المعاصى ، ويبعدوا عن طاعة الله تعالى يتعودون ذلك ، ويصير لهم خلقا دائما ، وبذلك يشبهون الشياطين ، ويصيرون إخوانا لهم .

(١) أخبار مكة للفاكهى ج ١ ص ٢٠٩ .

(٢) تفسير المراغى ج ١٥ ص ٢٥٠ .

(٣) مسند الإمام أحمد . مسند أنس ج ١٩ ص ٣٨٦ .

﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أى وكان الشيطان جاحدا لنعم ربه ،

لا يشكره ولا يطيعه ، ومن يعمل عمله يضل مثله .

﴿وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ هُمْ قَوْلًا

مَيَّسُورًا﴾ أى أن أعرضت عن ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين لعدم وجود

ما يريدونه معك ، حياء منهم ، وانتظارا لفرج الله ، والحصول على ما يطلبون ،

إن حدث ذلك فحدثهم حديثا طيبا سهلا يطيّب خاطرهم ، ولا تعرض عنهم ...

وكان بلال ، وصهيب ، وخباب ، ومهجع عليهم السلام يأتون النبى ﷺ

يسألونه فى وقت لا يجد فيه ما يعطيهم ، فيعرض عنهم حياء منهم ، ويمسك

عن الحديث معهم رجاء أن يأتيه رزق من الله فيعطيه ، فأخبره الله تعالى بأن

الأولى عدم الإعراض عنهم ، وأن يقول لهم قولا جميلا يسرى عنهم ، ويؤملهم

كأن يقول لهم : ليس عندنا شئ فمتى يأتينا نعرف حقكم ... أو أعطانا الله

واياكم ، ... أو يسر الله لى ولكم .

والخطاب فى الآية للنبى ﷺ وهو عام لجميع الأمة فى كل زمان ومكان

وهو يفيد أن حسن القول ، وتجديد الأمل مستحب من الأخ لأخيه ، حتى وهو

يحتاج لعطاء .

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ

فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ أى وكما نهت الآيات عن التبذير نهت عن التقدير

بأروع أسلوب ، وأحسنه . والمعنى لا تكن بخيلا منوعا ، لا تعطى أحدا شيئا

... ولا تسرف فى الإنفاق فتعطى فوق طاقتك ، وتخرج أكثر من دخلك فإنك إن

بخلت كنت ملوما مذموما ، وإن أسرفت كنت من إخوان الشياطين .

إن الإسراف يسارع فى إضاعة المال ، ويحول الغنى إلى فقير ، محتاج وحينئذ تتحقق الحسرة والندامة .

والمطلوب هو التوسط فى النفقة يقول النبى ﷺ : " ما عال من اقتصد" (١) .
وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : "الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة" (٢) .

وروى عن أنس رضي الله عنه مرفوعا : "التدبير نصف المعيشة ، والتودد نصف العقل ، والههم نصف الهرم ، وقلة العيال أحد اليسارين" (٣) .
وقيل : حسن التدبير مع العفاف ، خير من الغنى مع الإسراف (٤) .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى أن الله هو الرزاق يوسع لمن يشاء ، ويقدره لمن يشاء ، ولذلك وجب طاعته فيما أمر وقدر .
﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى عليم بعباده ، خبير بكل أحد ، يرزقهم بحكمه ، ويشرع لهم ما يصلح حالهم فى الدنيا وفى الآخرة .

- ٤ -

معنى الآيات

تأمر الآيات بتجنب التبذير والإسراف لأن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ولأن هذا التبذير يبعدهم عن الله تعالى ، وتوجه الآيات إلى ضرورة القول الحسن للسائل بدل الإعراض عنه ، وتأمر بترك البخل والتقتير ، وينادى بالتوسط ، وتطبيق أمر الله فى المال فيبذل الله كل شئ ، وهو العليم الخبير .

(١) المعجم الكبير للطبرانى ج ١٠ ص ١٠٨ .

(٢) المعجم الأوسط للطبرانى ج ٧ ص ٢٥ .

(٣) حلية الأولياء وطبقة الأصفياء ج ٣ ص ١٩٤ .

(٤) شعب الإيمان . باب الاقتصاد فى النفقة ج ٨ ص ٥١١ .

(١٠٥)

الحكم السادس
من خلال دلالة الآيات

— ٣ —

النهى عن وأد البنات

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ أى لا تقتلوا أولادكم خوفا من فقر تتوقعونه بكثرة الأولاد ، وهذا نهى عما كان العرب يفعلونه ببناتهم خوفا عليهم من العار ، والحاجة ، والهزيمة ، وحفاظا عليهن من الأسر والاستعباد .
فوأد العرب للبنات ليس كراهية وغلظة من الآباء ، لأنهم كانوا يئدونهم شفقة عليهم ، وخوفا من إذلالهم واتخاذهم إماء ... وقلة من العرب كانوا يئدون خوف الفقر .

ومما يدل على أن وأد العربى لبناته نشأ من حبهم لهن ، قول بعضهم :

لقد زاد الحياة إلى حبا .: بناتي إنهن من الضعاف
أحاذر أن يرين الفقر بعدي .: وأن يشربن عكرا بعد صاف
وأن يعرين إن كسى الجواري .: فتنبو العين عن كوم عجاف^(١)
ولولا ذاك قد سومت مهري .: وفى الرحمن للضعفاء كاف
﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أى أن الله هو الرزاق لكل مخلوق فهو الذى

يرزق الرجال ، ويرزق البنات .

وقد شاع بين الناس فى العصر الحديث فكرة منع النسل خوف الفقر والحاجة ، وهذا أمر أجمع العلماء على تحريمه لأنه يتعارض مع الإيمان بأن الله هو الرزاق ، حتى أن العلماء الذين أجازوا تنظيم النسل أو تحديده منعوا أن يكون خوف الفقر من التنظيم أو التحديد سببا له .

(١) الكوم : جمع كوما ، وهى الناقة الفتية ، والعجاف : جمع عجفاء ، وهى الهزيلة .

(١٠٦)

﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ أى أن واد البنات كان خطأ كبيراً
واثماً عظيماً .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟
قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك .
قلت : ثم أى ؟
قال : أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك .
قلت : ثم أي ؟
قال : أن تزاني حليلة جارك ^(١) .

- ٤ -

معنى الآية

تأمر الآية بعدم قتل البنات وعدم وأدهن خوفا من الفقر فالله هو الرزاق
وتبين الآية أن قتل البنات بسبب الرزق خطأ كبير .

الحكم السابع
من خلال دلالة الآيات

- ٣ -

البعد عن الزنى ودواعيه

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى ﴾ نهت الآية عن مقاربة الزنى ، وهذا يعنى تحريم
دواعيه ، ومنع مقدماته كالملامسة ، والمغازلة ، والمهازلة ، والنظر ... وغير
ذلك من الأمور التى تؤدى إلى الزنى ... وتحريم مقدمات الزنى بيان لشدة
سوئه ، وظهور حرمة لأن النهى عن المقدمات يؤكد النهى عن الفعل نفسه .

(١) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب قوله : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا ﴾ ج ٦ ص ١٨ .

والزنى فى اصطلاح الإسلام مجامعة الرجل امرأة حرة غير زوجته ، وهو يختلف عن البغاء ، لأن البغاء هو مجامعة الرجل أمة غير مملوكة له .

﴿ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً ﴾ هذا تعليل سبب النهى عن الزنى فهو فاحشة فى ذاته ، بلغ الحد الأقصى من القبح فى نظر العقل ، وحكم الشرع .
وجاء الوصف مقترنا بـ ﴿ كَانَ ﴾ لبيان أن الفحش فى الزنى وصف مستقر عن العقلاء سواء علمه الناس من آيات القرآن الكريم أم لم يعلموه فلقد كانوا من الموقنين بهذا الوصف وأيضاً لبيان أن الأمم السابقة كانت تستقبحه وتتفر منه .
﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ أى أن الزنى عمل فاحش ، وسلوكه عمل مذموم سئ فى ذاته ، وفى حياة الناس .

وأهم مظاهر السوء فى الزنى ما يلى :

(١) اختلاط الأنساب واشتباهاها ، وإذا اشتبه المرء فى الولد الذي أتت به أمه الزانية ، وشك فيه ، وسأل نفسه ، أهو منه ؟ أم من غيره ؟ لا يقوم بتربيته ، ولا يستمر فى تعهده ، وذلك مما يوجب إضاعة النسل ، وخراب العالم .

(٢) فتح باب الهرج ، والمرج ، والاضطراب بين الناس دفاعاً عن العرض فكم سمعنا بحوادث قتل كان مبعثها الإقدام على الزنا ، حتى إنه ليقال عند السماع بحادث قتل : (فتش عن المرأة) .

(٣) إن المرأة إذا عرفت بالزنا ، واشتهرت به استقذرها كل ذى طبع سليم ، فلا تحدث ألفة بينها وبين زوجها ، ولا يتم السكن والازدواج الذي جعله الله

مودة ، ورحمة بين الناس، يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ

مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۖ ﴾^(١)

(٤) إن المقصد من المرأة ليس مجرد قضاء الشهوة ، بل أن تصير شريكة

للرجل فى ترتيب المنزل ، واعداد مهامه من مطعوم ، ومشروب ، وملبوس ، وأن تكون حافظة له ، قائمة بشؤون الأولاد والخدم ، وهذه المهام لا تتم على وجه الكمال إلا إذا كانت المرأة مختصة برجل واحد منقطعة له دون غيره من الناس .

وقد اهتم الإسلام بتحريم الزنى فحرم مقدماته ، ودلت أحداث الناس على ما يحدثه الزنى من خلل فى الأسرة ، وفى المجتمع بصورة عامة ، فهو فى الأسرة يفسدها ، ويعطل الزواج ، وهو فى المجتمع ينشر الهرج والتقاتل ويضع الأنساب والحقوق .

وقد جعل الإسلام من مقاصده الكبرى حماية العرض فشرع كل ما يحافظ عليه بالتعليم ، والستر ، وعدم الاختلاط ، والطهر ، والعفاف ، وشرع من الحدود والتعازير ما يكفل حماية الأعراض .

والأمة الإسلامية . اليوم . معرضة لهجمة شرسة منظمة تعمل على إغراقها فى الفحشاء وذلك بتيسير أسبابه ، والإكثار من دواعيه ، ونشر فكرة الحرية بين الشباب لتكون الميوعة ، والخلاعة ، والمتع المادية أساس الحياة الحديثة .

إن بيوت الأزياء ، وأماكن عرضها ، ومسابقات الجمال ، وقصص الحب والمجون التى تعرضها السينما والمسرح غزو منظم لوضع الشباب والشابات فى بوتقة الثقافة الغربية ، بعيدا عن الإسلام الذى يؤمنون به .

(١) سورة الروم ، الآية ٢١ .

(١٠٩)

وهذه فتنة وقع فيها كثير من الشباب ، اتبعوا بها غرائزهم ، وانصرفوا عن الزواج ، وصاروا لا يعرفون استقرارا فى حياة أسرية كريمة .

- ٤ -

معنى الآية

تتهى الآية عن الزنى ودواعيه ومقدماته ، وتبين أنه عمل قبيح بالغ النهاية فى السوء ، وله آثاره المدمرة فى المجتمع .

الحكم الثامن من خلال دلالة الآيات

- ٣ -

تحريم قتل النفس

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أى لا تقتلوا أى نفس فقد حرم الله قتلها إلا فى أمر معلوم محدد بالحق ، وهو مذكور فى قوله ﷺ : "لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث ، النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة"^(١) . والأصل فى القتل هو الحرمة المغلظة ، وحل القتل إنما ثبت بسبب عارض ، فلما كان كذلك نهى الله عن القتل على حكم الأصل ثم استثنى الحالة التي يحصل فيها حل القتل ، وهي الأسباب العرضية فقال : ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ . والحالات التي أجاز الشارع فيها قتل النفس تكون للحاكم المسلم ، يقضى به ، وينفذه ، وليس ذلك للأفراد يأخذونه بأيديهم .

(١) صحيح مسلم . كتاب القسامة . باب ما يباح به دم المسلم ج ٣ ص ١٣٠٢ .

وقد شرع الإسلام حرمة الدم ، وحماية الأنفس ، صيانة للأرواح ، وضمانة لحق الحياة ، ومنعا من الفساد والضرر ، وتنشيتا لسيادة الدولة فى الإسلام .

﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ﴾ أى أن من قتل مظلوما بغير حق يوجب قتله فقد جعلنا لوليه ، من وارث أو سلطان ، تسلطا على المعتدى يأخذ حقه منه بالقصاص ، أو بالدية . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾^(١) . ويقول النبى ﷺ : "من قتل قتيلا فأهله بين خيرين إن أحبوا قتلوا ، وإن أحبوا أخذوا الدية"^(٢) .

﴿ فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ﴾ أى على ولى الدم أن يكتفى بقتل نفس واحدة ، ولا يفعل ما كان يفعله المشركون من التجاوز والإسراف فى القتل .
﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا مَنْصُورًا ﴾ أى أن الله ينصره فى استيفاء حقه ، ويأمر الحكام أن يعينوه على استيفاء حقه . فقد سبق ذلك فى حكم الله تعالى .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية حرمة قتل الناس بغير حق ، وتوضح أن الله أعطى لولى المقتول أن يأخذ حقه بالقصاص من غير إسراف أو تجاوز للحد المشروع .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٧٩ .

(٢) المعجم الكبير للطبرانى ج ٢٢ ص ١٨٦ .

(١١١)

الحكم التاسع
من خلال دلالة الآيات

- ٣ -

وجوب المحافظة على مال اليتيم

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أى لا تأخذوا من

مال اليتيم شيئا حتى يرشد ، ويتولى أمر نفسه ، ويتصرف فى ماله .
وكان النهى عن القرب من المال مبالغة فى حماية المال الخاص باليتيم
فلقد كان الناس قبل الإسلام يستهينون بالضعفاء ، ويستولون على أموالهم ،
فأمرهم الله بعدم القرب من مال اليتامى إلا بالطريقة الحسنة التى تتميه ، وتزيده
، وتحفظه .

﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ أى حتى يكمل عقله ، ويبلغ رشده ، ويمكنه أن

يقوم بمصالح ماله ونفسه .

ولما نزلت الآية أمرت باتباع الطريقة الأحسن فى مال اليتيم خاف الصحابة
من مخالطة اليتامى حتى لا يفحوا فى شئ من مالهم فقاطعوهم فنزل قوله تعالى
: ﴿ وَإِنْ تَخَالَطَوْهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾^(١) .

- ٤ -

معنى الآية

تأمر الآية بضرورة المحافظة على مال اليتيم إلى أن يكبر ويصبر رشيدا
فى تصرفاته وعمله .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٢٠ .

(١١٢)

الحكم العاشر
من خلال دلالة الآيات

— ٣ —

ضرورة الوفاء بالعهود

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ الألف واللام للجنس فهو شامل لكل عهد . والمعنى أوفوا بكل ما التزمت به مع الله ، ومع الناس . فقد عاهدتم الله على الانقياد والطاعة وأنتم فى الذر ، وعاهدتم وتعاهدون الناس فى سائر شئون معاشكم ، وحافظوا على الوجه الشرعى الذى حدده الله للوفاء بالعهود .

﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ أى إن الله سبحانه وتعالى سيسأل على سائر العقود والمواثيق التى التزم الإنسان بها .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية ضرورة الوفاء بالعهود مع الله ومع الناس لأن الإنسان مسئول عن كل ما عاهد عليه ، ومجزى به .

الحكم الحادى عشر والثانى عشر
من خلال دلالة الآيات

— ٣ —

إيفاء الكيل ، والعدل فى الموزن

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ أى أتموا الكيل للناس إذا كلتم لهم لأن ذلك حقهم فلا تنقصوه ، وإذا كلتم لأنفسكم فلا تزيدوا عليه .

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أى أعدلوا فى أخذ واعطاء ما يوزن

فلا تنقصوا إذا بعتم ، ولا تزيدوا إذا اشتريتم .

وقد أوجب الله العدل فى الكيل والوزن لأهميتها فى معاش الناس فكل إنسان يحتاج إليهما فى البيع والشراء ، وجاء التحذير من التطفيف فى الكيل والميزان . فقال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ^(١) .

﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أى هذا العدل فى الكيل والوزن خير

لكم من التطفيف ، وأفضل عند الله ، وعند الناس ، وأحسن عاقبة من غيره .
 ووجه ذلك أن النظر إذا جال فى منافع التطفيف فى الكيل والوزن وفى مضار الإيفاء فيهما ، ثم عاد فجال فى مضار التطفيف ، ومنافع الإيفاء استقر إلى أن الإيفاء بهما ، خير من التطفيف ، لأن التطفيف يعود على المطفف باقتناء جزء قليل من المال ، ويكسبه الكراهية والذم عند الناس ، وغضب الله والسحت فى ماله مع احتقار نفسه فى نفسه ، والإيفاء بعكس ذلك يكسبه ميل الناس إليه ، ورضى الله عنه ورضاه عن نفسه والبركة فى ماله ^(٢) .

- ٤ -

معنى الآية

تأمر الآية النبى ﷺ ومن ورائه أمته بالعدل فى كيل المكيل ، ووزن الموزون لأن أن ذلك أفضل لشئون الحياة وتحقيق الخير فى الدنيا وفى الآخرة .

(١) سورة المطففين ، الآيات ٥ . ١ .

(٢) التحرير والتتوير ج ١٥ ص ٩٩ .

(١١٤)

الحكم الثالث عشر
من دلالة الآيات

- ٣ -

ضرورة اتباع الحق وترك الأوهام

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أى لا تتبع ما لا علم لك به ، واترك

الأوهام والظنون ، فما ضل الناس إلا باتباع الهوى ، وتصديق الأكاذيب .
ويلاحظ أن لفظ هذه الآية وما بعدها جاء خطابا للمفرد مخالفا للآيات السابقة التى جاء أمرها أو نهيتها للجماعة ، وسبب ذلك . والله أعلم . أن المنهى عنه فى الآيات السابقة يدور حول أمور لا تتم إلا بأكثر من شخص . أما هذه الآية وما بعدها فهو عمل فردى لا يشاركه فيه غيره ، ولا يعلمه إلا الله تعالى والآية توضح الدستور الذى يحقق سعادة الدنيا والآخرة ، وهو طلب الحق واتباعه بعد ثبوته بأدلتة الصادقة ، والبعد التام عن الظنون واتهام الآخر بما ليس فيه ، وملازمة الصدق فى كل حال .

يقول ابن عباس : اتباع الحق أن لا تصدق إلا بما رأيته عيناك وسمعته أذنك ، ووعاه قلبك^(١) .

ويقول قتادة : لا تقل سمعت وأنت لم تسمع ، ولا رأيت وأنت لم تر ، ولا علمت وأنت لم تعلم .

وقد نهى الله تعالى عن الظن يقول الله تعالى : ﴿ أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾^(٢) .

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ١٥٩ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٢ .

ويقول النبي ﷺ : "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ، ولا تباغضوا ، وكونوا إخواناً" (١) .

وعن شكل بن حميد رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ فقلت : يا نبي الله علمني تعويذا أتعوذ به .

فأخذ رسول الله ﷺ بيدي . ثم قال لي : قل أعوذ بك من شر سمعي ، وشر بصرى ، وشر فؤادي ، وشر لساني ، وشر قلبي ، وشر مني (٢) .
ويقول النبي ﷺ : "إن أفرى الفرى أن يرى الرجل عينيه في المنام ما لم تريا" (٣) .

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ أى إن

السمع ، والبصر ، والفؤاد أجهزة خلقها الله في الإنسان ليصل بها إلى الحق واليقين ، وتلك سبل العلم في الإنسان فالحواس للإدراك الحسى ، والفؤاد للإدراك العقلى ... وعند ظهور المعجزة يكون الإدراك الإشرافى .
وسيئال الله الإنسان عن مدى استفادته بجوارحه ، وسيئال الجوارح عما قدمت لصاحبها .

إن الواجب على الإنسان أن يتثبت من كل خبر ، ومن كل ظاهرة ، ومن كل حركة قبل الحكم عليها ، وهذه هي دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق ، ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج الذى جاء به الوحي لم يبق مجال للوهم ، والخرافة ، في عالم العقيدة ، وفي عالم الحكم والقضاء والتعامل ، ولا مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث ، والتجارب ، والعلوم بعد ذلك .

(١) صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب لا يخطب على خطبة أخيه ج ٧ ص ١٩ .

(٢) سنن النسائى . كتاب الاستعاذة . باب الاستعاذة من شر السمع والبصر ج ٨ ص ٢٥٥ .

(٣) شعب الإيمان . كتاب تعديد نعم الله . فصل في الرؤيا ج ٦ ص ٤٢٧ .

(١١٦)

والأمانة العلمية التي يشيد بها العلماء في العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعثها الكبرى ، ويجعل الإنسان مسؤولاً يوم القيامة عن سمعه ، وبصره ، وفؤاده ، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد . يقول النبي ﷺ : " لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع :

عن عمره فيم أفناه .

وعن شبابه فيم أبلاه ؟

وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟

وعن علمه ماذا عمل به^(١) .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية المنهج الذى يجب اتباعه ، وهو اتباع الحق الثابت الذى لا شك فيه لأن الظن لا يحقق صوابا ، ولا يجدى نفعا ، وسيسأل الله الإنسان عن جوارحه ، وأعمالها .

الحكم الرابع عشر
من خلال دلالة الآيات

- ٣ -

ترك الكبر والخيلاء

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أى لا تمشى متبخترا متمايلا مثل

مشى الجبارين المتكبرين الذين يغترون بالدنيا ، ويستغرقون فى الاستعلاء ، ويتصورون أن ما أتاهاهم الله به تميزا شخصيا فيهم ، فينسبون الله ، ويتكبرون

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب الورع والزهد . باب فى القيامة ج ٤ ص ٦١٢ .

على الناس ... وكان عليهم أن ينظروا إلى خلق الله فى الكون ويتأملوا فى مخلوقات أضخم ، وأعلى خضعت وامتلئت ليتعلموا منها .

﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ أى إنك

أيها المتكبر لن تتمكن من اختراق الأرض ، ولن تملك قوة توصلك لذلك فلم تتكبر ؟ ... وانك ايها المتكبر لن تصل إلى طول الجبال ، وضخامتها . فلم هذا التكبر !؟

إن العقل يدعو إلى الفهم والنظر فى ملكوت الله الفسيح ، وينادى بوضع النفس فى موضعها ، ويحث أصحاب النعم أن يعلموا أن الله هو صاحب الفضل .

والمحمود من الإنسان أن يأخذ طريقا وسطا ... فيستعمل قواه وملكاته بحكمة ، واعتدال ، ثم إذا بدا له أنه ممن آتاهم الله بصيرة نافذة ، وعقلا راجحا ، فلا يكن ذلك داعية له إلى التعالي على الناس ، وإلى الإعجاب بنفسه ، وإلى الزهو بعلمه ... لأنه مهما بلغ من قوة وعلم ، فإنه إنسان ، وفى حدود البشرية ينبغى أن يعيش .. وانه مهما بلغ من قوة ، فلن يخرق الأرض بقدميه الواهيتين ، إذ يضرب بهما وهو يسير فى الأرض مرحا ... وانه مهما شمش بأنفه ، ونفخ فى أوداجه فلن يطاول الجبال ... فلم إذن هذا الضرب على الأرض بالقدمين ؟ ولم هذا التشامخ بالأنف والتطاول بالعنق ؟ إن ذلك عناد لا جدوى منه ، ولا طائل تحته ! ... والواجب عليه أن يأخذ لنفسه حقها ، ويحافظ على حقوق الآخرين ، فى تواضع كريم ، وعزة حسنة ، وأخوة أصيلة تحقق الحب ، والتعاون ، والتماسك .

إن الفضل كله لله تعالى ، وعلى العاقل أن يستفيد بعطاء الله ، ويتواضع لخالقه ، ويمشى على الأرض بهدوء واستسلام ، ويكون مثل عباد الله الصالحين : ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾^(١) !

يقول الله في الحديث القدسي : "العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى فى أحدهما ألقينه فى جهنم"^(٢) .

ويقول ﷺ : "من تواضع لله رفعه"^(٣) فهو فى نفسه بتواضعه حقير ، وعند الناس كبير ، ومن استكبر وضعه الله تعالى ، فهو فى نفسه كبير ، وعند الناس حقير .

ويقول ﷺ : "لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر"^(٤) .
وعن علي عليه السلام أن رسول الله كان إذا مشى تكفأ تكفأ كأنما ينحط من صبيب^(٥) .

وعن أبى هريرة عليه السلام أنه قال : ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجرى فى وجهه ، وما رأيت أحدا أسرع فى مشيه من رسول الله ﷺ كأنما الأرض تطوى له ، إنا لنجهد أنفسنا ، وهو غير مكترث^(٦) .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٣ .

(٢) مسند الشهاب القضاعى ج ٢ ص ٣٣١ .

(٣) مسند ابن أبى شيبه . كتاب الزهد . باب كلام سلمان ج ٧ ص ١٢٠ .

(٤) صحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب تحريم الكبر ج ١ ص ٩٣ .

(٥) سنن الترمذى . كتاب أبواب المناقب باب ما جاء فى صفة النبى ﷺ ج ٥ ص ٥٩٨ .

(٦) سنن الترمذى . كتاب أبواب المناقب . باب فى صفة النبى ﷺ ج ٦ ص ٤٧ .

(١١٩)

- ٤ -

معنى الآية

تأمر الآية بترك الكبر والخيلاء فى المظهر والمخبر ، وعدم الغرور بالدنيا لأن الإنسان ضعيف ، أمام خلق الله ، فهو لن يبلغ طول الجبال ، ولن يتمكن من اختراق الأرض .

بيان ماهية الأحكام السابقة

يقول الله تعالى :

﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ (٢٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٢٩﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

بعد أن بينت الآيات السابقة الأحكام الواجبة التى شرعها الله فى رسالاته الله كلها جاءت هاتان الآيتان لتبين ماهية هذه الأحكام .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الأحكام السابقة تحتاج إلى الطاعة لأهميتها ، وقد أوجبه الله على خلقه فى سائر رسالاته ، لأن إهمالها عمل سئ يكرهه الله تعالى ، ولا يرضى به ... وتتميز هذه الأحكام بإحكامها ، ووضوحها ، وثبوتها فى الإسلام ، وفى الأديان السابقة ، فهى لا تتغير ولا تتبدل ، وتوضح أن هذه الأحكام مرتبطة بالاعتقاد الصحيح .

(١٢٠)

فقد صدرت هذه الآيات بالأمر بتوحيد الله ، وقصر العبادة له سبحانه ،
وختمت بنفس الأمر لبيان أهمية الالتزام بهذه الأحكام ، مرتبطة بالإيمان بالله
تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ كُلُّ ذَلِكَ ﴾ الإشارة تعود إلى الأحكام المذكورة بدليل تصدير الآية بـ
﴿ كُلُّ ﴾ السور الكلى الدال على الشمول لسائر الأحكام السابقة .
والأولى بهذه الإشارة أن تكون للأحكام السابقة كلها بدل أن نجعله خاصا
بالحكم الأخير المذكور فى الآية السابقة كما ذهب البعض ، وعلى هذا يعود
اسم الإشارة ﴿ ذَلِكَ ﴾ فى هذه الآية والآية التالية لها إلى الأحكام السابقة .

﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ أى كل هذه الأحكام
المذكورة (أمر أو نهيا) تحتاج إلى الالتزام والتطبيق ، لأن المخالفة للأمر
وللنهى سوء يكرهه الله تعالى ، وكراهية الله لأمر ما كافية فى تجنبه ، وتحريمه
.

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ أى أن هذه الأحكام مما
أوحى الله بها ، وبذلك نجد فيها عناية الرب بعبيده ، وقيامها على الإحكام
الدقيق ، والتفصيل التام ... ونرى شمولها للعقيدة ، والحث على أنواع البر
والطاعات التى تنظم الحياة ، وتقيمها على الترابط والاصلاح ... وتأمر بترك
المعاصى ، وهجر مغريات الدنيا ، وضرورة الإقبال على الآخرة ... وكل ذلك
من الحكمة .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾

أى لا تجعل مع الله إلها آخر تخصصه بالعبادة ، لأن عبادة غير الله تعالى جهل فى العقل ، وخطأ فى العمل ، وضرر فى النتيجة .

أما الجهل العقلى فسببه أن المشرك يتخذ مع الله شركاء من الأصنام والأوثان التى لا تدرك ، ولا تفهم ، ولا تقدر ، وهذا لا يتم إلا بظلام العقل ، وضلال الفؤاد ، لأنه يساوى فى الاعتقاد من لا يخلق بمن يخلق ، وهو فى حياته العامة لا يساوى الأعمى بالبصير ، والظلمات بالنور ، والذين يعلمون بالذين لا يعلمون ، وفى هذا جهل كبير .

وأما خطأ العمل فسببه إن الإنسان خلق لعبادة الله ، وجاء الرسل لدعوته إلى الله ، إلا أن المشرك بدل أن يعبد كفر ، وبدل أن يطيع الرسول ، ويؤمن بالله عارض الرسول ، وكفر بالله ، وعاش بالفحشاء والمنكر .

وأما ضرر النتيجة فهو الجزاء الأليم الذى يصيبه فى الآخرة ، إذ يلقيه الله فى جهنم ، فيقعدها فيها ملوما مدحورا يلوم نفسه ، ويلومه غيره ، ويبقى فى جهنم مطرودا من كل خير .

ونلاحظ أن هذه الأحكام صدرت بالنهى عن عبادة غير الله تعالى وختمت بالنهى نفسه مع اختلاف التذييل فى الآيتين .

يقول الله تعالى فى الآية الأولى : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ .

ويقول سبحانه وتعالى فى الآية الثانية : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ ... وذلك لبيان ارتباط الأحكام الشرعية المذكورة بالعبودية الخالصة لله تعالى ، وأى عبادة خالية من هذه العبودية لا قيمة لها .

(١٢٢)

وفى الآية الأولى يظهر المشرك مذموما مخذولا ، ويظهر فى الآية الثانية ملوما مدحورا ولكل ذلك معناه وصورته .

أما كونه مذموما فمعناه أن يذكر له قبح الذى أقدم عليه فيذم به ...
وأما كونه مخذولا فمعناه أن يضعف ، ويشعر بالهوان والمذلة بلا حديث معه أو منه ...

وأما كونه ملوما فإنه يسأل عن الفعل القبيح الذى عمله ويقال له :
لم فعلت هذا ؟

وما الذى حملك عليه ؟
وما فائدته لك ؟ ...

وأما كونه مدحورا فمعناه أن يطرده الله من رحمته ، ويلعنه ، ويبعده عن كل خير .

فالمشرك فى الدنيا يكون مذموما مخذولا بمعنى أنه يكون محل الذم والضعف ، وفى الآخرة يكون ملوما مدحورا بمعنى توجيه اللوم إليه ، وابعاده عن رحمة الله ورضوانه .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الأحكام المذكورة فى الآيات السابقة واجبة لإصلاح الفرد والجماعة ومن خالفها فقد ارتكب عملا سيئا يكرهه الله تعالى .

وقد شرع الله هذه الأحكام فى كل الأديان التى بعث بها رسل الله عليهم السلام فهى محكمة ثابتة ، والواجب على الإنسان أن يلتزم بها ، فهى شرع الله الواحد الأحد المستحق للعبادة . مالك الملك ، وهو على كل شئ قدير .

(١٢٣)

- ٥ -

الركائز الكلية فى الآيات

تتضمن الآيات التى وضحت الأحكام الشرعية الواجبة صورة كاملة لمنهج الإسلام فى بناء الإنسان ، وإصلاح الجماعة ، وربط الإنسان بخالقه سبحانه وتعالى ، وهذا المنهج يقوم على الركائز التالية :

الركيزة الأولى

ضرورة تأصيل العقيدة

فى النفس البشرية

- العقيدة أساس الدين كله ، وهو صورة دقيقة للإنسان ، فوزن الإنسان فى الدنيا والآخرة بالعقيدة التى آمن بها ... وترجع هذه الأهمية للعقيدة لما يلى :
- (١) العقيدة هى القاعدة فى النفس والضمير التى لا تتحقق إلا بالفهم ، والرضى ، والافتناع .
 - (٢) تقوم العقيدة على وضوح تام ، وتفصيل كامل ، وحين يؤمن بها صاحبها لا يحتاج لبيان آخر .
 - (٣) الاعتقاد يقوم على اختيار حر لا يصلح معه أى ضغط لأن ما بالنفس لا يطلع عليه غير صاحبه من الناس ، ولذلك لا يتصور إكراه معه ... فقد يكره ظاهر الإنسان . أما باطنه فلا إكراه فيه ، ولذلك اعتبر القلب أساس الحساب عند الله تعالى . يقول الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾^(١) ، وقد رأينا الضغوط المادية العنيفة ضد أصحاب العقيدة إلا أنهم يستسلمون ظاهرا أمام الضغوط ، وتبقى معهم عقيدتهم إلى أن يتمكنوا من إظهارها فى وقت آخر .

(١) سورة النحل ، الآية ١٠٦ .

(٤) يمتد تأثير العقيدة إلى العمل ، والسلوك ، والخلق ، ولذلك حين يتلاقى الظاهر مع الباطن يشعر الإنسان بقوة دافعة ، ونشاط سليم ، وسعادة غامرة .

(٥) العقيدة أساس البناء للفرد والجماعة ، ولذلك قامت الجماعات البشرية مهما كانت توجهها بالبناء العقدي عن الأفراد والجماعات ليتم البناء على دعائم مبنية ثابتة ، وقد رأينا رسول الله ﷺ يبدأ بالدعوة إلى العقيدة ولم تنتقل دعوته إلى الشريعة والسلوك إلا بعد أن تمكنت العقيدة من القلوب ، واستقرت بها .

وبناء العقيدة يحتاج إلى العلم ، واليقين ، والتأصيل ، لأن العلم يعرف بالعقيدة ، ويوضح أركانها ، ويناقش كافة المعارف التي تدور حولها ... فلا بد من الوقوف على مفهوم الوحدانية ، ومفهوم الشرك والتعدد ، ومعرفة حجج الكافرين ، ومزاعم الضالين .

ومع العلم يأتي الإقناع بالحق ، واطهار الآيات والبراهين التي تؤدي إلى هذا الإقناع ، لينتقل الإنسان به إلى يقين تام ، يسيطر سيطرة كلية على ضميره ، ويجعله يتمسك بالمعتقد ، ويؤمن بدواعيه ، ولوازمه فترجع أعماله وأخلاقه ، وشعوره ، ومشاعره إلى هذه العقيدة التي يتيقنها .

ولذا قال العلماء : إن العقيدة تصنع الإنسان ، والإنسان بعقيدته يطبق الحكم الشرعي في حياته بعد ذلك .

والغاية الكبرى للدعوة تأصيل الاعتقاد في الناس ليصير رمزا مميزا لهم .

وقد اتبعت الآيات منهاجا في تأصيل العقيدة في حياة الناس يقوم على

النقاط التالية :

أولا : بيان أصول الاعتقاد :

(١٢٥)

وضحت الآيات أن الله إله واحد خلق فسوى ، وأعطى كل خلقه ثم هدى .

ثانيا : رد معارضى الاعتقاد الصحيح :

إن معارضى الإسلام الذين أبوا توحيد الله ذهبوا إلى أمور :

أولاهما : أن الله شركاء يعبدونهم ليقربوهم إلى الله ، ويستشفعون بهم عند الحاجة .

ثانيها : أنهم قسموا الأبناء بينهم وبين الله فجعلوا لله البنات ، ولهم الذكور

ثالثها : أنهم يفرون عند ذكر الحق ، ولا يريدون الاستماع إليه ،

وينتكثون عند سماعه ، ظنا منهم أنهم على الحق وحدهم .

وقد رد الله هذه المعارضات بالتفصيل ، فبين لهم أن الله إله واحد ، منزه

من أى نقص ، ليس له شريك ، ولا شبيه لم يتخذ والدة ولا ولدا ، ووضح هذا البيان بالبراهين الواضحة .

فالكون كله خلق الله ، والسماوات وما فيها ، والأرض وما عليها ، وكل ما

عدهما مخلوق حادث ، يؤدى الدور الذى خلقه الله له ، وكل ما خلق الله يسبح

بحمد الله تعالى ، وعلى الإنسان أن ينظر فى كل الخلق ليرى الله :

- سبرى الله فى شروق الشمس وغروبها ، وظهور القمر وغيبابه فى حركة متتابعة لا تتوقف ولا تتبدل .

- وسبرى الله فى الليل يستريح فيه ، والنهار ينشط خلاله ، وفيهما تيسير الحياة ، وتحقيق المنافع .

- وسبرى الله فى الزرع والشجر والنبات ، وارتباط ثمره بالليل والنهار والهواء والماء .

- وسبرى الله فى الدواب والأنعام وهو يرى ما تقدمه له من العديد من المنافع التى يحتاج إليها .

- وسيرى الله فى نحلة تطير ، ونملة تحبو ، وطير يملكه الله فى جو السماء .

- وسيرى الله فى ذاته من عقل يتصور ، ويفكر ، ويقرر ، ومن عين تنتظر ومن أذن تسمع ، ومن رجل تمشى ، ومن يد تبطش ، ومن مفاصل تمكنه من التثنى ، ومن أجهزة للأكل والهضم ، وتتنقية الدم ، وتوزيعه .
وفى كل شئ له شاهد . ∴ تدل على أنه الواحد

فالله خالق ، قادر ، منزه عن مشابهة الحوادث ... وهو سبحانه رحيم بعباده يدعوهم للحق وهم عصاة ، ويكرر دعوته وهم لا يفقهون ، ويؤجل عقوبتهم وهم لا يعتبرون ، ويغفر لهم إن تابوا ورجعوا إليه .
وكان من فضل الله ورحمته أن ناقش المشركين فى شركهم بأدلة عقلية تتناسب أفهامهم .

فبالنسبة للأصنام والأوثان وضح لهم استحالة أن يكونوا آلهة لعدة أسباب :

(١) أنهم لا يسمعون ، ولا يفهمون ، ولا يدافعون عن أنفسهم ، وواقعهم يؤكد ذلك ، فهم جماد أصم ، وسيستمرون على ذلك .

(٢) إن الأصنام لو كانت آلهة لحاولت أن تتصل بالله الأكبر لتغلبه وتصير الألوهية خالصة لها ... أو تتصل به لتستعين به ، وهذا لم يحدث أيضا ولو حدث لثبت عجزها وحاجتها ، وبهذا يثبت عدم صلاحية الأصنام للألوهية .

وبالنسبة لقسمة الذرية تسأل الآية عن سبب هذه القسمة ، وعن جوازها لأن الأبناء والبنات هم أبائهم من زوجاتهم ، فمن أنى جاءوا بالقسمة ؟ ولم يئدون البنات ؟ وهن ليسوا لهم بقسمتهم ؟ وهل يملكون القدرة على التحكم فى المستقبل فيفعلون ما يفعلون ؟ ... وبذلك ثبت ضلالهم .

(١٢٧)

ولا يبقى بعد الشرك إلا التوحيد الذى يقوم على اليقين التام ، والعبودية القانئة ... إن الاستقامة هى طريق الخير ، وما عداها فهو سوء لا يرضى الله به .

الركيزة الثانية

إعلاء مقام النبى ﷺ

الرسول هو مبلغ الدعوة للناس ، ودوره هو تبليغ الإسلام على وجهه الصحيح، ولذلك أمره الله تعالى بإحسان القول، ومخاطبة الناس بما يفهمون وعرفه دور الكلمة الطيبة ليلتزم بها، ويعرف الدعاة ليعلموا طريقهم إلى الله ﷻ ، إن الدين يتفق مع العقل السليم ، ولذلك كان الوحي بناء للإنسان ، وتعريفا بكل صواب مشروع .

إن مقام رسول الله عند الله عظيم ، وفضله على الناس كبير فهو طريقهم إلى الله وبواسطته ﷺ جاءهم الوحي ، ومن أجل الإسلام تحمل المشاق ، وترك الوطن والأهل ، وجاهد فى الله حق الجهاد ، ولم ينتقل إلى الله إلا بعد أن صارت كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

الركيزة الثالثة

رقى الإنسان بعمله وخلقه

تعمل الأحكام المذكورة فى الآيات إلى إيجاد الإنسان المسلم الذى يستشعر مسئوليته ، ويستقيم على أحكام الله تعالى فى الجوانب التالية :

الجانب الأول : الكمال النفسى :

يحتاج الإنسان أن يطهر باطنه ، ويمأه بالخير والاستقامة ، لأن الإناء ينضح بما فيه والظل تابع فى استقامته لصاحبه، وتهدف الآيات فى هذا الجانب

إلى تحقيق ما يلي :

- (أ) طهارة النفس لأنها المنطلق لكل عمل ، وهى أساس الحساب ، والله مطلع عليها ، فإن كانت النفس صالحة فإنها لا تستقيم مع الباطل ، وتسرع بصاحبها إلى الاستقامة ، والتوبة التى يقبلها الله تعالى .
- (ب) استقامة العمل والسلوك ، فيتوسط فى نفقته ، ولا يعتدى على حرمة غيره بالقتل ، أو بالزنى ، أو بالسرقه ، أو بالتطيف فى الكيل والوزن .
- (ج) واقعية التفكير ، وذلك يكون بالتمسك بالسلوك والعمل القائم على مبادئ علمية ، والابتعاد عن الأوهام ، والخرافات .
- (د) ترك الكبر ، والتواضع لله تعالى ، والتعامل الواقعى مع الناس .

الجانب الثانى : الالتزام بالواجب :

الإنسان المسلم مسئول مكلف بدين الله ، وشرعه ، والآيات توضح أمهات الواجبات الذى يلتزم بها المسلم .

فهو مسئول عن وصل أهله وأقربائه ومن يعيش بينهم ، ينصحهم بالخير ويدعوهم إلى الله تعالى ، ويعينهم فى أى أمر يحتاجون إليه ، ويحقق بينهم التناصر والتعاون ، والبر ، والمودة .

وهو مسئول عن إعانة الضعفاء فى المجتمع فهذا حقهم عليه ، والضعفاء هم المساكين ، والفقراء ، وأبناء السبيل ، واليتامى ، وكل ضعيف فى المجتمع ، لأن المسلم جزء من مجتمعه ، وعليه أن يساهم بما أعطاه الله فى بناء المجتمع ورفعته .

وهو مسئول عن الحق يأخذه لنفسه ، ويعطيه لغيره ، ويبتعد عن العدوان على غيره ، ويصون ماله ، وعرضه ، ونفسه .

إن الإنسان المسلم شخص إيجابى ، يبنى ولا يهدم ، يتسامح ولا يقسو ، يحترم حقوق الناس ، ولا يعتدى أبدا .

ومن حسن ما دعت إليه الآيات أنها جاءت على السنة الرسل جميعا ، وأنها شرع الله للناس أجمعين ... ولذلك حسن التزام الناس جميعا بها .

الجانب الثالث : عبادة الله وحده :

على المسلم أن يكون عبدا لله مخلصا ، صادقا ، فهو جزء من هذا العالم الكبير الذى يسجد لله تعالى . والإنسان فى قمة هذا الوجود خلقه الله للعبادة وحددها .

الركيزة الرابعة

البر بالوالدين

الآباء هم سبب وجود الأبناء ، وقد أودع الله فى غريزة الناس "غريزة الوالدية" ، وشرع لهم سبل إشباع هذه الغريزة بالزواج المشروع لتحقيق هذا الأمل الذى يتمناه الآباء والأمهات ، وحدد لهذا الولد ما يجعله صالحا مستقيما ، فأمر الزوج بتخير زوجته من أجل تميز ولده بصفات حسنة إذا رزقه الله منها بالولد . يقول النبى ﷺ : "تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم" (١) .

ويقول ﷺ : "تزوجوا الولود الودود فإن مكائركم بكم الأمم يوم القيامة" (٢) .

ويقول ﷺ : "لسوداء ولود خير من حسناء لا تلد" (٣) .

وجعل الله الولد هبة الله للآباء . يقول الله تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا

وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۚ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا ۚ وَبَجَعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۗ ﴾ (١) .

(١) سنن ابن ماجه . كتاب النكاح . باب اعتبار الكفاءة ج ٧ ص ٢١٤ .

(٢) سنن النسائى . كتاب النكاح . باب كراهية تزويج العقيم ج ٦ ص ٥ .

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ج ١٤ ص ٣٥١ .

(١٣٠)

والوالدان يقومان جبلة فيهم برعاية أبنائهم ، والاهتمام بهم إشباعا لغريزتهم ، وتطبيقا لشرع الله تعالى .

يسهر الآباء إن تعب ولدهم ، ويتعبون ليستريح ، ويقدمون له ما يحرمون أنفسهم منه .

لو أصيب الولد بمكروه يعيش الآباء هذا المكروه أكثر منه ، ويكدحون ويعملون من أجل تحقيق مستقبل حسن له .

يهيئ الأب لولده المسكن الواسع ، والعيشة الرغدة ، والمدرسة الراقية ، ويبذل كل جهده ليضع له مستقبلا بهيجا ، ويدعو الله له بالتوفيق .

لا يتمنى إنسان أن يكون غيره خيرا منه إلا الأب فإنه يسعد بابنه حين يعلو ويرتقى .

يبقى الأب على حبه لابنه ، ويستمر في رعايته ، والخوف عليه حتى لو صار شيخا بين يديه .

يكبر الأبناء ، ويشيخ الآباء ، وينقلب الحال ، ويحتاج الآباء لأبنائهم ، وليس للأبناء العواطف الغريزية الموجودة عند الآباء ... ولذلك يهتمون بأبنائهم ... وقد ينسون أباؤهم بعد الجهد والحب الذى بذلوه .

يتألم الآباء من تقصير الأبناء معهم لأنهم يرون سوءا بعد إحسان ، ولذلك كان العقوق سيفا قاطعا للقلب قبل أن يخرج الجسد .

ومن هنا ...

قضى الله ببر الوالدين ، وأوجبه على الأبناء ، وجعله سبحانه قرين توحيده ، وعبادته ، وحدد للأبناء صورته الواجبة ... وهى :

- الإحسان الدائم بكافة صور الإحسان المعلومة وغير المعلومة الشاملة للقول والعمل ، والأحوال فى كافة صورها المادية والمعنوية .
 - تجنب الإساءة إليهما بالقول ، ولو بأدنى لفظة تشير إلى الإساءة ، وتجنب أن تخرج (أف) لهما ولو بصورة عفوية .
 - عدم نهرهما ولو أخطأ .
 - وأن يكون كريما فى تعامله معهما فلا يحاسبهما على خطأ ، ولا يعابهما على ملام .
 - أن يتعامل معهما بذلة وتواضع .
 - أن يدعو الله لهما بكل خير .
 - أن يكون البر نابعا من القلب .
- إن ربط البر بالإيمان بيان لأهمية بر الوالدين ، وتنبيه على ضرورة محافظة المسلم عليه .
- على الأبناء أن يبحثوا عن كل ما يدخل السرور على الآباء فهو من البر وذلك مثل الاجتهاد فى طلب العلم ، والنجاح فى العمل ، والالتزام بدين الله تعالى ، ليعلم كل ابن أنه سيكون يوما ما أبا يحتاج إلى بر ابنه به .
- وليعلم الأبناء أن البر والعقوق دين يأتىهم فى أبنائهم ، فليصلحوا حتى لا يقعوا فى عقوق من أبنائهم وبناتهم .

(١٣٢)

فساد مواقف المشركين

بين الله فى الآيات السابقة جهل من أثبتوا لله شريكا ، وجعلوا له سبحانه وتعالى ندا ونظيرا ، ووضحت أن الله واحد لا شريك له ، وأنه سبحانه وتعالى دعا الناس إلى واجبات تصلح الحياة والناس ، وبعد ذلك أخذ القرآن الكريم يعدد مواقف المشركين الضالة ، ومواجهتهم لرسول الله ﷺ ، ويرد عليهم ، ويبين فساد ما هم فيه ، وسأورد بإذن الله هذه المواقف ، واحدة ، واحدة ، وأبين ردها وابطالها ، وأورد فى نهاية المواقف الركائز المستفادة منها جميعا .

الموقف الأول

جعلهم البنات لله والذكور لأنفسهم

يقول الله تعالى :

﴿ أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيْنِ وَأَتَّخِذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة فساد من خالف الله ، وعبد غيره جاءت هذه الآيات لبيان ضلال من أثبت لله ولدا ، وخصه بالإناث دون الذكور .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن المشركين فسدوا فسادا كبيرا جعلهم لله ولدا ، وتقسيمهم الأولاد بينهم وبين الله ، فيجعلون لله البنات ، ولهم الذكور .

(١٣٣)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَفَأَصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ ﴾ ؟ ... الاستقهام إنكارى لا يراد منه

الجواب ، وإنما يراد به إنكار ما يقول المشركون ، واطهار فساد مقالتهم .
والمعنى هل اختار الله لكم الذكور ، وخصكم بصفوة البنين ، وجعل لنفسه ما
ليس بصفوة فاختار البنات ؟ ...

﴿ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا ﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون الملائكة بنات

مع أنهم كانوا يؤمنون بأن الله هو الموصوف بكل كمال يليق به سبحانه وتعالى
وهذا القول منهم يدل على جهلهم ، وسفاهتهم ، ذلك أنهم يرون زوجاتهم يلدن
الذكر والأنثى . فمن أين لهم جعل البنات لله ، والذكور لهم ؟ ...

وأيضا فإن الله منزّه عن الحوادث ، وهو قديم أزلى بذاته وصفاته . فمن
أين لهم تشبيه الله بالحوادث ؟

﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ أى إنكم بجعلكم البنات لله تقولون قولا

خطيرا فى دلالاته ، عظيما فى بهتانه ، ويظهر كبر هذا القول من عدة أوجه :
الوجه الأول : إثبات الولد لله يقتضى كونه تعالى مركبا من الأجزاء
والأبعاض ، وهذا لا يليق بكمال الله تعالى ، فهو سبحانه واحد أحد : ﴿ لَمْ يَلِدْ

وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿ ^(١) .

الوجه الثانى : أنهم نصبوا أنفسهم شركاء لله فقسموا الذرية معه ، وجعلوا
لأنفسهم البنين ، وله البنات .

(١) سورة الإخلاص ، الآية ٣ ، ٤ .

(١٣٤)

الوجه الثالث : البنين أولادهم حملت بهم أمهاتهم فهم لهم ، والبنات مثل الولد فى الإيجاد فلم جعلوهم الله تعالى ؟ ولم يجعلوا الذكر مع أمه التى ولدته ؟

الوجه الرابع : التفاضل بين الذكر والأنثى جهل واضح لاشتراكهما معا فى الإيجاد ، فلولا الذكر ما وجدت الأنثى ، ولولا الأنثى ما وجد الذكر . فما وجه التفاضل بينهما ؟ ومن أم الإناث إن كان أبوهم الله !!؟

- ٤ -

معنى الآية

تسأل الآية المشركين منكرة عليهم جعلهم البنات لله ، وتقول لهم : هل اختار الله لكم ، واصطفاكم بالذكور ، ورضى لنفسه بالإناث ؟

إن هذا القول إفك مفترى لا يقول به إلا سفيه جاهل .

الموقف الثانى

عدم الاستفادة من القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة فساد أقوال المشركين فى جعل البنات لله ، والذكور لهم جاءت هذه الآية لبيان أن الله بين فى القرآن الكريم آيات عديدة ، وبراهين متنوعة ليتدبروا فيها ، ويتعظوا بها إلا أنهم كفروا ، وضلوا ضلالا بعيدا .

(١٣٥)

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله أنزل القرآن الكريم ليتدبروا فى آياته ، ويتذكروا نصائحه
إلا أن الكافرين أبوا الاستفادة بالقرآن الكريم ، ونفروا من الحق نفورا شديدا ،
واستمروا على شركهم بالله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا ﴾ أى ولقد أنزلنا فى هذا
القرآن الكريم البيانات والحجج الكثيرة ، والمتنوعة ، وحذرننا الناس ، وبشرنا
وأنذرنا ليستفيد هؤلاء المشركون بدعوة القرآن الكريم إلا أنهم لم يؤمنوا ، واستمروا
فى ضلالهم وفسادهم .
والتصريف يعنى تعدد البيان ، وتنوع البراهين فى تبليغ الدعوة ، ونشر
الإسلام ... وهو منهج دعوى يقوم على تقديم البراهين العديدة ، وعرض الآيات
الكثيرة ومواصلة الدعوة إلى الله ، وتنوع الخطاب ، والاستفادة بكافة وسائل
التفهم والبيان ، ومحاولة الوصول لقلب وعقل الإنسان بكافة أساليب التأثير .
وغاية التصريف هو ﴿ لِيَذَكَّرُوا ﴾ أى ليعرفوا الحق ، ويؤمنوا بالله تعالى
ويستقيموا على منهج الله المستقيم .

﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أى أن هذا البيان المتنوع ، والتبليغ المستمر
لم يزد المشركين إلا شركا ، وبعدا عن الصواب ، وسبب ذلك أن المعاصى
توصل لمعاصى أخرى ، ولا يأتى الضلال إلا بضلال مثله ، لقد ﴿ خَتَمَ اللَّهُ

(١٣٦)

عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ^ط وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةٌ^(١) فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ قَوْلًا ،
وَلَا يَفْهَمُونَ صَوَابًا ، وَلِذَلِكَ يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا
فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٢) .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن المشركين والكفار يرون ألوان البيان في القرآن الكريم
ويسمعونها ، ولا يستفيدون بها ، وبدل أن يؤمنوا بها كفروا ، وبدل أن يقبلوا على
الإسلام نفروا ، وبعثوا .

الموقف الثالث

اتخاذ الأصنام شركاء لله

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَآبَتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا
﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ
وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ^ع وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ
تَسْبِيحَهُمْ^ط إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ ﴿٤٤﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآية السابقة موقف المشركين من آيات القرآن الكريم جاءت هذه
الآيات لمناقشة المشركين في اتخاذهم الأصنام والأوثان شركاء لله تعالى .

(١) سورة البقرة ، الآية ٧ .

(٢) سورة الملك ، الآية ١٠ .

(١٣٧)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات خبل المشركين فى اتخاذهم الأصنام والأوثان آلهة مع الله يعبدونها من دونه ، وذلك لأنها لو كانت آلهة لاتصلت به سبحانه وتعالى لتغلبه أو لتستعين به ، وكلا الحالين مستحيل . فالله منزّه عن الشريك والمثيل والكل خلقه ، وعبيده ، يسبحونه سبحانه وتعالى ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ تبين الآية ابتداء أن زعم المشركين عن تعدد الآلهة قول مجرد لا حقيقة له ولا صدق فيه ، ولذلك أمر الله رسوله أن يقول لهم كلاماً يتحداهم به ليظهروا قدرات هذه الآلهة المزعومة التى لا جود لها البتة ، ولذلك صدر رسول الله قوله ب ﴿ لَوْ ﴾ الدالة على استحالة وامتناع ما يزعمون .

﴿ إِذَا لَّابَتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ أى لو كانوا صادقين فى زعمهم أن الله شركاء فليتصل الشركاء بالله ، ويتخذوا طريقاً يتعاملون به معه . واستحضار الذات العلية بوصف ﴿ ذِي الْعَرْشِ ﴾ لإظهار الشأن الجليل الذى يعلو به الله عن كل خلقه ، ويثير حفيظة الشركاء عليه إن وجدوا لأنهم إن عادوه خافوه ، وإن أملوا فيه تقربوا إليه .

وابتغاء الأصنام لذى العرش المتحدى به يحتمل صورتين :

إحدهما : أن يكون المقصود سعى الغلبة والقهر ، أى إذا كانت الأصنام والأوثان شركاء لله لعملت على مغالية ذى العرش وهو الله تعالى ... ووجه هذا التصور أن من شأن أهل السلطان أن يعملوا على توسيع سلطانهم على حساب

(١٣٨)

سلطان غيرهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾^(١) ولو حدث هذا التصور لفسد العالم ، وهلك ، ولم يقع شئ من هذا .

ثانيهما : أن يكون المقصود سعى الخضوع والاستعطاف أى لطلبت الأصنام والأوثان الوصول إلى الله تعالى و ﴿ يَتَتَفَعُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَسِيلَةً ﴾^(٢) ... وذلك أنهم قالوا عن الأصنام والأوثان : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾^(٣) ولو سلموا بهذه الصورة لفسد قولهم لأنهم يثبتون به حاجة الأصنام والأوثان لله ، والمحتاج لا يكون إلها .

﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ تنزيه له سبحانه وتعالى وعلاؤه عما يقولون ، ويزعمون من وجود آلهة أخرى معه .
والتعبير بقوله : ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ يشير إلى البون الشاسع بين حقيقة ذات الله ، وصفاته ، وأفعاله ... وبين ثبوت الصاحبة ، والولد ، والشركاء ، والأضداد .

﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ أى يسبح له كل من فى السموات ومن فى الأرض من ملائكة ، وانس ، وجن .
﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ أى وكل شئ مخلوق يسبح بحمد الله كل بوسيلته .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٩١ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٥٧ .

(٣) سورة الزمر ، الآية ٣ .

روي عن ابن مسعود قال : كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقل الماء فقال : "اطلبوا فضلة من ماء فجاؤوا بإناء فيه قليل ، فأدخل يده ﷺ في الإناء ثم قال : حي على الطهور المبارك ، والبركة من الله .

فقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل" (١) .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "إن بمكة حجرا كان يسلم علي ليالي بعثت ، واني لأعرفه الآن" (٢) .

وعن ابن عمر قال : "كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع نخلة فلما اتخذ المنبر تحول إليه ، فحن الجذع ، فأثاه فمسح بيده عليه" (٣) .

﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أى لا تعلمون تسبيحهم ، ولا تفهمونه لاختلافه عن لغتكم ، وأعمالكم .

وقيل : إن المراد بالتسبيح إثبات وحدانية الله ، وتنزيهه عن سائر الخلق فكل شئ يقوم بهذا الإثبات ، وكل العقلاء يفهمون ثبوت التوحيد فى كل شئ ، أما الضالون فلا يفهمون ذلك .

يقرب الرازى ذلك للفهم فيقول : أنك إذا أخذت تفاحة واحدة فتلك التفاحة مركبة من عدد كثير من الأجزاء التي لا تتجزأ ، وكل واحد من تلك الأجزاء دليل تام مستقل على وجود الإله ، ولكل واحد من تلك الأجزاء التي لا تتجزأ

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب علامات النبوة ج ٤ ص ١٩٤ .

(٢) سنن الترمذى . كتاب ابواب المناقب . باب فى آيات نبوة النبى ﷺ ج ٥ ص ٥٩٢ .

(٣) الأحاديث المختارة ج ٥ ص ٣٨ .

صفات مخصوصة من الطبع ، والطعم ، واللون ، والرائحة ، والحيز ، والجهة ، واختصاص ذلك الجوهر الفرد بتلك الصفة المعينة لا يتم إلا بسبب خارج عنه ، ولا يحصل ذلك إلا بتخصيص مخصص قادر حكيم .

إذا عرفت هذا فقد ظهر أن كل واحد من أجزاء تلك التفاحة دليل تام على وجود الإله ، وكل صفة من الصفات القائمة بالجزء الواحد فهو أيضا دليل تام على وجود الإله تعالى ، ثم عدد تلك الأجزاء غير معلوم ، وأحوال تلك الصفات غير معلومة^(١) ، فلهذا المعنى قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ .

﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ أى أنه سبحانه كان حلِيمًا بكم ، فلم يعاجلكم بالعقوبة ، غفورا لكم يغفر ذنوبكم ، ويسترها إذا تبتم وأمنتم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات حقيقة بدهية وهى أنهم لو كانوا صادقين فى زعمهم أن الله شركاء فإن هؤلاء الشركاء سيحاولون الانتصار على الله أو اللجوء إليه ، والله منزّه عن كل هذا ، وكل خلقه يسبحه ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، وهو سبحانه حلِيم لا يعاجل بالعقوبة ، غفور يقبل التوبة ، ويستتر العيب .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢٠ ص ٢٢٠ .

(١٤١)

الموقف الرابع **وجود حجاب عازل بينهم** **وبين القرآن الكريم**

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا قُرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۖ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ۝٤١﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة فساد تعدد الآلهة لعجزها وهوانها جاءت هاتان الآيتان لبيان سبب عدم استفادة المشركين من القرآن الكريم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيتان أن المشركين لن يستفيدوا من هدى القرآن لستره عنهم واحاطة السواد والغفلة بقلوبهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِذَا قُرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۖ ﴾ أى إذ قرأت شيئاً من القرآن الكريم على هؤلاء القوم تبين فيه العقيدة ، أو الشريعة ، أو الأخلاق جعلنا بينك وبين المشركين ساتراً يمنع من وصول القرآن إلى آذانهم ، وقلوبهم .

والحجاب هو الساتر بين شيئين لأنه يمنع رؤية ما وراءه ، وقد خلق الله هذا الحجاب فى المشركين ليصرفهم عن فهم معانى القرآن الكريم ، ويمنعهم عن العمل بمقتضاه بحيث يهتمون ولا يفعلون .

وجعل الله الحجاب مستورا لأن العين لا تراه ، والجوارح لا تمسه ، وإنما يظهر بآثاره ... وكثيرا ما هم الإنسان بأمر ، وصرفه الله عنه بالحجاب الذى أوجده معه .

روي عن سعيد بن جبير أنه قال : " لما نزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ جاءت امرأة أبي لهب ، ومعها حجر ، والنبي ﷺ مع أبي بكر فلم تره . فقالت لأبي بكر : أين صاحبك لقد بلغني أنه هجاني ؟ فقال لها أبو بكر : والله ما ينطق بالشعر ، ولا يقوله . فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لأرضخ رأسه . فقال أبو بكر لرسول الله ﷺ : ما رأيتك يا رسول الله . قال ﷺ : لا لم يزل ملك بيني وبينها يسترنى حتى ذهبت " (١) .

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أى أوجدنا أغشية على قلوبهم لئلا يفهموا القرآن بعد سماعه .

﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أى وأوجدنا ثقلا فى آذانهم يمنعهم من استماع القرآن الكريم .

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ أى إذا قرأت عليهم يا محمد شيئا من القرآن الكريم ، وذكرت فيه الله وحده ، ولم تذكر فيه ألهمت تركوا الاستماع وفروا من أمامك يا رسول الله ﷺ .

(١) مصنف ابن أبى شيبة . كتاب الفضائل . باب ما أعطى الله تعالى محمدا ﷺ ج ٦ ص ٣٢٣ .

(١٤٣)

لقد كانت الفطرة تدعو المشركين إلى الله ، وتجذبهم إلى الحق ، إلا أنهم يصدون الفطرة عن انطلاقاتها ، ويفرون من الاستماع نفورا شديدا . لقد كانوا يعرفون الحق إلا أن الجحود أعماهم ، وأفسدهم .

يروى ابن هشام أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة أنهم خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل ، في بيته ، فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا .

فقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا . ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض مثل ما قاله أول مرة . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود . فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد .

قال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها .

(١٤٤)

قال الأخنس : وأنا ، والذي حلفت به .
ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته .
فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟
قال : ماذا سمعت ؟
قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ،
وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان .
قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا
ولا نصدقه !
فقام عنه الأخنس وتركه^(١) ...

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن رسول الله ﷺ كان يقرأ القرآن الكريم على هؤلاء المشركين
إلا أنهم محجوبون عنه بستار كثيف ، بسببه لا يسمعون ، ولا يفهمون لوجود
أغطية على قلوبهم ، وأنقال في آذانهم ، وإذا ذكرت الله وحده في قراءتك نفروا
منك ، وابتعدوا عن استماع القرآن الكريم .

(١) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٣٣٢ .

(١٤٥)

الموقف الخامس

استهزاء المشركين برسول الله ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة موقف المشركين عند الاستماع لقراءة القرآن جاءت هاتان الآيتان سبب انصرافهم عن القرآن الكريم ، وكيفية استماعهم لرسول الله ﷺ .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيات أن الله عليم بالمشركين وأحوالهم مع رسول الله ﷺ واتهامهم له بما ليس فيه فضلوا عن الحق ، وحرموا من الخير .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أى نحن على علم تام بالوجه الذى يستمع به المشركون إليك يا محمد ، وأنت تقرأ عليهم القرآن الكريم وهو الاستهزاء والتكذيب .

(١٤٦)

وصدرت الآية ب ﴿ نَحْنُ ﴾ الدالة على عظمة الله تعالى لإبراز العناية بمضمون الآية ، وقدمت الآية العلم بالأقوال قبل نجواهم لبيان إحاطة الله بهم وتسليية لرسول الله ﷺ .

﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ أى أنهم يستمعون إليك وهم يتتاجون بالسوء بصورة خافته فيما بينهم ، فبعضهم يقول : هو مجنون ، ويقول آخر : هو ساحر ، ويقول ثالث : هو كاهن ، ونحن على علم تام بذلك رغم أنه يتسارون به فيما بينهم .

﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ أى يقول المشركون بعضهم لبعض : إنكم تسمعون لرجل قد سحر ، فاختلف عليه عقله وزال عن حد الاستواء فلا خير فيه .

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا ﴾ أى تأمل يا محمد فى أقوالهم ، واعرف الاتهامات التى وصفوك بها ، وجعلوها مثلاً مضروباً أمام الناس .

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أى فبعدوا بأمثالهم وأقوالهم عن الصواب وأغرقوا فى الضلال ، وعجزوا عن سلوك الطريق المستقيم .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن علم الله تام بسخرية المشركين ، واستهزائهم برسول الله ﷺ وهم يتتاجون فيما بينهم ، ويتهمونه بالكذب ، والسحر ، والجنون ، والكهانة وغير ذلك ، ويتعجب الله من هؤلاء على ضلالهم فقد بعدوا بعيداً شديداً عن الصواب ، ولم يهتدوا إلى الصراط المستقيم .

(١٤٧)

الموقف السادس إنكار البعث

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ ١ ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا ﴾ ٢ ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ ٣ ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِمْ وَتَعْتَدُونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ٤ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة استهزاء المشركين برسول الله ﷺ جاءت هذه الآيات لبيان استهزائهم بالبعث وانكارهم وقوعه ، والرد عليهم وافحامهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات وقوع البعث وهي تورّد إنكار المشركين له ، وترد عليهم ، وتنشئه بالبراهين والأدلة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ ؟ ...

الاستفهام إنكارى ، وفيه ينكر المشركون أنهم سيبعثون بعد الفناء ، وبعد تحول الأجساد إلى تراب ، ويتساءلون أنبعث بعد أن صرنا فى قبورنا عظاما ورفاتا ؟
والعظام هوما تعرى عنه اللحم ، وصار ترابا .

والرفات هو الجسد بعد تكسره ، وتفتته وتحوله إلى مادة أخرى مثل التراب والزرع .

ولذلك يتعجب المشركون من البعث ، وظهور الإنسان مرة أخرى بصورة جديدة بعد فناءه ، وهلاكه .

ومصدر العجب والإنكار أنهم لا يصدقون أن تعود الأجساد مرة أخرى بعدما رمت وبليت ، وصارت هباء ، وتداخلت مع طول الزمن .

وقد رد الله عليهم ، وعرفهم بأن البعث هو إعادة الأجساد السابقة ، وليست أجسادا جديدة فقال تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾^(١) ، وبين لهم أنه سبحانه وتعالى سيبعثهم على أى حال يكونون فيه ، فأمر الله رسوله أن يقول لهم .

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۖ ﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ ﴿ أى قل لهم يا محمد : كونوا على أى صورة تتخيلونها حجارة صلبة ، أو حديدة جامدة ، أو خلقا ضخما ترونه مثل الجبل ، والسموات ، والأرض ، فإن الله سيعيد إحياءكم ، ويبعثكم على أى حال كنتم ، ولن يعجزه إحيائكم ، وسيقيم الخلائق جميعا بنفخة الصور الثانية . يقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾^(٢) .

إن قدرة الله شاملة ، والكون كان بـ "كن" ، وسيكون حيث مراد الله تعالى .

والرد على منكرى البعث يشير إلى ما يلي :

(١) سورة يس ، الآية ٧٩ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٦٨ .

(١) إن مراد الله تعالى لا يقف أمامه شئ لأنكم أيها الناس مبعوثون يوم القيامة سواء كنتم عظاما ، أو رفاتا ، أو حجارة ، أو حديدا ، أو خلقا آخر مما يكبر في صدوركم .

(٢) إنكم أيها الناس لو كنتم مادة خالية من الحياة فإنها تبعث بأمر الله تعالى فقد خلقكم ابتداء من جماد ، ونفخ في الجماد روحا ، ووجه الجسد والروح فصارت إنسانا يحيا ويموت .

(٣) لو كنتم حجارة أو حديدا لأحياكم الله ، وفي هذا رد على المنكرين لأنهم جعلوا كونهم عظاما حجة سببا لاستحالة الإعادة ، فرد عليهم بأن الإعادة مقدرة لله تعالى ، ولو كنتم حجارة ، أو حديدا ، لأن الحجارة والحديد أبعد عن قبول الحياة من العظام والرفات إذ لم يسبق فيهما حلول الحياة قط بخلاف الرفات والعظام .

ولما أكد رسول الله ﷺ للقوم ثبوت البعث تساءل المشركون ، وقالوا : ما أخبر الله به عنهم .

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ ؟ ... هذا الاستفهام إنكار من المشركين بسبب تصورهم إمكان البعث ، ولذلك قالوا ما قالوا سخرية وتهكما ... فرد الله عليهم ، وأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم : ﴿ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى قل لهم يا محمد تحقيقا للحق ، وإزالة للاستبعاد ، وإرشادا إلى طريق الصواب ... قل لهم : إن الذى يفعل هذا ، وبحييكم يوم القيامة هو الخالق العظيم الذى ذرأكم ، وخلقكم أول مرة على غير مثال سبق ... إن من جعل التراب إنسانا حيا قادر على أن يعيد الإنسان بعد تفتت جسده ، واختلاطه بغيره .

وعلم الله محيط بعباده منذ الأزل ، ولذلك أخبر رسوله ﷺ بأحوال المشركين بعد الرد عليهم ، ويقول له :

﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ أى أنهم سيرفعون رءوسهم لأعلى وأسفل مندهشين وهم ينظرون علامة على تعجبهم : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ﴾ ؟ ... أى متى يقع هذا البعث ؟ ... ويأمر الله رسوله ﷺ أن يرد عليهم .

﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ أى قل لهم يا محمد : المرجو أن يكون البعث قريباً فاحذروه ، فإنه قريب منكم سيأتى لا محالة ، وكل آت قريب وكل ما هو محقق الوقوع قريب وإن طال زمانه .

إن موعد القيامة والبعث غيب استأثر الله بعلمه ، ولم يطلع عليه نبي مرسل ، أو ملك مقرب ، وقد قال عنه النبي ﷺ : "بعثت أنا والساعة كهاتين" ^(١) . وأشار بأصبعيه السبابة والإبهام .

ثم يبين الله أحوال المشركين وسائر الخلق يوم القيامة فيقول للمشركين : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أى يقع البعث يوم يدعوكم الله للقيام فتستجيبون له ، وتقومون من قبوركم ، والله الحمد فى موتكم ، وحيائكم وفى كل ما قدر وقضى .

عن أنس رضي الله عنه قال : "ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ، ولا فى القبر ، ولا فى المحشر ، وكأنى بأهل لا إله إلا الله قد خرجوا من قبورهم ينفضون رءوسهم من التراب قائلين : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن" ^(٢) .

(١) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب يوم ينفخ فى الصور ج ٦ ص ١٦٦ .

(٢) الدعاء للطبرانى . باب فضل قول لا إله إلا الله ج ١ ص ٤٣٦ .

(١٥١)

﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى وتتصورون ، وتتوقعون حين قيامكم من قبوركم أنكم مكثتم فى قبوركم ، أو فى حياتكم الدنيا زمنا قصيرا والقرآن الكريم يوضح هذه الحقيقة .

يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِينَ ﴿٢﴾ ﴾^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴾^(٢) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات إنكار البعث ، وتعجب المشركين من القول به لأنهم لا يتصورون بعث الأجساد بعد أن صارت عظاما ورفاتا ، وقد وضع الله قدرته فى خلق الناس أول مرة ، وأكد أنه سيبعث الناس على أى حال يكونون .

- ٥ -

ركائز الدعوة المستفادة

من مواقف المشركين

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان عظمة الله تعالى

خلق الله الإنسان ، وأكرمه ، وسخر له الوجود كله ، واتصف سبحانه وتعالى بكل كمال يليق به سبحانه ، وأرسل فى الناس رسله ، وأنزل إليهم كتبه ، وكلفهم بدينه ، ومع ذلك تمكن الشيطان من إغواء كثير من الناس فضلوا عن

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١١٢ ، ١١٣ .

(٢) سورة النازعات ، الآية ٤٦ .

(١٥٢)

الحق ضلّالاً بعيداً ، فجعل بعضهم الإناء لله ، والذكور لأنفسهم ، وعبدوا غير الله تعالى ، ولم يقدروا الله حق قدره .
إن عظمة الله كائنة فى كل خلقه ، وهى تسبحه بخضوعها له ، وقيامها بما خلقت له .

والواجب على المسلم :

إن يعبد الله وحده ، ويصدق بكل ما جاء به رسوله ، ويستسلم لعظمته وقدرته ، وأن يدور مع سائر الكائنات فى خضوعها ، وسجودها لله تعالى ، كل بالوجه الذى حدده الله تعالى له .
إن الخضوع لله تعالى أداء لحق العبودية ، وتوازن مع حركة سائر المخلوقات ، وهذا خير كله . أما من يسبح ضد التيار ، ومن يطوف عكس حركة الآخرين لا يرى إلا التناقض ، ولا يهتدى إلى صواب .

الركيزة الثانية

منهج القرآن الكريم فى الإصلاح

أنزل الله تعالى القرآن الكريم دستوراً للإسلام من كافة جوانبه ، فهو يقدم العقيدة بصفائها وكمالها ، ويعرف تعاليم الإسلام محكمة مفصلة ، ويورد الآيات والبراهين الدالة على صدق العقيدة ، وجمال الشريعة ، ومحاسن الأخلاق .
ومع تقديم حقيقة الإسلام يقدم القرآن الكريم الطريقة المثلى لتبليغ الإسلام والمنهج الأقوم لدعوة الناس إلى الله تعالى .

يعتمد هذا المنهج الذى تبينه الآيات على بيان الموضوع الواحد بأوجه متعددة ، والآيات هنا تبين شيئاً من هذا المنهج من البيان والبلاغة ليفهم الناس الحقيقة من أى وجه جاءت به الآيات .

(١٥٣)

لقد صرف الله الآيات فى القرآن الكريم ، وعددها من خطاب إلى غيبة إلى حوار ، فى صورة قصة ، أو استفهام ، أو تشبيه ، أو أمثال لتكون منهاجاً للهداية ، وطريقاً للرشاد .

والأمر يحتاج من الإنسان أن يقدم على القرآن الكريم بعقل مفتوح ، وبنفس تحب الهداية ، وبروح تسعد بمعية الله ، وهى تسمع قوله ، وتفهم مقاصد ، وبكيان يخشع للمعبود قانتاً ، لأن هذا الإقبال يحدث التلاقى المباشر مع القرآن الكريم .

إن الله سبحانه وتعالى عليم بقلوب عباده ، مطلع على ميولهم وأمانيتهم ، ومن هنا يقدر الله للناس الأمر الذى يناسب هذا الميل فيهم . فمن نفرت نفسه من الخير ، وأبت الاستقامة والطاعة فإن الله يقدر له الضلال الذى يميل إليه ويتمناه .

إن غير المؤمنين يزداد ضلالهم ، ويشتد تمسكهم بالمعاصى لأن الله يضع بينهم وبين القرآن الكريم حجاباً خفياً ، يمنعهم من الاستفادة به ، ويعمى أبصارهم ، ويطمس على قلوبهم ، ويصم آذانهم ليستمروا فى المسار الذى أحبوه ، ومالوا إليه .

وكل هذا يبين منهج الدعوة فى ضرورة البدء بإصلاح النفس ليأتيها الخير ، ويقدر الله لها النجاة .

وإصلاح النفس يبدأ من الصغر لأن من شب على شئ شاب عليه ، ويتأثر الصغير بالبيئة الصالحة لأن النشء يشب على ما كان عوده أبوه ... ويتم بطرق عدة يقوم بها الآباء والمربون والمصلحون .

الركيزة الثالثة

البعث حق ، والإيمان به واجب

الحياة الدنيا مقدمة الآخرة ، ففي الدنيا سعى وعمل ، وفي الآخرة حساب وجزاء ، والإيمان بذلك ركن من أركان الإيمان .

وقد ضل فريق من الناس فأنكروا يوم القيامة ، واستبعدوا البعث للحساب والجزاء ، ولم يصدقوا أن الله يحيى الإنسان يوم القيامة ، بعدما رم بدنه ، وبليت عظامه ، وتداخلت الأجساد بعد تفتتها وفنائها .

وقال الكافرون لن نبعث بعد كل هذا ... فبين الله لهم أن البعث حق ، وأن الله سيحييهم ، ويحاسبهم ، ويجازيهم ولو كانوا حجرا ، أو حديدا ، أو خلقا ضخما كالجبال ، لأن الله قادر على كل شئ .

ومن آيات قدرته خلق الناس ابتداء ، ومن المعلوم أن الإعادة أيسر من البدء الأول .

ولئن استمر الكافرون على كفرهم فإن الحساب ينتظرهم ، وسوف يبعثون بأمر الله ، ولن يعارضوا البعث بعدما يعيشون واقعا ، ولن ينفعهم في الحساب ضلالهم ، واستهزاؤهم برسول الله ﷺ وبالإسلام كله .

إن البعث حق ، والإيمان به واجب ، ومجئ يوم القيامة قريب ، والله لا يخلف الميعاد .

(١٥٥)

الدعوة إلى الله بالقول والخلق الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٥٥﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٥٦﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا ﴿١٥٧﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة إبطال حجج المشركين ، وإبطال نسبتهم البنات لله ، وأثبتت البعث جاءت هذه الآيات تأمر بمحاجة المشركين بالحسنى والمجادلة باللين في أناه وهدوء لأن النتيجة عند الله معلومة ، ولا إكراه في اعتناق دين الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تأمر الآيات رسول الله ﷺ أن يأمر المؤمنين بملازمة الحسن في الدعوة (قولا وعملا) لأن الله مطلع عليهم ، عليم بما في نفوسهم ، وعليهم أن يحذروا وساوس الشيطان التي ينشرها بين الناس ، وليعلموا أن الله عليم بكل شيء ، وببيده الأمر كله ... وهو سبحانه يفضل بعض الناس على بعض كما فضل بعض الأنبياء على بعض ، وهو على كل شيء قدير .

الدلالات اللغوية

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الخطاب فى الآية لرسول

الله ﷺ ، وفيه يأمره سبحانه وتعالى أن يقول للمؤمنين الذى شرفهم بالعبودية ، ونسبهم إليه سبحانه وتعالى ، وهم المستجيبون لأمر الله ، ويأمرهم أن يحسنوا حديثهم مع إخوانهم ، وأن يعرضوا الدعوة على الغير بالقول الحسن المناسب للحال والوقت ، فيتخيروا الوقت المناسب ، والظرف المناسب ، والحالة المناسبة ... وابتعدوا ابتعادا تاما عن السب ، والشتم ، والأذى ، لأن الكلمة الطيبة تفتح مغاليق القلوب ، وتقرب المشاعر ، وتفتح السبل للحوار الصادق الهادف .

وصدرت الآية ب "قل" أمرا لرسول الله ﷺ لبيان أهمية الأمور به ، ولتعلم الدعاة أن الأمور به محبوب عند الله والناس ، لما له من تأثير كبير فى الدعوة إلى الله .

إن مقابلة السيئة بالحسنة خلق إسلامى جميل يبين ما فى الإسلام من خير . يقول الله تعالى لرسوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾^(١) . ويقول النبى ﷺ : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"^(٢) .

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى إن الشيطان يفسد القلوب ، ويهيج الشر بين الناس ، وينتهز الأقوال السيئة ، ويجعلها سببا للخصومة والعداوة ، وينقل الحال بين الناس من المقال إلى الفعال ... فكم من حوادث ضخمة نشأت بسبب كلمة بسيطة ... ومعظم النار من مستصغر الشرر ... ولما سأل أحد

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩ .

(٢) السنن الكبرى للبيهقى . كتاب الشهادات . باب بيان مكارم الأخلاق ج ١٠ ص ٣٢٣ .

الصحابه رسول الله ﷺ عن كلمة السوء ، وقال : يا رسول الله ، وانا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟

قال ﷺ : وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم^(١) ونهى النبي ﷺ أن يشير المسلم إلى أخيه إشارة سيئة حتى لا يتذرع الشيطان بها ، ويشعل فتنة كبرى . فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "ولا يشيرن أحدكم على أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزع في يده ، فيقع في حفرة من النار"^(٢) .

ويقول ﷺ : "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة م كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة ، التقوى هاهنا ، التقوى هاهنا ، وأشار إلى صدره"^(٣) .

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ أى إن الشيطان أعدى أعداء الإنسان منذ آدم عليه السلام ، وعداوته ظاهرة بينة حذر منها رسل الله جميعا وبين الله سبحانه وتعالى دور الشيطان ، وحديثه عن نفسه ، وتأكيده ، واصراره على إضلال الإنسان فيقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَا تَتَبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾^(٤) .

(١) سنن الترمذى . كتاب الإيمان . باب ما جاء في حرمة الصلاة ج ٤ ص ٣٠٨ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الفتن . باب قول النبي ﷺ ج ٩ ص ٤٩ .

(٣) صحيح البخارى . باب لا يظلم المسلم المسلم ج ٣ ص ١٢٨ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية ١٧ .

إن الشيطان لا يخلل من سوء يفعله فهو يعرف مصيره ، وقد أنظره الله تعالى ، فهو عدو لنبي . يقول الله عنه : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنَّيْ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١) .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَاءُ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَاءُ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ أى إنه سبحانه وتعالى إن شاء رحمكم ، وإن شاء عذبكم . فأطيعوا الله ، وأحسنوا عملكم ، واعملوا لهذا اليوم ، وأطيعوا الله فهو الرقيب عليكم .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ أى وما أرسلناك يا محمد حفيظا ، رقيباً على الناس ، وإنما أنت مذكر أرسلناك للناس داعياً إلى الله فخطبهم بالحسنى ، ولا تغلظ عليهم بقول أو بفعل .

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى أن الله عليم بكل خلقه أينما خلقوا ، وكيفما خلقوا ، ومطلع على كل أعمالهم وأقوالهم ، ولن يغيب شأن عن علمه سبحانه وتعالى ، وكل ما يقع هو من قضائه وقدره .

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى كما فاضل بين الناس فضل بعض الأنبياء على بعض ، فاتخذ إبراهيم خليلاً ، وكلم الله موسى تكليماً ، وأتى سليمان ملكاً ونبوة ، وأوجد عيسى بكلمة من الله .

﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ﴾ أى فضلنا داود بإنزال الزبور عليه ، وذكرنا

الآية الزبور مع أن رسل الله نزلت عليهم كتب عديدة ، لأن الزبور بين أن محمداً خاتم النبيين ، وأن أمته خير الأمم .

(١) سورة الحشر ، الآية ١٦ .

(١٥٩)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن رسول الله ﷺ أمر المسلمين أن يتمسكوا بالحسن القولى مع المسلمين ، ومع غيرهم ، ويتجنبوا مفسد الشيطان فهو أعدى أعدائهم ، وسوف يحاسب الله الناس على أعمالهم وأقوالهم فهو عليم بهم فإن شاء رحمهم ، وإن شاء عذبهم بما علم عنهم ، ولقد فضل الله بعض الأنبياء على بعض ، وآتينا داود زبوراً .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تبين الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ضرورة التوكل على الله تعالى

الوجود كله ملك لله تعالى ، وعلمه محيط بكل شئ ، وإذا أراد شيئا قال له كن فيكون ، ولا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى .
ولذلك وجب تسليم الأمر لله تعالى ، والتوكل عليه وحده ، فهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير .
إن الله ينصر عباده ، ويعينهم فى الدنيا ، ويمكنهم من طريق النصر والفلاح .
إن التوكل على الله اعتماد على العظيم ، ولجوء إلى الكريم ، وأمان من كل سوء .

إن التوكل على الله تعالى يعنى ترك النتائج لله تعالى ، والخلوص من كل سوء ، ويؤكد صدق الإيمان ، وحسن الطاعة .

(١٦٠)

الركيزة الثانية

ضرورة الحذر من الشيطان

الشيطان عدو للإنسان منذ أن أنظره الله تعالى ، وأبقاه فى الأرض
يوسوس للناس ، ويبعدهم عن الصراط المستقيم ، وواجب المسلم أن يحذره فقد
عرفه به ، وحذره من وساوسه ، فهو يفسد بين الناس ، وكل من يتمكن منه
سوف يؤذيه ، وهو عدو مبين .

والشيطان مخلوق خفى يتحرك بسرعة فى كل مكان ... والإنسان المؤمن
يشعر به ، وهو يحجب له الشهوة ، ويصرفه عن الحق ، ويبعده عن الطاعات
من حيث لا يدري .

وقد يتمكن الشيطان من توجيه أنصاره إلى نشر فساد كبير فى الأرض
فهو عدو خطير .

الركيزة الثالثة

الدعوة إلى الله بالحسن

الدعوة إلى الله تعالى واجبة لتصل إلى الناس فى كل مكان ، وأساس
النجاح فى الدعوة التمسك بالحسن فى القول والسلوك .

إن الأخلاق الحسنة هى التى تمكن من الوصول للناس وتيسر للناس أن
يسمعوا الحق ، وتحقق فى عالم الواقع دين الله تعالى .

إن الدعاة يعملون على كسب القلوب ، ومخاطبة الأرواح ، والإقناع
بالدعوة ، ولا يتمكنوا ذلك إلا بالخلق الكريم .

نفى الشريك عن الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٢٧﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات ضرورة الدعوة بحسن الفعل والقول عادت الآيات إلى تسفيه الذين يعبدون الملائكة ، أو الجن ، أو المسيح ، أو عزيزا لأن هذه المعبودات يبتغون بها أن تكون الوسيلة لربهم الذين يرجون رحمته ، ويخافون عذابه .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيات أن عبادة غير الله سفه وضلال ، وتتحدى المشركين ليدعوهم ، ويحققوا لهم ما يرجون ، لأنهم لا يملكون نفعا ولا ضرا ، وأنهم يقصدون الله ، ويعبدونه ، ويتخذون الوسيلة التي تقربهم إليه ، ويخافون عذابه ويرجون رحمته ، ويحذرون معصيته .

وتبين الآيات أن قرى المشركين صائرة إلى هلاك بعذاب استتصال ، أو بعذاب دون ذلك كما حدث مع الأمم السابقة .

(١٦٢)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ ﴾ أمر الله رسوله محمدا ﷺ أن

يقول للمشركين الذين يزعمون أن الله شركاء ، جعلوهم آلهة ، وعبدوهم من دون الله تعالى ، وهذا أمر يوجهه الرسول ﷺ لسائر المشركين الذين يعبدون الأصنام ، والأوثان ، والملائكة ، والجن ، والمسيح ، وعزرا ... الخ ... ليدعو كل مشرك من يعبده حين ينزل بهم الضر ، من فقر ، أو مرض ، أو نحوهما ، ويسأله أن ينجيه من الضر ، وينفعه .

﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ أى ادعوا

أيها المشركون آلهتكم التى عبدتموها لتكشف السوء عنكم ... وفى هذا الطلب استهزاء وسخرية لأنه بيان لهوان هذه الآلهة ، فهم لا يقدرُونَ على شئ ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها شيئا ، ولن تتمكن من دفع الضر عنكم ، ولا تستطيع تحويله عنكم إلى غيركم ، أو تحويله من الضر إلى النفع .

إن الذى يملك الضر والنفع هو الله سبحانه وتعالى ، وهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، فتوبوا إلى الله واستغفروه ... وقد حدث أن أهل مكة أصيبوا بقحط شديد فاستغاثوا برسول الله ﷺ فأمره الله تعالى أن يدعوا من يعبدونهم من دون الله ليعلموا سفههم ، وضلالهم ...

وبعد ذلك بين الله لهم ضلالهم بقوله تعالى .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾

أى هذه الآلهة التى تعبدونها لا تملك لكم شيئا ، وهم يحتاجون الله تعالى ، ويتقربون إليه ، بالطاعة والاستقامة ... فانظروا أيها المشركون إلى آلهتكم التى

(١٦٣)

تعبدون لها لتعلموا أقربها إلى الله ، وتسألونه بها ... ، وفي هذا استهزاء بهم وبتفكيرهم .

إن عبادة هذه الآلهة عبادة باطلة لأنها تقع في غير موضعها فهذه الآلهة لا تدعى ألوهية لنفسها ، ولا تملك شيئاً ، ولا تدفع ضراً عن نفسها وعن غيرها .

إن هذه الأصنام من خلق الله تطيعه : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ

عَذَابَهُ ﴾ في الدنيا وفي الآخرة . أما في الدنيا فهم كسائر خلق الله تعالى

تطيعه ، وتستسلم لقدرته ، وتؤدي عملها الذي خلقت له .

وأما في الآخرة فكل خلق الله يرجون الجنة ، ويخافون النار .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ أى إن عذاب الله أمر محقق نازل

بمن يستحقه في الدنيا ، وفي الآخرة فليحذر العالمون .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله أمر رسوله ﷺ أن يطلب من المشركين دعوة الآلهة التي عبدوها ، لتنجيهم من الضر الذي وقع عليهم ، وهذا استهزاء بهم ، وبيان لسفاهة ما يعبدون ، لأن هذه الآلهة لا تملك لنفسها ، ولا لغيرها نفعا ، ولا ضرا ، وانها تتجه إلى الله ، وتتخذ الوسيلة لتتقرب إليه . وعلى الجميع أن يحذر عذاب الله في الدنيا وفي الآخرة .

(١٦٤)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هى :

ليس للمشركين عقل وتفكير

خلق الله الإنسان ، وأكرمه بالعقل ليتصور ، ويفهم ، ويقارن ، ويقرر ، ويختار ولو استعمل الإنسان عقله ونظر لخلق الله ، وتأمل فى أسرار الكون لآمن بالله ، وأطاع رسول الله ﷺ .

لقد خاطب رسول الله ﷺ العقل فى الإنسان ، وبلغه آيات الله ، وقدم البراهين والحجج ليستقيموا على الحق ، ويصلوا إلى الصراط المستقيم .

إلا أن المشركين لم يستعملوا عقولهم ، وخضعوا لمغريات الدنيا ، وأطاعوا الشيطان الرجيم فأضلهم حتى عبدوا غير الله من خلقه ، واتخذوها آلهة من دونه إن الشرك أعمى قلوبهم ، وأفسد عقولهم ، وخيب أعمالهم وآمالهم ، ولذلك ترى بعدهم عن الخير والصواب .

إن العبادة لله وحده ، والأدلة كلها تؤكد ذلك ، وتدعوا إليه ، وكل ما عدا الله عبد له سبحانه وتعالى .

إن الضلال يجر إلى ضلال آخر ، والمعصية تؤدي إلى غيرها من المعاصي ... وحين يتمادى الإنسان فى المعاصي يسود قلبه ، وتسقط بصيرته ، ولا يرى الأمل ، ويعيش بين الشهوات والمنكر ... وتلك حالة يجب أن يتجنبها كل مؤمن صادق .

إن كل محب للخير ، وعامل للصواب الذى يرجو المجد والنصر لدينه ووطنه ، عليه أن يصدق مع الله تعالى ، ويخلص العمل له ، ويجاهد الهوى فى نفسه ، ويرفع دين الله على أى شئ سواه ، وإذا مسه أو نزعه شيطان فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، وليلجأ إلى مالك الملك لينقذه . يقول الله تعالى :

﴿ إِنِّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾^(١) .

عذاب الله للضالين

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة سفاهة المشركين فى اتخاذهم شركاء لله ، واستحقاقهم العذاب جاءت هذه الآية لبيان العذاب الذى حدث للمشركين الذين عبدوا غير الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله أهلك القرى التى أشرك أهلها ، ودمرها تدميرا تاما أو عذبها عذابا شديدا وهو سبحانه قادر على أن يفعل ذلك بمن يعمل عملهم ، فليحذر مصيرهم غيرهم من المشركين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أى كم قرية من القرى قد ضل أهلها ، وكفروا بالله تعالى وعبدوا آلهة

(١) سورة الأعراف ، الآية ٢٠١ .

أخرى قد استأصلهم الله بالهلاك قبل يوم القيامة كما حدث لقوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط عليهم السلام ، أو عذبهم بعذاب أليم كالقحط والهزيمة ، والمرض بسبب ذنوبهم .

وهذا العذاب الذى يلحقه الله بأهل القرى يكون فى الدنيا لأنه ينزل بهم ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْصَةِ ﴾ ... وبعد القيامة والحساب سوف نعذبه ، ونصليه ﴿ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾^(١) .

يؤكد الله هذا العذاب فى آيات أخرى منها قوله تعالى :

– ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهَا فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا ﴾^(٢) .

– ومنها قوله سبحانه : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَنَقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾^(٣) .

﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ أى أن هذا العذاب المذكور بنوعيه

، ثابت فى علم الله منذ الأزل ، ومكتوب فى اللوح المحفوظ .

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إن أول

ما خلق الله القلم فقال له : اكتب .

فقال القلم : ما اكتب ؟

قال الله له : اكتب المقدر ، وما هو كائن إلى يوم القيامة^(٤) .

(١) سورة النساء ، الآية ١١٥ .

(٢) سورة الطلاق ، الآية ٨ .

(٣) سورة الطلاق ، الآية ٩ .

(٤) سنن أبى داود . كتاب السنة . باب فى القدر ج ٤ ص ٢٢٥ .

(١٦٧)

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله قدر لأهل القرى الذين أشركوا عذابا فى الدنيا يستأصلهم به ، أو يؤذيهم ويؤلمهم ، وهو عذاب معلوم فى علم الله القديم ، وقد كتبه فى اللوح المحفوظ .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

الجريمة لا تنفد

يفترق الناس فى الدنيا إلى فريقين رئيسيين :
فريق عرف الحق واتبعه وسلك الصراط المستقيم .
وفريق طغى ، وبغى ، وعصى ، وعاش فى الضلال المبين .
وقد قضى الله تعالى بالنصر ، والفوز ، والفلاح للمؤمنين ، كما قضى بالهلاك ، والهزيمة ، والخزى للمفسدين ...
هذا فى الدنيا .

وأما فى الآخرة ففيها الجنة بدرجاتها ، ولها أصحابها يأوون إليها ويسعدون وتقول لهم الملائكة : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾^(١) ... وفيها النار بدرجاتها ، ولها أصحابها الذين أفسدوا ، وعصوا ويقال لهم : ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾^(٢) .

(١) سورة الحاقة ، الآية ٢٤ .

(٢) سورة القمر ، الآية ٤٨ .

إن الجريمة لا تفيد ، وشهوات الدنيا لا تنفع ، ومهما بلغت لا تخلو من منغصات تكدرها ، وسوء يلزمها ، تعيشه النفس الظالمة وتخفيه .
 إن هذه الحقيقة يعيشها الناس ، وهي خير دعوة للاستقامة ، وأحسن هاد إلى دين الله تعالى ، لأن المؤمن يرضى ، ويبحث عن السعادة في الدنيا والآخرة ، ويعلم أن الدنيا قصيرة الأجل ، والآخرة هي دار البقاء والأمل ، ولذلك فهو يرضى في الدنيا بما قدر الله له ، ويعمل ليعيش في متعة الآخرة ، فهي الخير كله .

سبب عدم نزول الآيات المبهرة لأهل مكة

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

قال ابن عباس رضي الله عنه : سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وفضة ، وأن ينحي الجبال عنهم ليزرعوا مكانها زروعاً ورياضاً فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ إن شئت أن أستأنى بهم فعلت ، وإن شئت أن أوتيهم ما سألوا فعلت ، فإن لم يؤمنوا أهلكتهم كما أهلكت من كان قبلهم .
 فقال النبي ﷺ : لا بل تستأنى بهم .

فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ ۚ ﴾ .

(١٦٩)

وأخرج البيهقي فى الدلائل عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال : قال الناس لرسول الله ﷺ : لو جئنا بآية كما جاء بها صالح والبنون . فقال رسول الله ﷺ : إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم ، فإن عصيتم هلكتم . فقالوا : لا نريدها ^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بنيت الآية السابقة أن الله أهلك أهل القرى المشركة واستأصلهم جاءت هذه الآية لبيان سبب عدم إهلاك أهل مكة وتدميرهم .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله لم ينزل الآيات التى طلبها المشركون فى مكة ، لأن الكفر بعدها يعقبه استئصال تام كما حدث مع الأمم السابقة ، ومنها قوم صالح فقد جاءتهم الآيات فظلموا ، وكفروا فأهلكهم الله بالطاغية ، وقد جعل الله هذه الآية إنذارا للعصاة ، والضالين المستمرون فى ضلالهم .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ أى أنه

سبحانه وتعالى لم يستجب طلب المشركين فى نزول الآيات المبهرة ، لعلمه سبحانه وتعالى أنهم لن يؤمنوا بها ، ولو أنزلها لأهلكهم ، كما فعل مع الأمم

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ١٦٥ .

الأولى فقد جاءتهم الآيات ، فلما كذبوا بها أهلكهم ... وتلك من رحمة الله بأمة محمد ﷺ فقد قضى بعدم استئصالهم ، ولذلك لم يستجب لطلبهم الآيات المبهرة لعلمه سبحانه وتعالى أن منهم ومن ذريتهم ستخرج أمة خيرة صالحة تؤمن بالله وتنتشر الإسلام فى العالمين ...

﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أى طلبت ثمود قوم صالح آية مبهرة فأتيناها لهم ، وأعطيناهم الناقة حجة واضحة ظاهرة ، وطلب منهم صالح عليه السلام أن يؤمنوا بالله وحده ، ويقصروا العبادة له ، ويتركوا عبادة الأصنام إلا أنهم بعد ظهور الناقة لم يؤمنوا ، ومنعوا شربها ، وقتلوها .

﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أى ظلموا أنفسهم بقتلها ، وظلموا صالحا بعدم تصديق أن الناقة من عند الله ، فكان أن نزلت بهم عاقبة الظلم ، وانتقم الله منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

فإن قيل : لم خصت الآية ثمود بالذكر دون غيرهم مع أن الله أهلك كثيرا من الأمم غيرهم مثل قوم نوح عليه السلام ، وقوم هود عليه السلام ، وقوم لوط عليه السلام ؟
أقول : خصت الآية وهى تتكلم عن أهل مكة ثمود بالذكر لأن آثارهم باقية ، وموجودة فى الطريق بين مكة والشام ، يراها أهل مكة فى سفرهم ذاهبين إلى الشام أو راجعين منها فحسن التذكير بهذا الواقع المشاهد .

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أى وما ننزل الآيات ، ونرسل بها الرسل إلا لإنذار المشركين ، وتخويفهم من سوء العاقبة ، عساهم يرجعون إلى الحق ، ويؤمنون بالله تعالى .

ذكر المؤرخون أن الكوفة رجفت (زلزلت) في عهد ابن مسعود فقال : أيها الناس ، إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه .
وروى أن المدينة زلزلت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات فقال عمر : أحدثتم والله ، لئن عادت لأفعلن ولأفعلن^(١) .

وفي الحديث الصحيح : "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وانهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن الله يخوف بهما عباده ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره . ثم قال : يا أمة محمد ، والله ما أحد أغير من الله أن يزنّى عبده ، أو تزنى أمته ، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا"^(٢) .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله لم ينزل على رسوله آية مبهرة طلبها أهل مكة لأنه سبحانه لو أنزلها ، وكفروا بها سيهلكهم مثل الأمم السابقة ، وكان أن رحمهم سبحانه وتعالى ، ولم يستجب لطلبهم ليرجعوا إلى الله تعالى ، ويتوبوا إليه ، وقد علم سبحانه وتعالى خروج خير أمة منهم ومن أصلابهم .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

بيان عناية الله بأمة محمد ﷺ

تجلت عناية الله بأمة محمد ﷺ في تقديره لهم ، فقد بقى ﷺ يدعو أهل

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ١٦٥ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الجمعة . باب الصدقة في الكسوف ج ٤ ص ١٥٩ .

مكة ثلاثة عشر عاما ، ولم يؤمن به إلا القليل ، واستمرت الكثرة فى كفرها ، وعنادها ... ومع ذلك أبقى الله عليها ، ولم يقدر عليها الهلاك والتدمير فتركها رسول الله ، وهاجر إلى المدينة ، وحدث الكثير من القتال والحرب مع المشركين وكان أن ظهر سر عدم إهلاك أهل مكة بأن دخلوا فى دين الله أفواجا ، وحملوا الإسلام مخلصين إلى العالم كله ، وتجلت عناية الله بهم فصحبوا رسول الله ، وجاهدوا فى سبيل الله تعالى ، وحملوا أمانة الإسلام ، وحافظوا عليها .

إن الغيب لا يعلمه إلا الله ، ونزول قدره مرتبط بمشيئته ، والمسلم موجود فى الدنيا بقضاء الله ، وعليه أن يقر بالعناية الإلهية ، ويستسلم لما قدر الله له ... ويعترف بالقصور الذاتى فى حقيقة العمل ، ونتائجه ... وبهذا يلتزم بما أمر الله به ، أو نهى عنه ، فهو سبحانه علام الغيوب ، وكل شئ موزون مقدر . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾^(١) .

استعجل أهل مكة نزول العذاب ، وطلبوا نزول الآيات فلم يستجب الله لهم فتحدثوا ، وزعموا ، وكذبوا ... فلما أسلموا حمدوا الله أنه لم يستجب لطلبهم .

إن عناية الله سياج هذه الأمة وسندها ، وكثيرا ما ساءت أمور الناس ، وشاعت المنكرات ، واقترب اليأس من العقول والأفهام فإذا بها تتفرج بعيدا عن المقياس العقلى ، أو الواقع البشرى ، وتلك هى عناية الله . يقول الله تعالى :

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ ﴾^(٢) .

إن المسلم محتاج إلى عناية الله تعالى لأنه لا يدرك ما تخبئه له المقادير وحوادث الزمان مخيفة ومروعة ، ولا نجاة إلا بالعناية الإلهية .

(١) سورة الحجر ، الآية ٢١ .

(٢) سورة الشرح ، الآية ٥ ، ٦ .

(١٧٣)

وإذا العناية لاحظتك عيونها .: نم فالمخاوف كلهن أمان
ليعلم كل مسلم أنه لا سعادة إلا برضى الله ، ولا خير إلا فى طاعته
سبحانه وتعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ﴾^(١) .

تكريم الله احمد ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة تعنت أهل مكة وشركهم جاءت هذه الآية لحث
رسول الله ﷺ على تبليغ الدعوة ، وضرورة الثقة فى عناية الله به .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية عناية الله سبحانه وتعالى برسوله محمد ﷺ ونصره له ضد
أعدائه الذين يفتتنون بما جعل الله له .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ وفيه يذكره
الله بما أوحى إليه به ... والمعنى اذكر يا محمد ما أوحينا إليك به ، وعرفناك

(١) سورة المطففين ، الآية ٢٦ .

معه أن الله هو القادر على عباده ، وأنهم فى قبضته ، وتحت قهره وغللبته ، وأنه محيط بهم فلا يقدرّون على أمر إلا بقضائه وإرادته فقد عصمك منهم ، وأبطل كيدهم حين مكروا بك : ﴿ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ۗ ﴾^(١) .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ أى قدرنا أن يكون ما رأيت فى ليلة الإسراء والمعراج من آيات وعجائب فتنة واختيارا للناس ، فقد ازداد المؤمنون بها إيمانا ، وكذب بها المشركون وضيعوا الإيمان وازدادوا بها حيرة واضطرابا ، والفتنة هى اضطراب الرأى ، واختلال التفكير .

والقول الذى ذهب إلى أن المراد بالرؤيا ما رآه النبى ﷺ فى معراجة أولى من القول بأنها الرؤيا التى رآها النبى ﷺ فى المدينة قبيل الحديبية وعنها يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۗ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۗ ﴾^(٢) لأن من قال بذلك يرى أن رسول الله تعجل فى الذهاب إلى مكة فلما رجع افتتن المسلمون ، ولأن رؤية الحديبية كانت فى المدينة والآية مكية وسفر النبى ﷺ إلى مكة أمر إلهى له فهو ﷺ ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْوَحَىُّ يُوحَىٰ ۗ ﴾^(٣) .

وأیضا فإن ورود الآية فى سورة "الإسراء" ترشيح بارتباط الآية بالسورة .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٣٠ .

(٢) سورة الفتح ، الآية ٢٧ .

(٣) سورة النجم ، الآية ٤ .

﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ أى فتنا المشركين بـ ﴿ شَجَرَةُ

الزَّقُومِ ﴾ التى لعنها الله تعالى ، وجعلها طعام الآثمين ، وبيان ذلك أن أبا جهل

قال : إن ابن أبي كبشة يعني النبي ﷺ توعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يزعم أنه تنبت فيها شجرة وتعلمون أن النار تحرق الشجر .

وقيل : إن عبد الله بن الزبيري قال : إن محمدا يخوفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر .

فقال أبو جهل : يا جارية تعالى فزقمينا فأنت بزبد وتمر ، فقال : يا قوم فإن هذا ما يخوفكم به محمد ، فأنزل الله سبحانه وتعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجر ﴿ إِنَّا جَعَلْنَهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾^(١) .

وقد فات هؤلاء أن فى الدنيا أشياء كثيرة لا تحرقها النار ، فهناك نوع من الحرير يسمى بالحرير الصخرى لا تؤثر فيه النار ، بل هو يزداد نظافة إذا لا مس النار ، ومن ثم يلبسه رجال المطافئ فى الدول المتمدينة .

وكم فى الأرض من عجائب ، وكم فى العوالم الأخرى من مثلها ، فالأرض مملوءة نارا ، وما خلص من النار إلا قشرتها التى نعيش عليها ، وما من شجر أو حجر إلا وفيه نار ، والماء نفسه مادة نارية فنحو ثمانية اتساعه منه اكسوجين وهو مادة تشتعل سريعا ، والتسع الباقي أدروجين فأرضنا نار ، وماؤنا نار ، وأشجارنا وأحجارنا مليئة بالنار ، وهذا العالم الذى نسكنه تتخلله النار^(٢) .

فإن قيل : كيف يلعن الله الشجرة ولا ذنب لها ؟

(١) سورة الصافات ، الآية ٦٣ .

(٢) تفسير المراغى ج ١٥ ص ٦٧ .

(١٧٦)

أقول : الشجرة ملعونة بلعن أصحابها ، فلعنها مجاز مرسل علاقته الحالية والمحلية .

﴿ وَخُوفُهُمْ مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ أى نخوف المشركين والعصاة بمخاوف الدنيا والآخرة إلا أنهم لشدة ضلالهم يتمادون فى الضلال ، ولا يزيدون بالتخويف إلا تماديا فى الضلال والعصيان ، والبعد عن الحق . وفى هذا بيان لرسول الله ﷺ ليعلم أن فريقا من الناس يسيطر عليه هواه ويضله الله على علم ، ويدفعه الكبر إلى التعالى والعدوان . وعليه ﷺ أن لا ييأس من عدم إيمانهم ، ويتأكد من عصمة الله له من مكرهم وكيدهم .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الخلق جميعا فى قبضة الله ، وأنه سبحانه محيط بهم ، ولن يمكنهم من كيدهم برسول الله ﷺ ، وأنه يفتنهم بالمعجزات ، وسيحاسبهم على ما فعلوا .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

أهمية وضع العقل

فى حدود طاقته

خلق الله كل شئ ، وهياً كل مخلوق لما خلق له ، ولو استقامت الأمور على قدر الله لتحرك الوجود كله نحو غايته ، واستراح كل شئ لمساره فى المجال المهيأ له .

والعقل عطاء الله للإنسان له طاقته ومجاله ، ولو وضعه الإنسان في موضعه ، واستفاد به في الإطار الذي خلقه الله له لتحققت سعادته .

إن مجال العقل مشاهدة الواقع ، وتحليل المحسوسات ، ومحاولة ربطها بسببها ، واكتشاف طرق الاستفادة منها ، والتواصل مع المعقولات والمعلومات التي تواجهه بفهم ، ووعى ، وإدراك عند حدود طاقته .

لقد أثبتت حقائق الحياة قديما وحديثا أن العقل حين يعمل في مجاله يستفيد ويفيد ، وحين يبتعد عن هذا المجال يضل ويزيغ . فمثلا إذا فكر العقل في الماء والهواء ، وحلل عناصرهما ، وعمل على الاستفادة بهما بالمحافظة على ماء نظيف ، وهواء نقي ، وبحث عن أثرهما في الكائنات ، فإنه يستفيد ويفيد ... إما إذا أخذ يبحث في خلق الماء والهواء ، وفي كيفية الخلق ، وبدئه الأول فإنه يضل ، وينتابه الجزع ، ويصطاده إبليس فيفسده ، ويضله ، وسبب ذلك هو وضع العقل في غير طاقته وقدرته .

لقد ضل كثير من الفلاسفة حينما أخذوا يبحثون عن أصل الكون ، وعن عالم المثل ، وعن العقول العشرة ، ولم يصلوا لشيء .

لقد استغرق فلاسفة اليونان زمنا طويلا وهم يبحثون عن أصل الكون ، ومحاولة كشف أسرار الوجود ... إلا أنهم فشلوا ، ولم يصلوا لشيء ، فلما جاء "أرسطو" ، ونادى بمعرفة الوجود من خلال معرفة المرء بذاته وبمن حوله عد ذلك هو الطريق الصحيح للبناء لأنه رفع شعار المعرفة الواقعية "اعرف نفسك بنفسك" ، وهذا الشعار مفيد لأمر :

(١) إنه يدعو الإنسان إلى أن يعيش الواقع .

(١٧٨)

(٢) إنه يعرف الإنسان بمدى طاقة العقل لأن العقل لا يمكنه أن يعرف ذاته وما يتصل بها ... فكيف به أن يعرف الكون القريب والبعيد على وجه مفصل !!؟

(٣) إن تأمل الإنسان في ذاته يوقفه على عديد من الحقائق التي لا يعرف سببها ... وعليه أن يعرف الله بها .

وجاء الإسلام ووجه العقل لمجالة الحيوى وجعله أساس الإيمان والتقوى وخاطبه بآيات الله في نفسه ، وفي الكون ليقف عند دلالاتها ويؤمن بوحداية الله وقدرته الذى خلقه ، وأكرمه ، وهده .

وهناك فريق من الناس تميل نفسه إلى السوء ، ويجعل عقله مصدر بلائه ويرى الحق ولا يؤمن به ، ويترك نور الهداية إلى ظلام الكفر والضلال .
إن وحى الله ثابت والطريق إلى الله معروف ، وخير للإنسان أن يكون عبدا لله تعالى بعقله وجوارحه ، وأن يجعل فكره ، وعمله ، ويقظته ، ومنامه ومحياه ، ومماته لله رب العالمين .

عمل إبليس وذريته فى الناس

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿١٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَىٰ لَيْنٍ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لِأَحْتَنِكَ ۖ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿١٨﴾ وَاسْتَفْزَزَ مِنْهُمُ ابْنُ آدَمَ يَصُوتُكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ يُحْيِيكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكُكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٩﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٢٠﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة فتنة الناس برحلة المعراج وبشجرة الزقوم جاءت هذه الآيات لبيان فتنة الناس بإبليس وذريته بسبب حسده لآدم عليه السلام .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات ما حدث من إبليس مع آدم عليه السلام ، فلقد أبى السجود ، وأعلن عزمه على إفساد ذريته ، ومواصلة عزمه إلى يوم القيامة ، وبين أنه سيبدل كل الحيل ، وقصارى الجهد فى إضلال الآدميين ، وقد أنظره الله إلى يوم القيامة ، وحذر الناس من أَلَاعِيهِه ، وبينها لهم ، ووضح لهم سبل التخلص من كيد إبليس ... وبذلك لا عذر لإنسان إذا تغلب الشيطان عليه .

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ أى اذكر يا محمد لقومك

عداوة إبليس لآدم وذريته ، وعرفهم أنها عداوة قديمة منذ خلق آدم ﷺ ، فإن الله سبحانه وتعالى أمر الملائكة كلهم بالسجود لآدم تكريما له وتقديرا لآدميته التى أكرمها الله فى سائر عبادته .

﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ أى سجد الملائكة بعدما بث الله فى آدم الروح

ولم يمتنع عن السجود إلا إبليس فإنه أبى واستكبر ، وعلل سبب معصيته ، و ﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ فظلم نفسه بتكبره على أمر الله تعالى

ونسب الله إلى الظلم والجور ، وتصور أن النار التى هو منها أفضل من الطين الذى خلق منه لآدم ﷺ ... وقد فاتته أن الطين أفضل من النار ... ولو سلم غير هذا فالأجسام كلها من جنس واحد ، وقد أوجدها الله من العدم ، يفضل بعضها بعضا بالأعراض التى تلحق به ، فلم يبق الطين طينا جامدا ، وانما صار بشرا سويا ، ولم تبق النار نارا مشتعلة ، وانما صارت شيطانا متمردا .

ولم يقف الشيطان عند الرفض والتكبر ، وانما انتقل إلى التحدى والإنذار

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ ؟ ... أى قال إبليس لله متعجبا

بعدما أمره بالسجود : أخبرنى عن هذا المخلوق الذى فضلتته على ، وعلمنى أسباب تفضيله ... وأنظرنى ، وأخرموتى حتى أضله وآخذه معى إلى الجحيم ... وقد أمل إبليس فى نجاح خطته لما سبق عنده من معرفة شئ عن الأدميين وذلك حين قالت الملائكة : ﴿ أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ ﴾^(١) .

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٠ .

﴿لَنْ أُخْرَجَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لِأَحْتَنِكُ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أقسم

إبليس لله حين طلب تأخير موته ، وأكد في قسمه هذا أنه إذا أخره الله ، وتركه يضل الناس إلى يوم القيامة ليوجههم في طريقه ، ويتحكم فيهم حتى يستأصلهم من عمل الخير كما يتحكم اللجام في الفرس ، وكما يستأصل الجراد الزرع ، وأقسم إبليس في طلبه ، وغايته لبيان شدة حرصه على ما تمنى .

وقد صادفت رغبة إبليس مراد الله تعالى فمكنه من طلبه ... وانما ذكر إبليس أنه يعمل إغواء ذرية آدم دون آدم ... لأنه أغوى آدم وأخرجه من الجنة وبانت عداوته ، فبعد عنه بعد أن اشفى غليله منه فتفرغ بعد ذلك لذريته . وقد أجاب الله إبليس إلى طلبه ، وعرف الناس بذلك ليتخذ كل إنسان موقفه من إبليس على بينة .

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَأُكُمْ جَزَاءً

مَوْفُورًا﴾ أى قال الله تعالى لإبليس أمض لشأنك الذى اخترته لنفسك ، وافعل ما تقدر عليه . فقد قضيت بأن تكون جهنم لك ، ولمن اتبعك من ذرية آدم جزاء وافرا كاملا لا ينقص منه شئ .

﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ أى استخف ، وادع ،

وحرص بالصوت والنداء من تستطيع تسخير من ذرية آدم عليه السلام .

﴿وَأَجَلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أى واجمع عليهم من ركبان جندك

ومشاتهم من يعينك على ذرية آدم لتتمكن منهم ، وتصرفهم عن طاعتي .

﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أى شاركهم فى الأموال بأن

تدفعهم إلى كسبه من حرام ، وانفاقه فى حرام ... وشارك كذلك فى الأولاد أى ادفعهم إلى أن يركبوا الحرام مع أولادهم مثل تشجيعهم على عمل الفساد ، وعدم

تربيتهم وتعليمهم ، وتعويدهم على الخلاعة والمجون ، وارتياذ بيوت اللهو ، ومشاهد الخنا والمجون ، وتحبيبهم على أعمال السوء التى لا ترضى الله تعالى حبا فى الدنيا ، وزخارفها ، أو نسيان التسمية عند الجماع .

﴿وَعِدَّهُمْ﴾ أى اعطهم وعدا ، وجمل لهم المعاصى ، وسهلها لهم ، وذلك أن الشيطان إذا دعا إلى المعصية فلا بد أن يقرر أولا أنه لا مضرة فى فعلها البتة ، وذلك لا يمكن إلا إذا قال لمن يسمع له : لا معاد ، ولا جنة ، ولا نار ، ولا حياة بعد هذه الحياة ، فيقرر عند المدعو أنه لا مضرة فى هذه المعاصى .

واذا فرغ من هذا النوع قرر عنده أن هذا الفعل يفيد أنواعا من اللذة والسرور ولا حياة للإنسان فى الدنيا إلا به ، فهذا طريق الدعوة إلى المعصية ثم ينفره عن فعل الطاعات ، ويقرر عنده أن لا جنة ولا نار ولا عقاب فلا فائدة فيها^(١) .

فإن قيل : كيف يأمر الله الشيطان بذلك وهو سبحانه لا يأمر بالفحشاء ؟

أقول : هذا أمر يقصد الله به التهديد كقوله تعالى : ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾^(٢) .

وكقول القائل : ابذل جهدك فسترى نتيجة عملك ... والشيطان يستحق هذا التهديد . فقد فسق عن أمر ربه ، وتكبر على الله ، واتهمه بالجور فاستحق هذا التهديد .

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أى إن كافة وساوس الشيطان

غرور باطل ، فلا تتبعوها لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى شهوة نفسية أو غاية دنيوية ، وهى فى النهاية لا تفيد شيئا .

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ١٦٨ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٤٠ .

(١٨٣)

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ أى ليس لك أيها الشيطان

سلطان على المستقيمين على ديني ، المحافظين على عبادتي .

﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أى أن عبادي يتوكلون على ، وأنا كافيمهم

فلا سلطان لك عليهم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله تعالى أمر الملائكة أن تسجد لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، واستكبر ، ورفض أن يسجد لآدم لأنه خلق من طين ، وادعى أنه أفضل منه ، وطلب من الله أن يؤخر موته إلى آخر الدنيا ليضل ذرية آدم بعد أن أخرج أباهم من الجنة فأنظره الله ، وتركه يعمل ما يريد ، وحذر الناس من الشيطان ، وعرفهم به ليأخذوا حذرهم ، ويكونوا عبادا صالحين حتى لا يكون للشيطان تأثير عليهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الشيطان أعدى أعداء الإنسان

تمرد إبليس عن السجود لآدم ﷺ ، وغازطه ما جعل الله لآدم ﷺ وذريته ، ولذلك طلب من الله أن ينظره إلى يوم القيامة ليضل من يتبعه عن سواء السبيل ... وقد استجاب الله له ليظهر فى الناس المؤمنون ، والمنافقون والمشركون ... وقد عرف الله الناس بالشيطان الرجيم ، ووساوسه ليأخذوا حذرهم ، ويتحصنوا ضد غروره ، وألعيه ، وحيله .

إن أعدى أعداء الإنسان هو الشيطان وذريته لأنهم العاملون على إضلال الناس ، وحرمانهم من جنات النعيم .

ويجب أن تعرف هذه العداوة ، وتعرف مساراتها فى النفس ، وتعرف حيل الشيطان فى توجيه الإنسان إلى الشهوات المنكرة ، وسبل تشجيعه على الاستغراق فى الماديات الزائلة .

لقد أغرى الشيطان آدم وحواء عليهما السلام ليأكلا من الشجرة التى أمرهما الله بعدم الأكل منها وأكد لهما صدقه ، وأقسم بأنه ناصح أمين لهما ، واستمر فى إغوائهما حتى خرجا من الجنة ، وهو مستمر وذريته فى الإغواء والتضليل .

والشيطان فى إغوائه يلتقى مع الميول النفسية ، والغرائز الباطنية ، ويشجع على ارتكابها بدعوى المتعة والتلذذ مرة ... ومرة أخرى بأنها من الصغائر التى يتجاوز الله عنها ... ومرة بالإغواء والقيام بها ، بلا ضرر لأن التوبة منها تزيلها ... ومرة أخرى بعدم الحرمان كما يفعل الآخرون .

والشيطان لا يكتفى بالتحريض على المعاصى ، بل إنه يعمل على صرف الإنسان عن عبادة الله ، ويأتى للمقاصد القلبية ، ويدعوها إلى التسويف والتأجيل ، وإلى صعوبة التكاليف ، وإلى الأعباء الثقيلة التى يتحملها المؤمنون ، وبهون الشيطان من المؤمنين عند أعدائهم ليعتدوا عليهم .
إن الشيطان ملئ بالخداع ، والمكر ، والحيل .

والواجب :

إن ينتبه المسلم إلى هذا العدو المداجى ، ومواجهة مكره بما بين الله تعالى له فعلى المسلم أن يطيع الله ، ويداوم الذكر والدعاء ... وبعلم أن الله يدعو إلى الخير ، والنور ، والصلاح فيستمر عليها ، ويترك ما دعا إليه الشيطان ، ويلجأ إلى الإسلام فهو طريق النجاة فى الدنيا وفى الآخرة . يقول

(١٨٥)

الله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۗ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾^(١) .

إن العبودية الصادقة لله خير وسيلة للتخلص من هذا الشيطان اللئيم .
والإنسان العاقل هو الذى يعرف أعداءه ، ويتعامل معهم ، ويعرف أوليائه
وأحبابه ليستقيم معهم .

الركيزة الثانية **الإنسان خليفة الله فى الأرض**

قضى الله بتعمير الدنيا ، فأهبط آدم عليه السلام من الجنة ، وجعل ذريته تملأ
جنبات الأرض ، وأرسل لهم رسله ، وكلفهم بتطبيق تعاليم الله تعالى فى هذه
الحياة .

لقد اختار الله خليفته ، وحدد له المنهج الذى يسير عليه ، وفصله تفصيلا
محكما بينا ، وأبقاه بين يديه وحيا يتلى ويقرأ .
وهذا الاستخلاف يلزم الإنسان بعدة أمور :

الأمر الأول : شكر المنعم المتفضل الذى قدر للإنسان أن يكون سيد
الكون ، وسخر المخلوقات له ... وهذا الشكر واجب فى منطق العقل ،
والضمير لأن الواجب شكر المعطى على عطائه بالوسيلة التى يرضى بها ،
لأن الشكر لا يكون بغير مراد المعطى ... وقد حدد الله سبحانه وتعالى لعباده
طريق الشكر ، وحدد لهم مناهج الوصول إليه .

الأمر الثانى : العمل الدائم الصالح للمحافظة على إرضاء الله ليدوم
فضله ويستمر عطاؤه ... فهو سبحانه يمسك السموات والأرض أن تزولا ،

(١) سورة فصلت ، الآية ٤٠ .

ويقدر لكل الكائنات أن تقوم بما خلقت له ، ولو شاء سبحانه وتعالى حرمان الإنسان لكان ما أراد ، فإن الدنيا كلها تنتهى بنفخة واحدة . يقول الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾^(١) .

الأمر الثالث : يجد الإنسان نفسه أمام مسئوليات حددها الله له ، وأبقاها بين يديه محكمة مفصلة ، وحته على ضرورة الالتزام بها مستفيدا بحوادث القدر فى الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، وأحاطه بالتبشير والإنذار . ليعلم بكل وضوح الطريق المستقيم الواجب اتباعه .

الأمر الرابع : ضرورة ربط الدنيا بالآخرة ، فكل ما فى الدنيا معلوم لله تعالى ، ومدون فى كتب لا تخفى صغيرة ولا كبيرة ، وعلى ما فيها يكون الحساب والجزاء ... ومن العار أن يأتى الإنسان يوم القيامة فى صورة من جحد نعم الله ، ومن أنكر ما وجب عليه .

ومن الخزى أن يجد العاقل نفسه فى نار جهنم أمام أهله والأنبياء والصالحين ، ويرى نفسه مسوقا إلى جهنم مقيدا بكلايبب فى قدمه ، وبقيود فى رقبته ، وسلسلة شديدة تحيط به .

الأمر الخامس : التأمل الدقيق فى لوازم الاستخلاف يؤدى إلى التمسك بها ، لأن العاقل يرى ارتباطها بالجوانب الإنسانية الراقية فهى تدور على المعروف والحسن ، والعدل ، وتنتهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى تتادى بالصلاح والاستقامة ، وتحقق الخير للوجود كله .

وبذلك يجد المسلم فى استقامته أنه إنسان مستقيم صالح فى الدنيا والآخرة

(١) سورة الزمر ، الآية ٦٨ .

تكريم الله للإنسان وفضله عليه

يقول الله تعالى :

﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ ۖ فَلَمَّا تَجَدَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۝ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ تَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ۝ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا بِهٍ تَبِيعًا ۝ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة أن الله هو الحافظ لعباده من كيد إبليس ومكره جاءت هذه الآيات لبيان فضل الله على بنى آدم ، وتكريمهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله يسير السفن فى البحر لتبتغوا من فضل الله تعالى الذى تدعونه إذا مسكم الضر ... وإذا رفع الضر تعرضون عنه ... فهو سبحانه وتعالى المالك للملك ، ولن يأمن أحد أن يخسف الله به الأرض ، أو يرسل الريح عليه قاصما ، أو يهيج به البحر فيغرقه ، وهل ينسى الإنسان أن الله فضله على كثير من خلقه .

الدلالات اللغوية

﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾

أى إن ربكم الذى خلقكم وسواكم هو الذى يسير لكم السفن فى البحر لتسهيل انتقالكم ، ونقل أقواتكم ، واحتياجكم من مكان إلى مكان آخر ، لتتمكنوا من الحصول على ما فى البحر من سمك ، ولؤلؤ ، ومرجان .

﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أى أنه سبحانه وتعالى رحيم بكم ، ولذلك

مكنكم من البحر ، وذللك لكم الإبحار فيه بالسفن المختلفة المتنوعة .

وخاطبت الآيات بعد ذلك الكفار فقال تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي

الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾ أى أنكم أيها المشركون إذا مسكم الضر

فى البحر ذهب عنكم الشركاء ولا تدعون إلا الله فيكشف السوء عنكم .

﴿فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ فلما يستجيب الله دعاءكم ، وينجيكم

من هول البحر وشدته ، وتصلون للشعور تركتم عبادة ربكم ، ونسيتم فضل ربكم عليكم ... وهذا من عجائب الناس ، وسوء طبعه وعاداته .

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أى أن طبيعة الإنسان نسيان النعم ، وجود

فضلها إلا من عصمه الله تعالى .

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ تَخْشِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا

ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ ؟ ... والاستفهام للإنكار والتعجب للإنكار

إعراض المشركين بعد أن نجاهم الله . والمعنى : أحسبتم أنكم بعد خروجكم إلى البر أمنتُمْ أن يخسف الله البر ، وينتقم منكم ، ويعذبكم ؟ ... أو يرسل عليكم

حجارة من السماء تقتلكم وأنتم على البر . ثم لا تجدون وكيلا ينقذكم وأنتم على البر من هذا العذاب ، أو يصرفه عنكم .

﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ ؟ ... الاستفهام للإضراب والتوبيخ ، أى وهل امنتم أيها المشركون أن يعيدكم الله إلى البحر مرة أخرى ، ويرسل عليكم وأنتم فيه ريحا تقصف سوارى السفن ، وتغرقها بكم بسبب كفركم ، ونسيانكم فضل الله عليكم .

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ أى لن تجدوا بعد الله ناصرا ينصركم ، أو وليا لكم يتبعنا ليمنعنا من إهلاككم .
وصفوة المعنى أن الله قادر على إهلاككم على شرككم وكفركم . فلقد دعوتموه وأنتم فى البحر فنجاكم ، وأخرجكم إلى البر ، إلا انكم كفرتم وأصابكم الغفلة بلا سبب .

فهل :

تأمنون أن يخسف الله البر بكم ويهلككم ؟ ...
أو يرسل عليكم حجارة من جهة السماء يحصبكم بها ويقتلكم ؟
أم امنتم أن يعيدكم الله إلى البحر مرة أخرى ويرسل عليكم الريح عاصفة تغرق السفن ويهلككم ؟ ... ولن تجدوا نصيرا ينصركم ، أو وليا يدافع عنكم ، أو يتبع الله لينقذكم ، وذلك كله عقوبة لكم على جحودكم وكفركم والله قادر على فعل ما يريد .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ أى ولقد كرّمنا بنى

(١٩٠)

آدم بحسن الصورة ، واعتدال القامة ، وإدراك العقل ، وحسن العمل ، ورزقناهم في البحر والبر ومتعناهم بالطيبات ، وحملناهم في البر ، والبحر ، والجو بوسائل عديدة ، وميزناهم على كثير من خلق الله تعالى ، وفضلناهم على كثير من خلقه .

وقوله تعالى : ﴿ مِمَّنْ خَلَقْنَا ﴾ إشارة إلى وجود بعض خلق الله أفضل من بنى آدم ﷺ .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله تعالى يسير السفن في البحر لتتألفوا الكثير من فضل الله تعالى رحمة من الله بكم ، وأنكم أيها الناس تتسبون الشركاء ، وتدعون الله وحده إذا حل بكم مكروه ، إلا أنكم بعد نجاتكم تكفرون بالله تعالى بلا سبب ، ولا دليل ، ولا تخافون من الله تعالى ، وتسأل الآيات هؤلاء المشركين : هل آمنوا أن يهلكهم الله على البر بخسف البر ، أو بنزول حجر من السماء ، أو يعيدكم إلى البحر ليهلكهم فيه ، فيرسل عليكم قاصفا من الريح ، ولن تجدوا حين ذلك ناصرا ، ولا شفيعا ، ولا وليا ؟

لقد أكرم الله الإنسان في خلقته ، وصورته ، وعقله ، وخلقته ، وسلوكه وحمله في البحر ، والجو ، والبر ، ورزقهم ، ومتعهم ، وفضلهم على كثير من خلقه .

(١٩١)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

فضل الله على الناس

خلق الله الكون كله من سمائه وأرضه ، وبره وبحره ، وسهوله وجماله
وهوامه وطيّره ، وزرعه وشجره .

ووسط كل هذا الخلق نجد الإنسان ، فقد اختاره الله خليفة ، وأكرمه بالنعم ،
وفضله بالعقل والتفكير ، ومتعه بالإنسانية ، وحسن السلوك .
ولعل أكبر ما فضل الله به الناس هو أن سخر له الوجود .

فكل ما فى الأرض مفيد للإنسان ، وكأنها خلقت له لتقدم له الطعام
والشراب ، والحسن والجمال فى الليل والنهار ، والصيف والشتاء .

وكل ما فى السموات مفيد كذلك للإنسان فهو محتاج لحرارة الشمس ،
وضياء القمر ، وكل كائن حى يستمد عناصره مما يجرى فى السماء .

وهذا الفضل الإلهى لا يحصى ولا يعد ، والمرجو أن يكون قوة جاذبة تشد
الناس إلى الله ليرتبط بالله الذى خلق ، وتفضل .

وأن يكون قوة دافعة لأنه محيط بالناس ، يدفعهم إلى تكريم الله ، صاحب
الفضل ، وهو رب العرش العظيم .

إن فضل الله عظيم ، وخير الناس من يعيه ، ويلتزم به ، ويقدم شكره لله
رب العالمين .

الركيزة الثانية

الجحود سبب الكفر

خلق الله الإنسان على الفطرة ، وأودع في قلبه الإيمان ، ونمى هذه الفطرة بآيات الكون والتنزيل ، واطهار النعم والفضائل .

إلا أن الشيطان في طريقته لإضلال الإنسان ينسيه فائدة الفضائل معه ، ويجعله يعيشها من غير إحساس بها فيتمتع بها ، ويستفيد منها كالحيوان الأعجم ، والكائن الذى لا عقل له .

وبذلك ينسى الإنسان الفضل ، ويجهل حق المتفضل عليه .

وقد يقعد العقل عن التفكير ، ويقف عند نقطة لا يتخطاها إلى ما بعدها كمثل الإنسان فى البحر يأتيه الضر فيدعو الله ، فلما ينجيه ينساه ، ويجهل أن الله إذا أراد الله إهلاكه أهلكه فى البحر ، أو فى البر ، والله على كل شئ قدير .

وهذا يجعل الإنسان ذاكرة لربه فى كل حال ، وأن يتذكر نعمه وفضله .

أحوال الناس فى الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ^ط فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ^ط بِرَيْمِينِهِ^ط فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٦﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَدِيَّةٍ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة أن الإنسان كثيرا ما يجحد نعم الله عليه مع أن الله أكرمه وفضله جاءت هاتان الآيتان لبيان أحوال الناس فى الآخرة .

(١٩٣)

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن كل إنسان سيحشر يوم القيامة ، ومعه عمله مدونا فى كتاب يقرأه ليعلم جزاءه المستحق .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنْاسٍ بِإِمْئِهِمْ ﴾ أى ذكر يا محمد ما يحدث يوم القيامة حيث يدعو الله كل إنسان بكتابه وفيه أعماله التى قدمها فى الدنيا خيرا أو شرا . فإن كانت الأعمال صالحة أخذ المسلم كتابه بيمينه ، وإن كانت سيئة أخذه بشماله .

﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ﴾ أى أن من يأخذ كتابه بيمينه يكون سعيدا به ، فيكتبه ، ويقرؤه ، ويرفعه فخورا به .
يقول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةً ﴾ ^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ ^(٢) فَسَوْفَ مُحَاسَبٌ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ ^(٢) .

وأما من أوتى كتابه بشماله . يقول الله عنه : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلِيَّتْنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَّةً ﴾ ^(٢) وَلَمْ أُدْرِ مَا حِسَابِيَّةً ﴾ ^(٢) يَلِيَّتَهَا

(١) سورة الحاقة ، الآية ١٩ ، ٢٠ .

(٢) سورة الانشقاق ، الآيات ٩ . ٧ .

كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٧٧﴾^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ
﴿٧٨﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿٧٩﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿٨٠﴾﴾^(٢) .

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أى لا ينقصون شيئاً من أجور أعمالهم البتة .

فإن قيل : لم خصت الآية أصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع أن أصحاب الشمال يقرأون كتابهم أيضا ؟

أقول : الفرق أن أصحاب الشمال إذا طالعوا كتابهم ، وجدوه مشتملا على مشكلات عظيمة فيستولي عليهم الخجل والدهشة ، فلا يقدرّون على إقامة حروفه ، فتكون قراءتهم كلا قراءة ، وأصحاب اليمين إذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على الحسنات والطاعات فيقرؤونه أحسن قراءة وأبينها .

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ

سَبِيلًا﴾ المراد بالعمى فى الآية عمى القلب والبصيرة . والمعنى من كان فى الدنيا يعيش بقلب أعمى ، لا يرى قدرة الله ، وآياته ، ولا يدرك البراهين ، والحجج التى تؤكد وحدانية الله وقدرته . فإنه يحشر يوم القيامة فى عمى أشد ، وبعد عن السبيل الموصل لجنت النعيم ، وهذا الربط بين حال الإنسان فى الدنيا وفى الآخرة أمر ضرورى لأن من عمى عقله فى الدنيا ، وكفر بالله ، ولم يتب فإنه يحشر فى الآخرة ويعذب بنار جهنم ، ويحمل أوزار ما صنع فى الدنيا .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله يبعث الناس يوم القيامة ومع كل إنسان كتابه يأخذه ، ويحمله فإن كان عمله صالحا أخذ يقرأ كتابه ، ويرفعه بيمينه سعيدا به ، وإن

(١) سورة الحاقة ، الآيات ٢٥ . ٢٧ . (٢) سورة الانشقاق ، الآيات ١٠ . ١٢ .

كان عمله سيئاً فإنه يأخذه بشماله ، ولن يجد الإنسان فى الآخرة إلا ما عمل فى الدنيا . فمن كان فى الدنيا ضالاً بعقله ، كافراً ببصيرته فإنه يحشر يوم القيامة بعيداً عن الخير منغمساً فى نار جهنم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هى :

العدالة أساس المسؤولية

خلق الله الناس ، وأرسل إليهم رسله مبشرين ومنذرين ، وعرفهم بأن الحياة دار عمل ، وابتلاء ، واختبار ، وعرفهم بأن الدار الآخرة للحساب والجزاء .

إن أمر الحياة لا عبث فيه ، ولا يتناقض معه ، و ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ۖ ﴾^(١) .

والسعيد من تيقنت نفسه هذه الحقيقة ، وعمل لها ، وخاف مقامه بين يدي الله للحساب ، لأنه يأتى يوم القيامة سعيداً بما قدم ، ويجد عمله ثواباً حسناً ، وأجراً طيباً . يقول الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ ﴾^(٢) .

إن عدل الله شامل ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا ۖ ﴾^(٣) ... وقد بين سبحانه التكاليف الشرعية ، وحدد العواقب المترتبة على العمل ... ولن يبتعد السؤال عن العمل ، ولن يتناقض الجزاء مع العدل .

(٢) سورة النازعات ، الآية ٤٠ ، ٤١ .

(١) سورة المدثر ، الآية ٣٨ .

(٣) سورة فصلت ، الآية ٤٠ .

إن الإنسان يحشر يوم القيامة ومعه عمله ، وقيمة هذا العمل معلومة لأهل الموقف جميعا ، حيث يسعد المؤمنون بكتابهم ، ويشقى العصاة يوم القيامة بما أوتوا .

وعلى العصاة والمنافقين والمشركين أن لا ينتظروا على أعمالهم خيرا فى الآخرة ... فى هذا اليوم لا ينفع ندم ... ولن يفلت ظالم غشوم .

لا مهادنة مع أعداء الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذَا لَاتُخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٦﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٧﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٨﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزِفُونَكَ مِنْ الْأَرْضِ لِ يُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٩﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٨٠﴾ ۝ ﴾

- ١ -

سبب نزول الآيات

سبب نزولها أن النبي ﷺ كان يستلم الحجر الأسود ، فمنعته قريش وقالوا : لا ندعك حتى تلم بالهتنا وتمسها فحدث نفسه ما علي أن أفعل ذلك ، والله يعلم إنى لها كاره بعد أن يدعوني أستلم الحجر .

(١٩٧)

وقيل : طلبوا منه أن يذكر آلهتهم حتى يسلموا ، ويتبعوه فحدث نفسه
فأنزل الله هذه الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الإنسان سيأتى يوم القيامة ومعه كتاب أعماله
الدنيوية ، ويجزى عليها جاءت هذه الآيات لبيان عدم الاغترار بوساوس
الشیطان ، وعدم الانخداع بكلامه . كما تبين أن الله أجرى سنته على الأمم
كلها .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين عملوا على فتنة رسول الله بوعود كاذبة فجاه
الله منها ، وعصم رسول الله من كيد المشركين وحيلهم .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا

غَيْرَهُ ﴾ الخطاب فى الآية لرسول الله ﷺ وفيه يبين الله لرسول الله كيد
المشركين معه . فقد هموا ليصرفوك عن الوحي المنزل عليك لتختلق غيره ،
وتتبعه مع أنه لم ينزل من عند الله تعالى ، وقد قربوا أن يوقعوك فى الفتنة
بصرفك عن وحينا إليك لتتقول غيره من الأمور التى اقترحوها كما هو واضح
فى سبب النزول .

(١) تفسير الخازن ج ٣ ص ١٧١ .

﴿ وَإِذَا لَاتَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ أى ولو أتبع ما طلبوه منك لوالوك ،
وصافوك ، ووافوك ... وبذلك تخرج من ولايتى وعنايتى .

﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ أى لولا
عصمة الله لرسوله وتثبيته على الحق لقارب أن يميل إلى ما يرومون ، وفى هذا
بيان أن الرسول ﷺ لم يهتم بإجابتهم ، ولم يقرب من ذلك لأن "لولا" التى
صدرت بها الآية تدل على أن تثبيت الله لرسوله منعت مقاربة رسوله لفتنة
المشركين ولو يادنى صور الركون ، وأقل ما يكون منه ، ولم يتعد ميل الرسول
إلى ما طلبه المشركون عن خاطر القلب ، ولم يكن عزما ، وقد عفا الله عن
حديث النفس ، وبعد هذه الآية كان رسول الله ﷺ يقول : اللهم لا تكلنى إلى
نفسى طرفه عين^(١) .

﴿ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ أى لو فعلت ذلك
لضاعفنا عليك عذاب الحياة ، وعذاب الممات لأن ذنب العظيم يشتد عقابه
أكثر من غيره ، ولن يعاقب الله رسوله لأنه لم يركن إلى الفتنة .
﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ أى لن تجد نصيرا ينصرك على الله
ويعينك عنده .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ أى هم
المشركون قبل الهجرة أن يخرجوك من مكة فكفهم الله عن ذلك حتى أمره الله
بالخروج للهجرة فخرج بنفسه .

(١) حلية الأولياء ج ٧ ص ٢٣٧ .

﴿وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلَفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى لا يبقون بعد إخراجك إلا زمانا قليلا حتى يهلكوا .

وفى هذا بيان لإصرار المشركين على إضلال المسلمين ، ومحاولاتهم فتنه المؤمنين الصالحين ، ولولا عناية الله تعالى ، وعصمته لرسول الله ، واهتمامه بالمؤمنين لتمكن المشركون من تحقيق ما يسعون إليه .

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أى أن مسار قدرتنا مع رسل الله جميعا ثابت ، وهو أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم أهلكهم الله ، واستأصلهم بعد إخراجهم من بينهم .

﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أى أن هذه السنة الإلهية مستمرة ثابتة ، ولن تجد لهذه السنة أى تغيير أو إبدال .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المشركين اقتربوا من فتنة النبي ﷺ لصرفه عن بعض ما أوحى الله إليه به لولا أن الله ثبته وعصمه ، ولو أطاعهم رسول الله لصاروا أوليائه القريبين منه ، وفقد ولاية الله له ، واستحق العذاب مضاعفا فى الدنيا والآخرة ، إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث لأن الله ثبته وعصمه ﷺ .

إن مشركى مكة حاولوا إخراج رسول الله من مكة ولم يتمكنوا فبقى ﷺ فيها حتى خرج منها مع أصحابه مهاجرا إلى المدينة المنورة بأمر الله تعالى .

إن العدل الإلهى شامل ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، وسنته فى الأمم واحدة لا تغيير فيها .

(٢٠٠)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

الصراع بين أصحاب الحق

ودعاة الباطل

برغم وحدة الناس ، وتفرعهم جميعا من أب واحد فقد اختلفوا فيما بينهم اختلافا بيّنا ، وانقسموا في كل موقف إلى فرق شتى .

وياليت كل فريق اكتفى بموقفه وعاش عليه وحده بلا محاولة تأثير فيمن يخالفه ، وانما يبدأ المفترقون في تنافس ، وصراع .

إن الاختلاف علامة صحية تدفع المختلفين إلى التحوار ، والنقاش المؤدى للحق ، لأن كل فرد بذلك يعرض رأيه للوصول إلى المصلحة المفيدة للجميع ... أما أن يتحول الصراع إلى عملية عنيفة للقضاء على الرأي الآخر وأصحابه فهو حال لا يجوز .

والآيات تعرف أصحاب الحق بضرورة التمسك بحقهم ، وعدم التأثير بخصومهم الذين يتمسكون بالباطل ، ويعملون على إزهاق الهدى ، واطفاء نور الله في الأرض ، وأن المشركين يحاولون صرف رسول الله وأصحابه عن الوحي المنزل ، وهو حق ثابت لا يصح تركه واهماله .

إن سنة الله في الناس ثابتة ، وقد قضى سبحانه وتعالى باستمرار هذا الصراع بين الناس .

والواجب :

أن يثق المؤمنون في وحي الله إليهم ، فهو الحكم الحق ، وهو الصراط المستقيم ، وعليهم أن يستعدوا لرد العدوان الموجه إليهم ... وعليهم أن يعلموا أن

(٢٠١)

مسئوليتهم أكبر من مسئولية غيرهم لأنهم هم الذين عرفوا الإسلام ، وآمنوا ، وتحملوا الأمانة ، وصاروا مسئولين عنها .
والعلماء المسلمون أولى الناس بحماية الإسلام وعدم الركون لأهل الباطل .

منهج الشريعة الإسلامية فى إصلاح الحياة

يقول الله تعالى :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (٢٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٢٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٣١﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة كيد المشركين ، واستفزازهم لرسول الله ﷺ جاءت هذه الآيات تأمر الرسول ﷺ بعبادة الله ، والإقبال عليه لينصره ، ويثبتته ضد هؤلاء الذين يعادون الإسلام والمسلمين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات المنهج الأمثل الذى تقدمه الشريعة لإصلاح الحياة ، وتحقيق الخير ، وأساس هذا المنهج المحافظة على الصلاة ، وإقامتها على وجهها

(٢٠٢)

الصحيح ، وقيام الليل ، والتوجه إلى الله بالدعاء والرجاء ، والالتزام بما جاء فى القرآن الكريم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تقدم الآيات عددا من المسائل الشرعية فى إطار المنهج الدينى الذى يصلح الأفراد والجماعات ، وهذا المنهج يتضمن ما يلى :

- أولا -

المحافظة على الصلاة

الصلاة أهم الشعائر الدينية التى تقيم الإسلام فى الحياة ، فهى تصلح الفرد ، وتنتشر مكارم الأخلاق ، وتوحد المسلمين ، وتجمعهم فى طاعة الله تعالى ، والآيات تأمر بهذه الصلاة . فيقول الله تعالى :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ أى أد الصلاة ، وحافظ على أركانها ، وشروطها ، وروحها فى أوقاتها التى حددها الله تعالى ... والآية شاملة للصلاة المفروضة لأن "دلوک الشمس" معناها ميلها وظهورها وذلك يحدث عند الزوال ، وهذا يتضمن صلاتى الظهر والعصر .

و ﴿ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ يعنى ظلامه ، وهذا يشمل صلاتى المغرب والعشاء .

﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ أى وصلاة الفجر ، وسميت الصلاة قرآنا لأنها لا تصح الا به ، ولأن من المستحسن إطالة القراءة فى صلاة الفجر .

﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ أى إن صلاة الفجر تشهد ملائكة الليل ، وملائكة النهار معا ، وبيان ذلك ما ذكره رسول الله ﷺ .

(٢٠٣)

يقول أبو هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول : "تفضل صلاة الجمع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءا ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر . ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ ^(١) .

يقول الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره : هذا دليل قاطع قوي على أن التغليس أفضل من التنوير ، لأن الإنسان إذا شرع فيها من أول الصبح ففي ذلك الوقت الظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ، ثم إذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القرآن وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء ، وحضرت ملائكة النهار وبذلك تحضر ملائكة الليل وملائكة النهار الصلاة ... أما إذا ابتداء بهذه الصلاة في وقت الإسفار فهناك لم يبق أحد من ملائكة الليل ، فلا يحصل المعنى المذكور ^(٢) .

وقد أفردت الآية صلاة الفجر بالذكر لأهميتها ، ولحضور ملائكة الليل والنهار فيها ، وحتى لا يغفل المسلمون عنها تلذذا بالنوم ، وركونا للراحة .

- ثانيا -

قيام الليل

في صفاء الليل ، وجلوته يقوم المسلم من نومه في الليل ليصلي صلاة زائدة على الصلاة الخمس المفروضة ، وهي الصلاة المعروفة بـ "صلاة التهجد" ، وقد فرضها الله على النبي ﷺ فقال تعالى :

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ١٧٣ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٢١ ص ٢٩ .

$$(\gamma, \varepsilon)$$

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أى قم من نومك ، وصل صلاة التهجد فقد فرضها الله عليك يا محمد ، وجعلها فريضة زائدة على الفرائض الخمس .

عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ثلاث على فريضة وهى لكم سنة ، الوتر ، والسواك ، وقيام الليل^(١) .

وقد وردت أحاديث كثيرة تبين فضل قيام الليل :

– وعن المغيرة بن شعبه قال : "قام رسول الله ﷺ في الليل حتى انتفخت قدماه .

فقيل له : يا رسول الله أنتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

قال : أفلا أكون عبدا شكورا" (٢) .

— وعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال : لأرْمَقَن صلاة رسول الله ﷺ فتوسدت عتبه ، أو فسطاطه فقام ، فصلّى ركعتين خفيفتين ، ثم صلى ركعتين طويلتين ، طويلتين ، طويلتين ، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما .^(٣)

– وعن أبي سلمة عبد الرحمن رضي الله عنه أنه سأل عائشة رضي الله عنها كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان ؟

(١) السنن الكبرى للبيهقي. كتاب النكاح. باب ما وجب عليه من قيام الليل ج ٧ ص ٦٢.

(٢) صحيح مسلم. كتاب صفة القيامة والجنة والنار. باب إكثار الأعمال ج ٤ ص ٢١٧١.

(٣) سنن أبي داود . كتاب الصلاة . باب في صلاة الليل ج ٢ ص ٤٧ .

قالت : ما كان يزيد في رمضان ، ولا في غيره على أكثر من إحدى عشرة ركعة ، يصلي أربعاً ، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثاً^(١) .

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت : "كان رسول الله ﷺ يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشر ركعة يسلم بين كل ركعتين ، ويوتر بواحدة ، ويسجد سجدتين قدر ما يسجد ويقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه ، فإذا سكث المؤذن من صلاة الفجر ، وتبين له الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن للإقامة"^(٢) .

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت : "كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته بركعتين خفيفتين"^(٣) .

- وعن عوف بن مالك الأشجعي ؓ قال : "قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل ، ولا يمر بآية عذاب ، إلا وقف وتعوذ ، ثم ركع بقدر قيامه ، يقول في ركوعه . سبحان ذي الجبروت ، والملكوت ، والكبرياء ، والعظمة ، ثم سجد بقدر قيامه ، ثم قال في سجوده مثل ذلك ، ثم قام فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة النساء"^(٤) .

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت : "قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة"^(٥) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الجمعة . باب قيام النبي ﷺ ج ٢ ص ٥٣ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب صلاة المسافرين . باب صلاة الليل ج ١ ص ٥٠٨ .

(٣) شرح معانى الآثار . كتاب الصلاة . باب الوتر ج ١ ص ٢٨٠ .

(٤) سنن أبى داود . كتاب الصلاة . باب ما يقول الرجل في ركوعه ج ١ ص ٢٣٠ .

(٥) سنن الترمذى . كتاب أبواب الصلاة . باب ما جاء في القراءة بالليل ج ٢ ص ٣١٠ .

(٢٠٦)

- وعن الأسود رضي الله عنه قال : "سألت عائشة كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ من الليل ؟

قالت كان ينام أوله ، ويقوم آخره ، فيصلي ثم يرجع إلى فراشه ، فإذا أذن المؤذن وثب ، فإن كانت به حاجة اغتسل والا توضأ وخرج" (١) .

- وعن أنس رضي الله عنه قال : "ما كنا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ في الليل مصليا إلا رأيناه ولا نشاء أن نراه نائما إلا رأيناه" (٢) .

﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ أى افعل يا محمد هذا الذى أمرتك به لنبعثك يوم القيامة فى مقام خاص بك يحمذك فيه السابقون واللاحقون .

وقد أجمع المفسرون على أن ﴿ عَسَى ﴾ من الله تفيد الوجوب ، لأنها تفيد الاطماع ، ومن أطمع إنسانا فى شئ ثم حرمه منه كان ذلك عارا عليه ، والله أكرم أن يطمع أحدا ثم لا يعطيه ما أطمعه فيه .
والمقام المحمود هو مقام الشفاعة الذى وعد الله به رسوله ، وفيه يحمده الأولون والآخرون .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "إن لكل نبي دعوة مستجابة واني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، فهي نائلة منكم إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئا" (٣) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي ، فمن صلى علي صلاة صلى الله

(١) صحيح البخارى . كتاب الجمعة . باب من نام أول الليل وأحيا آخره ج ٢ ص ٥٣ .

(٢) سنن النسائى . كتاب قيام الليل . باب ذكر صلاة رسول الله ﷺ ج ٣ ص ٢١٣ .

(٣) سنن الترمذى . كتاب أبواب الدعوات . باب ما جاء فى أن الله ملائكة سياحين فى الأرض ج ٥ ص ٥٨٠ .

عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة" (١) .

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : "من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة" (٢) .

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : "يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، فيرحنا من مكاننا .
فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له : أنت آدم أبو البشر ، خلقتك الله بيده ، وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء ، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا .

فيقول : لست هناك فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ، ولكن انتوا نوحا أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض .

فيأتون نوحا فيقول : لست هناك فيذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحي ربه منها ولكن انتوا إبراهيم الذي اتخذته الله خليلا .

فيأتون إبراهيم ، فيقول : لست هناك ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ، ولكن انتوا موسى الذي كلمه الله ، وأعطاه التوراة .

فيأتون موسى فيقول لست هناك ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ، ولكن انتوا عيسى روح الله وكلمته .

فيأتون عيسى روح الله وكلمته فيقول : لست هناك ولكن انتوا محمدا ﷺ عبدا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

(١) صحيح مسلم . كتاب الصلاة . باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ج ١ ص ٢٨٨ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب الآذان . باب الدعاء عند النداء ج ١ ص ١٢٦ .

يقول رسول الله ﷺ : فيأتوني ، فأستأذن على ربي تعالى ، فيؤذن لي فإذا أنا رأيته ، وقعت ساجدا فيدعني ما شاء فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، قل تسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمني ربي ، ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة .

ثم أعود فأقع ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقال لي : ارفع يا محمد رأسك قل تسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمني ربي ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة .

فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة فأقول يارب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود" (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع" (٢) .

قال : أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش فليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك ، استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فيشفع ليقضي بين الخلائق فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب ، فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا ، يحمده فيه أهل الجمع كلهم (٣) .

(١) صحيح البخارى . كتاب التوحيد . باب قول الله تعالى : ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدَى﴾ ج ٩ ص ١٢١ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الفضائل . باب تفضيل نبينا ﷺ ج ٤ ص ١٧٨٢ .

(٣) شرح السنة للبعوى . كتاب الزكاة . باب تحريم السؤال إلا من ضرورة ج ٦ ص ١١٩ .

- ثالثا -**تواصل الرجاء من الله تعالى**

يحتاج المسلم أن يكون على صلة بربه دائما ، قائما ، وقاعدا ، ومضطجعا ، يقول الله تعالى ما أمر الله به رسول الله ﷺ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ ... والصدق ملازمة الحق ومطابقة الواقع ، وفي هذا أمر لرسول الله ﷺ ليطلب من ربه أن يدخله مدخل صدق ، ويخرجه مخرج صدق ، وهذا شامل لكل مخرج ومدخل . ومعناه : أدخلني يارب في كل مدخل تريد إدخالني فيه في الدنيا مدخلا صادقا استحق به هذا المقام الكريم ، وأخرج يا ربى من كل أمر تخرجني منه مخرجا أكون فيه من الصادقين .

ومقام الصدق من أعلى المقامات عند الله تعالى دعا الله إليه فقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾^(١).

وقد حدد بعض المفسرين مناطق الدخول والخروج الذى طلب الرسول من ربه أن يتمتع بالصدق فيهما .

فقال بعضهم : ادخلني المدينة عند الهجرة مدخل صدق ، وأخرجني من مكة مخرج صدق .

وقال آخرون : المعنى أخرجني من مكة آمنا من المشركين ، وادخلني مكة فاتحا منتصرا .

وقال غيرهم : ادخلني في أمرك الذى أرسلتني به مدخلا طيبا ، وأخرجني من الدنيا بالصدق والإيمان ، ولا تجعلني ممن يدخل بوجه ، ويخرج بوجه مغاير للوجه الأول^(٢) .

(٢) تفسير الخازن ج ٤ ص ١٧٨ .

(١) سورة التوبة ، الآية ١١٩ .

(٢١٠)

﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ أى اجعل لى حجة بينة ،
وملكا قويا تتصرنى به على كل من يعادينى ، وعزا ظاهرا أقيم به دولة الإسلام
فى الأرض .

وبهذا يتحدد طريق هام للفوز والنصر ، وهو اللجوء إلى الله تعالى ،
والاستعانة به سبحانه ، فكل شئ بيده ، وهو على كل شئ قدير .

- رابعا -

حمل البشرى للناس

والثقة فى نصر الله

يحتاج المسلم إلى حمل البشرى للناس ، وابرار فضل الله تعالى ،
والاعتماد عليه . يقول الله تعالى :

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أى قل لهم
يا محمد أن الله سبحانه وتعالى قدر مجئ الحق بنزول القرآن الكريم ، وبعث
محمدا ﷺ فمعهما الخير كله ، والنصر كله .

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أى أن الباطل كان مضمحلا زائلا ، ولما
دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح أخذ قضيبا يضرب به الأصنام حول الكعبة
ويقول : ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ .

- ٤ -

معنى الآية

تقدم الآيات عددا من النصائح والمواعظ التى تعد منهاجا رئيسيا فى صلاح
الأفراد ، وصلاح الأمة وأساسه العبودية القائنة لله تعالى ، والمحافظة على
الصلوات المفروضة ، ومداومة الذكر والدعاء ، والإقرار بفضل الله تعالى .

(٢١١)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... هي :

الركيزة الأولى **العبادة القاننة طريق الفوز** **في الدنيا والاخرة**

خلق الله الإنسان ، وكلفه بالعبادة ، وأمره أن يحول حياته كلها إلى عبودية قاننة خاشعة دائمة .

إن العبادة في الإسلام تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : ويشمل العبادة المحددة المعروفة ، وتشمل أركان الإيمان والإسلام ، وقد بينت الشريعة هذه العبادات وفصلتها تفصيلا محكما ، وبينت شروطها وأركانها ، وأقامتها .

القسم الثاني : ويشمل كل أعمال الإنسان ، وحاجاته ، ومعاشه ، ونشاطه ، وهذه الأعمال منضبطة بالنية ، ومطابقتها بالمبادئ الشرعية الكلية المقررة ، والعمل بما كان منها مفصلا بينا أو محتاجا لاجتهاد .

إن الإنسان إذا جعل نيته طاعة الله في كل عمله ، فإن الأعمال العادية تتحول إلى عبادات شرعية يثاب عليها صاحبها .

إن الإنسان يعيش في الدنيا بقدر الله تعالى ، ويتمتع بآيات الله في نفسه والكون من حوله ، ولا يعلم عن أجله وموعده شيئا ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا

تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۚ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾^(١)

(١) سورة لقمان ، الآية ٣٤ .

(٢١٢)

ومادامت هذه هي الحقيقة فعلى الإنسان أن يعيش عبدا لله في كل قول وعمل يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^(١) .

إن العبادة الخالصة تحتوى سائر عناصر الإنسان جميعا ، وتحدد له مسارا واحدا ، الأمر الذى يحقق التوازن في الإنسان ، والرقى في المجتمع ، ويصير العباد ربانيين يجدون الله معهم في كل حال ومآل .

الركيزة الثانية

أهمية اللجوء والاعتماد على الله تعالى

الإيمان بالله تعالى يعتمد على يقين تام بأنه لا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلى له ، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى . ومقتضى هذا الإيمان أن يتوكل المؤمن على الله ويلجأ إليه ، ويدعوه في السراء والضراء .

إن لله جنود السموات والأرض ، والحوادث تقع بأمره يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(٢) ولذلك يجتهد المؤمنون الصادقون فى تقوية صلتهم بالله ، ويسعون إلى رضاه .

ولم يترك الله تعالى الناس يعيشون فى الدنيا حيارى بين العقل والفلسفة وإنما حدد لهم طريق التواصل معه . فحدد لهم الواجب عليهم ، وعرفهم بدينهم الذين ارتضاه لهم ، وفيه المنهج المستقيم ، وهدى الله القويم .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٢ .

(٢) سورة يس ، الآية ٨٢ .

تقلب الإنسان وجوده

يقول الله تعالى :

﴿ وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَلَا يَرْيَدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٢١) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا حِجَابِنَاهُ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٢٢﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ (٢٣) .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة بعض النصائح والمواعظ التي تحقق الإصلاح في الدنيا وفي الآخرة جاءت هذه الآيات لبيان ما في الإنسان من جود يصرفه عن الحق ، ويضعه في اليأس وعدم الثقة ، ولكل إنسان طريقته التي يعيش بها.

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيتان طبيعة الإنسان فهو بعد أن يكرمه الله تعالى يعرض عن طاعته ، وإذا نزل به سوء ، ولحقه الشر يأس وقنط .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ أى وننزل القرآن الكريم لشفاء القلوب من أمراضها ، مثل الجود ، والكفر ، والنفاق ، والكراهية ، وشفاء الأبدان من سقمها وعللها ... وشفاء العقول من جهلها وجمودها .

إن القرآن الكريم يحقق شفاء المؤمنين بتعريفهم بالمرض ، وبيان خطورته ، وتحديد طرق الوقاية منه ، وسبل العلاج سواء كان هذا المرض ماديا أو نفسيا ، وبذلك يبني القرآن الكريم الإنسان السوى ، والمجتمع الصالح .

إن المرض ينقسم إلى نوعين :

أحدهما : الاعتقادات الباطلة .

والثاني : الأخلاق المذمومة .

أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادا أن تكون في ذات الله تعالى والصفات ، والنبوات ، والقضاء والقدر ، والبعث بعد الموت ، فالقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه الأشياء ، وابطال المذاهب الفاسدة ، ولذا كان القرآن شفاء لما في القلوب .

وأما النوع الثاني وهو الأخلاق المذمومة ، فالقرآن مشتمل على التنفير منها ، والإرشاد إلى الأخلاق المحمودة ، والأعمال الفاضلة ، فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الباطنة .

وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمية ، فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيرا من الأمراض يدل عليه ما روي عن النبي ﷺ في فاتحة الكتاب : "وما يدريك أنها رقية"^(١) .

﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى أن القرآن الكريم كما هو شفاء فهو رحمة

للمؤمنين يحقق لهم الأمان والطمأنينة ، ويبيرس أمامهم طرق الفوز والنصر بسبب إيمانهم فقد آمنوا بالله ، واسلموا ، واستسلموا لله ، وأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، واستقاموا على الصراط المستقيم .

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ١٨٠ .

﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أى أن القرآن الكريم يضاعف للظالمين خسراتهم ، لأنهم يعارضون أمره ونهيه ويكفرون به ، وكلما جاء من القرآن نصح خالفوه ونقضوه ، فيزدادون خسارة وكفرا .

ودور القرآن الكريم مع الناس يتناسب مع طبيعة الإنسان ، فلقد خلق الله الإنسان مزودا بمنطلقات الخير والشر ، ومن الناس من اتخذ من حب الخير ، وعبوديته لله أساسا ومنطلقا فاستفاد بالقرآن الكريم ، وسلم من الجهل والأذى . ومن الناس من وجه نفسه نحو منطلق الشر فازداد كفرا وخسرانا .

إن طبيعة الإنسان متنوعة متغايرة فمن الناس من ارتقى إلى درجات عليا من الصلاح والتقوى ، ومنهم من ارتكس على مستوى متدن من الفكر والسلوك .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ ﴾ أى إذا تفضلنا على الإنسان وأعطيناه نعمًا عديدة مثل المال ، والصحة ، والتوفيق ، والسلطان كفر وأعرض عن طاعة الله ، وبعد عن الحق ، وترك الدعاء والاستعانة بالله تعالى .

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ أى إذا أصيب بالضرر والأذى الذى قدره الله أصيب باليأس ، والقلق ، وبعد عن المنهج المستقيم .

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ أى إن كل إنسان من المؤمنين المستفيدين بالقرآن الكريم ، ومن الضالين المعرضين عن طاعة الله ... كل منهم يعمل بالطريقة التى جبل عليها .

ويسلك الطريق المناسب لجوهر نفسه ... فإن كانت نفسه شريفة طاهرة صدرت عنه الأفعال الجميلة ، والأخلاق الكريمة التى وفقه الله لها ... وإن كانت نفسه خبيثة كدرة صدرت عنه أفعال فاسدة رديئة .

﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ أى أن الله الذى رباكم واعتنى بكم هو أعلم منكم بأنفسكم ، وهو سبحانه أعلم بمن هو على حق وصواب ومن هو على ضلال وفساد ... لأنه هو العليم بطبائع النفوس قبل إيجادها يقول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(١) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل القرآن الكريم لشفاء القلوب والأبدان ، وإحياء الدنيا بالدين فهو رحمة للمؤمنين ، أما غير المؤمنين فيزدادون بنزول القرآن الكريم كفرا وضلالا .

إن الإنسان جامد بطبعه ، سريع إلى الكفر والجحود ، فإذا أنعم الله عليه وأكرمه يصاب بالغرور ، وينسى الله ... وإذا لحقه ضرر يئس وضل ... وهذا يؤكد حقيقة أن كل إنسان يعمل وفق طبعه وقلبه فمن تطهر قلبه استقام عمله ، ومن ساء قلبه خاب سلوكه ، وضل عن الصراط المستقيم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

دور القرآن الكريم

أنزل الله القرآن الكريم للناس ، هاديا لهم ، ومبشرا ونذيرا ليستقيم الإنسان

(١) سورة النحل ، الآية ٧٨ .

على منهجه ، ويسلك طريق الصالحين ، وقد تضمن القرآن الكريم منهج صناعة الإنسان السوى ، فهو شفاء له من كافة امراضه البدنية ، والنفسية والعقلية ، يصون للإنسان الصحة بكافة أنواعها .

وقد انقسم الناس مع القرآن الكريم إلى فريقين هما :

الفريق الأول : رأى ما في القرآن الكريم من خير فدخل في الإسلام ، وانقاد لله تعالى ، واستفاد بنور القرآن الكريم فصلح شأنه ، واستقام على صراط الله المستقيم فصحت حياته ، وسلم من كل سوء ... وبذلك تحقق لهذا الفريق الصلاح ، والهداية ، والنصر في الدنيا ، وفي الآخرة .

الفريق الثانى : أبى طاعة الله ، ولم يتخذ القرآن الكريم منهجا لحياته ، وأخذ يخاصمه ، ويرفضه فاشتد ضلاله ، وزاد خسارانه ، وأخذ يتدلى في بؤر الفساد والضياع ... وبذلك خسر الدنيا والآخرة .

والمسلم المعاصر مسئول عن دينه فقد حملة أمانة من ربه ، وعليه أن يتعامل مع الناس على أساس أن هذا التفرق طبيعة بشرية دائمة إلى يوم القيامة ... فيحصن نفسه ، ويستقيم على الحق ، ويحيى الإسلام في حياة المسلمين ... وعليه أن لا يتعجب من أناس يحاربون الإسلام والمسلمين بكل ما أوتوا من قوة ، فهم أعداء لدين الله ، وقد فطروا على ذلك ... والمهم عزلهم والحذر منهم

الركيزة الثانية

الجريمة لا تفيد

يتصور العصاة أن الدنيا قد دانت لهم ، وأنهم سيكونون في الآخرة على ما يأملون .

وهذا وهم لا تؤيده الحقيقة ، لأن الله تعالى يحاسب كل إنسان على ما قدمت يداه ، ولن يفلت ظالم من العقاب ... وكل إنسان يحشر مع عمله يوم القيامة ، والله عليم بكل خلقه ، وسيعلم الجميع أن الجريمة لن تفيد صاحبها في شئ .

الروح غيب يعلمه الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۚ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

لما ذهب أهل مكة يسألون اليهود عن محمد . قال لهم اليهود : سلوه عن ثلاثة أشياء فإن أجابكم عن اثنين ، وترك الثالثة فهو نبي صادق ... فجاءوا إليه ، وسألوه عن فتية فقدوا في الزمن الأول ما كان شأنهم ، فإنه كان لهم حديث عجيب ، وعن رجل بلغ مشرق الأرض ومغربها ما خبره ؟ ... وعن الروح ؟ ... فسألوا النبي ﷺ فقال : أخبركم بما سألتكم غدا ، ولم يقل إن شاء الله فلبث الوحي . فنزلت الآية تجيب عن السؤال الثالث^(١) .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الروح في النفس أمر قدرى لا يعلمه إلا الله تعالى ، وعلم الإنسان قاصر عن إدراك حقيقة الروح .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ أى يسألك المشركون عن حقيقة الروح ، وكيفية حياتها ، وموتها ، وهل هى قديمة أو حادثة ؟

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ١٨١ .

﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ أى شأن الروح من شأن الله تعالى أبدعها

في الجسد من غير مادة ، وقدر لها أن تتعلق بالدين تعلق تدبير وتصرف .
والروح جسم نورانى متحرك من العالم العلوى مخالف بطبعه لهذا الجسم المحسوس . سار فيه سريان الماء في الورد ، والدهن فى الزيتون والنار في الهشيم ، لا يقبل التبدل والتفرق ، يمد الجسم بالحياة مادام صالحا لقبول الفيض ، وعدم حدوث ما يمنعه من السريان ، وان لا حدث الموت .

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى وما حصلتم من العلم إلا قدرا

قليلا ، وسبب ذلك أن إدراك الإنسان مرتبط بالحسن ، محدد بالزمان والمكان .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن المشركين يسألون رسول الله عن الروح . فرد الله عليهم وعرفهم بأن الروح شأن من شأن الله تعالى ، وهو سبحانه العليم بالروح ... ولم تعلموا عنها شيئا .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

قوة الروح في الإنسان

الإنسان مركب من جسد وروح ، تتوقف حياته على وجودهما معا ، وعند الموت تنفصل الروح عن الجسد ، وتنتهى بذلك الحياة الدنيا .
ولقد اهتم العلماء قديما وحديثا بمحاولة معرفة حقيقة الروح ، ولم يصلوا لشيء .
لم يتمكن العلماء من معرفة حقيقة الروح ... وكل ما توصلوا إليه هو معرفة بعض آثار الروح ، ومدى قوتها في النشاط الإنسانى .

(٢٢٠)

إن الروح تحقق للبدن الحياة ، وتأخذ العقل إلى التأمل التجريدي ، والفهم الكلى للمبادئ والقيم ، وتمد الضمير بعدد من القيم والمفاهيم .
إن حواس الإنسان لا تقيد إلا مع الروح فمن مات لا يرى ، ولا يسمع ، ولا يعى ، والروح تعمل في مرحلة اليقظة ، فتوجه ، وترضى ، وتحب وتكره ، وتعمل أثناء النوم حيث تأخذ النائم إلى عالم واسع عريض ، وترى ما لم ير وهو يقظان .

إن الإنسان إنسان بروحه ، وعلى الإنسان أن يمدّها بزاد طيب ينميها ، ويرفع شأنها ليرتفع معها .

إن الروح سر من أسرار الله في الإنسان وفي الحياة ، وقد أمر الله تعالى بحسن التعامل معها ... وعلى الإنسان أن ينميها بالارتقاء بها ، ومعها إلى الله فقد هبطت من لدنه ، وعليه أن يغذيها بالقرآن والذكر ، والاستمرار في طاعة الله ، فهذا هو مجالها ، وعليه أن يبعدها عن السوء ، ويقويها بالعلم والطاعة ، والاستسلام لله رب العالمين .

إن فريقا من الناس وضعوا أرواحهم في الفساد حتى سيطر عليهم الضلال ، وأولئك لهم عذاب أليم .

إن من قوة الروح تغلغلها في كافة جوانب الإنسان ، فمن أحب أمرا عاش معه بكل جوارحه ، واحساسه ، وفكره ، ومن كره شيئا نفر منه من كافة نواحيه وذلك أثر للروح .

إن الروح سر من أسرار الله يجب التعامل معها بمنهج الله المستقيم .

ثبوت القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَيْنَ شِعْنًا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨١﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٢﴾ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٤﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن الروح لا يعلمها إلا الله تعالى جاءت هذه الآيات لبيان إمكان أن يمحو الله القرآن الكريم ، ويذهبه من الصدور والمصاحف ليعلم الرسول والمؤمنون معه نعمة وجود القرآن الكريم معهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله رحم المؤمنين بإنزال القرآن الكريم ، وابقائه بينهم محفوظا ، ولو شاء سبحانه محوه لكان . إلا أن الله سبحانه وتعالى أبقاه مع الناس ، وحفظه ، وجعله مستمرا في إعجازه ، مشتملا على البيان والوضوح في سائر نظمه وتشريعاته ، وجميع ألوان بيانه وبلاغته .

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ الواو واو القسم دخلت

على قسم محذوف . والمعنى والله لو أردنا محو القرآن من الصدور والمصاحف حتى لا نترك لها أثرا ، وبقيت يا محمد بعد ذلك خاليا منه ، لا تدري ما الكتاب ؟ ... وما الإيمان ؟ ... لو شئنا ذلك لكان .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن هذا القرآن سيرفع .

قيل له : كيف يرفع وقد أثبتته الله في قلوبنا ، وأثبتناه في المصاحف ؟

قال : يسرى عليه في ليلة واحدة ، لن نترك منه آية في قلب ، ولا مصحف إلا رفعت فتصبحون وليس فيكم منه شيء^(١) .

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلًّا وَكِيلًا ﴾ أى لو مح الله القرآن ، وأذهب

من قلوبكم ، ومصاحفكم لا تجد من يتوكل علينا ، ويدعونا لاسترداده إليك ، واعادته محفوظا مستورا في قلبك ومصحفك .

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أى ولكن رحمة الله بك ، وبأمتك ، أبقت

القرآن الكريم بين المسلمين ليستقيموا على منهجه ، ويعبدوا ربهم بالعناية به والاهتمام بشأنه حفظا ، وفهما ، وعملا .

وفى هذا امتنان على المسلمين ببقاء القرآن الكريم بينهم ، وحث لهم على

الاهتمام به ، والتمسك بكل تعاليمه وهديه ... وفى ذلك أيضا تهديد للعلماء ،

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ١٨٢ .

وأولى الرأى حتى لا ينصرفوا عنه ، ويهجروه ، ويهتّموا بمظاهر السلطة ، ويتحولوا إلى صوت ناعق لأعداء الله تعالى .

﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ أى إن نعم الله واحسانه لك يا

محمد كبير واضح ، فقد صنعك واختارك للرسالة ، وأنزل عليك القرآن الكريم ، وبيّنه بالسنة ، وأبقاه في قلبك ومصاحفك ، وجعلك خاتم الرسل ، وصيرك سيد ولد آدم ، وأعطاك المقام المحمود ... وهذا من عموم رحمة الله تعالى التى أحاطك الله بها ، فلا تبتئس ، وكن من القانتين .

﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا

الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ أى أخبر

يا محمد المشركين بأن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، ولن يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثل القرآن الكريم فقد فاقهم ، وأعجزهم جميعا ، ولو تعاونوا واجتمعوا على ذلك .

إن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، وقد عجز العرب ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة عن الإتيان بأقصر سورة منه .

ولا قيمة لقول مشركى مكة : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ ^(١) لأن التحدى

استمر لهم طوال البعثة ، وأعجاز القرآن الكريم باق إلى يوم القيامة فى سبك نظمته ، وحسن تراكيبه ، واخباره عن الغيب ، فهو كلام الله ، ولن يقدر مخلوق ما على الإتيان بمثل أقصر سورة منه .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٣ .

إن أعداء الإسلام يحاولون التصدى لعظمة القرآن الكريم فيدورون حول شبه فاسدة ، ومزاعم باطلة ... ولكنهم يضعون الإتيان بمثله ، وبأقصر سورة منه . فهم أضعف وأعجز أن يقولوا ذلك .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى ولقد أوردنا الأمر في القرآن الكريم بصور بيانية عديدة مختلفة في دلالاتها ، متحدة في غاياتها . متنوعة في تراكيبها ... لتعلموا ، وتستفيدوا ، وتؤمنوا ... فلقد جعلنا كل أمر بينا معلوما حتى صار كالمثل في غرابته ، وحسنه ، وبيانه .

﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أى إن أكثر الناس لا يستفيدون بهذا القرآن الكريم جحودا منهم بفضل الله ، وانكارا للحق ، وميلا منهم للكفر والإعراض فأضلهم الله ، وأعمى أبصارهم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات رحمة الله الواسعة للناس ، فلقد أنزل لهم القرآن الكريم هاديا للحق ، ومرشدا للصواب ، ولو شاء سبحانه وتعالى لرفعه من الصدور ومحاه من الصدور إلا أنه سبحانه وتعالى أبقاه مع الناس معجزا بلفظه ، ومعناه ، وتعاليمه ، وآثاره ، وقد صرف الله فيه ألوان البيان ليعلم الناس الحق ويؤمنوا بالله تعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تشير الآيات إلى عدد من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

إصلاح القرآن الكريم حياة الناس

يدور صلاح الفرد وصلاح الجماعة على مدى استقامتها مع القرآن الكريم ، واتباعها لمنهج الله فيه ، وأهم ما يقدمه القرآن للناس ما يلي :

(٢٢٥)

- (١) يصلح الحياة في كافة جوانبها مع الفرد ومع الجماعة .
- (٢) يجعل المسلم يعيش في كنف الله الدائم فهو به يسمع كلام الله تعالى ، ويقرب منه .
- (٣) يحقق معنى التوكل الذى يجب أن يعيش الإنسان معه ، فيلجأ إلى الله في كل أموره ، ويستعين بقدرته سبحانه وتعالى ، ويطلب منه التوفيق والسداد في الدنيا .
- (٤) الاستفادة بالقرآن الكريم في الدعوة إلى الله تعالى ، فهو يقدم صورة الإسلام الصحيحة ، ويقدم المنهج الأمثل لدعوة الناس إلى الإسلام . فقد صرف الله فيه صور البيان ، وقدم من خلاله كل عوامل التأثير .
- (٥) استمرارية تمتع الإنسان برحمة الله وفضله ، وهذا يحقق الطمأنينة والهدوء في الدنيا والاخرة .

الركيزة الثانية

نبوت إعجاز القرآن الكريم

- قدم القرآن الكريم الخير للناس ، ومع ذلك كفر به مشركو مكة ، وزعموا أن محمدا ﷺ ألفه من قبل نفسه ، وأنه كلام بشر ، فتحداهم الله تعالى على لسان رسوله ﷺ أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه وعجزوا عن ذلك وعلموا أن القرآن الكريم كلام الله حقا .
- واعجاز القرآن الكريم ثابت إلى يوم القيامة ، ولو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فإنهم سيعجزون كما عجز أسلافهم .
- وعلى نمط المنكرين لصدق القرآن الكريم يظهر أناس يدعون إلى ما دعا إليه هؤلاء المنكرون .
- وكما نصر الله رسوله والمؤمنين معه ، وسينصر المؤمنين في العصر الحديث ماداموا متمسكين بدين الله تعالى .

طلب المشركين الآيات المبهرة

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۖ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا مِثْلَ بُرْجٍ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

روى عكرمة عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا البختري بن هشام والأسود بن عبد المطلب ، وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمّية بن خلف والعاص بن وائل ، ونبيها ومنبها ابني الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة .

فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلي محمدًا فكلّموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه .

فبعثوا إليه وأخبروه أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك .

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا ، وهو يظن أنه بدا لهم في أمره بدء ، وكان حريصًا يحب رشدهم حتى جلس إليهم فقالوا : يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر فيك ، وانا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفّهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرقت

الجماعة ، وما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد الشرف سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي بك رأي تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه ، ونعذر فيك ، وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي فقال رسول الله ﷺ : ما بي ما تقولون ما جئكم بما جئكم به لطلب أموالكم ، ولا للشرف عليكم ، ولا للملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم .

فقالوا : يا محمد إن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك ، فقد علمت أنه ليس أحد أضيق بلادا ، ولا أشد عيشا منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، ويبسط لنا بلادنا ويفجر لنا فيها الأنهار كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن منهم قصي ابن كلاب فإنه كان شيخا صدوقا ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ؟ ... فإن صدقوك صدقناك .

فقال رسول الله ﷺ : ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما أرسلت به ، فإن تقبلوه فهو حظكم ، وإن تردوه أصبر لأمر الله تعالى .

قالوا : فإن لم تفعل هذا فسل لنا ربك أن يبعث ملكا يصدقك ، وسله أن يجعل لك جنات وقصورا ، وكنوزا من ذهب وفضة يعينك بها على ما تريد ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه .

فقال ﷺ : ما بعثت بهذا ، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا .

(٢٢٨)

قالوا : فأسقط السماء كما زعمت إن ربك إن شاء فعل .

فقال ﷺ : ذلك إلى الله إن شاء فعل ذلك بكم .

وقال قائل منهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا .

فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ وقام معه عبد الله بن أبي أمية ، وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب فقال : يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوكم لأنفسهم أمورا يعرفون بها منزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوكم أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب ، فلم تفعل فوالله ما أؤمن لك أبدا حتى تتخذ إلى السماء مرقى ترقى فيه ، وأنا أنظر حتى تأتيها فتأتي بنسخة منشورة معك ، ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول ، وإيم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك . فانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا من مباحثهم^(١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة إعجاز القرآن الكريم ، وعجز المشركين عن الإتيان بأقصر سورة منه جاءت هذه الآيات لبيان سبب عدم إيمان المشركين وهو الجحود والتعنّت الذي يظهر في اقتراحاتهم ، وحيرتهم ، ومراوغتهم .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين طلبوا من الرسول ﷺ مجئ آيات مبهرة ليؤمنوا فعرّفهم الرسول ﷺ أن مجئ الآيات بأمر الله ، وليس له شيء منها ، فهو واحد

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ١٨٣ .

من الناس اختاره الله للرسالة ، وهو ﷺ أول من ينزه الله ، ويقدسه ويعرف قدره ، ومقداره .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

علق المشركون إيمانهم بالله ورسوله على وقوع إحدى آيات طلبوها من رسول الله ﷺ ... هي :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ ﴾ أى أعلن المشركون أنهم لن يؤمنوا بالله ورسوله ، ولن يدخلوا في الإسلام إلا بعد أن يحقق لهم رسول الله ﷺ إحدى المعجزات التالية :

(١) ﴿ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ أى لن نؤمن لك حتى

تخرج لنا عينا من الأرض يتدفق منها الماء مدرارا لا ينقطع .

(٢) ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا

تَفْجِيرًا ﴾ أو تصير مالكا لبستان فيه النخيل والأعناب تجرى الأنهار بينها وتتفجر المياه من أرضه ، وتجري الأنهار في كافة جوانبه .

(٣) ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ﴾ أى تسقط علينا قطعا

من أجرام السماء متتابعة ، قطعة قطعة كما قلت لنا : ﴿ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِم

كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ ^(١) .

(١) سورة سبأ ، الآية ٩ .

(٢٣٠)

(٤) ﴿ أَوْ تَأْتِي بِلَآلِهِ وَالْمَلَكِ قَبِيلًا ﴾ أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ عِنْدَنَا

نقابلهم ، ونكلمهم .

(٥) ﴿ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ ﴾ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَكَ بَيْتًا مَّزِينًا بِالذَّهَبِ

والمعادن المختلفة .

(٦) ﴿ أَوْ تَرَقَّى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ نُنَزِّلَ عَلَيْكَ كِتَابًا

نَقْرُؤُهُ ﴾ أَى أَوْ تَعْلُو فِي السَّمَاءِ ، وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَيْكَ ، وَلَن نَّصْدَقَكَ فِي

صُعُودِكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَرْسَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ بَلَّغْتَنَا حَتَّىٰ نَفْهَمَهُ .

ويلَاحِظ حَول هَذه الطَّلَبات مَا يَلى :

أَوَلا : تَتَوَعَّ هَذه المَطالِبُ فَجَعَلُوا بَعْضُهَا يَخْصُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ وَحدَهُ وَهى

أَنْ يَكُونَ لَهُ بَستان جَامِعٌ لِلثَمَرِ وَالْحَسَنِ وَالْجَمالِ ، أَوْ يَكُونَ لَهُ ﷺ بَيت مَزخَرَفٌ بِاللَّائِىِّ وَالْمَعادِنِ .

وَبَعْضُهَا يَخْصُ أَهلَ مَكَّةَ وَهُوَ أَنْ يَفْجَرَ لَهُمُ أَناهَرا لا يَنْضَبُ ماؤُها ،

وَتَتَحَوَّلُ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ إِلَى جَدَاوِلٍ وَأَناهَرا .

وَبَعْضُهَا لِإِظْهَارِ القُدْرَةِ الإِلهِيَّةِ ، وَهى إِسقاطُ قِطْعٍ مِنَ الحِجارَةِ عَلَيهِم

تَقْتُلُهُم ، أَوْ مَجِئِ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ عِندَهُمُ لِمَناقِشَتِهِم ، أَوْ طَيْرانِ الرِّسولِ نَحو

السَّمَاءِ ، وَارِسالِ الكُتُبِ إِلَيهِمُ لِيَقْرَأُواها ، وَيَعْلَمُوا صُعُودَهُ ﷺ .

ثانِيا : هَذه المَطالِبُ تَدُلُّ عَلَى تَعَنُّتِ القَوْمِ وَسَفاهَتِهِم ، وَتَشِيرُ إِلَى أَنَّ هَذه

المَطالِبُ وَسائِلُ لِلْهُروبِ مِنَ الإِيمانِ ، فَقَدْ أَعْطاهُمُ اللَّهُ ، وَأَنْزَلَ إِلَيهِمُ وَقَدْرَ لَهُم

ما هُوَ أَفْضَلُ مِمَّا طَلَبُوا ، وَمَا يَغْنِيهِمُ عَنْهُ .

فقد أنزل على رسول الله ﷺ القرآن الكريم ، وانشق له القمر ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وكلمه الحجر ، ودافعت عنه الملائكة ... وبالنسبة لأهل مكة فقد جعل الله بلدهم حرما آمنا ، وجعل بينهم مقصد العالم كله ، وجلب لهم ثمرات الدنيا وخيراتها بلا عناء منهم ، ولا شقاء يعيشونه .

وبالنسبة لقدرة الله تعالى فهي ظاهرة موجودة في كل حياتهم . فقد جعلهم في حرم آمن ، ويتخطف الناس من حولهم ، وجعلهم أمة من أبناء إسماعيل تغاير الإسرائيليين أبناء إسحاق عليه السلام ... ويسر لهم رحلة الشتاء والصيف ، وأكرمهم بدعوة رسول الله ﷺ منهم ... وقد رد الرسول عليهم كما علمه الله تعالى .

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ أى قل لهم يا محمد

متعبا من طلبهم منزلها ربك من أن يقترح عليه أحد ، أو يشاركه في القدرة أحد ... وقل لهم : ما أنا إلا رسول كسائر الرسل ، فهم جميعا لم يأتوا لقومهم إلا بما أظهره الله لهم من الآيات ... وليس أمر الآيات إليهم ، وانما أمرها إلى الله تعالى ، فلو استجاب لطلبهم فهو شأنه ، ولو منعه فهي إرادته ، واعجازه موجود في كل خلقه ، وفيه آيات لقوم يعقلون .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن مشركى مكة علقوا إيمانهم على تحقيق واحدة من المطالب التي عينوها ، وقد رد الرسول عليهم بتنزيه الله عن الخضوع لطلبهم وبين لهم ﷺ أنه كسائر الرسل يظهر لهم معجزات الله التي ينزلها ، وليس له أن يطلب أو يقترح غيرها ففيما قدر الله الكفاية .

(٢٣٢)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

الجحود أساس الكفر

آيات الله في النفس والكون عديدة ... ومع ذلك يجحدها الإنسان ، ولا يؤمن بالله العظيم .

إن الجحود مرض نفسى يجعل الإنسان منكرا للواقع ، عاجزا عن الاستفادة به ... يرى الآيات في نفسه ، وفى الكون ، ويستفيد بها ، ولا يربطها بخالقها الواجب طاعته .

تجد الجاحد يتخطى النعم بين يديه ، ويتركها ، وينكرها ، ويطلب غيرها ... ولو تحققت لفعل معها مثل ما فعل مع النعم السابقة .

وأساس ذلك هو الجحود .

إن الجحود مرض خطير يبعد الإنسان على الحق ويحيطه بالغرور والكبر ، ويجعله من أنصار الشياطين .

رد إنكار بشرية الرسول

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة تعنت المشركين في طلب الآيات المبهرة جاءت هذه الآيات لبيان تعنت المشركين ضد بشرية الرسول ﷺ .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات تعنت المشركين في طلبهم أن يكون الرسول من الملائكة ، وترد هذا التعنت ، وتبين أن أمر الهداية والضلال بيد الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴾ أى وما منع مشركو مكة من الإيمان بالله تعالى ، وبكل ما دعا إليه رسول الله ﷺ إلا شبهة تلجلجت في صدورهم ، وهى إنكارهم أن يكون الرسول بشرا .

(٢٣٤)

ومصدر الشبهة عندهم استحالة اتصال الرسول بالله تعالى ... ولم يسألوا أنفسهم عن كيفية اتصال الرسول بالملائكة؟! وقد أجابهم الله تعالى فقال سبحانه :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ أي لو وجد في الأرض ملائكة يمشون كما يمشى البشر ، ويقىمون فيها كما يقيمون ، ويسهل الاجتماع بهم ، وتتلقى الشرائع منهم . لنزلنا عليهم من السماء رسلا من الملائكة للهداية والإرشاد وتعليم الناس ما يجب عليهم تعلمه ، ولكن طبيعة الملك لا تصلح للاجتماع بالبشر ، فلا يسهل عليهم التخاطب والتفاهم معهم ، لبعد ما بين الملك وبينهم ، ومن ثم لم نبعث ملائكة إليهم ، بل بعثنا خواص البشر ، لأن الله قد وهبهم نفوسا زكية ، وأيدهم بأرواح قدسية ، وجعل لهم ناحية ملكية ، بها يستطيعون أن يتلقوا من الملائكة ، وناحية بشرية ، بها يبلغون رسالات ربهم إلى عباده . وقد ثبت أن جبريل عليه السلام جاء في صورة دحية الكلبي مرارا عدة كما في حديث الإيمان والإسلام والإحسان .

ولما سبق في علم الله تعالى مدى إيمان القوم ، واصرارهم على انكار بشرية الرسول . أمر الله رسوله أن يبلغهم بالحقائق التالية :

الحقيقة الأولى :

الاكتفاء بشهادة الله فهي الحق . يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي قل لهم يا محمد إن الله سبحانه خير من يشهد بالحق ، وقد شهد بصدق رسالتي بالمعجزات التي أظهرها معي لتشهد أني رسوله حقا ... وهو سبحانه شاهد يفصل بيني وبينكم ، ولا يصح مني أن أزيد

(۲۳۵)

حرفاً على الوحي ، أو أنقص منه شيئاً ، أو ادعى شيئاً من عندي . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٦٥﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٦٧﴾ ۝ ١ ﴾ (١) .

الحقيقة الثانية :

علم الله بالحقائق علم تام كامل ، وما قضى به فهو الحق . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى عليم منذ الأزل بكل عباده ، يقدر لهم ما يناسبهم ، والواجب على الإنسان الإيمان بما قدر الله تعالى والتسليم بما قضى به ، وفى هذا تأنيب لمشركى مكة لأنهم يعترضون على الرسل الذين أخبرهم الله تعالى ... وفيه أيضا تسلية لرسول الله ﷺ ببيان سابق علم الله بما يقع ، وهو قضاؤه وقدره .

الحقيقة الثالثة :

بيان أن الهادى هو الله تعالى ... يقول الله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَنْ يُضِلِّ ۖ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى أن إرادة الله غالبية فمن أراد الله هدايته اهتدى ، ومن أراد إضلاله ضل . فكل من يستحق هداية الله بمحاولاته الفكرية ، واتجاهاته النفسية ، وميوله العاطفية قدر الله له الهداية ... ومن يستحق الضلال بالإعراض عن أدلة الهدى ، ويميل إلى الكفر والهوى يضلّه الله تعالى ... فهو . سبحانه . الهادى .

الحقيقة الرابعة :

(١) سورة الحاقة ، الآيات ٤٤ . ٤٦ .

يحشر الله المشركين في صورة مهينة كئيبة . يقول الله تعالى :
﴿ وَخَشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ أى ونبعث
المشركين كما نبعث الأمم كلها في أحوال كثيرة حيث تبعث كل أمة في صورة
تستحقها ، ويجمع الله المشركين في الحشر يمشون على وجوههم حالة
كونهم عميا لا يرون ، وبكما لا يتكلمون ، وصما لا يسمعون ، وتلك صور
شنيعة ، ومنظر مهين ، وقد تعجب بعض الصحابة من مشيهم على وجوههم
وسألوا رسول الله فقال لهم ﷺ : إن الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن
يمشيهم على وجوههم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "يحشر الناس يوم القيامة
ثلاثة أصناف صنفا مشاة ، وصنفا ركبانا ، وصنفا على وجوههم .

قيل : يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم .

قال ﷺ : إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على
وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حذب وشوك" (١) .

فإن قيل : إن الآية تبين أن المشركين يحشرون صما وبكما وعميا ،
وآيات أخرى تثبت أنهم يتكلمون ويسمعون ويرون ... يقول الله عنها :

- ﴿ وَرَءَا الْمَجْرُمُونَ النَّارَ ﴾ (٢) .

- ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ (٣) .

- ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ (٤) .

فكيف نفهم ذلك ؟

(١) سنن الترمذى . كتاب الطهارة . باب ما جاء في نضح بول الغلام ج ٥ ص ٢٠٩ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ٥٣ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية ١٢ .

(٤) سورة الفرقان ، الآية ١٣ .

(٢٣٧)

أقول : نفهم ذلك على أوجه متعددة :

الوجه الأول : إن جوارحهم معهم إلا أنهم لا يدركون بها خيرا ، تراهم عميا لا يبصرون ما يسرهم ، بكما لا ينطقون بحجة ، صما لا يسمعون ما يبشرهم .

الوجه الثاني : معناه يحشرون على ما وصفهم الله وتعالى حقيقة : ثم تعاد إليهم هذه الأشياء بعد الحساب .

الوجه الثالث : إن عدم الإدراك يحدث حين يقال لهم : إخسأوا فيها ، ولا تكلمون فيصيرون بأجمعهم عميا ، وبكما ، وصما لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون .

الوجه الرابع : إنهم حين يرون مصيرهم يصابون بالذهول فتتعطل حواسهم ، ولا يدركون بها شيئا .

الوجه الخامس : إن جوارحهم وحواسهم معهم إلا أنهم عمى لا يبصرون ما يسر عيونهم ، بكم لا ينطقون بكلام لا يقبل منهم ، صم لا يسمعون ما يلذ أسماعهم .

الوجه السادس : أن جوارحهم معهم بالذات لا تدرك الخارج عنهم ، فهم صم لا يسمعون ما يمدح الله به عباده المؤمنين ، بكم لا يخاطبون الله ، عمى لا يرون ما أعد الله للمؤمنين .

الحقيقة الخامسة :

ديمومة المشركين في سعير جهنم ، وذلك بأن يحشر الله المشركين ويحاسبهم ، ويدخلهم جهنم بنارها الالافحة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ مَّا أُولَٰئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۖ ﴾ أى جعلنا جهنم سكنا مستمرا

(٢٣٨)

للمشركين ، كلما هدأت النار أو سكنت بدون نقص في إيلاام المعذبين زدنأها لهيبأ واشتغالا : ﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ (١) .

- ٤ -

مغنى الآيات

تبين الآيات أن المشركين امتنعوا عن الإيمان بالله تعالى ، وأبوا الدخول فى الإسلام اعتراضا منهم على أن الرسول ﷺ بشر من الناس فأخبرهم الله تعالى أنهم لو كانوا ملائكة لبعث الله لهم رسولا من الملائكة . ثم تبين الآيات أن الله كاف فى إثبات الحق ، وإثبات صدق محمد ﷺ فهو العليم الخبير ، وكل شئ بإرادته . فمن قضى هدايته هدى ، ومن أضله الله ضل ، وسوف يحشر الله المشركين على وجوههم لا يتكلمون ، ولا يسمعون ، ولا يرون .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

تعنت المشركين

وموقفهم من الحق والدين

المشركون كافرون بالله ، لا يعرفون حقا ، ولا يهتدون لصواب ... وهذا شأن كل ظالم غشوم .

إنهم يلجأون لأمر يتصورونها حجة لهم ... وهى حجة عليهم .

فلقد أنكروا رسالة الرسول لأنه بشر منهم ، وزعموا أن الرسول لا يكون بشرا أبدا وهم فى هذا التصور جهلة متعنتون ، لأن الله اختار رسوله من البشر

(١) سورة النساء ، الآية ٥٦ .

وزكاه بالوحى ، ويسر له بما صنعه به أن يتصل بالله وبالملائكة ، ويتعامل مع الناس .

أما ما يطلبه المشركون من أن يكون الرسول ملكا ، أو أن يكون معه ملك فهو أمر محال لا يفيدهم حدوثه ، لأن ظهور الملك على حقيقته يهلكهم ، ولو ظهر في صورة الملك فإنهم سيستمرون في طلبهم أن يكون الرسول بشرا ولن يصدقوا أنه ملك ظهر لهم في صورته ، وبذلك ظهر جهلهم بالواقع ، وبانت سفاهتهم فيما طلبوا .

ولكن ... ما الذى ينتظرونه من الرسول بشرا أو ملكا ؟

إنهم يحتاجون إلى التصديق به ، والمعجزة تكفيهم لو كانوا صادقين ... وينتظرون دينا يرتقى بهم ، ويقدم لهم مناهج السعادة في الدنيا والآخرة .
وقد قدم لهم ﷺ حاجتهم تلك ، وعرفهم بمنهج إصلاح الحياة ، وتحقيق السعادة ... ولو كانوا يريدون الحق لعادوا إلى رسالات الله السابقة ، ليعلموا أن الله أرسل للأمم المختلفة رسلا من بينهم كما هو الشأن في سائر الرسالات .
والمستفاد من هذه الآيات أن يعلم الدعاة أن أعداء الإسلام يتمسكون بعدد من الزيوف الكاذبة ، ويتخذون منها وسيلة للهدم ، وعليهم بعد ذلك هدم هذه الأكاذيب بمعاول الحق ، وعدم التأثر بأقوال الأفاكين .

ويمكن للدعاة أن يعلموا الشبه التى يثيرها أعداء الإسلام من خلال القراءة في علوم مقارنة الأديان ، لأنها شبه مكررة ، توارثها الحاقدون على الزمن كله .
وعلى الدعاة أن يستفيدوا بعلوم الاتصال الحديثة ويتقنوا وسائله لحماية الدين ونشره بين الناس .

(٢٤٠)

البعث حق لا ريب فيه

يقول الله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ ٢٣٩ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَيَّ الْظَالِمِينَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ ٢٤٠ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة العذاب المؤلم المعد للمشركين الذين يمشون إلى الحشر على وجوههم لا يسمعون ، ولا يرون ، ولا يتكلمون جاءت هذه الآيات لبيان سبب شدة هذا العذاب وهو كفرهم بالبعث واستمرارهم على الشرك .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيات أن الله مخزى المشركين ، ومعذبهم عذابا ألينا بسبب عدم إيمانهم بالله تعالى ، وانكارهم للبعث ، وتعجبهم من الإيمان به ، وجهلهم ما يرون فلقد رأوا خلق السموات والأرض ، وآمنوا بأن خالقهما هو الله ، وهذا يحتم عليهم أن يؤمنوا بالبعث فهو أيسر وأهون من الخلق الأول ، وقد جعل الله للبعث وقتا محددا ، ومع ذلك أبوا الإيمان بالبعث وكفروا بالله تعالى .

(٢٤١)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِعَايَتِنَا ﴾ أى جازى الله المشركين بالعذاب الذى ذكره الله فى الآيتين السابقتين بسبب أنهم أنكروا آيات الله فى الكون ، وفى القرآن الكريم الداعية إلى الإيمان بالله ، وبأركان الإيمان ، ومنها الإيمان بالبعث .

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ ؟ ...
الاستفهام إنكارى يتضمن إنكار المشركين للبعث بقولهم أنبعث من قبورنا بأجسادنا وأرواحنا بعدما انفصل اللحم عن العظم ، وتفتت الجسد وصار ترابا !!؟

وهذا الإنكار جهل منهم فى رأى ، وسفاهة فى التفكير ، لأنهم لو نظروا فى خلق الله ، ورأوا ما فيه من عجائب ، وغرائب ، وعظائم وعلموا أن الله خلق السموات والأرض ، وتأملوا فى ذلك لسلموا بإمكانية البعث لأن الله قادر على خلق مثل ما خلق ، ومن باب أولى تكون قدرته على البعث ، فهو إعادة للأجزاء ، وليس إنشاء لها ... كما أن البعث أيسر من خلق السموات والأرض ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى لإنكار موقف المشركين من البعث ... والمعنى وأعموا ولم يروا قدرة الله فى الخلق ، ويعلموا أن هذا الخالق قادر على أن يبعث الخلق ، ويحشرهم ، فالبعث أيسر وأسهل ، وأهون ؟

﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى جعل الله لبعثهم ، وحسابهم ، وعذابهم وقتا محددا لا شك فيه ، فهو لا يتقدم ، ولا يتأخر .

(٢٤٢)

﴿ فَأَنَّى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ ومع قدرة الله تعالى كفر المشركون ، ولم يؤمنوا بالله ﷻ أبوا أن ينقادوا لله ، ولم يسلموا بالبعث والمعاد فكانوا من الظالمين

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله يجازى المشركين لأنهم كفروا بالله ، وأنكروا البعث وتعجبوا من إعادة الأجساد بعد فنائها ، وتفتتها ، ونسوا أن الله هو خالق السموات والأرض ، مع أنهم يسلمون بذلك ، ومقتضى هذا التسليم كان أن يؤمنوا بالبعث فهو أهون وأيسر إلا أنهم أبوا ذلك وظلموا ، وكفروا

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هى :

الكفر ظلام

فى العقل وعمى فى البصيرة

بعث الله رسله بالحق ، وأنزل عليهم الكتب للهداية والإرشاد ، واستمر الرسل يدعون الناس بالحسنى ، إلا أن المشركين ، يصمون آذانهم عن السماع ويمنعون عقولهم عن الفهم والاهتداء ... ويتساعلون سؤال الجاهل السفيه .
لما دعاهم رسول الله ﷺ وطلب منهم أن يؤمنوا بالبعث للحساب والجزاء أنكروا ذلك ، واستبعدوا أن يحيى الله الأجساد بعد تفتتها ، وتحللها . فرد الله إنكارهم بالحقائق التى يعيشون فيها ، ذلك أنهم يرون السموات والأرض وما فيهما ، ويعلمون أن الله هو خالقهما ، ومع ذلك يستبعدون البعث مع أنه أهون من خلق السموات والأرض .

إن البعث إعادة الخلق السابق ، والإعادة أيسر من الخلق الأول .

إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ، وهو مميتهم ، وهو الذى سيبعثهم للحساب والجزاء ، والعاقل من يؤمن بذلك ، ويستعد للقاء الله فى اليوم الآخر .

(٢٤٣)

أصالة الشح فى الإنسان

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

أن المشركين لما طلبوا نعماً مبهرة بين الله لهم أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على شحهم وبخلهم ، ولما نفعوا أحداً فلا فائدة فى إعطائهم ما طلبوا ، لأن الشح طبع أصيل فهم ، وفى الإنسان بـصور عامة .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الإنسان شحيح بخيل فلو ملك الجنات والعيون لبقى على شحه ونجله .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى ﴾ أى قل لهم يا محمد : إنكم أيها الناس لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها لبقيتم على ما أنتم عليه من الشح والبخل .
ولذلك اقتضت حكمة الله أن يوزع الأرزاق ، ويأمر بالإنفاق ويحدد الواجبات المالية ، ولم يترك الأمور لطبيعة البشر .

﴿ إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ أى لو ملكتم خزائن الأرض لبخلتم على غيركم ، وأمسكتم المال خوفاً من الفقر ، فتلك جبلة فيكم ، تخافون الفقر

(٢٤٤)

وتبخلون فى العطاء ، وتحبون المال حبا جما .

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أى وكان شان الإنسان بخيلا ، منوعا بطبعه

ولذلك لم يحقق الله البساتين ، والأنهار التى طلبموها ، لأنها لن تفيدهم ، ولم يمنع عنهم المال حتى لا يضرروا أنفسهم وغيرهم .

فإن قلت : يوجد فى الناس كريم جواد . فما المراد بالآية ؟

أقول : الآية تتحدث عن أن الأصل فى الإنسان هو البخل ، والكثير يعطى المال لغيره رياء وسمعة ، والقلة القليلة هى التى تتغلب على شح النفس وتتعود على العطاء والإنفاق والحكم دائما للأعم الأغلب .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الإنسان شحيح بطبعه ، ومهما أتاه الله من مال فلن يتخلص من شحه ، ودائما يخاف الفقر ، ويفزع من وقوعه وتصوره .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

الإيمان طريق الحياة للإنسان

الإنسان مخلوق له طاقات عديدة ، وفيه غرائز ثابتة ... وغرائزه تسيطر على نشاطه ما لم يهذبها الدين ، ويصقلها الإيمان .

ومن الدوافع الفطرية فى الإنسان الشح والبخل الذى يولد فيه الأنانية وحب الذات ، وحب التملك ، والنزوع إلى السيطرة والتفوق .

تبين الآية هذه الغرائز ، وتوضح أن رحمة الله أنقذته مما هو فيه من شح ، وتقتير ، وخوف ، وهلع .

إن الإيمان ينقذ الإنسان من أضرار هذه الغرائز ، ويتعالى بها إلى الخير ويعرف المؤمنون أن العطاء بيد الله تعالى ، وأن الأرزاق كلها بأمره ، فهو

سبحانه يقول : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ مُخْلَفٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾^(١)
 ويضرب الله مثلا يشجع على العطاء فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ
 يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ
 مِائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾^(٢) ، ويقول سبحانه :
 ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ آتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ
 كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ
 فَطَلٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾^(٣) .

إن الله استخلف الإنسان في ماله سبحانه وتعالى ، وأمره أن ينفق منه
 على نفسه ، وأهله ، وعلى المستحقين من الناس ، وأمر الله بالإحسان فقال
 تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(٤) . ويقول ﷺ : "السخي
 قريب من الله ، قريب من الجنة ، قريب من الناس ، بعيد من النار"^(٥) ويقول
 ﷺ : "اللهم أعط ممسكا ثلثا ، وأعط منقفا خلفا"^(٦) .

(١) سورة سبأ ، الآية ٣٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٦١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٦٥ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٩٥ .

(٥) سنن الترمذى . كتاب أبواب البر والصلة . باب ما جاء في السخاء ج ٤ ص ٣٤٢ .

(٦) صحيح البخارى . كتاب الزكاة . باب قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ ﴾ ج ٢ ص ١١٥ .

(٢٤٦)

بين موسى عليه السلام وفرعون اللعين

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَسَخَّرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۝ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ۝ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما ذكر الله في الآيات السابقة رد ما اقترحوه من آيات جاءت هذه الآيات لبيان أن الله أنزل لقوم موسى عليه السلام مثل ما طلبوا من معجزات إلا أنهم لم يؤمنوا فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وتبين الآيات ما دار بين موسى عليه السلام وبين فرعون وتظهر عقوبة الله لفرعون وقومه .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله تعالى أتى موسى بتسع آيات بينات ، ودعا بها قومه وفرعون فاتهمه فرعون بالسحر ، فرد عليه موسى عليه السلام ، وبين له أنه ملعون مطرود من رحمة الله تعالى ، فلما حاول فرعون إهلاك موسى عليه السلام ومن معه

أغرق الله فرعون فى اليم ، ونجى موسى وبنى إسرائيل ، وقد اسكن الله
الإسرائيليين الأرض فى مصر والشام بعد هلاك فرعون .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى أرسلنا موسى ﷺ إلى

قومه بنى إسرائيل والى فرعون وملاه وجعلنا معه تسع آيات واضحة .

وأقوال المفسرين مختلفة فى تحديد هذه الآيات التسع من بين ستة عشر

معجزة أحصاها القرآن الكريم لموسى ﷺ ... وهى :

(١) أذهب العجمة عن لسانه وصار فصيحاً .

(٢) انقلاب العصا حية .

(٣) تلقف الحية حبالهم وعصيتهم على كثرتها .

(٤) ظهور اليد البيضاء .

(٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩) الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

(١٠) شق البحر .

(١١) انفلاق الحجر فى قوله : ﴿ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ﴾^(١) .

(١٢) إظلال الجبل فى قوله : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾^(٢) .

(١٣) إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه .

(١٤ ، ١٥) الجذب ونقص الثمرات فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ

بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾^(١) .

(١) سورة الشعراء ، الآية ٦٣ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧١ .

(١٦) الطمس على أموالهم من الحنطة والدقيق والأطعمة^(١) .

وأشهر الأقوال فى تحديد الآيات التسع ما روي عن صفوان بن غسان أن يهوديا قال لصاحبه : تعال حتى نسأل هذا النبي .

فقال الآخر : لا تقل نبيا . فإنه لو سمع صارت له أربعة أعين ، فأتياه فسألاه عن هذه الآية . فقال : لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ، ولا تسخروا ، ولا تمشوا بالبرى إلى سلطان ليقتله ، ولا تسرفوا ، ولا تقذفوا المحصنات ، ولا تفروا من الزحف ، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت فقبلا يده وقالوا : نشهد إنك نبي^(٢)

﴿ فَسَعَلَ بَنَى إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ﴾ أى أسأل يا محمد معارضيك من

بنى إسرائيل ليذكروا لك ما حدث من بنى إسرائيل حين جاءهم موسى عليه السلام .

﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ أى جاء

موسى عليه السلام بالآيات لفرعون فقال فرعون : إنى أحسبك يا موسى مسحورا سحرك الناس ، وجعلوك تتطق بأمور عجيبة غير مطابقة للواقع .

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ

بَصَآئِرَ ﴾ أى قال موسى لفرعون : لقد علمت يا فرعون ما أنزل الله الآيات

التسع التى أريتكمها إلا حجة لى على حقيقة ما أدعوك إليه ، وشاهدة على صدقى ، فلقد بعثنى رب السموات والأرض بهذه الآيات بينة واضحة .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٣٠ .

(٢) تفسير المراغى ج ١٥ ص ١٠٣ .

(٣) تفسير المراغى ج ١٥ ص ١٠٤ .

(٢٤٩)

﴿ وَإِنِّي لأُظَنُّكَ يَفِرُّعُونَ مَثْبُورًا ﴾ أى وانى لأظنك يا فرعون

مصريوفا عن الخير ، مطبوعا على الشر ، مطرودا من رحمة الله تعالى .

﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى أراد فرعون أن يخرج موسى

عليه السلام وبنى إسرائيل من أرض مصر بجنوده وجيشه .

﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾ أى أغرقناه فى اليم هو وجنوده ، ونجينا

موسى عليه السلام ومعه بنو إسرائيل .

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ أى قلنا

لبنى إسرائيل بعد إغراق فرعون وقومه : اسكنوا أرض الشام وهى الأرض المقدسة التى وعدهم الله بها .

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ فإذا جاء وقت البعث

حشرناكم إلى الحساب ، أنتم وهم جميعا لنحكم بينكم ، وتعطى كل فريق ما يستحق من جزاء .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أرسل موسى عليه السلام لفرعون وملاه بتسع آيات واضحة

فقال له فرعون : إنى لأظنك يا موسى مخدوعا سحرك الناس .

فقال موسى عليه السلام : لقد علمت يا فرعون أن الذى جعل الآيات معى هو

رب السموات والأرض وانى أظنك يا فرعون بعيدا عن الصواب ، مطرودا من

رحمة الله ، فلما أراد فرعون قتل موسى وقومه أغرقه الله وجنوده ، ثم أمر

الإسرائيليين بأن الله جعل لهم أرض الشام ... وفى يوم القيامة سيأتى الله

بموسى وفرعون ليقضى بينهما بالحق ، واعطاء كل نفس ما تستحق .

(٢٥٠)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

الفرعونية استعلاء وظلم

تتحدث الآيات عن موقف فرعون اللعين من موسى عليه السلام فقد بادره بالاتهام وقال له : ﴿ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۖ ﴾ .

ولم يبق هذا الخلق مرتبطا بشخص بعينه ، وانما صار خلقا لكل متكبر فى الأرض ، يدل على ما يلى :

أولا : الفرعونية خلق عدوانى يستهين بالآخر ، ويعتبر الظن حقيقة يبنى عليها ما يريد .

ثانيا : الفرعونية سلوك استعلائى ينسى حق الله ، وحق الناس .

ثالثا : الفرعونية دائمة الاستهزاء ، والاستفزاز لخصومها .

رابعا : الفرعونية تدفع أصحابها إلى الخوف من الأقوياء واذلال الصغار .

خامسا : الفرعونية فى الإنسان تجعله يقلب الحقائق ويدعى أن الظلم عدل ، وأن الفحشاء خلق كريم .

سادسا : الفرعونية تحيط نفسها بمجموعة من المنافقين ، والوصوليين الذين يحملون مباخر الظلم ، ويعملون على خداع الناس بالكذب والبهتان .

وهكذا تتكرر الفرعونية فى حياة الناس ، وكلما اتصف بها المستبدون فى الأرض نشروا فسادهم ، وسوء خلقهم .

(٢٥١)

القرآن الكريم كتاب هداية وبناء

يقول الله تعالى :

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٢٥١﴾ وَقُرْآنًا
فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥٢﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِمْ أَوْ لَا
تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ سَجُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا
﴿٢٥٣﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿٢٥٤﴾ وَيَسْجُدُونَ لِلْأَذْقَانِ
يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿٢٥٥﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن فرعون وقومه كفروا بالآيات التسع التي جاء بها موسى عليه السلام جاءت هذه الآيات لبيان أن مشركي مكة سيكفرون بالقرآن الكريم كما كفر فرعون وقومه بآيات موسى عليه السلام ، وبينت الآيات أن القرآن الكريم نزل ملتبسا بالحق ، هاديا إلى الصراط المستقيم ، وقد تأثر به العلماء السابقون فخشعوا عند سماعه ، وخرروا سجدا وبكيا .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن القرآن الكريم أنزله الله ملازما للحق في كافة جوانبه ، وقد أنزله الله مفرقا ليستفاد منه على مهل في الإرشاد والتربية ، والعالمون يعرفون فضله ، لأنه كان إذا تلى عليهم يخرون ساجدين في خشوع وخضوع لله رب العالمين .

(٢٥٢)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ الضمير يعود إلى القرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى

، وتقدم الجار والمجرور للدلالة على الخاصية الرئيسية الملازمة للقرآن الكريم ،
والحق هو الأمر الثابت المستقيم الذى لا يزول ، ولا يضر ، ولا يبعد عن
الصواب . والمعنى إنا أنزلنا القرآن الكريم متضمنا بالحق ، ففيه أمر بالعدل ،
والانصاف ، ومكارم الأخلاق ، ونهى عن الظلم ، والأفعال الذميمة ، وبيان
براهين الوحداية ، وحاجة الناس إلى الرسل ، لتبشيرهم ، وانذارهم ، وحثهم على
صالح الأعمال انتظارا ليوم الحساب والجزاء .

وهذه الخاصية الملازمة لإنزال القرآن الكريم تشمل القرآن الكريم كله ما
نزل قبل نزول هذه الآية ، وما نزل بعدها .

﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أردنا بإنزال القرآن الكريم بيان الحق ، فلما جاء وقت

إنزاله المحدد على محمد ﷺ نزل به جبريل عليه السلام .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أى وما أرسلناك يا محمد للناس

إلا مبشرا لمن يؤمن ، ويدخل فى الإسلام ... ونذيرا لمن عصى ، وبغى ، وبقى
على الكفر .

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ أى أنزلنا القرآن

الكريم عليك يا محمد ﷺ مفرقا منجما . لتقرأه على مهل وتؤده ، ليسهل حفظه ،
وفهمه ، والعمل به ، وليبقى هذا التفريق منهجا فى التربية والدعوة إلى يوم
القيامة .

ولقد تلقى الجيل الأول من المسلمين القرآن الكريم فحفظوه ، وعاشوا به
وكلما جاءهم منه أمر أو نهى خضعوا له ، وكلما تلقوا منه أدبا أو فريضة

التزموا به . ولم يأخذوه متعة عقلية أو نفسية كما كانوا يأخذون الشعر والأدب ولا تسلية وتلهية كما كانوا يأخذون القصص ، والأساطير فائتلفوا معه في حياتهم اليومية ، وتكيفوا به في مشاعرهم وضمايرهم ، وفي سلوكهم ونشاطهم وفي بيوتهم ، ومعاشهم ، وطرحوا كل ما عداه ، مما ورثوه ، وما عرفوه ، وما رسوه قبل أن يأتيهم هذا القرآن العظيم .

﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ أى أنزلنا القرآن الكريم تنزيلا متتابعاً حسب الوقائع والأحداث ، وكلما جد أمر نزل من القرآن ما يناسبه ، وعندما يشتد حزن النبي من عدوان المشركين يسليه الله بقرآن ينزله . يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَزَّلْنَاهُ تَرْجِيلاً ۝٦٦ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٦٧﴾ (١) .

﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ أى قل يا محمد لمشركى مكة الذين يطلبون منك آيات مبهرة : لقد دعوتكم لتؤمنوا بالإسلام ، وبالقرآن الكريم ، ولكم حريتكم فى أن تؤمنوا به أو لا تؤمنوا ، ولكل عمل حسابه ، وجزاؤه وفى هذا تهديد للمشركين ليدركوا أنهم بكفرهم لن يضرروا الله شيئاً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى إن الذين أوتوا العلم قبل نزول القرآن الكريم هم علماء أهل الكتاب الذين قرأوا الكتب السابقة ، وعلموا أن الله سيبعث رسولا بعد عيسى عليه السلام .

﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ تَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝٦٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝٦٨ ﴾ أى أن هؤلاء العلماء إذا تلى عليهم

القرآن الكريم يسارعون إلى الإيمان ، والسجود لله تعالى ، وينزهونه سبحانه وتعالى عما يقول المشركون ، ويقرون بصدق الله فيما يبشر أو ينذر به ... ويناجونه سبحانه وتعالى ، وينزهونه ، ويقرون بصدق وعده ، ويأملون في عفوه ، ورضاه .

﴿ وَتَحَرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَجْكُونَ وَيزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ أى ويسارعون إلى

السجود باكين من خشية الله حين سماعهم للقرآن الكريم ، ويزدادون بالقرآن الكريم استسلاما لله ، واستجابة لدعوته ، ورغبة في رضوانه وجنته .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ، ولا يجتمع على عبدي غبار في سبيل الله ودخان جهنم " (١) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " عينا لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله " (٢) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل القرآن الكريم ملتسبا بالحق ، وأرسل رسوله للناس مبشرا ونذيرا ، وترك لهم الحرية ليؤمنوا أو لا يؤمنوا فسوف يحاسبون على ما يعلمون .

(١) سنن الترمذى . كتاب فضائل الجهاد . باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله ج ٤ ص ١٧١ .

(٢) سنن الترمذى . كتاب فضائل الجهاد . باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله ج ٤ ص ١٧٥ .

(٢٥٥)

وبينت الآيات أن علماء أهل الكتاب إذا سمعوا القرآن الكريم يسارعون إلى الإيمان ، ويسجدون لله خاشعين مستسلمين لله رب العالمين .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات منهج الله في إصلاح الحياة وأساسه ما يلي :

- (١) ملازمة الحق ، واتباع الصراط المستقيم في كافة الأقوال والأعمال .
- (٢) التدرج في التربية والتوجيه مع تقديم القضايا جزءا جزءا لأن كثرة التوجيه ينسى بعضه بعضا .
- (٣) الاعتماد على العلماء المخلصين في الريادة والقيادة فهم أولى الناس بدعوة الناس ، وأخذهم إلى الصراط المستقيم .
- (٤) أهم أسباب النجاح عبادة الله تعالى لأن العابد يتصل بمصدر القدرة والقوة والذي يملك الأمر كله ينصر من يشاء من عباده : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾^(١) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٢٦ .

تنزيه الله وعبادته وحده

يقول الله تعالى :

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ۚ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ
وَلَا تُجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَتَبْتَغُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا ۚ
وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ۝ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيتين

يقول ابن عباس رضي الله عنهما : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فلما سجد قال : يا الله ، يا رحمن ، فلما سمع أبو جهل ذلك قال : إن محمدا ينهانا عن آلهتنا ، وهو يدعو إلهين فأُنزل الله الآية (١) .

- ٢ -

صلة الآيتين بالآيات السابقة

لما بينت الآيات السابقة أن علماء أهل الكتاب يعرفون قدر القرآن الكريم ويسارعون عند سماعه إلى الإيمان بالله ، والخشوع له ، وتنزيهه سبحانه وتعالى عن كل نقص . جاءت هذه الآيات لبيان أن الله له الأسماء الحسنى ، ودعوته بإحداها أمر مشروع ، فهو الله الواحد المستحق للحمد ، والعبادة .

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ١٨٩ .

(٢٥٧)

- ٣ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الله واحد لا شريك له ، وله أسماء حسنى عديدة ، وتأمّر الآيات بالصورة الشرعية فى قراءة القرآن الكريم أثناء الصلاة . كما تأمر بحمد الله وتنزيهه عن الشريك ، والنظير .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ أى ادعوا الله بأى من أسمائه الحسنى فكلها أسماء الله الواحد الأحد .

﴿ أَيُّهَا مَا تَدْعُوا ﴾ أى ادعوا الله بأى اسم تريدونه .

﴿ فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ أى أن لله أسماء عديدة مشتملة على معانى التقديس ، والتعظيم ، والتمجيد .

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ أى لا ترفع الصوت بالقراءة ، ولا تخفيه إخفاء كلياً .

عن ابن عباس رضى الله عنهم أن قوله تعالى : ولا تجهر بصلاتك ، ولا تخافت بها نزلت ورسول الله ﷺ مخفف بمكة ، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ، ومن أنزله ومن جاء به . فقال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ : ولا تجهر بقراءتك فى صلاتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها فلا يسمعك المصلون^(١) .

﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ أى اقصد طريقاً وسطاً بين الجهر والخفوت

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ١٩٠ .

(٢٥٨)

عن أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه : "مررت بك وأنت تقرأ القرآن ، وأنت تخفض من صوتك .
فقال أبو بكر رضي الله عنه : إني أسمعت من ناجيت .
فقال ﷺ : ارفع قليلا .
وقال لعمر رضي الله عنه : مررت بك ، وأنت تقرأ ، وأنت ترفع من صوتك .
فقال : إني أوقظ الوسنان ، وأطرد الشيطان .
فقال له : اخفض قليلا" ^(١) .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ أى اشكر الله يا محمد
وقل الحمد لله الذى عرفك بذاته ، وبين لك أنه لم يتخذ ولدا لتعارض ذلك مع
تنزهه سبحانه وتعالى عن الشريك .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ أى أنه لا شريك له .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا ﴾ أى أنه العلى لا يعلو عليه غيره ، ولا
يذله وهو فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير .

﴿ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴾ أى وعظمه من أن يكون له ولد أو شريك فهو سبحانه
منزه عن كل ما لا ينبغى لله الواحد الأحد .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : "أول من يدعى إلى الجنة يوم
القيامة الحمادون ، الذين يحمدون الله في السراء والضراء" ^(٢) .
وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : "الحمد لله رأس الشكر
ما شكر الله عبد لا يحمده" ^(١) .

(١) سنن الترمذى . كتاب ابواب الصلاة . باب ما جاء فى القراءة بالليل ج ٢ ص ٣٠٩ .

(٢) المعجم الأوسط ج ٣ ص ٢٤٠ .

(٢٥٩)

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : "أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا إله إلا الله" (٢) .

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . لا يضرك بأيهن بدأت" (٣) .

- ٤ -

معنى الآيتين

تأمر الآيات بدعوة الله بأحد أسمائه الحسنی ، وبالتوسط فى رفع الصوت حين قراءة القرآن الكريم ، وتأمر بحمد الله وتنزيهه عن كل نقص فلا ولد له ، ولا شريك معه ، ولا ولى يعلو عليه ، فله الحمد والثناء ، والعبودية ... وهو الله رب العالمين .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هى :

التنزيه المطلق لله تعالى

تؤكد الآيتان الحقيقة التى بدأتها السورة وهى تؤكد التنزيه المطلق لله تعالى فهو الله الواحد ، الأحد لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شئ فقدره تقديرا .

(١) شعب الإيمان . كتاب تعديد نعم الله ج ٦ ص ٢٣٠ .

(٢) شرح السنة للبخارى . كتاب الدعوات . باب ثواب التحميد ج ٥ ص ٤٩ .

(٣) صحيح مسلم . كتاب الآداب . باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة ج ٣ ص ١٦٨٥ .

(٢٦٠)

إن الله منزّه عن الشريك ، والشبيه ، وهو مغاير للحوادث كلها ، متصف بكل كمال يليق بذاته سبحانه .

ومغايرة الله للحوادث ضرورة عقلية ، لأن الحوادث محدودة بمكانها وزمنها ، وبمختلف العناصر المادية المحيطة بها ، ولذلك تعيش الحوادث واقعها فقط ... أما الله تعالى فهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وكل ما خطر على البال ، فالله على خلافة وكل المخلوقات آيات شاهدة على جلال الله ، وعظمته ، وتنزيهه عن كل خلقه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(١) .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الإسراء" بتوفيق الله تعالى .

(١) سورة الشورى ، الآية ١١ .

التعريف
بِسُورَةِ "الكهف"

(۲۶۲)

(٢٦٣)

التعريف بسورة "الكهف"

يحتاج التعريف بسورة "الكهف" إلى دراسة النقاط التالية :

- أولا -

تنزيلات السورة

سورة "الكهف" سورة مكية عند الجمهور .

وذهب غيرهم : إلى أن فيها آيات مدنية . فقال بعض هؤلاء : إن الثمانى آيات الأولى منها مدنية .

وقال غيرهم : الثلاث آيات الأخيرة منها مدنية ، وقال آخرون قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ^ط وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا^ط وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا^ط ﴾ (١) آية مدنية (٢) .

إلا أن هذه الآيات التى قيل أنها نزلت بالمدينة يمكن تصور نزولها مرتين مرة بمكة ، ومرة أخرى بالمدينة .

والسورة تسمى باسمين هما سورة "الكهف" وسورة "أصحاب الكهف" وعدد آياتها مائة وأحد عشر آية عند البصريين ، ومائة وعشر آيات عند الكوفيين ، ومائة وست آيات عند الشاميين ، ومائة وخمس آيات عند الحجازيين . وقد نزلت السورة بعد سورة "الغاشية" .

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٨ .

(٢) انظر هذه الأقوال في تفسير الألوسى ج ١٥ ص ١٩٩ .

- ثانيا -**الصلة بين سورة "الكهف" وسورة "الإسراء"**

بين سورة "الكهف" وسورة "الإسراء" صلات عدة أهمها الوجوه التالية :

الوجه الأول :

افتتاح سورة "الكهف" بـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ يقرنها بافتتاح سورة "الإسراء"

التي بدئت بـ ﴿ سُبْحَنَ ﴾ والحمد والتسبيح مقترنان في ميزان الله تعالى . يقول

الله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ .

الوجه الثاني :

بدأت سورة "الكهف" بـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ واختتمت سورة "الإسراء" بقوله تعالى

: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ

يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾^(١) . فقد أمر الله في سورة "الإسراء"

بالحمد الذاتي المتعلق بما لله من صفات وخصائص ، وجاء ذكر الحمد في

سورة "الكهف" شاملا للحمد غير الذاتي المتصل ببيان فضل الله على سائر خلقه

، وانعامه عليهم بإنزال القرآن الكريم .

الوجه الثالث :

لما سأل المشركون اليهود عن محمد ﷺ طلبوا منهم أن يسألوه عن ثلاثة

أمور تدل على نبوته ﷺ ، وجاءت هذه الأسئلة واجابتها في سورتي "الإسراء" و

"الكهف" فناسب أن تأتي أحدهما بعد الأخرى لتتقارب الإجابات الثلاث .

(١) سورة الإسراء ، الآية ١١١ .

الوجه الرابع :

خاطب الله اليهود في سورة "الإسراء" بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ أَلْعَلِّمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾^(١) . وجاءت سورة "الكهف" تفصل هذا الإجمال بذكر قصة الخضر مع موسى عليهما السلام تفصيلا لإجمال سورة "الإسراء" وتأكيذا لها .

وأيضا فقد قال الله في سورة "الإسراء" : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾^(٢) . وفى سورة "الكهف" جاء تفضيل هذا المجئ في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾^(٣) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَتُفْخِ فِي الصُّورِ جَمْعَهُنَّ جَمْعًا ﴾^(٤) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴾^(٥) .

الوجه الخامس :

جاء فى سورة "الإسراء" دور القرآن الكريم فى الناس حيث يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾^(٦) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾^(٧) وجاء تأكيد ذلك فى سورة "الكهف" حيث يقول تعالى : ﴿ قِيمًا لَّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾^(٨) مَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ﴾^(٩) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾^(١٠) .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١٠٤ .

(٣) سورة الكهف ، الآية ٩٨ .

(٤) سورة الكهف ، الآية ٩٩ ، ١٠٠ .

(٥) سورة الكهف ، الآية ٩ ، ١٠ .

(٦) سورة الكهف ، الآية ٢ ، ٤ .

(٧) سورة الإسراء ، الآية ٨٥ .

(٨) سورة الكهف ، الآية ٩٨ .

(٩) سورة الكهف ، الآية ٩٩ ، ١٠٠ .

(١٠) سورة الإسراء ، الآية ٩ ، ١٠ .

وفى سورة "الإسراء" جاء ذكر قصة آدم ﷺ بإيجاز وذلك فى قوله تعالى
 ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ
 خَلَقْتُ طِينًا ﴿٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَىٰ لَيْنٍ أَخْرَجْنِي إِلَىٰ يَوْمِ
 الْفَيْمَةِ لِأَحْتَبِكُ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧﴾ ﴾^(١) وجاء ذكر القصة فى سورة
 "الكهف" موجزة كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
 فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ
 أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾^(٢) .

وفى سورة "الإسراء" جاء ذكر بيان القرآن الكريم للآيات على وجه مفروق
 ومتنوع ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا
 يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾^(٣) ، وفى قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا
 الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾^(٤) ومثلها جاء فى سورة
 "الكهف" : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ
 الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾^(٥) .

وفى سورة "الإسراء" حدد الله موعدا لإهلاك القرى الظالمة ، وذلك فى
 قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا
 عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾^(٦) ومثل هذا الوعد جاء فى

(١) سورة الإسراء ، الآية ٦١ ، ٦٢ .
 (٢) سورة الكهف ، الآية ٥٠ .
 (٣) سورة الإسراء ، الآية ٤١ .
 (٤) سورة الإسراء ، الآية ٨٩ .
 (٥) سورة الكهف ، الآية ٥٤ .
 (٦) سورة الإسراء ، الآية ٥٨ .

سورة "الكهف" وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۖ ﴾^(١) ، وفى سورة "الإسراء" جاء بيان مصير المشركين فى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِمًا وَتُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۖ ﴾^(٢) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفُنًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۖ ﴾^(٣) ، وفى سورة "الكهف" جاء هذا البيان فى قوله تعالى : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ۖ ﴾^(٤) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۖ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۖ ﴾^(٥) .

- ثالثا -

موضوعات السورة

تتناول سورة "الكهف" موضوعات السور المكية وتوضح أركان العقيدة وتستدل عليها .

فهى . أولا . تعرف بالله تعالى ، المعبود بحق الذى خلق كل شئ ، وهو رب السموات والأرض ، آمن به أصحاب الكهف وغيرهم ، وأن كل ما فى الكون يقع بإرادته وقدرته ، وهو العليم الخبير ، وتتعى على الناس كفرهم بالله تعالى ، وترد مزاعم الضالين فى هذا الجانب العقدى الهام .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٩٧ ، ٩٨ .

(١) سورة الكهف ، الآية ٥٩ .

(٣) سورة الكهف ، الآيات ١٠٠ . ١٠٢ .

وهى . ثانيا . تعرف الناس برسول الله ، وتوضح أن الإيمان بهم ركن أساسي في دين الله تعالى ، فقد اختارهم الله من بين عباده ، وخصهم بالوحي وبعثهم للناس يبلغونهم دين الله تعالى ، وختمهم برسول الله ﷺ وأمره سبحانه بتبليغ الإسلام للناس فهو خاتم المرسلين ودعوته للناس أجمعين . يقول الله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدًّا ﴾^(١) ، وبذلك تحددت وظيفة الرسل للناس يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ^ع وَنُحَدِّثُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ لِيُذْهِبُوا بِهِ الْحَقَّ ^ع وَاتَّخِذُوا ءَايَتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾^(٢) وفصلت السورة قصة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام لإظهار بشرية الرسول ، وبيان أنه عبد الله تعالى يسرى عليه ما يسرى على الآخرين .

وهي . ثالثا . تبين أن الملائكة يحملون الوحي للرسول ، ويعملون ما يأمرهم الله به ، وقد أمرهم بالسجود لآدم فأطاعوا وسجدوا . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝ ﴾ (٣) .

وهي . رابعا . نتحدث عن اليوم الآخر وما فيه من بعث ، وحشر ، وحساب ، وجنة أو نار ... يقول الله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ^{عَلَى} فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ^ع إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ^ع

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٧ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ٥٦ .

(٣) سورة الكهف ، الآية ٥٠ .

وَأَن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٦٩﴾ أُولَٰئِكَ هُم جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ سُحُلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الْثَوَابِ وَحَسَنَتِ الْمُرْتَفَقَاتُ ﴿٧٠﴾ ﴿١﴾ .

وهى . خامسا . تبين أن الله ﴿١﴾ أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ﴿٢﴾ والمراد به القرآن الكريم الذى ختم الله به ، وأبقاه فى الناس خاتما لسائر الكتب التى أنزلها الله على رسله السابقين .

- رابعا -

أساليب الدعوة فى السورة

تقدم سورة "الكهف" موضوعاتها من خلال طرق بيانية عديدة ، أهمها أسلوب القصة ، فلقد اشتملت السورة على قصص أصحاب الكهف ، وقصة أصحاب الجنتين ، وقصة إبليس مع آدم عليه السلام ، وقصة موسى والخضر عليهما السلام ، ومن خلال أحداث القصة تأتى أركان العقيدة ، وضرورة الإيمان .
إن القصص فى سورة "الكهف" يتصل بغيبات غير موجودة ، فأصحاب الكهف قد اندثرت آثارهم ، وقصة موسى والخضر موجودة فى بطون الكتب ، وقد أهلك الله الجنتين ، ولم يبق منهما إلا العبر والدروس ، وقصة ذى القرنين

(١) سورة الكهف ، الآيات ٢٩ . ٣١ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ١ .

(٢٧٠)

وقصة يأجوج ومأجوج غيب لا يعلمه إلا الله تعالى ... ولذلك كان الإيمان بثبوت القرآن الكريم ركنا أساسيا للاستفادة بهذا القصص ...
وقد استغرق هذا القصص أغلب آيات السورة وبقية آيات السورة يدور حول هذا القصص وبجواره .

وتستخدم السورة ضرب الأمثال فتضرب مثلا برجلين لهما جنتان ، وتضرب مثلا بالدنيا ، وزهوها ، وفنائها . يقول الله تعالى : ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۖ ﴾^(١) وتستعمل السورة التشبيه ، والتأكيد ، والترغيب والترهيب ، وهكذا تتضمن السورة موضوعاتها ، وتقدمه بوسائل القرآن الكريم ، وأساليبه .

(١) سورة الكهف ، الآية ١ .

سورة "الكهف"

التفسير

(٢٧٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾
 قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
 الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّبْكُورِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ
 قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ
 مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ﴾

موضوع الآيات

- ۲ -

الدلالات اللغوية

﴿الَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِكِتَابٍ﴾ هذا وصف لله تعالى بما في حيز الصلة إشعارا بعظمة الله ، وتقديرا لما في حيز الصلة ، واستحقاقا لله أن يحمد بسببه . فقد تكرم الله بإنزال كتابه على عبده محمد ﷺ الذي بلغ أعلى درجات

العبودية ، وارتقى أعلى درجات العبادة ، واتصل بالملأ الأعلى ، وتلقى الكتاب من ربه .

وجاء ذكر الكتاب معرفاً بآل ، لبيان أنه الكتاب المعروف بالكمال ، البالغ حد العظمة بين سائر الكتب المنزلة ، كأنه الكتاب المختص بالذكر وحده .
والمراد بالكتاب القرآن الكريم كله ، أو المنزل منه حتى إنزال هذه الآية .

﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ أى ولم يجعل الله فى القرآن الكريم عوجاً ما والعوج ضد الاستقامة والانحراف . والمعنى أن الله لم يجعل فى القرآن الكريم أى عوج ولو كان قليلاً فى لفظه ، ومعناه ، وأغراضه ، وفى هذا رد على المشركين ، وأعداء الإسلام الذين زعموا أن القرآن الكريم مؤلف من قبل محمد ، وأنه منقول من أساطير الأولين . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾^(١) .

﴿ قَيِّمًا ﴾ أى مستقيماً ، عدلاً ، مشتملاً على المصالح الدنيوية ، والأخروية ، موضحاً للناس طريق الخير ، محدداً الإصلاح بوسائله ، وأساليبه ، فهو كتاب كامل فى ذاته ، هاد للناس إلى سائر الكمالات .
﴿ لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ ﴾ أى ليخوف به الذين كفروا من عذاب أليم صادر من عنده سبحانه وتعالى ، نازل من قبله .

﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ أى ويحمل البشرى للذين صدقوا رسول الله ﷺ فى دعوته ، وعملوا أعمالاً صالحة ، وبذلك فقبول الأعمال الصالحة متوقف على الإيمان والتصديق ، وجاء التعبير فى

(١) سورة النساء ، الآية ٨٢ .

الآية بالفعل المضارع "يبشر" و "يعملون" لبيان تجدد البشرى ، واستمرارية العمل معها .

﴿ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ أى أن لهم بمقابلة إيمانهم وعملهم الصالح أجرا حسنا هو الجنة ، وما فيها من مثوبات الحسنى .

﴿ مَكِينٍ فِيهِ أُبْدَا ﴾ أى خالدين فى هذا الأجر بلا انتهاء أو نقص وعمم الإنذار لمن يستحقه ، وقدمه على التبشير لإبراز كمال العناية بزجر الكفار ، وتبشير المؤمنين ، لأن الأمور تعرف بأضدادها ... وأن التخلية من المعاصى تسبق التحلية بالطاعات فناسب ذلك أن يسبق الإنذار التبشير .

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ هذا إنذار آخر يختلف عن الإنذار الأول ، لأن الإنذار الأول عام ... وهذا الإنذار خاص بفريق معين من المشركين ، وهذا الفريق يشمل من اتخذ الله ولدا كمشركى مكة الذين قالوا : إن الملائكة بنات الله : وكاليهود الذين قالوا : عزيز ابن الله ، وكالنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ... وقد خصت الآية بالذكر هذا الفريق لبيان قبح ما يقولون به .

وجاءت الصلة بـ ﴿ قَالُوا ﴾ لبيان أن زعمهم فى النبوة لله قول مجرد منهم لا حقيقة له أبدا .

﴿ مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَائِهِمْ ﴾ أى أن قولهم عن النبوة لله كلام لا أساس له ، ولا علم فيه ، منهم أو من أسلافهم الذين سبقوهم ، وورثوهم هذه المقالة الفاسدة ، وصاروا تبعاً لهم فى الجهالة والضلالة .

فإن قيل : الله لا ولد له البتة . فكيف تقول الآية : ﴿ مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ ؟

أقول : انتقاء العلم قد يفيد الجهل بالطريق الموصل إلى العلم ... وقد يكون في نفسه محالا لا يصح تعلق العلم به كان تقول : أنت لا تعلم الغول ... والغول لا وجود له .

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى عظمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء لما فيها من نسبته سبحانه وتعالى إلى ما لا يليق به . وهذه الكلمة السيئة خرجت من أفواههم ولم تلامس قلوبهم ، لبيان جرأتهم على الباطل ، وسوء خلقهم في الافتراء والسوء ، فهم يتكلمون بها ، ويقلدون أسلافهم من غير عقل ونظر .

﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ أى ما يقولون بهذا القول إلا كذبا محضا لا صلة له بالواقع أبدا ، والكذب عدم مطابقة الخبر للواقع ، علم بذلك قائله أو لم يعلم .

- ٣ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الحمد لله وحده ، فقد أنزل على محمد ﷺ القرآن الكريم هاديا للحق ، ومرشدا للصواب ، وقد جعله الله منبرا للمشركين ، ومبشرا للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ، ويخبر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم عند الله أجرا طيبا في مثوبات الجنة وجمالها ، وهو . سبحانه . ينذر الذين جعلوا لله ولدا ويخوفهم بالخزي والعذاب . فقد افتروا على الله كذبا ونطقوا بكلمة الكفر والضلال ، وكذبوا فضلوا وأضلوا .

(٢٧٧)

- ٤ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ثبوت التنزيه المطلق لله تعالى

الله في كل خلقه آيات شاهدة على وحدانيته ، وتعالى عن ما عداه ،
وتنزيهه تنزيها مطلقا عن كل ما لا ينبغي لإله خلق ، وقدر ، وهدى ، وربى ،
ونظم .

ومن الإيمان بالوحدانية وجوب الحمد لله بصورة مطلقة في السراء
والضراء ، حمدا يليق بجلاله ، وعظمته ، وآثاره في خلقه وعباده .

حمدا لخلق الإنسان ، وتكريمه ، وتفضيله .

حمدا لتفضله على الإنسان بإعطائه حواسه ، وصورته ، وروحه ، وعقله

حمدا لإمداده الإنسان بما يحتاج إليه مادة ومعنى ، علما وعملا ...

حمدا لأنه لم يترك الإنسان يعيش بهواه وبضيع ، وانما أرسل له الرسل

ليرتبط بالله ، وينتظم في سلك المؤمنين الصادقين ...

حمدا لأنه أنزل في أمة محمد ﷺ القرآن الكريم ، وبينه بالسنة الشريفة

ليستمر هاديا للناس ، ومبشرا ونذيرا إلى يوم القيامة .

الله تعالى الحمد كله ، والشكر كله فهو المعبود بحق ، وهو على كل شئ قدير

والمسلم مكلف بتنزيه الله عن كل نقص ، وتبرئته من كل قول لا يؤكد

هذه النزاهة المطلقة الواجبة لله رب العالمين .

ولذلك نعت الآية على من جعل لله ولدا ، لأنه يتعارض مع الوحدانية

التامة ، ولا يليق مع كمالات الله المطلقة أن يكون له شريك ... ولا يليق

(٢٧٨)

بالإنسان أن يهرف بما لا يعرف ، أو يدعى أمرا لا يعلم عنه شيئا ... تعالى الله عما يصفون علوا كبيرا .

الركيزة الثانية **موقف المؤمنين والمشركين** **بين يدى الله تعالى**

تصور الآيات مواقف المؤمنين والمشركين ، وهم بين يدى الله تعالى يحاسبهم على ما قدموا فى الدنيا ... لأن الناس ينقسمون فى توحيد الله إلى فريقين :

فريق آمن بالله تعالى ، ونزهه عن كل شرك ، واستقام على صراط الله المستقيم ، وأصلح قوله ، وعمله ، وخلقه ، فله البشرى فى الحياة الدنيا بالنصر والمعونة ، وبخيراتها من مال ، وولد ، وتمكين ، وفى الآخرة بجنت النعيم ، يلقون فيها تحية وسلاما ، ويخلدون فى نعيمها الدائم ، ويعيشون فى جمالها وزخارفها ، ومحاسنها مع كرام الناس ، والخلص من عباد الله تعالى .

وفريق أضله الشيطان فأشرك بالله غيره ، وجعل له صاحبة ولدا من غير إدراك أن ذلك يلحق النقص بالله ، ويقضى على الألوهية قضاء تاما ، يتمسك هذا الفريق بضلاله فى الدنيا مع أنه يهمل كافة وسائل الإدراك ...
وأهمها :

(أ) أنه لم يلجأ إلى التفكير ، والنظر ليعرف أن اتخاذ الولد لله كفر به ، وادعاء ذلك وهم وخيال لا دليل عليه .

(ب) أنه آثر التقليد على البحث والنظر فوق فيما وقع فيه أبأوه من ضلال وبهتان .

(ج) أنه صار بادعائه البنية لله كاذبا ، لأنه ادعاء لا دليل عليه ، ولا حقيقة له ولو تدبر العاقل فى هذا الادعاء لأدرك ما فيه من افتراء على الله تعالى .
ومن العجيب أن المشركين يبدعون الكذب ، ويصدقون أنفسهم بعد ذلك ويستمترون فيه .

الركيزة الثالثة

عظمة القرآن الكريم

القرآن الكريم هو كلام الله المنزل على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه، وقد أنزله الله ﷻ خاتما لكتبه المنزلة، وجعل له الهيمنة عليها فهو كتاب الهداية الذى جمع سائر الفضائل ، واحتوى على كافة سبل الاصلاح ، وحدد وسائل صناعة الإنسان على منهج الله .
وهو الكتاب المعتمد به من سلك سبيله نجا ، ومن هدى به هدى إلى صراط مستقيم . قدر الله له أن يكون خاليا من أى عوج ، بعيدا عن أى تعارض : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾^(١) .

إن القرآن الكريم يقدم الإسلام بصفائه ونقاؤه ، ويهذى إلى صراط الله المستقيم ، ويجب أن يتلقى المسلمون القرآن الكريم تلقيا كريما ، ويقبلوا عليه قبولا طيبا ، فيحفظوه ، ويفهموه ، ويعملوا به ، ويجعلوه دستورهم فى الدنيا والآخرة .
وقد أدرك أعداء الإسلام أهمية القرآن الكريم ، فعملوا على صرف الناس عن تعلمه ، ووضع المهتمين به فى مؤخرة الصف الاجتماعى ، ووسموهم بالتخلف وعدم الوعى ، واجتهدوا فى أن يكون أولو الرأى من البارزين فى الثقافات الغربية الذين ربوهم على ما يسمونه التنوير والتقدم ﴿ وَيَأْتِىَ اللَّهُ إِلًّا أَنْ يُتَمَّ ثَوْرُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾^(٢) .

(١) سورة النساء ، الآية ٨٢ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٣٢ .

(٢٨٠)

حرص النبي ﷺ على إيمان الناس

يقول الله تعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً ۖ هَآءَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٦٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٦٨﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة وجوب الحمد لله تعالى لإنزاله الكتاب ، ولنعمه التي لا تعد ولا تحصى ، ووضحت تفرق الناس في توحيد الله تعالى جاءت هذه الآيات لبيان حرص النبي ﷺ على إيمان الناس ، وأخذهم إلى الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن رسول الله ﷺ كاد أن يقتل نفسه ألما وأسفا على عدم إيمان المشركين بالقرآن الكريم وما جاء فيه ، ومن عدم استفادتهم من الحسن والجمال والتنوع الذي وضعه الله في الأرض ليتمتعوا به ، ويتخذوه شاهدا على التوحيد .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ يبين الله له حالته بعد كفر المشركين بالقرآن الكريم ، وعدم إيمانهم بالله تعالى ، وقد أشفق الله على نبيه لشدة ألمه على كفر

قومه ... وقد شبه الله حالته ﷺ مع المشركين برجل فقد أحبته ، وأعزته فهو يكاد يتساقط ألما لفراقهم .

ولعل تفيد رجاء المحبوب ، والحذر من المكروه لأن رسول الله ﷺ اقترب من حزنه على إشراك قومه من أن يقتل نفسه حزنا ، وأسفا على شركهم ، وعدم إيمانهم بالقرآن الكريم ، وما فيه من هدى ورشاد ، وكان ﷺ يتحسر على قومه بعد انصرافهم عنه ، وتركهم دعوته .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً هَآ ﴾ أى إنا أوجدنا كل ما يزين

الأرض من زرع ، وماء ، وبشر ، وصحراء ، وهوام لتكون أدلة تدعو إلى الإيمان بالخالق العظيم ، وقد جعل الله الإنسان جزءا من زينة الأرض ... ومن أعظم حسن الأرض تكامل المخلوقات وترباطها ، فهي تدل على وحدة الصانع ، وقدرته البالغة ، وخلق كل شئ على نسق بديع ، وغايات مقصودة وبذلك تدل سائر المخلوقات على تأكيد وحدانية الخالق ، واتصافه بكل كمال يليق به ، وتنزهه عن الشريك والمثيل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(١) .

فإن قيل : أين دلالة الحيات والعقارب والفراس على التوحيد ؟ ... وما هو دورها فى زينة الأرض ؟

أقول : دلالتها على قدرة الله أن خلقها زاحفة ، أو هائمة ، أو راجلة ، بألوان شتى ، وصور مختلفة ، وزينتها ما فيها من منافع عقلية وتجريبية ، فهي تظهر جمال ما عداها ، وتوحى للعقل البشرى بالإبداع ، وتقدم للعلماء نماذج للتجربة العملية ، ومن رحيقها سموم يفيد فى الدواء .

(١) سورة الشورى ، الآية ١١ .

لا يوجد فى خلق الله عبث أبدا ... ومخلوقات الله خير شاهد على وحدانيته وقدرته .

ويكفى العقل أن يقف متأملا فى العديد من خلق الله ...

ليرى الزرع والنبات ، من شجر يعلو فى أفق السحاب ، إلى نبات لا يعلو عن الأرض شيئا ... ومن شجر يغطيه ورقه إلى شجر يعلوه الورق ويوجد فى قمته فقط .

وليرى جمال الأنعام فى رواحها وسروحها ، ومعها راعيها وحارسها وهى تسير على الطريق بجوار جدول ممتد ، وشجر متتابع .
وليرى من يمشى على رجلين ، ومن يمشى على أربع ، ومن يزحف على بطنه ...

وليرى الطير فى سماواته ، والنحل فى رحلاته ، والنمل فى زحوفه وجولاته .

لقد اكتشف العلم دودة صغيرة تنظف الأرض ، وتحمى النبات ، وتقيد الإنسان والحيوان .

إن هذا الخلق زينة ومنفعة ، ودلالاتها على الخالق واضحة .

﴿ لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أى خلقنا ما على الأرض ، وجعلناه

زينة شاهدة على وحدانية الله وقدرته ، وأرسلنا للناس رسلا ليحدثوهم بهذه الآيات اختبارا لهم ليظهر كل منهم على حقيقته ، ويتضح أيهم أحسن عملا ، ويبدو المفسد من المصلح .

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أى وقد خلقنا ما على

الأرض حسنا متكاملا ، مترابطا ، فجعلنا التراب وهو الصعيد ، وجعلنا الحجر الأملس الناعم ، وهو الجرز زينة شاهدة داعية إلى الإيمان والهدى .

(٢٨٣)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن رسول الله ﷺ كان يتألم لكفر قومه ، ويتأسف من عدم إيمانهم بالحق ، بعدما رأوا الآيات فيما خلق الله على الأرض من زينة متنوعة مبنوثة في الإنسان ، والحيوان ، والزرع ، والماء ، والتراب ، والحجر .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تشتمل الآيات على عدد من الركائز الدعوية ... أهمها :

الركيزة الأولى

حرص الدعاة على نشر الإيمان

الداعية إلى الله تعالى واحد من المسلمين تميز عنهم بالعلم ، والصدق والإخلاص ، وحب تبليغ الدعوة . يدور اهتمامه كله مع دين الله تعالى ، ويحول حياته ومماته ويقظته ، وحركته لله رب العالمين ... ولذلك يعيش جندياً أميناً لدعوة الله تعالى ، ينفق معها ما له ، وروحه .

والدعاة بهذا صورة لرسول الله ﷺ الذي بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجاهد في الله حق الجهاد ، صدع بالأمر ، وواجه الطواغيت ، وكاد أن يهلك نفسه أسفاً على عدم إيمان الناس .

إن الدعوة ليست ترفاً فكرياً ، وليست وجهة اجتماعية ، ولكنها إيمان كامل ، وتعامل مع الله ، وسعى لإعلاء دين الله وكلمته في أرض الله تعالى .
والداعية الناجح هو من يصل للناس بوسائل محببة لهم ، ويأخذهم إلى الحق بالحسنى ، ويتعامل مع مدعويه بما يناسب كلا منهم ، إنه يشبه الطبيب الذي يعيش بين المرضى ، ليحدد لكل فرد داءه ودواءه ، ويستمر يبذل الجهد حتى يحقق الله مرادة حياة وشفاء ... أو أجلاً وموتاً .

والداعية الناجح هو الذى يستفيد من حكمة الآخرين ، ويتمتع بالصبر والمثابرة ، ويثق في عون الله ونصره ، ولا يوقفه عن الدعوة إعراض أو نكوص .
والداعية الناجح هو الذى يخاطب العقل ، ويناجى الوجدان ، ويعيش مع العواطف . ليتمكن من هذه الأعمال أن يعرض على الناس الإسلام بجماله ، ودقته ، واصلاحه .

والداعية الناجح هو الذى يجعل القرآن الكريم زاده ومدده ، يأخذ منه الإسلام ديناً كاملاً ، تاماً ، ويجعله أسلوبه ومنهجه ، ويدعو به إلى الله تعالى بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والحوار الجميل المطلوب ، وللدعاة أسوة في ذلك برسول الله ﷺ .

الركيزة الثانية

زينة الدنيا حجة الله على الناس

جعل الله عنصر الجمال جزءاً من الحياة الدنيا . فخلق الإنسان جميلاً ، وجعل المال والولد زينة الحياة الدنيا .
وأوجد الكون بكافة عناصره متناسقاً ، مترابطاً ، يقدم الجمال في كل جوانبه .
فمن نظر إلى السماء رأى زرققتها ، وسحبها ، وشاهد الكواكب ، والنجوم ... وكل ذلك بعض الجمال فيها .
ومن تأمل في الأرض ، ورأى الهواء السابح ، والماء الجارى ، والأنعام والحيوان ، والهوام ، والماء ، والناس ، والطير يرى جمالها ، وحسنها .
إن الكون جميل كله ، وهذا أمر يتفق مع روح الإنسان وخياله الباحث دوماً عن لوحة جمال يراها ، وعن حسن يعيش فيه .
ومن هنا ...

جعل الله الجمال في الكون آية من آياته ، وحجة على ألوهيته ، واستحقاقه أن يعبد وحده .

الركيزة الثالثة

منهجية القرآن الكريم في الدعوة

يسلك القرآن الكريم مسلكاً طيباً في الدعوة إلى الله تعالى ، وذلك بربط المخلوقات بالخالق ، والعودة بالعقل إلى ما شرع الله من أحكام تحقق العدل ، وتنشر الأمان ، وترضى الجانب الفكري في الإنسان ... وتربط الروح والوجدان بالإبهار المطلق في خلق الله تعالى ، فدودة تخرج حريراً ، وأخرى تخرج مسكاً ، وثالثة تنتج دواء والكل يعيش في بيئة واحدة ويأكل طعاماً واحداً لآية كبرى لمن يعقل ، ويفهم .

إن التصور ، والتصديق ، واتخاذ القرار عمليات سريعة شاهدة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى الذي خلق من الطين هذا الإنسان بعناصره ومكوناته .

إن منهجية القرآن الكريم في الدعوة إلى الله خير وأبقى لمن أراد النجاح .

قصة أصحاب الكهف

تورد الآيات قصة أصحاب الكهف في مشاهد متعددة ، حيث تبدأ الآيات بإيراد القصة مجملة ، ثم تفصلها في عدد من المشاهد ، وإنى أورد هنا القصة في إطار دلالة الآيات في كل مشهد ... ثم أورد أهم الركائز الدعوية المستفادة من قصة أصحاب الكهف ... وذلك فيما يلي :

قصة أصحاب الكهف إجمالاً

يقول الله تعالى :

﴿ أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ۖ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۖ فَضَرَبْنَا عَلَى ءِذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۖ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الله ملأ الأرض زينة ليعرف العقلاء بها الخالق جاءت هذه الآيات لبيان مجمل لقصة أصحاب الكهف الذين آمنوا بالله تعالى ، ولجأوا إلى الكهف استعانة بالله تعالى فكان لهم ما كان ، وهذا إجمال يعد مقدمة لتفصيلات القصة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات قصة أصحاب الكهف بإجمال ، مكتفية بإيراد محاور القصة الرئيسية ، فتوضح أن القصة ليست أعجب آيات الله . ففي المخلوقات عجائب عديدة أكد منها وأعجب . فقد أوى الفتية إلى الكهف هرباً بدينهم من الطغيان وجعلوا الكهف مسكنهم ، ودعوا الله أن يرحمهم ، وأن يهيئ لهم رشداً من أمرهم ، فمكثوا نائمين في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم أيقظهم ، فرجعوا إلى الناس ، وقد تغير كل شيء ، وجعل الله هذه القصة عبرة وعظة لأصحاب الكهف ، ولغيرهم من أقوامهم .

(٢٨٧)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا

عَجَبًا ﴾ ؟ ... الخطاب لمحمد ﷺ ، والاستفهام فيه للإقرار لبيان ظن رسول الله وتعجبه من آيات الله في أصحاب الكهف ، وتوضيح أنها ليست أعجب خلق الله . ففي الخلق آيات أعجب من آيات أصحاب الكهف . مثل رفع السماء بلا عمد ، وبسط الأرض مع أنها مكورة ، بل أن الموت وفصل الروح عن الجسد ثم تحقيق البعث في الآخرة أعجب من النوم وان طال . ومعنى هذا أن سؤال اليهود ليس سؤالاً عن أعجب المخلوقات .
والكهف غار واسع في الجبل .

والرقيم هو اللوح الذى كتب فيه أسماء أصحاب الكهف ، وعلق على بابه .
ومعنى الآية : أتظن يا محمد أن آية أصحاب الكهف أعجب آياتنا بل في الخلق ما هو أعجب منها ؟

وقصة أصحاب الكهف تدور حول المحاور التالية :

(١) ﴿ إِذْ أَوْىءَ الْفَتِيُّ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ أى ذهب الفتية إلى الكهف ، ولجأوا إليه ، وأقاموا به ، وسألوا الله تعالى الذى آمنوا به أن ينعم عليهم بفضله ، ويرحمهم بعنايته ، ويعينهم في مقرهم الذى اتخذوه ، ويرزقهم الهداية ، والرشد ، والصواب .

(٢) ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ أى ألقينا عليهم

النوم عددا طويلا من السنين .

(٣) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ أى

أيقظناهم من نومهم لنظهر لهم ، وللناس عجائب القدرة ، ويعلموا عدد
السنين التى استمروا خلالها نائمين .

- ٤ -

المعنى الإجمالى للقصة

تقدم الآيات صورة مجملة لقصة أصحاب الكهف ، وملخص هذا الإجمال
أنهم سبعة من الفتية آمنوا بالله ، وأبوا أن يسلموا أنفسهم للقتل والتعذيب ، فقاموا
، واشتغلوا بالصلاة ، واتفقوا على أن يخرجوا من المدينة إلى كهف قريب من
موطنهم ، ويقيموا فيه حتى ينتهى زأدهم ، فأخذهم النوم وظلوا في الكهف
نائمين ثلاثمائة وتسعة أعوام ، فلما أيقظهم الله تعالى ، وعادوا لموطنهم رأوا
تغير الحال ، واختلاف الناس ، وعلموا ما في قصتهم من غرائب .

تفصيل قصة أصحاب الكهف

بعد أن قدمت السورة قصة أصحاب الكهف مجملة ، وركزت على محاورها الرئيسية أخذت تفصل في أحداثها في إطار عدد من المشاهد ، ليقدم كل مشهد جزءا من قصتهم العجيبة ، وسوف أورد بإذن الله تعالى ، هذه المشاهد متتابعة ، لأخلص إلى الركائز التي تقدمها القصة للدعوة والدعاة .

المشهد الأول

تمسك الفتية بالإيمان

يقول الله تعالى :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿٤﴾ هَتُولَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءِلَٰهَةً لَّوْلَا يَأْتُوا عَلَيْهِمُ الْمَٰلِكُ الَّذِي يَبْلُغُنَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ۝ ﴾

- ١ -

موضوع الآيات

تقوم الآيات المشهد الأول لقصة أصحاب الكهف من بيان مطابقة ما تضمنته الآيات مع الحق الذي حدث ، فلقد كانوا عددا من الفتیان آمنوا بالله وكفروا بالشرك والشركاء ، فاعتزلوا قومهم ، ولجأوا إلى الكهف سائلين الله أن يرحمهم ، ويمن عليهم بالنصر والساداد .

(٢٩٠)

- ٢ -

تفصيلات المشهد الأول من خلال دلالة الآيات

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ تبدأ الآيات ببيان بعض

خصائص قصة أصحاب الكهف ... وهى :

(١) هذه القصة أنزلها الله العظيم على رسول الله ﷺ فهى من غيب الماضى السحيق التى لا يعلمها إلا الله تعالى .

وبدأت الآية بـ ﴿ نَحْنُ ﴾ الدالة على عظمة الله تعالى لإظهار قدرته

سبحانه وتعالى ، وأهمية القصة في الدعوة إلى الله تعالى .

(٢) بينت الآية أن الله أنزل هذه القصة ليستفيد بها رسول الله ﷺ والمؤمنون

معه ، ويعلموا أن الله ناصر لعباده بالصورة ، والوقت ، والحال الذى يريده الله تعالى ، ويهجروا اليأس والقنوط بصورة كلية لأن الله معهم .

(٣) قصة أصحاب الكهف قصة موعلة في القديم ، ولها تأثير قوى في

الحاضر والمستقبل ، ولذلك كانت نبأ ، لأن النبأ يعنى الخبر الهام المثير المتصل بأخبار قديمة ، أو معلومات مستورة يثيرها الذى ينبئ بها .

(٤) إن الأنباء المحكية في قصة أصحاب الكهف حقيقية ملازمة للصدق ،

ومبينة للواقع كما حدث بلا زيادة أو نقص ، أو تقصير .

وبعد أن بينت الآية خصائص قصة أصحاب الكهف أخذت بعد ذلك في

توضيح المشهد الأول للقصة فقال تعالى :

﴿ إِيَّاهُمْ فَتَيَّءَ اٰمَنُوْا بِرَبِّهٖمْ وَزِدْنٰهُمْ هُدًى ﴾ أى أن أصحاب الكهف

كانوا عددا من الشباب الأقوياء لم يرتضوا ما عليه قومهم من الشرك ، فأمنوا

بالله وحده ، وهداهم الله للحق وأنعم عليهم بأنوار الهداية ، ومكنهم من الصراط

المستقيم .

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى شددنا على قلوبهم ، وثبتناهم ، وقويناهم بنور الإيمان فصمدوا أمام طغيان وجبروت الملك ، ولما يأبها بظلمه ، وقالوا في مواجهته ما يبين قوة إيمانهم وصدقهم .

﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ أى اذكر يا محمد لقومك قيام هؤلاء الشباب بإعلان إيمانهم بالله ، مستدلين بمخلوقاته الموجودة في السموات والأرض وما بينهما ، المثبتة لوجود الله مع التأكيد أنهم لا يتخذون غيره إلها فلا عبادة لغيره ، لأن القول بغير هذه الوجدانية كذب كبير لاحق معه .

وفى قوله تعالى : ﴿ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ بيان ضرورة ظهور الإيمان في اللسان والأعمال ، وعدم حبسه في المقاصد والنوايا . فقد عمل الفتية ، ونشطوا وواجهوا الطغيان بإعلان الإيمان .

﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً ﴾ أى أن هؤلاء الفتية قالوا وهم يعلنون إيمانهم : إن قومهم المشار إليهم يعبدون غير الله تعالى ، ويشركون معه آلهة أخرى ، ولذلك تركوهم ، وآمنوا بالله وحده ، وخصوه بالعبادة دون سواه ﴿ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أى قال الفتية : ليت قومنا

يأتون بدليل على شركهم ، وعبادتهم غير الله ، لأن الاعتقاد الصحيح يقوم على دليل قوى ، وبرهان ساطع ، يثبت صدق العقيدة ، ومطابقتها للواقع ، ولأن عدم وجود الدليل الصادق يجعل العقيدة هوى وظنا بعيدا عن الحق والصدق ، وخلو الدعوى من أدلة الإثبات يسقطها .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى فما أشد ظلم من كذب

على الله ، وأقام عقيدته على الهوى ، واختلق الكذب على الله تعالى .
فإن قيل : لولا تفيد الحض والحث على الفعل . فكيف يحض الفتية قومهم المشركين على أن يؤتوا بدليل على الشرك ، وهذا أمر مستحيل لا دليل عليه ؟

أقول : إن الحض في الآية لا يعنى الطلب ، وإنما يراد به إثبات عجز المشركين ، والاستهزاء بهم ، وبآلهتهم والاستهزاء بهذه الصورة قمة التحدى ومثله تحدى رسول الله ﷺ المشركين ليأتوا بمثل القرآن الكريم ، أو بمثل أقصر سورة منه .

وبهذا يتضح أن الفتية اتخذوا موقفا يغاير موقف المشركين الضالين ووضحوا المفاصلة التامة بين المؤمنين والكافرين ، وبينوا كذلك أن الدين لا يؤخذ إلا بالحجة ، والدعوى إذا لم يكن معها بيئة فهي فاسدة .
وبذلك يكون الشرك حيث لا دليل عليه ظلم ، وافتراء على الله وكذب مردود

- ٣ -

معنى المشهد الأول

تبين الآيات أن قصة أصحاب الكهف قصة حقيقية نزل الوحي بنبيها على رسول الله ﷺ لتكون عبرة ودرسا لأمة محمد ﷺ .

وأصحاب الكهف مجموعة من الشباب آمنوا بالله تعالى ، وأبوا الانصياع للظلم والطغيان ، ولم يرتضوا الشرك الذى عليه قومهم ، وزادهم الله هدى ، وثبت قلوبهم ، وأمدهم الله بعونه فأعلنوا إيمانهم بالله خالق السموات والأرض فهو رب العالمين ، وهو الواحد الأحد ، ورأوا أنه لا يصح لعاقل أن يشرك مع الله آلهة أخرى بلا دليل ، ولا حجة ، كما يفعل قومهم ، لأن الشرك بلا دليل وحجة كذب وافتراء على الله تعالى .

(٢٩٣)

المشهد الثانى الفتية يعتزلون القوم وأصنامهم

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأُورَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية أن هؤلاء لما اعتزلوا قومهم دينيا أمرهم الله باعتزالهم بدنيا ،
ومسكنا ، وهداهم لأن يدخلوا الكهف ، وقيموا فيه ، وسوف يعمهم الله برحمته ،
ويرشدهم لأحسن الأعمال .

- ٢ -

تفصيلات المشهد الثانى من خلال معانى الآية

﴿ وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأُورَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ
لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا ۝ ﴾ أى قال الفتية
بعضهم لبعض : ما دمنا اعتزلنا هؤلاء المشركين ، والأصنام التى يعبدونها مع
أنهم دعوا إلى عبادة الله وحده فأبوا ذلك ، وعبدوا الأصنام فاعتزلهم الفتية ،
واعتزلوا أصنامهم ، واستمروا على عبادة الله وحده ، وقال بعضهم لبعض :
الجاؤا إلى الكهف لتبتعدوا فيه عن المشركين وظلمهم ، يوسع الله نعمه ، ويبسط
لكم الخبر ، ويبسر لكم ما يعود عليكم بما يسركم ، ويمكنكم من السلامة
والأمان .

(٢٩٤)

إن الإيمان يملأ القلوب باليقين ، ويأخذ المؤمنين إلى رحاب الله الواسع ، فيتحول الكهف الضيق إلى رحاب فسيح ، وبساطة الزاد تتحول إلى كثرة بفضل الله العظيم . إنه الإيمان بالله الذي يجعل الأمل كله في رضوان الله ، ورضاه .

- ٣ -

معنى المشهد الثانى

تبين الآية أن الفتية اعتزلوا قومهم ، وتركوا أصنامهم ، وقال بعضهم لبعض : لنأوى إلى الكهف فارين بديننا من ظلم وجبروت المشركين ، ليتولانا الله تعالى ، ويحيطنا بنصره ورحمته ، وعونه ، وقد أمل الفتية أن يمكنوا في الكهف مدة يغيبون فيها عن الناس ، وبعدها يرحلون إلى مكان آخر يريد به الله لهم بعدما تهدأ العاصفة .

إن هؤلاء الفتية كانوا عددا قليلا ومع ذلك أبوا الخضوع للطغيان والشرك ففروا بدينهم إلى الله ، وتركوا ديارهم وأهلهم معتمدين على الله فرفعهم ، وأعلى مقامهم ، وأبقى قصتهم عبرة للآخرين .

المشهد الثالث الفتية في الكهف

يقول الله تعالى :

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكَ تَهْتَدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۝٧ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۚ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ۝٨ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الفتية بعد أن دخلوا الغار قدر الله لهم أن يأخذهم النوم فناموا نوما طويلا ، في صورة أناس متيقظين ، بعيون مفتوحة ، وجسد نائم ساكن ، يهب عليهم الهواء البارد العليل ، ولا تمسهم حرارة الشمس ، وكلبهم جالس باسط ذراعيه عند باب الكهف كأنه يحرسهم . مع أنه في نوم مثلهم ، وقد استمروا على ذلك مدة طويلة دامت أكثر من ثلاثمائة عام ، تغيرت خلالها صورهم ، وتبدلت الحياة في مدينتهم ، وهم لا يشعرون .

- ٢ -

تفصيلات المشهد الثالث من خلال معنى الآيات

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ

ليتصور حال الفتية بعد أن دخلوا الكهف ، وأخذهم النوم ، أى أن الفتية لما دخلوا الكهف أخذهم النوم فناموا راقدين في صورة محددة كالآتى :

(١) أن الله أنامهم في كهف ممتد من جهة الشمال إلى جهة الجنوب ، وكان للغار باب في جهة الشمال ، وبيان ذلك الشمس عند شروقها يسقط شعاعها على يمين الغار لمن يدخله وعند الغروب يسقط الشعاع على شماله .

(٢) إنهم ناموا في عمق الكهف بعيدا عن الباب لأنهم ناموا ﴿ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ أى في عمقه الواسع ، بعيدا عن الباب لئيتعدوا عن أضرار تلحق بهم ، وبذلك تبتعد الشمس عنهم لأنها لا تعتمد على الكهف ، وبذلك عاشوا في هواء عليل ، ونسيم رقيق بلا حرارة تؤذيهم ، أو برودة تؤلمهم فتدخل الشمس كهفهم ولا تضرهم .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ ﴾ أى أن الحال التى نام بها الفتية من آيات الله وأفضاله ، و ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الحالة التى كان عليها الفتية ، وهم نائمون لأن ذلك من عجائب صنع الله ، ودلالات قدرته ، وذلك أن ما كانوا على تلك الحال يصيبهم ضوء الشمس ، ولا تصيبهم حرارتها فلا تقع الشمس عليهم عند الطلوع ، ولا عند الغروب ، ولا عند الاستواء ولا تؤذيهم بحرارتها ، ولكن اختار الله لهم مضجعا في متسع ينالهم فيه برد الريح ، ونسيمها ويدفع عنهم كرب الغار وغمه .

﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ أى من يهده الله كأصحاب الكهف فهو الذى يعيش نور الهداية ويتمتع بتوفيق الله تعالى ، ومن يرد الله إضلاله يعيش ضالا بعيدا عن ولاية الله ، ومحروما من الرشد في القول ، والعمل ، والسلوك .

(٣) ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ أى أن أهل الكهف لما ناموا وضعهم

الله في صورة المتيقظين فعيونهم مفتحة ، وأجسادهم نائمة .

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ أى أن الله أمر ملائكته أن

تقلبهم وهم نيام على جنبهم اليمين ، وعلى جنبهم الشمال حتى لا يتأثر جسدكم ببلى الأرض ، ويتأذى بعدم وصول الهواء إليه .

﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ أى وكلبهم جالس ملق يديه على

الأرض مبسوطتين غير مقبوضتين .

﴿ لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ أى لو نظرت إليهم يا محمد

وهم رقود في جوف الكهف لأسرعت بالبعد عنهم عائدا من حيث أتيت .

﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴾ أى ولامتألت نفسك منهم هيبة وخوفا ، وسبب

ذلك أن الله ألبسهم ثوب الوقار والقوة ، حتى لا يصل إليهم واصل ، ولا

تلمسهم يد لامس ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، والى أن يوقظهم الله من

رقادهم ، ولتكون قصتهم عبرة لمن شاء الله تعالى .

- ٣ -

صورة المشهد الثالث

من خلال معانى الآيات

تبين الآيات أن الفتية ذهبوا إلى الكهف ودخلوه ، وناموا في جوفه الواسع

، حيث بابه جهة الشمال وكانت الشمس تدور حول الباب ، فعند الشروق تميل

الأشعة على يمين الكهف ، وعند الغروب تميل جهة الشمال ، وهذا من قدر الله

العجيب الذى أبعد عنهم حرارة الشمس ، ومتعهم بضوئها ، وبالهواء العليل

يأتيهم من جهة الشمال . فقد هداهم الله للحق ، ووقفهم للخيرات وأعاتهم ، ومن

كان ينظر إلى القوم ، وهم رقود يتصورهم في يقظة لتفتح عيونهم ، وتقلبهم على

أيمانهم وشمائلهم ، والكلب ممتد بذراعيه عن الباب كأنه يحرسهم ، وقد ملئوا هيبة ووقارا وقوة تجعل من يراهم يخاف منهم ، ويفر بعيدا عن الكهف مذعورا ، وتلك من آيات الله التى بينها الله تعالى عظة وعبرة للناس ، وأبقاها في أصحاب الكهف ، وأنزلها في كتبه المقدسة .

المشهد الرابع يقظة أصحاب الكهف من النوم

يقول الله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۚ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۚ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ۚ ﴾

- ١ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الله أيقظ أصحاب الكهف من نومهم الطويل فوجدوا كل ما كان معهم على هيئته وحالته التى كان عليها قبل نومهم ، وسأل بعضهم بعضا عن المدة التى استغرقوها في النوم فقالوا : لبثنا نائمين يوما واحدا ، أو جزءا من اليوم ، وسلموا الأمر لله ، وأخذوا في تدبير أمورهم ، فأرسلوا واحدا منهم ببعض المال ليحضر لهم طعاما ، وليأخذ حذره من الطغاة ويتخفى حتى لا يشعر به أحد من هؤلاء البغاة المشركين الذين لا يتناون في إضلال الناس .

(٢٩٩)

- ٢ -

تفصيلات المشهد الرابع من خلال دلالة الآيات

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ أى وكما أنماهم هذه المدة الطويلة في الكهف ، وحفظنا أجسادهم من البلى أيقظناهم من هذه النومة التى تشبه الموت ، فلما بعثناهم وأيقظناهم أخذوا يتساءلون فيما بينهم .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ ؟ ... السؤال حقيقى من كل منهم ، فلقد كانوا يريدون معرفة المدة التى استغرقوها في النوم ، وقد تصوروها جميعا مدة قليلة ، وراعهم فوات صلاة ، وكانوا راغبين في قضاء ما فاتهم .

﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ أى قالوا لبعضهم نمنا يوما كاملا فلما رأوا الشمس لم تغرب بعد قالوا لبثنا في النوم بعض اليوم ...

وفى هذا بيان أن صورتهم لم تتغير ، وأن شعرهم ، وأظافرهم بقيت على حالها يوم مجيئهم إلى الكهف ، ولذلك تصوروا النوم جزء يوم .

﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ أى أنهم أنهوا الجدل حول مدة النوم وقالوا الله أعلم بمدة نومنا فلا تختلفوا ، واتركوا الأمر لله .

﴿ فَابْتَغُوا أَحَدَكُمْ بَورِقَكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ أى أرسلوا واحدا منا إلى المدينة التى خرجنا منها ، وأعطوه الورق الموجود معنا ، وهو الفضة المضروبة أو غير المضروبة وهى النقود التى تثمن بها الحاجات .

﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ أى ليذهب إلى السوق ، ويتخير طعاما طيبا ، حلالا ، ويبتعد عن الطعام الخبيث .

﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ أى ليشتري بالورق طعاما ، وقوتا تأكله .

(٣٠٠)

﴿وَلَيْتَلَطَّفَ﴾ أى وليترفق ويتخفى في الطريق ، وفى السوق ، وفى المدينة .

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أى ليتحرك في حذر ، وسرية حتى لا يشعر به أحد من سكان المدينة ، ونبقى حيث نحن في أمان الله بعيدين عن سطوة هؤلاء المشركين ، وطغيانهم .

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أى أن هؤلاء المشركين الجبابرة لو علموا بمكاننا فلن يتركونا على ما نحن فيه من أمن ، وسيحاولون القضاء علينا .

﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أى لو علم المشركون بمكانكم سيقتلونكم رميا بالحجارة ويعذبونكم ، ويأخذون في شتمكم ولعنكم ...

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أو يرجعونكم إلى الكفر مرة أخرى لتكونوا مثلهم .

﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ أى إن عدتم إلى دينهم فلن تفلحوا أبدا بهذا الكفر .

فأرسلوا واحدا منهم ليمير لهم من المدينة ، وأخذ حذره كله ، وتخفى في حركته وسعيه إلا أن الأمر لم يخف على الناس فقد رأوا رجلا من زمن قديم ، يختلف في ملابسه ، ولسانه ، وهيبته ، ورأوا في الورق معالم دولة قديمة فأخذوا الرجل ، وسألوه ، فقص عليهم قصته وإخوانه ، وطلب منهم أن يحضروا معه إلى الكهف ليروا إخوانه أيضا .

خاف أصحاب الكهف من غياب صاحبهم ، وظنوا أنه قد أحيط به ... وبينما هم في التفكير إذا يصاحبهم يأتى ومعه جمهرة من أهل المدينة ، فدخل

(٣٠١)

الرجل عليهم ، وعرفهم الأمر فبكوا جميعا ، وعلموا أن الله أمانتهم مدة طويلة ليكونوا عبرة لغيرهم وقد أدى ذلك إلى إيمان أهل المدينة .

- ٣ -

موجز المشهد الرابع من معنى الآيات

تبين الآيات أن أصحاب الكهف دخلوا في رحبة الكهف الواسعة ، وقد أكرمهم الله ، وحفظهم ، فناموا بداخله ، ومكثوا في نومهم مدة طويلة .
فلما استيقظوا تساءلوا عن المدة التي استغرقوها في نومهم فقال بعضهم
منا يوما كاملا ، فلما رأوا الشمس لم تغرب قالوا : لا بل لبثنا بعض اليوم ،
وأقروا بأن المدة الحقيقية يعلمها الله تعالى .

ثم اختاروا واحدا منهم ، وأرسلوه إلى المدينة ومعه نقود من الفضة لشراء
الطعام والقوت من المدينة ، وطلبوا منه أن يتخفى حتى لا يشعر به أحد من
أهل المدينة ، لأنهم لو شعروا به لعلموا مكانهم ، وأتوا بجندهم إلى الكهف
تشتبنا وتقتلنا بالحجارة ما لم نرجع ونعود إلى ملتهم الكافرة ، وتلك هي الخسارة
الكبرى التي تحقق الهلاك وعدم الفلاح بصوره مطلقة ... فلما ذهب الفتى إلى
المدينة أخذ حذره ، واستتر ، وتخفى . إلا أنه أثار دهشة أهل المدينة فهو في
صورة القدماء ، ونفوده لدولة مضى عليها أكثر من ثلاثمائة عام ، فسألوه عن
هويته ، فأخبرهم بما فعله أصحاب الكهف فخرج الناس إليهم ، وعلموا خبرهم
فسجدوا لله شاكرين ، وآمنوا بما هم عليه من دين .

(٣٠٢)

المشهد الخامس معرفة الناس في المدينة

يقول الله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۖ ﴾

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله قدر قصة أصحاب الكهف وأظهرها للناس ليعلموا أن البعث حق ، وأن يوم القيامة آت لا ريب فيه ... وتبين أن القوم تنازعوا في شأن أصحاب الكهف ، وعقيدتهم ، ودينهم ، وقرروا في النهاية أن يبنوا فوق الكهف مسجدا يعبدون الله فيه .

- ٢ -

تفصيلات المشهد الخامس على ضوء دلالة الآيات

﴿ وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ ﴾ ومثل ما فعلنا بأصحاب الكهف من نوم طويل ويقظة عجيبة أظهرناهم للناس ليعلموا صدق وعد الله تعالى ، ويستفيدوا بما في قصتهم من عبر ودروس ، وبخاصة أن هؤلاء الناس لم يكونوا مؤمنين كسلفهم .

﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أى أظهرنا قصتهم لمن بعدهم ليؤمنوا بالله تعالى ، ويصدقوا وعد الله تعالى ، ويعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ، إذ لا حجة لمن أنكرها إلا الاستبعاد ،

(٣٠٣)

ولكن وقوع ذلك الأمر العظيم ، وعلمهم به ، مما يخفف من غلوائهم ، ويكبح جماح إنكارهم ، ويردهم إلى رشدهم .

ذاك أن حال هؤلاء الفتية في تلك الحقبة الطويلة ، وقد حبست نفوسهم عن التصرف ، وعطلت مشاعرهم وحواسهم عن الإحساس ، وحفظت أجسادهم من التحلل والتفتت ، وبقيت على ما كانت عليه من الطراوة والشباب ثم رجعت بعد تلك المشاعر والحواس إلى حالها ، وأطلقت النفوس من عقالها وأرسلت إلى تدبير أبدانها ، فرأت الأمور كما كانت ، والأعوان هم الأعوان ، ولم تنكر شيئا عهده في مدينتها ، ولم تتذكر حبسها المدى الطويل عن التصرف في شؤونها ، وحال الذين يقومون من قبورهم بعد ما تعطلت مشاعرهم وحبست نفوسهم . من واد واحد في الغرابة ، ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو معاند ، ووقوع الأول يزيل الارتياح في إمكان وقوع الثاني ، ولا يبقى بعد ذلك شك في أن وعد الله حق ، وأن الله سيبعث من في القبور ، فيرد عليهم أرواحهم ، ويجازيهم جزاء وفاقا بحسب أعمالهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهو الحكم العدل ، اللطيف الخبير .

﴿ إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ أى أخذ القوم يتنازعون ويختلفون في

شأن أصحاب الكهف من عدة جوانب .

فقد قال المؤمنون : إنهم كانوا على ملتنا .

وقال الكافرون : إنهم كانوا على ملتنا ... كما تنازعوا في البعث بعد

الموت ، وفي عدد أصحاب الكهف ، وفي المدة التي مكثوها في الكهف .

﴿ فَقَالُوا أَتَبْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا ۖ رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ أى قال الكافرون

كانوا على ملتنا ، ورأوا أن يبنوا عليهم بنيانا يحفظ سيرتهم ، وخبرهم ، واغلاق الكهف عليهم .

وقوله : ﴿ رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ جاء اعتراضا بين كلامه سبحانه وتعالى ،
ورده على الخائضين في أمر أصحاب الكهف ، فالله هو الأعلم بخلقه ، ويجب
ترك الأمر لحكمه سبحانه وتعالى .

﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾

أى وقال من غلب رأيهم : نسد الكهف عليهم ، ونبنى عليه مسجدا يصلى فيه
الناس ، لتبقى أخبارهم موجودة لمن يمر بالمكان يدل عليه هذا المسجد .
ولم يبق هذا السلوك في شريعة الإسلام ، فقد نهى الله عن اتخاذ القبور
مساجد تنزيها لعظمة الله تعالى ، وخصوصا في العبادة ، وتحقيقا للوحدانية
المطلقة لله في العبادة والطلب والرجاء .

روى الترمذي بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال :
"لعن الله تعالى زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج" (١) .
وزاد مسلم : "ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد
فإنى أنهاكم عن ذلك" (٢) .

وعن عائشة أن النبي ﷺ قال : "لعن الله تعالى اليهود والنصارى ، اتخذوا
قبور أنبيائهم مساجد" (٣) .

وروى البخارى بسنده قوله ﷺ : "إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح
فمات بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق يوم
القيامة" (٤) .

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب الصلاة . باب ما جاء في كراهية أن يتخذ على القبر ج ٢
ص ١٣٩ .

(٢) المعجم الكبير للطبرانى ج ١٩ ص ٤٩ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب الصلاة . باب الصلاة في البيعة ج ٢ ص ٢١٥ .

(٤) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب هجرة الحبشة ج ١٢ ص ٢٥٤ .

(٣٠٥)

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : "إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، ومن يتخذ القبور مساجد" ^(١) .

وبإقامة المسجد فوق الكهف وغلقه انتقلت قصة أصحاب الكهف إلى جدل وحوار دار حول عددهم ، وإلى مدة مكثهم في الكهف ، وإلى بيان ضرورة ترك الأمور لعلم الله وإرادته فهو علام الغيوب ، ولن يغيب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض ، وفي كل خلقه سبحانه وتعالى .

- ٣ -

تفصيل المشهد الخامس على ضوء معنى الآية

تبين الآيات أن الله أظهر قصة أصحاب الكهف للناس ليعلموا صدق وعد الله تعالى ، ويتيقنوا من أن الساعة آتية لا ريب فيها ، فلقد تنازعوا في شأنهم ، وملتهم ، وعددهم ، فلما ماتوا أغلق الله باب الكهف عليهم ، ونادى الكفار ببناء بيت عليه يتخذونه مزارا لهم ، ونادى المسلمون الذين غلبوا برأيهم ببناء مسجد فوق الكهف ، فبنوه ، وبقي منهم ، ومن قصتهم العظمت والعبر .

(١) مصنف ابن أبي شيبة . كتاب الجنائز . باب من كره زيارة القبور ج ٣ ص ٣٠ .

(٣٠٦)

المشهد السادس مناقشة القضايا المتصلة بأصحاب الكهف

يقول الله تعالى :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِيَّتُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۚ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ ﴿١٧﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۚ ﴿١٨﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۚ ﴿١٩﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۗ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۚ ﴿٢٠﴾ ۝

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن أصحاب النبي ﷺ أخذوا يتناقشون في عدد من القضايا المتصلة بأصحاب الكهف ، فتكلموا في عددهم ، وفي سنوات لبثهم في الكهف وفي ضرورة الاعتماد على الله ، وترك الأمور لمشيئته سبحانه وتعالى ، وقد فصلت الآيات هذه القضايا ، وبينت القول الفصل فيها .

(٣٠٧)

- ٢ -

تفصيلات المشهد السادس من خلال معنى الآيات

تناول المشهد عددا من القضايا التي دار حوار حولها في زمن رسول

الله ﷺ ... وهي :

القضية الأولى عدد أصحاب الكهف

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ أى سيقول بعض الخائضين من أهل الكتاب والمسلمين ذلك .

فقد روى أن نصارى نجران تناظروا مع رسول الله ﷺ فى عدد أهل الكهف .

فقالَت الملكانية (أصحاب الملك) : هم ثلاثة رابعهم كلبهم .

وقالَت اليعقوبية : هم خمسة سادسهم كلبهم .

وقالَت النسطورية : هم سبعة وثمانهم كلبهم ... وهو القول الحق وعليه المسلمون بدليل أنه تعالى حكم على القولين السابقين بأنهما رجم بالغيب ، فأرشد ذلك إلى أن الحال فى الأخير على خلافه ، وأن أصحابه قالوه عن ثبات علم ، وطمأنينة نفس . فوجب أن يكون المخصوص بالظن هو قول النصارى ... وأن يكون قول النسطورية ، والمسلمين مخالفا لقول النصارى في كونه رجا بالغيب وظنا .

﴿ قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ ﴾ أى قل للخائضين المختلفين في عددهم إن

الله وحده هو الأعلم بعددهم .

(٣٠٨)

﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أى ما يعلم عددهم بدقة إلا عدد قليل من الناس .

﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرًا ﴾ أى فلا تجادل في عددهم إلا مرء سهلا لنا ميسورا ، حيث لا فائدة في العدد ، وأن العبرة في الحدث الدال على صدق وعد الله تعالى ، واثنيان يوم القيامة .

﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أى لا تسأل أهل الكتاب عنهم لأنهم يذكرون كلاما قائما على الظن والتخمين لا حقيقة له .

القضية الثانية

ضرورة ذكر الله تعالى

في كل الأحوال والأعمال

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكْ غَدًا ۖ ﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۖ

أى لا تقولن يا محمد على شئ تفعله غدا إلا مقرونا بمشيئة الله تعالى ، فريما مات القائل قبل الغد ، أو تحدث أمور تمنعه من فعل ما نوى ، ولذلك وجب تعليق الفعل بمشيئة الله تعالى ، لأنه لو لم يقل إن شاء الله لكان كاذبا ، ومدعيا ما ليس له .

وسبب هذا الأمر لرسول الله ﷺ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين فقال ﷺ : "أخبركم غدا ولم يقل إن شاء الله فلبث الوحي أياما"^(١) ثم نزلت هذه الآية .

﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ إذا حدث أن نسيت ذكر المشيئة فتدارك

ذلك واذكر الله فيما فات منك سواء طال الفصل أو قصر .

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ١٨١ .

(٣٠٩)

﴿ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ أى وقل يا محمد : إني اذكر ربي رجاء أن يوفقني للرشد والصواب ، ومعرفة أخبار أصحاب الكهف .

وقد حقق الله لرسوله ذلك فأتاه بالآيات التي تعرفه بقصص الأمم السابقة .
وقيل : إن القوم لما سألوه عن قصة أصحاب الكهف على وجه العناد أمره الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم أن الله سبحانه وتعالى سيؤتيه من الحجج على صحة نبوته ما هو أدل لهم من قصة أصحاب الكهف ، وقد فعل الله ذلك حيث آتاه من علم غيب المرسلين ، وقصصهم مما هو أوضح وأقرب إلى الرشd من خبر أصحاب الكهف .

القضية الثالثة

بيان المدة التي مكثها أصحاب الكهف نائمين

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ أى أن المدة التي ناموا خلالها كانت ثلاثمائة سنة زادت تسع سنوات أخرى .
ولكن :

ما معنى أنها ثلاثمائة ؟ وما معنى أنها زادت تسعا ؟

معنى ذلك أن المدة التي استغرقوها نائمين تعرف بحسابين :

الحساب الأول : حساب أهل الكتاب الذين يعتمدون السنة الشمسية وهم الذين طلبوا من أهل مكة أن يسألوك عن أهل الكهف ، وعن مدة نومهم ، وعلى هذا الحساب تكون مدة لبثهم في الكهف ثلاثمائة سنة فقط .

الحساب الثانى : حساب أهل مكة الذين يعتمدون السنة القمرية ، وهذا يزيد المدة عن حساب أهل الكتاب تسع سنوات لأن كل مائة سنة تزيد ثلاث سنوات .

(٣١٠)

ولا شك أن فى هذا البيان معجزة لرسوله النبي الأُمى الذي لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يدرس الحساب ، ولا الهندسة ، ولا الفلك ، فمن أين له أن كل مائة سنة شمسية تزيد ثلاث سنين قمرية ، وكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تزيد سنة قمرية ، وكل سنة شمسية تزيد نحو أحد عشر يوماً على السنة القمرية ؟

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ أى قل لهم يا محمد هذه هى المدة الحقيقية

يخبرك الله بها ، فهو العليم الخبير ، وفى هذا التحديد قطع لاختلافهم وتنازعهم .

﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى إن علم الله محيط بكل شئ

غاب أو حضر ، جل ودق أم كبر وعظم ، وهو اللطيف الخبير ، ومن باب هذا الغيب ما أخبرك به عن مدة نوم أصحاب الكهف .

﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ ﴾ أى ما أبصر الله بكل مبصور ... !! وما أسمع

بكل مسموع ... !! لا يغيب عن بصره وسمعه شئ ، يدرك الباطن والظاهر ولا تخفى عليه خافية .

﴿ مَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِّنْ وَلِيٍّ ﴾ أى ليس لأهل السماء والأرض ولى

غير الله تعالى ينصرهم ، ويعينهم ، ويتولى أمورهم .

﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ أى لا يشرك الله غيره فى علم

شئ ، ولا فى قضاء أمر ، وكان الله ولا يزال على كل شئ مقتدرا .

- ٣ -

تفصيلات المشهد السادس

من خلال معنى الآيات

تبين الآيات أن عدد أهل الكهف كانوا سبعة ، وأن الأقوال المغايرة لذلك

رجم بالغيب ، وصدق الله فيما أخبر به فهو العليم الخبير .

(٣١١)

وتبين الآيات ضرورة إسناد الفعل إلى مشيئة الله تعالى فمن نسى ذكر مشيئة الله فليذكرها حين يتذكرها ولو بعد مدة .

وتبين الآيات أن أصحاب الكهف مكثوا نائمين في كهفهم ثلاثمائة سنة بالحساب الشمسى ، وثلاثمائة وتسع سنين بالحساب القمري ، والله هو العليم الخبير . فما أعظم سمعه وبصره وعمله ، فهو الولي الذي لا يشرك غيره معه في صفة من صفاته سبحانه وتعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة من قصة أصحاب الكهف

تتضمن قصة أصحاب الكهف عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى بيان أن البعث حق

ينكر الكافرون البعث ، ويتصورون الموت هو النهاية للحياة كلها ، وزعموا أن الأجساد لا تعود بعد رمها وتفتتها ، وتصوروا فناء الروح وانتهاءها وعدم بعثها مرة أخرى ، وسبب هذا الإنكار هو كفرهم بالله تعالى .
فبين الله لهم أن البعث حق ، وأن قدرة الله شاملة ، وهو سبحانه الذي بدأ الخلق ، وهو سبحانه الذي سيعيده ، وهو الذي سيبعثه في الآخرة .
وعلم الناس بقصة "أصحاب الكهف" وشاهدوا كيف أنامهم الله تعالى أكثر من ثلاثمائة سنة ، وكيف أحياهم بعد ذلك ؟ ... ومن فعل ذلك قادر على البعث .

الركيزة الثانية

دور الشباب في الدعوة إلى الله تعالى

تشير الآيات إلى همة الشباب ، ودورهم في حماية الدعوة إلى الله تعالى لأن فتوتهم تساعدهم على الصبر ، والتحمل ... وإيمانهم يجعلهم يحيطونه بالقوة والصمود ، فلقد كان أصحاب الكهف فتيانا يملكون القوة ، والهمة ... فقد رزقهم الله إيمانا ، وهداية في مواجهة قوى الظلم والطاغوت ، وثبتهم أمام الظالمين ، فأعلنوا إيمانهم ... واجتهدوا لتأييده ، ونصرته ، فلقد اهتموا بما يلي:

أولا : إنهم أعلنوا إيمانهم بالله تعالى ، وتمسكهم المطلق بلوازم هذا الإيمان ، فقاموا بإبرازه ، ولم يحبسوا إيمانهم في صدورهم لأنهم يريدون دعوة الناس إلى الدخول في دين الله تعالى .

ثانيا : إنهم بينوا أدلة إيمانهم بالله لتبقى نبراسا للناس ، ونورا يهدي الآخرين ... فقد قالوا : الله الواحد الذي نعبد هو الذي ربانا وربى خلقه جميعا وهو خالق السموات والأرض ، وهو الواحد لا شريك له .

ثالثا : أنهم وضحو أن الشرك عمل باطل ، وأن قومهم أشركوا بالله ، واتخذوا أصناما من دونه بلا دليل ولا حجة ، وتصوروا العقيدة لهوا ولعبا ، فظلموا أنفسهم ، وكذبوا على ربهم كذبا شنيعا .

رابعا : إنهم أعلنوا انفصالهم التام عن الشرك والمشركين ، بعدما أعلنوا الحقيقة ودعوا إليها ، وبذلك بعدوا عن قومهم دينيا ، ومكانيا وعمليا .

إن عدد هؤلاء الشباب كان قليلا إلا أنهم توكلوا على الله تعالى ، واعتمدوا عليه وحده فهان أمامهم أعداء الله بعددهم وعتادهم ، ونصرهم الله وأحاطهم بخوارق العادات .

وهذا يحدد واجب الشباب مع دينهم ، ومسئوليتهم عن حمايته والدعوة إليه .

(٣١٣)

إن الشباب هم عنصر القوة في المجتمع ، وهم صورة المستقبل ، ونور الحياة ، فهم جند الجهاد ، وهم الحركة النابضة بين الناس .

الركيزة الثالثة

الله خير ناصر ومعين

يعيش البشر في دنياهم مختلفين ، ويحاول كل منهم أن ينتصر لما يرى والدعاة بين الناس ، يدعون لدين الله تعالى ، ويحتجون بالبراهين والآيات ، وعليهم أن يعتمدوا على الله ، ويستمدوا منه النصر والعون ... والله غالب على أمره .

ونجاح الدعوة أمر مقرر لأنه نجاح للصواب والخير ، وسينصر الله دينه ، ويوفق عبيده ، ويبد الله كل أمر .
لقد نصر الله أصحاب الكهف لصدقهم ، واخلاصهم ، وسينصر الصادقين في كل زمان ومكان .
لقد نصر الله رسله ، وثبت دينه ، وهزم الأحزاب وحده ... واعانته للحق ماض إلى يوم القيامة .

الركيزة الرابعة

الحراء لا يفيد

الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها ، ولذلك وجب البحث عنها ، والوقوف عند حدودها ...
هذا هو الواجب .
إلا أن فريقا من الناس يستهويهم الحديث ، ويهمهم طول الكلام مع أنهم لا يعلمون .

(٣١٤)

إن هذا الفريق يسعى إلى لغو الكلام ، ويمارى فيما لا يفيد ، فيأتى لأصحاب الكهف ، ويسأل عن عددهم ، وعن مكانهم ، وعن زمن ظهور قصتهم ، ويفترض أمورا ، ويتوقع أشياء لا فائدة منها .
إنه المرء الذى نهى الله عنه لأنه لا يفيد .

ضرورة التزام ما جاء الوحي به

يقول الله تعالى :

﴿ وَآتِلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قصة أصحاب الكهف ، ومن الغيب . جاءت هذه الآية لبيان ضرورة التزام ما جاء الوحي به فهو من عند علام الغيوب .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الله أنزل كتابه ، وحفظه ، وصانه من التغيير والتبديل ، وجعله الدستور الدائم للأمة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَآتِلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ أى اقرأ يا محمد ما أوحى الله إليك من قرآن ، والزم حدوده ، واعمل بما جاء فيه ، ليبقى مع المؤمنين كتابا يقرأ ومنهجاً يتبع .

(٣١٥)

﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى لا تغيير لشيء منه ، ولن يقدر مخلوق على تبديل كلمات القرآن الكريم .

﴿ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ أى ولن تجد غير القرآن الكريم ملجأ ينقذك من الضلال ، ويحميك من وساوس الشياطين .
إن الخير كله في العمل بما جاء في القرآن الكريم ، فهو الإسلام المدون المحفوظ ، المبين للهداية التامة ، والصراط المستقيم .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن القرآن الكريم أنزله الله وحيا على رسول الله ﷺ ليكون مع المسلمين يقرأونه ، ويحفظونه ، ويحافظون عليه ، ويعملون بما جاء فيه ، وقد قدر الله للقرآن الكريم أن يبقى كما نزل من عند الله تعالى بلا تبديل ولا تحريف ، فهو المنقذ ، والهادى إلى سواء السبيل .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

ثبوت القرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب الله تعالى أنزله الله على محمد ﷺ ليفصل للناس الدين ويبين الشريعة ، ويوضح مكارم الأخلاق ، وقد أمر الله رسوله بأن يقرأ القرآن الكريم ويتلوه عليهم كما سمعه من جبريل ﷺ ، ليبقى بين الناس بلفظه ومعناه ، وليصير منهج الفوز في الدنيا والآخرة .

الاهتمام بالمؤمنين عامة

يقول الله تعالى :

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ۚ ﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۚ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۚ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيتين

نزلت الآيات في عبيدة بن حصن الفزاري أتى النبي ﷺ قبل أن يسلم ، وعنده جماعة من الفقراء ، منهم سلمان الفارسي رضي الله عنه وعليه صوف قد عرق فيها وبيده خوص يشقه ، وينسجه .

فقال عبيدة للنبي ﷺ : أما يؤذيك ريح هؤلاء ، ونحن سادات مضر ، وأشرافها ، إن أسلمنا أسلم الناس ، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحهم حتى نتبعك ، أو اجعل لنا مجلسا ، فأنزل الله عز وجل الآية (١) .

- ٢ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآية السابقة ضرورة المحافظة على القرآن الكريم ، وضرورة اتباعه جاءت هاتان الآيتان لبيان ضرورة حسن المعاملة مع المؤمنين الصادقين

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٠٩ .

وان كانوا ضعفاء ، وتوضيح الحق لهم ، وتعريفهم أن الله سيجازي كل إنسان بما عمل ، ولذلك سيعاقب الظالمين بسوء المنقلب في الآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾

أي احبس نفسك ، وثبتها مع فقراء الصحابة فهم يسبحون الله ويحمدونه ، ويصلحون أقوالهم وأعمالهم ، ويتمسكون بالصراط المستقيم بالغداة والعشى ، طمعا في لقاء الله ، وحبا لعبوديته ، وزهدا في الدنيا .

﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

ونفسك ، وعنايتك عنهم إلى غيرهم من الأغنياء ، وأولى الأمر ، والذين يزينون المجالس ويمأئونها بالصخب والحديث ، فلا تغتر بهم ولا تسمع لطلبهم .

﴿ وَلَا تَطْعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ

فُرْطًا ﴾ أي ولا تطع هؤلاء المشركين في تحية الفقراء ، وابعادهم عنك كما طلبوا ، فهم غافلون عن ذكر الله تعالى ، منصرفون عن طاعته سبحانه وتعالى ، خاضعون لهوى نفوسهم ، وشهواتهم الضالة ، وقد صار أمرهم ضائعا لا قيمة له ، ولا خير فيه .

إن الباعث عند أغنياء مكة حين طلبوا من رسول الله طرد الفقراء عن مجلسه غفلة قلوبهم ، وتمكن الهوى من حياتهم ، واهتمامهم بالأمور المادية الزائلة ، ... لقد غابت عنهم قيم الفضيلة ، ودعائم الفلاح والفوز فطلبوا ما طلبوا ، وضلوا ضلالا بعيدا في ميزان الله تعالى .

إن هؤلاء الأغنياء ضلوا عن الحق ، ولو آمنوا حقاً لأحبوا إخوانهم ، وكانوا لهم عوناً وسنداً ، ولعاشوا سوياً في رحمة ، ومودة ، وتعاطف ، فالمسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، يؤثر أخاه على نفسه .

والآيات وهى تأمر الرسول بعدم طرد الفقراء من مجلسه تأمره بدعوة الجميع للحق ، وتعريف الأغنياء أنهم مسئولون أمام الله تعالى ، ولن يتحمل إنسان ما وزر غيره فقال تعالى :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۚ ﴾

أى قل يا محمد لهؤلاء الأغنياء : إنى أدعوكم وادعو غيركم إلى الحق الذى جاءنى من ربكم ، الذى يربىكم ، ويلى أموركم ، فهو ربى ورب العالمين ، وكل شئ بيده فاعملوا ما شئتم ، إن شئتم الإيمان فآمنوا ... وإن شئتم الكفر فاكفروا ، فمن آمن فله الجنة ، ومن كفر فعليه لعنة الله تعالى .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أى إنا قد أعدنا

لمن ظلم نفسه ، وأنف من قبول الحق ، ولم يؤمن بما جاء به الرسول ﷺ ... نارا يحيط بهم لهيبها المستعر من كل جانب ، كما يحيط السرادق بمن حل فيه فلا مخلص منه ، ولا ملجأ إلى غيره .

﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ أى وإن

يستغث هؤلاء الظالمون يوم القيامة وهم فى النار ، ويطلبوا الماء لشدة ما هم فيه من عطش يأت الله لهم بماء ، غليظ ، حار ، كدردئ الزيت ، إذا قربه من أفواههم للشرب سقطت جلود وجوههم ، ونضجت من شدة حره .

روى الترمذي بسنده عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : "المهل : كعكر الزيت ، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه"^(١) .

﴿ بئسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أي ما أقبح هذا الشراب ،

وما أشد حرارته ، فهو كالمهل لا يطفئ غلة ، ولا يسكن حرارة الفؤاد ، بل يزيد فيها الألم إلى أقصى غاياته ، فما أسوأ هذه النار ، وبأخيبه من رضى بها منزلا ومرتقا .

- ٤ -

معنى الآيات

تأمر الآيات رسول بأن يثبت نفسه ، ويستمر مقامه مع المؤمنين الصادقين الفقراء ، ولا يطيع الأغنياء في طلبهم عزل الفقراء ، لأن طلب الأغنياء استعلاء وكبر ، لا يرضاه الله تعالى ، فقد نسوا الله ، وغفلوا عن حقوقه ، وخضعوا لهواهم وشهواتهم ، فضيعوا أمرهم وشأنهم .

وقل يا محمد للناس ومعهم الأغنياء : إني جئتكم بالحق من ربكم الذي خلقكم وسواكم ، وسخر لكم ما به تعيشون ، وتسعدون ، وبعد ذلك تركتكم لمشيئتكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، والكل مسئول عن عمله ، ويوم القيامة آت لا ريب فيه . فمن آمن فله إيمانه ، ومن كفر فعليه كفره ، وقد أعد الله للظالمين نارا مستعرة تحيط بهم من كل جانب ، وان يستغيثوا من العطش يأتئهم الله بماء كالمهل يشوى الوجه ، فبئس شرابهم ، وبئس مقامهم .

(١) سنن الترمذي . كتاب صفة جهنم . باب في صفة شراب أهل النار ج ٤ ص ٧١٦ .

(٣٢٠)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ما على الرسول إلا البلاغ المبين

بعث الله رسوله ﷺ مبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه ، وسراجا منيرا وقد قابل رسول الله ﷺ أشتاتا عديدة من الناس ، وكان رسول الله ﷺ يألم كثيرا لانصراف الناس عن الحق . فعرفه الله تعالى أن مسئوليته هي تبليغ الدعوة ، أما إيمان المدعو فهو إلى الله يحاسبه ويجازيه . فوضح الله بذلك أمرا هاما في الدعوة ... وهو توضيح الحق ودعوة الناس إليه بالحسنى ... وهذا التوضيح يتم بتوصيل المعلومة إلى المستمع واضحة ، وعلى وجه يحرك العقل ، ويصل للوجدان ... وبذلك لا يعد الغموض بيانا ، ولا يعتبر نشر الأغاليط والأكاذيب قولاً للحق .

إن الحق يعنى مطابقة الواقع وإثباته بالدليل ، ونفى كافة الشبه والأكاذيب عنه .

إن مسئولية الدعاة تقف عند حد البيان . فمن شاء بعد ذلك فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

الركيزة الثانية

الناس أمام الدعوة سواء

المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، لأن القلب وعاء الأفكار ، ومصدر التوجيه ، واللسان أداة التواصل ، ووسيلة التقاهم مع الآخرين .

وقد اهتم الإسلام بطهارة القلب ، ونقاوته ، وملئه بالقيم النبيلة ، واقناعه بالعقيدة الصادقة ، وأخذه إلى الخير والحب والتعاون ... ومع اهتمام الإسلام

بالقلب كان اهتمامه باللسان فحثه على ملازمه الصدق ، والقول الحسن ، ونصح الآخرين ، ومناقشة أصحاب الرأي للوصول للصواب .

والدعاة إلى الله تعالى يعملون على صناعة الإنسان بمنهج الله تعالى وعليهم أن يتعاملوا مع جميع المدعويين باهتمام ، ويقدموا الإسلام للجميع بلا إهمال للبعض ، أو تفضيل لآخرين .

إن تساوى المدعويين في الدعوة أمر لابد منه لأن الداعي لا يدرى أى الناس أكثر استجابة ، وأسرع استقامة .

لقد رغب رسول الله ﷺ في دعوة صناديد قريش ، وقدمهم على مسلم سعى إليه ، أملا في إسلامهم ، وإسلام من وراءهم فقال الله له : ﴿ أَمَّا مَنْ أَسْتَعْنَى ﴿٨﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٩﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿١١﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿١٢﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٣﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١٤﴾ ۝ ﴿١﴾ .

وهناك فرق بين المساواة في التعامل ، والتغاير في المنهج والوسيلة لأن لكل إنسان وسيلة تناسبه ، ولذلك كانت حاجته لما يناسبه بلا تمييز ولا تفرقه .
لقد رغب كفار مكة في أن يكون لأغنيائهم لقاء خاص بهم فنهى الله رسوله أن يستجيب لهم ، لأن طلبهم تعنت ، وظلم للآخرين .
إن الناس متساوون أمام الدعوة ، فهم جميعا لآدم ، ولا سبيل لتمييز بعضهم على بعض .

الركيزة الثالثة

أسلوب الترهيب في الدعوة

يستعمل القرآن الكريم أسلوب الترهيب في الدعوة إلى الله تعالى ، وهو منهج مفيد في تبليغ الإسلام في إطار الحقائق الآتية :

(١) سورة عبس ، الآيات ١١ . ٥ .

أولاً : ضرورة بيان الحق بدليله مجردا من الترغيب والترهيب .

ثانياً : البدء بالترغيب قبل الترهيب لإيقاظ عوامل الخير قبل مواجهة عوامل السوء لأن ظهور عوامل الخير تزهق أراجيف الباطل ، وطلوع الشمس يقضى على الظلام .

ثالثاً : الاكتفاء بالترهيب المباشر في القضايا المتكررة ، وربط هذا الترهيب بسببه ليدرك الإنسان أسباب السوء الذى يقع فيه .

رابعاً : فتح طريق الأمل أمام الإنسان ليحاول الخروج من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

وعلى الدعاة أن يستفيدوا بهذا المنهج من خلال التهديد المباشر ، أو من خلال قصص السابقين ، أو من خلال صور وحالات يوم القيامة .

إن الله رحيم بعباده ، ولذلك عرفهم بنتائج الأعمال فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

جزاء المؤمنين في الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ أُولَٰئِكَ هُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ نِعَمَ الْثَوَابِ وَحَسَنَتِ مَرْتَفَعًا ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة عاقبة الظالمين في الآخرة جاءت هاتان الآيتان لبيان حسن ثواب المؤمنين في الآخرة أيضا .

(٣٢٣)

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الله أعد للمؤمنين جنات النعيم ، وأنه سبحانه وتعالى سينزلهم منزلاً كريماً ، ويحيطهم بالسعادة والكرم ، فنعم الثواب ، ونعم المصير .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ

أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ أى إن الذين أطاعوا الله ، واستقاموا على الطريق ، وملأوا قلوبهم بالإيمان والتقوى ، وعملوا بجوارحهم الأعمال الصالحة ، وحسنوا أخلاقهم لن يضيع عملهم هباء ، لأن الله لا يضيع أجر من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ، فأولئك يأخذون ثوابهم ، ويأتيهم أجرهم ، ولا يظلمون فتيلًا .

فعملهم الصالح وإيمانهم له أجر صالح ينميهِ الله لهم ، ويأتيهم به يوم القيامة ، وهو :

(١) ﴿ أُوتِيكَ هُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ الإشارة بـ

﴿ أُوتِيكَ ﴾ لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات لبيان علو مقامهم وشأنهم . فقد أعد الله لهم خاصة جنات عدن ، وهى أعلى منازل الجنة في الفردوس الأعلى ، حيث تجرى الأنهار تحت غرفهم ، فهى ليست مياهها ساكنة ، ولكنها تجرى منسابة بصوتها وخريرها ... فالمقام حسن جميل ، ملئ بالنعيم .

(٢) ﴿ مُكَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ أى إن هؤلاء المؤمنين يتخذون

الأساور حلية لهم من الذهب ، والفضة ، واللؤلؤ . وأنواع المعادن

(٣٢٤)

الأخرى ، فإذا رغبوا حلية أتت إليهم ، وإن استعانوا بشئ جاءهم ، ولهم فيها ما يشاءون .

(٣) ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ أى ويلبسهم الله

ثيابا من الحرير الرقيق المنسوج بخيوط الذهب في لون أخضر ، محبوب للنفس وهو السندس ، أو من الحرير الغليظ وهو الاستبراق .

(٤) ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ أى أنهم ينامون على أسرة مزدانة

بالستور ، ويجلسون على أرائك ممهدة ، مريحة .

هذا النعيم الذى يكون للمؤمنين الصالحين يتجدد في كل حال ، فلا يصيبهم ملل ، ولا يفتر فرحهم ، ولا يأتيهم مرض أو علة ، ولا يتحملون مسئولية ... قلوبهم مطمئنة ، وشخصهم متعاونة ، متحابية ، تدخل الملائكة عليهم من كل باب ، يحيونهم بالسلام ، ويباركون لهم مقامهم .

﴿ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أى نعم هذا الجزاء ، وحسن المقام

فيه .

إن سائر متع الحياة الدنيا لها نظائرها في الآخرة على صورة أبهى ، وأعظم ، وأفضل . ففي الجنة المقام الحسن والأسرة الناعمة ، والأرائك المنضودة ، وفيها التحلى باللالئ ، وفيها التجميل بأثواب السندس والاستبرق .

إن غرف الجنة مبنية من الذهب والفضة ، وحولها البساتين الخضراء ، وتحتها الأنهار الجارية .

وعلى من يرغب هذه الحياة الهنية أن يصلح عمله في الدنيا ، ويستقيم على منهج الله القويم .

إن الآخرة هى دار البقاء والخلود ، وفيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، واليه يسعى العقلاء ، ويسرع الصالحون .

(٣٢٥)

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات لا يضيع لهم عمل ، ويجزون في الآخرة جزاء وافيا في مقامهم الكريم . فقد أعد الله لهم جنات عالية تجري الأنهار تحتها ، يلبسون فيها الحرير المموه بالذهب ، ويحلون بأساور الذهب واللالئ الكثيرة ، وينامون على أسرة فاخرة ، ويجلسون على آرائك منضودة كل ذلك في الفردوس الأعلى ... ونعم هذا الثواب .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هي :

علو الجزاء الأخرى

الحياة الدنيا فرصة كبرى لمن يعقل ويفهم ... فأمامه فرصة أن يؤمن ويعمل الصالحات لينال الفوز الكبير في الآخرة .
إن المؤمن الذى يعمل صالحا في الدنيا ينال خيرا كبيرا في الآخرة فهو يسكن الجنة ، وقد بنيت غرفها عالية من ذهب وفضة ، ويلبس أثوابا من سندس واستبرق ، ويحلى باللالئ والزخارف ، ويتمتع بكل الخيرات .
فما أعظم نعم الله ... !! ... ويا سعد من آمن بها وعمل لها .

قصة أصحاب الجنتين

يقول الله تعالى :

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢٦﴾ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٢٧﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُخَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٢٨﴾ وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٢٩﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٣٠﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُخَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٣١﴾ لَّيْكَنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٣٢﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِنَّ تَرَنِّيًا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٣٣﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٣٣٤﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٣٣٥﴾ وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٣٦﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٣٣٧﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٣٣٨﴾ ۝

(٣٢٧)

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما آتت السورة بقصة أهل الكهف ، وبينت ما أعده الله للمؤمنين من نصر ورعاية وحفظ جاءت الآيات بقصة أصحاب الجنتين لبيان العقوبة الدنيوية التي ينزلها الله بالعصاة والظالمين .

- ٢ -

سبب نزول

قصة أصحاب الجنتين

تقدم الآيات قصة رجلين من بنى إسرائيل ، كانا أخوين ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار ، فاقتهما فاعتر أحدهما بماله ، وكفر بالله تعالى ، وعلم الآخر فضل الله عليه فاستمر مؤمنا ودار بينهما جدل عبر عن خصائص كل منهما ، وعاقبتهما في الدنيا والآخرة .
اشترى أحدهما أرضا بألف دينار .

فقال أخوه : اللهم إن فلانا قد اشترى أرضا بألف ، واني قد اشتريت منك أرضا في الجنة بألف دينار فتصدق بها .

ثم إن صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال : اللهم إن فلانا بنى دارا بألف دينار واني اشتريت منك دارا في الجنة بألف دينار فتصدق بها .

ثم تزوج صاحبه امرأة فأنفق عليها ألف دينار ، فقال هذا : اللهم إني أخطب إليك امرأة من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بها .

ثم اشترى خدما ومتاعا بألف دينار فقال هذا : اللهم إني أشتري منك خدما ومتاعا بألف دينار في الجنة فتصدق بها .

ثم أصابته حاجة شديدة فقال : لو أتيت صاحبي لعل أن ينالني منه معروف ، فجلس على طريقه حتى مر به في خدمه وحشمه ، فقام إليه ، فنظر إليه صاحبه ، فعرفه ، فقال له : فلان ؟!

قال : نعم .

قال : ما شأنك ؟

قال : أصابتنى حاجة بعدك فأتيتك لتعينني بخير .

قال : فما فعلت بمالك وقد قاسمتك مالا وأخذت شطره ، فقص عليه قصته فأخذ بيده ، وجعل يطوف به ، ويريه أمواله فنزل فيهما الآيات : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ ﴾^(١) .

- ٣ -

تفصيلا القصة من خلال دلالة الآيات

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ ﴾ أى اضرب يا محمد لأهل مكة فرادى ومجتمعين قصة هذين الرجلين اللذين جعلهما الله مثالا للكافر الظلم الجاحد ، وللمؤمن المستقيم .

﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا ﴾ أى جعلنا وأوجدنا لأحدهما وهو الكافر الظالم نعيما واسعا في الدنيا ، وهو عبارة عن :

﴿ جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْتُهُمَا بِخُلٍّ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿١١﴾
كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿١٢﴾
وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ أى قدرنا لهذا الظالم أن يكون له بستانان منسقان ، ومثمران في أحلى وأجمل ما يتمنى المالك في بستانه .

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ٢١٠ .

فهما جنتان مزروعتان بالأعنان ، يحيطهما سور من النخيل ، يدور بحافتهما ، وبين الجنتين زرع أخضر مثمر ، وبذلك لا يظهر طين ولا رمل ... فقد أثمرت الجنتان بصورة كاملة ، وملاً الزرع الأرض ، وجعل الله لهذا الرجل نهراً يجري وسط الجنتين لريهما ، وصنع الجمال معهما ، وكان له ثمر كثير يمدّه بفوائد جمة .

وهكذا ، رزق الله هذا الإنسان ، إلا أنه جحد كل ذلك ، واغتر به ، وتصوره باق معه لا يفنى ولا يبيد ، ووصل الغرور بهذا الرجل أن أخذ يتباهى بجناته ، وثمره وأمواله وأولاده .

﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ مُخَاورُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أى

قال الرجل الذى أعطاه الله الجنتين لصاحبه ، وهو يناقشه : إني أملك ما لا أكثر منك ، وأعز رهطاً ، وعشيرة ، وخداماً ، وحشماً .

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ

أَبَدًا ﴾ أى أخذ الظالم الجاحد صاحبه المؤمن ، وأخذ يتجول به في البساتين وسط الخير والثمر ، وقال له : لا أتصور أن تهلك هذه البساتين أبداً ، ووصل به حد الضلال والكفر أن أنكر البعث فقال :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أى ولا أتصور حدوث البعث ، ومجئ

القيامة ، وأتصور دوام ما أنا عليه من غنى .

﴿ وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ ولئن عدت

إلى الله ، وبعثنى الله سأجد جنة أحسن من جناتى في الدنيا ، فما أعطانى الله جنات الدنيا إلا ليعطينى جنات الآخرة ، ولأعيش في النعيم الذى استحقه .

(٣٣٠)

فإن قيل : الرجل ينكر الآخرة بقوله : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ فكيف

يقول : ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ ؟

أقول : إنه أراد مجازاة صاحبه ، وقال له : لئن رددت إلى ربي كما تدعى وترغم .

ذلك هو حديث الكافر الجاحد لنعم الله تعالى . فما هو حديث المؤمن ؟
لم يرتض المؤمن ما سمع من صاحبه ، فأخذ يدعو للحق ، ويعرفه الصواب ، ويحثه على الإيمان ، فهو صاحبة ، ورفيقة .

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ

ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴾ أى أخذ المؤمن في دعوة الكافر ، والعمل على هدايته واستقامته ، وسأله منكرا : أتكفر بالله الخالق لكل مخلوق ، المقدر لكل مقدور ... وذكره بنفسه فلقد كان عدما محضا ولم يكن شيئا مذكورا . فقدر الله إيجاده ، فأوجد أصله من تراب يوم تصوير آدم عليه السلام ... ثم طور الله عملية الخلق بعد خلق حواء فأوجد الناس من نطفة ، وبعد الولادة يكبر الإنسان شيئا فشيئا حتى يصير رجلا فتيا .

ذكر المؤمن ذلك للكافر ، وأنكر عليه كفره ، وسأله : أتكفر بمن خلقك وأوجدك ، ورباك ، واعتنى بك حتى صرت رجلا تتمتع بصورة جميلة ، وبحواس مدركة ، وبعقل يفهم ، وروح تتمتع وتتلذذ ، وقد أعطاك الله هذه البساتين والزروع والأنهار لتشكره عليها ، ولا تكفر بها ، وتطغى بسببها .

واستطرد المؤمن يقول : ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾

أى أنا على يقين أؤكد ، وهو أن الله هو الذى خلقنى ، وربانى ، وأحيانى ، وأمدنى بالنعم ، فأنا أعبد وحده ، واشكره ، وأحمده ، وأثنى عليه الخير كله وادعو دوام فضله وعطائه ، ولا أشرك بربى أحدا .

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

أى حثه على الإيمان ، والرجوع إلى الله تعالى ، وحضه أن يعلم أن الذى أعطاه هو الله ، ليقول عند دخول جنته ، ما شاء الله كان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ويسأله دوام النعمة ، وتمام الفضل .

وبين المؤمن لصاحبه أن الأمر بيد الله ، وأن دوام الحال من المحال وأن الدنيا متقلبة يصرفها الله كما يشاء ، قال له : ﴿ إِنْ تَرَنْ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا

وَوَلَدًا ۖ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۖ ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ

لَهُ طَلَبًا ۖ ۝ ﴾ أى أيها الرجل إنك إن ترانى أفقر منك فإنى أرجو الله أن يقلب الأمر بينى وبينك ، ويجعل ما بي بك ، ويرزقنى الغنى فى الدنيا ويعطينى جنة خيرا من جنتك ، ويسلبك بكفرك نعمته ، ويخرب جنتك ، بأن يرسل عليها مطرا من السماء ، يقلع زرعها وأشجارها ، أو يجعل ماءها يغور فى الأرض ، ولن تتمكن من إدراكه ، وطلبه ولن تطيق إدراكه ، وجلبه .

وخلاصة ذلك : إن المؤمن رجا هلاك جنة صاحبه الكافر إما بآفة سماوية أو بآفة أرضية ، وكلتاهاما يتلف الشجر والزرع والكرم لإظهار قدرة الله ، وبيان عقوبته للضالين .

لم يستمع الكافر لدعوة المؤمن ، ولم يلتفت إلى نصائحه ، واستمر على غروره ، وكفره فنزلت عليه لعنة الله ، وضاع منه كل ما كان معه .

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ أى أحاط العذاب بثمر جنته ، وذلك أن الله تعالى

أرسل عليها من السماء نارا أهلكتها ، وغار مأوها فى الأرض .

﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ أى صاحبها الكافر .

(٣٣٢)

﴿ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ أى يصفق بيديه ، ويقلب كفيه ظهرا لبطن تأسفا وتلهفا .

﴿ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ أى فأصبح يندم على ما أنفق في عمارتها .

﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ أى ساقطة سقوفها ، وقيل إن كرومها

المعرشة سقطت في الأرض .

﴿ وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ يعنى أنه تذكر موعظة أخيه

المؤمن فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركا .

﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى لم يجد معه جماعة

تنصره ، بعيدا عن الله ، أو تمنعه من عذاب الله .

﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ أى ولن يكون ممتنعا عن العذاب ، ولا يقدر على

الانتصار لنفسه لأن الأمر لله وحده .

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ الإشارة ليوم الحساب والجزاء لبيان أن

الولاية التامة لله الحق في الدنيا والآخرة ، فمن عبده تولاه ، ومن ضل عن سبيله أعماه وأخزاه .

﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى خير من يثيب

ويعطى ، وهو أقدر من يجازى ويحسن ، فتذكروا هذه الحقائق ، واتركوا الغرور

، وتذكروا الله ربكم ، واعبدوه وحده ، يهتئ لكم من أمركم رشدا .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات الحوار الذى دار بين المؤمن والكافر ، وما حدث لهما ليبقى

مثلا مضروبا لجميع خلق الله إلى يوم القيامة .

(٣٣٣)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

في قصة الرجلين ، وما حدث منهما ، ولهما ركائز هامة ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان خصائص المؤمنين الكافرين

يوضح الحوار الذى دار بين المؤمن والكافر خصائص كل منهما .

فقد ظهر المؤمن إنسانا هادئ الطبع ، دقيق الفكر ، يتأمل كون الله تعالى ، ويستفيد بآياته على فضل الله تعالى فيؤمن بربه ، ويستسلم له ، وينقاد لما يريد سبحانه وتعالى .

إن المؤمن يستدل بالعطاء على المعطى ، وينسب الموجود لموجده ويؤمن بالله الخالق المربى ، ويعبده وحده ، ويلتزم بما أوجبه عليه الإيمان بالله تعالى . يهتم المؤمن بغيره ، ويشغله دينه فيدعو إلى الله ، ويقدم الحجج وهو يدعو من خلال الواقع المشاهد .

يحث المؤمن غيره على الإيمان بالله تعالى عن طريق نعمه وفضله لأنها تمت بإرادة الله وقدرته ، وعبادة الله وشكره تدوم النعم .

يحث المؤمن غيره على التأمل والنظر ، وشكر النعم ، والخوف من زوالها قلله جنود السموات والأرض .

ودائما يبدو المؤمن عبدا لله تعالى .

أما الكافر فهو إنسان مغرور يتعالى على غيره ، ويحيط نفسه بهالة من الماديات الكاذبة ، وينكر ما يجب عليه لغيره ، ويدعى أن كل ما يحصل له من خير هو بذكائه ، وجهده .

(٣٣٤)

ينكر الكافر قدرة الله تعالى ، ولا يلتفت للآيات الداعية إلى الإيمان في نفسه ، وفي الكون من حوله .
إذا خوف الكافر لا يخاف ، وإذا ذكر لا يتذكر ، وإذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالإثم .

ومن هنا كان على الدعاة أن يختاروا الطريقة والأسلوب الذى يناسب المدعويين ... فإن كانوا مؤمنين يكفيهم التذكير الموجز : ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) ... وان كان جاحدين فإنهم يحتاجون إلى بيان الآيات واطهار فضل الله ، ورد ما يروونه من شبه ، وتهديد بزوال النعم ، وحلول نقمة الله عليهم ... وبذلك تتجج الدعوة وتستقيم .

الركيزة الثانية

ضرب الأمثال فى الدعوة إلى الله تعالى

يعد المثل أحد الأساليب فى منهج الدعوة إلى الله تعالى ، وهو أسلوب يقرب البعيد ، ويبسر الصعب .
إن المثل يلجأ إلى الواقع المعروف ، ويبرز عناصره ، ويسوقها معبرة عما يريد من المثل ... ويستمر عرض المثل حتى نهايته ليشهد على ما يريده الله من المثل المضروب .
إن المثل يعد قصة تمثيلية فهو يؤثر بعناصره ، وبمضمونه ، وبدلالته ، ويربطه بالواقع الظاهر .

(١) سورة الذاريات ، الآية ٥٥ .

(٣٣٥)

مثل الحياة الدنيا

يقول الله تعالى :

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ۝ أَلَمْ آتِ الْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما ضربت الآيات السابقة مثل أصحاب الجنتين جاءت هاتان الآيتان لضرب مثل للحياة الدنيا ، وقيمتها بالنسبة للآخرة .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الدنيا إلى زوال ، وكل ما فيها ، يزهر وينطفئ ، ويعلو ويسقط ، وعلى الإنسان أن يهتم بالباقيات الصالحات .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ ﴾ أى واضرب يا محمد لقومك مثلاً تعرفهم به قيمة الحياة الدنيا التى يعيشونها لينتفعوا فيها لدنياهم وأخراهم .
﴿ كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ ﴾ أى أن الحياة الدنيا تشبه مطرا نزل من جهة السماء

(٣٣٦)

إلى الأرض فنبت بسببه زرع وزهر ، لا يدوم طويلا حتى يزيل ويجف ، ويتحول إلى رماد تفرقه وتنسفه الرياح ، ولا يبقى منه شئ .
إن الدنيا تبدأ سهلة بسيطة ، وتكبر شيئا فشيئا في وقت قصير كأنه صبح واحد ، وتنتهى إلى لا شئ ، ولا يبقى للإنسان منها إلا عمله فيها .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شئ ، وهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شئ عليم .
يعيش الإنسان في هذه الحياة الدنيا مكلفا بدين الله تعالى يعمل ما يشاء فيها إلى أن ينتهى منها ، وحينئذ يزول زخرفها ، ويضيع بهاؤها ويسقط حسننها ، ولا يبقى مع الإنسان إلا عمله الذى أداه في حياته ...

﴿ أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى إن الإنسان يتمتع في هذه الحياة الدنيا بزینتها التى قدرها الله له ، فيسعد بالمال ، ويفرح بالأولاد ، ويرضى بالسلطان ، والجاه ... وغير ذلك ... وكله ينتهى بزواله في حياة صاحبه ، أو بموت صاحبه وتركه لغيره .

﴿ وَالْبَقِيَّتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ أى تنتهى الدنيا بزینتها ولا يبقى مع الإنسان إلا عمله ليحاسب عليه ، ويجزى به في الآخرة وأثر الاستقامة ، وطاعة الله تعالى عظيم ، فهى الثواب الجزيل ، وهى الأمل الكبير الذى يراه المؤمن عند ربه في الآخرة .

﴿ وَالْبَقِيَّتُ الصَّالِحَتُ ﴾ هى الأعمال الصالحة من قلبية ، وقولية وعملية ، فهى الباقية مع الصالحين ، ينالون ثوابها ، ويجزون بها جنة ونعيما ... فهى عند الله ثواب حسن ، وأمل مرتجى .

(٣٣٧)

- قال ابن عباس : هي قول الإنسان سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر^(١) .
- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "لأن أقول سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس"^(٢) .
- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : "استكثروا من قول الباقيات الصالحات .
قيل : وما هن يا رسول الله ؟
قال : التكبير ، والتهليل ، والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله"^(٣) .
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "إذا مررتم برياض الجنة فارتفعوا .
قلت : يا رسول الله وما رياض الجنة ؟
قال : المساجد .
قلت : وما الرتع ؟
قال رسول الله ﷺ : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر"^(٤) .

ومن هنا ...

ندرك أن الأعمال الصالحة الباقية تشمل الإسلام كله عقيدة وشريعة وخلقا ، وعليها يكون الحساب ، ويقع الجزاء .

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ٤١٢ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب العلم . باب فضل التهليل والتسبيح والتحميد ج ١٣ ص ٢٠٥ .

(٣) شرح السنة . كتاب الجمعة . باب الاستغفار ج ١ ص ٣١٦ .

(٤) سنن الترمذی ج ٥ ص ٥٣٢ .

(٣٣٨)

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الحياة الدنيا تشبه المطر ينزل على الأرض فتزدهى زروعها وينضج ثمرها ، ثم تنتهى إلى رماد يطير في الهواء ، ولا يبقى للإنسان منها إلا عمله الصالح الذى قام به في الحياة الدنيا .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

عدم الاغترار بالدنيا

يعيش الإنسان في الدنيا ، تتناوشه شهواته ، وغرائزه ، ويعيش معه في خلجاته ، وفى مجربات دمه الشيطان الذى يوسوس له ، ويغريه ، ويعمل على إبعاده عن دين الله .

مع هذه الغوايات الكثيرة التى تحيط بالإنسان توجد الدعوة الدينية تتادى بعبادة الله وحده ، ومداومة العمل الصالح ، والتمسك بتعاليم الإسلام كلها .
إن الإنسان يعيش الحياة الدنيا بين هاذين التوجهين ، وعليه أن يختار لنفسه .
على العاقل أن لا يغتر بالدنيا فمتاعها قليل ، وزهوها كدر ، وعمرها قصير ، وخير للإنسان أن يجعلها طريقا للآخرة ، ويتخذها وسيلة لإرضاء الله والآخرة خير وأبقى .

(٣٣٩)

الركيزة الثانية **نعمة المال والولد** **بين طاعة الله ، وإغواء الشيطان**

خلق الله الإنسان مفطورا على حب المال والولد ، وجعل هذه الغريزة محل الاختيار والابتلاء .

وقد أحاط الله هذه النعم بشرعه الذى يضعها في موضعها ، ويفيد صاحبها بها .

لأن من الممكن أن يجعلها المسلم سببا لإيمانه ، وطريقه للعمل الصالح ، فالولد الصالح يفيد أبويه ببره ، وبالعمل المستقيم الذى تعلمه منهما ، وبكونه جزءا من المجتمع الصالح الذى يعلى شعائر الإسلام ومشاعره ...

والمال الصالح يفيد صاحبه بإنفاقه في سبيل الله ، وبوضعه حيث يأمر الله تعالى وإنفاقه في رفع الدين بالجهاد به ، والمساهمة في نشر الدعوة إلى الله تعالى .

والإنسان العاقل عليه أن يقر بأن المال مال الله ، والولد هبة الله ، ويتعامل معهما بما أمر الله به ليستفيد بخيرهما ، ويتجنب ضرهما .

ولا يصح لمسلم أن يغتر بماله ، وولده ، وزخرف الحياة الدنيا ، لأن ذلك يضره في الدنيا وفى الآخرة .

(٣٤٠)

من مشاهد القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ ﴾ وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ۖ ﴿١٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۖ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۚ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الباقيات الصالحات هي الباقية في الحياة الآخرة جاءت هذه الآيات لبيان بعض مشاهد يوم القيامة حيث الحساب والجزاء .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات بعض مشاهد القيامة ، وتحلل بعض هذه المواقف وأسبابها ونتائجها .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تعرض الآيات عددا من مشاهد يوم القيامة التي يعيشها البشر في هذا اليوم ... وهذه المشاهد هي :

(٣٤١)

المشهد الأول التغيير الكونى

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ

مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أى اذكر يا محمد لأمتك الصورة العامة التى تبدأ بها الحياة

الآخرة ، حيث تتحول الجبال إلى هباء تسير به الريح وينتهى ، كما يسير السحاب ويختفى ، وتبرز الأرض ويعلو باطنها وليس عليها شجر ، ولا جبل ولا بناء ، ولا بحر ، ولا نهر ... وترى أنها أخرجت من بطنها سائر الخلق الذين دفنوا في بطنها . فقد أحياهم الله ، وأقامهم من قبورهم ، وحشرهم جميعا في موقف الحساب ، ولم يترك منهم أحدا من البشر الذين دفنوا منها . وهذا المشهد الأول يشمل البعث ، والنشر ، والحشر .

المشهد الثانى العرض والحساب

بعد الحشر يكون الحساب والجزاء . يقول الله تعالى :

﴿ وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ أى أن الله يأمر الناس جميعا بعد

حشرهم أن يعرضوا عليه صفا وراء صف ، وفوجا بعد فوج كأنهم صف واحد ويقول لهم : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى يجئ الخلق إلى أرض المحشر جميعا حفاة عراة كما ولدتهم أمهاتهم ، لأن كلا منهم مهتم بنفسه .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة

فقال : أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا ، كما بدأنا أول خلق

$$(3\ 4\ 2)$$

نعيده ، وعدا علينا ، إنا كنا فاعلين ، ألا إن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ألا وانه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال .

فأقول : يارب أصحابي .

فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك .

فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) إِنَّ تَعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) .

فيقال لي : إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم^(٢) .

وعن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "يحشر الناس حفاة عراة

غزلا .

فقلت : يا رسول الله الرجال والنساء جميعا ، ينظر بعضهم إلى بعض .

قال ﷺ : الأمر أشد من أن يهتمم ذلك لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه^(٣) .

وَيَبْكُ اللَّهُ مِنْكَرِي الْبَعثِ ، وَيَقُولُ اللَّهُ لَهُمْ : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ

لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿١٠﴾ أَيُّ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمَشْرُكُونَ جِئْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْمَحْشَرِ بَعْدَ أَنْ بَعَثَكُمْ

الله فعلتم خطاكم في إنكار البعث والحشر ، والواقع خير برهان على كذب ما

زعمتم .

(١) سورة المائدة ، الآية ١١٧ ، ١١٨ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الجنة وصفة نعيمها . باب بيان الحشر ج ١٤ ص ١٧ .

(٣) سنن النسائي ج ٤ ص ٤٢١ .

(٣٤٣)

المشهد الثالث

استلام الصحف

بعد الحشر يأخذ كل إنسان كتابه ، ويرى عمله ومصيره ، وما يستحق من جزاء . يقول الله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ أى توضع صحائف الكتاب في أيماهم وشمائلهم .

﴿ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ أى تجد المشركين والعصاة الذين عملوا شيئا في الدنيا ، بعدما رأوه في كتبهم خائفين من أعمالهم السيئة المدونة فيه .

﴿ وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّاتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ أى يقولون بعدما رأوا أعمالهم مصورة ومكتوبة ، يا حسرتنا من جرائمنا فهي موجودة في هذا الكتاب الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة من ذنوبنا إلا أحصاها ، وعدّها ، وحفظها .

﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ أى ووجدوا كل ما عملوه مكتوبا مسجلا وهم يرونه ، ويقرأونه كما حدث .

﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أى لا يظلم الله أحدا من الناس ولا يضيع أجر عامل ، ولا يعاقب بغير ذنب .

إن صحائف الأعمال تحتوى على كل أعمال الإنسان خيرها وشرها ، صغيرها وكبيرها ، وهذا شأن يخص الإنسان على فعل الخير ، وترك السوء .

يقول النبي ﷺ : "إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا في بطن واد ، فجاء هذا بعود ، وجاء هذا بعود ، وجاء هذا بعود

(٣٤٤)

فانضجوا خبزهم ، وان محقرات الذنوب لموبقات^(١) ... وهذا الحديث تصوير
لدور الصغائر في الآثام ويشير إلى دورها كذلك في الخيرات .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات بعض مشاهد يوم القيامة فتبدأ بالبعث ، حيث تتحول الجبال
إلى عهن منقوش ، وتخرج الأرض أحشائها ، وتوضح حشر الناس في مكان
واحد كما ولدتهم أمهاتهم ، وتبين الحساب ، وتناول الكتب ، وحسرة المنافقين
على ما فاتهم من خير .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

شدة الموقف يوم البعث

تشير الآيات إلى شدة الموقف يوم الحشر حيث تنتهي الدنيا بما فيها ،
وتتبدل الأرض غير الأرض والسموات وتصير السموات فراشا متناثرا تحركها
الرياح ، وتنقلب الأرض وتخرج ما في بطنها من أجساد وأسرار .
في يوم القيامة يحشر الله الناس جميعا للحساب ، ويصقهم صفا واحدا
حفاة عراة غرلا كما ولدتهم أمهاتهم ، وتدنو الشمس على الرعوس ، وتمتلئ
أرض المحشر من عرقهم ، ويصيب العرق كل واحد بقدر ما قدمت يداه في
الدنيا ، فمن الناس من يصل العرق إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق
إلجاما ... ويتمنى الجميع أن ينتهي الموقف ولو إلى النار .

(١) شرح السنة . كتاب الرقاق . باب فتنة الشيطان ج ١ ص ١٠٠٤ .

(٣٤٥)

ولا ينجو من شد المحشر إلا من عمل صالحا في الدنيا ، وأظله الله بظل عرشه ، يقيم الله الحجة على أهل المحشر ، وتتجلى دلائل ما عملوا في الدنيا بصورة عديدة ، ومنها الكتاب الذى يتضمن كل عمله حسنا أو سوءا لينال كل جزاء ما قدمت يده ، ولا يظلم ربك أحدا .

باب ضلال الكفار في الدنيا واستحقاقهم ما أعد الله لهم من عذاب

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

بعد أن أوردت الآيات السابقة موقف المجرمين في الآخرة جاءت هذه الآيات لبيان سبب استحقاق المجرمين العذاب ، وهو اتخاذهم الشيطان وليا من دون الله .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيات سبب ضياع الكافرين في الآخرة فقد أتبعوا الشيطان وذريته واتخذوهم أولياء من دون الله تعالى مع أنهم لا يملكون شيئا ، ولم يخلقوا شيئا وتبين الآيات تبرؤ المشركين من شركائهم حين يرون العذاب الذى يستحقونه .

(٣٤٦)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ أى اذكر يا محمد لأمتك

مقالة الله للملائكة ، وأمرهم أن يسجدوا لآدم سجود احترام وتكريم ، اعترافا بفضله ، وتقديرا لمقامه في المخلوقات . فقد بادروا إلى الطاعة وسجدوا .

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أى سجدوا جميعا

إلا إبليس فقد أبى واستكبر وعصى الله ، وفسق وكفر .

وقد اختلف العلماء في شأن إبليس من ناحية كونه من جنس الملائكة أو هو من جنس آخر غير جنس الملائكة .

فمن قال إن إبليس واحد من الملائكة استدل بأن الأمر للملائكة شمله

لأنه واحد منهم ، وكان مستترا معهم ، ولو لم يكن واحدا منهم ما شمله الأمر .

وأیضا فإن الآية تبين أن إبليس لما فسق وعصى أخرجه الله من الملائكة وجعله مع جنس آخر ، يشترك مع جنس الملائكة في الاستتار والتخفى هو جنس الجن بما له من أعمال وخصائص ... وعلى هذا فالاستثناء متصل .

ومن قال : إن إبليس لم يكن من الملائكة أصلا استدل بأنه ﴿كَانَ مِنَ

الْجِنِّ﴾ والجن مخالف للملائكة ، ويقول تعالى : ﴿أَفْتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ

أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ فأثبتت الآية له ذرية ، والملائكة لا ذرية لهم .

روى مجاهد عن الشعبي قال: إني لقاعد يوما إذ أقبل رجل فقال : أخبرني

هل لإبليس زوجة .

قلت : إن ذلك العرس ما شهدته ، ثم ذكرت قول الله عز وجل :

﴿أَفْتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من

زوجة ... فقلت : نعم .

(٣٤٧)

ومن ذرية إبليس "زئنبور" وهو صاحب الأسواق يزين اللغو ، والحلف الكاذب ، ومدح السلع .
وبتر وهو صاحب المصائب يزين خمش الوجوه ، ولطم الخدود وشق الجيوب .

والأعور وهو صاحب الزنا ينفخ في إحليل الرجل وعجيزة المرأة .
ومظموس وهو صاحب الأخبار الكاذبة يلقيها في أفواه الناس ، ولا يجدون لها أصلا .

وداسم وهو الذي إذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله بصره من المتاع ما لم يرفع أو يحسن موضعه ، وإذا أكل ولم يسم أكل معه .
قال الأعمش : ربما دخلت البيت ولم أذكر اسم الله ، ولم أسلم فرأيت مظهره فقلت : ارفعوا هذه ، وخاصمتهم ثم أذكر فأقول داسم داسم أعوذ بالله منه .

روى أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال : "إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء" (١) .

عن عثمان بن أبي العاص قال : قلت يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وبين قراءتي يلبسها علي .

فقال رسول الله ﷺ : ذاك شيطان يقال له خنزب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه ، واتقل على يسارك ثلاثا ... قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عني (٢) .

عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : "إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ، يجيء أحدهم فيقول : فعلت

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب الطهارة . باب كراهية الإسراف في الماء ج ١ ص ٨٤ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الآداب . باب التعوذ من شيطان الوسوسة ج ٤ ص ١٧٢٨ .

كذا وكذا فيقول : ما صنعت شيئا ، ثم يجئ أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته فيدنيه منه ، ويقول : نعم أنت" (١) .

والأمر في شأن إبليس لله فهو العليم به ، وبسائر الخلق ، وجميع المدارك العقلية تعجز عن الوصول إلى الحقيقة ... ويكفى العاقل أن يؤمن بأن الملائكة والشياطين أرواح لها اتصال بأرواح الناس على وجه لا نعرف حقيقته ، بل نؤمن به كما ورد ، ولا نزيد عليه شيئا . وكلنا نشعر بأننا إذا هممنا بأمر فيه وجه للحق أو الخير ، ووجه للباطل أو الشر بان في نفوسنا تنازعا ، وكأن هاجسا يقول : افعل ، وآخر يقول : لا تفعل ، حتى ينتصر أحد الطرفين على الآخر ، فهذا الذي أودع في النفوس ، ونسميه قوة وفكرا لا يبعد أن نسميه ملكا إن كان يميل إلى الخير ، وشيطانا إن كان يميل إلى الشر .

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ،

والفاء تعطف ما بعدها على محذوف قبلها تقديره أجهلتم عداوة الشيطان فتتخذونه وليا يتولى أمركم ، وتستنصرون به من دون الله تعالى ، وهذا أمر منكر ، لأن الله عرفكم بالشيطان ، وعرفكم عداوته الشديدة . فكيف تجعلونه وليا ؟! ومن المعلوم إن ما خبث لا يخرج إلا خبثا .

﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ أى أن الشيطان وذريته أعداء لكم أيها الناس فلا

تتخذوهم أولياء لكم .

﴿ بئسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ أى بئس هذا البديل الذى اتخذه الظالمون

لأنفسهم . فقد كفروا بالله تعالى ، وعصوه ، وأطاعوا الشيطان وذريته فأضلهم ، وأعمى أبصارهم .

(١) صحيح مسلم . كتاب صفة القيامة . باب تحريش الشيطان ج ٤ ص ٢١٦٧ .

(٣٤٩)

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى

ما جعلت إبليس وذريته معى في خلق السموات والأرض ، ولا حين خلق أنفسهم ، ولم استعن بهم في شئ حتى تتخذوهم أولياء ، وتتقربوا إليهم ، وحتى لا يدعى أحد أن لهم فضلا وقدرًا .

﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ أى ولم اتخذ سندًا ونصيرًا من

الشياطين . فقد أضلوا عبادى ، وأبعدوهم عن طاعتي .

إن الله إله واحد ، خالق الخلق ، ومالك الملك ، ليس له شريك ، ولا شبيهه ، ولا مثيل .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أمر الملائكة بأن تسجد لآدم عليه السلام فسجدوا إلا إبليس فقد استكبر ، وعصى ، وفسق ، وكفر ، وانظره الله إلى يوم القيامة ليعيش عدوا للإنسان ، ولا يصح أن يتخذه المؤمنون وليا لهم فهو عدوهم ، ولم يفضلته الله بشئ ، ولم يستعن به في شئ ، فالله غنى عن خلقه ، ولم يتخذ الشيطان وذريته أولياء ، ولم يشركهم معه في الخلق فهم ضالون عن الحق ، مضلون لعباد الله تعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

العصيان طريق الكفر

الكفر أعلى مراتب العصيان، والشيطان يعمل ليصل الإنسان إلى هذه المرتبة.

(٣٥٠)

إن الشيطان بدأ بالكفر فعصى الله تعالى ، واستكبر على أمره ، وأخذ على عاتقه إضلال الناس ما استطاع إلى ذلك كثيرا .
ولقد أنظر الله إبليس إلى يوم القيامة ، وتركه يعمل لإضلال من يطيعه واطهار نيات وميول أتباعه ، وأذنا به .

أخذ الشيطان في وسوسته ، وأخذ يحرض على ارتكاب الصغائر وتيسير فعلها مبشرا بعفو الله ، ومؤملا في التوبة إلا أنه يستمر في دفع من يطيعه إلى المعاصي ، ولو تمكن من إغراقه في الكفر لفعل .
وعلى المؤمن أن يستعيز بالله من الشيطان ، ووساوسه ، وينأى بنفسه على الظلم والغفلة ، ومسئولية الدعاة كبيرة ، وتبليغ المدعوين ضرورة واجبة ليهجروا المعاصي ، ووسائل الشيطان .

الركيزة الثانية

ثقة الإنسان في عدوه خطأ فادح

الشيطان عدو للإنسان منذ أن خلق الله آدم ، وهى عداوة معلنة وظاهرة ، وشواهد الواقع تثبت هذه الحقيقة ، وقد أكد الله تعالى على هذه العداوة فقال تعالى :

- ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَّ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾^(١) .

- ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾^(٢) .

وقد أنظره الله ليبقى بين الناس ، ويظهر اتباعه وأنصاره ، وقال الله تعالى له : ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً

(٢) سورة يوسف ، الآية ٥ .

(١) سورة فاطر ، الآية ٦ .

مَوْفُورًا ﴿٣٢﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ
وَرَجْلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٣٣﴾ (١).

ويجهل الإنسان ، ويظلم نفسه ، ويتخذ أعدى الأعداء وليا له . فهذا جهل
بالمصلحة ، واضطراب في السلوك .
إن العدو يخفى عداوته ، ويظهر مودته ، ويضع السم في العسل ،
ويعمل على إضرار عدوه من حيث لا يدرى ، وكان على الإنسان أن لا يتخذ
العدو صديقا ، ومحبا .
إن دين الله بين ، وطاعة الله واجبة ... والشيطان في وساوسه يدعو إلى
المعصية ، ومخالفة أمر الله تعالى .
ولذلك نحذر كل مسلم وعاقل من طاعة الشياطين ومخالفة دين الله تعالى .

الركيزة الثالثة

ليس للشيطان قدر في ميزان الله

الشيطان مخلوق كافر بربه ، وليس له عند الله قدر وقيمة فهو مخلوق
عاجز لم ير الخلق الأول ، ولم يخلق نفسه ، ولم يستعن الله به في شئ ... وقد
خلقه الله وهو لا يدرى من أمر نفسه شيئا . فكيف يطيعه إنسان مع أنه عاجز
في ذاته ، لا يستحق أن يطاع ويعبد .
والعاقل هو الذى يفكر في كل ما يجده في نفسه وحياته ويختار لنفسه .
ففى طاعة الله سعادة الدنيا ، وسعادة الآخرة .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٦٣ ، ٦٤ .

خرى الكافرين في الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٢١﴾ وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٢٢﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيتان السابقتان ضلال من يتخذ الشيطان وليا جاءت هاتان الآيتان لبيان أن الله يستهزئ بمن أطاع الشيطان يوم القيامة على رؤوس الأشهاد.

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان توبيخ الله للمشركين يوم القيامة حين يدعون شركاءهم في الآخرة ، ولا يستجيبون لهم ، وحين رؤيتهم للنار التي سيئول إليها أمرهم في الآخرة بلا فكاك منها .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أى اذكر يا محمد حالة المشركين يوم القيامة حين يأمرهم الله بأن يدعوا الشركاء الذين اتخذوهم آلهة ، وزعموا لها قدرة ، ونصرا ، وولاية .

(٣٥٣)

﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ أى أن المشركين يدعون آلهتهم المزعومة يوم القيامة فلا تستجيب لهم ، لأنها لا تسمع ، ولا تعقل ، وليس لها قدرة تتفع بها ، أو تدفع الضر عنها أو عن غيرها .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ أى جعلنا بين المشركين وبين آلهتهم حاجزا من واد يشتعل نارا يهلكهم ، ويقضى عليهم .

﴿ وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ أى لما رأى المشركون النار أيقنوا أنهم داخلوها ، وواقعون فيها .

﴿ وَلَمْ يَحْجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أى ولم يجدوا شيئا ينقذهم منها وبصرفها عنهم ، لأنها أحاطت بهم من كل جانب .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله مخزى المشركين وتوضح مشهدا من مشاهد يوم القيامة ، حيث يأمرهم الله أن يستعينوا بالآلهة المزعومة التى اتخذوها آلهة مع الله ، وعبدوها ، فينادوها بلا مجيب ، ولا يجدون إلا النار تحرقهم وتمنعهم من الوصول إليهم .

وحين يرى المشركون النار يتيقنون أنهم واقعون فيها حيث لا يوجد شئ يمنعهم من هذا العذاب .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هى :

إقامة الحجة على الضالين

في يوم القيامة تظهر الحقائق ، ويتيقن الكفار من فساد معتقداتهم وما كانوا عليه في الدنيا ، ويخزيهم الله تعالى بأن يقول لهم استعينوا بالأصنام التى

(٣٥٤)

عبدتموها لتعينكم ، وتدفع عنكم شيئاً من العذاب فينادونهم ، ولن يستجيبوا لهم
حيث لا قدرة لهم ولا حيلة .

إن الله يدخل الكافرين جهنم جزاء كفرهم ومعاصيهم ، ولن يجدوا فيها
نصيراً ، ولا معيناً .

وهذا استهزاء من الله بالمشركين لأنه يقيم الحجة عليهم ويدفعهم إلى
الإقرار بأنهم كانوا على الباطل .

إن المشركين يحاولون الاستعانة بالآلهة التي عبدوها في الدنيا إلا أنهم
يصلون إلى واقع يرون فيه حاجزاً من النار يفصلهم عن الآلهة التي عبدوها في
الدنيا .

في يوم القيامة يرى المجرمون النار ، ويعلمون أنها مأواهم ، وأنه لا
سبيل لهم إلى الخلاص منها .

وعلى الدعاة أن يتقنوا دعوتهم ، ويختاروا حججهم ، ويبرهنوا على ما
يطلبونه بالواقع المشاهد .

عوامل الكفر والضلال في الإنسان

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۚ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَهُمْ يُسْتَعْفِفُونَ رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۚ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَتُجَدِّلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۚ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۚ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا أَيْدِيًا ۚ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ۚ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۚ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة خزي المشركين في الآخرة ، وتيقنهم من عذاب جهنم جاءت هذه الآيات تبين أهم العوامل التي يضل بسببها الإنسان . فهو مجادل بالباطل ، تسيطر عليه شهوته ، ويلعب به الشيطان الرجيم .

(٣٥٦)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أهم العوامل التي تجعل الإنسان لا يستفيد من بيان القرآن الكريم ، أو من دعوة الرسل عليهم السلام .

- ٣ -

أسباب الضلال من خلال دلالة الآيات

تبين الآيات عددا من الأسباب التي تضل الإنسان ، وتبعده عن الصراط المستقيم ... وهي ظاهرة من خلال دلالة الآيات :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى بينا

في القرآن الكريم الحق ، وأنزلنا الآيات شاهدة وداعية إلى الله تعالى .

﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ أى وكان طبع الإنسان أن

يخاصم كثيرا ويحاور في كل شئ فلم يستفد ببيان القرآن الكريم .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ﴾ أى لا يمنع

الناس عن الإيمان ، ولا يصرفهم عن الهدى الذى جاءهم من الله تعالى حيث نزل لهم القرآن الكريم بينا ، وبعث لهم محمد ﷺ داعيا ، ومرشدا ، وعرفهم بأحكام الإسلام محكمة ومفصلة إلا عدم تيقنهم من نزول العذاب بهم كما في قوله تعالى .

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ

قُبْلًا ﴾ أى ولا يمنهم من الإيمان ، والاستغفار ، والتوبة إلا أن ينزل عذاب

الاستئصال بهم كما نزل بالأمم السابقة ، أو أن ينزل عليهم عذاب الله يأتيهم بصورة مفاجئة .

وبيان ذلك أن هؤلاء المشركين لما دعاهم رسول الله إلى الإيمان بالله ، والدخول في الإسلام أبوا طاعته ، وطلبوا نزول العذاب بهم ، وقالوا لرسول الله ﷺ : ﴿ أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾^(١) فعرفهم رسول الله ﷺ أن الأمر بيد الله وحده ، وحكى لهم قوله تعالى .

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أى يرسل الله رسله للناس دعاة لدينه مبشرين من أطاعهم بالجنة ، ومنذرين من عصاهم بالعذاب الأليم .

وجاءت الآية بصيغة الحصر لبيان واجب الرسل عليهم السلام فهم مبشرون ومنذرون ، والهداية بأمر الله وحده .

﴿ وَتُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ أى ويجادل المشركون رسول الله في أمور لا قيمة لها تعنتا منهم ليبطلوا الحق ويزيلوه .

﴿ وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾ أى استهزؤوا برسول الله ، واتخذوا من آيات القرآن الكريم مادة استهزائهم ، وسخريتهم .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أى أشد الناس ظلما لنفسه من جاءته آيات الله واضحة بيينة ، ومعها الهداية والحجة ، ولم يلتفت إليها ، وأعرض عن رؤيتها وسماعها ، فلم يصل بها إلى غايتها ، ولم يأخذ منها العمل الطيب والكلمة الصالحة .

(١) سورة العنكبوت الآية ٢٩ .

﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أى أنه ترك التأمل في آيات الله ، ونسى ما

عمل من الآثام والمعاصى لما لهذا النسيان من استغراق في المعاصى .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أى

جعل الله لهؤلاء الغافلين مغاليق تغطى قلوبهم ، وتسد آذانهم فلا يسمعون ، ولا يعقلون بسبب هذه الموانع التى وضعها الله على قلوبهم وآذانهم .

﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ أى ومهما كررت يا

محمد الدعوة لتحقيق نجاتهم ، وهدايتهم فلن يرجعوا للحق ، ولن يتوبوا فقد كتب الله عليهم الضلال ، ولن يستفيدوا بنصح ، ولن يسمعوا عظة ونصحا .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ

لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أى وربك يا محمد مبالغ في مغفرة الذنوب ، شديد الرحمة

بالعباد ، يعفو عن المسئ ، ويقبل التوبة ، وهو على كل شئ قدير .

ولو أراد سبحانه وتعالى أن يعاقبهم بمعاصيهم لعجل لهم العذاب في الدنيا واستأصلهم إلا أن الله سبحانه وتعالى لم يرد ذلك .

﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴾ أى أن الله لم يشأ

عقوبتهم العاجلة ولذلك حدد لعذابهم موعدا لا محيص عنه ، ولا خلف فيه .

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى ۖ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَمَمُوا ﴾ أى أن الله أهلك أهل

تلك القرى ، واستأصلهم بسبب كفرهم وشركهم .

﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ أى أن الله جعل لهلاكهم موعدا وحالا

إذا وصلوا إليه أهلكهم ، وكذلك جعل الله لعذاب كل إنسان أو كل جماعة موعدا لا يتخلف عنه أبدا .

(٣٥٩)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل الإسلام واضحاً في القرآن الكريم ، ودعا الرسول الناس إليه إلا أن طبيعة الإنسان صرفته عن هداية القرآن الكريم ، فلقد استهزأوا بالدعوة ، ولم يمنع الناس من الإيمان إلا الجدل والتعنت .

وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب الذي خوفهم منه ، واستهزأوا بالقرآن الكريم ، وبرسول الله ، وبالإسلام .

ولقد كان هؤلاء المشركون أشد ظلماً لأنفسهم لأنهم كفروا بعد علم ، واعرضوا بعد دعوة ، فقد أضل الله قلوبهم ، وأعمى أبصارهم ، ولن يوفقهم للهداية أبداً .

إن الله رحيم بعباده ، ولذلك أجل عذابهم ليتوبوا فيقبل توبتهم ، ويغفر لهم وقد حدد الله موعد نزول العذاب بمن يستحقه كما فعل مع الأمم السابقة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

رحمة الله شاملة لعباده

الله رحيم بعباده ، يدعوهم للحق ، ويحثهم ويحرضهم على اتباعه ، ويبشّر وينذر ، ويحذر ، وقد تجلت رحمة الله بعباده في صور عديدة تشير الآيات إلى بعضها ... وهي :

(١) أنزل القرآن الكريم داعياً إلى الله تعالى بصور عديدة من أساليب البيان وعوامل التأثير ، ولو عاد العاقل لتصاريف القرآن الكريم ، وتأملها لوصل إلى الحق والصواب .

(٣٦٠)

(٢) أرسل الله الرسل للناس دعاء للدين مبشرين بالخير ، منذرين من العذاب الأليم .

(٣) تأجيل مؤاخذه العصاة أملا في توبتهم ، ورجوعهم إلى الله تعالى ، ولذلك لا يؤاخذهم بكسبهم ، وإنما يدعوهم ، ويخوفهم من حساب الآخرة .

(٤) ضرب الله الأمثال للناس من واقع القرى السابقة فقد أهلكها الله بسبب ظلمها ، وكفرها لتكون مثالا أمام الناس ، يحذرون بسببه من المعاصي فهي مهلكة مدمرة .

كل هذه الحقائق تؤكد رحمة الله بعباده ، ودعوة عقولهم للإيمان والتصديق وشكر الله على فضله ، ونعمته ، ورحمته وسعت كل شئ .

الركيزة الثانية

أخطار الجدل والمراء

يعتبر الجدل والمراء أخطر الصوارف عن الحق ، لأنه يقوم على الباطل ويعمل على صرف الناس عن الصواب ، ويوقع صاحبه في الغفلة والنسيان .
إن الغافلين عن الحق يستهزئون بآيات الله ، ويعملون لهدم الحق وينسون ما يجب عليهم أن يتذكروه .

لقد أعمى الله أبصارهم ، وأضل عقولهم فهم لا يهتدون أبدا .

إن العاقل من يترك الجدل الذى لا فائدة فيه ، ويهتدى بهدى الله تعالى ويتمتع برحمة الله وفضله .

قصة موسى مع الخضر ”عليهما السلام“

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَتِلْغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۖ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۖ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسِيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۖ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّآ عَلَىٰ ءِثَارِهِمَا قَصَصًا ۖ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيْنَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَهُ مِنَ لَّدُنَّا عِلْمًا ۖ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُسَدًا ۖ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۖ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۖ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۖ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۖ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا

تُصَحِّبَنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِنَ لُدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ
 اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ
 فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۚ
 سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ
 يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا
 ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾
 فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ
 لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ
 رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ
 أَمْرِي ۚ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ۝

- ١ -

صلة إيراد القصة بما قبلها

قصة الخضر مع موسى عليهما السلام إحدى القضايا التي كلف اليهود كفار قريش أن يسألوا الرسول ﷺ عنها ، وقد أجاب رسول الله عن قصة أصحاب الكهف وها هي إجابة سؤالهم عن موسى وصاحبه .

- ٢ -

ملخص القصة

يروى البخاري بسنده عن سعيد بن جبير ، قال : قلت لابن عباس : إن نوحا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل ، إنما هو موسى آخر .

(٣٦٣)

فقال : كذب عدو الله ، حدثنا أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا .

فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فقال له : بلى ، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك ...

قال : أي رب ، ومن لي به ؟

قال : تأخذ حوتا فتجعله في مكمل ، وحيثما فقدت الحوت فهو ثم ^(١) ... إلخ .
والحديث بتمامه يفصل لقاء موسى بالخضر ، وقد فصلها القرآن الكريم كذلك ، وكلاهما يبين أن حكمة الله تعالى قضت بوقوع القصة ؛ ليتعلم موسى عليه السلام رد العلم لله ، فهو العليم بكل شيء ، وعلمه ، وارادته ، وقدرته ، مع كل موجود ؛ ولذلك كان على موسى أن يقول لمن سألته : الله أعلم .

وقد وقع العتاب بمنهجية مؤثرة ، ومعجزة ، حيث حدد الله لموسى مكان لقاء الرجل الأعم منه ، وهو مجمع البحرين ، وأتصور هذا المكان عند التقاء خليج العقبة بخليج السويس ، عند رأس محمد ؛ لأن موسى عليه السلام كان في سيناء ، ولا يوجد بحران يلتقيان إلا هناك ، وقد حدد الله لموسى علامة يعرف بها المكان ، هذه العلامة هي ضياع الحوت ، ففي هذا المكان يوجد الرجل الصالح.

اصطحب موسى عليه السلام غلاما ، ومعهما الحوت في مكمل ، فلما جاوزا المكان .

قال موسى عليه السلام لفتاه : أحضر لنا الطعام لنأكل ، فقد تعبنا ، وأصابنا الجوع .

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري . كتاب أحاديث الأنبياء . باب حديث الخضر ج ٦ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٣٦٤)

فقال له الغلام : لقد نسيت الحوت عند الصخرة التي استرحنا عندها ، وقد اتخذ الحوت طريقه إلى البحر بصورة عجيبة .

فقال موسى عليه السلام : هذا المكان هو الذي أقصده ، فهيا بنا نرجع إليه ، فرجعا حتى وصلا إلى الصخرة ، فرأى موسى رجلا مسجى بثوب فسلم عليه ، فقال الخضر : أنى بأرضك السلام ...

قال : أنا موسى رسول الله .

فقال الخضر : أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه .

فقال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا .

فقال الرجل : إنك لن تصبر لعدم إحاطتك بما أعلم .

قال له : ستجدني إن شاء الله صابرا ، ومطيعا ...

فقال الخضر : إن أردت أن تتعلم فاتبعني ، ولا تسأل عن شيء أبدا ، حتى أعرفك بخبره ، واتفقا على ذلك ...

ويستفيد موسى من تعليم الله ، ويقر للخضر بالتبعية ليتعلم منه ، ويشترط عليه الرجل ، ويحدد له كيفية التلقي ، وعدم الاعتراض ، وعدم السؤال عن أي جانب لا يفهمه بعقله ؛ لأن العقل له منهجه ، وطاقته في الفهم ويوافق موسى على شروط الرجل ، ويعلق قبوله بالمشيئة الإلهية ؛ لأن الله إذا أراد شيئا قال له كن فيكون .

ويبدأ التعليم العملي ، الرجل يمشي وموسى وراءه ، فلقيا في البحر سفينة ، استأذن الخضر في ركوبها ، فأذن لهم ربانها بلا أجر يأخذه ، ركب الخضر وخرق السفينة ، فاعترض موسى عليه السلام ؛ لأن الخرق يغرق السفينة ، فسأله الرجل عن صبره الذي اتفق معه عليه ، فاعتذر موسى بنسيانه .

وبعدها ساروا على الساحل ، فوجدوا مجموعة من الغلمان يلعبون ، فجاء الخضر إلى واحد منهم ، واقتلع رأسه وقتله ، فاعترض موسى عليه السلام مرة ثانية ؛ لأنه قتل غلاما بغير جرم يرتكبه ، فوضح له أنه ارتكب مخالفة ثانية ، ولم يصبر ، فاعتذر موسى عليه السلام وقال : إن اعترضت بعد ذلك فلا تصاحبني ، ولك عذر في تركي ، وساروا حتى دخلوا قرية ، وطلبوا من أهلها طعاما فرفضوا ، فوجد الخضر جدارا يميل للوقوع ، فأقامه وأصلحه بلا أجر ، فاعترض موسى عليه السلام على إصلاح الجدار بلا أجر ، مع أن أهل القرية رفضوا إطعامهم ...

فقال الخضر : هذه هي الثالثة ... وعلينا أن نفترق بعد أن أوضح لك خبر الأحداث الثلاثة .

أما السفينة فهي مملوكة لمساكين ، ضعفاء يعملون في البحر ، وكان وراءهم ملك ظالم ، يأخذ كل سفينة صالحة غصبا ، بلا ثمن ، فقمت بخرقها حتى لا يأخذها .

وأما الغلام ، فقد طبع يوم طبع كافرا ، وأبواه مؤمنان ، فخشينا أن يكلفهما بسبب عاطفة الحب والشفقة ، فيقعا في الضلال ، ويتدينا بدينه .

وأما الجدار فهو مملوك لغلامين صغيرين يتيمين ، وتحتة كنز لهما^(١) ، وكان أبوهما صالحا ، فأقمت الجدار ، حتى يبلغا الرشد ، ويستخرجا كنزهما . ثم قال الرجل الصالح : وما فعلت ذلك باجتهاد مني ، ولكنه أمر من الله تعالى .

(١) اختلف العلماء في الكنز ، فقال عكرمة وقتادة : كان مالا معدودا وهو الظاهر ، وقال ابن عباس ، وعمر مولى غفرة ، وعثمان بن عفان : كان لوحا من ذهب كتب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن !! عجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب !! عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح !! عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل !! عجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن لها !! لا إله إلا الله محمد رسول الله ، "تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٨" .

(٣٦٦)

- ٣ -

بيان القصة من خلال
دلالة الآيات

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ ۚ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾

أي اذكر يا محمد لقومك قصة موسى عليه السلام مع فتاه القوى "يوشع" وقوله له سأظل أسير حتى أصل لملتقى البحرين ، ولو مكثت أسير زمنا طويلا ، وسبب ذلك أن الله أخبر موسى عليه السلام بأنه سيجد عند مجمع البحرين رجلا يتعلم منه علما لا علم لديه به .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾

أي لما وصلا إلى مجمع البحرين لم يجد الرجل ، ونسوا الحوت المشوى المحفوظ معهم فإذا به يحيا ، ويتخذ طريقه إلى البحر ، ويسلكه ، ويجرى .

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾

أي لما تركا المكان ، وبعدا عنه قال موسى عليه السلام لفتاه : آتتا الطعام لنتغذى فقد أصابنا الجوع والتعب .

﴿ قَالَ ۖ الْفَتَىٰ ۖ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾

أي قال الفتى : أرايت حين التجأنا إلى الصخرة عند مجمع البحرين . فقد فقدنا الحوت ، ونسيت أن أخبرك ، إنه عاد إلى الحياة ، وقفز في البحر ، وسار فيه سيرا عجبا .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰٓءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾

أى قال موسى ﷺ لفتاه : الذى ذكرت في أمر الحوت هو الذى كنت انتظره فهو علامة الفوز ، وهو المقصود من هذا السفر ... فرجعا إلى المكان من حيث أتوا حتى وصلا إلى الصخرة .

علم موسى ﷺ مكان وجود الرجل حيث عرفه الله أنه عند الصخرة ، وعندها يحيا الحوت ، ويجرى في الماء ، ولذلك رجعا إليه .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن

لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ أى بعدما رجعا إلى الصخرة ، وجدا عبدا صالحا من عباد الله تعالى ، أتاه الله رحمة من عنده ، هى النبوة أو الولاية ، وعلم شيئا من علم الله اللدنى وبدأ بينهما الحوار .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾

أى قال له موسى ﷺ : هل تسمح لى أن أسير معك ، واتبعك على أن تعلمنى الرشد الذى علمكه الله إياه ، وخصك به .

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أى أنك يا موسى لن تصبر

على ما أفعله بسبب أنك لم تعرف خبره وسره .

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ أى قال الرجل لموسى :

إنك لن تستطيع الصبر لتتعلم منى ، لأنك سترى معى أمورا تخالف عقلك ، ولم تخبر أسرارها . فقد علم كل واحد منهما خبر أشياء لا يعلمها الآخر .

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ أى قال موسى

للرجل : ستجدنى صابرا بمشيئة الله تعالى ، مستسلما لا أنكر منك شيئا .

﴿ قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

أي قال الخضر لموسى : إن سرت معي فلا تفاتحنى فى شئ تنكره على حتى أبتدئ بذكره ، فأبين لك وجه صوابه ، فإننى لا أقدم على شئ إلا وهو صواب جائز فى نفس الأمر ، وإن كان ظاهره غير ذلك ، فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ أي فانطلقا يمشيان

على الساحل يطلبان سفينة فوجداها ، فعرف أهلها الخضر من بينهم فحملوهم بغير أجر ، حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها حين توسطوا لجة البحر ، إذ أخذ الخضر فأسا وكسر لوحا من ألواح السفينة .

﴿ قَالَ أَخَرَقَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ أي قال موسى

للخضر : لقد جئت عظيما منكرا ، ثم أخذ موسى ثوبه فحشا به الخرق .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أي قال الخضر

لموسى : ألم أقول لك يا موسى إنك لن تستطيع صبرا معي فيما ترى مما أفعل .

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾

أي قال موسى للخضر : لا تؤاخذني بما نسيت ولا تضيق على أمرى ، ولا تعسر على متابعتك ، بل يسرها بالإغضاء وترك المناقشة .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ أي فانطلقا بعد نزولهما من

السفينة وسلامتهما من الغرق والعطب ، يمشيان على الساحل فأبصر الخضر غلاما يلعب مع لداته وأترابه فقتله ، ولم يبين القرآن كيف قتله : أحز رأسه أم

ضرب رأسه بالجدار ، أم بطريق آخر ؟ وعلينا ألا نهتم بذلك ، إذ لو علم الله فيه خيرا لذكره .

﴿ قَالَ أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي قال موسى ﷺ للخضر :

أقتل نفسا طاهرة من الذنوب بغير قتل نفس محرمة ؟ ... وخص هذا من بين مبيحات القتل كالكفر بعد الإيمان ، والزنا بعد الإحصان ، لأنه أقرب إلى الوقوع نظرا إلى حال الغلام .

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ أي لقد جئت شيئا تنكره العقول ، وتنفر منه

النفوس .

وأتى هنا بقوله : ﴿ نُكْرًا ﴾ وهناك بقوله : ﴿ إِمْرًا ﴾ لأن قتل الغلام أقبح من خرق السفينة ، لأن ذاك لم يكن إهلاكا لنفس ، إذ ربما لا يحصل الغرق ، وفي هذا إتلاف النفس قطعاً ، فكان أنكر .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أعاد الرجل قوله

لموسى ﷺ وزاد عليه ﴿ لَّكَ ﴾ ليبين له أن هذا هو الخطأ الثانى .

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي ﴾ أى قال موسى

للرجل إن سألتك عن شئ بعد هذه المرة فلا تصاحبني وأتركنى .

﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ أى قد أعذرت فيما بينى وبينك .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَ أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ

يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ^ط قَالَ لَوْ شِئْتَ

لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أى سارا بعد ذلك سيرا طويلا حتى دخلا قرية طلبا من

أهلها طعاما ، وطالبا حق الضيافة ، فأبوا العطاء ، وأنكروا الضيافة فوجد الرجل بعد ذلك جدارا اقترب من السقوط والانهيال فأقامه الخضر وعدله ، فأنكر موسى عليه ذلك ، وقال للرجل : لو أخذت على إقامة الجدار أجرا نتزود به لكان أفضل فقد رفض أهل القرية ضيافتنا ، وأبوا إطعامنا إلا بمال ندفعه .

﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ

صَبْرًا ۚ ﴾ أى قال الرجل لموسى هذا وقت فراق بينى وبينك ، وسأخبرك بتأويل

الأمر الثلاثة التى لم تتمكن من الصبر عليها .

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ

أُعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۚ ﴾ أى أن السفينة التى

قمت بخرقها كانت لمساكين يعملون فى البحر ، وكان أمامهم ملك ظالم يغتصب السفن الصالحة فأردت أن أعيبها ، وأفسد منها جانبا قبل مرورها عليه حتى لا يأخذها هذا الملك الظالم ... وقد كان .

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا

وَكُفْرًا ۚ ﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۚ ﴾

أما قتلى للغلام فقد علمت من ربى أن هذا الغلام سيكون كافرا ضالا فقتلته رحمة بأبويه المؤمنين وخوفا من أن يتبعانه فى الكفر شفقة عليهما ... وأردنا لذلك أن يبدلهما الله به ولدا يبرهما ، ويحسن إليهما بولد آخر يكون خيرا منه فى صلاحه وتقواه ، وأكثر برا بهما ... وقد كان .

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أى أن الجدار الذى أقمته في المدينة كان مملوكا لغلامين يتيمين ، وكان تحته كنز أردت أن أحفظه لهما ، وكان أبوهما صالحا فحفظ الله ولدهما ، وأمرنى بإقامة الجدار صونا للمال تحته حتى يكبرا ، ويشبا ، ويحصلوا عليه وافيا .

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أى ما فعلت هذه الأمور الثلاثة التى أنكرتها يا موسى إلا بأمر الله ، لأن إفساد المال ، وقتل النفس ، وتغيير الأصول لا تكون إلا بأمر من الله تعالى .

﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أى هذا بيان لأعمالى التى لم تصبر عليها .

- ٤ -

ركائز الدعوة
في قصة موسى والخضر
"عليهما السلام"

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ضرورة الاتباع لمنهج الله تعالى

والمراد بالاتباع الالتزام بمنهج الله أمرا ونهيا ، وترك الاجتهاد العقلي فيما ورد فيه نص ديني ؛ لأن الاجتهاد مع النص لا يجوز ... وسبب ذلك أن منهج الله قائم على علم دقيق ، شامل ، فهو سبحانه يعلم حقائق الأشياء ، وسائر

المخلوقات ، ويعلم الغايات الحسنة للإنسان ، ويعلم الطريق الموصل إلى الغاية الصحيحة ، فإذا أمر بأمر ، أو نهى عن شئ وجب الالتزام بما أمر ونهى ؛ رعاية للمصلحة ، وتحقيقا للخير الذي يتمناه الإنسان ... أما علم الإنسان فهو محدود بالمكان ، وبالزمان ، وبجزئيات مادية معينة ؛ ولذلك فهو عاجز عن رسم الطريق ، وعاجز عن تحديد الهدف الكلي ، والوصول إلى الخير . ومن هنا وجب الاتباع ، ولزم اجتناب الابتداع .

وإذا لم يوجد نص في مسألة ما ، وجب الاعتماد على المبادئ العامة ، وروح الدين ، والتفكير بما أحل الله تعالى ، وسؤال الله التوفيق والسداد .

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾^(١) وطاعة رسول الله تعنى ضرورة اتباع ما أمر الله به بصورة تامة . ومن المهم أن يبين الدعاة للناس القضايا القطعية التي لا يصح معها الاجتهاد ، والقضايا التي تحتاج لاجتهاد ونظر .

الركيزة الثانية

أهمية العلم والتعلم

لما عاتب الله موسى ﷺ وعرفه برجل يجب أن يذهب إليه ، ويتعلم منه ... توجه موسى ﷺ إلى الرجل ؛ ليتعلم منه ، رغم أنه رسول يوحى إليه ، وأبدى للرجل احترامه له ، والتواضع أمامه ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ ، فهو ﷺ يستأذنه ، ويعرفه بما يريد ، ويحدد له الرغبة في أن يتبعه حتى يتعلم ، ويسير معه أينما سار ، ويعمل كيفما عمل ، وفي أي موضوع تحدث فيه ...

(١) سورة النساء ، الآية ٦٤ .

(٣٧٣)

ويتبعه ليتعلم منه الأمور التي علمها الله له ، ويجعلها موسى ﷺ وبذلك تخلق موسى ﷺ بخلق طالب العلم أمام أستاذه القدير .

والدعاة إلى الله تعالى هم أحوج العباد إلى مداومة العلم ، والتزود من المعارف المختلفة ، والحصول على الدراسات الكثيرة التي تمكنهم من فهم الدين ، وتبليغ دين الله تعالى بالحسنى وقدوتهم رسول الله ﷺ وسلف الأمة الصالح يأخذون منهم ، ويتبعون سنتهم ليكونوا روادا لغيرهم ومصلحين للناس من حولهم.

الركيزة الثالثة

عدم التسرع في الحكم

برغم أن الرجل حذر موسى ﷺ من الحكم المتعجل ، وحثه على الصبر ، وعدم الاعتراض حتى يشرح له أسباب أفعاله ، رغم ذلك اعترض موسى ﷺ ولم يصبر ، ولذا فارق الرجل ، ووضح الله الأسباب الحقيقية لأفعاله ، فلما عرفها موسى تعلم من خطئه ، ووقف على ضرورة الصبر ، وعدم استعجال الخبر ، وضرورة الوفاء بالوعد والاتفاق .

ومن دروس هذا الموقف ضرورة التدبر بأناة ، وأهمية النظر بهدوء ، ومحاولة أن يكون الفهم شاملا للموضوع كله ، ويحسن التشاور بين العلماء والمتخصصين أملا في الوصول إلى الحق بقدر الإمكان . وبهذا نهمس في أذن الدعاة .

الركيزة الرابعة

سعادة الإنسان في معية الله

وضح الخضر أسرار ما فعل ، وبين لموسى ﷺ أنه خرق السفينة ليحفظها للمساكين من الملك الظالم ، وأنه قتل الغلام لكفره حتى لا يرهق أبويه

، ويجرهما إلى المعصية والكفر ، وأن تحت الجدار كنزا، رأى حمايته لأصحابه حتى يكبر اليتامى ... وبهذا ظهرت أهمية ما فعل الخضر ، واتضح أن الله تعالى أمر الخضر بهذه الأعمال ليحافظ على حقوق اليتامى والمساكين والصالحين ، وقد قام الخضر بهذه الأفعال من غير إحاطة أصحابها بها .
إن معية الله ، وعانته لخلقه ، تحقق للإنسان الخير والسعادة ، وواجب على الإنسان أن يجتهد ، ويعمل لاستئصال رحمات الله تعالى ، والتمتع في معية الله الدائمة ، وبذلك يعيش سعيدا موقفا .

الركيزة الخامسة

أثر صلاح الآباء على الأبناء

صلاح الآباء ينفع أبناءهم وذرياتهم ، وقد رأينا الخضر يبزر لموسى عليه السلام سبب إقامته للجدار ، ويوضح أنه فعل ما فعل لحماية الكنز لليتيمين حتى يكبرا لأن أباهما كان صالحا ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ ^(١) .

الركيزة السادسة

الخضر بين الحياة والموت

ذهب بعض الناس إلى القول بأن الخضر حي إلى الآن ، وأنه التقى مع بعض المتصوفة ، وأنه موجود في كل زمان ، وينتقل دائما من مكان إلى مكان ^(٢) .

وهذا كلام لا أصل له ، ولا دليل عليه ، بل الأدلة تردده ... وهي :

(١) سورة النساء ، الآية ٩ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٥ ص ١٣٦ .

الدليل الأول : يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ^ط أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾^(١) ، والآية صريحة في الدلالة على أن البشر جميعا يموتون ولا يخلدون ، والخضر من البشر ، فموته مقرر ثابت .

الدليل الثاني : يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ^ط وَلَتَنْصُرُنَّهُ^ط قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي^ط قَالُوا أَقْرَرْنَا^ط قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾^(٢) ، والآية تؤكد أن الله تعالى أخذ الميثاق على كل نبي ، أن يؤمن بمن يجي بعده من الأنبياء ، وينصره ... وهذا يستلزم أخذ الميثاق عليهم لمحمد ﷺ لأنه خاتم النبيين ، فحق على كل من يدركه أن يؤمن به وينصره ، فلو كان الخضر حيا في زمانه ، لما وسعه إلا اتباعه ، والاجتماع به ، والقيام بنصره ، ولم يثبت بدليل أنه التقى برسول الله ، أو اجتمع به^(٣) ، والولي هنا كالنبي .

الدليل الثالث : عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال قبل موته بشهر : "تسألوني عن الساعة ، وانما علمها عند الله ، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة ، تأتي عليها مائة عام وهي يومئذ حية"^(٤) ، وهذا الحديث يقطع بوفاة الخضر إن لم يكن قبل الإسلام ، فقبل الأعوام المائة المذكورة .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٣٤ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٨١ .

(٣) البداية والنهاية ج ١ ص ٢٩٩ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي . كتاب فضائل الصحابة ج ١٦ ص ٩١ .

(३४६)

الجزء السادس عشر

ويبدأ من الربع الأخير
من سورة "الكهف"

(٣٧٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

توطئة :

اختلف المفسرون في بداية الجزء السادس عشر ، فمن قائل إنه يبدأ مع الآية رقم (٧٥) ، وهو قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ .

ومن قائل : إنه يبدأ مع الآية رقم (٧٩) ، وهى قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ .

وقد أثرت أن أورد تفسير قصة موسى والخضر عليهما السلام بتمامها في الجزء الخامس عشر حتى لا أقطع المعانى في موضوع واحد ، وأن أورد القصة كاملة في موضوع واحد إثراء لفوائدها ، وجمعا لأحداثها وترابطها .

ولذلك انتهيت من تفسير القصة عند قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ليبدأ المجلد السادس عشر بقوله تعالى : ﴿ وَيسْأَلونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنِّهِ ذِكْرًا ﴾ .

والله الموفق ،،

قصة "ذی القرنین"

يقول الله تعالى :

﴿ وَسَأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۚ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۚ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۚ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ۚ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ أَحْسَنُ ۖ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسرًا ۚ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِرًّا ۚ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۚ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۚ قَالُوا يَبْدَأُ الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۚ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۚ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۚ فَمَا اسْتَطَبَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَبَعُوا لَهُ نَقْبًا ۚ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۖ ۝

(٣٨١)

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

تتضمن الآيات قصة ذى القرنين ، وهى مناسبة لقصة موسى عليه السلام مع الخضر ، ولذلك جاءت بعدها لما بينهما من صلة ، فالخضر وذو القرنين رجلان اختصهما الله بفضله ، ومكن لهما في الأرض ، يقول الله تعالى عن "ذى القرنين" ﴿ مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾^(١) ، ويقول سبحانه عن الخضر ﴿ عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾^(٢) .

وأیضا فقد عاش كل منهما ثلاثة أحداث تحدث القرآن عنها ، فالخضر خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وأقام الجدار ، وذو القرنين رحل إلى مغرب الشمس ، وإلى مشرقها ، وإلى السدين ، ووجد عندهما يأجوج ومأجوج ... وأیضا فقد انطلق كل منهما إلى غايات حددها الله لكل منهما ... وبذلك جاءت قصة ذى القرنين بعد قصة الخضر وموسى عليهم السلام .

- ٢ -

"ذو القرنين"

لم يهتم القرآن الكريم بذكر كثير من جزئيات قصصه حيث لا تأثير لها في أغراض قصه ، مثل أسماء الأشخاص ، وتحديد موطن الحدث ، ومدة وقوع الحدث ... وهكذا إلا أن المفسرين يحاولون بيان بعض ما سكت القرآن الكريم عنه معتمدين على أقوال المؤرخين الذين يروون الأخبار بلا سند كما هو الشأن في كتابه التاريخ . وقد ذهب المؤرخون في التعريف بـ "ذى القرنين" مذاهب متعددة ...

(٢) سورة الكهف ، الآية ٦٥ .

(١) سورة الكهف ، الآية ٨٤ .

فمنهم من ذهب إلى أنه "الإسكندر الأكبر" ويعرفونه بأنه هو الإسكندر الأكبر ، ملك مقدونيا ، من بلاد اليونان ... استطاع أن يضم بلاد اليونان كلها إلى ملكه الذي ورثه عن أبيه ، ثم استطاع كذلك أن يوسع دائرة مملكته شرقا وغربا ، حتى ضم إليها بفتوحاته معظم العالم المعمور الذي كان معروفا في وقته ... فبلغ الصين والهند شرقا ، ودارت في فلك دولته قرطاجنة ، ومصر والشام ، والعراق ، وإيران ، وأفغانستان ، والهند ، وأطراف الصين ...

أما سبب امتداد ملكه جهة الشرق لا الغرب ، فلأن الشرق في ذلك الحين ، كان هو مركز النشاط الإنساني ، ومطلع العلوم والفنون ، والآداب ، وكان هو الذي يناظر بلاد اليونان التي كانت الشعلة المضيئة في الظلام المنعقد على أوربا في ذلك الحين ... ولهذا كان الاحتكاك دائما في هذه العصور الغابرة ، واقعا بين بلاد اليونان ، وفارس ، وما بينهما ...

وقد تتلمذ الإسكندر على الفيلسوف اليوناني "أرسطو" ... وساعده نبوغه العبقرى على أن يهضم فلسفة "أرسطو" في فترة قصيرة ، وأن يتمثلها تمثيلا صحيحا ، وأن يصفها من كل شائبة ... فكانت تلك الفلسفة غذاء صالحا لهذا العقل السليم المتفتح لاستقبال كل ما يمدده بطاقات من النور ، تزداد بها بصيرته نفوذا إلى أعماق الأشياء ، والوصول إلى لبابها ...

فالإسكندر ، بذكائه وعبقريته ، وباستعداده الموروث للملك والسلطان استطاع أن يحول فلسفة "أرسطو" إلى واقع عملى ، وإلى قوة منطلقة معه لتحقيق آماله الكبيرة ، وبناء هذه الدولة العظيمة التي تحركت لها همته ، على أساس وطيد ، من العدل والإحسان^(١) ...

وقد اتصف "ذو القرنين" بصفتين رئيسيتين :

(١) التفسير القرآنى للقرآن ج ١٦ ص ٧٠٢ .

أولاهما : أنه ذو سلطان متمكن ، وأن الله تعالى أعطاه عقلا وحكمة ، وملكا وسلطانا ، فاجتمع له من الأسباب ما مكنه من الحصول على مسببات لم تجتمع لأحد غيره ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ وليس المراد بقوله تعالى : ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ العموم والشمول ، لجميع الأشياء ... وإنما المراد به كل شيء يصلح به أمره ، ويقوم عليه سلطانه ... ومثل هذا قوله تعالى على لسان الهدد عن ملكة سبأ : ﴿ وَأُوتِيتِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهَذَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾^(١) ومثله قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمًا مِنْ طَرِيقِ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٢) ... فالمراد بكل شيء في الموضعين : ما يصلح عليه الأمر ، ويتم به نظام الحياة في المستوي الطيب الكريم ...

وثانى الصفتين اللتين يتصف بهما ذو القرنين : أنه مؤمن بالله ، وأنه أقام هذا الملك الواسع العريض على الحق ، والعدل والإحسان ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَنْدَا الْقَرْيَتَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا^(٣) .

فهو في هذه الآيات يخاطب عن الله ، وحيا ، أو إلهاما ، كما أنه في هذه الآية أيضا يقوم داعية لله يدعو إلى الإيمان بالله ... ثم هو مؤمن بالآخرة وبالجزاء الأخرى ، يأخذ الكافرين بالله بالبأساء والضراء في الدنيا ، ثم يدعمهم

(١) سورة النمل ، الآية ٢٣ .

(٢) سورة النمل ، الآية ١٦ .

(٣) سورة الكهف ، الآية ٨٦ ، ٨٧ .

ليلقوا فى الآخرة العذاب الشديد النكر الذي لا تعرفه الحياة ، ولا يذوق مثله الأحياء فى الدنيا^(١) ...
يؤيد هذا الرأى ما يلى :

أولاً : بنى جدار الصين فى القرن الثالث قبل الميلاد وهو العصر الذى ظهر فيه الإسكندر ، إذ كانت حياته فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وكون البناء منسوباً إلى ملك من ملوك الصين لا يمنع الاستعانة بالإسكندر .
وثانياً : ما تضافر عليه المؤرخون العرب من أن باني السد اسمه إسكندر ذو القرنين ، وليس ذا القرنين فقط .

وثالثاً : ما جاء من آثار من أن منشئ السد هو منشئ الإسكندرية .
ورابعاً : أن وصفه بذى القرنين سائغ لأنه جمع بين تاج الجنوب وتاج الشمال لما جاء إلى مصر^(٢) .

وذهب آخرون إلى أنه "قورش القارسى" الذى أنقذ بنى إسرائيل من أسرهم فى بابل ، فقد وصف فى التوراة التى بأيدينا فى سفر دنيال وغيره بأنه لقب بـ "ذى القرنين" لعظيم قوته ، واتساع ملكه ، وقوة سلطانه^(٣) . ويقرب هذا أنه ينطبق عليه الوصف المذكور فى القرآن ، وأن السؤال كما جاء فى القرآن الكريم منبعث من اليهود ، سواء وجهه اليهود إلى النبى ﷺ مباشرة ، أم وجهوه له عن طريق المشركين ، وأما ملكه فقد كان وسط آسيا بين غرب آسيا وشرقها ، وأنه اتجه بسلطانه إلى الغرب ، ثم اتجه بعد ذلك إلى الشرق^(٤) .

ويذهب البيرونى إلى أن ذا القرنين المذكور فى القرآن كان من حمير مستدلاً باسمه . فملوك حمير كانوا يلقبون بذى كذا ، كذى نواس ، وذى يزن

(١) التفسير القرآنى للقرآن ج ١٦ ص ٧٠٢ .

(٢) زهرة التفاسير ج ٩ ص ٤٥٨٦ .

(٣) التفسير القرآنى للقرآن ج ١٦ ص ٧٠٣ .

(٤) زهرة التفاسير ج ٩ ص ٤٥٧٧ .

وكان اسمه أبو بكر بن أفريقش . وأنه رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فمر بتونس ومراكش وغيرهما ، وبنى مدينة إفريقية فسميت القارة كلها باسمه . وسمي ذو القرنين لأنه بلغ قرني الشمس^(١) .
وانى أورد هذه الآراء ، وأتوقف عن تحليلها ، ولا أختار إحداها لأنها أقوال المؤرخين التي لا سند لها ، ولا يصح القطع بواحد منها ، وسأكتفى بتفسير آيات القرآن الكريم ففيها الكفاية والغناء .

- ٣ -

قصة "ذو القرنين" من خلال دلالة الآيات

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ أى ويسألك الناس يا محمد عن "ذو القرنين" .

﴿ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أى قل لهم يا محمد إنى سأقرأ عليكم شيئاً من خبره ، وهو ما أنزله الله عليك قرآناً يتلى ويحفظ .
﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ أى مكن الله له في الأرض ، وأمدّه بعوامل القوة والظفر ، ويسر الله الحكم ، والسلطان ، وأمدّه بأسباب العمران ، وبكل ما يحتاج إليه حكمه وسلطانه .
﴿ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴾ أى انتفع بعطاء الله تعالى ، وسلك الطريق الذى هداه الله إليه .

وقد حددت الآيات ثلاث رحلات قام بها "ذو القرنين" وكان له في كل رحلة عمل مشهود ، وسلوك طيب مشروع .

(١) في ظلال القرآن ج ١٦ ص ٤٠٧ .

الرحلة الأولى

التحرك جهة الغرب

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أى سار في الجهة التى يسر الله له طريقها حتى وصل إلى مغرب الشمس ، أى الوقت الذى يرى الرائي أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق ، وهو يختلف بالنسبة للمواضع . فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف جبل . وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الماء كما في المحيطات الواسعة والبحار . وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الرمال إذا كان في صحراء مكشوفة على مد البصر^(١) ...

﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أى وجد "ذو القرنين" أن الشمس تغرب في عين حمئة أى أنها تغرب وسط طين لاج ، وسط ماء البرك كأنها عيون ماء .

﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾ أى وجد عند الماء الذى غربت الشمس فيه أمة من الناس استسلموا له حينما رأوه قويا ، وعادلا .

﴿ قُلْنَا يَبْنَؤُا الْقَرْيَتَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ أى قال الله لذى القرنين وحيا أو إلهاما : إفعل ما ترى في هؤلاء الناس . فإما أن تقتل وتعذب المشركين بالله منهم ... وإما أن تغفو عنهم ، وتدعوهم إلى الخير وتحسن إليهم ، وتصبر عليهم فهم رعييتك عساهم يدخلون في دينك . وقد خير الله ذا القرنين بين العدل وبين الإحسان ، ويسر له طريق الإحسان بتسمية العدل عذابا ... وتسمية الغفو حسنا وكرما .

(١) في ظلال القرآن ج ١٦ ص ٤٠٩ .

وقد بين "ذو القرنين" سياسته مع هؤلاء الناس ، ف ﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا ۖ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ أَحْسَنُ ۖ وَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۖ ﴾^{١٧} وتشمل سياسة ذي القرنين الأسس التالية :

أولاً : أنه لن يعذب بالحبس ، أو الضرب ، أو السجن ، أو القتل إلا الظالم المعتدى لقوله : ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ أى أن من يجرم ويعتدى ، ويظلم نفسه ، وغيره ، فسوف نعاقبه عقاباً مؤلماً يستحقه .
ثانياً : أنه سيعذب الظالم المعتدى بما يستحقه في الدنيا ، وأما عذاب الآخرة فهو أشد ، وأقوى مما ناله في الدنيا لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا ۖ ﴾ .

ثالثاً : أنه سيجازى المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالحسنى في القول والعمل . وسوف يرون التيسير والسهولة في حياتهم الدنيا لقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ أَحْسَنُ ۖ وَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۖ ﴾ أى أن من جمع بين الإيمان الصادق والعمل الصالح فسوف نؤجره على صلاحه ، وندعه يعمل ، ونقول له كلاماً سهلاً ميسراً ، ونجزؤه الأكبر عند الله تعالى .

هذا هو دستور العدل في الأرض الذى سار عليه ذو القرنين ، وبه ينال المؤمن أجره ، ويحاسب الظالم على سوء عمله ، وإذا شاع هذا الدستور بين الناس بصورة عملية تستقيم الحياة ، ويسود العدل حياة الجميع .

﴿ ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَبًا ﴾ أى أن "ذا القرنين" لما استتب الأمر له في منطقة الغرب تحرك في الطريق جهة الشرق لتبدأ الرحلة الثانية .

(٣٨٨)

الرحلة الثانية التحرك جهة الشرق

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أى سار بعد الغرب جهة الشرق ، فالطريق سهل

ميسر .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ أى سار "ذو القرنين" جهة الشرق

حتى وصل إلى مكان تطلع الشمس منه ، فوجد فيه أمة من الناس .

﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أى وجد

عند مطلع الشمس أمة من الناس عراة الأجساد ، لا يحميهم من حرها ستر من بيت أو ملابس ... ويبدو أنهم أمة من الرعاة يقيمون في البادية ، وينتقلون إلى الرعى والكأ .

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى وبمثل عدله في المغرب كان عدله في المشرق .

﴿ وَقَدْ أَحْطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ أى وقد علم الله تعالى منذ الأزل بما

في قلب "ذو القرنين" ، وتوجهه ، وما يقوم به وسط الناس من نشر العدل وصيانة الحقوق ، وتحقيق الأمن والسلام .

ولم تكرر الآية دستور "ذو القرنين" في الحكم عند هؤلاء القوم ، واكتفت بالإشارة إليه لسبق تفصيله .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أى استمر ذو القرنين في سيره بعد أن استقر الشرق

لسلطانه ، وتم تحقيق العدل فيه .

(٣٨٩)

الرحلة الثالثة الرحلة إلى السدين

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أى بعد أن استقر سلطان "ذى القرنين" في المغرب والمشرق أخذ يسير بينهما .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ أى سار "ذو القرنين" بجندة وسط مملكته حتى وصل إلى سدين ، وهما جبلان يقعان في شمال آسيا بعد نهاية مملكة الترك ، ويقعان بين أرمينيا وأذربيجان ، وهما جبلان صناعيان بينهما ممر يخرج ويدخل منه الناس .

﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا ﴾ أى وجد "ذو القرنين" خلفهما أمة من الناس لهم حضارة ما ، وليسوا كأهل المغرب الذين يعيشون النظام والحضارة وليسوا كأهل المشرق الذين يعيشون على البداوة ، ووجدهم لا يأخذون لأنفسهم سترا من الشمس .

﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أى لا يعرفون كلام غيرهم ، وغيرهم لا يعرف كلامهم لأن لهم لغة خاصة بهم ، وأنهم على غير دين ولا يعرفون عدلا ولا نظاما .

﴿ قَالُوا يَبْنَآ الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ تواصل "ذو القرنين" مع هؤلاء القوم بسلطانه وقوته ، وعدله وصلاحه ، ولما رآوه حازما ، أتوا بمترجم ينقل طلبهم إليه ، وعرفوه بوجود أمة أخرى تسكن خلف السدين مقابلين لهم ، وعرضوا عليه أن يعينهم في إقامة سد يغلق الممر الموجود بين الجبلين وهؤلاء القوم هم ﴿ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ الذين يقعون خلف

(٣٩٠)

الجبليين ، ويشتهرون بالعدوان والإفساد في الأرض ، ولهم أدوار عديدة أفسدوا فيها اتخذت أدورا سبعة هي :

الدور الأول كان قبل العصر التاريخي عندما بدأت هذه القبائل تهاجر من الشمال الشرقي وتنتشر في آسيا الوسطى .

وكان الدور الثاني في فجر التاريخ فترى في ضوءه معالم حياتين مختلفتين : حياة البداوة ، وحياة الاستقرار ، فتخلد أغلب القبائل المهاجرة إلى السكينة ، ومباشرة الحياة الزراعية ، وتبقى القلة على بداوتها .

ويبتدئ الدور الثالث ، من سنة ألف قبل الميلاد ، فتجد قوما همجا من البدو في بلاد بحر الخزر والبحر الأسود ، ثم لا تلبث أن تظهر بأسماء مختلفة من جهات مختلفة ...

أما الدور الرابع فينبغي أن نجعله قبل الميلاد ، في الزمن الذي ظهر فيه "قورش" .

وكان الدور الخامس في القرن الثالث قبل الميلاد ، وفيه تدفق فيه سيل من القبائل المنغولية ، وانصب على الصين ، وفي هذا العصر بنى الجدار العظيم الذي اشتهر بجدار الصين ، وقد بدأوا بنائه في سنة ٢٩٤ ق . م وأتموه في مدة عشر سنين ... وعاصر بناء هذا الجدار حملات المغول في الشمال والغرب الذين توجهوا إلى آسيا الوسطى من جديد .

ثم كان الدور السادس والسابع وكان ذلك بعد الميلاد^(١) .

عرض القوم على "ذى القرنين" أن يبني لهم سدا يغلق الممر قائلين :
﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ أى هل من الممكن بعد أن تتأكد من فسادهم ، وأن نخرج لك من أموالنا جزءا على أن نقيم بيننا وبينهم سدا يمنعهم عنا .

(١) رسالة عن ذى القرنين لأبى الكلام زاده نقلا من زهرة التفاسير ص ٤٥٨٦ .

وبدل هذا الطلب على ثقة القوم في "ذى القرنين" بعدما رأوا عدله وقوته وسعيه في مساعدة الضعفاء .

﴿ قَالَ ﴾ لهم ذو القرنين : ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أى ما رزقنى الله من الملك والقوة خير لى من مالكم وخرجكم ، ولن آخذ منكم مالا فتلك مسئوليتى التى مكننى الله منها ، ووفقتى لأدائها ... وكل ما أريده منكم أن تكونوا معى بطاقتكم وقوتكم قال لهم : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ أى ساعدونى بقوتكم ، وأطيعونى فيما أطلبه منكم .

﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ أى أحضروا لى الحديد مقطعا ، وحجرا ، ونحاسا ، وخطبا ، وشاهد "يأجوج ومأجوج" وعرف مكانهم ، وانتهى إلى الجبلين ، ورأى سد الممر بطريقة محكمة هداه الله إليها .

فقد أتى بالحديد ، ورصه بين الجبلين بعرض كبير ، وألقى بين الحديد حجرا ، ووضع تحت الحديد خطبا ، فلما وصل الحديد إلى مستوى أعلى الجبلين أشعل النار في الحطب ، وهو قوله تعالى .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا ﴾ أى لما ساوى الحديد في ارتفاعه الجبلين في ارتفاعهما أمر بإشعال الحطب ، والنفخ فيه حتى أحمر الحديد .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ أى لما اشتعلت النار وأحمر الحديد أتى بالنحاس المذاب وأفرغه على الحديد فتماسك السد ، وصار مانعا ضخما لا يستطيع أحد أن يعلوه ، ولا يمكنه أن ينتقل إلى ما وراءه ... ولن يقدر أحد أن ينقبه ، ليتخذ من النقب طريقا إليهم .

(٣٩٢)

وقد أمر الله "ذو القرنين" ببناء السد ، وتسهيل إتمامه ، تكريماً له ، لأن الزبرة الكبيرة إذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لا يمكن لأحد أن يقترب منها ولن يتمكن من النفخ بالقرب منها ، وقد منع الله النار أن تضر جنود "ذو القرنين" حين نفخهم ، فكأنه تعالى صرف تأثير حرارة النار عن أبدان النافخين حتى تمكنوا من أداء العمل الذى أمرهم به "ذو القرنين" .

﴿ فَمَا اسْطَبُّعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَبُّعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ أى لم يستطع "يأجوج ومأجوج" أن يصلوا إلى القوم بعد إقامة السد لأنهم يعجزون عن الوصول لأعلاه واقتحامه ، ولا يمكنهم خرقه ليجعلوا فيه ممراً لهم ، واطمأن القوم لإقامة السد .

﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أى قال "ذو القرنين" هذا السد الذى وفقنى الله إليه فضل من الله تعالى ، فإذا جاء يوم القيامة يندق هذا السد ويتهدم ، ويجعله الله مساوياً للأرض ، وسيتحقق وعد الله الذى لا يتخلف أبداً .

- ٤ -

معانى الآيات

تبين الآيات قصة "ذو القرنين" في رحلاته الثلاثة ، وتوضح عدله وسيره على منهج مستقيم .

(٣٩٣)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن قصة "ذى القرنين" عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية المعرفة

الإنسان مخلوق يعقل ، ويفهم ، وطبيعته البحث عن الجديد ، ومعرفة ما يغيب عنه ، وقد حاول الإنسان منذ القديم البحث عن أصل الحياة ، وأسباب وجود هذا الكون العظيم ، فعرفه الله بعجائب الخلق ، وأخبره بالغيب وأتاه بقصص السابقين .

وتجلت عناية الله بهذا الإنسان فرباه ، وهذبه ، ودعاه للحق من خلال المعرفة التى ساقها إليه ، فقصص القرآن الكريم معرفة بالماضى وتكوين للعقيدة ، وتكوين للنظم ، وتوجيه لمكارم الأخلاق .

لقد جاء المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن "ذى القرنين" فأخذهم الله إلى قصته ، واختار من القصة أحداثا تبين أسس الحكم العادل المستمد من الإيمان بالله ، كما تبين معرفته بالله ، وباليوم الآخر ، وأن الله مكنه من الحكم والسلطان لإيمانه ، وصدقه .

وبهذه الصورة تؤثر القصة في الإنسان بطريقة عاطفية تشمل عقله ووجدانه .
ومن هذه الحقيقة يجب الاهتمام بالمعرفة الجادة لأنها أساس بناء الإنسان وأساس تقويته بالخلق ، وتجارب الآخرين .

إن الإسلام نزل بالعلم ، ودعا إليه ، وأقام تطبيقاته العملية على العلم والمعرفة .
لابد للمسلم ليكون عبدا صالحا أن يعرف حقوقه ليحرص عليها ، وأن يعرف حقوق الآخرين ليؤديها ... وأن يعرف حق الله ليعبده ... وأن يعرف دينه ليقوم به .

ومن هنا ...

يجب الاهتمام بالمعرفة الجادة ، وتنشئة الإنسان المسلم عليها فبالمعرفة يسعد الإنسان .

الركيزة الثانية إن تنصروا الله ينصركم

الله فوق عباده جميعا ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو على كل شيء قدير وقد قضى الله سبحانه وتعالى بعدله أن يوفق عباده ، وينصرهم ، ويعينهم ، فلقد أعان الله "ذا القرنين" ومكنه في الأرض ، وأمدّه بالقوة والسلطان فساعد الناس ، ونشر الأمان فيهم .

لقد أقام السد ، وحما القوم من شرور "يأجوج ومأجوج" ودائما ينصر الله من ينصره ، ويعين من استعان بهديه ، واستقام على الصراط المستقيم .

جزاء المفسدين يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ وَتَرْكُنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْهُمْ جَمْعًا ۖ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۖ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۖ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزْلًا ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قصة "ذى القرنين" وما حدث منه مع "يأجوج ومأجوج" جاءت هذه الآيات لبيان عقوبة المفسدين في الآخرة ، وسبب نزول العذاب الأليم بهم .

(٣٩٥)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أحوال الناس يوم القيامة حيث يزول كل ما يمنع اتصال بعضهم ببعض ، أو يختلط الناس بعضهم ببعض ، ويجمعهم الله يوم القيامة للحساب والجزاء ، وتبرز جهنم ويراهم من كان ينكرها ، ويعلم الجميع مصائر الخلق عند الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ أى أنه في يوم القيامة يختلط الناس بعضهم ببعض ، ويدخل بعضهم في بعض كموج الماء الذى يخلط جزئيات الماء في بعضها .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِّمَعْنَهُمْ جَمْعًا ﴾ أى يكون بعث الخلائق بنفخة في الصور يجتمع الخلائق بعدها في الحشر ، ويختلط بعضهم ببعض .

وبهذا يكون ظهور "يأجوج ومأجوج" قريبا من يوم القيامة لأنهم سيعملون على هدم السد ، فإذا انهدم السد قامت القيامة .

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "يأتى يأجوج ومأجوج إلى السد يحفرونه كل يوم ، حتى إذا كادوا يخرقونه قال بعضهم : ارجعوا فستحفرونه غدا فيعيده الله كأشد ما كان ، حتى إذا بلغوا مدتهم ، وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غدا ، إن شاء الله تعالى ،

واستثنى فيرجعون فيجدونه على هيئته حين تركوه فيخرقونه فيخرجون على الناس فيستقون المياه وتقر منهم الناس ويتحصنون في حصونهم" (١) .

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴾ أى وأبرزنا جهنم يوم القيامة ليراها أهلها الكافرون بصورة واضحة ظاهرة .

﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أى هؤلاء الكافرون كانوا في الدنيا غافلين عن الله فلم تر عيونهم الدلائل والآيات الشاهدة على صدق رسول الله ﷺ وضرورة الإيمان بالله ، ولم تسمع آذانهم صوت الهداية ، والحق ، والدعوة إلى الله تعالى .
إن الكافرين بسبب ظلام قلوبهم لا يرون آية ، ولا يسمعون حقا لأن جوارحهم فسدت ، وضلت ، وبعدت عن الصراط المستقيم .

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءَ ﴾ ؟ ...
وهذا الاستفهام إنكارى ، ينكر الله على الكافرين ظنهم أنهم على الحق ، وهم يعبدون غير الله ، ويتخذون من عباده أربابا وآلهة ...
وبذلك كان اتخاذهم أولياء من دون الله تعالى ضلالا بينا يجعلهم كافرين بالله تعالى .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزْلًا ﴾ أى إنا هيأنا جهنم ، وجعلناها وجعلناها منزلا وموتلا للكافرين الذين عبدوا غير الله تعالى ، واتخذوا من دونه آلهة .

(١) سنن ابن ماجه . كتاب الفتن . باب فتنة الدجال ج ٢ ص ١٣٦٤ .

(٣٩٧)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أنه مع يوم القيامة ينهار السد ، ويختلط الناس جميعا في أرض المحشر بعد قيام الساعة بنفخة الصور ، ويعرض الله الكافرين على جهنم بعد ظهورها ، وبروزها ليروها ، ويروا منزلتهم عند الله فقد كانوا في الدنيا غافلين عن ذكر الله تعالى فلم يروا حقا ، ولم يسمعوا صوابا .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

مصير الكافرين

تعرض الآيات صورة حركية للناس يوم القيامة ، وتخص الكافرين بالذكر ، وتبين المصير الذي يحيط بهم في الآخرة ، وتوضح أن القيامة تبدأ بنفخ الصور ، فيقومون من قبورهم ، ويختلط بعضهم ببعض ، ويجتمعون في المحشر في جمع كثيف يجمع الأولين والآخرين ، ويعرضهم الله أمامه ، ويعرفهم بجرائمهم التي عاشوا بها في الدنيا ، فلقد كفروا بالله ، وأعرضوا عن الحق ، وغفلوا عن ذكر الله تعالى فلم يسمعوا حقا ، ولم يروا برهانا ، وكانوا في ضلال مبين ... لقد اتخذ الكافرون عباد الله أولياء لهم من دون الله سبحانه وتعالى فاستحقوا أن يكون النذير لهم ، والعاقل من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .

إن المشركين اتصفوا في الدنيا بأنهم :

- لم ينظروا في آيات الله ولم يسمعوا عنها شيئا ، وغفلوا عنها بصورة كلية فلم يروا قدرة ولم يشاهدوا شيئا من هذه الدلائل العديدة الشاهدة على وحدانية الله تعالى ، واتصافه بكل كمال يليق به سبحانه وتعالى .

— أنهم والوا عبدا لله وجعلوه إلها ، وعبدوه ، واستغاثوا به ، وكانوا بذلك من المشركين .
إن عرض أسباب الخزي والعذاب خير داع لتركها .

أصحاب الأعمال الخاسرة

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا ﴿١٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٨﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة جزاء الكافرين يوم القيامة جاءت هذه الآيات
ليبين تفاهة تصورات وقيم الأعمال عند الكافرين ، ولذلك يخيب ظنهم كله .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيات سوء ظن الكافرين عن عملهم في الدنيا فهم يتصورون أنهم
يحسنون العمل بينما هم ضالون فيه فقد فسد سعيهم ، وساء عملهم ، ولا وزن
لعملهم في الآخرة ، ولذلك عاقبهم الله عقوبة مؤلمة يستحقونها فقد كفروا بالله
واليوم الآخر ، واتخذوا رسل الله ودين الله هزوا وسخرية .

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ ؟ ... أى قل يا محمد لقومك

واسألهم منكرا عليهم ظنهم أنهم على الحق ، وأن عملهم مقبولا بينما هو خاسر باطل ، وسمت الآية هذا الخبر نبأ لأهميته ، وخطورة ما يدل عليه .

﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ

صُنْعًا ﴾ أى أشد الناس ضلالا وخسرانا يوم القيامة هؤلاء الكافرون الذى يكفرون بالله تعالى ، وقد ضل عملهم ، وفسد سعيهم في الدنيا ، وكانوا يتصورونه عملا صالحا ، فأتعبوا أنفسهم في عمل يرجون منه فضلا ، ومثوبة فلا يأتيهم منه إلا خسران وبوار .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ﴾ أى أولئك البعيدون

عن الخير بسبب جحودهم لفضل الله ، وإنكارهم للآيات التى تعمهم ، وتوجد في كل ما خلق لهم ، وبسبب إنكارهم للقاء الله للحساب والجزاء . هؤلاء الكافرون لن يكون لهم ثواب في الآخرة .

﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ هُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنَّا ﴾ أى أبطل كفرهم

بالله ، وإنكارهم للآخرة أعمالهم ، ولذلك يعاقبهم الله تعالى بنار جهنم ، لأن الحجة قامت عليهم بلا ميزان يقيمه الله تعالى لهم ، لأن الميزان يكون لأصحاب السيئات والحسنات من المؤمنين لبيان تفاضل أحدهما عن الآخر ، لترجح الحسنات إن زادت ، أو السيئات إن كثرت .

وفى هذا إهانة بالغة بالكافرين فليس لهم عند الله حظ ، ولا نصيب ، ولا قيمة .

﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾

"ذلك" إشارة إلى حبوط أعمالهم ، وفساد سعيهم ، ولذلك كان جزاؤهم عذاب

(٤٠٠)

جهنم . فقد كفروا بالله تعالى ، وبدينه الحنيف ، وتكبروا ، وجعلوا آيات الله تعالى ورسله موطنا لسخريتهم ، واستهزائهم .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيات أن الكافرين هم أخسر الناس عملا فلا خير لهم فيه أبدا مع أنهم يتصورونه حسنا ، وذلك بسبب كفرهم بالله تعالى ، وباليوم الآخر ، وبكل ما جاء به رسول الله ﷺ .

هؤلاء المشركون لا وزن لهم في الآخرة بسبب كفرهم بالله تعالى واستهزائهم بآياته ورسله .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

مصير عمل الكافرين

يقوم كثير من المشركين بأعمال تقيد الناس . فمنهم من اخترع دواء للمرضى ، ومنهم من توصل إلى عمل علمي أفاد به العباد ... ومنهم من بر والديه ، وأنفق للضعفاء ، وأعان المحتاجين .

هذه الأعمال وأمثالها ينالون حظهم منها في الدنيا ، فيذكرهم الناس وتكثر أموالهم ، وينالون سلطانا وحظوة ، أما في الآخرة فلا قيمة لهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾^(١) هذا إن كانت أعمالهم مفيدة . أما بقية أعمالهم فهم يتصورونها خيرا بينما هي فساد وسوء فقد كفروا بالله تعالى ، وعصوا الرسول ، وضلوا ضلالا بعيدا .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٢٣ .

(٤٠١)

لقد أقام الكافرون على أساس كفرهم بالله تعالى ، وانكارهم لليوم الآخرة ففرغوا أعمالهم من الحسنات ... وبذلك وضح جزاؤهم ، بلا وزن ولا حساب وهم أصحاب جهنم المقيمون فيها ، وبئس المصير .

جزاء المؤمنين في الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

بعد أن بينت الآيتان السابقتان عقوبة الكافرين في الآخرة جاءت هاتان الآيتان لبيان جزاء المؤمنين في الآخرة أيضا .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان ما أعدّه الله للمؤمنين في الآخرة . فقد جعل الله نزلهم في أعلى درجات الجنة وهي الفردوس الأعلى ، يقيمون فيها دائما ، ولا يتحولون إلى غيرها .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ ﴾ أى أن الله تعالى جعل للذين آمنوا به ، واستقاموا على هديه ، وعملوا الصالحات جزاء طيبا ، فلقد أعد لهم جنات الفردوس ، وهي أعلى درجات الجنة

(٤٠٢)

يقول النبي ﷺ : "إذا سألتكم الله فاسألوا الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وهو أعلى درجاتها ، وفوقه العرش ، ومنه تفجر أنهار الجنة"(١) .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى هم مستقرون فيها بصورة دائمة .

﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ أى لا يطلبون التحول منها إلى غيرها من الجنان لأنها الأعلى ، وغيرها أدنى منها .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان ما أعد الله للمؤمنين الصادقين . فقد آمنوا بالله ، وتمسكوا بكل ما أمر به ، وعملوا الصالح في القول والعمل ... هؤلاء أعد الله لهم أعلى درجات الجنة . فقد جعل جنات الفردوس مأواهم ومنزلهم ، يقيمون فيها ولا يرغبون التحول منها إلى غيرها .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

سعادة المؤمنين في الآخرة

يسعد المؤمنون برضوان الله في الآخرة ، فقد عاشوا الدنيا عبادا لله تعالى ، فأمنوا به ، وصدقوا بكل ما كلفهم الله به ، واستسلموا له ، واستقاموا على الطريق المستقيم .

(١) صحيح البخارى . كتاب التوحيد . باب وكان عرشه على الماء ج ٩ ص ١٢٥ .

(٤٠٣)

علم المؤمنون أن الدنيا دار تكليف ، وعمل ، فأمنوا وعملوا ، وهجروا
الفحش والظلم والعدوان ، والتزموا بدين الله تعالى .
وآمنوا بالدار الآخرة فاستعدوا لها بالقول والعمل والسلوك ، وقد وفقهم الله
للخير ، وأعد لهم أعلى درجات الجنة ، وهى جنة الفردوس ، ومتعهم بالحياة
الدائمة فيها بلا ملل ، ولا سامة .
إن الحياة في جنات الآخرة حياة متجددة فيها العطاء والفضل ، ومعها
رضى الله ورضوانه ...
إن الجنة هى دار النعيم ومن فاز بها ، ودخلها فقد فاز ونجا واتخذ من
هذا الفضل منزله ومأواه .
وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

بيان علم الله المحيط

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ
كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

قال ابن عباس : قالت اليهود يا محمد تزعم أننا قد أوتينا الحكمة وفي
كتابك : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ثم تقول وما أوتيتم
من العلم إلا قليلا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١) .

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٣٧ .

(٤٠٤)

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيتان السابقتان جزاء المؤمنين الحسن في الآخرة جاءت هذه الآية لبيان علم الله المحيط بكل شئ .

- ٣ -

موضوع الآية

تبين الآية أن علم الله محيط ، وأن كلماته لا تعد ولا تحصى ، ولو تصور الناس البحر مدادا لكلمات الله لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات الله ولو اتصلت به أبحر أخرى لأن كلمات الله لا تنتهى .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ

كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ أى قل لهم يا محمد إن كلام الله لا حد له ، فلو كان البحر مداده ، لنفد البحر وأبحر أخرى مثله قبل أن تنفذ كلمات الله تعالى ، لأن كلام الله لا حد له ، ولا نهاية له ، وبذلك يثبت علم الله المحيط ، وتعالى علمه سبحانه وتعالى عن علم الناس .

- ٥ -

معنى الآية

تبين الآية أن علم الله شامل لا حد له ، وكلامه سبحانه وتعالى لا ينتهى .

(٤٠٥)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

سعة علم الله تعالى

العلم أساسه الكلمة ، والكلمة أساسها الحرف ، وكلما كثرت الحروف كثر العلم ... وعلم الله محيط شامل لا حد له ، ولذلك ضربت الآية مثلا للناس ليعلموا أن علم الله لا حد له ، ولا إحصاء له ، فلو تصور الناس البحر مدادا لكلمات الله ومعه أبحر أخرى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات الله تعالى .
ليعلم الناس قدرهم عند الله تعالى وأمام جلالة عظمته وسلطانه ، ويستقيموا ، ويقفوا عند حدود طاقاتهم البشرية .

طريق الفوز في الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن علم الله شامل ، وكلامه سبحانه لا ينتهى ، جاءت هذه الآية لبيان نزول بعض كلام الله إلى رسول الله ﷺ ليبلغه للناس ولم يزد هذا الفضل رسول الله ﷺ إلا تواضعا .

(٤٠٦)

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن رسول الله ﷺ بشر أوحى الله إليه ، وكلفه تبليغ الناس ليعلموا أن من يتمنى الجنة والمثوبة الحسنة فليعمل عملا صالحا ، ويوحده الله تعالى ، ولا يشرك به غيره من خلقه .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أى بين يا محمد للناس خلقك الكريم وقل لهم : إنك واحد من الناس أكرمهم الله بنزول الوحي ، وكلفه بدعوة الناس إلى دين الله تعالى .

﴿ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ أى أوحى الله إلى أن أعرفكم أنه إله واحد لا شريك له فآمنوا به ، واعبدوه وحده .

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ أى فمن آمن بالله الواحد ، وأمل في جنته يوم يلقاه فعليه أن يعمل لذلك ، ويرجوه من ربه سبحانه وتعالى .

وقد حدد الله تعالى للناس طريق الفوز فقال تعالى : ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا

صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ أى من كان يرجو لقاء الله ، ويتمنى دخول جنته ، ونيل رضاه فعليه أن يقوم بأمرين :

أولاهما : العمل الصالح وبيان هذا العمل يكون وفق ما جاء به دين الله وبلغه الرسول للناس .

(٤٠٧)

وثانيها : أن يوحد الله تعالى ، ويعبده وحده ، ويخلص له في التوجه ، ويترك بصورة مطلقة الشرك بألوانه الظاهرة والخفية ، في الأصول أو في الفروع ، تصديقا بالقلب أو تطبيقا باللسان ، والعمل .

عن جندب بن عبد الله البجلي قال : قال رسول الله ﷺ : "من سمع سمع الله به ومن يراني يراني الله به" (١) .

وعن أبي هريرة ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إن الله تبارك وتعالى يقول : "أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه" (٢) .

وعن سعيد بن أبي فضالة ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إذا جمع الله الناس ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان يشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه منه ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك" (٣) .

وعن النبي ﷺ قال : "أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ؟ قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء" (٤) .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن محمدا ﷺ واحد من الناس أكرمه الله بالوحي ، وأمره أن يبلغ الناس ، ويعرفهم أن الله واحد فمن يطلب رضوانه ، ويأمل في لقائه ، فليؤمن بدين الله تعالى ، ويعمل الصالحات ويعيش بها بين الناس ، ويوحد الله بصورة مطلقة ، ولا يشرك بالله تعالى خلقا ممن خلقه .

(١) صحيح البخارى . كتاب الرقاق . باب الرياء والسمعة ج ١٤ ص ٣٢٣ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الزهد . باب من أشرك في عمله غير الله ج ٤ ص ٢٢٨٩ .

(٣) سنن الترمذى . كتاب التفسير . باب من سورة "الكهف" ج ٥ ص ٣١٤ .

(٤) شرح السنة للبخارى . كتاب الرقاق . باب الرياء والسمعة ج ١٤ ص ٣٢٤ .

(٤٠٨)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

طريق الفوز في الآخرة

اختار الله تعالى محمدا ﷺ وأرسله للناس ليبلغهم طريق الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة ، وقد تحدد هذا المنهج في دعامتين أساسيتين :

أولاهما : أن يؤمن بالله تعالى إيمانا كاملا يشمل كل ما جاء به رسول الله ﷺ من إيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقضاء والقدر ، وبذلك يطهر باطنه ، وبصير مصدر انبعاث الخير ، والاستقامة .

ثانيهما : أن يكون عمله كله صالحا يقصد به وجه الله وحده ، خاليا من الرياء والسمعة ، ويشمل العمل الصالح كل حياة الإنسان ، لأنه يشمل عمل القلب واللسان ، والجوارح ، وبهاتين الدعامتين يتحقق للإنسان الفوز والفلاح .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الكهف" بتوفيق الله تعالى .

التعريف بسورة "مريم"

$$(\xi_1, \cdot)$$

التعريف بسورة "مريم"

يحتاج التعريف بسورة "مريم" إلى بيان القضايا التالية :

- أولا -

تنزيلات السورة

سورة "مريم" سورة مكية ما عدا قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾^(١) فقد ذكر مقاتل إن هذه الآية مدنية .

وذكر السيوطي أن قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ ۖ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾^(٢) مدنية ... إلا أن ارتباط هاتين الآيتين بما قبلهما ، وبما بعدهما يبين أنهما مكيتان ، وعلى هذا نذهب إلى نزول هاتين الآيتين مرتين مرة بمكة ، ومرة ثانية بالمدينة .

وللسورة اسمان أولهما مسمى "مريم" فقد ثبت عن أبي مريم الغساني عن أبيه عن جده قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ولدت لي الليلة جارية ... فقال له ﷺ : ونزلت علي الليلة سورة "مريم" فسمها بها^(٣) ... فسميت ابنتي مريم ، وكنيت بها .

(١) سورة مريم ، الآية ٥٨ .

(٢) سورة مريم ، الآية ٢١ .

(٣) التحرير والتتوير ج ١٦ ص ٥٧ .

(٤١٢)

كما تسمى سورة "كهيعص" عند ابن عباس ، وقد ورد هذا الاسم في صحيح البخارى^(١) .

وقد نزلت السورة بعد سورة "فاطر" ، ووضعت في المصحف بين سورتي الكهف وطه .

وعدد آيات السورة ثمان وتسعون آية عند العراقيين والشاميين ، وتسع وتسعون عند المكيين ، وعند المدنيين قولان ، قول مع المكيين وقول آخر مع غيرهم^(٢) .

وقد كررت السورة صفة الرحمان ست عشرة مرة ، وذكرت الرحمة أربع مرات لبيان تحقق رحمة الله تعالى في خلقه جميعا ، ورد ما زعمه المشركون بعدم وجود الرحمة حين تساءلوا وما الرحمن ؟ وذلك في قوله تعالى: ﴿أَسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾^(٣) .

- ثانيا -

صلة السورة بما قبلها

تتصل سورة "مريم" بسورة "الكهف" بأوجه متعددة ... أهمها :

الوجه الأول :

اشتملت السورتان على موضوع خارق للعادة له أهميته في إثبات الحق وتأييد المؤمنين ، وهذا الموضوع في سورة "الكهف" قصة أصحاب الكهف الذين قال الله عنهم : ﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا

(١) صحيح البخارى . كتاب التفسير . باب تفسير سورة "مريم" ج ٦ ص ٩٣ .

(٢) تفسير الألوسى ج ٨ ص ٣٧٧ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية ٦٠ .

عَجَبًا ﴿١﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿٢﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿٣﴾^(١)

، وفى سورة "مريم" كانت ولادة مريم للمسيح عيسى بن مريم عليهم السلام بلا أب يقول الله تعالى : ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ ﴿٢﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ^ط وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٣﴾^(٢) .

الوجه الثانى :

اشتملت السورتان على عديد من القصص فقد اشتملت سورة "الكهف" على قصص أصحاب الكهف ، وقصة أصحاب الجنتين ، وقصة الخضر وموسى عليهما السلام ، وقصة ذى القرنين .

وجاءت قصة مريم مشتملة على قصص زكريا ، ومريم ، وعيسى ، وإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وإسماعيل ، وإدريس عليهم السلام .

الوجه الثالث :

تضمنت سورة "الكهف" بيان ما أعد الله للمؤمنين فى جنات عدن حيث الفردوس الأعلى فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾^(٣) ، وبينت سورة "مريم" أن الله أعد للمؤمنين هذه الجنة فقال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ

(١) سورة الكهف ، الآيات ٩ ، ١١ .

(٢) سورة مريم ، الآية ٢٠ ، ٢١ .

(٣) سورة الكهف ، الآية ١٠٧ ، ١٠٨ .

وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ﴿٦٢﴾ ﴿١﴾ .

الوجه الرابع :

تبين سورة "الكهف" مصير الكافرين فى صورة مقبلة يوم القيامة فقال تعالى : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزْلًا ﴿١٠٢﴾ ﴿٢﴾ ،
ونأتى سورة "مريم" وتعرض صور الكافرين ، وتبين حالهم فى الآخرة حيث الحسرة والندامة . يقول الله تعالى :

- ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٣﴾ .

- ﴿ فَوَرَّيْكَ لِنَحْشُرْنَهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لِنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَا ﴾ ﴿٤٠﴾
ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبًا أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًا ﴿٤١﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ
أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلَاً ﴿٤٢﴾ ﴿٤﴾ .

(١) سورة مريم ، الآيات ٦٠ . ٦٢ .

(٢) سورة الكهف ، الآيات ١٠٠ . ١٠٢ .

(٣) سورة مريم ، الآية ٣٩ .

(٤) سورة مريم ، الآية ٦٨ . ٧٠ .

(٤١٥)

- ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ (١) .

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٧٥﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذًّا ﴿٧٦﴾﴾ (٢) .

- ثالثا -

موضوعات السورة

سورة "مريم" سورة مكية ، ولذلك فموضوعها هو موضوع السورة المكية فهي توضحها وتدور حولها من خلال القصص الذي استغرق أكثر من ثلثي السورة ... وأهم موضوعات السورة هي :

الموضوع الأول : تهتم السورة بإثبات وحدانية الله تعالى ، وإثبات قدرته في الإنشاء والاماتة ، وتدلل على ذلك بأعاجيب خلقه لزكريا وعيسى عليهما السلام ليعلم الناس أن الله على كل شيء قدير ، وأن الشركاء لا يقدرُونَ على خلق شيء من مثل خلقه سبحانه وتعالى .

الموضوع الثاني : تهتم السورة بإثبات رسل الله الذين اختارهم الله للناس وتبين قصصهم ، وكيف اصطفاهم الله تعالى ، وأنزل عليهم وحيه ، وكتبه .

الموضوع الثالث : بيان أن كلام الله حق ، وأنه منزل الكتاب كما أنزل الكتب على سائر الرسل .

(١) سورة مريم ، الآية ٧٥ .

(٢) سورة مريم ، الآية ٨٣ ، ٨٤ .

(٤١٦)

الموضوع الرابع : تتحدث السورة عن البعث ومشاهد القيامة ، وترد على من أنكر ذلك .

الموضوع الخامس : تبين السورة نزول الملائكة ودورهم بين الناس كما يأمرهم الله تعالى .

الموضوع السادس : توضح السورة مكارم الأخلاق ، وتبين أن الرسل الله جميعا قدموا النماذج العالية للأخلاق الطيبة .
وتتضمن السورة على موضوعات فرعية عديدة سنبينها خلال التفسير .

سورة "مريم"

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤١٩)

تنوع الحروف المقطعة

يقول الله تعالى :

﴿ كَهَيْعَتِ ٱلْعَصَى ۝ ﴾ .

- ١ -

تنوع الحروف المقطعة

تتنوع الحروف المقطعة الواردة في أوائل السور على أنواع عدة من ناحية عدد حروفها في كل سورة .

فهناك سور صدرت بحرف واحد ، وهى سور ﴿ ص ﴾ سورة "ص" ، ﴿ ق ﴾ سورة "ق" ، ﴿ ر ﴾ سورة "القلم" .

وهناك سور صدرت بحرفين مثل سور : ﴿ طه ﴾ سورة "طه" ، ﴿ طس ﴾ سورة "النمل" ، ﴿ يس ﴾ سورة "يس" ، ﴿ حم ﴾ في سور "غافر" ، "فصلت" ، "الزخرف" ، "الدخان" ، "الجاثية" ، "الأحقاف" .

وهناك سور صدرت بثلاثة أحرف مثل : ﴿ آل ﴾ في سور "البقرة" "آل عمران" ، "العنكبوت" ، "الروم" ، "لقمان" ، "السجدة" .

و ﴿ آل ﴾ في سور "يونس" ، "هود" ، "يوسف" ، "إبراهيم" ، "الحجر" .

و ﴿ طسم ﴾ في سورة "الشعراء" ، "القصص" .

وهناك سور بدأت بأربعة أحرف وهى : ﴿ ألم ﴾ سورة "الأعراف"

﴿ ألم ﴾ سورة "الرعد" .

(٤٢٠)

وهناك سور بدأت بخمسة أحرف وهى : ﴿ كَهَيْعَصَ ﴾ سورة "مريم"
﴿ حَمْرٍ ﴾ عَسَق ﴿ سورة "الشورى" . وسورة "مريم" إحدى السور التى بدأت
بخمسة أحرف . هذا التنوع يعلم الله تعالى سره وحكمته .

- ٢ -

المراد بالحروف المقطعة

يراد بالحروف المقطعة الحروف الموجودة في أول بعض السورة، وسميت
بالمقطعة لأنها تنطق حرفا حرفا ، وهى تفيد معان عدة سبق ذكر أغلبها في
أول سورة "البقرة" .

- ٣ -

دلالة الحروف المقطعة

على تلقى القرآن الكريم

نزل القرآن الكريم بلفظه ومعناه ، وقد تلقاه النبى ﷺ بلفظه ، وهيئته عن
جبريل عليه السلام كما تلقاه جبريل من الله مباشرة .

ومما يدل على هذا التلقى التلفظ بهذه الحروف مقطعة بعد تلقىها من شيخ
تلقاها عن غيره ، ولولا هذا التلقى لاختلف الناس فى التلفظ بها عما هى الآن .

- ٤ -

ركائز الدعوة

فى الحروف المقطعة

تتضمن الحروف المقطعة ركائز عديدة للدعوة والدعاة سبق بيان بعضها
وهنا أبين الركيزة التالية :

قيام الدعوة إلى الله

على القضايا المدركة الثابتة

يعمل أعداء الإسلام على جر الدعاة إلى القضايا الفرعية ، واشغالهم بما فوق
إدراك العقل ... وبذلك يضيع الحق وسط الجدل والمراء ... والواجب أن يترك
الدعاة القضايا الغامضة، ويركزوا على ما سهل إدراكه، وأفاد العلم حقيقته ...

جاء المشركون إلى رسول الله يسألونه عن الأهله يريدون الخوض فى أصلها ، وتكونها ، ومآلها ليدور حوار لا فائدة فيه فأمر الله رسوله أن يبين لهم منافعها ، وقال سبحانه : ﴿ قُلْ هِيَ مَوْقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ ﴾^(١) ... وقد أفادت الحروف المقطعة هذه الركيزة ، وبيّنت للدعاة أن هذه الحروف استأثر الله بالعلم بها فاتركوها لعلم الله ، وعندكم القرآن الكريم كله فعيشوا معه واستفيدوا منه .

إن الذين لا يؤمنون بالله تعالى ، والذين يجهلون مستلزمات الإيمان يستخدمون عقولهم فى وضع الناس أمام متاهات فكرية معقدة ، تشدهم إليها ، وتستغرق الجهد العقلى كله ، ولا تلامس وجدان الإنسان وروحه ، ولذلك تبقى أعمالهم فى دائرة حوارات العقل ، ومحاولات فهم القضايا المثارة .

إن الفلاسفة والمتكلمين أكثرنا من الحوار والجدل ، وقدموا أدلة جامدة بعيدة عن التأثير ... ولذلك لم يتركوا فى المجال العلمى إلا مؤلفات ضخمة حول الجدل الذى لا يحقق للروح إيماناً ورضى .

ولذلك نقول للدعاة انظروا فى القرآن الكريم واستلهموا منهجيته فى الاستدلال ، وخاطبوا الروح والوجدان كما تخاطبون العقل والفهم ... ولكم فى كون الله الفسيح آيات وبراهين تؤكد بإعجازها الشامل قضايا الإيمان الصحيح .

إن القرآن الكريم يعرض أسرار الخلق ، ومدى ارتباطه بمصلحة الإنسان ، وتقديم هذه المصلحة فى إطار حسن جميل .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ !؟

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ !؟

والله الهادى إلى سواء السبيل .

قصة رحمة الله بـ زكريا عليه السلام

يقول الله تعالى :

﴿ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۚ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّاءٍ خَفِيًّا ۚ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۚ ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۚ ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِي يَعْقُوبَ ۚ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۚ ۝ يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۚ ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۚ ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ ۖ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۚ ۝ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۚ ۝ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۚ ۝ ﴾

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات قصة زكريا ويحيى عليهما السلام في عدة مشاهد متتابعة تدل على رحمة الله التي جعلها لزكريا وزوجته وولده ، ولذا قال الله قبلها :

﴿ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ أى اذكر يا محمد رحمة الله بعبده زكريا لتكون بيانا لقدرة الله ، وتسلياً لك ، وهداية لأمتك ، ومشاهد القصة هي :

(٤٢٣)

المشهد الأول

دعاء "زكريا" ﷺ

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ أى رحم الله زكريا ﷺ حين دعا ربه ولجأ إليه ، وطلب منه فى ستر وخفية بعيدا عن الرياء ، ومناجاة فى جوف الليل ، وحتى لا يلومه أحد لطلبه الولد فى زمن شيخوخته ، وأثناء عقم زوجته .
﴿ قَالَ ﴾ أى قال زكريا ﷺ فى دعائه .

﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أى بلغ الكبر منى مداه ، وصرت شيخا هرما فضعف العظم ، واشتعل شيب الرأس ، وتلك كنايات تدل على الكبر والشيخوخة .

﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أى لم أكن شقيا بإيمانى ، وقد عودتني ياربى أن تستجيب دعائى ، ولا تخيب لى طلبا .

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾ الموالى هم العصبة والأقارب ، وقد خاف زكريا ﷺ من أقاربه أن يرثوا منه النبوة والعمل والحبورة ، ويضيعوا ما ورثوا ، وكان خوفه بسبب عهده ببني إسرائيل أنهم يقتلون الأنبياء ويضيعون الدين ، فطلب من ربه أن يرزقه ولدا صالحا يأمنه على الأمة ، ويرث العلم والدين والحبورة عنه .

﴿ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ أى إنى ادعو بذلك مع أن امرأتى عاقر لا تلد ... وبذلك فلدينا الأسباب العادية التى تؤدى إلى عدم الولد ، إلا أن أملنى فى قدرتك ، وفضلتك ، ورحمتك جعلنى ادعوك ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾

(٤٢٤)

أى أعطنى بقدرتك ولدا يتولى الأمر من بعدى ، ويرثنى فى النبوة والعلم والحبوة .

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ أى ارزقنى ولدا رشيدا يرثنى ويرث آل يعقوب فى النبوة والعلم ... ولا يصح تفسير الإرث بميراث المال لقوله ﷺ : "نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة" (١) .

﴿ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ أى اجعله يارب ولدا بارا تقيا مرضيا عنه منك ومن عبادك الصالحين .

وخلاصة المشهد :

أن زكريا ﷺ وقد امتد به العمر ، ولم تلد زوجته ولدا لأنها عاقر طلب من الله تعالى أن يرزقه ولدا ، يرث العلم والدين خوفا من أن يرثه أقرباؤه فى ذلك فيفسدون الدين والعلم ، كما هو شأن بنى إسرائيل ...
إن زكريا ﷺ يطلب من ربه أمرا خارقا للعادة ، يتمثل فى ولد مع أن الأسباب العادية تمنع هذا الطلب .

المشهد الثانى

استجابة الله لزكريا ﷺ

استجاب الله تعالى دعاء زكريا ﷺ ، وناداه باسمه ليعرفه بهذه الاستجابة وقال له : ﴿ يٰزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ ﴾ أى نادى الله عبده زكريا ليعرفه أنه قريب منه يسمع نجواه ، ويستجيب لدعائه . ويقول له : بقدرتنا وعظمتنا نستجيب لك ، ونبشرك بغلام اسمه يحيى ... وبذلك فرح زكريا بولده الذى سماه الله "يحيى" .

(١) السنن الكبرى للنسائى . كتاب الفرائض . باب ذكر مواريث الأنبياء ج ٦ ص ٩٨ .

(٤٢٥)

ومن دلالات هذه التسمية أنه سيعيش حتى يكبر ، وأنه سيكون قويا ، عاملا فى نشاط يتمناه له أبوه ، وأن يكون متخلقا بصفات تصلح الحياة ، وفى ذلك تحديد لنشاط زكريا عليه السلام ، وبعث للحياة فى رحم أمه .

﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أى لم يسم بهذا الاسم أحد قبل ذلك ولم يسبقه من يشبهه فى اسمه وصفاته الحسنة التى يحتاجها مجتمع بنى إسرائيل .
وخلاصة المشهد :

أن الله استجاب لـ "زكريا" عليه السلام ، ورزقه الولد ، وسماه له ، ورزقه الطاعة والإيمان . وهذه معجزة جعلها الله لزكريا عليه السلام .

المشهد الثالث

طلب زكريا آية يعرف بها وقت الولادة

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ ﴾ ؟ ... السؤال للتعجب والتنبية على ما فى البشرى من عجائب ، أى قال زكريا متعجبا من البشارة ... كيف يكون لى ولد والواقع لا يسلم بذلك ؟
﴿ وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ أى امرأتى عاقر لا تلد ، وقد كبر سنى ، وأصابتنى الشيخوخة . فما السبيل إلى الولد ؟
وخلاصة المشهد :

أن زكريا عليه السلام فرح بالبشرى ، وآمن بوقوعها لكنه تعجب من ذلك ، ولذلك طلب معرفة زمن هذه البشرى ، وزمن حمل زوجته بهذا الولد .

(٤٢٦)

المشهد الرابع

تأكيد الله "زكريا" ﷺ

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾ أى قال جبريل لزكريا هكذا قال الله تعالى فهو ربك المعنى بك ، الذى استجاب لك ، فلا تتعجب لأن ربك قوى قادر .

﴿ هُوَ عَلَى هَيْئٍ ﴾ أى إيجاد يحيى أمر سهل يسير على الله تعالى ، لأن الله إذا أراد شيئا قال له كن فيكون .

﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ أى خلق يحيى أمر يسير على الله فقد خلق كل شئ ، وقد خلقك يا زكريا ، وأوجدك من عدم ، وكما خلقك يخلق غيرك .

وخلاصة المشهد :

أن الله عرف زكريا ﷺ ببسر إيجاد يحيى فالله خالق كل شئ .

المشهد الخامس

بيان الآيات الدالة على الحمل

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً ﴾ أى قال زكريا لله اجعل لى آية أعرف بها حمل زوجتى بولدها .

﴿ قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ أى قال الله لزكريا علامة حمل زوجتك بولدها أن يمسهك الله لسانك عن الكلام ثلاثة أيام بلياليها ، والعرب يسمي اليوم كله بالليلة .

وقد جاء ذكر المدة فى سورة "آل عمران" ﴿ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ . ومعنى

﴿ سَوِيًّا ﴾ أى سليما صحيحا فعدم كلامك ليس عن مرض أو سقم .

(٤٢٧)

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾ أى لما حملت امرأته بولدها
أمسك الله لسان زكريا عليه السلام وكان فى المحراب فخرج على قومه ينصحهم ،
ويرشدهم بالإشارة .

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أى فأشار إليهم أن عظموا الله
واشكروه على نعمه ، ولم يتكلم ، فعلموا أن امرأته حملت بولدها ، فأطاعوا زكريا
، واستمروا فى التسبيح وشكر الله تعالى ، وقيل أن المعنى : إن زكريا كان
يخرج إلى قومه يدعوهم فى هذه الأوقات .

و ﴿ بُكْرَةً ﴾ معناها يعنى أول النهار ، والعشى يعنى أول الليل ، وهذا
يفيد أنه أوحى إلى قومه أن يسبحوا ربهم اليوم كله .

وخلاصة المشهد :

أن الله حدد لزكريا عليه السلام موعد حمل زوجته وذلك حين خرج لقومه ،
وكلمهم بالإشارة .

- ٣ -

معنى الآيات

تبين الآيات جانبا هاما من قصة زكريا عليه السلام حين دعا ربه ليرزقه غلاما
رغم كبره ، ورغم عقم زوجته ، وقد أجاب الله دعاءه ورزقه يحيى عليه السلام وعرفه
بعلامة تظهر عليه وهى إمساك لسانه ثلاثة أيام كان يعظ الناس خلالها
بالإشارة .

(٤٢٨)

- ٤ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن آيات قصة زكريا عليه السلام ركيزة هامة ... هي :

قدرة الله غالبة

الله خالق الخلق ، ومالك الملك وهو على كل شئ قدير ، وقد يسر الله للإنسان أن يتصل به ، ذاكرا فضله ، مؤمنا به ، مطيعا له ، متوكلا عليه ، داعيا ومستجيبرا .

ويجب على الإنسان أن يقر بما لله من جلال ، وعظمة ، وصفات ، فهو واحد أحد ، حي ، سميع بصير ، وصفاته كلها أزلية قديمة قائمة بذاته جل وعلا ، بيده الأمر كله ، وهو الحكيم الخبير ، وله كل كمال يليق به .

إن هذا الإيمان عقيدة راسخة تنطلق منه الأعمال والأقوال ، وتضع الإنسان في صورة كلية أمام الخالق العظيم .

وقد قدم الرسل عليهم السلام في هذا المقام الأمثلة العالية ، فدعوا الله بأمور تمنوها على غير عادة الناس ليقينهم أن الله على كل شئ قدير ، وأن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

ولم يكن معقولا في عرف الناس دعاء زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ولدا بعد أن امتد عمره إلى الشيخوخة ، وعقمت امرأته ، ... ومع ذلك لم تمنعه هذه العوامل من التوجه إلى ربه ليخرق له عادة الناس بفعل إلهي قدرى ، فاستجاب الله له فبشره الله بغلام ، هو يحيى عليه السلام .

إن المؤمنين الصادقين هم عباد الله حقا ، وهم أقرب الناس إلى ربهم ، وهم المحافظون على ما لله من حقوق ... ولهم أن يطلبوا من ربهم ما يشاءون .

لقد كان عون الله للمؤمنين دائما في مواقف عديدة ، نصرهم ، ووقفهم ، ورزقهم من حيث لا يحتسبون ، وأكرمهم ، واستجاب دعاءهم .

إن الله مطلع على عباده جميعا ، ويعلم الصالح من الطالح ، ويرى الظالم المعتدى والعاقل المستقيم ، وهو سبحانه بر رحيم ، عدل كريم ﴿يُحِبُّ الْمُسْتَظِرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا ۚ﴾ (١) . يحتاج المؤمن في كل شئونه إلى معونة الله ، ولذا وجب عليه أن يؤدي حق العبودية ، عبادة ، وطاعة ، واستقامة ، لياثية نصر الله وتمكينه . وليأخذ من الماضي درسا وعبرة ... يقول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢) ، ويقول سبحانه : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ ۚ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣) .

إن استعانة المؤمنين بالله ارتباط بالقدرة الشاملة ، واستقامة على الصراط المستقيم .

لقد نجى الله نوحا عليه السلام من سفاهة قومه ، ونجى إبراهيم عليه السلام من النار الموقدة ، ونجى يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت ، ونجى محمدا عليه السلام في مواقف عديدة .

وليس ببعيد على الله أن ينصر عباده المخلصين ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٤) .

(١) سورة النمل ، الآية ٦٢ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٢٣ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية ٢٦ .

(٤) سورة غافر ، الآية ١٤ .

(٤٣٠)

قصة "يحيى" ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ يٰيَحْيٰى خُذِ الْكِتٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَّءَاتَيْنٰهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۗ وَحَنَّاكَ مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۗ وَرَبًّا بِوَلَدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۗ وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۗ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قصة زكريا ﷺ جاءت هذه الآيات بذكر طرف من قصة يحيى ﷺ لصلتها بقصة زكريا ﷺ .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات طرفا من قصة يحيى ﷺ .

- ٣ -

قصة يحيى ﷺ

من خلال دلالة الآيات

ولد يحيى ﷺ ، وشب رشيدا عاقلا ، وكملة الله بالعقل ، واختصه بمزايا طيبة ... وأهم هذه المزايا :

(١) أخذ الكتاب بقوة :

يقول الله تعالى : ﴿ يٰيَحْيٰى خُذِ الْكِتٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ فلقد ناداه الله باسمه فى صغره ، وكان ابن ثلاث سنوات ، وكلفه بأخذ الكتاب ، وخاطبه كما

(٤٣١)

يخاطب الرجال ، وأمره أن يأخذ التوراة بقوة ففيها شريعة الإسرائيليين ، ومعنى : ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ بحسم عملى ، وتطبيق دقيق بلا خوف من أحد .

(٢) تكليفه بالنبوة صغيرا :

﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أى كلفناه بالنبوة وهو ابن ثلاث سنوات فقد كمل عقله ، وبلغ مبلغ الرجال ، وصار قادرا على تبليغ الرسالة ، ولا غرابة فى نبوة "يحيى" فأمر النبوة كله قائم على خوارق العادات ، والله يفعل ما يريد .

(٣) الشفقة بالناس :

يقول الله تعالى : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ أى رزقنا يحيى عليه السلام الرفق والحنان والشفقة ، وصارت هذه الشفقة جبلة فيه منذ صغره لأنها من الله تعالى .
(٤) طهارة العمل والسلوك :

طهر الله يحيى عليه السلام فلم يرتكب خطيئة قط ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَزَكَاةً ﴾ حيث امتلأت نفسه بالطهارة فنشرها للناس ، وعلمها لغيره .
(٥) التقوى :

يقول الله تعالى : ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ أى وكانت نفسه مليئة بحب الله وخشيته ، وكانت أعماله متطابقة مع تقواه .
(٦) بر الوالدين :

كان يحيى عليه السلام بارا بوالديه يقول الله تعالى : ﴿ وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ ﴾ أى وكان يحيى عليه السلام بارا بوالديه قولاً ، وعملاً ، وحالاً .
(٧) تمسكه بالعدل :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا ﴾ أى لم يكن طاغية ، أو ظالماً ، فلقد اتصف بالعدل والحلم ، لم يعتد على حق غيره ، ولم يعص الله فى شئون الناس .

(٨) الطاعة الدائمة :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ أى أنه لم يعص الله تعالى .
 وقد عاش يحيى عليه السلام فى كنف رحمة الله تعالى الشاملة لحياته ، وموته
 فصرف الله الشيطان عنه ، وكتب له الأمان والسلام فى مواقف الفزع والخوف .
 ﴿ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ أى ورزقه الله
 أمانا دائما يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث فنجاه من وساوس الشيطان
 ونجاه يوم يموت من عذاب القبر ، ويوم يبعث حيا من عذاب يوم القيامة .
 وقيل : أوحش ما يكون الخلق فى ثلاثة مواطن ، يوم يولد لأنه يرى
 نفسه خارجا من مكان قد كان فيه ، ويوم يموت لأنه يرى قوما ما شاهدتهم قط
 ويوم يبعث لأنه يرى مشهدا عظيما ، فأكرم الله تعالى يحيى عليه السلام فى هذه
 المواطن كلها وخصه بالسلامة فيها .

- ٤ -

معنى الآيات

تورد الآيات طرفا من قصة يحيى عليه السلام ، وتبين أهم الخصائص التى
 تمتع بها فى دينه ، وخلقه ، وسلوكه .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن آيات قصة يحيى عليه السلام عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ضرورة التطبيق الكامل للإسلام

استجاب الله دعاء زكريا عليه السلام ، ورزقه ولدا نجيبا ، وخصه باسم لم يسم

(٤٣٣)

به أحد قبله ، وأمره بما يجب عليه فقال تعالى : ﴿ يَبْحَثُ خُذِ
الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ ومعنى ذلك أن يقوم على تورا موسى ﷺ ، ويأخذه بقوة
فيحافظ عليه ، ويطبق تعاليمه ، ويرشد الناس إليه .

إن القوة المطلوبة قوة معنوية تشير إلى الاقتناع التام بالأمر ، والرضى
بدلالاته ، والإخلاص فى القيام به ، وهذا يعنى الظهور الواضح لدين الله فى
العمل والسلوك المطابق للفكر ، والاعتقاد .

إن هذه الصفة التى اتصف بها يحيى ﷺ مجال حيوى أمام المسلم لابد
له منه ، لأن الإسلام دين يقوم على قوة العقيدة فى النفس ، وقوة الشريعة فى
الفهم والتطبيق ، وقوة الأخلاق فى التزام مكارم السلوك .

إن الإسلام لا يرضى بالضعف فى أى جانب من جوانبه ، لأنه يؤسس
بنيانه على قلب قوى متين ، وعلى عمل راق مستقيم ، وعلى خلق كريم قويم
وهذا كله يؤكد أنه لا ضعف فى الإسلام ... وكان النبى ﷺ يحث الناس على
إظهار قوة دينهم ، وصلابة عملهم أمام الفساد والمفسدين .

لقد حمل المسلمون الأول أمانة الإسلام بعزيمة صلبة ، ورغبة عالية فى
الفهم والتطبيق ، فقدموا الإسلام جليا واضحا .

لم يتأثر المسلمون بما عند غيرهم ، ونشروا دينهم فى العالم كله ، وكانوا
يوقنون بأنهم مكلفون بدعوة الناس إلى الرفعة والعلا .
يقول الله تعالى :

- ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(١) .

(٢) سورة المنافقون ، الآية ٨ .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٣٩ .

(٤٣٤)

- ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) .

يجب أن تسود قوة الإيمان فى القلوب ، والعمل ، والسلوك ، وفى كل مظاهر الحياة ، والله يهذى إلى سواء السبيل .

الركيزة الثانية

دور الأخلاق فى شخصية الدعاة

الدعاة إلى الله تعالى أناس اختصهم الله تعالى بتبليغ دينه إلى الناس ، ولذا حسن تمتعهم بصفات أخلاقية كريمة .

وقد بينت الآيات أن زكريا عليه السلام اتصف بالأخلاق الكريمة فقد رزقه الله عديدا من الصفات المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝٣٦ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝٣٧ ﴾ .

وتعد هذه الصفات ركائز أساسية فى خلق المسلم بصورة عامة ، وفى خلق الدعاة بصورة خاصة .

ويمكن تقسيم هذه الجوانب الخلقية إلى ثلاث جوانب هى :

الجانب الأول : الكمال الذاتى :

على الدعاة أن يكملوا ذاتهم بالخلق ، ويتم له ذلك بأن يتعودوا على الشفقة والرأفة والحلم ، وأن يملأوا قلوبهم بتقوى الله وخشيته ، وحبه ، والخوف منه ، وأن ينموا أرواحهم بالحب والخير ... وبذلك يكونون أناسا صالحين نافعين ، لأن كل إناء ينضح بما فيه ، والعود المستقيم يعطى ظلا مستقيما .

الجانب الثانى : المعاملة الحسنة :

يحتاج الدعاة إلى التواصل مع الناس ، وذلك لا يتم إلا بالخلق الكريم النابع من

قلب كريم ، لأن الإنسان يحب من أحبه ، ويسمع لمن خاطب إنسانيته ... وقد أرسل الله الرسل جميعا بالخلق الكريم ليبلغوا دعوة الله تعالى ... وليس بمستحسن أن يقوم بالدعوة إنسان فقد الخلق الكريم .

إن الكاذب لا يصدق الناس ، وسئ الخلق لا يسمع منه أحد ، ولذلك كان رسول الله ﷺ كما قال الله عنه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾^(١) ... والدعاة إلى الله تعالى مسئولون عن هذا الجانب الحيوى الهام ... ومن المعاملة الحسنة أن يبدأ الإنسان بنفسه فيبر أبويه ، ويصل رحمه ، ويحافظ على قرابته ، وقد اتصف يحيى عليه السلام بهذا الخلق الكريم ، وصار ركيزة للدعاة .

الجانب الثالث : تجنب الخلق الذميم :

الدعاة إلى الله تعالى ينشرون الخير ، ويؤلفون الناس على دين الله تعالى وذلك يحتاج منهم إلى تجنب الخلق الذميم ، ويهجرون التجبر والعصيان ، وبذلك لا يظلمون الناس ، ولا يتكبرون عليهم ، ويستمترون فى طاعة الله تعالى فيعلمهم الله تعالى الصواب .

وبهذا ينجح الدعاة فى تبليغ الناس الإسلام ، ونشره فى العالمين .

الركيزة الثالثة

الثقة المطلقة فى عطاء الله

لو وقف الإنسان بعقله أمام ما حدث ليحيى عليه السلام لرأى عظم عطاء الله له ، فقد أتاه الحكم والنبوة فى صغره ، ورزقه الصفات التى مكنته من دعوة

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٨ .

(٤٣٦)

الناس ، وقضى له بالأمن التام ، وأبعد الشيطان عنه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا .

وحين ينظر المرء في عطاء الله لذكريا عليه السلام فقد استجاب الله له ، ورزقه بالولد بعدما كبر سنه من زوجته العاقر يرى عظم عطاء الله تعالى .

وحين يبحث العقل عن سبب ذلك فسوف يراه في رضى الله عنه ، فقد أعطى الله لذكريا ويحيى عليهما السلام مقومات ما قاما به .

والدعاة إلى الله تعالى وهم يقومون بالدعوة إلى الله يتخذون أسوتهم من رسل الله تعالى . يقول الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنُهُمْ أَفْتَدِرْهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) .

على الدعاة أن يصدقوا مع الله ، ويعلموا أن الله وضعهم في موضع النبوة واختار لهم أكرم الأعمال ، وعليهم أن يأخذوا الدعوة بحقها ، ويؤدوا لها حقها . إن الدعوة إلى الله تعالى أمانه ، ورسالة ، وتكليف ، وهى تحتاج دائما إلى من يقوم بهذا الفهم الصحيح .

(١) سورة الأنعام ، الآية ٩٠ .

(٤٣٧)

قصة "مريم" عليها السلام

تورد السورة قصة "مريم" وولادتها لعيسى عليه السلام فى خمس وأربعين آية وانى هنا أفسرها فى مقاطع رئيسية كل مقطع يتضمن جزءا من القصة ... وهى :

المقطع الأول

إخبار "مريم" بولادة

ابن من غير أب

يقول الله تعالى :

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١١﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٢﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٤﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿١٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ ﴿١٦﴾ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿١٧﴾﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قصة زكريا ويحيى عليهما السلام جاءت هذه الآيات بالمقطع الأول من قصة مريم وعيسى عليهما السلام فهما من بنى إسرائيل ، ومن آل عمران الذين اصطفاهم الله على العالمين .

- ٢ -

موضوع الآيات

(٤٣٨)

تبين الآيات إخبار مريم بولادة ابن بلا أب ، وتعجبها من ذلك ، واستسلامها لقدر الله تعالى .

- ٣ -

معنى المقطع الأول من دلالة الآيات

﴿وَأَذْكُرِي آلِكَتَبِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أى اذكر

يا محمد فى القرآن الكريم قصة مريم عليها السلام حين اعتزلت جماعة من قومها ، وتحت عن مجالسهم ، واتخذت لنفسها مكانا جهة الشرق وجلست فيه .

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أى أن مريم عليها السلام أقامت سترا

بحجبها عن الناس ، ويبعدهم عنها .

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أى أرسلنا إليها

جبريل عليه السلام فى صورة إنسان سوى الخلق لتأنس رؤيته وكلامه ولا تنفر منه .

فلما رأت مريم جبريل يأتى نحوها بادرت من بعيد ليبعد عنها خائفة منه و

﴿قَالَتْ﴾ له حين قرب منها ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أى

إنى أعوذ بالله تعالى منك إن كنت مؤمنا مطيعا لا تأتى عندى ... وهذا يدل على قمة طهارتها لأن استعاذتها من المؤمن النقي أن يأتى عندها يبين أن استعاذتها من الكافر أشد .

﴿قَالَ﴾ لها جبريل عليه السلام ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا

زَكِيًّا﴾ أى أنا ملك أرسلنى الله إليك لأهب لك منه سبحانه وتعالى ولدا ،

صالحا ، ناميا فى نفسه ، وجسمه ، وروحه . وهذه المسألة هى سر مجيئى إليك بأمر الله تعالى .

﴿ قَالَتْ ﴾ مريم عليها السلام ﴿ أَأَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ ؟ ... الاستفهام للعجب أى كيف يكون لى غلام بلا سبب يعرفه الناس فلست زوجة لرجل ، ولست بغيا زانيا ... وماذا يقول الناس عنى ؟

﴿ قَالَ ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾ أى وبمثل ما قلته لك وأخبرتك به هو قول ربك الذى يتولى أمرك ، ويعينك ، ويؤيدك .

﴿ هُوَ عَلَى هَيْنٍ ﴾ أى حملك الولد بلا أب أمر سهل يسير على الله تعالى وقد قدر الله لولدك الخير فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أى وقد قدر الله ذلك ، وقضى به ليكون حجة بينة للناس ، دالة على قدرة الله تعالى الخارقة للعادة ، وقد قدر الله لهذا الغلام أن يكون رحمة بأمه وبنى إسرائيل .

وخلاصة هذا المقطع :

أن مريم عليها السلام اعتزلت قومها جهة الشرق ، واحتجبت عنهم وأقامت سترا بينهم وبينها فجاءها جبريل فى صورة رجل لتأنس إليه ، فلما اقترب منها استعازت بالله إن كان مؤمنا ، واستعازتها بالله أشد إن كان غير مؤمن .

فعرفها جبريل بما جاء له ، وأنه رسول الله إليها ليخبرها بأنها ستلد ولدا بلا زواج ، فلما تعجبت من ذلك أخبرها بأن إرادة الله نافذة ، وهو خالق وقد قدر سبحانه ذلك ليكون آية للناس ، ورحمة بعباده ، والله عليم خبير .

(٤٤٠)

المقطع الثانى ”مريم“ عليها السلام من الحمل إلى الولادة

يقول الله تعالى :

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿١٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا ﴿١٣﴾ فَنادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿١٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطْ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿١٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴿١٦﴾ فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة إخبار مريم عليها السلام بولادة ولد بلا أب جاءت هاتان الآيتان لبيان حملها بالولد وولادته ، وتوضيح حالتها النفسية أثناء الحمل والولادة .

- ٢ -

موضوع الآيات

الآيتان تتحدثان عن حمل مريم بعبسى عليهما السلام وولادتها له وحالتها النفسية أثناء لك .

- ٣ -

معنى المقطع الثانى
من خلال دلالة الآيات

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ أى تحقق مراد الله تعالى ،

(٤٤١)

وحملت مريم بولدها ، فخافت ملامة القوم ، فبعدت عنهم فى مكان بعيد ، وكان ابن خالتها "يوسف النجار" يلزمها فى خدمة المحراب .

قال وهب : إن مريم لما حملت بعبسى كان معها ابن عم لها يقال له "يوسف النجار" ، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي يمتة جبل صهيون ، وكانا يخدمان ذلك المسجد ، ولا يعلم من أهل زمانها أحد أشد عبادة واجتهادا منها وأول من علم بحمل مريم يوسف ، فبقي متحيرا في أمرها كلما أراد أن يتهمها ذكر عبادتها ، وصلاحها ، وأنها لم تغب عنه ، وإذا أراد أن يبرئها رأى ما ظهر منها من الحمل ، فأول ما تكلم به أن قال : إنه وقع في نفسي من أمرك شئ ، وقد حرصت على كتمانها فغلبنى ذلك ، فرأيت أن أتكلم به أشفي صدري ، فقالت : قل قولاً جميلاً .

قال : أخبريني يا مريم هل ينبت زرع بغير بذر ؟ وهل ينبت شجر بغير غيث ؟ ... وهل يكون ولد من غير ذكر ؟

قالت : نعم . ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ؟

ألم تر أن الله أنبت الشجرة بالقدر من غير غيث .

أو تقول إن الله تعالى لا يقدر على أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها .

قال يوسف : لا أقول هذا ، ولكني أقول : إن الله تعالى يقدر على كل شئ يقول له كن فيكون ، قالت له مريم : ألم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى . فعند ذلك زال ما عنده من التهمة ، وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل .

(٤٤٢)

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أى لما أتمت حملها ،
وأتاها وجع طلق الولادة جاءت إلى جذع نخلة تمسك بها من شدة الألم ، وكانت
وحيدة خائفة من ظن قومها فيها .

﴿ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ أى تمنى مريم أن تكون قد ماتت
قبل ذلك الوقت حتى لا يذكرها الناس بسوء ، ويتهمونها بالفحشاء .
﴿ وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّوْسِيًّا ﴾ أى ولم يكن لى ذكر ولا سيرة .

﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ أى
لما ولدت مريم وليدها سمعت صوتا يناديها من أسفل منها ، وهو صوت جبريل
عليه السلام وكان أسفل المكان الذى ولدت مريم فيه ، وقال : يا مريم لا تحزنى
فقد ولدت غلاما كاملا فى علقه وسلوكه . وقيل : هو صوت عيسى الوليد عليه السلام .
﴿ سَرِيًّا ﴾ أى إنسانا كاملا ، سويا ، رشيدا له مستقبل حسن ، فقد كان
والله سرىا من الرجال .

وبينت الآيات ذلك إشباعا لمحبة الامومة وعاطفتها عند مريم ، إذ أن
بشرت بأنه سيكون لولدها شأن كبير ، وذلك شأن أى الشأن ، يسرى عنها ،
ويذهب خوفها ، فلا يشغلها ما تنتظره من ملامة ، كما يكون من الغلام الأمثل
الذى هو الفرحه التى تذهب الترحه .

﴿ وَهَرِيءَ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴾ أى وهزى
جذع النخلة يسقط لك البلح الطرى ، السهل التناول ، الكثير الفوائد .

﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ أى لا تحزنى واهناى بولدك ، وكلى

واشربى هنيئا مريئا واطمئننى قلبا وروحا ، ولن يضيعك الله فهو الأمر بما كان منك ولك ، ودعى الأمر لله تعالى فهو على كل شئ قدير .

﴿ فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ أى إن

جاءك أحد من قومك يسألك عن الولد ، فلا تردى عليه ، ولا تكلميه ، وعرفيه بالإشارة أنها نذرت الصوم عن الكلام كعادة بنى إسرائيل فى عباداتهم .

﴿ فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ أى قولى لهم : لن أكلم اليوم بشرا ، وانما

قالت ذلك لتمتتع عن مجادلة السفهاء والمرائين ، وليسمعوا الكلام من الوليد فيعلموا مقام مريم ، وأن الله على كل شئ قدير .

وخلاصة هذا المقطع :

أنه لما حملت مريم عليها السلام بوليدها تألمت كثيرا ، مخافة الملام والفضيحة فابتعدت عن قومها ، وذهبت إلى مكان بعيد ، فلما جاءها آلام الوضع مسكت جذع نخلة من شدة الألم ، فلما ولدته تمننت أن تكون قد ماتت ، وأن لا يذكرها أحد ، فسمعت صوت جبريل يأتيها من أسفلها ينهاها عن الحزن ويقول لها : لقد رزقك ولدا بلغ الكمال فى كل جانب ، وأمرها أن تهز النخلة يأتيها الرطب الجنى ، فتأكل وتشرب ، وتطمئن ، وعلمها أن تصوم عن الكلام إن سألها أحدا عن ولدها .

(٤٤٤)

المقطع الثالث مواجهة "مريم" عليها السلام قومها بولدها

يقول الله تعالى :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۚ قَالُوا يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿١٧﴾
يَتَأَخَّتْ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿١٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ
قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي
الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٢٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٢١﴾ وَبِرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٢٢﴾ وَالسَّلَامُ
عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٢٣﴾ ۝ .

- ١ -

صلة المقطع الثالث بما قبله

لما بينت آيات المقطع الثاني حمل مريم عليها السلام بولدها ، وابتعادها
عن قومها حتى ولدته جاءت هذه الآيات لبيان ما حدث بين مريم وقومها حينما
رجعت إليهم ، ورأوا وليدها معها .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن مريم عليها السلام أتت لقومها تحمل ولدها فأنكروا ذلك
عليها ، وبينوا أنه لا يصح ذلك من امرأة من نسل هارون عليه السلام ، ومن أبوين
صالحين .

فأشارت مريم إلى رضيعها ليجيبهم ، أو ليسألوه فعدوا ذلك استهزاء بهم وسخرية منهم وقالوا : كيف نكلم طفلا ما زال فى حجر أمه ... فاعتدل عيسى عليه السلام وقال لهم : إني عبد الله ، سيعطينى الإنجيل ، ويجعلنى نبيا ، ، وقد بارك لى فى ذاتى ، وفيمن يتبعنى .

- ٣ -

معنى المقطع الثالث من خلال دلالة الآيات

﴿ فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهَا ﴾ أى أنها عقب ولادتها ، وعقب سماعها قول جبريل عليه السلام جاءت إلى قومها علانية تحمل ولدها بين يديها .

﴿ قَالُوا يَمْرَأَتُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أى لما رآها قومها مع وليدها عتبا عليها ، وقالوا لها : لقد جئت إلينا بأمر منكر شنيع .

﴿ يَتَأَخَّتْ هَرُونَ ﴾ أى نادوها باسم يستبعدون به ما فعلت ، فهى من ذرية هارون ، أخى موسى عليه السلام ولا يصح منها أن تفعل ما فعلت .

وقيل : إنها كانت أختا لرجل يسمى بـ "هارون" وكان رجلا صالحا من بنى إسرائيل ، رجوا أن تكون أخته مثله فى العفة والتقوى .

عن المغيرة بن شعبه قال : لما قدمت خراسان سألوني فقالوا : إنكم تقرؤون يا أخت هارون ، وموسى جاء قبل عيسى بكذا وكذا ، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال : "إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم" (١) .

﴿ مَا كَانَ أَبِيكَ أَمْرًا سَوًّا ﴾ أى لم يكن أبوك رجلا زانيا .

(١) صحيح مسلم . كتاب الأدب . باب النهى عن التكنى بأبى القاسم ج ٣ ص ١٦٨٥ .

﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ أى ولم تكن أمك زانية .

لم ترد عليهم ، ولم تجد جوابا ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أى أشارت إلى وليدها بأصبعها ، هذا هو فاسألوه ، أورد عليهم يا ولدى .

﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْعِدِ صَبِيًّا ﴾ ؟ ... الاستفهام للإنكار . أى قالوا أفسخريين منا ، وتستعزئين بنا حين تطلبين منا سؤال مولود مازال يرضع فى حجر أمه .

هنا اعتدل عيسى أمامهم ، وترك ثدى أمه ، و ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ أى إني عبد الله تعالى ، وكانت هذه هى أول كلمة قالها عيسى ﷺ منزها الله ربه من أن يكون له ولد ، محذرا من قول المشركين : إن الله له ولد ، لأن الولد شريك لأبيه ... فنزه الله عن الشريك .

ولم يتحدث عن أمه مريم عليها السلام إلا أن حديثه عن العبودية وإيمانه بالله يوضح نزاهة أمه مريم من الفحشاء التى اتهموها به ، لأن مقام ولدها يدل على صدقها ، وعبوديتها لله تعالى ، ويستحيل أن يظهر الله خارقة على يد إنسان كاذب ، وأن يختار نبيا جاء من زنى .

﴿ ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى سيؤتيني الإنجيل ويرسلنى إليكم رسولا على دين موسى ﷺ كما هو فى اللوح المحفوظ .
وقيل : إن الله علمه الإنجيل ، وجعله نبيا منذ صغره لكمال عقله ، وتمام
رشده .

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ أى وأودع الله فى النفع أينما وجدت وأمرنى بإرشاد بنى إسرائيل أينما توجهت ، وقدرة الفوز والفلاح لمن يتبعنى .

﴿ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ أى وأمرنى الله

بالصلاة والزكاة مدة حياتى فى الدنيا من يوم مولدى ، إلى يوم لقاء ربى ، لأن الله أوجده رشيدا عاقلا متصفا بكل صفات التكليف ، وليس ذلك على الله بعيد .

﴿ وَرَبِّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أى وجعلنى الله برا بأمى

مريم عليها السلام ، وقد دام معه هذا البر لأنه لم يكن متكبرا فظا ، وكان عبدا خاضعا لله ، مستسلما لقدرة ، مطيعا لكل ما أمر به ، بعيدا عن الكبر ، والمعصية ، والعدوان .

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ﴾ أى وقد أحاطنى بالسلامة والأمن يوم

ولدت فلم يقترب الشيطان منى .

﴿ وَيَوْمَ أُمُوتُ ﴾ أى ولن يقرب الشيطان منى يوم أموت .

﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ أى وسينجينى الله من نزغات الشيطان يوم البعث .

وملخص هذا المشهد :

أن مريم رضى الله عنها أتت قومها بولدها تحمله ، وهى واثقة من ظهور براءتها ، وحينما رآها قومها تحمل ولدها بادروها بالإنكار وقالوا لها : لقد جئت بأمر منكر شديد الغرابة لا يكون من مريم بنت عمران ، فأنت من نسل هارون ، فأشارت إلى ولدها ليسألوه ، وليجيبهم فتصوروا ذلك استهزاء بهم ، وأنكروا الحديث مع رضيع مازال فى حجر أمه ... هنالك اعتدل عيسى عليه السلام وقال : إنى عبد الله تعالى سيأتينى الإنجيل ، وسيبعثنى نبيا لكم ، وأودع فى البركة ينالها كل من يتبعنى ، وتحدث فى كل مكان أحل فيه ، وقدر لى السلامة والأمن عند مولدى ، وعند وفاتى ، ويوم البعث .

(٤٤٨)

- ٤ -

ركائز الدعوة فى قصة "مريم" عليها السلام

تتضمن قصة مريم عليها السلام فى سورة "مريم" عددا من الركائز ...
أهمها :

الركيزة الأولى اعتزال القوم المفسدين

دعا الإسلام إلى التعاون على البر والتقوى ، وعدم التعاون على الإثم والعدوان ، وهذا يعنى أن يجتمع الناس على الخير ، ولا يجتمعوا على البشر .
ومن هذا المنطلق لجوء الإنسان إلى العزلة ، والبعد عن الناس إذا كثر الخبث ، وانتشر الفساد ، وظن المسلم عدم قدرته على إصلاح ما فسد ، أو عدم تمكنه من المساهمة مع غيره فى الإصلاح .
وقد اعتزلت مريم عليها السلام قومها حينما رأت فسادهم ، واتخذت لنفسها مكانا شرقيا ، وتفرغت لعبادة الله تعالى .
يقول النبى ﷺ : "الوحدة خير من جليس السوء ، والجليس الصالح خير من الوحدة"^(١) .
ومن هنا ...

نقول للدعاة : أنتم مسئولون عن مقاومة الفساد ، واقامة الحق ، وهذا يحتاج إلى الاختلاط بهم لإرشادهم بشرط عدم التأثر بفسادهم ، وأنتم كالطبيب يعالج المرضى مع اتخاذ كافة الوسائل للوقاية من أمراضهم .
ولا يصح اعتزال المدعويين إلا بعد اليأس منهم .

(١) المستدرک على الصحيحين . کتاب معرفة الصحابة . باب محنة أبى ذر ج ٣ ص ٣٨٧ .

(٤٤٩)

الركيزة الثانية

اللجوء إلى الله تعالى

عندما يشتد البلاء ، وتكثر المحن يحتاج الإنسان إلى معين يعينه ،
وناصر يؤيده ويقويه ، وليس ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

لجأت إليه مريم العذراء حينما وجدت أمامها رجلا فى المكان الذى لجأت
إليه فى المكان الشرقى ...

ولجأت إليه حينما حملت بولدها فكان معها سبحانه وتعالى فى حملها
وولادتها ، فلما جاءت إلى قومها تحمل ولدها عارضوها متعجبين ، فألهمها الله
أن تشير لولدها ليتحدثوا معه ، فقد سمعت صوتا يناديها من أسفلها حين
مخاضها يقول لها : ﴿ أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ فأشارت إليه وهى
على ثقة من نصر الله لها ... فلم تتأثر بمعارضتهم ، وعجبهم ، فتحدث عيسى
فى مهده ، وأثبت لهم براءة أمة ، وبين لهم مقام مريم عليها السلام التى
أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ، وصدقت بكلمات ربها ، وكتبه ، وكانت
من القانتين .

إن إحساس المسلم بقدر الله تعالى يمكنه من الصراط المستقيم ، وينقذه
من خبث أعدائه ، وكيدهم ، ومكرهم .

وقد لجأت مريم لربها فنصرها ، وأعانها .

وعلى الدعاة :

أن يأخذوا من هذا درسا هم أحوج الناس إليه ، ليسيروا عليه ، ويتمسكوا
بهديه واستقامته .

عليهم المحافظة التامة على حقوق الله تعالى ، والقيام بالواجب عليهم ،
فهم جند الله وحزبه ، ودعائه ورجاله ، وخير لهم أن يسيروا على منهجه وطريقه

(٤٥٠)

ويلجأوا إلى الله فى وقت العسر ، ليرزقهم الله الخير واليسر ، يقول الله تعالى
: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ ﴾^(١) .
وعليهم أن لا يتأثروا بالكاذيب التى يشيعها أعداؤهم ، وسيظهر الله بطلانها .

الركيزة الثالثة

مقام مريم فى الإسلام

ولدت مريم عليها السلام عيسى عليه السلام بلا أب أو زوج ، وقد أكرمها الله
بذلك لأنها من ذرية صالحة طيبة ، وقد رعاها الله منذ صغرها فتقبلها بقبول
حسن ، وأنبتها نباتا حسنا ، وهيا لها من تكفل بها ، ورزقها رزقا مباركا .
والإسلام يقر بهذا لمريم البتول ، وقد عدها رسول الله ﷺ ممن كمل عقلها
من النساء مع قلتهم وأعطاهما حقها ، وبين للناس مقامها فى حدود بشريتها .
إلا أن المبالغة فى شأنها لا تجوز ، لأن الزيادة تشبهه النقص ، وكلاهما
كذب لا يفيد .

وقد حدد الله صفة مريم عليها السلام ، وعرف بها ، يقول الله تعالى :
﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ
كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ أَنْظِرْ كَيْفَ نُنَبِّئُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي
يُؤَفِّكُونَ ﴾^(٢) .

ولذلك يجب الوقوف عند قول الله تعالى بلا تزديد فى الوصف ، أو
نقص فيه لأن مخالفة الواقع أمر لا يجوز فى دين الله تعالى .

(١) سورة الشرح ، الآية ٥ ، ٦ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٧٥ .

(٤٥١)

عبودية "عيسى" ﷺ لله رب العالمين

يقول الله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۚ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ۚ سُبْحَنَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۚ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ۚ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۚ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۚ لَكِنَ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۚ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة طرفا من قصة "مريم" عليها السلام وكيفية حملها بعيسى وولادته جاءت هذه الآيات لبيان اختلاف الناس في عيسى بسبب ولادته من غير أب .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن عيسى رسول الله ، وقد اختلف الناس فيه ، ونسوا أن الله لا يتخذ ولدا فهو إله واحد ، وسيحاسب الكافرين يوم القيامة ، ويفصل بين عباده ، ويجازيهم بالجنة أو بالنار .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ ﴾ أى ذلك الذى نطق وتكلم فى المهد هو عيسى بن مريم عليهما السلام .

﴿ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ أى قول عيسى بن مريم عليهما السلام إني عبد الله
ورسوله الذى اختارنى هو قول الحق الذى لا مربية فيه .

﴿ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أى قول عيسى إني عبد الله هو القول الحق
ومع ذلك يشكون فيه ، ويختلفون .
فبعضهم يقول : هو ابن الله ...
وبعضهم يقول : هو الله ...

ويقول بعضهم : الله ثالث ثلاثة ... وكل هذه الأقوال باطلة لمخالفتها
الحق الثابت ، وهو أن الله إله واحد لا شريك له .

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ﴾ أى ما صح ، وما جاز أن يتخذ
الله ولدا ، لأن اتخاذ الولد يعنى الحاجة ، والحدوث ، والتجزؤ ، وهذا لا يليق
بالله سبحانه وتعالى .

﴿ سُبْحَنَهُ رَبِّ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أى تنزه
الله وتقديسه عما يقولون فهو واحد أحد إذا أراد أمرا ، وقضى به قال له كن
فيكون ، ولو كان له ولد ، أو شريك لشاركه فى الأمر ، وعلق القضاء على
إرادته وهذا ما كان ، ولم يكن ، ولن يكون .

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى قال
عيسى عليه السلام لقومه : الله هو ربى ، وربكم ، ورب كل الخلق ، ولا يستحق
العبادة غيره ، والإيمان بوحداية الله تعالى هو الصراط المستقيم الذى يجب
الالتزام به ، وترك ما عداه .

(٤٥٣)

﴿ فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أى اختلف النصارى فى عيسى عليه السلام وتفرقوا إلى فرق وجماعات مختلفة قديما ، وحديثا .

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى فهلاك للذين كفروا بالله تعالى ، وجعلوا الآلهة ثلاثة ، وألهوا عيسى بن مريم ... وهلاك عظيم يروونه فى يوم القيامة ، ويعيشون فيه .

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ أى ما أقوى سمعهم ، وما أشد إبصارهم يوم القيامة ، يوم يأتون للحساب فيقرون بالحق ، ويسمعونه ، ويبصرونه ولا يعارضونه ، ويشهدون على أنفسهم بالشرك والفساد .

﴿ لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى أن هؤلاء الكافرين يعيشون الحياة الدنيا فى ضلال كبير واضح ، فيعبدون غير الله تعالى ، ويشركون مع الله بعض عباده ، ويتخذونهم أولياء ، وهذا فساد كبير بين .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن عيسى عليه السلام قال كلمة الحق ، وأنه عبد الله ، ومع ذلك اختلفت فرق النصارى فيه ، وألهوه ، وجعلوه ابن الله ، وقالوا : إن الله ثالث ثلاثة ... ولا يصح أن يتخذ الله ولدا ، فهو واحد أحد ولو كان فيهما إلا الله لفسدتا .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات التى تحدثت عن عيسى عليه السلام عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

المسيح رسول الله تعالى

أكرم الله تعالى آل عمران فاصطفاهم ، وفضلهم على الناس ... وكان من فضل الله عليهم أن أكرم مريم بعبسى عليهما السلام بلا زواج ولا أب ليكون آية لقومه ، ورحمة لبنى إسرائيل ، فنطق فى المهد وقال : ﴿ إِنِّ عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِى الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ فهو عبد الله تعالى اختاره للرسالة ، وأنزل عليه الإنجيل ، فيه هدى ونور لبنى إسرائيل ، إلا أن هوس العقل راعه طريقة خلق عيسى وكثرة معجزاته فتصوره إلها ، وأخذ يوجه الأمور ليكون إلها فزعم أنه ابن الله ، وأنه اللاهوت والناسوت يجتمعان فى ذاته ، وأن الروح القدس أنبثق منه ومن أبيه لينزل إلى الناس بما يراه الأب والابن معا .

لقد ضل سعيهم ، وفسد عقلهم فيما ذهبوا ، فعيسى عبد الله ورسوله وهو كلمة الله ألقاها إلى مريم ، وهو روح الله فى مريم العذراء . ولا يصح القول بألوهية المسيح ، أو أنه ابن الله ، أو أن الله ثالث ثلاثة فولادته عليه السلام من غير أب لا تخرجه من البشرية . فقد ولدت حواء من غير أم ووجد آدم من غير أب وأم ، ولم يقل أحد بغير بشريتهما ... ولم يثبت أن الخلق العجيب يجعل المخلوق إلها ، أو شريكا لله ، وكل الخلق قائم على الإعجاز ، والعجب ، والدهشة .

وهل يجوز أن تؤدى غرائب الخلق إلى اتخاذ المخلوق إلها ؟

وهل يمكن تصور حاجة الإله إلى ابن يعينه ويساعده ؟

وهل كان الله عاجزا قبل وجود ابنه ؟

وكيف قضى الله بإيجاد عيسى عليه السلام مع أنه فى حاجة إليه ؟

إن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله ، ولم يدع أحدا إلى ألوهيته ، وقد بين الله ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَنْعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۚ ﴾ مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۚ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١﴾ .

إن عيسى عليه السلام هو رسول الله اختاره الله من أولى العزم من الرسل .

الركيزة الثانية القول بألوهية المسيح كفر تام بإله رب العالمين

ذهب النصارى إلى أن الله اختار عيسى عليه السلام ابنا له ، وأشرك عليه بنوره فصار إلها معه ، وهذا تصور باطل يكفر صاحبه به ، لأن القول بألوهية المسيح يؤدي إلى إنكار ألوهية الله بطريق اللزوم .
- لأن الله خالق لغيره ولا يحتاج له ، ولو احتاج إليه ما صح أن يكون إلها .

- إن وجود إله مع الله يؤدي إلى عدم وجود العالم . يقول الله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ ﴾ ^(٢) ووجود ابن شريك لله بعد فترة

(١) سورة المائدة ، الآية ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٢٢ .

من وجود الخلق كفر بالك لأنه يعنى عجز الله فى الفترة الماضية وهذا لا يصح .

- لقد رأى النصارى عيسى عليه السلام متجسدا أمامهم ، وحاولوا قتله وسجنه ، وهل يتجسد الله فى صورة حادثة ؟

- المسيح كان يأكل ويشرب ، ويقضى حاجته . فهل الله كذلك ؟ أم أن جوانب المسيح الحادثة لا صلة لها بالله ؟

يقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ ۖ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۚ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ۚ ^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۚ وَمَا مِنْ إِلَهِ إِلَّا إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ ^(٢) .

لقد حار رجال الدين المسيحى وهم يدعون التوحيد ، وفى نفس الوقت يقولون بالأب ، والابن ، والروح القدس ، فأخذوا يوفقون بين القولين بكلام قائم على الخيال ، واللامنطق وذلك لا يصح فى العقيدة .

(١) سورة المائدة ، الآية ٧٢ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٧٣ .

(٤٥٧)

الركيزة الثالثة **يوم الحساب شديد**

يوم القيامة هو يوم الفصل بين العباد ، وبين الذين اختلفوا فى أمر المسيح ، فلقد أعد الله لمن ألهم عذابا أليما ، كما جهز لهم واديا فى جهنم يحرقهم فيه بالنار ، والعذاب الأليم .

فلن يتخذ الله ولدا أبدا ، وهو واحد أحد يقول للشئ كن فيكون ، وهو رب الخلق أجمعين ، وقد دعاهم إلى توحيده وإلى الصراط المستقيم .
لقد عمى من ألهم عيسى عن الحق ، فقد غفلوا عن الصواب ، ولم يروا فى الخير إلا الشر ، ولم يسمعوا صوابا قط . إلا إنهم فى الآخرة سيعلمون الحقيقة ، وتقوى بصائرهم ، وتشتد أسماعهم ، ويرون ضلالهم وشركهم .

التحذير من يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

بعد أن بينت الآيات السابقة اختلاف اليهود النصارى فى عيسى بن مريم جاءت هاتان الآيتان لبيان سوء حال الكافرين فى الآخرة .

(٤٥٨)

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن يوم القيامة هو يوم الحسرة على الكافرين ، لأنهم يرون جهنم التى هى مأواهم ومستقرهم ، والكل هالك إلا وجه الله تعالى ، والكل راجع إلى الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ أى وأنذر يا محمد أمتك بعذاب يوم الحسرة وهو يوم القيامة وهو إنذار موجه لليهود والنصارى ولأمة محمد ﷺ ، وسمى يوم القيامة بيوم الحسرة ، لأن المسئى يتحسر لأنه لم يحسن العمل ، والمحسن يتحسر لأنه لم يكثر من العمل .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "لا يدخل الجنة أحد إلا رأى مقعده من النار لو أساء ، ليزداد شكرا ، ولا يدخل النار أحد إلا رأى مقعده من الجنة لو أحسن ، ليكون عليه حسرة" (١) .

﴿ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أى حين يقضى الأمر فى الآخرة ، وهم غافلون ، وغير مؤمنين بالله تعالى .

﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى أن هؤلاء يعيشون فى غفلة وعدم إيمان برغم وضوح الحق .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ أى يهلك الجميع ولا يبقى إلا الله والكل راجع إليه .

(١) صحيح البخارى . كتاب الرقاق . باب صفة الجنة والنار ج ٨ ص ١١٧ .

(٤٥٩)

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله أمر محمدا ﷺ لينذر اليهود والنصارى ، وكل من يبلغهم دعوته بيوم القيامة ، حيث يتحسر الناس على تقصيرهم ، وما فرطوا فيه وحيث تجزى كل نفس بما كسبت .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تشير الآيتان إلى ركيزة هامة ... هي :

ضرورة الحذر

من يوم الحسرة والندامة

يوم الحسرة والندامة هو يوم القيامة حيث يبعث الله الخلائق للحساب والجزاء ، وينال المؤمنون الفوز والفلاح ، ويقع الظالمون في العذاب والآلام .
إن السعادة هي ثوب المؤمنين في الآخرة لما قدموا في الدنيا ، أما الظالمون فهم في حسرة وندامة وهم في عذاب أليم .
لقد بعث الله رسوله مبشرا ونذيرا ليضع الحقيقة أمام الناس ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

لقد حذر رسول الله الناس من هول يوم القيامة حيث القضاء العادل ، والجزاء العادل وهو يوم حسرة وندامة على الظالمين حيث تحيط بهم النار ، ماؤهم المهل ، وطعامهم الزقوم ، ومآلهم إلى جهنم ﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾^(١) .

والإنذار منهج دعوى يجب الاستفادة به في الدعوة إلى الله تعالى .

(١) سورة النساء ، الآية ٥٦ .

دعوة "إبراهيم" عليه السلام لأبيه

يقول الله تعالى :

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۚ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
يَتَأْتٍ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۚ يَتَأْتٍ إِنِّي قَدْ
جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۚ يَتَأْتٍ لَا
تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۚ يَتَأْتٍ إِنِّي أَخَافُ أَنْ
يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۚ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ
ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُمْ ۚ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي ۚ مَلِيًّا ۚ قَالَ سَلِمَ عَلَيْكَ
سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۚ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۚ وَأَعِزَّنَا وَمَا تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۚ فَلَمَّا آعَزَ هُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۚ وَوَهَبْنَا
لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا هُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۚ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة طرفاً من قصة زكريا ، ويحيى ، ومريم ، وعيسى
عليهم السلام جاءت هذه الآيات بذكر طرف من قصة "إبراهيم" عليه السلام فهو أبو
الأنبياء جميعاً ، وسائر الأنبياء من بعده من ذريته .

(٤٦١)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات طرفا من قصة "إبراهيم" ﷺ ، وتركز على دعوته لأبيه ، وما حدث بينهما من بعد واعتزال .

- ٣ -

قصة "إبراهيم" ﷺ مع أبيه من خلال دلالة الآيات

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى الأمر فى الآية لرسول الله ﷺ معطوف على الأمر السابق ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ ﴾ ومعناها ائله يا محمد على الناس قصة "إبراهيم" ﷺ ، وبلغها لهم واقرأها عليهم كما هى فى القرآن الكريم ، فهم أبناؤه وعساهم بمعرفتها يقبلون على الهدى والصالح ، ويقفلون عن اللغو والعصيان .

﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ أى إن "إبراهيم" ﷺ كان كثير الصدق ملازما له فى قوله وعمله ، وكان نبيا لم يأمر إلا بأمر الله ، ولم يدع إلا إلى دين الله تعالى ، ولا منافاة بين الصديقية والنبوة ، فكل نبى صادق ، والصديقية أعم من النبوة .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ أى اذكر "إبراهيم" ﷺ حين قال لأبيه ، وناداه باسم محبوب إليه يدل على الاحترام والأدب والتقدير ... وقد دارت دعوة "إبراهيم" ﷺ لأبيه فى أربعة محاور ... هى :

(٤٦٢)

المحور الأول

السؤال عن عجز الأصنام

﴿يَتَأَبَّتْ لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ ؟ ...

والسؤال للإنكار والتعجب أى يا أبت ما سر عبادتك لهذه الأصنام ، فهى لا تسمع ثناءك ، وذكرك ودعاءك ، ولا ترى سعيك ، وعملك ، وعبادتك ، ولا تتحمل شيئاً عنك من نفع أو ضرر .

وقد اكتفى "إبراهيم" عليه السلام بالسؤال عن علة العبادة من غير تسفيه أو سب ، لأن أباه لو فكر فى العلة لعلم فساد المعلول ... وفى ذلك إشارة إلى أن العبادة لا تكون إلا لإله قادر ، منعم ، يسمع ، ويرى ، وينفع . أما الأصنام فلا تتصف بشئ من هذا ، فهى آلهة باطلة .

المحور الثانى

حاجة الإيمان للعلم الدقيق

لم ينتهم "إبراهيم" عليه السلام أباه بالجهل ، ولم يذكر له أنه فاقه فى العلم فقال له : ﴿يَتَأَبَّتْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أى أن الله تعالى أتانى بعض العلم ، وانى أبلغك به ، وأدعوك إلى اتباعى لأعرفك الطريق المستقيم الذى أدعو الناس إليه ... فإبراهيم عليه السلام لم يدع العلم كله ولم يدع حصول العلم بعقله وذاته ، فقد أتاه الله بعضه ، ولم يتعال بعلمه على أبيه فذكر أنه مجرد موصل بين الله والناس ، وهاد إلى الصراط المستقيم .

المحور الثالث

النهى عن عبادة الشيطان

﴿يَتَأْتِي لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أى قال "إبراهيم" لأبيه لا تعبد الشيطان وإنما عبر عن عبادة الشيطان مع أنه يعبد الأصنام لبيان أن عبادة الأصنام هى دعوة الشيطان ، ومفاسده ، فعبد الأصنام تعد عبادة للشيطان ... وأيضا فإن البشر يكرهون الشيطان لظهور عداوته ، فكان ذكر الشيطان فى كلام إبراهيم عليه السلام مدعاة لترك أبيه عبادة الأصنام .

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ أى إن الشيطان عدو ظاهر العداوة للإنسان منذ أن أخرجه الله إلى الدنيا ، وأنظره إلى يوم القيامة .

المحور الرابع

الحذر من رد الفعل

﴿يَتَأْتِي إِنْى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أى إنى أخاف أن ينزل عليك عذاب من الله تعالى بسبب عبادتك للأصنام فيزداد كفرك ، وتأخذ الشيطان وليا من دون الله تعالى .
واعلم أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام رتب هذا الكلام فى غاية الحسن مقرونا بالتلطف والرفق ، فإن قوله فى مقدمة كلامه ﴿يَتَأْتِي﴾ دليل على شدة الحب ، والرغبة فى صرفه عن العقاب ، وارشاده إلى الصواب ، لأنه نبه أولا على ما يدل على المنع من عبادة الأصنام ثم أمره باتباعه فى الإيمان ثم نبه على أن طاعة الشيطان غير جائزة فى العقول ، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام على ما لا ينبغى .

وقد بذل إبراهيم عليه السلام مع أبيه جهده لشدة تعلقه به ، ورغبته فى هدايته وصلاحه ، وقيامه بدوره فى دعوة الناس إلى دين الله تعالى .

أبى آزر أن يؤمن ، و ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَابِرَاهِيمُ ﴾ ؟ ...
الاستفهام إنكارى ، وفيه ينكر آزر على إبراهيم دعوته ، ويسأله أنت معرض
عن عبادة آلهتى يا إبراهيم ؟

﴿ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ أى إن لم ترجع عن قولك
يا إبراهيم ، وتكن معى فى عبادة الأصنام لأرمينك بالقول القبيح ، والفعل القبيح
من سب ، وضرب ، واهانة ... فابتعد عنى سالما حتى لا يأتيتك مكروه منى ،
واستمر فى ابتعادك عنى زمنا طويلا .

﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم لأبيه آزر ﴿ سَلِّمْ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ أى
قال إبراهيم لأبيه أمان عليك منى ، وترك لك بهدوء ، وسوف اسأل الله أن
يهديك لدينه ، ويغفر لك ما أنت فيه ، وذلك قبل أن ييأس من إيمانه
﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ (١) .

﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ أى أن الله لطيف بى يستجيب دعائى ،
ويعيننى فى حياتى .

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى وأفارقكم وابتعد عن
الأصنام لأنه ترك موطنه بالعراق ، وهاجر إلى الأرض المقدسة حين قال :
﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ (٢) .

﴿ وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ أى أعبد ربى الذى
خلقنى وربانى ، وأرسلنى ، وأنعم علي ، وأرجو أن لا أشقى بعبادة الله تعالى .

(١) سورة التوبة ، الآية ١١٤ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٢٦ .

﴿ فَلَمَّا أَعْرَضَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أى لما اعتزل إبراهيم عليه السلام أهله وبلده ، وهاجر إلى الشام عوضه الله خيرا من أهله ، وبلده فأسكنه الأرض المقدسة ، ورزقه الولد ، وعرفه باستمرار ذريته حيث بشره الله بإسحاق : ﴿ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ ^(١) .

وقد أحاط الله ذرية إبراهيم عليه السلام باختيارهم للنبوة ، وبتمكينهم فى الأرض بالمال والسلطان وحسن الذكر ، وذلك بين فى قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ ^(٢) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ ^(٣)

أى قدرنا لذرية إبراهيم عليه السلام ما يلى :

أولا : جعلهم الله للرسالة ، وبعثهم فى الناس يقول الله تعالى : ﴿ وَكُلًّا

جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ .

ثانيا : أى أعطينا لهم مع الرسالة المال والولد فبسط الله لهم فى الرزق والمال ، وجعلهم أمراء على الناس ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا ﴾ .

ثالثا : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ أى قدرنا لهم الذكر الحسن فى الأمم الأخرى يثنون عليهم ، وينتسبون لإبراهيم عليه السلام .

ولم تتكلم الآية عن إسماعيل عليه السلام لأن الحديث فيها عن آل عمران فناسب أن يخص بالذكر أنبياءهم ، كما أن اختصاص إسماعيل عليه السلام بالذكر بعد ذلك وحده فى آيات خاصة به يدل على أنه كان لأمة أخرى غير أمة بنى إسرائيل ، وان دعا بدين أبيه عليه السلام ، وكان له شأنه ورفعته .

(١) سورة هود ، الآية ٧١ .

(٤٦٦)

- ٤ -

معانى الآيات

تبين الآيات قصة إبراهيم عليه السلام وتركز على دعوته لأبيه آزر ، حيث سألته عن علة عبادة الأصنام ، وأنه يدعوه بالعلم الذى جاءه من الله ، ونهاه عن طاعة الشيطان العدو المبين ، وحذره من عذاب ينزله الله عليه يجعله يعبد الشيطان أكثر .

وتبين الآيات أن آزر تعجب من ترك إبراهيم عبادة الأصنام ، وهدده بالضرر والأذى إذا لم ينته عن دعوته ، وأمره بالبعد عنه ، فابتعد إبراهيم عنه وهو يدعو الله له قبل أن يتأكد من عدم إيمانه ...

وأعلن إبراهيم عليه السلام أنه سيعتزل أهله وبلده ، وقال : إني مهاجر إلى ربي ، فوصل إلى فلسطين ، وسكن الخليل ، وأكرمه الله بالذرية التى أكرمها الله بالنبوة ، والسلطان ، والولد ، والذكر الطيب .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن آيات قصة إبراهيم عليه السلام فى سورة "مريم" عددا من الركائز ...
أهمها :

الركيزة الأولى

حسن خطاب الدعوة

يأمر الله تعالى رسله ، ودعاة الناس إليه أن يلزموا الحسن فى القول والعمل ، وأن يكونوا صادقين . يقول الله تعالى :
﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾^(١) .

(١) سورة البقرة ، الآية ٨٣ .

(٤٦٧)

- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾^(١) .
- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ﴾^(٢) .
- ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٣) .

وكان إبراهيم عليه السلام رائدا للدعاة في القول الحسن والخلق الحسن ، فلقد دعا أباه ، وحرص على مناداته باسم طيب يبين حرصه على أبيه ، وعلى أدبه معه ، فلما هدده أبوه بالطرد تركه وبين له الأمل في إيمانه ، والاستمرار في الدعاء له خوفا عليه .

إن الدعاة إلى الله مكلفون بمخاطبة العقول ، ولن تتفتح أمامهم المغاليق إلا بالقول الجميل ، والكلمة الطيبة .

الركيزة الثانية

منهجية الدعوة إلى الله تعالى

تقدم الآيات منهجا عمليا للدعاة مستفاد من دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه ، وأساس هذا المنهج ما يلي :

(١) البدء بدعوة الأقرب :

تبدأ الدعوة بدعوة الأقرب إلى الداعي ، لأن الأقرباء هم المتصلون به ، وإيمانهم يعنى وثوقهم فيه ، كما أن إيمانهم يعد دعوة عملية لمن وراءهم ... وهذه هي سنة الله مع الدعاة .

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٣ .

(٢) سورة النحل ، الآية ٩٠ .

(٣) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

لقد أمر الله رسوله بهذا المسلك القويم يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَلْتُنْذِرْ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾^(٢) .

(٢) التدرج فى الدعوة :

اتبع إبراهيم عليه السلام أسلوب التدرج فى الدعوة فبدأ مع أبيه بالعقيدة ، واختار من العقيدة عبادة الله وحده ، وقسم إبراهيم دعوته لأبيه إلى عدد من المحاور . فبدأ بسؤاله عن علة عبادة الأصنام التى يصنعها بيده ، فهو يعرف أنها لا تسمع ، ولا ترى ، ولا تقدر على شئ ، وكان أمله أن يعرف أبوه بنفسه فساد ما هو فيه ، وليعلم أن الإله يجب أن يتصف بالعلم ، والقدرة ، والإدراك ، ومن لا يتصف بذلك لا يصح أن يكون إلها ، ... ثم انتقل من السؤال إلى تقرير أن الله أتاه ببعض العلم وخصه به ، وهو حريص أن يعلمه لأبيه ، فهو علم إلهى لا يلغى علم الناس ، وعلم إبراهيم لا يعنى علمه بكل شئ ، ولا يلغى علم أبيه ، ونسبة العلم لله أمام أبيه يبين بره بأبيه ، ويوضح أمله فى إيمان أبيه بما جاء من عند الله رب العالمين .

ثم انتقل إلى قضية مسلمة وهى ضرورة معارضة الشيطان لأنه عدو مبين والناس يعلمون ذلك عن الشيطان ، ويعرفون عداوته الظاهرة والخفية .

وأخيرا أنذره بعذاب الله بطريقة لينة بعيدة عن التخويف ، ثم كان الهجر فهجر إبراهيم عليه السلام أباه وهو يدعو له .

إن المنهج فى الدعوة يفيد الاستماع إلى موضوع الدعوة ، والى فهم أدلتها ، والى ربط الحوار بموضوع الدعوة ، وليس بأشخاص الناس ، وهذا ما فعله إبراهيم عليه السلام .

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢١٤ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٩٢ .

(٣) استمرارية الدعوة :

استمر إبراهيم عليه السلام في دعوة أبيه إلى الله تعالى فلما أمره الله بالبعد عنه هاجر إلى الشام ، وعرف أباه بأنه سيدعو له إلى أن ييأس من إيمانه .
وهذا المنهج شديد في نتائجه ، سهل في تطبيقاته ، يحسن للدعاة أن يأخذوا به .
إن على الدعاة أن يعرفوا الدعاة بالموضوع الذي يعرضونه على الناس في صورة سؤال أو حكاية أو مثال ، وبعد ذلك يناقشون المخاطبين في قريهم أو بعدهم عن الموضوع ، وتأكيد موضوعهم بالدليل ، وإظهار الآثار المترتبة عليه .

الركيزة الثالثة**تكريم المخلصين من الدعاة**

الله مع عباده الصادقين المخلصين ، ويقدر عطائهم يعطيهم ربه .
فها هو إبراهيم عليه السلام بعدما أدى واجبه مع الدعوة ، وترك موطنه وأهله من أجل الله كافأه الله تعالى بأن جعل النبوة والرسالة في ذريته . فوهب له إسحاق وإسماعيل ، ومن إسحاق كان جميع أنبياء بني إسرائيل ، ومن إسماعيل جاء محمد صلى الله عليه وسلم .

فأمّا العرب وبني إسرائيل من إبراهيم عليه السلام ، وقد انحصرت النبوات في هاتين الأمتين تكريماً لإبراهيم عليه السلام .

وبهذا صار إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء ينتسبون إليه ويمدحونه ، ويسيروا على هديه ودينه ، وأقرب الناس لإبراهيم عليه السلام السائرون على دينه وملته . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) فرحمة الله على إبراهيم . وسلام على المرسلين .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٨ .

ملاحظة :

بعد ذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه تورد السورة أطرافاً قصيرة من قصص رسل بنى إسرائيل ، ثم تبين اشتراكهم مع غيرهم من الرسل فى طاعة الله وخشيته ، وتأثرهم بآيات الله ، وسجودهم ، وبكائهم عند ذكر الله رب العالمين .
وانى هنا أقدم هذه الأطراف ، وأؤخر ذكر الركائز إلى نهايتها لتكون مأخوذة من سير جميع الرسل .
وهذه الأطراف هى :

- أولا -

**طرف من قصة موسى وهارون
”عليهما السلام“**

يقول الله تعالى :

﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿١﴾
وَنَنْدِيْنُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمَتِنَا
أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٣﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -**صلة الآية بما قبلهما**

لما بينت الآيات السابقة طرفاً من قصص أنبياء بنى إسرائيل جاءت هذه الآيات بطرف من قصة موسى وهارون عليهما السلام لأنهما من أنبياء بنى إسرائيل .

(٤٧١)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات طرفا من قصة موسى وهارون عليهما السلام ، وتبين إخلاصه وصدقته ونبوته ، وأن الله وهب له أخاه هارون ردءا له .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾ أى اتل يا محمد على أمتك قصة موسى وهارون عليهما السلام وعرفهم بهما ليعلموا فضل الله على الناس ، وليأخذوا من حياتهما ودعوتهما الدروس والعبر .

﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ أى أن الله اخلص لنفسه ، واصطفاه ، وبعثه رسولا إلى قومه وذلك على قراءة فتح اللام فى ﴿ مُخْلَصًا ﴾ ومن كسرهما ذكر أن المعنى أنه اخلص لله فى عبادته وطاعته .

﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ أى أن موسى ﷺ جاءه الوحي بدين الله ونزلت عليه التوراة ، وكلفه الله بإبلاغه للناس .

﴿ وَتَدْعِيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ أى نزل عليه الوحي وناداه جبريل ﷺ من الجانب الأيمن من طور سيناء حينما كان عائدا إلى مصر .

﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ أى وقربناه تقريبا شرف وتكريم حتى ناجى الله تعالى وكلمة تكليما .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ أى اخترناه للنبوته ووهبنا له أخاه هارون ، وأرسلناه معه ليكون له ردءا ومعينا . فقد طلب من ربه ، وقال :

(٤٧٢)

﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿أَشَدُّ بِمَآزَرِي﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿١﴾ . قال الله : ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ ﴿٢﴾ .

- ٤ -

معنى الآيات

تأمر الآية رسول الله أن يذكر في القرآن الكريم موسى وهارون عليهما السلام ، وتبين أن موسى عليه السلام كان مخلصا في عبادته بعيدا عن الرياء والسمعة . والشرك بكافة أنواعه ، وقد أخلصه الله لنفسه واجتباؤه وخلصه الله من الدنس وحب الدنيا ، وكان رسولا نبيا ، وناداه ربه من الجانب الأيمن من جبل الطور ذي اليمن والبركة ، وقرينه تقرب تشريف وهو يناجي .

- ثانيا -

طرف من قصة "إسماعيل" عليه السلام

يقول الله تعالى :

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾
﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ ﴿١﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما انتهت الآيات السابقة من ذكر أنبياء بنى إسرائيل جاءت هذه الآيات لبيان طرف من قصة إسماعيل عليه السلام أبو العرب ، وهو ولد إبراهيم عليه السلام من هاجر المصرية ، وهو جد النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) سورة طه ، الآيات ٢٩ . ٣٢ .

(٢) سورة طه ، الآية ٣٦ .

(٤٧٣)

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن إسماعيل عليه السلام كان صادق الوعد ، وقد اختاره الله للرسالة ، وكان يأمر قومه بعبادة الله تعالى فرض الله وارضاه .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ أى اتل وقرأ يا محمد على الناس قصة إسماعيل عليه السلام ليستفيدوا بها ، ويهتدوا بهديها ، وهو ابن إبراهيم عليه السلام من أمه هاجر عليها السلام .

﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ أى أنه ما وعد بوعد إلا وفى به ، وعد رجلا أن يقف مكانه حتى يرجع فوقف ثلاثة أيام حتى رجع الرجل ، وصدق أباه حين قال له : ﴿ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(١) .

﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ أى وكان إسماعيل عليه السلام رسولا إلى قومه البراهمة فى مكة . فلقد دعاهم بدين أبيه إبراهيم عليه السلام .

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ أى أنه كمل فى ذاته فأخذ يكمل الناس فدعاهم إلى الصلاة والزكاة ، فبدأ بدعوتهم لأهم الأعمال ، وأقواها ، وبعد ذلك دعا إلى سائر التكاليف .

﴿ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ أى وقد رضى الله عنه فاختاره للرسالة وأنزل عليه الوحي ، ودعاه إلى إصلاح الإنسان والحياة .

(١) سورة الصافات ، الآية ١٠٢ .

(٤٧٤)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أمر محمدا ﷺ بأن يذكر إسماعيل في كتبه فهو جده وأبوه إبراهيم وأمه هاجر ... ولقد تميز إسماعيل بصدق الوعد مثل اخواته الرسل ... وقد الله اختاره ، وأرسله إلى قومه "جرهم" وكان يأمرهم بالصلاة والزكاة ، وقد أطاع الله فرضى عنه .

- ثانيا -

طرف من قصة "إدريس" عليه السلام

يقول الله تعالى :

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۖ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا

عَلِيًّا ۖ ﴾

- ١ -

صلة الآيتان بما قبلهما

لما بينت الآيتان السابقتان جانبا من قصة إسماعيل عليه السلام جاءت هاتان الآيتان لبيان طرف من قصة إدريس لتعود بالناس إلى الماضى السحيق .

- ٢ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن إدريس عليه السلام كان نبيا صادقا ، وأن الله رفعه إليه ووضعه فى مقام عال كريم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ ﴾ أى اذكر يا محمد فى القرآن الكريم

(٤٧٥)

إدريس عليه السلام بصفاته ليهتدى به الناس .

﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ أى أن الله اختاره للرسالة قبل نوح عليه السلام ،

وكان صادقا لم يكذب قط مثل سائر الرسل .

﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ أى رفعنا مقامه بالنبوة والرسالة فعلا شأنه

وعظم مقامه على الناس ... وقيل : رفع الله جسده إلى السموات العلا تكريما له .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله اختار إدريس نبيا ورفعته إليه ووضعه فى مقام كريم .

- رابعا -

خضوع الرسل جميعا لله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا

مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ

آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما أجملت الآيات السابقة حديثها عن الرسل واحدا واحدا جاءت هذه

الآية لتجمعهم فى صعيد واحد .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية ترابط الأنبياء جميعا ، وخشوعهم وطاعتهم لله تعالى .

(٤٧٦)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أُولَئِكَ ﴾ الإشارة هنا إلى الأنبياء المذكورين فى الآيات السابقة ،
وهى تدل على رفعه مقامهم ، وعلو منزلتهم .
والأنبياء المذكورون هم إبراهيم ، وموسى ، واسماعيل ، وادريس عليهم
السلام يمثلون صور الأنبياء جميعا .
فإبراهيم عليه السلام يمثل الأنبياء من قبله ، وموسى يمثل من لهم كتاب ،
واسماعيل يمثل من دعا قومه بدين غيره ، وادريس يمثل الأنبياء غير المرسلين .
﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى هؤلاء الرسل أنعم الله عليهم ، وأكرمهم
وفضلهم ، وهم دائمون فى عبادة الله تعالى على طول التاريخ .
﴿ مِّنَ النَّبِيِّينَ ﴾ أى جميع الرسل والأنبياء الذى بعثوا لأممهم منذ هبوط
آدم عليه السلام إلى الأرض وقد اختارهم الله من ذرارى الرسل .
﴿ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾ أى جاء إدريس ونوح عليهما السلام .
﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ أى جاء إبراهيم عليه السلام .
﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى جاء إسحاق واسماعيل ومحمد عليه الصلاة
والسلام .
ومن ذرية ﴿ وَإِسْرَءِيلَ ﴾ أى جاء يوسف وموسى وعيسى وسائر أنبياء
بنى إسرائيل .
﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ أى ومع هؤلاء الرسل من اختارهم الله
تعالى وخصهم بالعبودية ، وهداهم للطاعة .

هؤلاء جميعا ﴿ إِذَا تُلِّيَ عَلَيْهِمْ آيَةُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾

أى هؤلاء الرسل جميعا تهتز قلوبهم بذكر الله فيسارعون إلى السجود ، ويأخذون فى البكاء خاشعين .

يقول ﷺ : "اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا"^(١) .

وعن ابن عباس : إذا قرأت سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه .

وسجدة سورة "مريم" من عزائم سجود القرآن ، فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند تلاوة هذه السجدة .

وقيل : يستحب لمن قرأ آية سجدة فسجد أن يدعو بما يناسب تلك السجدة فإن قرأ سجدة الإسراء قال : اللهم اجعلني من الباكين إليك والخاشعين لك .
وان قرأ سجدة مريم قال اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم ، الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك .

وان سجد سجدة ألم السجدة قال : اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك^(٢) .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن رسل الله جميعا ومن سار على هديهم إذا سمع آيات الله سجدوا له خاشعين ، واسترسلوا فى البكاء خاضعين .



(١) مستخرج أبى عوانه . كتاب الحج . باب ذكر الخبر المبيح أن يتغنى بالقرآن ج ٢ ص ٤٧٣ .

(٢) تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٥١ .

(٤٧٨)

ركائز الدعوة

المستفادة من قصص الأنبياء

سبق ذكر ركائز قصص هؤلاء الأنبياء عند ورود قصصهم في مواطن سابقة ، وهنا في سورة "مريم" حيث بينت الآيات إنعامات الله عليهم ، وبيان أهم ما دعوا إليه ، من هذا القصص نستفيد الركائز التالية :

الركيزة الأولى

أهم صفات الدعاة

تشير الآيات المذكورة إلى أهم صفات الرسل ، وهي التي أهلتهم لاختيار الله ، وساعدتهم على قيامهم بتبليغ الرسالة ، وهي الصفات التي تنمناها للدعاة إلى الله ... وهي :

- أولا -

تمتعهم بصفات القدوة

ذهب العلماء إلى ضرورة أن يتصف كل رسول بصفات القدوة والثقة وهي الصدق ، والأمانة ، والتبليغ ، والفتانة ، لأن الصدق يؤكد أن البلاغ صادر عند الله تعالى ، وأن الرسول لم يأت شيئا من عند نفسه ، وبالأمانة يتأكد المدعو أن الرسول لم يزد شيئا عن أمر الله تعالى ، ولم ينقص منه شيئا ... وبالتبليغ يملك الرسول شجاعة الرأي ، فيبلغ ما أمره الله بتبليغه بلا خشية من أحد ، ولا خوف من أذى يتوقعه ، وبالفتانة يقوم الرسول باختيار الظرف والوقت المناسب ، وعرض الموضوع بكلمات مناسبة .
ولهذا يحتاج الدعاة إلى الاتصاف بهذه الصفات التي لا بد منها للنجاح .

(٤٧٩)

إن الدعاة يحتاجون إلى الثقة في قولهم وعملهم وأحوالهم حتى لا يشكك خصمهم فيهم .

- ثانيا -

التواصل الدائم مع الله

لابد للدعاة أن يتواصلوا دائما مع الله تعالى ، فهو مصدر دعوتهم ، وهو الغاية من سعيهم وعملهم ... من دينه بينون حياتهم ، ويدعون قومهم ، ويسعون إلى إقامة دولة الحق ، في أرض الله ، بمنهج الله .

ولئن كان الوحي يوالى الرسل بالنزول من عند الله ، يبين لهم الطريق ويهديهم للحق ، فإن حفظ الوحي في حفظ القرآن الكريم والسنة النبوية يمكن الدعاة من التواصل مع وحى الله ، والاتصال بالله رب العالمين .

إن الآيات تبين تواصل الرسل مع الله فموسى عليه السلام قربه الله إليه ، وناجاه ، ورزقه الرحمة ، وآتاه النبوة فأخلص لله رب العالمين .

ولما رزقه الله أخاه هارون كانا يسبحان الله تعالى ، ويذاكرانه كثيرا .
واسماعيل عليه السلام أرسله الله متميزا بالصدق والإخلاص ، وكان يدعو قومه إلى عبادة الله وحده ، وقد رضى الله عنه .

وإدريس عليه السلام تميز بالصدق ، واختاره الله للرسالة ، ورفعته في مقام كريم .

إن الرسل جميعا كانوا مطيعين لله تعالى إذا سمعوا آياته خروا سجدا وبكيا .

(٤٨٠)

ومن هنا نقول للدعاة : إن نجاح حكم الله يتوقف على مدى تواصلكم مع الله تعالى ، فاعبدوا الله ، واذكروه ، واعلموا دينكم ، واعرفوا دعوتكم ، وتخيروا ما فيه خير لدينكم .

- ثالثا -

حسن معاملة الناس

مجال عمل الأنبياء والدعاة الناس ، فهم يحملون دين الله إليهم في صدق وإخلاص ... إنهم يفهمون دين الله ، ويعملون على تفهيمه للناس .
إن الدعوة إلى الله تحتاج إلى حسن معاملة الناس ، وحسن مخاطبتهم ، وحسن عرض الإسلام عليهم ، ومن أساسيات هذا الحسن :

- ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾^(١) .

- ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝ ﴾^(٢) .
- ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَجِدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۝ ﴾^(٣) .
- ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾^(٤) .

(١) سورة الأعلى ، الآية ٩ .

(٢) سورة الغاشية ٢١ ، ٢٢ .

(٣) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ١٢٨ .

(٤٨١)

الركيزة الثانية حماية الله للدعاة

لم يترك الله رسله وحدهم أمام أعدائهم فأيدهم بنصره ، وأعانهم بقدرته
ويمن آمن منهم .

ولله جنود السموات والأرض يسخرها فى إعانة الحق ، وتوفيق الدعاة .
إن الدعاة المتصفين بصفات الدعوة يلتف الناس حولهم ، ويسمعون
نصحتهم ، وارشادهم ، وذلك نصر الله لهم .
والله هو الموفق والمعين ...

عاقبة من خالف الرسل أو أطاعهم

يقول الله تعالى :

﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ^ط
فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥١﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٥٢﴾ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآية السابقة أن الله أرسل رسله للناس فى كل زمان ومكان إلا
أن الناس كانوا يكفرون بعد الرسل ، فيضيعون الصلاة ، ويتبعون الشهوات
وسيعاقبهم الله على عصيانهم إلا من رجع عن ذلك ، وتاب ، وآمن وعمل
صالحا فإن الله يقبل توبته ، ويدخله الجنة ولا يظلم أحدا فيما يستحقه .

(٤٨٢)

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآية أن الذين خلفوا الرسل المذكورين أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون عذابا أليما فى جهنم إلا أن من يتوب منهم ويرجع عن ذنوبه ، ويؤمن بالله تعالى ، ويكل ما أمر به ، ويعمل الصالحات فإن الله يدخله الجنة ، ويجازيه بنعيمها .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أى جاء بعد هؤلاء الأنبياء أقوام عصوا الله تعالى ، ونقضوا عهد الأنبياء معهم ، وهذا شامل لاتباع الرسل فى الأمم كلها .

﴿ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾ أى أهمل الخلف الصلاة بتركها ، أو بعدم المحافظة على أركانها وشروطها ، أو تأخيرها عن وقتها .

﴿ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ أى ساروا وراء الشهوات المادية ، وبعدوا عن الصراط المستقيم ، ولم يتمسكوا بمنهج الله تعالى ، وأكثروا من الأعمال الخبيثة .
يقول عقبة بن عامر رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : سيهلك من أمتى أهل الكتاب ، وأهل اللين .

قلت : يا رسول الله : ما أهل الكتاب ؟

قال ﷺ : قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا .

قلت : وما أهل اللين ؟

قال ﷺ : قوم يتبعون الشهوات ، ويضيعون الصلوات ^(١) .

(١) المستدرک على الصحيحين للحاكم . كتاب التفسير . تفسير سورة "مريم" ج ٢ ص ٤٠٦ .

(٤٨٣)

﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ أى سيلاقون فى الآخرة العقوبة المكافئة

لعصيانهم ، وهو إلقاءهم فى واد سحيق فى جهنم .

﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ استثنيت هذه الآية من العصاة

الذين من رجع عن ذنوبه ، وتاب ، وآمن بالله تعالى ، وصدق بكل ما أمر به وعمل صالحا ، وترك ما كان فيه .

﴿ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ أى هؤلاء التائبون علت منزلتهم بالطاعة

وسيدخلهم ربهم فى جنات النعيم آمنين ، مسالمين ، لأن التوبة تجب ما قبلها ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ أى يوفيههم الله حقهم كاملا ، وتعمهم رحمته ، ولن

يضيع لهم عمل صالح ، أو ثواب إيمان صادق لأن الله لا يظلم الناس شيئا .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن اتباع الرسل المتأخرين عنهم ، تفتر عزيمتهم ، ويضعف إيمانهم فيضيعون الصلاة ، ويتبعون الشهوات ، وهؤلاء سيعاقبهم الله على معاصيهم بنار السعير ... إلا أن من يتوب منهم ، ويرجع إلى الله تعالى ، ويعمل الصالحات فإن الله يتوب عليه ، ويدخله الجنة ، ولا يضيع الله عليه عمل صالح قام به .

(٤٨٤)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان الركائز التالية :

الركيزة الأولى

ضرورة المحافظة على الصلاة

الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين
إن الصلاة تصل العبد بربه ، وتربطه بخالقه نفسيا وعمليا .

ودور الصلاة على صاحبها كبير فهي ﴿ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ ﴾^(١) وتؤثر في السلوك تأثيرا واضحا .

إن الإسلام يحيط الصلاة بما يمكنها من أداء دورها ، ومما وجه الإسلام
الإنسان إليه ليقوم الصلاة ما يلي :

(١) تهيئة النفس للقاء الله وذلك بالأذان فهو يعرف المسلم بالواجب عليه فيقوم
إليها شاهدا بوحداية الله ، مؤمنا برسول الله ﷺ وبما دعا إليه .

(٢) اشترط الإسلام للصلاة الوضوء الذي ينشط البدن ، ويهيئ الإنسان للقاء
القادر العظيم .

(٣) تقوم الصلاة على قيام وركوع وسجود وفي هذا التغيير البدني تحريك
العقل للفهم والتذكر .

(٤) تؤدي القراءة والذكر أثناء القيام والركوع والسجود ، وقراءة التحيات أثناء
الجلوس إلى معرفة الله ، والخلوص في التوجه له .

لهذا ولغيره كان الأمر بإقامة الصلاة لا مجرد الصلاة لتؤدي دورها في
الحياة الإنسانية فرادى ومجتمعين .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥ .

الركيزة الثانية

الاستمرار فى المعصية

إذا أضعاع المسلم الصلاة يأتيه شيطانه ويلهبه عنها ويجره إلى المعاصى ويوقعه فى الشهوات والخطايا ، ولذلك تنبه الآية إلى ضرورة العودة إلى طاعة الله تعالى ، وعدم الاستمرار فى المعصية حتى لا يهلك الإنسان ، وتضيع دنياه ، ويلقى فى جهنم العذاب الأليم .

إن المؤمنين لا يستمرون فى المعصية فإذا حدثت منهم مرة عادوا إلى الله سراحا . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾^(١) .

الركيزة الثالثة

التوبة الصادقة

الإنسان مخلوق ضعيف ، يغلبه هواه أحيانا ، وينتصر عليه شيطانه أحيانا أخرى ، ولذلك كان عليه أن يعود للحق ، ويتوب إلى الله ويستغفر الله لذنبه ، ولو صدق فى توبته فإن الله يبدل سيئاته إلى حسنات .

إن التوبة الصادقة تعنى إقلاعه عن الذنب ، وإيصال الحقوق إلى أصحابها والعزم الأكيد على عدم العودة إلى هذه المعاصى أبدا ، يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾^(٣) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٣٥ ، ١٣٦ .

(١) سورة الأعراف ، الآية ٢٠١ .

وصف الجنة

يقول الله تعالى :

﴿ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ۚ لَا يُسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۚ وَهُمْ فِيهَا رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ۚ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًا ۚ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة أن الله يدخل التائبين الجنة جاءت هذه الآيات بوصف الجنة التي أعدها الله للصالحين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أوصاف الجنة التي أعدها الله للمتقين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تتميز الجنة التي أعدها الله للمتقين بما يلي :

(١) الديمومة المستمرة في النعيم :

يقول الله تعالى : ﴿ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾

أي أن الله وعد عباده المؤمنين بالإقامة الدائمة في الجنة لأن عدن تعنى الإقامة فهي ليست مثل نعيم الدنيا الذي يفنى ويزول ... وقد وعد الله عباده المتقين بهذه الجنة وهي غائبة عنهم . فقد أعدها لهم بإرادته ، وأودع فيها رحمته ، وأعطاهم فوق ما يتصورون ، وما يأملون . ففيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾ أى إن الله وعد عباده المتقين بالجنة ، وبذلك تأكد مجئ ما وعد الله به ، لأن وعد الله لا يتخلف ، وهو آت لا ريب فيه ودلت ﴿ كَانَ ﴾ فى الآية على تحقق وقوع وعد الله تعالى .

(٢) لا يسمعون إلا الخير :

يقول الله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ﴾ أى لا يسمعون فضول القول ، وأحاديث الهوى ، ولكنهم يسمعون تسليم الملائكة عليهم بصورة دائمة لأن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، وهذا يشعرهم بالأمان والطمأنينة ، والاستقرار .

(٣) رزق الله الدائم :

يقول الله تعالى : ﴿ وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ﴾ أى أن المتقين يأتيهم رزقهم مرتين فى اليوم كما كانوا يؤتون به فى الدنيا ، فلا ينقطع عنهم عطاء الله ، ولا تنفذ خزائنه .

﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًا ﴾ أى هذه هى الجنة التى أعدها الله لعباده المتقين خاصة ، يدخلونها ، ويدومون فيها كأنهم وارثوها ، ومالكوها .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أعد للمتقين جنات يقيمون فيها دائما ، وقد وعدهم الله بذلك وهى غائبة عنهم ، ولن يسمعوا فيها إلا خيرا ، ويستمر عطاء الله لهم ، وهذا جزاء حسن يستحقه المتقون .

(٤٨٨)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

عظمة جزاء الله للمؤمنين

تبين الآيات أن الله سبحانه وتعالى أعد للمتقين منزلة عالية عنده فى الآخرة . فقد أعد لهم جنات النعيم فى الفردوس الأعلى من الجنة ومتعمهم فيها بكل نعيم يسرهم ويسعدهم .

وفى هذا الوعد بشاره للمتقين الذين يعيشون الدنيا خاشعين لله تعالى ، مؤدين له حقهم فى رضى وسكون .

نزول الملائكة بأمر الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۚ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۚ ﴾
رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ
وَأَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۚ ﴿٤٨٨﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

احتبس جبريل عن النبي ﷺ حين سأله اليهود عن أمر الروح ، وأصحاب الكهف ، ثم نزل بعد أيام فقال له رسول الله ﷺ : "أبطأت علي حتى ساء ظني واشتقت إليك .

(٤٨٩)

فقال له جبريل : واني كنت أشوق إليك ، ولكني عبد مأمور إذا بعثت
نزلت وإذا أحببت احتبست" . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾^(١)

- ٢ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة وعد الله عباده المتقين بالجنة جاءت هاتان الآيتان
ليبين أن نزول الملائكة بشئ ما يكون بأمر الله تعالى ، فهو سبحانه وتعالى
مالك كل شئ وهو رب السموات والأرض وهو وحده المستحق للعبادة .

- ٣ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الملائكة ينزلون إلى الأرض بوحى الله ، وبما كلفهم به
ربهم وبما أمرهم به سبحانه وتعالى فهو . سبحانه . المالك لأمرهم ، وهو رب كل
شئ ومليكه لا ينسى شيئا والعبادة لا تكون إلا له سبحانه وتعالى .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ تقول الملائكة إنها لا تنزل من السماء
إلى الأرض بالوحى أو بأى شأن إلا بأمر الله تعالى .
﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
نَسِيًّا ﴿ أى إن الله يملك أمرنا كله ، ويتحكم فى كل ما يحيط بنا ، ولا ينسى
شيئا فينزلنا إلى الأرض كيفما شاء ، ومتى شاء ، وبأى عدد يشاء ، لا نرد له
أمرا ، ولا نتأخر فى طاعته ، والقيام بأمره ، وكل شئ عنده بمقدار ، لا
تطراً عليه سبحانه وتعالى غفلة أو نسيان .

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٥٣ .

(٤٩٠)

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ أى

أن الله سبحانه هو رب السموات والأرض وما بينهما . له الأمر والنهى ، وهى
حى دائم ، عليم ، قادر ، له الحكم فاعبده وحده ، واصبر على مشاق العبادة ،
واخلص العمل لله ، ولا تتأثر بتأخير الوحي ، أو عدم حصول ما تتمنى .

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ ؟ ... هذا استفهام إنكارى يسأل الله فيه رسوله

محمدا ﷺ إنكارا لما تقول به الناس . ومعناه : هل تعلم يا محمد إلها آخر يشبه
الله أو يماثله ، يستحق العبادة مثله ؟ إنه لا أحد غير الله يستحق أن يكون إلها
، ولا يستحق أن يعبد من دون الله تعالى .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الملائكة تنزل إلى الناس بالوحي ، ولا تنزل بأمر آخر إلا
بأمر الله تعالى ، فهو مالك الأمر ، وهو العليم الخبير ، لا تعتريه غفلة أو
نسيان ، فهو رب السموات والأرض وما بينهما ، وهو المستحق للعبادة ، وما
عداه مخلوق ضعيف .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هى :

العبادة لله وحده

الله إله واحد قدير ، له الحكم ، واليه ترجعون والعبادة لا تكون إلا له
سبحانه وتعالى فى صورها جميعا .
فالتوجه له بالطلب والرجاء عبادة .
وطاعته فى كل أمره ونهيه عبادة .

(٤٩١)

والالتزام بالعبادة المحددة من صوم ، وزكاة ، وحج ، وصوم واقامتها على الوجه الذى أمر به عبادة .
والواجب أن تكون العبادة بكل صورها لله وحده .
وتحتاج العبادة إلى الصبر ، والإخلاص ، وتفرغ النفس من عوائق المادة ، ورغبات السوء .
إن الله واحد لا شريك ، وهو المعبود وحده ، وسبحان الله رب العالمين .

ضرورة البعث والحساب

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۖ أَوَلَا يَذْكُرُ
الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۖ فَوَرَبُّكَ لَنَحْشُرُهُمْ وَالشَّيَاطِينَ
ثُمَّ لَنُحْضِرَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۖ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ
عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ۖ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۖ وَإِنْ مِنْكُمْ
إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ
الظَّالِمِينَ ۚ فِيهَا جِثِيًّا ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضرورة عبادة الله وحده ، والصبر على مشاق الحياة الدنيا لتحقيق الفوز بالجنة فى الآخرة جاءت هذه الآيات لإثبات الحشر والبعث والحساب والجزاء ، وبيان أن جميع الخلائق يعرضون على النار ، ولا ينجو منها إلا المخلصون .

(٤٩٢)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن البعث حق فقد خلق الله كل شئ ، والإعادة أسهل وأيسر وأن الجنة والنار حق ، وسيجازى الله عباده بما يستحقون .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ ؟ ... الاستفهام

للإنكار وهو موجه إلى الإنسان الكافر المنكر للبعث والحشر . ومعناه : هل ينكر الإنسان البعث ، ويقول : أأبعث مرة أخرى بعد الموت والفناء ؟!

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ ؟ ...

الاستفهام للإنكار ينكر الله على الكافرين إنكارهم للبعث ، وتعجبهم من القول بالبعث بعد الموت . والمعنى : أنسيتم ، ولم تتذكروا الخلق الأول للإنسان ، فقد خلقه الله من عدم محض ، ولو تفكرتم في الخلق الأول لعلمتم خطأ إنكاركم للبعث ، لأن من خلق وأوجد أول مرة قادر على أن يعيد الخلق مرة أخرى يقول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (١)

ويقول ﷺ في الحديث القدسي الذي رواه عن ربه عز وجل يقول فيه : "كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني ، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك ... أما تكذبيه إياي فقله : لن يعيدني كما بدأني ... وليس أول الخلق أهون علي من آخره ، وأما شتمه إياي فقله : إني لى ولدا ، وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن لى كفواً أحد" (٢) .

(١) سورة الروم ، الآية ٢٧ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب قوله : ﴿ وَأَمْرَاتُهُمْ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ﴾ ج ٦ ص ١٨٠

(٤٩٣)

ولما أكدت الآيات البعث بالدليل أخذت في تأكيد وقوع البعث ، وتهويل شأنه ، والتخويف منه فقال تعالى .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ يقسم الله بذاته أنه سيحشر

منكرى البعث وشياطينهم معهم للحساب والعقاب .

وتحدثت الآية عن الحشر دون البعث لأن الحشر مرتب على البعث ، وكان البعث أصبح أمرا مسلما بالدليل .

وجاءت الآية مقسمة بالرب مضافا إلى ضمير النبي ﷺ بيانا لمقام النبي ﷺ وابعاده عن المنكرين للبعث والحشر .

﴿ ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ أى نحضرهم حول جهنم بعد

طول الوقوف خارجها جاثين على ركبهم إهانة لهم ، أو لعجزهم عن القيام لما حل بهم من المكارة والأهوال .

﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴾

أى بعد أن يحضرهم الله حول جهنم جاثين على ركبهم يميز بعضهم عن بعض ، فمن كان أشد كفرا كان أشد عذابا ، فينزع من كل جماعة أشدهم كفرا بالله ، ليضعهم فى عذاب شديد ، وهكذا يقسم الله الكافرين إلى جماعات كل جماعة تنال دركتها فى جهنم .

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ أى نحن اعلم بالأعمال

الظاهرة والباطنة التى صاروا بها أولى العصاة اصطلاء بنار جهنم .

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ أى أنتم

أنها الناس ستردون على جهنم جميعا ، وتقتربون منها وتدخلونها ليخرج منها من فاز ونجا ... ويقيم فيها من يستحق العذاب الأليم .

ومعنى "الورود" هنا الدخول ، والكناية راجعة إلى النار ، فيدخلها البر والفاجر ثم ينجي الله الذين اتقوا منها فيخرجون منها بعد دخولها . وقد قال بذلك فريق من العلماء مستدلين بما روى عن نافع بن الأزرق رضي الله عنه أنه سأل ابن عباس رضي الله عنه عن معنى الورود فقال ابن عباس رضي الله عنه : هو الدخول .

فقال نافع : ليس الورود الدخول فقرأ ابن عباس عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾^(١) أدخلها هؤلاء أم لا ؟ ... ثم قال : يا نافع والله أنا وأنت سنردها ، وأنا أرجو أن يخرجني الله منها ، وما أرى الله أن يخرجك منها بتكذيبك .

فمن قال بدخول المؤمنين النار يقول من غير خوف ، ولا ضرر ، ولا عذاب البتة ، بل مع الغبطة ، والسرور ، لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم لا يحزنهم الفزع الأكبر .

فإن قلت : كيف يدفع الله عن المؤمنين حر النار وعذابها ؟

قلت : يحتمل أن الله تعالى يخدم النار حتى يعبرها المؤمنون .

ويحتمل أن الله تعالى يجعل الأجزاء الملاصقة لأبدان الكفار من النار محرقة ، والأجزاء الملاصقة لأبدان المؤمنين تكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت في حق إبراهيم عليه السلام ، وكما أن الملائكة الموكلين بها لا يجدون ألمها .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٩٨ .

فإن قلت : إذا لم يكن على المؤمنين عذاب فما فائدة دخولهم النار ؟

قلت : في دخول المؤمنين النار وجوه :

أحدها : أن ذلك مما يزيدهم سرورا إذا علموا الخلاص من النار .

وثانيها : أن فيه مزيد غم على أهل النار ، حيث يرون المؤمنين يتخلصون منها وهم باقون فيها .

وثالثها : أنهم إذا شاهدوا ذلك العذاب الذي عليه الكفار صار ذلك سببا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة .

وقال قوم آخرون : ليس المراد من ورود الدخول ، وقالوا لا يدخل النار مؤمن أبدا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴿٢﴾ ﴾ ^(١) فعلى هذا يكون المراد من ورود الحضور والرؤية ، لا الدخول كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَّدِينَ ﴾ ^(٢) أراد به الحضور .

والقول الأول أصح ، وعليه أهل السنة لأنهم يرون أن الجميع يدخلون النار ثم يخرج الله منها أهل الإيمان ، بدليل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُخِجِ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أي اتقوا الشرك ، وهم المؤمنون ، والنجاة إنما تكون مما دخلوا فيه ، يدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " لا يموت لأحد من المؤمنين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم " ^(٣) . وفي رواية : " فيلج النار إلا تحلة القسم " ، وأراد بالقسم قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٢٣ .

(٣) صحيح مسلم . كتاب البر والصلة . باب فضل من يموت له ولد ج ٤ ص ٢٠٢٨ .

(٤٩٦)

عن أم مبشر الأنصارية أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة : " لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها .

قالت : بلى يا رسول الله ... فانتهرها .

فقالت حفصة : وان منكم إلا واردها .

فقال النبي ﷺ : قد قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ﴾ ^(١) .

وقال خالد بن معدان : يقول أهل الجنة ألم يعدنا ربنا أن نرد النار ؟

فيقال : بلى ولكنكم مررتم بها وهي خامدة ^(٢) .

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ﴾ أى بعد

دخول الجميع النار ينجي الله الذين اتقوا ، ويخرجهم منها إلى جنات النعيم ، ويترك الظالمين جاثمين على ركبهم فى جهنم لأنهم ظلموا أنفسهم وأهليهم ، وكفروا بالله تعالى .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن منكرى البعث يتعجبون من خروجهم من قبورهم أحياء مرة أخرى فيعرفهم الله تعالى أن البعث أيسر وأهون من الخلق الأول . ويقسم الله تعالى على أن البعث حق ، وأنه سبحانه سيضع الكافرين فى جهنم ويعاقبهم بكفرهم ، فأشدهم كفرا أشدهم عذابا يوم القيامة ، وينجي الله المؤمنين من النار .

(١) الاعتقاد للبيهقي . باب القول في أصحاب النبي ﷺ ج ١ ص ٣٢٢ .

(٢) المعجم الكبير للطبراني ج ١٣ ص ٣٤٩ .

(٤٩٧)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

البعث حق لا ريب فيه

قام الإسلام ابتداء على التوحيد واليوم الآخر ، لأن التوحيد أساس الدين والإيمان باليوم الآخر يعنى المحاسبة على طاعة الله أو معصيته ، وبذلك يخشاه العباد فيبتعدون عن معصيته خوفا من ناره ، ويرجوه الفاهمون فيطيعونه طمعا في جنته .

إلا أن فريقا من الناس في كل زمان ومكان ينكر البعث ، ويتعجب من القول به ، ولا يتصور حدوثه ، ويقول : كيف يكون هناك بعث بعد الموت ، وقد تحقق الفناء والبلى ، وتداخلت الأجساد ، وصارت ترابا ، طار مع الريح . وقد رد الله هذا الإنكار لأنه قائم على الجهل وسوء الفهم ، والتقدير وذلك لأنهم لا يقدرון الله حق قدره ، ونسوا خلقه لهذا الكون على سعته وتنوعه ، وجهلوا أن البعث إعادة للخلق الأول ، والإعادة أهون وأيسر ، ولن يغيب عنه خلق جسد رم ، وطار في الهواء ، وخالق السموات بكواكبها ونجومها ، والأرض بسهولة ومرتفعاتها ، والحياة بتنوعها في الإنسان والحيوان والطيور والهوان قادر على أن يخلق ما يشاء .

يقول الله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۚ ﴾ ٧٨ ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۚ ﴾ ٧٩ ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ۚ ﴾ ٨٠ أَوَلَيْسَ

(٤٩٨)

الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ
الْعَلِيمُ ﴿٤٩٨﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٩٩﴾ فَسُبْحَنَ
الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٠٠﴾ ﴿١﴾ .

الركيزة الثانية منهج الترغيب والترهيب فى الدعوة إلى الله تعالى

الترغيب والترهيب منهج دعوى له تأثيره فى المدعويين لأنه ينير المستقبل ،
ويبين المصير الذى يترتب على العمل فى الدنيا .
إنه باختصار يعرف الناس بآثار الإيمان ، وآثار الكفر .
فمن آمن وعمل صالحا فاز فى الآخرة ، واستحق الجنة جزاء من الله ،
وعطاء على عمله .

ومن عصى الله ، وتكبر ، وأبى الطاعة فله جزاؤه المؤلم فى الآخرة حيث
يعاقبه الله بنار جهنم ويؤس المصير .

ويتخذ الترغيب والترهيب صورا متعددة فهو يكون بيانا خبريا عن الحال
فى الآخرة مثل قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ﴿٥٠٦﴾ وَمَنْ
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ﴿٥٠٧﴾ ﴿٢﴾ .

ويكون جزءا من قصة قرآنية فيها بيان لمصير المؤمنين ، ومصير الضالين .
ويكون فى إطار مناقشة مباشرة للمواقف البشرية لبيان مصير الموقف
ونتائجه كما فى هذه الآيات حيث بينت خطأ منكرو البعث وجزاءهم ، ووضحت
أن جزاء المؤمنين الجنة .

(٢) سورة الزلزلة ، الآية ٧ ، ٨ .

(١) سورة يس ، الآيات ٧٨ . ٨٣ .

ويأتى الترغيب ملازماً للترهيب ليعرف المدعو نتيجة الخير والشر .

وعلى الدعاة :

الاستفادة بهذا المنهج مع ربطه بالعمل فى أطر قليلة لإبعاده عن التخويف والفرع ، أو الفرع الشديد والأمل .

رد مقالة الكافرين عن القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۚ ﴾ ﴿٧٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِءْيَا ۚ ﴿٧٧﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَدًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا أَعْدَابٌ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ۚ ﴾ ﴿٧٨﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هُدًى ۚ وَالْبَاقِيَتُ الصَّلَاحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۚ ﴾ ﴿٧٩﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة رأى منكرو البعث وردت عليهم جاءت هذه الآيات لرد مقالة أخرى للكافرين بالنسبة للقرآن الكريم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن القول بكثرة المال والسلطان فى الدنيا شهادة حق لهم يرفعهم عن القرآن الكريم وأهله . فقد سبقهم أمم تمتعت بالجاه ، والقوة ، والغنى ومع ذلك لم تفضل غيرها .

والأمر كله بيد الله تعالى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الحكيم الخبير .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِيِّنَتٍ قَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ أُو۟ى ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ أى أن الذين كفروا كانوا إذا سمعوا آيات القرآن الكريم ، وهى بينة فى دلالاتها ، وهديها ، يقولون للمؤمنين : أيننا نحن أو أنتم أعلى مكانة ، وأكثر مالا وولدا ، وأنعم بالآ ، وأفضل مسكنا ، وأجمع عددا ... فتركوا الجوهر ، وتمسكوا بالأعراض الزائلة ، والوهج المؤقت . ويقولون عن القرآن الكريم : ﴿ لَوْ كَان خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾^(١) .

يرد الله عليهم هذا القول بقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِءْيَا ﴾ أى وكم أهلكننا من الأمم قبلكم يا أهل مكة أقواما كانوا أكثر منكم مالا ، وأشد منكم قوة وسلطانا ، وجاها ، فأهلكهم الله تعالى لكفرهم ومعاصيهم ، ولم تمنع وجاهتهم عنهم من العذاب شيئا .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ أى من ضل عن سبيل الله ، وكفر بما أنزل على محمد ﷺ زاده الله ضلالا ، وعزه بالنعيم الدنيوى ، وأكثر له اللذائذ والمتع ... فقد جرت سنة الله بأن من كانوا منهمكين فى الضلالة ، مرخين لأنفسهم الأعنة فى سلوك المعاصي والآثام ، ييسط الله لهم نعيم الدنيا ، ويطيب عيشهم فيها ، ويمتعهم بأنواع اللذات ، ولا يزال يمهلهم

(١) سورة الأحقاف ، الآية ١١ .

استدراجا لهم إلى أن يشاهدوا ما وعدوا به رأى العين ، إما عذابا فى الدنيا كما حصل يوم بدر ، واما مجئ الساعة وهم بها مكذبون ، وعن الاستعداد لها مفطرون ، واذ ذاك يعلمون من هو شر من الفريقين مكانا وأن الأمر على عكس ما كانوا يقدرّون ، وسيرون أنهم شر مكانا ، وأضعف جندا ، وأقل ناصرا من المؤمنين ، وهذا رد على قولهم : ﴿ أَيْ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ .

وقصارى القول أن من كان فى الضلالة فسنة الله أن يمد له ويستدرجه ليزداد إثما ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، إما بعذاب فى الدنيا يأتيه من حيث لا يحتسب ، واما بعذاب فى الآخرة لا قبل له بدفعه ، وحينئذ يعلم البغاة أنهم كانوا فى ضلال مبين ، وسوف يندمون ، ولات ساعة مندم ، ويعلمون أن البغي مرتع مبتغيه وخيم ، لا يجدى عن النار محيصا ولا مهربا .

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ أى ويزيد الله الذين مالوا

للإيمان ، وأحبوا رضوان الله ، والتزموا بالصراط المستقيم ... يزيّد الله هؤلاء إيماننا فوق إيمانهم كرامة لهم .

﴿ وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ أى

والباقيات هى الأعمال الصالحة التى تبقى آثارها مع صاحبها فى ثواب عظيم عند الله تعالى ، وخير عاقبة يرد إليها صاحبها يوم القيامة .

وفى ذكر الباقيات هنا إشارة إلى أنها أفضل وأحسن من مباحج الحياة الدنيا التى يفتخر بها الضالون .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الكافرين إذا تتلى عليهم آيات القرآن الكريم لا يسمعون له ويلجأون إلى المظاهر الكاذبة ، ويتصورون أنفسهم أفضل مما يسمعون لأنهم

(٥٠٢)

أكثر مالا ، وولدا ، وجاها ، وسلطانا ، وتبين الآيات أن ذلك وهم كاذب فكم من أهل القرون كانوا أكثر منهم مالا وولدا ، وأشد قوة ، وأحسن وجاهة ، وأعظم مسكنا ، ومع ذلك أهلكهم الله تعالى بكفرهم ، ولم تنفعهم أموالهم وأولادهم ، وسلطانهم !!!

وتبين الآيات أن الله مطلع على قلوب عباده فمن علم ميله إلى الضلال أمد له فى الدنيا ، وبسط له فيها وله الآخرة عذاب أليم ، ومن كان ميله إلى الهدى زاده الله هدى ، وجازاه بالأعمال الصالحات خيرا وثوابا فى الآخرة .

- ٥ -

ركائز الدعوة الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الاكتفاء بالمظهر وحده

خداع كاذب

يهتم المنافق بمظهره ، ويتصور المظهر كافيا فى تحقيق ما يريد ، وهو ظن باطل لا يصح عقلا وشرعا .

أما العقل فإنه يرفض ذلك ويرى أن الأمر الحق يعتمد على الجوهر دون العرض ، لأن الجوهر يقوم بالذات ، ويبقى ببقائها ، ويزول بزوالها ... أما العرض فإن اتصاله بالذات يظهر ويختفى ، ويوجد وينتهى .
أما بطلانه شرعا فإن الحكم على الشئ نابع من حقيقته ، والتصديق بأمر ما ناشئ من تصور حقيقته .

ولهذا عرض الإسلام الحقيقة فى الوحي المنزل على رسول الله ﷺ فى صورة آيات تتلى ، تتميز بالوضوح والبيان ، وتربط الموجودات بالموجد ،

وتوضح أن القرآن الكريم كلام الله تعالى أنزله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، راضين مقتنعين .

وكان المعقول أن يناقش الكفار آيات القرآن بعد أن تلاها رسول الله ﷺ ويتأملون حججها ، ويناقشون براهينها البينة . إلا أنهم بدل ذلك أخذوا يعرضون وجاهتهم الاجتماعية ، وكثرة أموالهم وأولادهم ، ظانين أن هذا يكفى فى المواجهة والغب .

إن هذا هروب من الواقع ، وعجز فى المواجهة ، واعراض عن الحقيقة إن المظهر الكاذب لا يجوز ، ولا يفيد ، والاكتفاء به باطل ، وقد عاب الله على المنافقين لأنه يرون المظهر يكفى فى إثبات الحقيقة فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ ۚ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ ۖ فَبْتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۚ ﴾ (١) .

إن المظهر يزول وتبقى الحقيقة ، ولو نظر المشركون إلى الأمم السابقة لعرفوا أن الله أهلهم مع أنهم كانوا أكثر مالا ، وأحسن مسكنا ، وأعظم مظهرا ، وأقوى عددا وعدة .

إن المظهر إذا عارض المخبر لا يفيد شيئا ، والحكم الحق يقوم على التصور الشامل للمظهر والمخبر معا ... فرب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره ، والمرء بأصغريه قلبه ولسانه ... ومضغة القلب إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله .

ومن هنا ...

لا يصح لمسلم أن يحكم على أمر ما بمظهره الخارجى ، ولا بد من معرفة حقيقته ومخبره ، ليكون الحكم عل بينه واضحة ، وصدق تام .

(١) سورة المنافقون ، الآية ٤ .

ولا يصح الانخداع بالظاهر لأن الباطن هو الذى يحدد الحقيقة ، ولذلك كان توجيه القرآن الكريم لرسول الله ﷺ . يقول الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ۗ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ^(١) .

الركيزة الثانية

مسئولية الإنسان عن إيمانه وكفره

الإنسان مسئول عن عمله ، يحاسبه الله عليه ، ويجازيه به إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وقد حاول العلماء بيان أساس هذه المسؤولية لأن الله فاعل كل شئ ، ولا يقع فى ملكه إلا ما أراد ، ولأنه سبحانه وتعالى لم يأمر بالكفر أبدا . نظر العلماء فى الآيات ورأوا أن الميل القلبي لأمر ما يوجد فى الإنسان فيقتنع به شعوريا ، ويتمناه فى عالم الواقع ، وهو الذى يسميه العلماء بـ "الكسب" فيقدر الله له ما يتمنى ، ويمده به ، ويحقق أماله وأحلامه فيزداد ضلاله ، حتى يأتيه عذابه فى الدنيا أو فى الآخرة ، وحينئذ يدرك الضال فساد ما كان فيه من ضلال وفساد .

إن الذين يعيشون فى المنكرات ، البعيدين عن الصراط المستقيم لا يمكنهم النفرقة بين ميولهم النفسية ، وحركتهم العملية ، وينغمسون فيها انغماسا كليا ، ولا يستطيع أحدهم تمييز أمانيه عن مراد الله وقدرته فيه ، وبذلك تقوم الحجة عليهم ، ويقررون باستحقاقهم العذاب الأليم ، ويعلمون حينئذ قيمة الإيمان ويعلمون أى الفريقين خير مقاما ، وأحسن ندبا .

(١) سورة المنافقون ، الآية ١ .

أما المؤمنون فهم يحبون الإيمان ، ويميلون للهدى ، فيوفقهم الله للأعمال الصالحة ويزيدهم هدى ، ويرزقهم تقوى الله وخشيته .
وسيعلم المؤمنون أن العمل الصالح خير ثوابا ، وخير أملا .

الرد على المستهزئين بالبعث

يقول الله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَّوَلَدًا ۖ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۖ وَنَرَاهُ مَا يَقُولُ وَبِآيَاتِنَا فِرْدًا ۖ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآية

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال : كنت رجلا قينا في الجاهلية ، وكان لي على العاص بن وائل السهمي دين فأنتيته أنقاضاه .
فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد .
فقلت : لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث .
قال : واني لميت ثم مبعوث ؟
قلت : بلى .

قال : دعني حتى أموت ، وأبعث فسأوتي مالا وولدا فأقضيك . فنزلت :
﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾ ^(١) .

- ٢ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة صحة البعث ، وأقامت الأدلة على ذلك جاءت هذه الآيات لبيان سفاهة المشركين في أقوالهم عن البعث وانكارهم له .

(١) صحيح البخارى . كتاب البيوع . باب ذكر القين والحداد ج ٣ ص ٦٠ .

(٥٠٦)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِعَآيَاتِنَا ﴾ ؟ ... الاستفهام للإنكار والتعجب .

والمعنى انظرت يا محمد بعجب ودهشة إلى حال الكافرين ، فإنهم حينما أنذروا بالبعث والحساب فقد استهزأوا بآياتنا المثبتة للبعث ﴿ وَقَالَ ﴾ الكافر منهم مستهزئنا ﴿ لَا أُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ أى أنه زعم ، وأكد ، وأقسم أنه إذا بعث سيكثر ماله ، وولده ، ويزيد ما سيناله فى الآخرة عن ما هو فيه فى الدنيا .

وهذا الزعم من الكافر لا يصح إلا بأحد طريقين :

أحدهما : أن يطلع على الغيب ، ويرى ما ادخره الله له ، وهو المراد بقوله : ﴿ أَطْلَعَ الْغَيْبَ ﴾ ؟ ... وهذا لم يحدث .

ثانيهما : ﴿ أَمْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ أى يتخذ عهدا من الله

تعالى يؤكد له قوله الذى زعمه وهذا لم يقع .

وحيث أن أحد هذين الطريقين لم يحدث فإن زعمهم كذب ، لا صواب فيه وهو زعم معتمد على الكبرياء والاستهزاء .

﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ أى ليس

الأمر كما زعموا فهم لم يطلعوا على الغيب ، ولم يأخذوا عهدا من الله تعالى وسيزيد الله عذابهم ، ويمد لهم فى العذاب مدا كبيرا .

﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ أى ونسلب الكافر المال ، والولد فى

الدنيا حين يتركه بموته ، ورجوعه إلينا ، ونأخذه منه أخذ الوارث لما يرثه ، ويعود إلى الله وحده يحاسبه ، ويسأله ، ويجازيه .

(٥٠٧)

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الكافر يستهزئ بالبعث ، ويدعى أنه إن بعث سيجعل الله له مالا ، وولدا أكثر مما أعطاه الله له في الدنيا ، وهذا زعم باطل لا يعتمد على أمور تؤكده ، لأن القول به لا يكون إلا بالاطلاع على الغيب ، أو اتخاذ عهد من الله تعالى ، وهذا الزعم لم يقم على شئ من ذلك ، ولذلك سيسلبه الله ماله وولده ويحشره فردا وحيدا .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

أوهام الكافرين ضلالات باطلة

يستمر الكافرون على ضلالهم ، ويلعب بهم شيطانهم ، ويتصورون إهمال عذابهم انتصارا لهم ، ويدعون أن نعم الدنيا ستكون لهم في الآخرة أيضا ، ويستغرقون في لذاتهم ، ومتعمهم . وهذا وهم باطل لأن الجزم بالشئ يقوم على أدلة بينة ، وبراهين ثابتة ... وتحقيق زعمهم يحتاج إلى الاطلاع على الغيب ، ومعرفة ما قدره الله فيه أو أخذ عهدا من الله تعالى ولا وجود لشئ من هذا فلا اطلاع لهم على غيب ، ولم يعطهم رسول الله عهدا بذلك ... فهم غارقون في الكفر والضلال وسوف يحاسبهم الله تعالى ، ويسلبهم ما أعطيناهم ، ونعيدهم إلينا فرادى كما أوجدناهم في الدنيا .

وعلى ذلك :

تحتاج أى دعوى إلى دليل ، وأعداء الإسلام يكيّدون للإسلام بالأكاذيب ويشيعون الفساد بين الناس بمسميات براقة تحتاج إلى اليقظة والحذر ، وعلى الدعاة أن يدافعوا عن دينهم ، وينقضوا مزاعم الكفار بالبرهان الصحيح .

ضلال المشركين وضياع آمالهم

يقول الله تعالى :

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ۚ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذَابًا ۚ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۚ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ۚ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة استهزاء المشركين بالبعث جاءت هذه الآيات لبيان اتخاذهم شركاء مع الله وضلالهم في ذلك .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين اتخذوا آلهة مع الله ليكونوا لهم مجدا وعزا يرتفعون بها ، وخاب أملهم لأن ذلك لن يحدث ، وسوف تتبرأ الأصنام ممن عبدها ، وتعارضه ، وترد زعمه ، لأن الله لا يصلح عمل المفسدين ، وهو سبحانه يرسل الشياطين على الكافرين تضلهم ضلالا بعيدا ، فلا تطلب يا محمد لهم عذابا يستأصلهم ، لأن الله أعد لهم مصيرا مؤلما يليق بهم في موعد يعلمه سبحانه وتعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ ﴾ أى أن أهل مكة

عبدوا غير الله تعالى ، واتخذوا الأصنام آلهة ليعتزوا بها ، ويجعلوها شفعاء

تقريبهم إلى الله تعالى .

﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أى ليس الأمر كما ظنوا ، وأملوا فى أنها تتقدمهم من عذاب الله ، وتنجيهم منه ... بل ستجد الآلهة عبادتهم ، وتنتبرا منهم ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ۚ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾^(٢) .

ويقول سبحانه حاكيا عن الأصنام : ﴿ مَا كَانُوا إِلَّا نَا يَعْبُدُونَ ﴾^(٣) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴾ أى ألم

تعلم يا محمد أنا سلطنا الشياطين على الكافرين ، ومكناهم من إضلالهم وفسادهم بالإغراء ، والأحلام ، والإغواء فضلوا ضلالا بعيدا .

﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذًّا ﴾ أى فلا تتعجل نزول

عذاب الاستقصاء بهم ، لأن الله أعد لهم عذابا أليما يناسب كفرهم ، وحدد موعده لهم ، والزمن يمضى ، وسيأتى موعد نزول العذاب بهم حتما .

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ أى اذكر يا محمد لقومك يوم

الحشر ، وما يحدث فيه للمتقين والمشركين حيث يحشر المؤمنون إلى الله كراما

(١) سورة النحل ، الآية ٨٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٦ .

(٣) سورة القصص ، الآية ٦٣ .

ركبانا كما يأتي الوافدون على أبواب الملوك محاطين بالحماية والتكريم .

أما المشركون ﴿ وَنُسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴾ أى وسوف نسوق المشركين إلى جهنم مشاة قد تقطعت اعناقهم من العطش . فهم كالدواب التى ترد الماء إلا أنهم لا يجدون إلا المهل يحرق وجوههم .
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق ، راغبين ، وراهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، وتحشر معهم النار تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمضي معهم حيث أمسوا" (١) .

وعنه رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : "يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ، صنفا مشاة ، وصنفا ركبانا ، وصنفا على وجوههم .
قيل : يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم ؟ ...
قال ﷺ : إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، أما أنهم يتقون بوجوههم كل حذب وشوك" (٢) .
وهكذا يسوق الله الكافرين بسبب جرائمهم إلى جهنم فى صورة منكرة ، ومنظر بئيس .

﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ أى لا يملك أحد من العباد الشفاعة إلا من أعد لها عدتها ، وكان عبدا صالحا ، وهؤلاء بعدوا بكفرهم عن الله بعدا كبيرا .

(١) سنن النسائي . كتاب الجنائز . باب البعث ج ٤ ص ١١٥ .

(٢) سنن الترمذى . كتاب أبواب التفسير . باب من سورة بنى إسرائيل ج ٥ ص ٣٠٥ .

وفى هذه دعوة للمؤمنين ليتخذوا لهم عهدا عند الله بالطاعة ينتفعون به يوم القيامة .

روى أن ابن مسعود رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال : أتخذ عند الله عهدا ، فإن الله يقول يوم القيامة : من كان له عند الله عهد فليقم .
قالوا : يا أبا عبد الرحمن فعلمنا .

قال : قولوا : "اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، إني أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا ألا تكلنى إلى عمل يقربنى من الشر ، ويباعدنى من الخير ، وانى لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لى عندك عهدا تؤديه إلى يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد" (١) .

وأخرج الطبراني فى الأوسط عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :
"من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ، ومواقبتها وركوعها ، وسجودها ، لم ينتقص منها شيئا جاء وله عند الله عهد أن لا يعذبه ومن جاء قد انتقص منها شيئا فليس له عند الله عهد ، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه" (٢) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الشياطين عبدوا الأصنام ، وجعلوها آلهة ليعتزوا بها فى الدنيا ، ولتكون شفعا لهم عند الله ، لكن الأمر ليس كذلك لأن الأصنام ستنتبرا منهم وتهجرهم ، وتعارض من عبدوها .

لقد مكن الله الشياطين من إخوانهم المشركين ، وسلطهم عليهم فأغوهم وأضلّوهم ، فلا تعجل على استئصالهم وسيأتى العذاب الذى يستحقونه فى

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج ٤ ص ٢٧١ .

(٢) المعجم الأوسط ج ٤ ص ٢١٥ .

(٥١٢)

موعه ... ولن يملك أحد الشفاعة إلا من عمل لها ، واستحقها من عباد الله الصالحين .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تبين الآيات ركيزة هامة ... هي :

الأمل يحتاج إلى العمل

يتمنى الإنسان لنفسه الخير ، ويسعى إليه ودائما يجد نفسه أمام طريقين :
يجد طريقا يدعوه إلى طاعة الله ، والاستقامة على دينه ، **وطريقا آخر** يدعوه إلى الفحشاء والمنكر ... وهو بين هذه الطرق إما أن يكون شاكرا ...
واما أن يكون كفورا .

ومن خلال سلوك الإنسان وعمله يتضح الطريق الذي اختاره لنفسه .
إن الكافر يتخذ من دون الله أصناما آلهة ، ويعبدها رجاء أن تعالى شأنه وتمجده في الدنيا ، وتشفع له في الآخرة ، وهذا طريق البوار والخسران لأن الأصنام لا تنفع ولا تضر ، ولم تطلب من أحد أن يعبدها ، ولذلك ينطقها الله يوم القيامة فتتبرا ممن عبدوها ، وتعارضهم ، وتبين ضلالهم ، وتوضح أن طاعتهم للشياطين كانت سببا في ضياعهم وفسادهم ، وسوف يحاسبهم الله في موعد قدره لهم يسوقهم فيه إلى جهنم وهم عطشى .

أما المؤمنون فقد علموا قدر الله فآمنوا به ، واستقاموا على منهجه ، وسوف يكرم الله وفادتهم إليه ، ويسكنهم جنات النعيم .

إن العمل يحقق الأمل ، وهذا يحتاج من الإنسان أن يحدد أمله أولا ، ويتصوره في إطار صحيح مستمد من الواقع ، ومن وحى له تعالى ، ومن دعوة الرسل للناس أجمعين ، وبذلك يكون الأمل حسنا بعيدا عن الهوى واللعب ، بعيدا عن الفحشاء والمنكر .

(٥١٣)

وبعد تحديد الأمل يكون العمل له بمعايير تكافئه . فالعمل الصالح يؤدي إلى صلاح ، والذي خبث لا يخرج إلا نكاد ... ومن مسلمات العقل أن شجرة الحنظل لا تخرج عنبا ... ومن زرع حصد ... ومن يبني يعلو ... ومن يهدم ينزل إلى قاع سحق ...

ولم يترك الإسلام الإنسان للشيطان يلعب به ، فحدد له الأمل ، وعين الطرق المؤدية .

ومن هنا ...

وجب على الدعاة أن يقدموا الإسلام للناس في صورته العملية ، ودعوته إلى العمل الصالح للوصول إلى جنات النعيم .

لقد أمل الكافرون في العز والجد ، ولكنهم أخطأوا الطريق إلى ذلك فعبدوا الأصنام ، وأشركوا بالله لتحقيق أملهم ، فضاع أملهم وفسد ، عملهم ، وجوزوا بما لم يريدوا ، وساقهم الله فرادى إلى جهنم عطشى لا يجدون فيها إلا المهل يشوى الوجوه .

أما المؤمنون فقد جعلوا أملهم الجنة واستقاموا على طريق الله فهداهم الله للحق ، وساقهم إليه وفودا مكرمين ، يحسن الملائكة استقبالهم ، وتكثر إثابة الله لهم ، وينعمون في الفردوس الأعلى .

رد القول بأن لله ولدا

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٣٠﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٣١﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٣٢﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٣٣﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٣٤﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٣٥﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٣٦﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضلال من اتخذ مع الله آلهة أخرى جاءت هذه الآيات لبيان ضلال من جعل لله ولدا .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن بعض الناس جعل لله ولدا ، وتوضح أن ذلك أمر خطير وكذب واضح تنتقع السموات والأرض من القول به ، ولا يصح أن يتخذ الله ولدا ، فالخلق جميعا عباده ، وكل واحد سيأتى يوم القيامة فردا خاضعا للحساب والجزاء .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ أى وقال اليهود والنصارى : إن الله اتخذ ولدا حيث قالت اليهود: ﴿ عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ ﴾^(١) وقالت النصارى: ﴿ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾^(٢)

(١) سورة التوبة ، الآية ٣٠ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٣٠ .

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ أى لقد جئتم بقولكم هذا بأمر منكر ، شديد الأثر لأنه يتنافى مع حقيقة الألوهية ، ويؤدى إلى ضلال كبير .

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ أى أن ادعاء ولد لله تعالى يذهل الكون كله لشدة الافتراء فيه ، وجراته فى الباطل ، حتى أن السموات تكاد أن تنقطع ، وتنشق ، وتكاد الأرض أن تخسف وتزول ، وتكاد الجبال أن تسقط وتنهدم .
 إن القول بوجود ولد لله تعالى قول مردود ، لا يصح لأن الله واحد ، لا شريك له ، ولا يحتاج لغيره ، ولا يقبل الحدوث ، ولا يحل به الفناء .

والقول بالولد يعنى انعدام الألوهية ، لأن الشأن فى ذلك أن الألوهية كانت ناقصة قبل وجود الولد ، وأنها محتاجة لحادث بعد وجود الولد ، وأن الكون عاش بلا إله يوم موت هذا الولد .

إن الكون كله يكاد أن ينهدم ويزول للقول بأن لله ولدا ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ أى إن دعوة أن للرحمن ولدا يزيل القيم ويضيع الدين ، ويفسد الحياة كلها .

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أى لا يصح ، ولا يجوز أن يتخذ الرحمن ولدا لما فى ذلك من نقص لا يجوز اتصاف الله به .

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ هذا إنكار للقول باتخاذ الله ولدا لأن كل مخلوق فى السموات والأرض سيأتى

(٥١٦)

يوم القيامة عبدا لله تعالى ، خاشعا ذليلا مهما أتاه الله فى الدنيا من معجزات وكرامات .

﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى أحصى عبيده

جميعا ، وأحصاهم إحصاء دقيقا فلا تخفى على الله خافية فى عباده جميعا .

﴿وَكُلُّهُمْ عِندَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ أى كل الخلق ، وجميع الناس

يرجع إلى الله تعالى ، وسيأتون للحساب فرادى لينال كل ما قدمت يداه .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات كذب من اتخذ الله ولدا ، فلقد جاءوا بأمر منكر فظيع ، يكاد الكون أن يزول بسبب هذه المقالة الشنيعة ، ولا يصح أن يكون لله ولد ، لأن كل من فى السموات والأرض يأتى الله وحده للحساب والجزاء .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

توضح الآيات ركيزة هامة ... هى :

الوحدانية المطلقة

أساس الدين وقوام الحياة

من أساسيات الدين اليقين بأن الله واحد لا شريك له ، فقد دعى الرسل جميعا إلى ذلك ، وقدموا لها الحجج والبراهين إلا أن فريقا من الناس زعموا لله ولدا ، واتخذوه إلها معه ... وهذا أمر ينفى التوحيد ، ويؤدى إلى الكفر والضلال ، ويناقض آيات خلق السموات والأرض والجبال .
والبرهان العقلى ينفى وجود ابن لله تعالى لعدة أمور :

(٥١٧)

الأمر الأول : القول بألوهية الابن شرك يناقض التوحيد .

الأمر الثانى : القول بألوهية الابن يؤدى إلى عجز الأب وحاجته ، وتجربته ، وعدم صلاحيته للألوهية .

فإن قيل : إن الأب والابن يتعاونوا فى الإنشاء والتقدير . فما ضرر ذلك ؟

أقول : أن ذلك يعنى عجز كليهما ، ويؤدى إلى نقض الألوهية لما يلى :

(١) إثبات عجز الأب قبل وجود الولد .

(٢) إثبات عجز الأب حين موت الولد .

(٣) بيان حاجة الأب إلى ولد .

(٤) قدرة الإنسان على هزيمة الإله .

(٥) محدودية الإله وهو فى بطن أمه ، وهو يواجه الناس ، وهو يدافع عن أمه .

(٦) تصور حدوث خلاف بين الابن والابن يؤدى إلى فساد العالم ... وهذا أمر لا وجود له .

الأمر الثالث : الكون كله يشهد بوحدانية الله بصورة مطلقة ، ويجب عدم القول بغير هذا .

إن كل من فى السموات والأرض مخلوق لله تعالى .

وعلى الدعاة :

التركيز على إثبات الوحدانية المطلقة لله تعالى ، وإظهار آياتها وبراهينها الموجودة فى القرآن المنزل ، والكون المخلوق .

وفى كل شئ له آية .: تدل على أنه الواحد

جزاء المؤمنين فى الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۖ
فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ۖ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ۖ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ۖ﴾ .

- ١ -

صله الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة شناعة من اتخذ ولدا لله تعالى جاءت هذه الآيات
ببيان فوز من وحد الله ، وعبدته وحده ، واستقام على الصراط المستقيم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات مصير المؤمنين فى الآخرة ، وتوضح استفادهم بالقرآن الكريم
فهو مبشر لهم ، ومنذر لغيرهم ، وتسأل الآية عن هلاك الأمم السابقة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۖ﴾

تؤكد الآية أن الله تعالى أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات محبة ومودة تحيطهم
من قبل الله تعالى ، وتأتيهم من عباده بعدما ألهمهم الله حبهم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : "إذا أحب الله سبحانه وتعالى
عبدا دعا جبريل عليه السلام إن الله تعالى يحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، فينادي

جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض" (١) .

ويقول رسول الله ﷺ : "إن الله سبحانه وتعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل ﷺ فقال : إني أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغض الله عبدا دعا جبريل ﷺ فيقول : إني أبغض فلانا فأبغضه ، فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ، ثم يوضع له البغضاء في الأرض" (٢) .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴾ أى أنزلنا القرآن الكريم ، ويسرنا قراءته بلغتك العربية ، لتبشر به المؤمنين ، وتتنذر به أقواما يخاصمونك ، ويكفرون بالله تعالى .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ يُحْسِبُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ﴾ أى أن الدنيا لا تدوم ، وعلى العقلاء أن يعتبروا بهذا وينظروا إلى الأمم السابقة فقد أهلكها الله تعالى ، فلا وجود لأحدهم ، ولا صوت لهم ، ولو كان خافتا .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله تعالى أعد للمؤمنين حبا ومودة يحيطهم بها ، وينشرها لهم فى قلوب الناس ، ويسر لهم القرآن الكريم فنزل بلغتهم ليعرفوا بشارته ،

(١) صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق . باب ذكر الملائكة ج ٤ ص ١١١ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب البر والصلة . باب إذا أحب الله عبدا ج ٤ ص ٢٠٣٠ .

(٥٢٠)

ويفهموا إنذاراته ، ووجه الناس إلى اتخاذ العبرة من الأمم السابقة فقد أهلكهم الله بسبب كفرهم ولم يبق منهم أحد ، فلم يرههم أحد بعد إهلاكهم ، ولم يسمع أحد لهم صوتا خافتا ضعيفا .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الله ولي الذين آمنوا

الذين آمنوا بالله ورسوله ، ودخلوا في الإسلام ، واستقاموا على طريق الحق ، والتزموا منهج الله تعالى يتولى الله أمرهم ، ويوفقهم ، ويعينهم وينصرهم في الدنيا وفي الآخرة .

فهم حزب الله ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(١) .

إنهم المؤمنون الصادقون وهم الذين صدقوا ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾^(٢) .

إن الله سيكرم هؤلاء المؤمنين بالمودة والحب يأتيهم من الله والملائكة والناس أجمعين .

وهم في الآخرة في جنات النعيم . يقول الله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ^ط فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ

(١) سورة المجادلة ، الآية ٢٢ .

(٢) سورة محمد ، الآية ٢ .

(٥٢١)

طَعَّمُهُ وَأَنْهَرُ مِنْ خَمْرِ لَذَّةِ الشَّرِبِينَ وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ
الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ
أَمْعَاءَهُمْ ﴿١﴾ .

الركيزة الثانية

دور القرآن الكريم فى الناس

أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلغة العرب ليفهمه من نزل فيه ، ويتحركون
به ، ويستفيدون منه وليكون مبشرا للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ، ومنذرا
للعصاة والمذنبين . يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ
وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلٌ أَعْمَلُهُمْ ﴾ (٨) .

الركيزة الثالثة

ضرورة الاستفادة بالماضى

يحتاج الإنسان إلى صورة عملية يرى فيها الحق ، ويعرف الصواب لما
للواقع العملى من تأثير يفوق التوجيه النظرى ... ولذا جعل الله من الأمم
السابقة التى أهلكها الله بسبب كفرها برهانا شاهدا من الواقع الذى أبقاه فى
الأرض .

إن المشاهد يرى هذه الأمم ... وتسأل الآية :

هل تجد أحدهم حيا ؟

أو تسمع له قولا ؟

أو تتشاهد وجودا وحركة ؟ ...

(١) سورة محمد ، الآية ١٥ .

(٢) سورة محمد ، الآية ٧ ، ٨ .

(٥٢٢)

إن شيئاً من ذلك لن يكون عسى أن يتذكر الإنسان ويعتبر .
إن في ذلك لعبرة لأولى الألباب .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "مريم" بتوفيق الله تعالى .

التعريف بـسورة "طه"

(०२३)

التعريف بسورة "طه"

يحتاج التعريف بسورة "طه" إلى المباحث التالية :

- أولا -

تنزيلات السورة

سورة "طه" سورة مكية بالإجماع^(١) ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا السيوطي في الاتقان فذكر أن آيتين نزلتا بالمدينة هما قوله : ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۚ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ فِيهِ ۚ وَرَزَقُ رَبِّكَ حَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝ ﴾^(٢)

ويبدو أن هاتين الآيتين نزلتا مع السورة في مكة ، وقرئتا في المدينة فمن سمعهما أول مرة ظنهما مدينتين فقال بذلك^(٣) .

نزلت سورة "طه" بعد سورة "مريم" .

وعدد آياتها مائة وأربعون آية عند الشاميين ، ومائة وخمس وثلاثون عند الكوفيين ، ومائة وأربع وثلاثون عن الحجازيين ، ومائة واثنان وثلاثون عند البصريين .

وقد نزلت السورة قبل إسلام عمر رضي الله عنه لما رواه ابن إسحاق رضي الله عنه في سيرته قال : "خرج عمر رضي الله عنه متقلدا بسيف . ففيل له : أن خنتك وأختك قد صبوا ،

(١) تفسير البحر المحيط ج ٦ ص ٢٢٤ .

(٢) سورة طه ، الآية ١٣٠ ، ١٣١ .

(٣) التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٨٠ .

(٥٢٦)

فأتاهما عمر وعندهما خباب بن الأرت رضي الله عنه يقرئهما سورة (طاه) ، فقال :
أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرأه ؟
ف قالت له أخته : إنك رجس ، ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل أو
توضأ .

فقام عمر ، وتوضأ وأخذ الكتاب فقرأ "طه" . فلما قرأ صدرا منها قال : ما
أحسن هذا الكلام وأكرمه" إلى آخر القصة حيث ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في
دار الأرقم وأعلن إسلامه .

وكان إسلام عمر في سنة خمس من البعثة قبيل الهجرة الأولى إلى
الحبشة فتكون هذه السورة قد نزلت في سنة خمس ، أو أواخر سنة أربع من
البعثة^(١) .

- ثانيا -

أسماء السورة

للسورة ثلاثة أسماء هي :

- (١) ﴿ طه ﴾ وهي حروف مقطعة مكونة من حرفين .
- (٢) وتسمى بسورة "الكليم" لأن أغلب آياتها تقدم قصة الكليم موسى عليه السلام .
- (٣) وتسمى السورة بسورة "موسى" لحديثها المطول عنه عليه السلام .

- ثالثا -

بيان صلة سورة "طه" بسورة "مريم"

تتصل سورة "طه" بسورة "مريم" بعدة أوجه :

الوجه الأول :

تتفق السورتان في بدء كل منهما بحروف مقطعة .

(١) التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٨٠ .

الوجه الثانى :

فى آخر سورة "مريم" وردت آية تتحدث عن القرآن الكريم ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾^(١) ، وجاءت سورة "طه" فى أولها تتحدث عن القرآن الكريم أيضا وذلك فى قول تعالى : ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۖ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى ۚ ﴾^(٢) .

الوجه الثالث :

تعد سورة "طه" تفصيلا لبعض ما أجمل فى سورة "مريم" وذلك من موضعين أساسيين هما :

أحدهما : أن سورة "مريم" أوردت قصة موسى وهارون عليهما السلام بصورة مجملة فى ثلاث آيات قصار هى قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾^(٣) وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾^(٤) ، وجاءت قصة موسى وهارون عليهما السلام فى سورة "طه" مفصلة فى آيات عديدة بلغت تسعين آية استغرقت أكثر من نصف السورة .

ثانيها : أوردت سورة "مريم" مسمى "آدم" فى آية واحد مع غيره من الرسل ، وفى سورة "طه" وردت قصة "آدم" عليه السلام فى سبع عشرة آية .
وبذلك تعد سورة "طه" تفصيلا لبعض ما جاء مجملا فى سورة "مريم" .

(١) سورة مريم ، الآية ٩٧ .

(٢) سورة طه ، الآية ٢ ، ٣ .

(٣) سورة مريم ، الآيات ٥١ . ٥٣ .

الوجه الرابع :

بدأت سورة "مريم" ببيان معجزة الله لذكرى عليه السلام فقد رزقه الله ولدا رغم عقم زوجته ، وشيخوخته ، ومثلها بدأت سورة "طه" فقد بدأت بولادة زوجة موسى عليه السلام ، وهى فى سيناء ورؤيته نارا ذهب إليها فإذا هى الله يأمره بالعبادة ، ويكلفه بالنبوة . كما يقول الله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿٢﴾ فَلَمَّا أَتَتْهَا أُودِيَ بِمُوسَى ﴿٣﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿٤﴾ ۝ ١٢٠ ۝ ﴾ (١) .

- رابعا -

موضوعات السورة

تتميز سورة "طه" بشبهها الموضوعى مع سورتى "يوسف" عليه السلام ونوح عليه السلام فلقد تضمنت سورة "يوسف" قصة "يوسف" كاملة ، كما تضمنت سورة "نوح" قصة "نوح" كذلك ، وجاءت سورة "طه" بقصة "موسى" كاملة بدءا من مجئ الوحي إليه ، وهو فى برية سيناء ، وتسير معه وهو يدعو فرعون ، وقومه ، وهو يناجى ربه ويكلمه ، وتعرض السورة قصة "آدم" عليه السلام موجزة فى ربيعها الأخير .

ومن خلال قصتى "موسى" و "آدم" عليهما السلام تتحدث الآيات عن يوم القيامة ، وعن أركان الإيمان ، فتفصل فى صفات الله ، ونزول الوحي والكتب التى أنزلت إلى الرسل بواسطة ملائكة الله تعالى، وفى ذلك بيان للعقيدة والخلق الكريم .

(١) سورة طه ، الآيات ٩ . ١٢ .

سورة "طه"

التفسير

(٥٣٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٣١)

اسم السورة

يقول الله تعالى :

﴿ طه ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبدأ السورة بهذين الحرفين " ط ، هـ " وقد جاء الحرفان مترابطين في في مصحف عثمان رضي الله عنه وسميت السورة بهذين الحرفين " طه " وهما يقرآن بالفتح مع القصر ، وشذ جماعة فقرأوها بفتح الطاء وسكون الهاء .
وقد ذهب المتقنون من العلماء إلى أن هذين الحرفين من الحروف المقطعة .

- ٢ -

الدلالات اللغوية للحروف المقطعة

﴿ طه ﴾ ذكر العلماء من دلالة الحروف المقطعة إفادتها للتنبيه ، والرمزية في إثبات أمر هام .
وبأتى التنبيه بأنها تثير فكر المستمع لها وتجذبه نحوها ، وإذا به يسمع لحديث عن القرآن الكريم فيفهمه ، ويعلم شيئاً عن حقيقة هذا الكتاب العظيم .
وبتساءل مستمع هذه الحروف عن الحكمة في النطق بها حرفاً حرفاً فيدرك أنها تخبره بالمكونات الأساسية للقرآن الكريم . فهو كلام الله تعالى ركبه من جنس حروف كلام العرب ، وأثبت عجزهم بعد ذلك بأن تحداهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ليعلموا أنه كلام الله ، وأن محمداً رسول الله ، جاءهم بدين الله ، ومعه أدلة صدقه الكائنة في القرآن الكريم المكون من حروفهم ، الناطق بلسانهم ، الهادى إلى سواء السبيل .

(٥٣٢)

- ٣ -

ركائز الدعوة فى الحروف المقطعة

بينت قضايا عدة عن فوائد الحروف المقطعة فى أوائل السور التى ابتدأت بها فيما سبق من السور ، واكتفى هنا بإيراد ركيزة مستفادة منها ... وهى :

خير الكلام ما قل ودل

البلاغة هى الإيجاز ، مقولة قالها العلماء ، وأرادوا بها أن الكلام القليل الدال على المراد خير من الكلام الكثير الذى لا يفيد ، لأن قلة الكلام تقوم على تركيز المعنى ، والقصد المباشر للغاية ، وهذا يوفر الوقت ، والجهد ، ويصل إلى المعنى المقصود بشكل مباشر صريح .

وتعد الحروف المقطعة مثالا واضحا لهذا الإيجاز ، ولو جئنا لمختلف آراء المفسرين فيها لوجدناها جميعا تبين هذا الإيجاز فى دلالات الحروف المقطعة ، الأمر الذى يؤكد للأفهام هذه الركيزة التى نهىس بها فى أذن الدعاة .
إن عالم اليوم واسع الثقافة ، متعدد النشاط ، كثير المشاغل ، والدعوة فيه تحتاج إلى وقت سريع تضع فيه الحقيقة أمام الناس .

لقد شاع فى القرآن المكى قصر الآيات ليقدم الدعوة موجزة لإنسان تلهيه مشاغله عن دعوة طويلة يسمع فيه دعوة طويلة .

إن الدعوة فى عالم اليوم تحتاج إلى تركيز الجهد ، واختصار الوقت ، والاختيار الموجز فى قضايا الدعوة ، وهذا ما نهىس به فى أذن الدعاة .

(٥٣٣)

تحقيق القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۖ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَنْ حَشَى ۖ
تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما أوردت الآية السابقة حروفا مقطعة جاءت هذه الآيات لبيان أن القرآن الكريم نزل لراحة الناس ، وتذكيرهم بطرق الخير والفلاح .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل القرآن الكريم على محمد ﷺ تسلياً له ، وراحة لنفسه ، وهداية للناس ، وتذكيراً لمن يتذكر ويعرف ، ولم ينزله الله للمشقة والتعب .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۖ ﴾ الشقاوة ضد السعادة ، ومعناها فرط التعب ، وشدة العنت ، والتكليف بما لا يطاق ... والخطاب في الآية لمحمد ﷺ وللمن آمن به ليعلموا أن الله لم يجعل القرآن سبباً لشقاء أحد ، فقارئه لن يشقى به فهو ميسر للذكر ، ولا يصح التكلف في قراءته ، والعمل به فهو في طاقة البشر ، والمؤمنون يسعدون به لأنه يصلهم بالله تعالى .

ولم ينزل القرآن الكريم ليشقى به أحد من الناس حين لا يؤمنون به ،
 وحين يزعمون أنه سحر ، وأنه من أساطير الأولين ، وأنه من تأليف محمد ﷺ
 فقد آنسك ربك يا محمد ، ورد مزاعمهم ، وعرفك بهم ، وثبتك أمامهم
 ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(١) وكفاك فى إبلاغهم
 التذكير ، يقول الله تعالى : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾^(٢) ، ويقول سبحانه :
 ﴿فَمَنْ نَكَّ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾^(٣) .

﴿إِلَّا تَذَكُّرَ لِّمَنْ تَخْشَى﴾ أى أن الله أنزل القرآن تذكرة لمن يريد
 أن يتذكر ، لأن من يميل للحق يحب سماعه ، وحين يسمعه يرغب فى العمل
 به ، ويخشى عصيانه ، وبذلك يتذكر بذكره ، ويهتدى بنوره ، ويسعد بمعية الله
 وصحبته . أما الذى لا يتذكر به فلم تتناوله الآية ، لأنه والعدم سواء لأن
 التذكر استحضار المنسى بعد العلم به ، فالفطرة تشمل التوحيد ، والشرك
 يغطيها ، والتذكر يزيل الغطاء عن الفطرة ، ويحيى التوحيد ، ومن أفسد فطرته
 لا يتذكر أبدا .

ومعنى الآيتين ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن الكريم لنتعب بالمبالغة فى
 مكابدة الشدائد فى قراءته فقد يسرناه للذكر ، أو فى العمل به فلا حرج فى دين
 الله ، ولا فى مقاومة العتاة ، ومحاوراة الطغاة ، وفرط التأسف على كفرهم ،
 والتحسر على أن يؤمنوا به كقوله تعالى شأنه : ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ
 ءَآثَرِهِمْ﴾^(٤) بل لتبلغ وتذكر ، وقد فعلت ذلك ، وبلغت الرسالة فلا عليك إن

(١) سورة الفرقان ، الآية ٣٣ .

(٢) سورة الغاشية ، الآية ٢١ .

(٣) سورة الفتح الآية ١٠ .

(٤) سورة الكهف ، الآية ٦ .

(٥٣٥)

لم يؤمنوا بعد ذلك ، ولم تنزل القرآن الكريم لتجهد نفسك فى قراءته ، وفى المجاهدة فى العبادة ، كما سمعت فيما أخرج ابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه أي ما أنزلناه عليك لتتعب بها نفسك ، وحملها على الرياضات الشاقة ، والشدائد الفادحة ، وما بعثت إلا بالحنيفة السمحة^(١) .

﴿ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ أى أن القرآن الكريم

أنزله الله تعالى بعدله ، وقدرته لإسعاد الناس ، وابعادهم عن العنت والشقاوة وعدل عن ذكر اسم الله الصريح إلى الصلة والموصول لبيان ما فى حيز الصلة وهو أن الله خالق السموات العالية ، والأرض المنبسطة .

ولبيان أن من خلق هذا الكون بسماواته ، وأرضه ، وبكل ما فىهما إله رحيم ، ينزل ما فيه الخير ، عظيم قادر على فعل ما يريد ، حلیم خبير لا يشقى عباده بقرآنه الكريم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل القرآن الكريم رحمة للناس ، وهداية لهم ، ومنهجا لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وتعرف النبي ﷺ أن الله لم ينزل القرآن لتشقى به فى عبادتك ، وقراءتك ، أو تشقى بانصراف الناس عنه . فما هو إلا تذكير بالحق ، وإحياء للفطرة ، وسوف يتذكر به من سلمت فطرته وخشى الله رب العالمين .

(١) التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٨٢ .

(٥٣٦)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

القرآن الكريم منهج كريم للحياة

أنزل الله القرآن الكريم دستورا لدينه ، ومنهجاً للصراط المستقيم ، ولذلك أحاطه الله بعدد من العوامل التي توضح منهجيته .

فهو . أولا . منزل من الله تعالى ، وهو كلام الله المحكم في تشريعه ، المتصف بما وصفه الله به ، من كمال ودقة .

وهو . ثانيا . يدعو إلى الخير ، ويحقق المصلحة ، وهو خال من العوج والاختلاف لا يترتب عليه تعب ولا مشقة ، فقراءته ميسرة ، وفهمه سهل ، وتطبيقاته في حدود الطاقة ، والدعوة به بيان مجرد .

وهو . ثالثا . تذكرة وموعظة يكتفى بالبلاغ والبيان ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

وهو . رابعا . منهج للإصلاح ، وطريق مستقيم من سار على هديه نجا ، ومن تمسك به فاز وسما .

إن القرآن الكريم خير مصدر للدعاة ، منه يعلمون دينهم ، ومن قصصه وأساليبه يأخذون أساليب وطرق دعوة الناس . يقول الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۖ ﴾^(١) .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٩ .

(٥٣٧)

الركيزة الثانية القرآن تذكره وبيان

أنزل الله القرآن الكريم خطابا للعقول ، وبرهانا وبيانا للحق ، وتوضيحا للصراط المستقيم .

دعا القرآن الكريم إلى الإيمان ، واعتمد على الحجة والبرهان والدليل ، وعلى مختلف أساليب البيان والفصاحة فلا إكراه فى الدين ، ولا خفاء ولا غموض فى الدعوة إلى الله تعالى .

تقوم دعوة القرآن الكريم على الفهم والوضوح ، وعلى الحرية والرضى وليس لها سوى هذا المنهج لأنها تخاطب العقل ، وتتأشد الوجدان ، وتتأدى الروح وتلك جوانب لا بد معها من الحرية ، لأن هذه الجوانب تتعامل مع الجوانب الخفية فى الإنسان ، وهى الجوانب التى لا يصح معها إكراه مطلقا ، لأنها إذا أكرهت لجأت إلى الصمت والسكون ، وحافظت على قناعتها بعيدا عن الناس . وقد وقف الكافرون من القرآن الكريم موقفا غريبا حين قالوا ما حكاه القرآن عنهم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾^(١) . فقد قابلوا نداءات القرآن الكريم بالغوغائية ، وجعلوا ذلك طريقهم للغلب والانتصار .

وأخذ الكافرون يواجهون الحق بالهرب منه ، واللجوء إلى قضايا جانبية لا صلة له بالدعوة التى عرضها القرآن الكريم . يقول الله تعالى مبينا ذلك :
- ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنَا بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾^(٢) .

(١) سورة فصلت ، الآية ٢٦ .

(٢) سورة يونس ، الآية ١٥ .

(٥٣٨)

- ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾^(١) .

لقد لجأ الكافرون إلى أمور لا صلة لها بالدعوة ، ولم يواجهوا الآيات البينات بما يكافئها من حجة ، وبرهان .

إن القرآن الكريم يفيد من له ميل للحق ، وحب للخير ، واستعداد للإيمان إنه دعوة لأصحاب القلوب الخاشعة فهم الذين يتذكرون إذا ذكروا ، ويسمعون إذا دعوا ، وتنجذب أرواحهم وجوارحهم للحق والصواب .
إن القلوب الذاكرة ، والأرواح القانئة هي التي تستمع لبيان القرآن الكريم وترضى بدين الله تعالى .

بيان عظمة الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿١﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٢﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٣﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٤﴾﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الله أنزل القرآن الكريم لتحقيق سعادة الناس بلا عنت ولا مشقة جاءت هذه الآيات لبيان عظمة الله منزل القرآن الكريم .

(١) سورة مريم ، الآية ٧٣ .

(٥٣٩)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن منزل القرآن الكريم هو الله تعالى ، المتصف بكل كمال يليق به سبحانه وتعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

لما ذكرت الآية السابقة أن الله خلق الأرض والسموات العلاء أخذت هذه الآيات تبين بعض صفات الله تعالى المتصلة بعنايته بخلقه ، وانزاله القرآن الكريم لتحقيق الخير لهم ... وهذه الصفات هي :

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ أى أن الله متصف بصفة الرحمة ، والاستواء على العرش . فقد أخبر الله بذلك ، ولا حاجة للتأويل والتشبيه فرحمته شاملة لعباده ، وهو سبحانه مستو على عرشه .

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾

أى أن الله مالك الملك ، له كل موجود أوجده ، فالسماوات وما فوقها ، والأرض وما تحتها ، وكل ما بين السماء والأرض مملوك له سبحانه وتعالى .

﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ أى أنه سبحانه عليم بكل شئ فهو عليم بالظاهر ، والخفى ، والجهر المعلن ، والسر الخفى ... والخطاب للنبي ﷺ ، ويعم غيره من المسلمين .

واختير في إثبات سعة علم الله تعالى خصوص علمه بالمسموعات لأن السر أخفى الأشياء عن علم الناس في العادة . ولما جاء القرآن مذكرا بعلم الله تعالى توجهت أنظار المشركين إلى معرفة مدى علم الله تعالى ، وتجادلوا في ذلك في مجامعهم .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : اجتمع عند البيت ثقفيان ، وقرشى أو قرشيان وثقفى ، كثيرة شحم بطونهم ، قليلة فقه قلوبهم .
فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع ما نقول ؟
قال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا !

وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ^{(١)(٢)} . وقد كثر فى القرآن أن الله يعلم ما يسر الناس وما يعلنون ، ولا أحسب هذه الآية إلا مثل قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونِ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ^(٣) .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ أى أن الله واحد ، لا شريك له فى ألوهيته ، وقد سمى ذاته بأسماء عديدة خاصة به سبحانه وتعالى لا تكون لغيره أبدا ... وقد يسمى بها الإنسان كالعليم ، والحليم ، والقوى إلا أنها تختلف اختلافا عن المراد بها فى أسماء الله تعالى لأنها فى غيره لا تبلغ منتهى كمال حقيقتها كما هى الله تعالى .

وسميت أسماء الله بالحسنى لبيان أنها تدل على معان كاملة جامعة لما يجب أن يكون لله تعالى ، وبذلك تميزت أسماء الله عند إطلاقها على غيره سبحانه وتعالى .

(١) سورة فصلت ، الآية ٢٢ .

(٢) صحيح البخارى . باب ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ ﴾ ج ٦ ص ١٢٩ .

(٣) سورة هود ، الآية ٥ .

(٥٤١)

واسم ﴿الله﴾ لا يدل على وصف كأسمائه الحسنی لدلالته على الذات المنفردة بالألوهية ، واقتترانها بـ "ال" لبيان انحصار الألوهية في ذاته سبحانه وتعالى ، فهو واجب الوجود ، وهو المستحق للعبادة وحده .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات بعض صفات الله تعالى فهو الرحمن ، وهو المستوى على العرش ، وهو مالك الملك ، وهو العليم الخبير ، وله الأسماء الحسنی ، وهو الواحد الأحد .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

الأمر كله لله تعالى

توضح الآيات بعض صفات الله تعالى لبيان مدى عنايته بعباده ، وحبه لإيمانهم ، وعودتهم الصادقة إليه . فهو سبحانه رحيم بهم ، ومن رحمته إنزال كتابه ، وإرسال رسوله ، وهو سبحانه مستو على عرشه ، متحكم في خلقه ، والكل له ، يخصصهم بعطائه ، ويرزقهم ويمدهم بما يملكه في كونه الفسيح ، وهو العليم بالناس ، يعطيهم بحكمته وعدله ، وهو سبحانه معلوم بذاته وأسمائه الحسنی .

إن التعريف بالله يدفع الناس إلى الإيمان بالله تعالى فهو حقه الواجب وهو طريق الفوز للناس .

إن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، والإيمان به جزء من الإيمان بالله تعالى .

قصة "موسى" ﷺ

تناولت سورة "طه" قصة "موسى" ﷺ فى أكثر من تسعين آية بدءا من الآية رقم (٩) وهو قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ... وانتهاء بالآية رقم (٩٨) وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ .

وقد جاءت القصة بعد آيات ثمان جاءت فى أول السورة تتحدث عن نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ ليقراه فى يسر ، ويدعو به الناس فى أناة ، بعيدا عن العنت والمشقة ، وقد جعله الله دستور الدعوة ، ومنهج الله تعالى للناس ، وتبين بعض صفات الله وأسمائه التى يجب الإيمان بها .

وقد جاءت قصة موسى ﷺ تسليية لرسول الله ﷺ ، وبيانا لضرورة الصبر فى الدعوة إلى الله تعالى ، ولتوضيح أن النصر فى النهاية هو للمؤمنين الصادقين .

وقد جاءت قصة موسى مطولة فى القرآن الكريم ، ولم تتحدث عن طفولته ونشأته ، وتربيته فى بيت فرعون ، وفراره إلى الشام وزواجه من ابنة شعيب كما هو شأن القصة فى سورة "القصص" ، وانما بدأت القصة فى سورة "طه" من تكليفه بالرسالة وهو عائد بزوجه إلى مصر ، وأشارت بإيجاز إلى حياته قبل الرسالة .

ونظرا لطول القصة ، فإننى سأقسمها إلى عدد من المقاطع حيث يمثل كل مقطع جانبا من القصة ، وسوف أؤخر الركائز المستفادة إلى نهاية القصة .

والله الموفق ،،

(٥٤٣)

المقطع الأول

تكليف موسى ﷺ بالرسالة

يقول الله تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿٢﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَى ﴿٣﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿٤﴾ وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿٥﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿٦﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿٧﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿٨﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ذكر نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ بما فيه من تذكير ودعوة بعيدا عن العنت والمشقة جاءت هذه الآيات بقصة موسى ﷺ ليتأسى به رسول الله في تحمل أعباء النبوة ، والقيام بتكاليف الرسالة والصبر على الأذى والشدائد ، حتى ينال عند الله تعالى الفوز ، والمقام المحمود .

- ٢ -

موضوع المقطع الأول

يبين المقطع الأول تكليف موسى بالرسالة ، وتعليمه الأصول الرئيسية في دين الله تعالى ، وتحدد زمن ومكان اتصاله بالله تعالى .

(٥٤٤)

- ٣ -

خلاصة المقطع الأول من خلال دلالة الآيات

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ؟ ... الاستفهام للتقرير ، والسؤال

لمحمد ﷺ تسليية ، وتعليما ، ودعوة ... وقد جاء السؤال بـ "هل" التي تفيد تحقق المسئول عنه غالبا ، والحديث هو الكلام الدائر حول موضوع ما ، ويراد به هنا قصة موسى ﷺ . والمعنى : لقد جاءتك يا محمد قصة موسى ﷺ حيث بلغ الدعوة ، وصبر على الأذى ، وتحمل العنت حتى نصره الله في النهاية . فتعلم ، ومن معك بهذا واقتد به .

﴿ إِذْ رَأَى نَارًا ﴾ أى حين رأى نارا كان يريجوها ليتدفأ بها من البرد الشديد

، ذلك أن موسى ﷺ استأذن شعبيا في الرجوع من مدين إلى مصر ليزور والدته ، وأخاه فأذن له ، فخرج بأهله وماله وكانت أيام الشتاء ، فأخذ غير الطريق مخافة ملوك الشام ، وكانت امرأته حاملا في شهرها ، لا يدري أليلا تضع أم نهارا ، فسار في البرية غير عارف بطرقها فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربي الأيمن ، وذلك في ليلة مظلمة مثلجة شاتية شديدة البرد ، لما أراد الله من كرامته ، فأخذ امرأته الطلق فأخذ زنده فجعل يقدر فلا يورى فأبصر نارا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور .

﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ أى أنه ﷺ لما رأى النار

رغب فى إحضار شئ منها ، فقال لزوجته على الفور : ابقوا حيث نحن الآن فإنى أبصرت النار وسأتجه نحوها .

﴿ لَعَلَّيْ ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ أى سأذهب

نحوها أملا فى إحضار شعلة منها ، أو أجد عندها أناسا أعرف منهم الطريق الذى اسلكه نحو مصر ، ويبدو أن الوقت كان ليلا ، والبرد كان شديدا وأنه وأهله جلسوا فى مكان لا يعرفون السير منه إلى مصر ، لأنه شاهد النار من بعد ، ولا يكون ذلك إلا ليلا ، وأنه أمل فى شعلة للتدفئة أو هاد يعرفه الطريق إلى مصر .

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَى ﴾ أى فلما اقترب موسى ﷺ من النار

لم يجد نارا وانما شاهدنورا ينبعث من شجرة يانعة خضراء ، فاقترب منها ، وحينئذ ﴿ نُودِيَ يَمُوسَى ﴾ إِنِّى أَنَا رَبُّكَ ﴿ أى أتاه صوت من الشجرة ،

فقال موسى ﷺ : إني أسمع صوتك ، ولا أرى مكانك فأين أنت ؟ ...

فجاء صوت ينادى : أنا فوقك ، ومعك ، وأمامك ، وخلفك ، وأقرب إليك منك ... فعلم موسى ﷺ أن ذلك لا يكون إلا الله تعالى ، فأيقن به ، واندمجت فيه جوارحه ، ومشاعره ، وبصره ، وبصيرته .

﴿ إِنِّى أَنَا رَبُّكَ ﴾ أى إني أنا الله قد توليت أمرك ، وأعنتك واخترتك

رسولا .

﴿ فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ ﴾ أى اخلع حذاءك صيانة للمكان المقدس الذى

تقف فيه الآن .

﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ أى أنت الآن فى واد طاهر مستدير

منخفض .

﴿ وَأَنَا آخَرْتُكَ ﴾ أى وقد اخترتك للرسالة .

﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ أى تأهب لهذا الاختيار والاصطفاء ، واستعد

لنتلقى الوحي ، وتبليغ دين الله تعالى إلى من يكلفك الله بإبلاغهم .

وأساس التهيئة الدينية ، والاستعداد لاستقبال رحمة الله تعالى أمور هى :

(١) الإيمان المطلق بوحداية الله تعالى فليس له سبحانه شريك ، ولا مثيل له ولم يتخذ ولدا ، وليس له شريك فى الملك والقضاء ، وهذا مراد قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ أى لا إله غيرى أبدا .

(٢) قصر العبادة لله وحده حيث أمر الله موسى ﷺ بعبادته وحده بعد الإقرار بألوهيته سبحانه وتعالى ، وذلك فى قوله : ﴿ فَأَعْبُدْنِي ﴾ .

(٣) الشعور الدائم بجلال الله تعالى من خلال تذكره ، وخلوص العبادة له وربط الأعمال بالعبادة ، لأن التزام الجوارح والروح فى الصلاة تذكر بالله تعالى ، وتقوى الإحساس بالمعية الإلهية ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ .

(٤) الإيمان باليوم الآخر لأنه خير دافع للأعمال الصالحة فى الدنيا ، حيث تؤكد هذا الآيات أن جزاء الأعمال لا يضيع ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ^(١) ومجئ هذا اليوم لا ريب فيه ، وقد استأثر الله بالعلم به لتسعى كل نفس لتحقيق ما تتمنى ، وهذا معنى قوله : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ أى أن الساعة آتية حتما أكاد أخفيها فى نفسى فلا

(١) سورة الزلزلة ، الآية ٧ ، ٨ .

(٥٤٧)

يعلمها أحد من خلقى . فكيف أظهرها لكم ؟ ... فلا تتأثر بالضالين ...
لقول الله تعالى : ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
فَتَرَدَّى ﴾ أى لا تتأثر بمن لا يؤمن بيوم القيامة ، ولا يصرفك عن
الإيمان بها من يكفر بها ، ويتبع الهوى لأنك إن أطعتهم تهلك ولا
تستفيد شيئاً .

- ٤ -

معنى المقطع الأول

يبين المقطع الأول موسى عليه السلام وهو راجع بزوجه من مدين إلى مصر
وفى ليلة باردة أتى المخاض زوجة موسى عليه السلام ، فرأى نارا من بعيد ، وحاول
إحضار جزء منها أو أراد أن يقابل إنسانا يعرفه بالطريق إلى مصر ، فلما
ذهب نحو النار وجد شجرة خضراء ترسل نورا فعلم أنه الله التى عرفه بعدة أمور
:

- (١) أنه الله وقد اختاره موسى عليه السلام للرسالة .
- (٢) أنه عبد مسئول أمام الله الواحد الأحد .
- (٣) أن العبادة لله وحده .
- (٤) أن الصلاة تحقق الاتصال بالله ، وتذكره .
- (٥) أن يوم القيامة آت لا ريب فيه لتجرى كل نفس بما كسبت .

المقطع الثانى

كلام الله لموسى عليه السلام

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ۚ ﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيَّهَا
وَأَهْشُرُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ۚ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَىٰ ۚ ﴿١٩﴾
فَالْقَنَاطِئُ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۚ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۚ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا
الْأُولَىٰ ۚ ﴿٢١﴾ وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةً أُخْرَىٰ
﴿٢٢﴾ لِّئَلَّا تُكَذِّبَ ۚ ﴿٢٣﴾ أَدْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۚ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ
أَسْرِحْ لِي صَدْرِي ۚ ﴿٢٥﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ۚ ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّي لِسَانِي ۚ يَفْقَهُوا
قَوْلِي ۚ ﴿٢٧﴾ وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۚ ﴿٢٨﴾ هَارُونَ أَخِي ۚ ﴿٢٩﴾ أَشَدُّ بِمَنِي أَرْزَىٰ ۚ ﴿٣٠﴾
وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ۚ ﴿٣١﴾ كَىٰ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۚ ﴿٣٢﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۚ ﴿٣٣﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا
بَصِيرًا ۚ ﴿٣٤﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَىٰ ۚ ﴿٣٥﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

آيات المقطع الثانى متصلة بآيات المقطع الأول لأنهما فى إطار
قصة واحدة .

- ٢ -

موضوع المقطع الثانى

تبين الآيات أحاديث التهيئة لموسى عليه السلام فقد كلمه الله تعالى ، وعرفه
ما معه من معجزات ، وطلب موسى من ربه أمورا يحتاج إليها فحققها الله له .

(٥٤٩)

- ٣ -

خلاصة المقطع الثانى من خلال دلالة الآيات

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴾ أخذ الله يكلم موسى بعد اختياره للرسالة ليأنس به ، وليعرف حقيقة معجزات الله تعالى . فسأله أولا عن عصاه التى كان يمسك بها بيمينه ... وناداه الله باسمه ﴿ يَمْوَسَىٰ ﴾ لتحقيق المؤانسة والإلف .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﷺ ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهْشُرُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ أى هى عصاى التى أملكها ، واستفيد بها فى اغراض شتى ، أتوكأ عليها فى سيرى ، واضرب بها ورق الشجر ليسقط على الأرض لتأكل منه الغنم ، وأردبها الدواب الضالة ، وأحمى بها الغنم من المعتدين .

واشتد بموسى ﷺ تعلقه بربه فأحب إطالة الحديث فقال : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ أى وللعصاة معى فوائد أخرى عديدة ... وكان موسى يتمنى أن يسأله الله عن المآرب الأخرى إطالة لملاقاة الحبيب . لقد شده حب ربه ، فتمنى أن لا ينتهى هذا اللقاء .

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَىٰ ﴾ أى أمره الله بإلقاء العصى ، وطرحها على الأرض ليرى معجزة الله فيها ، وليتقوى أمام فرعون الذى سيدعوه ، ويتدرب عليها فهى معجزته مستقبلا .

﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ أى ألقى موسى ﷺ العصا على الأرض فلم تبق عصا وانما تحولت إلى حية تجرى وتتحرك .

(٥٥٠)

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ^ط سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ أى قال الله

لموسى عليه السلام : خذ العصا ولا تخف منها ، وسترجع إليك عصا عادية كما كانت قبل إلقيائها .

﴿ وَأَضْمَمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً

أُخْرَى ﴾ أى ضع يدك تحت إبطك تخرج بيضاء بلا برص ، أو مرض لترى معجزة أخرى .

وبهذا أنس موسى لربه ، وأحب سماع كلامه ، ورأى الخوارق التى سوف تصدقه أمام الناس .

﴿ لِتُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ أى أرى الله موسى عليه السلام آياته الكبرى

التي سيعلو بسببها ، ويتعود عليها ، ويطمئن لمعية الله تعالى ، وكانت معجزة العصا واليد من أكبر آيات الله لموسى عليه السلام .

وبعد ذلك أمر الله موسى عليه السلام أن يدعو فرعون فقال له : ﴿ أَذْهَبَ إِلَى

فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ أى اذهب إلى فرعون ، وادعه إلى الله . فقد جاوز الحد فى العصيان والتمرد ، وبطر نعمتى ، وأمن مكري ، وأنكر ربوبيتى ، فاذهب إليه ، وادعه إلى عبادتى ، وحذره نقمتى حتى لا يغتر بلباس الدنيا ، ولا يجرى وراء الشيطان الرجيم .

استمع موسى لنداء ربه ، وأخذ يتدبر فخاف التقصير والعجز فى مواجهة فرعون وقومه فطلب من ربه أن يعينه فى طريق رسالته ، ف ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ

لِي صَدْرِي ^{١٥} وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ^{١٦} وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ^{١٧} يَفْقَهُوا

قَوْلِي ﴿١٨﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿١٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٢٠﴾ أَشَدُّ بِمَـٔةٍ
 أَزْرَى ﴿٢١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٢٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٢٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا
 ﴿٢٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٢٥﴾ وخلاصة طلب موسى ﷺ ما يلي :

أولاً : طلب أن يكمله الله بالقوة الشخصية وأن يذهب عنه ما كان يعتريه
 من انفعال ، وتسرع في الحكم ، والتنفيذ كما فعل يوم أن استغاث به الرجل من
 شيعة ، وحتى يتمكن بشرح صدره من تقبل المعارضة ، وحسن التعامل مع
 الأعداء برفق ولين . ومن المعروف أن انشراح الصدر يحول مشاق التكليف إلى
 متعة ، ويجعل مصاعب الطاعة لذة وحلاوة ، كما يجعل السعي للغاية مليئاً
 بالحيوية ، والنشاط ، والأمل فقال : ﴿ رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ وسبب ذلك أنه
 كان يخاف فرعون خوفاً شديداً ، لشدة شوكته ، وكثرة جنوده فكان يضيق بما
 كلف به من مقاومة فرعون وحده ، فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه للحق حتى
 يعلم أن أحداً لا يقدر على مضرتة ، إلا بإذن الله تعالى ، وإذا علم ذلك لم
 يخف من فرعون وشدة شوكته ، وكثرة جنوده .

ثانياً : طلب من الله أن ييسر له أمر النبوة ، وتبليغ الدعوة فقال :
 ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ لأن التيسير ما يسره الله تعالى ، وهو الذي يجعل الصعب
 سهلاً ، وهو مطلب يضمن له النجاح في الدعوة وفي غيرها ؛ لأن الإنسان
 بدون تيسير الله عاجز ، فهو محدود القوة ، والتصور ، والعلم ... والطريق
 طويل ، وشاق ؛ لذلك كان التيسير الإلهي ضرورة للنجاح .

ثالثاً : طلب من الله تعالى أن يرزقه البيان وحسن التلفظ حتى يفهم الناس
 قوله ، ويقفوا على مراده من دعوته فقال : ﴿ وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ﴾

يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ أى اطلق ياربى حبسة لسانى حتى يفهم فرعون وقومه دعوتى لهم ، ولا تبقى لهم حجة .

وعقدة لسان موسى ﷺ كان خلقه فيه ولد بها ... وقيل : إنها حدثت فى بيت فرعون ذلك أنه ﷺ نشأ فى حجره ، وحجر امرأته ، وقد ربياه واتخاذاه ولدا ، فبينما هو يلعب بين يدي فرعون ، وبيده قضيب إذ رفعه فضرب به رأس فرعون ، فغضب فرعون ، وتطير منه حتى هم بقتله .

فقال آسية : أيها الملك إنه صبي لا يعقل جربه إن شئت ، فجاءت بطشتين فى أحدهما جمر ، وفى الآخر جوهر فوضعهما فرعون بين يدي موسى ، فأراد موسى أن يأخذ الجوهر فأخذ جبريل يده فوضعها على الجمر فأخذ جمرة فوضعها فيه فاحترق لسانه وصارت فيه عقدة وكان هذا سببا لعفو فرعون عنه .

رابعا : طلب موسى ﷺ من ربه أن يشد أزره بأخيه هارون ، ويجعله وزيرا معه ﷺ فقال : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾ ﴿٢٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِمْ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ أى اجعل لى أخى هارون وزيرا وأرسله معى ، ليؤازرنى فى مهمتى ، ويحتمل معى ثقل الرسالة ، ويقوى ظهري ، ويعيننى فى تبليغ الرسالة .

خامسا : طلب موسى ﷺ معونة الله تعالى فى أن يواصل وأخوه طاعة الله تعالى ، ويذكروه بالحمد ، والشكر ، والثناء فهو سبحانه عليم خبير يفعل ما يريد ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ كَىٰ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴾ ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ .

(٥٥٣)

فاستجاب الله سؤال موسى عليه السلام ، و ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾
أى أجيب دعاؤك يا موسى ، وتحقق سؤالك فاذهب إلى فرعون ، وبلغه وأخوك
دعوتى .

وهكذا استجاب الله لموسى عليه السلام وأعطاه كل ما سأله ، ومع العطاء إيناس
وتكريم ... وأى تكريم أن يذكر الكبير المتعال اسم عبد من عباده .

- ٤ -

معنى المقطع الثانى

يبين المقطع ما حدث بين الله تعالى وبين موسى عليه السلام فى مرحلة تأهيله
للمسالة . فقد سأله الله عليه السلام العصا التى يمسكها بيمينه . فأجابه ببعض فوائد
فعرفه الله أنها معجزة الله أمام فرعون ، ودره على استعمالها ، وعرفه كذلك
بمعجزة اليد ، وهنا طلب موسى عليه السلام من ربه أموراً يحتاج إليها فى رسالته
فاستجاب الله له ، وحققها بقدرته سبحانه وتعالى .

المقطع الثالث

نعم الله على موسى عليه السلام

قبل الرسالة

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٢٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٢٨﴾ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ ﴾ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَابَةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٢٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ وَكُنْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٠﴾ وَأَصْطَبِعْنَاكَ لِنَبْلِيَكَ ۖ ﴾

— ' —

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة استجابة الله لما طلبه موسى عليه السلام جاءت هذه الآيات لبيان نعم الله على موسى قبل أن يرسله ، وبدون طلب من أحد .

— ٢ —

موضوع الآيات

تبيين الآيات النعم التي أسداها الله لموسى عليه السلام قبل أن يبلغه بالرسالة مثل إنجائه من فرعون ، والقاء المحبة عليه في قلوب الناس ، وترتيبه في بيت فرعون ، وتخليصه من المحن ، وذهابه إلى مدين ، وعودته إلى مصر ، وصناعته لله رب العالمين ليكون رسولا إلى بني إسرائيل والى فرعون .

(٥٥٥)

- ٣ -

ملخص المقطع الثالث من خلال دلالة الآيات

﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ أى وقد أنعمنا عليك يا موسى قبل طلبك هذا ، وأفضنا عليك مرات أخرى قبل هذا ، وبعد ذلك أخذت الآيات تبين هذه النعم :

إحداها : نجاته من الذبح ، وتربيته برعاية الله ، ورجوعه لأمه ، وذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴾ أى ألهمناها إلهاما بينا فلم تخبر بولادته جند فرعون الذين كانوا يقتلون ما يولد من أطفال بنى إسرائيل .

﴿ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ﴾ أى ألهمناها أن تصنع صندوقا من الخشب وتضعه فيه وقلنا لها : إن خفت عليه ﴿ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ أى ارميه فى نهر النيل ﴿ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ أى يوصله النهر إلى الشاطئ الذى يطل عليه قصر فرعون ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾ أى يلتقطه من النهر ويأخذه فرعون ، وهو عدولى ، وعدو لموسى .

وقد نفذت أم موسى ما ألهمت به فأخذت تابوتا ، وجعلت فيه قطنا ووضعت فيه موسى ، وقبرت رأسه وشقوقه ثم ألقتة في النيل . وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون . فبينما فرعون جالس على البركة مع امرأته آسية ، إذ هو بتابوت يجئ به الماء ، فأمر الغلمان والجواري بإخراجه فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا بصبي من أصبح الناس وجها .

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ أى جعلت كل من يراك يحبك ، وقد أحبك
 فرعون وزوجته حينما رأياك ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أى أخذك فرعون وزوجته
 ، واحسنا تربيته والله يردك وييسر لك كل خير .

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ أى تسير أختك لتطمئن ، وتطمئن أمك عليك ،
 وتدور حول القصر فتعلم أنهم يبحثون عن مرضعة لإرضاعك يعد رفضك
 الرضاعة من كل النسوة اللاتي أتوا بهن ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن
 يَكْفُلُهُ﴾ أى هل أحضر لكم مرضعة تتميز بإقبال الأطفال إليها ترضعه ،
 وتضمه إليها . فقالوا لها : نعم أحضرها فلما جاءت أقبل الغلام إليها ،
 ورضع منها ﴿فَرَجَعْنَكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أى قدرنا مجئ
 أمك إليك ترضعك ، وتراك ، وتضمك إليها ، وبذلك يطمئن قلبها ، ويهدأ
 خاطرها ، وتترك الغم ، والحزن والخوف الذى أصابها .

ثانيهما : ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ وبيان ذلك أن موسى
 عليه السلام مر فى شبابه برجلين يقتتلان ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾
 فَاسْتَغْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ^(١) .
 فأخرجه الله من مصر ، وهرب إلى مدين ، وبذلك نجاه الله من القتل ، ومن هم
 بقتله .

ثالثها : ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أى خلصناك من محن عديدة وقعت فيها
 فقد ولدت فى العام الذى يذبح فيه فرعون ذكور بنى إسرائيل فنجاك الله من

(١) سورة القصص ، الآية ١٥ .

الذبح ... وألقنك أمك فى الماء فنجاك الله من الغرق ، وأرجعناك إلى أمك بعد أن منعت من الرضاعة من غيرها ، ثم أخذت بلحية فرعون ، وخلصتك من عقوبة قتل المصرى ... وهكذا أنقذه الله من المحن ، واستبدل بها المنح .

رابعها : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ أى ومن الله عليك بأن هيا لك الإقامة بين أهل مدين مدة تزوجت فيها احدى بنات شعيب حين قال لك : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾^(١) .

﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَى ﴾ أى رجعت من عند شعيب بزوجتك ونبأتك فى موعد قدره الله لك ، وقد بلغت الأربعين .

قيل : إنه فر من مصر وعمره اثنتا عشرة سنة ، وخدم شعيبا عشر سنوات وبقي بعدها ثمانى عشرة سنة حتى وصل إلى سن النبوة ، وهو أربعون عاما ، عاد بعدها إلى مصر فكلمه الله فى طور سيناء ، وكلفه بالرسالة^(٢) .

﴿ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ أى اصطفينك ، واخترتك لوحى ، ورسالتى لتتصرف على إرادتى ومحبتى ، لأن القيام بالرسالة تصرف على إرادة الله تعالى .

- ٤ -

معنى المقطع الثالث

تبين الآيات النعم التى أنعم الله بها على موسى قبل الرسالة وهى نجاته

(١) سورة القصص ، الآية ٢٧ .

(٢) تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٦٩ .

من الذبح الذى قرره فرعون لأولاد بنى إسرائيل ، وانجأه من الغرق حين وضعته أمه فى صندوق ، وألقته فى اليم ، وسار به الماء حتى انتشله جنود فرعون فأحبه فرعون وزوجته ، وارجاعه إلى أمه بتحريم الرضاعة من غيرها ومجيئها لإرضاعه ، ونجاته من عقوبة قتل القبطى فى مصر حين جاء الرجل وقال له ما حكاه الله تعالى : ﴿ يَمْوِسَىٰ إِنَّ أَلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾^(١) ، وفراره إلى مدين ، وزواجه فيها من احدى بنات شعيب حيث قال له شعيب : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنِكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرْنِي ثَمَنِي حَجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾^(٢) ، وعودته إلى مصر حيث بلغ عمر الرسالة فاختاره الله رسولا حين عودته إلى مصر فى طور سيناء .

(١) سورة القصص ، الآية ٢٠ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٢٧ .

المقطع الرابع

تكليف موسى وهارون "عليهما السلام" بدعوة فرعون

يقول الله تعالى :

﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ ١ ﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ ٢ ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ ٣ ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴾ ٤ ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ٥ ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ أَهْدَىٰ ﴾ ٦ ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ ٧ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة المنن التي جعلها الله لموسى قبل الرسالة جاءت هذه الآيات لبيان الرسالة التي كلف الله بها موسى وأخاه هارون عليهما السلام وأرسلهما إلى فرعون .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات إرسال موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون ودعوته بأسلوب لين رقيق ، وتوضح معونة الله لهما .

(٥٦٠)

- ٣ -

ملخص المقطع الرابع من خلال دلالة الآيات

﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأُخُوكَ بِعَايَتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ أى إنى اخترتك

يا موسى للرسالة ومعك أخوك هارون وزيرا لك ، وجعلت معك الآيات التسع معجزات بينات تشهد لك بالصدق ، وتؤيدك أمام فرعون وقومه ، فاذهب أنت وأخوك لدعوة فرعون ، ولا تضعف ، ولا تفتر ، ولا تقصر ، وتذكر آياتى لك ونعمى الغامرة بك ، وداوم على الحمد ، والشكر ، والثناء .

﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أى اذهب أنت وهارون عليهما السلام

معا إلى فرعون فقد طغى وتجبر ، وادعى الألوهية ، وظلم الناس .

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ أى ادعوا بالقول الحسن ، والحديث الطيب ،

فوقع ذلك فى النفس كبير ، وهو أنجح فى الاستجابة ... ومن صور هذا الحسن قول موسى لفرعون كما حكاه الله تعالى : ﴿ فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَٰهٌ أَن تَزَكَّىٰ

﴿ ١٨ ﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ (١) .

﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ أى ادعوا برفق ولين عساه يعود للحق

ويتذكر نعم الله تعالى ، ويرى آياته فيقتنع ويؤمن بالله تعالى فأقيما له الدليل ، وألزماء الحجة .

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ أى قال موسى

وهارون عليهما السلام لله بعد أن كلفها بدعوة فرعون وقومه : إنا نخاف إن

(١) سورة النازعات ، الآية ١٨ ، ١٩ .

دعونه بما تأمرنا أن يعاقبنا ، ويعجل لنا بالعقوبة ، وينزل بنا العذاب والطغيان أو يضاعف الكفر والطغيان .

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ أى قال الله لهما لا تخافا من فرعون فإنى معكما أسمع الأقوال ، وأرى الأعمال فأمنع عنكما عدوان فرعون ، ولست بغافل عنكما فلا تهتما بتهديده .

﴿ فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ أى اذهبا إلى فرعون ، وعرفاه بأنكما رسولان لله ، كلفكما الله بدعوته ، وانقاذ بنى إسرائيل .

﴿ فَأَرْسَلْ مَعَنَا بَنَى إِسْرَءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ أى اطلق سراح بنى إسرائيل ، وحل عنهم قيودك ، ودع العذاب الذى تحيطهم به ، ولا تضعهم فى الأعمال الشاقة ، واتركهم يأتون معى لنذهب إلى بيت المقدس .

﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى وقد جئناك بآية شاهدة على صدقنا وهى آية الله إليك فى صورة يده التى أخرجها ولها شعاع كشعاع الشمس .

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ أَهْدَى ﴾ أى والسلام والفوز والنجاة لمن آمن برسالة الله واتبع هدايته وآمن بدين الله الذى أنزله .

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾

أى أوحى الله أن نعرفك أن العذاب الأخرى قد جعله الله لمن كذب رسله ، وكفر بالله ، وأعرض عنه سبحانه وتعالى ، وعن وحيه الذى أنزله .

وهكذا كان تكليف موسى عليه السلام بدعوة فرعون أولا إلى عبادة الله وحده والى أن يعدل فى معاملة بنى إسرائيل ، ويترك عذابهم ، ويطلق سراحهم ليعودوا معه إلى أرض الشام التى جعلها الله لهم .

(٥٦٢)

- ٤ -

معنى المقطع الرابع

تبين الآيات أن الله أرسل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون ليترك طغيانه وظلمه ، وأمرهما أن يدعوا بالحسنى ، وبالكلام اللين الرقيق عساه يتأثر ويهتدى ، فبينما الله خوفهما من عدوان فرعون بإيذائهما ، أو بالمبالغة في الكفر ... فأمرهما الله بأن لا يخافا من فرعون ، فالله هو السميع البصير القوى القادر ، ولن يدعهما ، وسيكون معهما .

وبين الله لهما الخطاب الحسن الذى يدعوان به في لين وحسن ويطلبان منه أن يطلق سراح بنى إسرائيل ، ويتوقف عن إلحاق المشقة بهم ، وتكليفهم بالأعمال الشاقة .

وعرفاه بأن السلامة والفوز لمن آمن بالله ، واتبع هديه ... وأن العذاب الأليم في الآخرة على من كذب رسل الله ، وأعرض عن طاعة الله ، وبعد عن صراط الله المستقيم .

ومن خلال الآيات ندرك الحرية في محاوره الله تعالى ، ومدى استجابة الله لطلب موسى وهارون عليهما السلام ، ومدى جهدهما الذهني في تحقيق مخطط متكامل يحقق الله به لموسى عليه السلام ما يريد .

(٥٦٣)

المقطع الخامس

حوار فرعون لموسى وهارون

”عليهما السلام“

يقول الله تعالى :

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٥٦٤﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ۖ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٦٥﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦٦﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٦٧﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٦٨﴾ كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَمَكُمُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٦٩﴾ مِّنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٧٠﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة القضايا التي دعا موسى وهارون عليهما السلام فرعون إليها جاءت هذه الآيات لتوضيح الحوار بين فرعون وموسى وهارون عقب دعوته .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات الحوار الذي جرى بين موسى وهارون عليهما السلام من جهة ، وبين فرعون من جهة أخرى .

(٥٦٤)

- ٣ -

ملخص المقطع الخامس من خلال دلالة الآيات

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴾ ؟ ... أى قال فرعون لهما : من ربكما الذى

تدعوانى إلى الإيمان به ، وتخوفانى من عذابه ، وتذكران أنكما رسولان له ؟
وبلاحظ أن فرعون سأل موسى ﷺ عن ذات الله ليناقش فى غيبية فوق
الإدراك العقلى ليكثر الجدل بلا فائدة ، إلا أن موسى ﷺ أجابه بآثار قدرة الله
تعالى ، وأسقط ما هدف إليه فرعون ...

وانما خص فرعون موسى بالخطاب مع أنه يخاطب هارون معه لأن
موسى ﷺ هو الذى خاطبه ، وهو الذى أظهر له الآيات .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﷺ ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ

هَدَىٰ ﴾ أى أن ربنا الذى أرسلنا إليك هو الله الذى خلق كل شئ ، وأعطاه من
الخصائص والمزايا ليقوم بما خلق له ، وهدهد لدوره فى منظومته . مثل خلقه
مجارى الأنهار لتسير فيها المياه ، وجعله الشمس ضياء ، والقمر نورا ، وجعله
المفاصل للثنتى ، والعين للنظر ، والأذن للسمع ، والأسنان للقطع والهضم .

﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴾ ؟ ... أى ما مصير الأمم

السابقة الذين عبدوا الأصنام والأوثان كعاد وثمود ، وماتوا على هذه العبادة ؟

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﷺ ﴿ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا

يَنْسَى ﴾ أى علم أصحاب القرون الأولى عند الله لا يعلمها إلا هو ،
وسيحاسبهم عليها بدقة ، وعلمه سبحانه وتعالى محيط بعباده لا ينسى منه شيئا
ولا يختلف عليه منه أمر .

وبلاحظ أن سؤال فرعون كان عن الله تعالى ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ ؟
 واجابة هذا السؤال كامنة فى كل جزئيات هذا الكون المخلوق ، فلما أجاب بأنه
 الله ﴿الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْفَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ خاف فرعون أن يستطرد
 موسى عليه السلام فى تفاصيل هذا الدليل ، ويدور مع فرعون ، وملكه ، وآيات الله
 فى حياته ، وأراد أن يصرفه عن ذلك بسؤاله عن حكايات الأمم الماضية ... إلا
 أن موسى عليه السلام كان أحرص على إيراد أدلة الواقع الشاهدة على وحدانية الله
 تعالى ووجوب عبادته وحده ، فأجمل القول فى أهل القرون الأولى ثم عاد
 يعرف بالله تعالى ، ويبين لفرعون ما يلى :

(١) بسط الأرض :

﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أى بسط
 الأرض وأمدّها مع أنها كروية لتستفيدوا بخيراتها ، وجعل فى الأرض طرقا بين
 السهول ، والوديان والمرتفعات لتتنقلوا خلالها من مكان إلى مكان ، تجارا
 ومسافرين . وهذه نعمة عظيمة جعلت الإنسان يعيش فى الأرض الواسعة ،
 ويرحل خلالها صيفا وشتاء إلى كل جهات الأرض لتتمتعوا بما أنعم الله عليكم
 فيها ، وبسبب هذا البسط للأرض يحسب الإنسان أن الأرض ثابتة ، جامدة ،
 مستقرة ، بينما هى تجرى وتدور ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِى أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(١) .

(٢) إخراج نبات الأرض بمطر السماء :

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ أى
 أنعم الله على الناس بأن أنزل من السماء مطرا جمعه السحاب بأمر الله ، وأنزله

(١) سورة النمل ، الآية ٨٨ .

إلى الأرض لينبت الزرع أزواجا من شتى النباتات التى تنفع الإنسان ، والحيوان ، والطير ، والهوام ، وكل ما يدب على وجه الأرض .
(٣) إيجاد الطعام للإنسان والحيوان :

﴿ كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَمَكُمْ ﴾ أى أن أنبت الله لكم الزرع كله فكلوا من ثمره وتغذوا بحبوبه ، وتلذذوا بفواكهه ، وأطعموا أنعامكم ، وطيركم ، ودوابكم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ أى فى تلك البراهين والأدلة هداية لأصحاب العقول السليمة التى تنتهى عن المنكر إذا نهيت عنه ، وتؤمن بالحق إذا هديت إليه ، وفى هذا إشارة إلى فقدان فرعون للعقل السوى الرشيد لأنه أصر على كفره وكبريائه رغم نهيه عن ذلك .
(٤) الصلة بين الأرض والإنسان :

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ أى من الأرض خلقناكم ، فهى أصلكم الذى خلق الله منها آدم عليه السلام ، ومن نفس عناصرها يتكون الإنسان بالزواج فى رحم أمه ... وبعد حياة فى الدنيا نعيدكم إلى الأرض عند انقضاء آجالكم ، وتدخلون قبوركم ، وتبلى أجسادكم .
وعند نفخ الصور يحييكم الله فى قبوركم ، ويبعثكم مرة أخرى للحساب والجزاء .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾^(١) .

(١) سورة الأعراف ، الآية ٢٥ .

جاء فى الحديث إن رسول الله ﷺ حضر جنازة ، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر وقال : منها خلقناكم ، ثم أخذ أخرى وقال وفيها نعيدكم ، ثم أخذ أخرى وقال : ومنها نخرجكم تارة أخرى^(١) .

وعن أبى أمامة رضي الله عنه قال : "لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ فى القبر ، قال رسول الله ﷺ : منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى ، بسم الله ، وفى سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله"^(٢) .

لقد أخذ موسى عليه السلام فرعون إلى أدلة الواقع المشاهد المرئى التى لا يستطيع إنكارها ، ولا يمكنه أن يدعى أنه أوجدها . لقد حدثه عن حياته ، وموته ، وبعثه ، وعن طعامه ، وشرابه ، وهذا هو منهج القرآن فى طريقة عرضه لأدلة التوحيد .

- ٤ -

معنى المقطع الخامس

تبين الآيات الحوار الذى دار بين فرعون وبين موسى وهارون عليهما السلام وقد بدأ فرعون بالسؤال عن الله فأجابه موسى بقدرة الله فى الخلق ، فحاول فرعون صرفه عن المخلوقات بسؤاله عن القرون الأولى ، فأجمل موسى إجابته عن القرون الأولى وعاد يحدثه عن بسط الأرض ، وإيجاد السبل خلالها ، أو إنزال المطر لإنبات الزرع والكأ لياكل الإنسان ، ويرعى الحيوان ، وحدثه عن الأرض التى منها كان الخلق ، وفيها يقبر الإنسان ، ومنها يكون البعث ، ... وفى كل هذا آيات للعقلاء الذين يعرفون الحق ويتبعونه ، ويعرفون المنكر وينتهون عنه .

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم . تفسير سورة "طه" ج ٢ ص ٤١١ بنحوه .

(٢) مسند الإمام أحمد . مسند أبى أمامة ج ٣٦ ص ٥٢٤ .

(٥٦٨)

المقطع السادس فرعون يتحدى

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة الحوار بين فرعون وبين موسى وهارون عليهما السلام ، وعرض سائر الآيات على فرعون جاءت هذه الآيات لبيان تحدى فرعون موسى بسحرته .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات تحدى فرعون لموسى بسحرته ، واجتماع السحرة مع موسى يوم الزينة حيث اجتماع الناس .

- ٣ -

ملخص المقطع السادس من خلال دلالة الآيات

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ أى ولقد أرينا فرعون ، واطلعناه على جميع الآيات الدالة على التوحيد ، وما يتصل بالنبوة .

أما الآيات الدالة على التوحيد فهي ما سبق بيانه من إعطاء كل شئ خلقه وهدايته لما خلق له ، وبسط الأرض ، وشق الطرق ، وانزال المطر ، وانبات الزرع ، واطعام الإنسان والحيوان ... الخ مخلوقات الله تعالى .

وأما آيات النبوة فهي المعجزات التي أيد الله بها موسى عليه السلام وهي انقلاب العصا حية ، وتبدل لون اليد إلى بياض شاهق ، وسنون القحط وانتشار الجراد ، والقمل ، والصفادع ، والدم ، والطوفان ، وانفلاق البحر ، وقد رأى فرعون ذلك كله .

وقد أضاف الله الآيات إلى نفسه ﴿ءَايَاتِنَا﴾ لأنه سبحانه هو الذي أجراها على يد موسى عليه السلام .

وقد وصف الله الآيات بأنها كل الآيات مع أنها كانت بعض آيات الله للرسول ، وسبب ذلك أن المراد من الكل هنا كل مخصوص بقرينة ، كما نقول : دخلت السوق فاشتريت كل شئ . فالمعنى : أريناه كل آيات موسى ، وأيضا فإن تكذيب بعض الآيات تكذيب لسائر المعجزات .

ولما رأى فرعون الآيات كذب بها ، وتكبر ، وادعى أنها سحر قام به موسى ، ثم أخذ فرعون يحرض قومه على موسى ، ويتهمه بما ليس فيه شأن الطغاة في كل زمان ﴿ قَالَ أَجَعْتَنَا لِيُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَىٰ ﴾

أى اجئتنا يا موسى لتقلب نظامنا ، وتخرج الناس من مواطنهم ، وديارهم ، ليسود الإسرائيليون ، ويتحكموا فينا .

وهذا اتهام أشاعه فرعون عن موسى ، وواجهه به ، وهو اتهام باطل لأنه موسى لم يطلب من فرعون إلا الإيمان بالله تعالى ، وانقاذ الإسرائيليين من الهوان والذل .

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ﴾ أى أكد فرعون كلامه بالقسم ، ولئن كنت يا موسى تعتمد فى دعواك على السحر فوالله لنأتيناك سحرا يماثل سحرك ويغلبك ، ويظهر بطلان ما تدعوا إليه ، وقد أكد فرعون رؤيته ، وأمل فى هزيمة موسى ، فعبا المصريين ضده بدعوى إنه يعمل على إخراجهم من مصر وان يحل مكانهم بنى إسرائيل ، وأعلن أنه يهزم سحر موسى بسحر آخر يماثله ، ويقوى عليه ، ويفوقه .

ثم قال فرعون لموسى : ﴿ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ أى اختر موعدا ومكانا تلتقى فيه يا موسى مع سحرتنا وعلماننا ، على شريطة أن لا نتخلف نحن ولا أنت عن هذا الاجتماع فى الموعد المحدد ، وعن المكان الذى نعينه فى الزمن الذى نتفق عليه ، على أن يكون المكان مستويا مرتفعا ليراه كل الحاضرين فى وقت مشرق وضئ ، وفى مناسبة يلتقى فيها الناس جميعا ليروا ما يحدث .

وكان فرعون يتصور هزيمة موسى ﷺ فحرص على اختيار مكان فسيح مستو يراه الجميع على سواء . فى يوم يلتقى الناس جميعا فيه .

قبل موسى التحدى ف ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ وَأَنْ تُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ أى قال موسى ﷺ لفرعون وقومه : الميعاد الذى اختاره للاجتماع هو يوم عيد النيروز ، وهو يوم عيد لهم على رأسه سنتهم ، حيث يفرغ الناس من أعمالهم ، ويجتمعون ليكون الحفل عاما ، ويشاهد الحاضرون ما يحدث ، وينقلونه إلى أهل القرى والأمصار ، وينتشر خبر موسى فى مصر كلها .

واختيار موسى لهذا اليوم يدل على قمة الثقة ، وعلى حسن الاختيار ، وعلى عدم الخوف من تهديدات فرعون إنه اختيار الله ﴿ وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي ﴾ .

(٥٧١)

وأخذ الكل يستعد لهذا اليوم فى ثقة من النصر والغلب ، وأبدى كل فريق من سلوكه وعمله ما يؤكد هذه الثقة .
فموسى عليه السلام يثق فى الله فيختار يوم تجمع الناس لتصل دعوته إلى الجميع .
وفرعون يقسم له بأنه سيأتى بسحر يفوق سحره ، ويغلبه .

- ٤ -

معنى المقطع السادس

يبين هذا المقطع أن الله أرى فرعون وقومه آيات الله المثبتة للتوحيد وللنبوة فكذب بها ، وأعرض عنها ، واتهم فرعون موسى عليه السلام بأنه جاء لإخراج المصريين من ديارهم ، واعلاء شأن الإسرائيليين على المصريين بشئ من السحر تظهره لنا ، وأقسم فرعون أنه سيأتى بسحر يفوق سحره ، وبهزمه به .
وطلب فرعون من موسى عليه السلام أن يختار موعدا ومكانا يلتقى فيه موسى مع السحرة وسط جمهور الناس ليظهر المصيب ، ويسقط المخطئ المقيت .
فاختار موسى يوم عيد للمصريين يحتشدون فيه احتفالا به ، هو يوم النيروز (عيد الربيع والجمال عند المصريين) على أن يتم هذا الاجتماع فى مكان مستو واسع وفى وقت الضحى ليرى الجميع ما يحدث يومذاك .
وافق الجميع على هذا ، وأخذ كل فريق يعد عدته ليوم اللقاء المنشود .

المقطع السابع

مقدمات الاجتماع العام

يقول الله تعالى :

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ۖ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ۖ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ۖ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثُلَىٰ ۖ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا ۖ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما تم الاتفاق بين موسى ﷺ وبين فرعون على الاجتماع فى يوم الزينة أخذ كل فريق يستعد لهذا اليوم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن فرعون أخذ يعد للأمر عدته ، فجمع خططه ، ومكره ، وبحث أعوانه لإحضار العلماء الكبار ، والسحرة الأشداء . ثم أتى إلى المكان فى الموعد المحدد ، وقال موسى للسحرة : لا تكذبوا على الله ولا تضعوا الإفك أمام قدرته حتى لا تخبىوا ، وينزل عليكم عذاب الله .

وأما السحرة فإنهم اجتمعوا وتناقشوا سرا واتفقوا على أن يبذلوا أقصى طاقتهم ، ويأتوا متحدين صفا واحدا أمام موسى لأن من يفوز هو الأعلى .

(٥٧٣)

- ٣ -

ملخص المقطع السابع من خلال دلالة الآيات

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ أى انصرف فرعون عن

مجلس الحوار والمناظرة مع موسى عليه السلام ، وأخذ يجمع كل ما يكيد به من سحرة ، وعلماء ، وآلات ، وأعوان ثم أتى إلى المكان فى الموعد المحدد ، وجلس على سرير ملكه ، وحوله أكابر دولته ، واصطف الجمهور حول المكان ... وأقبل موسى وهارون عليهما السلام حيث يتوكأ على عصاه موسى عليه السلام .

وبدأ اللقاء و ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾ أى قال موسى للسحرة : لا تختلقوا الكذب على الله ، ولا تقولوا عليه سبحانه بأن تدعوا ما سترونه منى سحرا ، وتمسكوا بالصدق مع أنفسكم ، ومع الله ، ومع الناس ، لأنى أخاف إن كذبتم على الله تعالى أن ينالكم عذابه فيقضى عليكم ، ولا يبقى أحدا منكم ، وقد خسر من افترى ، وكذب على الله تعالى ، ولن يفلح له سعى ولن يصل لغاياته وأهدافه ، فدعوا الكذب على الله تعالى ، وتمسكوا بالصدق فيما تقولون ، وما تحكمون .

ولما سمع السحرة تحذير موسى عليه السلام قبيل بدء المبارزة هاجهم ما سمعوا وتشاوروا فى شأنه ، وتفاوضوا فى ماذا يفعلون ؟ ... و ﴿ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم

بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ﴾ أى أنهم تفاوضوا فى كلام موسى ، وفى الأمر من كافة جوانبه ، واتفقوا على ملازمة السرية التامة حتى لا يستفيد موسى وهارون من معرفة خططهم فيعدا لهم عدتهم .

واتفق السحرة قبل اللقاء على عدة أمور هى :

(١) اتفقوا على أن موسى وهارون ساحران ، ولا يصح اتباع سحرهما فيما يفعلون و ﴿ قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾^(١) أى قال بعضهم لبعض : إن موسى وهارون ساحران لا ينبغي اتباعهما ، أو اعتناق منهجهما ، أو الرضى بما دعوا إليه .

(٢) إنهما يريدان إخراجكم من دياركم ، وحرمانكم من الإقامة فى وطنكم إنهما ﴿ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا ﴾ .

(٣) إنهما يريدان إضاعة نظامكم ، والغاء حياتكم ، وحرمانكم من النظام المثالى الذى أنتم فيه ، وذلك هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ .

وبعد ذلك وضع السحرة خطة التغلب على موسى وأخيه هارون ، وتقوية عزائم العلماء والسحرة . فتواصوا بما يلى :

(١) فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ ثلاث قراءات هى :

القراءة الأولى : بأن المشددة ، والألف فى اسمها وخبرها ، وهى القراءة المشهورة ، وجاءت على لغة من يجعل الألف والنون علامة الرفع والنصب والجر للمثنى ، ومثاله قول القائل :
 إن أباه وأبا أباه .: قد بلغا فى المجد غايتها
القراءة الثانية : "إن هذين لساحران" وهى على المشهور فى لغة العرب ، ولغة قريش ينصب اسم إن بالياء .

القراءة الثالثة : "إن هذان لساحران" بأن المخففة من الثقيلة ، ويكون هو ضمير الشأن المحذوف . وتقديره : إنه الأمر الثابت الذى نقرره هذان لساحران ، واللام فى الخبر للتأكيد .

أولاً : ضرورة الثبات فى مواجهة موسى وهارون ، والظهور القوى أمام الجميع ، وابرار كافة الخطط والحيل أمام موسى لإرهابه وتعجيزه ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ .

ثانياً : ضرورة الوحدة أمام موسى حتى لا يرى بيننا اختلافاً أو تقاعساً وذلك معنى قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّوُوا صَفًّا ﴾ .

ثالثاً : انتظار الجوائز الضخمة حين النصر وهذا معنى قولهم : ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴾ أى سيفوز اليوم من ينتصر ، وينال المال والقربى من فرعون فقد وعدهم بذلك حين سألوه : ﴿ إِنَّا لَنَأْجِرُكَ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾^(١) فرد عليهم وقال لهم : ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾^(٢) .
وبهذا ثم الإعداد للقاء ، وانتظر الجمهور نتيجة المباراة .

- ٤ -

معنى المقطع السابع

تبين الآيات أنه بعد أن اتفق موسى وفرعون على موعد ، ومكان لقاء التحدى ، وحددوه بضحي يوم الزينة أخذ كل فريق يعد عدته ، فجمع فرعون خططه ، ورجاله ، وأعوانه وعرفهم أهمية هذا اليوم ، وبما أعدهم لهم من مال وقربى لو انتصروا ، وأخذ موسى يحذر السحرة من الكذب على الله ، وخوفهم من عذاب الاستئصال ، وخيبة المصير إن كذبوا على الله تعالى .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١١٣ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١١٤ .

(٥٧٦)

وتناقش السحرة ، وقرروا السرية التامة فى مناقشاتهم حتى لا يستفيد بها موسى عليه السلام لو علم بها ، واتفقوا على أن موسى وهارون عليهما السلام ساحران وأنهما يعملان على قلب نظام الدولة ، وطرده المصريين من ديارهم وتغيير المنهج الحسن الذين يسير عليه المصريون .
وتواصوا بأن يتحدوا ، وأن يثبتوا ، وأن يخرجوا كافة طاقاتهم السحرية فى مقاومة موسى لأن فرعون سيعطيهم المال والقربى إن غلبوا موسى ، وانتصروا لفرعون .

المقطع الثامن

وقائع اللقاء وظهور الحق

يقول الله تعالى :

﴿ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۖ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَاهُمْ وَعَصِيُّهُمْ تُخْلَىٰ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۚ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ۚ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ۚ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۚ ۞ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة تحديد مكان وموعد اللقاء ، وتهيئة كل فريق نفسه للمواجهة ، جاءت هذه الآيات لبيان وقائع اللقاء بين موسى وبين السحرة الذى تم فى يوم الزينة .

(٥٧٧)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبيين الآيات ما حدث بين موسى عليه السلام وبين السحرة ، ووضوح الحق في النهاية .

- ٣ -

ملخص المقطع الثامن

﴿ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾

أى اصطف السحرة ، ووقف موسى وهارون أمامهم ، وقال كبيرهم لموسى : إما أن تلقى ، وإما أن نبدأ نحن بالإلقاء ؟

وهو سؤال ينبئ عن رغبتهم في البدء ؛ لعلمهم أن رهبة الاستهلال تبقى في النفس ، ولا تزول إلا بإضعاف قوتها التأثيرية ...

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ أى قال موسى عليه السلام للسحرة لن أبدأ أنا ، وأبدأوا

أنتم .

﴿ فَإِذَا حِبَاهُمُ وَعَصِيَّتُهُمْ تُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ أى

عمد السحرة إلى ما معهم من حبال وعصى ، وألقوها على الأرض فأخذت تتحرك يمنة ويسرة ، ويعلو بعضها على بعض ، وذلك أنهم صنعوها مجوفة وملأوها بالزئبق الذى يتمدد بالحرارة ، وحفروا فى الأرض قبل اللقاء حفرا ملأوها بوقود النار فلما ألقوا الحبال والعصى أشعلوا النار فتمدد الزئبق ، وتحركت والعصى بصورة سريعة ، وفى كل اتجاه حتى خيل لموسى وللناس أنها حيات حقيقية تجرى^(١) .

(١) دعوة الرسل عليهم السلام ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

وقد أوحى الله لموسى ﷺ ليتركهم يبدأون بالإلقاء ليبطل سحرهم ويظهر فساد ما كانوا يفعلون .

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ أى لما رأى موسى ﷺ الحركة السريعة والمتتابعة للحبال والعصى ، وهو لا يعرف أسرار ما فعلوا فيها خاف على الناس أن يندفعوا بما رأوا ، وأن يفتتنوا بهذا السحر الرهيب فطمأنه الله تعالى ، وقال له :

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ أى قال الله لموسى ﷺ لا تخف واطمئن من ظهور رأيك ، وانهزام السحرة لأن الله سينصرك ، ويجعل لك الغلبة ، والعاقبة الطيبة .

﴿ وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا ﴾ أى ألق عصاك على الأرض فألقاها فإذا هى حية عظيمة ، ذات عنق ، وبطن ، وشكل هائل مزعج جعلت الناس يفرون من أماكنهم بعيدا عنها خائفين . وأقبلت هذه الحية على حبالهم وعصيهم على كثرتها ، وتنوعها ، وابتلعتها بسرعة خاطفة .

وهكذا ابتلعت حية واحدة كل ما ألقوه من مواد استخدموها فى صناعة الحبال والعصى من غير تغيير فى حجمها ، وصورتها . فلما أخذها موسى بيده عادت عصا عادية كما كانت .

﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ أى فعلت العصا ذلك لأنها معجزة الله لموسى جرت على غير عادة الناس . أما ما فعله السحرة فهو سحر وخيال ، ولن ينال ساحر ما عمل له ، وسوف يخزيه الله ، ويفضح عمله لأن الله لا يصلح عمل المفسدين .

(٥٧٩)

- ٤ -

معنى المقطع الثامن من خلال دلالة الآيات

تبين الآيات لقاء موسى عليه السلام والسحرة من مبدئه إلى منتهاه .
فلقد بدأ السحرة وسألوا موسى عليه السلام وخبروه أن يبدأ هو ، أو يبدأواهم وهذا
أدب منهم ، فقال لهم موسى عليه السلام : إبدأوا أنتم ، فرد أدبهم بمثله ، وكان
السحرة يريدون أن يبدأوا لعلمهم إن التأثير الأول يصادف نفسا خالية ، فيبقى
ويحتاج إلى جهد كبير لإزالته ... ورغب موسى في إن يبدأوا هم كما أمره الله
تعالى لعظم المعجزة التي ستكون من عصا موسى عليه السلام حيث القضاء على
سحرهم كله في لحظة خاطفة ، على غير عادة الناس .
وبدأ السحرة عملهم ، وألقوا حبالهم وعصيهم فتحركت ، وجرت في كل
اتجاه حتى خيل للناس أنها حيات حقيقية .
خاف موسى عليه السلام على الناس أن يفتنتوا بما يرون ، فطمأنه الله تعالى ،
وعرفه أنه سيغلبهم ، فكل عملهم سحر ، ولنا ينال ساحر ما أراد ...
وأمر الله موسى عليه السلام بإلقاء عصاه ، فألقاها ، فابتعلت كل ما ألقوا بسرعة
لم تترك لهم شيئا .
ثم أخذها موسى عليه السلام بيده فعادت عصا كما كانت بلا رأس ، أو بطن أو
عنق ، أو ذيل . لم يزد حجمها ، أو طولها ... وأين ذهبت الحيات والحبال
التي صنعها السحرة ؟ ... وكيف هضمتها العصا ؟
وأين أخرجتها ؟ كل هذا حدث في وقت يسير جذب الانتباه ... وظهر
ضعف السحرة وسحرهم .
تأمل السحرة في العصا ، وتأكدوا أنها معجزة الله لموسى ، وعلموا أن
موسى وهارون عليهما السلام رسولان لله تعالى .

المقطع التاسع

موقف فرعون من إيمان السحرة

يقول الله تعالى :

﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ ٧٠ قَالَ ءَامَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي أَنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ٧١ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ الْيَقِينِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٧٢ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ٧٣ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ٧٤ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ٧٥ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ٧٦ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ٧٧ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ٧٨ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات إبطال معجزة موسى عليه السلام لسحر السحرة جاءت هذه الآيات لبيان إيمان السحرة ، وتبرئهم من دين فرعون وأعلنوا إيمانهم برب هارون وموسى ، وتبرأوا مما كانوا فيه من السحر ، ودخلوا في دين موسى عليه السلام ، وقبولهم الأذى الذى هددهم فرعون به .

(٥٨١)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات إيمان السحرة ، وتهديد فرعون لهم ، وتمسك السحرة بما آمنوا به .

- ٣ -

ملخص المقطع التاسع من خلال دلالة الآيات

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ أى لما ألقى موسى عصاة صارت حية بلعت ما صنعوا ، ولم تبق شيئا منها ، وأخذها موسى عليه السلام فصارت عصا كما كانت ، وتساءل السحرة عن الحبال والعصى ، وعن المواد الصلبة . أين ذهبت ؟ ... وحينئذ تأكد السحرة بأن ما فعلته العصا ليس سحرا ، وإنما هو معجزة إلهية ، وأن موسى وهارون رسولان صادقان .

روى أن رئيسهم قال : كنا نغلب الناس بالسحر ، وكانت الآلات تبقى علينا ، فلو كان هذا سحرا فأين الذي ألقيناه ، فاستدلوا بتغيير أحوال الأجسام عن عاداتها على وجود الصانع القادر ، كما استدلوا بظهور هذا التغيير غير العادى على يد موسى على كونه رسولا صادقا من عند الله ، وحينئذ تابوا ، وآمنوا ، ورجعوا إلى الحق ، وهم خاضعون ساجدون .

وسبحان الله ، ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبا لهم وعصيتهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود لله .

روى عن ابن عباس أنه قال : كانوا أول النهار سحرة ، وفى آخره شهداء ببرة^(١) .

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٧٤ .

وروى عن عكرمة أنه قال : كان السحرة سبعين رجلا ، أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء^(١) .

وانما قالوا : ﴿ رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ ولم يقولوا : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٢) لأن فرعون كان قد ادعى الربوبية فقال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾^(٣) كما ادعى الألوهية إذ قال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾^(٤) فلو قالوا ذلك فحسب لقال فرعون : آمنوا بي ، ولم يقتصر على ذكر موسى بل ذكروا هرون وقدموه على موسى خوفا من هذه الشبهة أيضا ، إذ أن فرعون كان يدعى ربوبيته لموسى ، لأنه رباه في صغره كما قال : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾^(٥) .

ولما خاف فرعون أن يصير إيمان السحرة سببا لاقتداء الناس بهما في الإيمان بالله ورسوله ألقى شبهة التأمر عليه .

﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ

السِّحْرَ ﴾ أي إنكم قد فعلتم عددا من الجرائم التي سأعاقبكم عليها ... وهى :

- (١) أنكم آمنتم بدعوة موسى من غير تفكير وتدبر ، وكان عليكم أن تفكروا فى الأمر وعاقبته ، وتتنظروا فى ذلك قبل إعلان الإيمان .
- (٢) أنكم لم تأخذوا رأيى فيما فعلتم فأنا وليكم ، وريكم ، وكان عليكم أن لا تتخذوا أمرا إلا بمشورتى ورأى .

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٧٥ .

(٢) سورة الفاتحة ، الآية ٢ .

(٣) سورة النازعات ، الآية ٢٤ .

(٤) سورة القصص ، الآية ٣٨ .

(٥) سورة الشعراء ، الآية ١٨ .

(٣) أنكم تأمرتم مع موسى ضدى ، وهو كبيركم فى السحر ، وسوف أوقع بكم ما تستحقون من العقوبة .

وأخذ فرعون يهدد بالعقوبة التى قررها لكم فقال لهم ما حكاه الله تعالى :
﴿ فَلَا قُطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ أى أقسم لهم فرعون بأنه سيقع بهم عقوبة يستحقونها ... وهى :

(أ) تقطيع أياديهم وأرجلهم مختلفات بأن يقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى لأن فى هذا الاختلاف تقوية تام للمنفعة .

(ب) التمثيل بهم بعد التقطيع وذلك يربطهم فى جذوع النخل على الطرق ليراهم الناس ، فيعلموا ما أصابهم ، ويحذروا أن يكونوا مثلهم .

﴿ وَلَتَعْلَمَنَّ أَئِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ ولسوف تعلمون حينئذ أنا أو موسى أشد عذابا ، وأبقى عزا وسلطانا بعد هذه العقوبة .
رد السحرة على فرعون ، وبينوا له حجتهم فى الإيمان ، وكفرهم به واستسلامهم لقدرة الله تعالى .

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ أى لن نختارك على البينات التى ساقها الله إلينا . فوازنوا بذلك بين دعوة موسى ﷺ القائمة على الحجة الظاهرة القوية وبين دين فرعون القائم على السحر ، والزعم الباطل ، والخداع الكاذب ... وأعلنوا أنهم متمسكون بالإيمان بالله فهو الحق الذى هداهم الله إليه .

﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ أى ولن نختارك يا فرعون على الله الذى خلقنا ، فهو ربنا المنعم علينا ، والمتولى كافة أمورنا .

وقيل : أن جملة ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ قسم تأخر عن الجواب ، ويكون المعنى : والذى فطرنا لن نؤثرك عليه .

﴿ فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى افعل

يا فرعون ما تشاء فكل ما تقدر عليه هو الطغيان فى الدنيا ، وقد رغبتنا عنها ولن نحرص عليها ، والآخرة خير وأبقى .

﴿ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾

أى إنا آمنة بالله فهو ربنا الذى خلقنا ، ورزقنا ، وأحسن إلينا فى طوال عمرنا وهو الغفور لذنوبنا ، الستار لعيوننا ، القابل لتوبتنا على المعاصى التى وقعنا فيها بسبب إجبارك لنا على أعمال السحر والضلال .

إن السحرة الذين احتشدوا فى الميدان يوم الزينة لمعارضة موسى كانوا مكرهين فى عملهم . فقد غرر بهم فرعون ، وجعلهم قادة على الناس ، وأعطاهم المال والسلطان حتى أضلهم ، فلما أحضرهم لملاقاة موسى كانوا يظنونهم ساحرا تمرد على فرعون ، فلما واجهوه علموا صدقه ونبوته فتذكروا تاريخهم ، وأبوا أن يستمروا فى الأكذوبة التى وضعهم فيها فرعون .

ودائما يصنع الطغيان ذلك فيختار من الناس فريقا يمدهم بالمال ، ويمكنهم من السلطة والجاه ، ويغرقهم بالشهوات حتى يصيروا له اتباعا ينافقونه ويسبحون بحمده ، ويتحولون إلى اتباع له بعيدين عن الحق والصواب .

﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وقال السحرة بعد إيمانهم : إنا عدنا إلى الله فهو

الله الحق ، وهو ربنا الذى نعبده فهو خير منك عطاء ، وأقدر ثوابا ، وأقدم وجودا ، وأبقى حياة ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾^(١) ، وهو غايتنا واليه المصير .

(١) سورة الحديد ، الآية ٣ .

وبفضل من الله ونعمه برز معدن الحق فى هؤلاء السحرة ، وانزاحت
غشاوة الضلال عنهم فتحولوا إلى دعاة صادقين ، واذا هم فى لحظة خاطفة
يمسحون كل ماران على قلوبهم ، ويواجهون طغيان فرعون ، ومن قبل كانوا له
عابدين .

إنهم القوا الدنيا خلف ظهورهم ، وجعلوا الآخرة أمام أعينهم ، وآثروا الآخرة
والعمل لها ... فسجدوا لله ، وأعلنوا إيمانهم ، واستهانوا بتهديدات فرعون ،
ورضوا بقضاء الله فيهم ، وتيقنوا من الحقيقة التى ستكون عند الله يوم القيامة
وهى :

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾

أى أنه من يأت ربه يوم القيامة وهو معتد على حق الله ، بكفره ومعاصيه فإن
الله قد أعد جهنم لعقابه وعذابه ، يدخله فيها ، ويديم عذابه خلالها فلا
يموت فيها حتى يتخلص من العذاب ، ولا يحيا حياة طيبة بعيدة عن العذاب
... لا يموت ميتة مريحة ، ولا يحيا حياة طيبة ، يقول الله تعالى عن هؤلاء
المجرمين :

- ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا ﴾^(١) .
- ﴿ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُمْ مَّكِثُونَ ﴾^(٢) .
- ﴿ وَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۚ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۚ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۚ ﴾^(٣) .

(١) سورة فاطر ، الآية ٣٦ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية ٧٧ .

(٣) سورة الأعلى ، الآيات ١١ . ١٣ .

﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ
الْعُلَىٰ ﴾ أى ومن يأت الله يوم القيامة مؤمنا به ، وعمل صالحا فإن الله يجزيه
الجزء الأوفى ، ويعلى منزلته ، ودرجته فى الآخرة .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ
مَنْ تَزَكَّىٰ ﴾ أى أن الدرجات العلا التى أعدها الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات
هى جنات إقامة دائمة فى الفردوس الأعلى ، تجرى الأنهار تحتها وهذا جزاء
يستحقه من طهر نفسه وقلبه من الشرك ، وعبد الله وحده ، واستقام على دين
الله تعالى .

يقول النبى ﷺ : "إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب
العابر فى أفق السماء لتفاضل ما بينهم .
قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء !!
قال ﷺ : بلى . والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين" (١) .
ويقول ﷺ : "إن أهل الدرجات العلا ليرون من تحتهم كما ترون النجم
الطالع فى أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعماء" (٢) أى أنهما منهم وزادوا
تتاهيا إلى غايته .

- ٤ -

معنى المقطع التاسع

تبين الآيات أن السحرة لما تيقنا من صدق موسى ﷺ ، وأن عصاه
معجزة الله إليه سجدوا لله ، وآمنوا بدعوة موسى ﷺ ، فاتهمهم فرعون بأنهم لم

(١) صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق . باب ما جاء فى صفة الجنة ج ٤ ص ١١٩ .

(٢) مسند الحميدى ج ٢ ص ٢٠ .

يفكروا جيدا ، وأنهم تأمروا مع موسى على هذا الانقلاب الكبير ، وأنهم لم يتدبروا فى الأمر ، ولما يأخذوا رأيهم ، ولم يتبينوا الحقيقة وهددهم بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ، والصلب على جذوع النخل فى الطرقات .

لم يأبه السحرة بهذا التهديد وقالوا له : لن نختارك على الله . فإله ربنا وخالقنا ، وقد آمنا به وما فعله موسى ﷺ معجزة إلهية ، ولا صلة له بالسحر فى شئ . فافعل ما شئت فإنك لا تملك إلا شيئا من الحياة بقدره الله تعالى ...

وقال السحرة : قد أنار الله بصيرتنا ، وقيل توبتنا ، وقد آمنا به آمليين أن يغفر لنا خطايانا التى أوقعتنا فيها ، وأكرهتنا علينا بالسحر ، فإله خير منك ثوبا ، وأبقى منك فضلا ونعيما .

واعلم يا فرعون أن الخلق جميعا راجعون إلى الله تعالى ، ومن يرجع إليه مجرما فسيدخله جهنم ، لا يحيا فيها حياة طيبة ، ولا يموت فيستريح ، ومن يأتى إلى الله مؤمنا به ، مستقيما على منهجه فسوف ينال الدرجات العلا فى الفردوس الأعلى ، تجرى تحته الأنهار مستمرين فيها فهم المستحقون لذلك .

لقد أثبت السحرة أنهم كانوا صادقين مع أنفسهم فلقد بدأوا متحمسين لفرعون ونظامه فلما تبينوا كذب فرعون ، وفساد نظامه آمنوا بدين موسى ﷺ وقبلوا أى أذى يصيبهم .

المقطع العاشر

نجاة موسى وقومه ، وهلاك فرعون

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ
يَبْسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۚ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا
غَشِيَهُمْ ۚ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ۚ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَغْنَيْنَاكَ
مِّنْ عَدُوِّكَمَّ وَوَعَدْنَاكَمَّ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى ۚ
كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ
عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ۚ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ
أَهْتَدَى ۚ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة إيمان السحرة ، واضطهاد فرعون جاءت هذه
الآيات لتبين هلاك فرعون وقومه ، ونجاة موسى وقومه ، وخروجهم من مصر
إلى برية سيناء قاصدين الأرض المقدسة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أوحى إلى موسى ﷺ بأن يخرج بقومه ليلا فارا بهم
وعرفه بالمسار الذى سيسلكه ، وهلاك فرعون وهو يتبعهم للقضاء عليهم .

ملخص المقطع العاشر
من خلال دلالة الآيات

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي
الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَىٰ ﴾ أى أوحينا إلى موسى أنه لا أمل فى
إيمان فرعون ، وأمرناه أن يجمع الإسرائيليين الموجودين فى مصر ، ويخرج بهم
ليلا ويتجه إلى الشرق حتى يأتى البحر الأحمر ، وحينئذ يضرب البحر بعصاه
لينشق له طريق جاف فى البحر يسير فيه وقومه ويعبرون البحر من جهته
الغربية إلى جهته الشرقية ، وبين له أن فرعون لن يدركه ، ولن يلحق به ولن
يضره الماء ليطمئن ، ويثق فى عطاء الله وقدرته .

﴿ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَاشَيْهِمْ ﴾ أى أن
موسى ﷺ لما سار بقومه ليلا اتبعهم فرعون وجنوده لإعادتهم إلى مصر إلا
أن الله قضى عليهم بنجاة الإسرائيليين فشق لهم طريقا يابسا فى البحر عبروا
منه ، فلما سار جنود فرعون فى هذا الطريق خلفهم انطبق الماء عليهم وعلا
ماؤه ، وأصابهم الغرق جميعا .

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾ أى أن فرعون أضل قومه ،
وأبعدهم عن الإيمان ، ولم يهدهم إلى الخير ، فلقد كان فرعون يقول لقومه :
- ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ ^(١) .
- ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾ ^(٢) .

(١) سورة النازعات ، الآية ٢٤ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٣٨ .

- ﴿ فَأُطْلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۖ ﴾^(١) .

- ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ۖ ﴾^(٢) .

﴿ يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْجَيْنَاكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ

الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ بعد أن عبر الإسرائيليون البحر

إلى سيناء أخذ الله يوضح نعمه عليهم ليستقيموا على دينه ، ويطيعوا موسى

عليه السلام ، فلقد أنجاهم من فرعون وجنوده ، وشق لهم طريقا يابسا فى البحر ،

وحدد لموسى موعدا عند الطور الأيمن ، وكلفه بدعوتكم ، وأنزل الطعام الهنئ

الذيذ لكم .

﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أى عيشوا عيشة هنية ، كريمة طيبة .

﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ

هَوَىٰ ﴾ أى لا تظلموا أنفسكم بالإخلال بشكرى وعبادتى ، حتى لا ينزل عليكم

غضبي ، ومن ينزل عليه غضبي يهلك ويشقى .

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ أى أنى

لذو مغفرة عظيمة لمن يتوب عن شركه ، ويقطع عن ذنبه ، ويخلص فى العمل

ويستقيم على منهج الله تعالى .

(١) سورة غافر ، الآية ٣٧ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٢٩ .

(٥٩١)

- ٤ -

معنى المقطع العاشر

تبين الآيات أن الله أوحى لموسى عليه السلام أن يأخذ قومه ليلا ، ويمشى بهم جهة الشرق ليصل إلى سيناء فاتبعه فرعون وجنوده ، فلما وصلوا إلى البحر ألقى موسى عليه السلام عصاه في البحر فانفلق طريق جاف في البحر سلكه الإسرائيليون إلى سيناء . أما فرعون فقد سار فيه وجنوده فانطبق الماء عليهم فغرقوا جميعا .

ونجا موسى وقومه ، فصاروا في سيناء قاصدين الأرض المقدسة ، وأخذ الوحي يتوجه إلى الإسرائيليين ، فبين الله نعمه عليهم ، فلقد نجاهم من فرعون وقومه ، وأنزل الوحي على موسى في جانب الطور الأيمن ، وأنزل عليهم المن والسلوى . وقد ذكرهم الله بذلك ، وأمرهم أن يأكلوا من رزق الله ويشكروا الله على هذه النعم بالطاعة ، وترك الظلم والطغيان حتى لا يحل عليهم غضب الله تعالى ، وحتى يعممهم الله برحمته ، ومغفرته ، لأنه سبحانه وتعالى غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى .

إن كفر الإسرائيليين بعد ذلك دليل ظاهر على جحودهم وضلالهم ، لأن النعم عديدة ، وموجودة ، ومع ذلك وبعده يكفرون !!

وكانت هذه آخر معجزة رآها الإسرائيليون وفرعون على سواء ، وبعدها عاش الإسرائيليون في سيناء وغرق فرعون وجنوده عقوبة له على كفره وضلاله.

المقطع الحادى عشر فتنة السامرى لبنى إسرائيل

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴿٥٩﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٦١﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴿٦٢﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا ﴿٦٣﴾ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٦٤﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة هلاك فرعون وجنوده بالغرق فى البحر ، ونجاة موسى وقومه ، وعبورهم البحر إلى سيناء والإنعام عليهم باليمن والسلوى جاءت هذه الآيات لبيان فتنة السامرى لبنى إسرائيل ، وعدم صدقهم مع الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن موسى عليه السلام ذهب لملاقاة ربه ومعه سبعون رجلا ، وخلف على الإسرائيليين أخاه هارون فاحتال السامرى عليهم وفتنهم ، وجعلهم يعبدون عجلا صنعه لهم .

(٥٩٣)

- ٣ -

ملخص المقطع الحادى عشر من خلال دلالة الآيات

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴾ ؟ ... الاستفهام للإنكار .

فقد اختار موسى عليه السلام سبعين رجلا من قومه كما أمره الله تعالى ، وأخذهم معه لملاقاة ربه ، فتقدم عليهم فسأله الله تعالى عن سبب ذلك منكرا عليه ما فعل .
والمراد بالقوم السبعين الذين اصطحبهم معه .

سأله الله عن سبب تقدمه عليهم مع أنه مأمور بمصاحبته ، واحضارهم معه .

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام مجيبا ربه ﴿ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي ﴾ أى هم

خلفى آتون فى إثرى ، وما تقدمتهم إلا بخطى يسيره لا يعتد بها ، وليس بينهم وبينى إلا مسافة قصيرة .

﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ أى تقدمت عليهم تعجلا فى الاتصال بك

لتزداد عنى رضى ، وقد قدمت على هذا الفعل حبا لك ، ورغبة فى سرعة الاتصال بك .

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ أى إنا

اختبرنا قومك الذين خلفتهم مع هارون ، ففتنوا بعد فراقك ، وعبدوا العجل ، فقد أضلهم السامرى ، وصنع لهم عجلا ، ودعاهم إلى عبادته فعبدوه ، وأطاعوا السامرى .

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا ﴾ أى رجع موسى مسرعا

إلى قومه غاضبا منهم ، حزينا متألما من عبادتهم للعجل الذى صنعه السامرى .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﷺ لقومه ﴿ يَنْقُورِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا ﴾؟

... أى كيف تفعلون ذلك وقد وعدكم الله أن يأتيكم بالتوراة فيها هدى ونور ، وأن يثيبكم بالثواب العظيم فى الآخرة ، وقد وعدكم بأن تكون أرض الجبارين لكم ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ أَلْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ

رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ينكر فيه موسى ﷺ على قومه عبادتهم للعجل ويسألهم متعجبا : هل طال الزمن بكم فنسيتم عهدكم مع الله أم قصدتم أن يحل عليكم غضب الله متعمدين ذلك ؟

- ٤ -

معنى المقطع الحادى عشر

تبين الآيات أن موسى ﷺ ذهب لملاقاة ربه ومعه سبعون من بنى إسرائيل ، فتقدمهم ، وأسرع إلى الله تعالى ، فسأله الله عن سبب تقدمه مع أنه أمر بمصاحبتهم وبالمجئ معهم ، فأجاب أنه لم يسبقهم إلا بخطوات قليلة حبا لله ، وتقربا إليه ، فعرفه الله بما حدث فى قومه حيث فتنهم السامرى وصنع لهم عجلا عبده ، فرجع موسى ﷺ إليهم مسرعا وهو حزين ، غاضب . وقال لهم : لماذا فعلتم ذلك ؟ وقد وعدكم الله وعدا حسنا فى الدنيا وفى الآخرة ... وهل سبب ذلك إن الزمن قد طال بكم ؟ أم أنكم تريدون أن يحل عليكم غضب الله تعالى ؟

المقطع الثانى عشر

تفصيل فتنة السامرى

يقول الله تعالى :

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ^ط وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة فتنة الإسرائيليين بخديعة السامرى جاءت هذه الآيات لبيان تفاصيل هذه الفتنة المخادعة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات رد قوم موسى عليه السلام وقولهم : إنا لم نخالف موعدك بإرادتنا وإنما أمرنا السامرى أن نتخلص من الأوزار التى جئنا بها من مصر فأعطيناها له ، وكان ما كان من السامرى .

(٥٩٦)

- ٣ -

ملخص المقطع الثاني عشر على ضوء دلالة الآيات

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا ﴾ أى قال الإسرائيليون : إنا لم

نخالف عهدنا معك بإرادتنا واختيارنا .

﴿ وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى

السَّامِرِيُّ ۝ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا

إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۝ ﴾ أى أننا خدعنا ، وأضلنا السامرى ،

وبيان ذلك أنه لما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه ، استخلف أخاه هارون عليه السلام

الذي عرف باللين ، والهدوء ، فانتهز السامرى فرصة غياب موسى عليه السلام وشكك

في صدقه ، وبخاصة بعدما أخلف موسى مواعده معهم .

وقال السامرى لبني إسرائيل : إنما أخلف موسى مواعده معكم ، لما معكم

من الحلي التي سرقتموها من المصريين ، فهي حرام عليكم ، وطالبهم

بالتخلص منها ، والقائها في النار ، فاستجابوا له ، وجمعوا الذهب ، وألقوه في

النار ، فصنع منه السامرى هيكلًا تجسد أمامهم في صورة عجل ، يصدر

صوتا ، له خوار^(١) ، وقال لهم : هذا إلهكم ، واله موسى فأطاعوه ، وعبدوه

واتخذوه إلهًا ، وادعوا أن موسى نسيهم عندما خرج للقاء ربه .

(١) تفسير الرازي ج ٢٢ ص ١٠٣ ، هذا وقد قال العلماء : إن سبب الصوت خديعة صنعها

السامرى ، وذلك بفتح ثقب في جسد العجل ، يصدر الصوت مع هبوب الريح .

وقيل : بل هو من فتنة الشيطان للإسرائيليين .

وقيل : إن السامرى رأى جبريل عليه السلام يوم انفلاق البحر يخوض الماء بفرسه "حيزوم" وكانت

فرسه إذا مست شيئًا أحياء الله ، فأخذ السامرى ترابًا حيا من تحت أقدام الفرس ، واحتفظ به

==

ووضعه في فم العجل فأخرج الصوت .

وعبد الإسرائيليون العجل ، وأخذوا يرقصون حوله ، ويلعبون ، وتحققت أمنية لهم ، رجوها طويلا من قبل ، ولم يفكروا في هذا الإله البقرة ، مع أنه لا يتكلم معهم ولا يرد عليهم ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا .

إنهم بعبادتهم للعجل أكدوا طباعهم الوثنية ، وبرهنوا على تعودهم نقض المواثيق ، فلقد عاهدهم موسى ﷺ على ضرورة الاستقامة على دين الله وطاعته ، وأن يتجنبوا أية مخالفة وهو غائب عنهم ... ولكنهم لم يخالفوا في جزئية ، بل تركوا الدين بالكلية ، يقول الرازي في تفسيره : "إن القوم كانوا من الجهالة ، بحيث اعتقدوا أن ذلك العجل المعمول في تلك الساعة هو الخالق للسموات والأرض ، وكانوا في نهاية البلادة والجلافة؛ لتصديقهم أن صوت البقرة "الخوار" يناسب مقام الألوهية"^(١) .

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾

أى أعمى هؤلاء القوم فلا يرون فساد اتخاذهم العجل إلها ، ولم يملكون عقلا والسامري يخبرهم بأن موسى نسى هذا العجل وهو الإله ، وذهب لغيره .

== وقيل : بل هي فرسة جبريل يوم أن جاء ليصعد بموسى ﷺ .

وقيل : بل رآها السامري مرة ما ، ودليل القائلين بأنه تراب الفرسة قوله تعالى :

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ

سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي ﴾ ، فالقبضة تراب من أثر جبريل . ويستبعد الشيخ عبد الوهاب النجار ما

يقال عن أن الصوت سببه تراب الحياة ، ويرى أنها من الريح في فتحة بالعجل المصنوع ،

ويرى أن معنى الآية : أن السامري بصر بعجل مصري لم يره الإسرائيليون وأخذ جزءا من

تعاليم موسى الخاصة بالتوحيد ، وأبعدها عن الإسرائيليين ، وهي المرادة بالقبضة التي نبذها

من آثار موسى الرسول ، وبعد ذلك رأى الفرصة مواتية للعب بعقول الإسرائيلييين "قصص

الأنبياء ج ١ ص ٢٢٠" .

(١) تفسير الرازي ج ٢٢ ص ١٠٤ .

إن فساد ما قالوا به واضح فالعجل لا يرد عليهم جوابا ولا يملك ضرا ولا نفعا .

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ أى أن هارون عليه السلام قال لهم قبل مجئ موسى عليه السلام قال لهم : لقد أضلكم السامرى بالعجل ، وقتنكم به ، فاتبعونى فى عبادة الله وحده ، واتخاذها إلها واحدا ، واطيعونى فى ترك هذا الضلال .

﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ أى لم يستجب القوم لهارون وقالوا سنظل نعبد العجل ، وسنستمر عاكفين على عبادته حتى يرجع إلينا موسى عليه السلام يعرفنا بالصواب فى هذا الموضوع .

- ٤ -

ملخص المقطع الثانى عشر

تبين الآيات أن موسى عليه السلام ذهب لملاقة ربه ، ومعه سبعون رجلا من الإسرائيليين فسبقهم إلى الله فسأله الله عن سبب سرعته فى الإقدام عليه ، وتقدمه على قومه فبين موسى أنه أسرع إلى الله حبا له ، ورغبة فى القرب منه فأخبره الله أن قومه قد فتنوا بعده ، وأنهم عبدوا العجل الذى صنعه لهم السامرى ، فرجع موسى إلى قومه مسرعا وهو غاضب حزين ، وقال لهم : ما الذى جعلكم تعبدون الأصنام ، وتتفوضون عهدكم معى ... أخذت ذلك بسبب طول الزمن ؟ أم الرغبة فى أن يحل عذاب الله بكم ؟

فأجابوه بأنهم لم يخلفوا العهد بإرادتهم واختيارهم ، وأنهم وقعوا فى خديعة السامرى الذى زين لهم عبادة العجل الذى صنعه من الحلى التى أخذوها من المصريات .

المقطع الثالث عشر

عتاب موسى ﷺ لأخيه هارون

يقول الله تعالى :

﴿ قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿١٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿١٤﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة أن موسى ﷺ ذهب لملاقاة ربه ، وأن الله أخبره بفتنه قومه جاءت هذه الآيات لبيان عتابه لأخيه هارون وسؤاله عما حدث منه في فتنه قومه .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن موسى ﷺ سأل أخاه هارون عن موقفه إزاء عبادة قومه الأصنام ورد هارون عليه .

- ٣ -

ملخص المقطع الثالث عشر

على ضوء دلالة الآيات

واتجه موسى ﷺ مغاضبا إلى أخيه هارون : ﴿ قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿١٣﴾ وفي الآية عتاب شديد من موسى لهارون وهو يسأله : لم لم تتبعني حين رأيتهم كفروا

وعبدوا العجل ؟ يريد موسى أن يتبعه هارون منهجيا ، بمعنى أن ينكر عليهم أو يقاتلهم ، كما كنت أفعل لو كنت فيهم ، أو تتبني فتعبرهم ، وتترك الإقامة بينهم ، لتلق بي ، ففي مفارقتهم زجر ، وتقريع ... ويتابع موسى ﷺ عتابه متسائلا : وهل يا هارون عصيت أمري ، ووصيتي التي قلتها لك ؟ وعنهما يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾^(١) .

أجاب هارون ﷺ بهدوء على أخيه موسى : ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۚ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ ... وكان موسى ﷺ قد أخذ شعر رأسه بيده اليمنى ، وشعر لحيته بيده اليسرى ؛ لأن الغيرة لله ملكته ، والانفعال بكفر قومه أحزنه ؛ ولذا قال هارون : لا تأخذ برأسي أو لحيتي ، حتى لا يتخيل أحد أنك تعاقبني ، أو تستخف بي^(٢) ، فتركه موسى ، وأخذ هارون يشرح له ما حدث .

يبدأ هارون حديثه بمودة ظاهرة ، وينادي أخاه موسى ويقول : ﴿ يَبْنَؤُمَّ ﴾

وكان موسى أخاه لأمه وأبيه ، ولكن هارون ركز على أخوته لأمه ؛ لما فيها من لين ، وعطف ، ومرحمة .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٢ .

(٢) يذهب القرطبي إلى أن موسى ﷺ أخذ برأس هارون ﷺ وضمه إليه ليعلمه بنزول الألواح عليه ، وليسمع واقع الحال بصورة لا يسمعها أحد ، وكان أخذ الرجل من شعر رأسه ولحيته تكريما واحتراما ، إلا أن هارون نهى موسى عن ذلك حتى لا يتخيل الإسرائيليون أن موسى يعاقبه "تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٨٩" .

(٦٠١)

- ٤ -

معنى المقطع الثالث عشر

يبين هذا المقطع أن موسى عليه السلام عاتب أخاه هارون وقال له يا هارون لم عشت مع الناس وهم يعبدون العجل ، ولم لم تتركهم وتأتيني ، فهذا هارون من غضبه ، وقال له : إني خفت أن تتهمني بأنني فرقت الإسرائيليين ولم تنتظر بمجيئي .

المقطع الرابع عشر

غضب "موسى" عليه السلام من السامري

يقول الله تعالى :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمَرِيُّ ﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّيْتُ لِي نَفْسِي ﴾ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۚ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ ۚ وَانْظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ۚ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا إِلٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ ﴿١٨﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة موقف موسى عليه السلام من هارون عليه السلام جاءت هذه الآيات لبيان موقفه من السامري حيث طرده ليذهب بعيدا عن الإسرائيليين حتى لا يختلط بأحد من الناس ، ويستمر على هذا إلى أن يلقي عذابه في الآخرة .

(٦٠٢)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن موسى عليه السلام اتجه إلى السامري بالسؤال عن سبب ما فعل وأنه عليه السلام طرده ، وأبعده عن الإسرائيليين ، وعرفه بعذاب الله تعالى لاتخاذ العجل إلها .

- ٣ -

ملخص المقطع الرابع عشر من خلال دلالة الآيات

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمَرِي ﴾ أى اتجه موسى عليه السلام إلى السامري^(١) وسأله عن دوره فى صناعة العجل والدعوة إلى عبادته ، وقد سأله موسى عليه السلام هذا السؤال لتظهر إجابته أمام الناس ، ويعلموا فساد ما دعاهم إليه .
﴿ قَالَ ﴾ السامري ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أى إنى عرفت ما لم يعرفه غيرى ، ورأيت ما لم تره أنت أو أحد من القوم يا موسى .
﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أى أخذت قبضة من أثر موسى ، فابعدتها عنهم ، ورميتها ، وقد ذهب العلماء إلى المقصود بهذه القبضة مذاهب شتى ، والراجح أن المراد بها جزء من تعاليم موسى الخاصة بالتوحيد التى أبعدها السامري عن الناس حتى لا يتمسكوا بها ، ويسهل عليه بعدها إضلالهم وخداعهم .

يقول الشيخ عبد الوهاب النجار : إن السامري خدع بني إسرائيل ، وأخذ منهم الحلي ، وبصر بعجل من العجول التى تعبد في مصر ، ولم يبصره

(١) السامري رجل مصرى كان يعبد البقر . دخل في دين موسى ظاهرا ليضل الناس بعد ذلك . وقيل : هو إسرائيلي من قبيلة تعرف بالسامرة .

(٦٠٣)

غيره ، فجاء به إلى الإسرائيليين ، وقال لهم : هذا إلهكم جئت به بدل حليكم لتعبده ، فانخدعوا ، وصدقوا ، وعبدوا ، وعلى هذا يكون العجل حيوانا عاديا... إن بني إسرائيل اتخذوا بدل حليهم عجلا مجسدا له صوت ، وعبدوه^(١) فمعنى ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ "بدل حليهم" ، والمراد بالمبصر العجل الذي رآه السامري.

والذين يذهبون إلى أن العجل صنع من الذهب يرون أن معنى ﴿ مِنْ ﴾ للتبويض ، ويكون المبصر فن الصياغة ، وصناعة الذهب ، وكان السامري فعل ذلك لخبرته في صناعة الذهب^(٢) .

﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أى زينت لى نفسى وهوى هذا الأمر بلا دليل ولا برهان .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﷺ للسامري ﴿ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ أى اذهب بعيدا عنا ، وارحل عن بنى إسرائيل لا يلامسك أحد ، ولا تلامس أحدا واتركهم ، ولا تختلط بهم فهم فى البرارى طريدا ملعونا .

وقد بين له موسى ﷺ مصيره فى الآخرة فقال له :

﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ﴾ أى أن الله سيبعثك يوم القيامة فى

موعد لا يمكنك أن تتخلف عنه ، وهو آت لا ريب فيه .

(١) قصص الأنبياء ص ٢٢٠ .

(٢) مدرسة الأنبياء ص ٢٢٩ .

(٦٠٤)

﴿وَأَنْظِرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ

فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ أى وأما إلهك الذى صنعته بيدك ، وعبدته ، وعبدت الناس به
ومكنت تخضع له فسوف نحرقه ، وننثر ترابه فى البحر ، وقد فعل موسى
عليه السلام ذلك استهزاء بالسامرى ، وبياناً لضلال ما دعا الناس إليه .

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

أى قال موسى عليه السلام لقومه : إن الإله الحق هو الذى ادعوكم إليه ، فهو واحد
لا شريك له ، ولا إله سواه ، وقد أحاط بعلمه الأزلى كل خلقه وهو على كل
شئ قدير .

- ٤ -

معنى المقطع الرابع عشر

يبين المقطع الرابع عشر أن موسى عليه السلام سأل السامرى عن سبب ما
قام به من إضلال الناس . فقال له : لقد علمت أمراً لم يعلم به أحد بعدى
فأبعدت عن الإسرائيليين آيات التوحيد حتى لا يستعينوا بها ضد دعوتى ، وقد
قمت بذلك استجابة لنداء نفسى وهوى .

قال له موسى عليه السلام : ابتعد عن الإسرائيليين ، وسر فى البرارى بعيداً
عنا لا تلامس أحداً ، ولا يلمسك أحد ، وسوف نحرق العجل الذى صنعته
وننسف ترابه على ماء البحر .

وقال موسى إن الله هو الواحد الأحد ، لا شريك له الذى وسع علمه كل
شئ ، وهو السميع البصير .



(٦٠٥)

إلى هنا نقف الآيات عن قصة موسى عليه السلام تاركة كثيرا من أحداثها وتفاصيلاتها للآيات والصور الأخرى ... ولذلك أبدأ فى بيان ركائز الدعوة التى نستنبطها من آيات قصة موسى عليه السلام فى هذه السورة .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى قصة "موسى" عليه السلام
كما جاءت فى سورة "طه"

تتضمن آيات القصة عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الله يصطفى لدينه رسلا ودعاة

خلق الله الناس ، وبثهم فى كونه الواسع ، وعرفهم بنفسه ، وأمرهم أن يستقيموا على هدية الذى أرسل به رسله ، يبشرون من أطاع ، وينذرون من عصى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾^(١) .

ودائما يختار الله لدينه رسلا ودعاة يتميزون بصفاء الفطرة ، ونظافة العقل ، وحلاوة السلوك ، ويبسر له البيئية الرضوية ، ويحيطهم بعوامل الحفظ والسمو ، والخلق الكريم ، ويرزقهم حلاوة العبادة ، وجمال الأسلوب ، ومحبة الناس . هؤلاء هم رسل الله ، وهم الدعاة إلى الدين الصحيح .

فها هو موسى عليه السلام فى مسار اختيار الله لرساله ، فقد نجاه الله من الذبح والغرق ، ورعته أمه فى بيت عدوه ، ومن الله عليه بنعم عديدة .

لقد هيا الله موسى عليه السلام للدعوة فشرح صدره ، وبسر أمره ، وحل له عقدة لسانه ، وأعانه بأخيه هارون ليكون قويا فى مواجهة الضالين ، وكان من رعاية الله أن قدر لموسى عليه السلام أن يترك حياة القصور والملوك ليعيش بين الأجراء

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٤ .

(٦٠٦)

والعمال الكادحين . ففر إلى سيناء حيث وصل "مدين" وهناك عمل أجيرا لمدة عشر سنوات ، حتى تزوج وأنجب ، ولم ينزل عليه الوحي إلا وهو راجع إلى مصر في الجانب الأيمن من طور سيناء .

ومن هذه البدايات المبكرة لموسى عليه السلام يحسن بنا أن نحدد منهاجنا نختار به الدعاة إلى الله ، ونحدد الخصائص الإيمانية التي يجب أن يكون عليها الدعاة .

إن أساس اختيار الدعاة يجب أن يكون سلامة فطرتهم ، وحسن تكوينهم ووضعهم في بيئة راقية تحقق لهم سلامة الطبع ، والإحساس بنعم الله ، وجمال الحياة ... لقد نشأ موسى عليه السلام في بيت فرعون برعاية أمه ، ولم يخالط أسافل الناس ، ولم يلتق بصناع الجريمة والفساد ، وما أشبه هذا بنشأة محمد ﷺ فلقد نشأ وترى في بادية بنى سعد ، واستفاد من رعى الغنم كيفية القيادة ، وأهمية النظام ، والرعاية ، وضرورة أن يكون لكل إنسان دور في هذه الحياة .

ومن صفات الدعاة التي يحسن تربيتهم عليها الحياة العملية التي تضعهم بين طوائف الناس ليعلموا ما هم فيه ، ويتدربوا على خطابهم ، ومناقشتهم ، فلقد عاش موسى عليه السلام بين المصريين ، ورأى منازعتهم الإسرائيليين ، وفر إلى مدين ، وعاشر العمال والأجراء ، ورأى السعى الدعوب في تحقيق مطالب الحياة ... ولم يبعد محمد ﷺ عن ذلك فلقد عاشر الرعاة ، وسافر مع التجار ، وكان يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة .

ومن حسن اختيار الدعاة أن تختبر فيهم الصفاء الذهني ، والفهم الموضوعي ، وقدرتهم على الاقتناع ، والإقناع ، وتميزهم بفصاحة اللسان ، وبلاغة البيان ، والصدق والإخلاص .

هذه أهم الخصائص التي يختار بها الدعاة ... أما خصائصهم الإيمانية فيجب أن يؤمنوا بالله تعالى إيماناً يجعل ثقتهم فيه أقوى من ثقتهم مما في أيديهم لأن هذا الإيمان هو قضيتهم التي سيعيشون لها وبها ، ويجب أن تفيض من قلوبهم ، وعقولهم إلى الناس .

إن إيمان الدعاة بالله يجب أن يتحول إلى اعتقاد وعمل ، وذكر وتسبيح وعبادة شاملة ... فلقد رأينا ذلك في حياة موسى عليه السلام ، يقول الله تعالى :

﴿ وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾^(١) .

﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾^(٢) .

إن الدعاة عبيد لله تعالى ، يعملون له ، والواجب أن يتقنوا قضيتهم ويخلصوا فيها خلاصاً لأنفسهم ، وهداية للناس أجمعين .

الركيزة الثانية

الإيمان التزام تام بدين الله تعالى

جاء الرسل للناس لأخذهم إلى الله تعالى ، وانقاذهم من وساوس الشيطان ، وألاعيب الكافرين والمنافقين .

إن تحقيق الإيمان في الإنسان يقوم على المعرفة بالله تعالى ، وإزالة غواشي الطغاة من عقول الناس .

لقد آمن موسى بالله تعالى ، ورآه نورا ينبعث من الشجرة ، وصوتا يناديه : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ وقد فهم موسى

(١) سورة طه ، الآية ١٣ ، ١٤ .

(٢) سورة طه ، الآية ٩٨ .

ﷺ النداء وسعد به ، وخلص نفسه من الشهوات المادية ، والتزم بالعبودية التامة ، والتسبيح المستمر ، والصلاة القائنة ... وبعد أن آمن موسى ﷺ وكلفه الله بالرسالة أخذ بعرف الناس بالله ، وصفاته فقال لفرعون حين سأله : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴾ ؟ ... قال موسى ﷺ : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ ، وقال له ما حكاه الله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ۖ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۖ ﴾ .

إن الدعوة إلى الله تعالى مسئولون عن تعريف الناس بدين الله تعالى وعن دعوتهم إلى الإيمان الصحيح بما يشملهم من عقيدة ، وشريعة ، وخلق .

الركيزة الثالثة

حسن عرض الدعوة

أمر الله سبحانه وتعالى بعرض الإسلام على الناس بأسلوب حسن ، وبيان مفهوم يحبب الإيمان إلى القلوب ، ويزينه في عقول الناس .

والعرض الجميل يتم بعوامل متعددة :

أولها : بيان الحقيقة الدينية بوجهها الصحيح ، وتأكيدا بأدلة الواقع الذي يعيشه المدعوون ، وقد رأينا موسى ﷺ وهو يعرف بالله يقدم أدلة الخلق والإبداع في هذا الكون الفسيح ، وحينما يتحدث عن البعث يربطه بالخلق الأول . فيقول تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ ، ويبشر المؤمنين بالجنة ، وينذر العصاة بنار السعير .

(٦٠٩)

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ مَن يَأْتِ رَبَّهُمْ مَجْرِمًا فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَى ﴿ ٧٦ ﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿ ٧٧ ﴾ .

ثانيها : استعمال الأسلوب المحبب الجميل ، ولذلك طلب موسى ﷺ من الله أن يرزقه البيان وحسن الاستماع .
ثالثها : مناقشة الخصم في ضلاله وافكه ، وإثبات الحق بالدليل .

الركيزة الرابعة ضرورة الحذر من المنافقين

من المهم تطهير الصف الإسلامي ، وانقاذه من المنافقين الذين يلحقون به لهدمه بعد ذلك ... لأن العدو المختفى أخطر على الإسلام من العدو الظاهر ، إن المسلم يحتاط من خطورة العدو الظاهر فهو معروف له ، وظهوره على حقيقته يسهل مقاومته ، ويحدد طرق التغلب عليه .
أما العدو المختفى فإنه منافق ، إذا لقي المؤمنين كان معهم ، وإذا خلا إلى الكفار ظهرت حقيقته ، إنه يندس بين المسلمين ليفت في عضدهم ، ويضعف عزيمتهم وعملهم .
وقد حذر الله من المنافقين لكذبهم ، وخداعهم ، وعملهم في نشر الفساد وتقوية المفسدين .

لقد كان السامري من الذين أعلنوا اتباعهم لموسى ﷺ إلا أنه كان يضمّر عداوة ومعارضة موسى ﷺ ، فلما ذهب موسى ﷺ للقاء ربه انتهر السامري ذلك ، وأخذ يدعو بني إسرائيل لعبادة عجل صنعهم لهم من الذهب

(٦١٠)

الذى أخذه الإسرائيليون من المصريين ، وكانت عاقبته أن طرده موسى ﷺ وعرفه أنه لن يختلط به أحد .

الركيزة الخامسة أهمية معرفة الحق

فى قصة موسى ﷺ فى سورة "طه" لقطات متعددة فيها السؤال ، وفيها الإجابة ، وهى تشير إلى أهمية الوصول إلى الصواب بسؤال أو بجواب أو بهما ، ومع الأسئلة أجوبتها ، وهى تشير إلى مدى الحرية التى أعطاها الله للإنسان ، وجعلها طريقه للعزة والكرامة .
ومن الأسئلة فى القصة نقرأ :

- ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴾ ؟
- ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْوَسَىٰ ﴾ ؟
- ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴾ ؟
- ﴿ وَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ ؟
- ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْوَسَىٰ ﴾ ؟

واجابة هذه الأسئلة موجودة فى القصة ، والمستفاد هو ضرورة الوصول للحقيقة ليكون الإيمان على بينة وبرهان .
إن السؤال يجعل المستمع يركز قواه العقلية ليحيط بالجواب ، وحين تكون الإجابة الصحيحة تكون المعرفة والوضوح .

إيراد القصص القرآنى للاعتبار والعظة

يقول الله تعالى :

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ ﴿١١﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۖ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۖ ﴿١٣﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۖ ﴿١٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۖ ﴿١٥﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قصة موسى عليه السلام مع فرعون ثم مع السامرى جاءت هذه الآيات لبيان أن الله يقص على محمد ﷺ أخبار الأمم الماضية وأنزل القرآن الكريم مشتملا على هذا القصص ليكون تذكيرا يجب الاستفادة منه ، وحتى لا يعذب الإنسان بالغفلة والإعراض عنه .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله قص على رسول الله ﷺ أخبار الأمم السابقة ، وأنه أنزل القرآن الكريم تذكيرا بهذا ، ويجب الاستفادة منه ، لأن من سيعرض عنه ويتركه سيحمل وزر ذلك ثقيلًا فى الآخرة ، يوم يحشر الله المشركين زرق العيون من الأهوال التى يجدون أنفسهم فيها ، وتراهم فى همس حول مدة مكثهم

فى الدنيا فيقولون أنها عشرة أيام إلا أن الحق أنهم لم يمكثوا فى الدنيا إلا يوما واحدا بمقياس أيام الآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ الخطاب فى الآية للنبي ﷺ لبيان أنه بعد أن انتهت الآيات من قصة موسى عليه السلام يقص القرآن الكريم أمثال ذلك فى قصص السابقين كعاد وثمود ، وقوم نوح ، وقوم إبراهيم عليهم السلام .

وهى أنباء قديمة جديدة ، أما قدمها فإنها تتحدث عن الماضى السحيق ، وأما جدتها فهى لم تعرف قبل حديث القرآن الكريم عنها ... والمعنى : ومثل قصنا لأخبار موسى وفرعون وقومه نقص عليك يا محمد أخبار الأمم السابقة لتأنس بها ، وتصبر على إعراض قومك وأذاهم ، وتأخذ منها فوائد فى مجال أساليب الدعوة ومنهجيتها فى التبليغ .

﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ أى وقد أعطيناك القرآن الكريم ، وأنزلناه عليك لتتذكر ما فيه ، وتستفيد به لأنه كلام الله تعالى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وهو كتاب جامع لأخبار السابقين ، مشتمل على عقيدة سليمة ، وشرع مستقيم ، وخلق كريم ، فأحرص وأمتك على الإيمان به والتزام هديه لتحقيقوا فى عالم الواقع دولة العدل والأمان . يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ (١) .

(١) سورة محمد ، الآية ٢ .

﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴾ أى من كذب بالقرآن الكريم ، ولم يؤمن به ، وأعرض عن اتباعه فإن الله يضلّه ، ويبطل عمله ، ويجعل أعماله السيئة حملا ثقيلا من الأوزار والآثام لا يقدر على حملها ، فيقضم الله ظهره به .

إن القرآن الكريم كلام الله تعالى أنزله على محمد ﷺ ، وجعل الإيمان به ركنا أساسيا فى الإسلام ، فمن كفر به كفر بالإسلام ، ومن كفر بالإسلام يلقى فى الآخرة عذاب السعير .

﴿ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴾ أى أن من كفر بالقرآن الكريم ، وأعرض عن هديه ، وتعاليمه يعيش بأوزاره فى جهنم دائما ويستمر فى ثقل هذا الحمل السيئ الذى أعده الله لهم .

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ أى يحدث يوم القيامة بعد النفخ فى الصور النفخة الثانية بعث الناس وحشرهم حيث يحشر الله المشركين شاحبي الألوان ، زرق الوجوه ، لما هم فيه من الأهوال والشدائد . وبعد ذلك تصور الآيات حالة من أحوال هؤلاء الضالين حين يتناقشون سرا فى مدة مكثهم فى الدنيا ، حين كانوا يلهون ويلعبون ويقيسونها بمدة خلودهم فى جهنم ... يقول الله تعالى مصورا هذه الحالة .

﴿ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ أى يقول بعضهم لبعض فى همس ، وصوت خفيض بسبب رعبهم وخوفهم . يقولون : لقد مكثنا فى الدنيا عشرة أيام فقط وهى لا تساوى بجانب الآخرة شيئا .

(٦١٤)

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾

يقول الله لنبيه : نحن أعلم بما يقولون مهما أسروا أكثر من علمهم بأنفسهم ،
وأن أصح الأقوال قول من قال : لبثنا يوما واحدا .

ذلك أن الدنيا قصيرة الأجل ، منتهية ، لا بقاء لها ... والمغرور بها لن
يجد في الآخرة إلا الحسرة والندامة .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله تعالى كما قص في القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام
يقص أنباء الأمم السابقة ، وقد أنزل القرآن الكريم تذكيرا بهذا القصص تسليية
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوجيها للأمة ، وتوضيحا لمنهج الله للناس ، فهو كتاب لا
يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، من كفر به ، وأعرض عن تعاليمه
فإنه يأتي يوم القيامة حاملا أوزارا ثقيلة تقضم ظهره ... ويوم القيامة يأتي بعد
النفخة التي يحشر فيها العباد ، ويقومون لله رب العالمين ، ويظهر المشركون
شاحبي الألوان ، زرق الوجوه لما هم فيه من أهوال وشدائد ، يتحدثون سرا على
هذه الدنيا التي ضيعتهم وينظرون إلى قصرها وانتهائها فيقول بعضهم لبعض
: مكثنا فيها عشرة أيام ، ويقول أحسنهم رأيا : لقد لبثنا فيها يوما واحدا ... وفي
هذا إشارة إلى هوان الدنيا ، وحقارتها ، وعدم جدواها .

(٦١٥)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية الاعتبار بقصص القرآن الكريم

أنزل الله القصص فى القرآن الكريم متصفا بالصدق ، ملازما للحقيقة ،
ولذلك كانت الأحداث المروية فى هذا القصص رواية للتاريخ الصحيح .
ولولا قصص القرآن الكريم لغاب عن أذهان الناس كثير من أخبار الأنبياء
، وحوادث الزمان .
إن القرآن الكريم يقص الحق ، وينطق بالواقع ، وفى هذا بيان للتاريخ كما
كان .

وقد جعل الله هذا القصص مفيدا للدعوة من عدة جوانب .
فهو يقدم دين الله تعالى كما أرسل به الرسل جميعا حيث وحدانية الله
تعالى ، واتصافه بكل كمال يليق به سبحانه وتعالى ، وقد أجمعت سائر
الرسالات على هذه الحقيقة ، وإن اختلفت البراهين والأدلة .
ويعرف بالرسالة والرسل والملائكة والوحى واليوم الآخر من خلال
تفصيلات دعوة الرسل لأقوامهم .
ومن خلال حوارات الأنبياء تتضح نفسية المدعوين ، وطرق التأثير فيهم
والخصائص الرئيسية لكل فريق من الناس .
ومع أساليب البيان التى خاطب بها الرسل أقوامهم تقف على الأساليب
البيانية العديدة التى ظهرت خلال القصص القرآنى .

إن قصص القرآن الكريم يلج إلى النفس البشرية من خلال عناصره الفنية
، لأن القارئ والمستمع له يتابع القصة ، وينفعل معها ، ويرفض أو يرضى

ببعض عناصرها ومن خلال موقفه العاطفى يرتبط بالحدث فى عالم اللاشعور وسرعان ما يتحول إلى عالم الشعور والواقع .

إن القصص دعوة عملية ، ولذلك أكثر القرآن الكريم منها ، وقد بينت الآيات أن الله جعلها ذكرى يذكر الله بها عباده الصالحين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وللقصص القرآنى دور رئيسى فى تكوين الدعاة لأنه يوضح أهم صفاتهم ، ويؤكد خصائصهم المشتركة حيث الصبر ، والمجاهدة ، وبذل الطاقة فى دعوة الناس لله رب العالمين .

الركيزة الثانية

وجوب الإقبال على القرآن الكريم

أنزل الله القرآن الكريم هداية لدين الله تعالى ، فهو دستور الإسلام ، وأساس الدعوة ، منه تكون العقيدة ، ومن توجيهاته وتعاليمه تؤخذ الشريعة والخلق ، ولذلك جعله الله كتابا مبشرا للمطيعين ، ومنذرا للعصاة . يقول الله تعالى : ﴿ قِيمًا لِّنَّذِرٍ بَاسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ ^(١) .

والإقبال على القرآن الكريم بحفظه ، وفهمه ، والعمل به واجب على كل مسلم ليسعد فى الدنيا وفى الآخرة .

وخاب فريق من الناس فاعرضوا عن تعاليم القرآن الكريم ، وخالفوها ، ولم يلتزموا بتعاليمها فكان أن انقلبت أعمالهم ، وكثرت سيئاتهم ، وتنوعت أوزارهم ... يأتون يوم القيامة وهم يحملون معاصيهم ثقيلة على ظهورهم مستمرين فيها .

(١) سورة الكهف ، الآية ٢ .

إن القرآن الكريم يأتي يوم القيامة شاهدا للإنسان أو شاهدا عليه . فمن كان معه أدخله الله الجنة ، ومن كان عليه عاقبة الله بنار جهنم .

الركيزة الثالثة

مصير المشركين في الآخرة

تصور الآيات صورة المشركين يوم القيامة الذى يبدأ بنفخ الصور ، والبعث ، فى هذا اليوم يحشر الله المشركين حائرين ، شاحبي الألوان ، زرق الوجوه بسبب ما هم فيه من مذلة وهوان .

إنهم فى الموقف يتحسرون ، ويناجى بعضهم بعضا عن قيمة الدنيا التى عاشوها ، وتمتعوا بلهوها وعبثها ، وعن الخسارة التى يستحقونها بسبب فسادهم فى الدنيا . يقول بعضهم : لقد ضيعنا الآخرة مقابل عشرة أيام فقط هى قيمة الدنيا ، ويخبرهم الله تعالى إنها لا تساوى يوما واحدا .

إن ميزان الأعمال دقيق ، وسيأخذ كل إنسان ثواب ما قدمت يداه . يقول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَسَوْفَ نَحْصِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۚ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۚ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۚ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۚ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۚ ﴾^(١) .

إن عرض المصير الأخرى على الناس فيه تنبيه على وعورة الطريق وفيه تحذير من المعاصى ، وفيه دعوة مخلص للنجاة .

إن الإنسان يقوده عقله ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ۚ ﴾^(٢) .

(١) سورة الانشقاق ، الآيات ١٣ . ٧ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٠٤ .

(٦١٨)

أحوال الكائنات والناس يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿٦١﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿٦٢﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿٦٣﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿٦٤﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفِيعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿٦٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿٦٦﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿٦٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿٦٨﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة خيبة المشركين في الآخرة جاءت هذه الآيات تتحدث عن أحوال الناس والجبال في يوم القيامة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أحوال الجبال والناس يوم القيامة ، ومصير المؤمنين والكافرين في هذا اليوم .

الدلالات اللغوية

﴿ وَدَسَّأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ أى ويسألك

المشركون أيها الرسول عن الجبال كيف تكون يوم القيامة مع ضخامتها وثقلها ؟ ... فقل لهم يا محمد : يدكها ربي دكا فتستوى بالارض المنبسطة ، ويصيرها هباء تذرؤه الرياح .

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ ﴿ ١٦ ﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ ﴿ ١٧ ﴾

أى يدع الله أماكنها فى الأرض بعد نسف الجبال ملساء مستوية ، لا نبات فيها ولا بناء ، ولا ارتفاع ، ولا انخفاض . فقد بدل الأرض بغيرها . هذا حال الجبال ، والأرض ، والجماد . أما حال الناس .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ أى فى يوم القيامة ترى

الناس من هول الموقف يسيرون وراء داعى الله تعالى الذى يجمعهم للحساب والجزاء ، وهم بعيدون عن الميل والانحراف ، مجبيون لما يدعوهم إليه الداعى . يقول الله تعالى : ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ ^(١) .

﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ أى وعلم

الخلق كلهم أن الله هو مالك الملك ، وهو المتصرف فى الدنيا وفى الآخرة ... ولذلك تخشع أصواتهم ، وتسكن جوارحهم ، ويتحدثون فى همس ونجوى .

(١) سورة القمر ، الآية ٨ .

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾

أى أن الشفاعة لا تنفع أحدا إلا بإذن الله بها ، ولن يأذن سبحانه إلا بأقوال يرضى عنها .

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾

إن علم الله محيط بخلقه كله ، فهو سبحانه منذ الأزل يعلم أسرارهم ، وعلنهم وسرهم ، وجهرهم والخلق كله ، لا يعلم عن الله إلا ما أذن به ، لأن المحدود يدرك فى حدوده لا يتعداه إلى ما وراءه أما عبر المحدود فإنه يدرك كل شئ لا يمنعه حد ، ولا يقف عند عد ... وهو بكل شئ عليم .

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾

الجوارع وتستسلم لله الحى الذى لا يموت القائم على خلقه بالتدبير ، والتصريف ... وخص الوجوه بالذكر لأنها أشرف أعضاء الإنسان ، وبها تكون المواجهة ، وآثار الاستسلام ، والخضوع ، والغبطة والسرور تظهر عليها أولا .

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾

وهو مشرك كافر بالله تعالى ، أو تارك لأوامره ومنغمس فى معاصيه .

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا

هَضْمًا﴾

أى ومن يجمع بين الإيمان بكل جوانبه ، والعمل الصالح بكل صورة على قدر طاقته فسوف يجازيه الله خيرا ، ويدخله الجنة جزاء ما قدمت يداه حيث يجازيه الله به من غير نقص يلحقه ، أو أذى يصيبه لأن الله رحيم عادل ، لا يظلم عباده شيئا .

(٦٢١)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الكون كله يتغير يوم القيامة حيث ينسف الله الجبال نسفا تاما حتى لا يبقى لها أثر ، ولا بقية ، وتظهر الأرض مكانها ملساء مستوية وترى الناس وقد استسلموا لله تعالى ، يتبعون داعي الله ، ويسيرون معه إلى المحشر ، وتخضع الأصوات لله فلا تسمع إلا همسا ، فى هذا اليوم لا تنفع شفاعة إلا بإذن الله تعالى ، ويعلمه المحيط بكل خلقه ، وتخضع الجوارح ، وتقال حكم الله فيها حيث يفوز الطائعون . أما من كفر بالله ، وعصى أمره ، وجد فضلته فإنه يأتى خائبا خاسرا ، ومن يأتى بأعمال صالحة وهو مؤمن فإنه الله يجازيه الجزاء الأوفى بلا نقص أو ظلم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان أهوال يوم القيامة

تبدأ القيامة بنفخة الصور الثانية يقول الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ ^(١) ... هذا القيام هو بعث الخلائق جميعا وسوقهم إلى أرض المحشر للحساب والجزاء . فى هذا اليوم تتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وتصير الجبال هباء منبثا ، ويأتى الناس من كل صوب كأنهم جراد منتشر . فى هذا الموقف تدنو الشمس من الرعوس ، ويتحول العرق إلى مياه

(١) سورة الزمر ، الآية ٦٨ .

حول الناس ، فى هذا الموقف ينال كل إنسان جزاء ما قدمت يداه ، وتجد الكفار والعصاة يغطون فى الفزع والخوف غطا عميقا ، ويستسلمون لله ويطيعون كل أمر يأتهم . فقد بانَّت الحقيقة ، وظهر فسادهم ، وهو اليوم يأملون فى أى نصر وفوز ... ولا ينفع فى هذا اليوم التحايل ، فلا شفاعة إلا بإذن الله تعالى ، والله عليم بكل شئ ، وهو عادل لا يظلم ، رحيم لا يعذب إلا بحق وقد عرضت الآيات هذه الحقائق عن الآخرة على أسماع الناس فى الدنيا ليستعدوا لها بالعمل الصالح ، ولتجزى كل نفس بما عملت ، وهم لا يظلمون .

الركيزة الثانية

أهمية الاستعداد للمصير الحتمى

يتجه الإنسان فى لحظات الحسم كلية إلى المصير الذى ينتظره ، لا يهمه فى هذا إلا تقبل ما يسفر عنه الحساب الدقيق .

وهذا الانتظار يتجلى فى أوضح صورته يوم الحشر حين تتجلى حقائق الدنيا ، وتظهر أعمال الإنسان من مصادر عديدة ... فى هذا الموقف يستسلم العبد لحكم الله تعالى ، ويتبع الداعى فيما يأمره به ، وتخضع جوارحه ، ويخضع قلبه بلا معارضة قولية أو عملية .

والعاقل من يعد لهذا اليوم عدته ، فيؤمن بالله حقا ، ويتبع منهجه صدقا ويكون من الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

فى يوم القيامة تعلو هامات ، وتشرئب أعناق ، وتسعد برؤية الله تعالى ، وتدنو أخرى وتسقط فى واد سحيق وسط الحسرة والندامة ، ويقول : ﴿ يَلَيْتَنِى لَمْ

أُوتِ كِتَابِيَّةً ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَّةٌ ﴿٢٦﴾ يَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ ﴾^(١) .

(١) سورة الحاقة ، الآيات ٢٥ . ٢٧ .

(٦٢٣)

حفظ الله للقرآن الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة أهوال يوم القيامة ، وما يحدث فيه للناس جاءت هاتان الآيتان لبيان عظمة القرآن الكريم ، وحفظ الله له .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الله أنزل القرآن الكريم بلسان عربى ليفهمه العرب ، ليذكروا به غيرهم ويدعوهم إلى الله تعالى ... وتأمر رسول الله ﷺ بعدم العجلة فى تتبع جبريل عليه السلام لأن الله سيعلمه القرآن ، ويحفظه فى قلبه .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى كما أنزل الله ما ذكر فى الآيات السابقة من الوعد والوعيد أنزلنا عليك القرآن الكريم بلغة عربية ليفهمه العرب ، ويفقوا على ما فيه من النظم البديع ، والأسلوب العجيب ، الخارج عن طوق البشر ، وليعملوا به ، ويدعوا غيرهم إليه .

﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ أى

وعددنا فيه من ألوان الوعيد كي يخافوا الله ، ويطيعوه ، ويستقيموا على أمره ...
أو يتذكروا فيه دعوة تبقى لهم منارة إلى الهدى ، وبذلك يتركون المعاصي ،
ويرتقون فوقها إلى درجة القرب من الله تعالى .

﴿ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ أى عظم شأن الله تعالى ، وتقدست ذاته

فهو الإله الحق الذى ترجى رحمته ، ويرجى عفوه ، ويخشى عذابه ، وهو منزل
القرآن الكريم هدى للمتقين ، ونذيرا للعالمين .

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ أى اترك

يا محمد هذه العجلة فى حفظ القرآن الكريم ، وانتظر المراجعة قبل أن ينتهى
جبريل عليه السلام من القائه إليك ، فإذا فرغ الملك من قراءته فاقراه بعده ، وكان عليه السلام
يعجل بقراءة القرآن فى نفسه ، قبل أن ينتهى جبريل من قراءته ، وكان يتبعه فى
قراءته لفظا لفظا ، وحرفا ، حرفا خوفا من انتهاء جبريل ولم يحفظه فقال له الله
تعالى : ﴿ لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (١) ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (٢)
فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (٣) ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (٤) (١) .

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ أى سل الله زيادة فى العلم ولا تتعجل فى

تلاوة القرآن الكريم وسوف يمنحك الله حفظه .

يقول النبى ﷺ : "اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ما ينفعنى ، وزدنى

علما ، والحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار" (٢) .

(١) سورة القيامة ، الآيات ١٦ ، ١٩ .

(٢) سنن الترمذى . باب أبواب فى الدعاء ج ٥ ص ٥٧٨ .

(٦٢٥)

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله أنزل القرآن الكريم ، وصرف فيه من الوعيد ألوانا وصورا عسى أن يخاف الناس من الله تعالى ويخشون عذابه ، ويطيعونه ، ورجاء أن يزدادوا بالقرآن الكريم ذكرا ، واعتبارا ، ورقيا .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان دور القرآن الكريم مع الناس

أنزل الله القرآن الكريم دستورا للإسلام ، وسراجا ينير الطريق للناس يوضح أركان العقيدة ، ويحدد معالم الشريعة ، ويعلى مكارم الأخلاق ، من اتبع هداه فاز ونجا ، ومن تمسك بنهجه ارتقى وسما ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله تعالى .

وضع الله في قرآنه مراده ، وحفظه للناس ليبقى بينهم نورا ومنهجاً ﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (١) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾ (١) .

يخطئ كثير من الناس حين يحصرهم اهتمامهم بالقرآن الكريم في مجال العلم به ، والتبرك بتلاوته ، وتزيين المجالس والأماكن بفاخر طبعاته وجمال شكله وأوراقه .

إن القرآن الكريم نزل ليحفظه المسلمون في قلوبهم ، ويحبونه في أقوالهم

(١) سورة الإسراء ، الآية ٩ ، ١٠ .

وأعمالهم ، ويلتزمون بتعاليمه فى تربية أبنائهم ، واکرام أهليهم ، وحسن التعامل من سائر الناس .

أنزل الله القرآن الكريم ليصنع الإنسان المستقيم ، ويخرج الأمة الصالحة ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور .

أنزل الله القرآن الكريم لتوفيق المشاعر ، وتهذيب الروح ، وتكوين عقل فاهم يتدبر فى الخلق ، ويعيش مع الرسل ، ويؤمن بالله رب العالمين .

أنزل الله القرآن الكريم ليصل الإنسان بالله . فمن رغب من الناس لقاء الله فعليه باللجوء إلى كلامه ... ومن أحب رؤية الله فليُنظر إلى كونه ومخلوقاته .

إن قوما يكتفون بحفظ كلمات القرآن الكريم دون العمل به قوم هجروه ، وأسأوا إليه ، وأسأوا إلى أنفسهم ، ومثلهم كمثل أعمى يحمل مصباحا ينير الطريق للناس ، ولا يستفيد هو به .

ومثلهم أيضا كمثل الحمار يحمل أسفارا ، فهو يحافظ على المعارف لغيره ولا يستفيد بها لنفسه .

لقد يسر الله القرآن الكريم للذكر ، وبسطه للفهم ، وأنزله قرآنا عربيا ليعرف العرب قدره وقيمته ، ويدركوا جوانب الإعجاز فيه ، ويجعلوه منارتهم على الطريق الذى يربطهم بالله تعالى .

إن الله حدد الغاية من القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ

تُحَدِّثُ هُمْ ذِكْرًا ۝ ﴾^(١) . فهم بالتقوى يخافون الله ، ويحبونه ، ويطيعونه ، ويستقيمون على صراطه المستقيم .

وبتذكره يعرف المسلم قدره ، وينزله فى حياته كل منزل ليخرج به من الظلمات إلى النور .

من الضرورى المحافظة على القرآن الكريم بحفظه ، وفهمه ، والعمل به .

(١) سورة طه ، الآية ١١٣ .

الركيزة الثانية

المنهج الأمثل لحفظ القرآن الكريم

تبدأ صلة المسلم بالقرآن الكريم بحفظ نصوصه ، واداك بيانه وفصاحته وقد جعل الله تعلم القرآن الكريم ، وحفظه ، وتلاوته عبادة يتقرب بها المسلم لله رب العالمين .

وقد حددت الآية المنهج الأمثل لحفظ كلام الله تعالى ، وأهم نقاط هذا المنهج ما يلي :

أولاً : خلوص النية لله تعالى ، فهو سبحانه مالك الأمر ، ومعطى الرزق ، وببيده تفهيم الإنسان ، وتذكيره ، وانقاذه من الشيطان الرجيم .
 إن إخلاص النية يصفى الذهن ، ويضع العقل سليماً مع القرآن الكريم .
ثانياً : سلامة قراءة القرآن الكريم بتلقيه تواتراً عن النبي ﷺ كما تلقاه من جبريل عليه السلام .

ثالثاً : استحضار معاني الآيات القرآنية ، لأن فهم المعاني يأتي بها متتابعة ، وبذلك يلتقى الفهم مع الحفظ فيقوى بعضه بعضاً .

رابعاً : العمل التطبيقي بآيات القرآن الكريم بعد فهمها ، وبذلك تتجمع قوى الإنسان حول القرآن الكريم فيدوم تذكره ، ولا يرد نسيان عليه ، ولذلك كان الصحابة وهم يتلقون القرآن الكريم من رسول الله ﷺ لا يتجاوزون الآيات العشر إلا بعد حفظها ، وفهمها ، والعمل بها .

خامساً : خدمة القرآن الكريم بالمعارف الدينية المختلفة ، لأنها تربط بين الألفاظ والمعاني ، وتجلى معالم الطريق أمام المخلصين .

إن من أحسن الأعمال حفظ القرآن الكريم ، والمحافظة عليه . يقول النبي ﷺ : "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" (١) .

(١) صحيح البخارى . كتاب فضائل القرآن . باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ج ٦ ص ١٩٢ .

قصة "آدم" ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُحِذِّ لَهُ عَزْمًا ۖ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ۖ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۖ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ۖ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۖ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۖ ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۖ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۖ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۖ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۖ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ۖ وَكَذَلِكَ نُجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ألوان البيان في القرآن الكريم في الوعد والوعيد ، والتذكير جاءت هذه الآيات لبيان قصة "آدم" ﷺ وموقف إبليس منه ومن ذريته ، فهي من تصاريف القرآن الكريم .

(٦٢٩)

- ٢ -

موضوع الآيات

تقدم الآيات قصة "آدم" ﷺ ، وتوضح ما حدث من إبليس معه ، وكيف أخرجه الله من الجنة ، وأسكنه الأرض ... ويلاحظ أن الآيات أشارت إلى بعض أحداث القصة في إشارات سريعة سبق تفصلها في آيات سابقة .

- ٣ -

قصة "آدم" ﷺ من خلال دلالة الآيات

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُحَدِّثْ لَهُ عَزْمًا ﴾ أى

قد وصينا آدم ، وعرفناه عداوة إبليس له ، ولزوجته ، وذريته ، إلا أن الشيطان تمكن من إغوائه فأطاعه ، وتصوره مخلصا له حين أقسم له ولزوجته على أنه ناصح أمين ، وبذلك نسى آدم ﷺ وصيتنا له ، وتحذيرنا إياه من الشيطان الرجيم .

ثم تأخذ الآيات فى تفصيل ما حدث من إبليس مع الله ، ومع آدم وحواء حتى تمكن من إغوائهما . يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِيَّةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ أى قلنا للملائكة ، وكان إبليس

معهم : اسجدوا لآدم حين تدب الروح فى جسده المصور احتراما له ، وتقديرا لدوره فى الحياة الدنيا .

﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ أى سجد الملائكة جميعا طاعة لأمر

الله تعالى إلا إبليس فقد أبى طاعة الله تعالى ولم يسجد .

﴿ فَقُلْنَا يَتَّعِدْهُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ أى قال الله لآدم ﷺ

إن الشيطان عدو لك ولزوجك بسبب ما رأى عندكما من الفضل والنعمة .

(٦٣٠)

ويلاحظ أن الخطاب كان لآدم عليه السلام وهو له ولزوجته لبيان مسئولية الرجل عن الأسرة منذ وجودها الأول .

وعبر عن الشيطان باسم الإشارة ﴿ هَذَا ﴾ لإظهاره بفعلته الحاقدة ضد آدم وزوجته فقد خالف أمر الله تعالى ، وعصاه كما ترون .

﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ أى خدا حذركما منه حتى لا يكون سببا من إخراجكما من الجنة ، وتكونان بعد ذلك فى الدنيا حيث العمل والتعب ، والسعى ، والشقاء ، والزرع ، والعمل ، والضرب فى الأرض .
والله فاعل كل شئ إلا أن المكلف هو السبب فى الفعل ولذلك يؤاخذ به وينسب إليه ... وتوضح الآية أن الشقاء فى الأرض إن أريد به السعى ، والعمل ، وطلب القوت فهو على حقيقته ، لأنه مسئولية الرجل وحده ... وإن أريد به الألم ، والهم فهو للمرأة مع الرجل لأن المرأة تتألم لألم زوجها ، وتسعد بسعادته .

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا

تَضْحَى ﴿ ﴾ أى أن الله حقق لك ولزوجتك فى الجنة كافة حاجاتك بلا تعب ولا طلب . فقد أوجد لكما الطعام الذى يشبعكما ، ويبعد عنكم الجوع ، وأوجد لكم الكساء الذى يستر الجسد مزينا جميلا ، وأوجد لكم الماء للرى والتلذذ ، وأوجد لكما المسكن الذى تأويان إليه فيقيكم من حرارة الضحى ، أو برودة الشتاء .

إن هذا الحاجات الضرورية تأتيكم بلا سعى وتعب فقد جعلها الله لآدم ، وعرفه بأنها ﴿ لَكَ ﴾ ، ﴿ فِيهَا ﴾ .

إن الجنة وما فيها هى النعيم المقيم الذى وضعكم الله فيه ... ونجاكم من ذل الجوع فأشبعكم وسقاكم ، ونجاكم من ذل العرى والخلاء فكساكم وأسكنكم .

وقد بين الله لآدم ما حققه له فى الجنة ليؤدى شكره ، ويحذر من عدوه الذى سيعمل على حرمانه من هذه النعم كلها ، أو بعضها ... وليعلم وبنوه من بعده أن هذه هى مطالب الحياة الدنيا الضرورية وفيها يفتن الإنسان ويختبر ... ودائما يأتى الشيطان من قبلها .

﴿ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾ أى أتاه الشيطان موسوسا له ، والوسوسة حديث خفى تتخيله النفس الأمارة بالسوء ، وتقدمه لصاحبها جميلا براقا ، وقد مكن الله للشيطان أن يتصل بالنفس عن طريق الشيطان القرين ، وحين تضعف قوة الإيمان ، وتختفى وراء حجب المادة والشهوات ... يأتى الشيطان للنفس الأمارة بالسوء ، يزين الباطل ، ويبين سهولته ، ويلبسه ثوب المصلحة ويحيطه بالشبه والمثيرات التى تجعله محببا للنفس حتى تقوم به ، وتستغرق فيه .

وهذا ما حدث من إبليس مع آدم وحواء عليهما السلام ، و ﴿ قَالَ يَتَذَكَّرُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ ؟ ... الاستفهام للتقرير فلقد جاء الشيطان مستفهما سائلا قائلا : هل أقول لك أمرا يحقق لك ما تتمنى ؟ وكان آدم وزوجته يتمنيان الخلود فى الجنة ، واستمرار نعيمها ... ولذلك نزل السؤال فى قلوبهما منزلا طيبا ، وأرادا سماع الإجابة . فأقسم لهما أنه ناصح أمين ، وأن الأمل يتحقق بالأكل من الشجرة التى حرماها الله عليهما .

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ هُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ أى أكل آدم وحواء من الشجرة ، وأطاعا إبليس فطار ثوبهما ، وانكشفت عورتهم ، فأخذا يستترانهما بورق التوت بعد لزقه .

﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ أى خالف آدم وزوجته حواء أمر الله لهما بعدم الأكل من الشجرة فأكلا منهما بسبب إغواء الشيطان لهما .

﴿ ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ أى اصطفاه الله بعد معصيته ورزقه التوبة ، وهداه للصراط المستقيم .
 ويلاحظ أن اصطفاء الله لآدم عليه السلام واختياره للنبوّة تم بعد أن تاب وقبل الله توبته ، كما تفيدّه ﴿ ثُمَّ ﴾ فى الآية .

وجمهور المسلمين على أن الرسل عليهم السلام لم يصدر عنهم ذنب لا صغيرة ولا كبيرة من حين جاءتهم النبوة . ويدل عليه وجوه :
أحدها : لو صدر الذنب عنهم لكانوا أقل درجة من آحاد الناس وذلك غير جائز لأن درجة الأنبياء غاية فى الرفعة والشرف .

الثاني : لو صدر من النبي ﷺ ذنب لوجب أن لا يكون مقبول الشهادة عند الله ، وعند الناس ، وذلك غير جائز ، لأن معنى النبوة والرسالة هو أنه يشهد على الله أنه شرع هذا الحكم ، وأيضا فإنه يوم القيامة شاهد على الكل .
الثالث : لو صدر من النبي ذنب وجب الاقتداء به فيه وذلك محال .

الرابع : ثبت ببديهة العقل أنه لا شئ أقبح ممن رفع الله درجته ، وائتمنه على وحيه ، وجعله خليفته في عباده وبلاده ، يسمع ربه يناديه ، لا تفعل كذا ، فيقدم عليه ويفعله ترجيحاً لغرضه .

واجتمعت الأمة على أن الأنبياء كانوا يأمرّون الناس بطاعة الله فلو لم يطيعوه لدخلوا تحت قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ أَخَالِفْكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُم عَنْهُ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة البقرة ، الآية ٤٤ .

(٢) سورة هود ، الآية ٨٨ .

الخامس : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾^(١)

ولفظه للعموم فيتناول الكل ، ويدل على فعل ما ينبغي فعله وترك ما ينبغي تركه ، فثبت أن الأنبياء كانوا فاعلين لكل خير وتاركين لكل منهي عنه وذلك ينافي صدور الذنب عنهم .

السادس : قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾^(٣) ، وقال تعالى في حق موسى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَأَمْرِي ﴾^(٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾^(٥) ، ﴿ إِنَّا اخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾^(٦) ، ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾^(٧) وغير ذلك من الآيات التي تدل على كونهم موصوفين بالاصطفاء والخيرية ، وذلك ينافي صدور الذنب عنهم^(٨) .

﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أى قال الله تعالى لآدم وزوجته اهبطا من الجنة لتعيشا فى الأرض مع إبليس وذرية فى عداوة

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٩٠ .

(٢) سورة الحج ، الآية ٧٥ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ٣٣ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية ١٤٤ .

(٥) سورة ص ، الآيات ٤٥ . ٤٧ .

(٦) تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٨٤ .

(٦٣٤)

دائمة بين ذرية آدم ﷺ وذرية إبليس ، وتستمران فى هذا الاختبار فى السعى والعمل ، وفى الاستقامة على منهج الله أو مخالفته .

﴿ فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ أى كونا فى الأرض ، واعلما ، وعرفا

ذرتكما من بعدكم أتى سآتيهم بهدى من عندى ، أوضح لهم فيه الصراط المستقيم ، ودينه القويم بواسطة الوحي الذى سأنزله على رسل الله الذى سأختارهم واصطفاهم .

وتتكير ﴿ هُدًى ﴾ بيان لتتابع إتيانه وكثرته على طول الزمن ، وعلى السنة رسل الله عليهم السلام .

ورسالات الله من لدن آدم ﷺ إلى محمد ﷺ تحمل الهداية الكاملة بما فيها من عقيدة وشريعة وأخلاق .

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ أى فمن أطاع الرسل ، وتمسك بدين الله المنزل ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، فإنه يهتدى للحق ، ولا يضل سعيه فى بيداء الحياة ، ولا يكون من أهل الشقاوة فى الآخرة .
وقد جمع الله الدين كله فى الإسلام ، ووضع فى القرآن الكريم كل أسباب السعادة ودعا إليها ، وحذر من الضلال وحزبه .

يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾^(٢) .

(١) سورة محمد ، الآية ١٧ .

(٢) سورة الإسراء ، ١٩ .

ويقول ﷺ : "من اتبع كتاب الله هداه الله تعالى من الضلالة فى الدنيا ، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة" (١) .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ

الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ أى ومن أهمل ذكرى الذى اذكره به ، وتولى عنه ، وأعرض عن اتباعه فإنه يحيا فى الحياة الدنيا حياة ضيقة شديدة يكون فيها القلق ، وعدم الرضا ، والحرص الشديد على أعراض الدنيا ، والخوف الدائم من زوالها ، ... ويشقى فى نعيم الدنيا ، ويطلب المزيد ، ولا يطمئن لما فى يده ... لأنه ابتعد عن الوهاب العليم ، فزاع بصره ، وضل عقله ، وأخذ يجرى وراء سراب لا يلحق به ، ودائما هو فى شقاء وتعب ... وفى يوم القيامة يجزى بنياته وعمله فلا يجد ماله ودنياه ، وانما يجد نياته وعمله (وانما لكل امرئ ما نوى) فيعمى بصره ، وتسود بصيرته فلا يرى ، ولا يحس إلا بالعذاب الأليم فى الآخرة .

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ ؟ ... السؤال

للإنكار ، وفيه يسأل الكافر ربه منكرا ما بعث به فلقد كان بصيرا فى الدنيا إلا أنه بعث أعمى ، بصرا وبصيرة ، فهو يسأل يتعجب من هذا التغيير .

﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيَهَا ۖ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ أى

يقول الله له : كما نسيت آياتنا على كثرتها وتنوعها ، وتركتها ، ننساك اليوم وتتركك فى النار تتلظى بسعيرها .

يقول ابن عباس ؓ : كل ما أعطى العبد قل أو كثر ، فلم يتق الله فيه ، فلا خير فيه ، وهو الضنك فى المعيشة ، وان قوما أعرضوا عن الحق ، وكانوا

(١) المعجم الكبير للطبرانى ج ١٢ ص ٤٨ .

أولى سعة فى الدنيا ، أكثرين فيها ، فكانت معيشتهم ضنكا ، وذلك أنهم يرون أن الله ليس بمخلف لهم ، فاشتدت عليهم معيشتهم من سوء ظنهم بالله تعالى^(١).

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِعَاقِبَتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ

الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ۚ ﴾ أى وبمثل جزاء المعرضين عن القرآن الكريم نجازى

المسرفين فى المعصية ، غير المؤمنين بالله تعالى جزاء المعرضين عن القرآن الكريم ، وسوف يعذبهم الله العذاب الأليم فى الآخرة .

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ، ويرحب له قبره سبعين ذراعا ، ويضئ حتى يكون كالقمر ليلة البدر ، وهل تدرون فىم أنزلت ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ ؟

قالوا : الله ورسوله اعلم .

قال ﷺ : عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا .

هل تدرون ما التنين ؟

التنين تسعة وتسعون حية ، لكل حية سبعة رعوس يחדشونه ويلسعونه ، وينفخون فى جسمه إلى يوم يبعثون^(٢) .

وعن أم مبشر رضى الله عنها قالت : دخل علي رسول الله ﷺ وأنا فى حائط من حوائط بنى النجار فيه قبور منهم وهو يقول : "استعيذوا بالله من عذاب القبر .

فقلت : يا رسول الله وللقبر عذاب .

قال : نعم إنهم ليعذبون فى قبورهم تسمعه البهائم^(٣) .

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢) إثبات عذاب القبر للبيهقى ج ١ ص ٦٢ .

(٣) موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان . كتاب الجنائز . باب الراحة فى القبور ج ١ ص ٢٠٠ .

(٦٣٧)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أطرافاً من قصة آدم ﷺ لتكمل بها قصته ﷺ في القرآن الكريم .

- ٥ -

ركائز الدعوة

في قصة "آدم" ﷺ

تتضمن قصة "آدم" ﷺ في سورة "طه" عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان عداوة الشيطان للناس

بدأت حياة الإنسان في الأرض بهبوط آدم وحواء إليها ، وقضى الله بوجود إبليس وذريته مع آدم وذريته في صورة قوتين متعارضتين ليكونا سبباً في إظهار الخبيث من الطيب أمام الناس .

أما القوة الأولى فهي قوة الإيمان بدين الله تعالى كما بلغه رسول الله للناس ، وفيه الأحكام والتفصيل لآيات الله تعالى .

أما القوة الثانية فهي قوة الإضلال والكفر التي مكن الله إبليس من القيام بها .

لقد بين الله للناس وجود الشيطان وذريته في داخل النفس البشرية ، وخارجها ووضح لهم طرق عمله ، والسبل التي يتبعها في وسوسته وخنسه ، وعرفهم طرق الوقاية منه ، وذكر لهم خطورته في دنيا الناس ، فهو الذي أخرج آدم ﷺ من الجنة ، وهو الذي يزخرف المعاصي للناس ، ويجر الإنسان إليها

(٦٣٨)

جرا فهو العدو الذى يبذل جهده فى الإضلال والإفساد . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَّ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾^(١) .

الركيزة الثانية

الدنيا مقدمة للآخرة

هناك ترابط وثيق بين الدنيا والآخرة ، لأن الدنيا دار عمل ، وسعى ، وكفاح ، ومسئولية ... والآخرة هى دار الإثابة ، والجزاء ، فكل عمل فى الدنيا يتحقق أثره فى الآخرة .

يقول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾^(٢) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾^(٣) .

إن العاقل هو من يستعد للآخرة ، ويستقيم على طاعة الله ليرى جزاءه فى جنات النعيم .

(١) سورة فاطر ، الآية ٦ .

(٦٣٩)

أهمية الاعتبار بالأمم الماضية ومواصلة الدعوة إلى الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَبًّى ﴿١٣٩﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلها

بعد أن ذكرت الآيات السابقة جراء من أعرض عن دين الله تعالى جاءت هذه الآيات لبيان ضرورة النظر فيما حدث للكافرين في الأمم الماضية ، وبيان أن الله لن يستأصل الكافرين بالإسلام ، وإنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ... وأن باب الطاعة مفتوح إلى يوم القيامة ، وأن على رسول الله والدعاة من بعده ملازمة الحق والدعوة إليه .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيات أن أهل مكة يمرون بآثار الأمم الماضية خلال أسفارهم ولم يستفيدوا بها مع أن أصحاب العقول السليمة يأخذون منها الدروس والعبر ولولا أن الله قضى بعدم عذاب الاستئصال في المسلمين لأهلكهم ، فاصبر يا محمد على ما يقولون وحافظ على عبادة الله تعالى ، ولا تلتفت لهؤلاء العصاة فالعاقبة للمتقوى .

(٦٤٠)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَفَلَمْ يَدِّهْهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ ﴾ ؟

الاستفهام للإنكار والتعجب ينكر الله فيه على أهل مكة عدم استفادتهم ، وأخذهم العبر من هلاك الأمم التي سبقتهم ، وجاءت قبلهم فلقد كفروا بالله فأهلكهم الله ، واستأصلهم بعذابه ، وأبقى أثارهم ومساكنهم شاهدة على الهلاك الذي نزل بهم ، وكان أهل مكة يرون ذلك ويشاهدونه في سفرهم صيفا وشتا فيشاهدون في الجنوب قرى عاد بالأحقاف ... ويشاهدون في الشمال قرى قوم صالح وقرى قوم لوط .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي النُّهَى ﴾ أى إن فى هذه البقايا للأمم

السابقة آيات شاهدة يعتبر بها أصحاب العقول السليمة التي تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أى ولولا

أن الله قضى بعدم استئصال الأمم وتأجيل عذابها إلى يوم القيامة لنزل بمشركى مكة الهلاك ولا ستأصلهم الله تعالى بعذابه .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن أهل مكة لم يعتبروا بآثار الأمم الماضية التي يرونها فى سفرهم شمالا وجنوبا ، ولولا أن الله قضى بعدم استئصالهم لأهلكهم كما أهلك الأمم السابقة .

(٦٤١)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هى :

ضرورة الاعتبار بما حدث

للأمم السابقة

أبقى الله من آثار الأمم السابقة بقايا تشهد على ما حاق بهم من العذاب .
فقد أهلكهم الله تعالى ، واستأصلهم .

إن جزيرة العرب هى أرض النبوات ، ولذلك بقيت آثار أقوام الأنبياء
السابقين ماثلة فى جنباتها .

فى الربع الخالى الموجود بالجنوب الشرقى فى جزيرة العرب يوجد قوم
عاد ، وفى شمال الجزيرة . وفى الطريق إلى "تبوك" يوجد قوم صالح ، وقوم
لوط عليهما السلام .

وفى الخليل وجد إبراهيم عليه السلام ، وفى بيت المقدس كان أنبياء بنى إسرائيل
... وقدر الله بقاء آثار أقوام الرسل متناثرة فى أرجاء الجزيرة لتشهد على صدق
محمد ﷺ وتدعو الناس إلى الإيمان بالله تعالى ... فأينما ولى العربى وجهه يجد
شاهدا على صدق رسول الله ﷺ ، ودليلا على الإيمان بالله تعالى .

من الضرورى أن يستفيد الإنسان بأحداث الماضى ، ولا يصح من
عاقل أن يرى حضارة الآخرين ، ولا يستفيد بها .

خصائص الدعاة إلى الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ أَثَانِي اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۚ لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن بينت الآيتان السابقتان عدم اعتبار أهل مكة بهلاك الأمم الماضية وأن الله لن يستأصلهم بعذاب فى الدنيا . جاءت هذه الآيات بتوجيه رسول الله والدعاة إلى ما يجب عليهم عمله مع أنفسهم ، ومع الناس .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أهم الصفات التى يجب أن يتحلى بها رسول الله ﷺ والدعاة فى أنفسهم ، ومع الناس .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

الآيات خطاب لرسول الله ﷺ ، وبيان للصفات الكريمة ليتحلى بها الدعاة فقد تحلى بها رسول الله وسلف الأمة فى دعوتهم إلى الله تعالى ، وهذه الصفات

وان كانت توجيهها لرسول الله ﷺ فهي توجيه لسائر الدعاة ، والعلماء ، ولسائر المسلمين ... وهذه الصفات هي :

(١) الصبر :

يقول الله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أى تحمل الأذى الذى سيلقيه عليك أعداء الدعوة ، فسيتهمونك بالكذب ، والسحر ، والتدليس وسيتهمون دعوتك بأنها ليست من عند الله تعالى ، وأنها أساطير الأولين ، وسيدعون أن أصنامهم هي الآلهة الحق . فاصبر على ذلك واستمر فى دعوتهم إلى الله تعالى بالحسنى ، واعلم أن طريق الدعوة شاق يحتاج إلى الجلد والصبر ، والمصابرة ، والمثابرة ، والله خير معين ، وناصر ... وكان رسول الله ﷺ يسمع سباب قومه ، ويرى أذاهم ، وكان يناجى ربه . ويقول ﷺ : "إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى" (١) .

(٢) الاستمرار فى عبادة الله تعالى :

يقول الله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ أى اصبر على أذى الناس واشغل نفسك بعبادة الله تعالى ، وعش مع ربك طوال الوقت قبل طلوع الشمس ، وقبل الغروب ، وأثناء النهار الهادر ، وخلال الليل الساكن . والمعنى كن مع الله دائما ، وان آذاك فومك بالقول أو بالفعل فاصبر ، والجأ لربك تجد الأمن ، والهدوء والرضى ، ويأخذك عقلك وروحك إلى القدرة الإلهية هادئا سعيدا لأنك ستكون مع القدرة القاهرة ، مع الله رب العالمين .

إن الشعور بالمعية الإلهية يريح النفس ، ويطمئن العقل ، ويجعل الإنسان واثقا من نصر العزيز الحميد .

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ج ١ ص ٣٤٥ .

والمراد بالتسبيح مداومة الذكر ، والدعاء ، والطاعة ، والاستسلام وهو ما نرجحه ليشمل كل ذكر قولى ، أو عملى ، فى عبادات محددة ، أو غير محددة .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالتسبيح الصلاة الخمسة المفروضة لأن المقصود بما قبل طلوع الشمس صلاة الفجر ، وبما قبل الغروب صلاة العصر ، وبأطراف النهار صلاة الظهر ، وبأثناء الليل صلاة المغرب والعشاء ، ولذلك قال هؤلاء العلماء إن الآية مدنية .

يروى مسلم بسنده ويقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها" (١) .

ويقول النبى ﷺ : "إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا" (٢) .

وعن أبى هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : "يقول الله تعالى يا بن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك" (٣) .

وعن زيد بن ثابت ؓ سمعت رسول الله ﷺ يقول : "من كانت الدنيا همه ، فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له" (٤) .

(١) صحيح مسلم . كتاب المساجد . باب فضل صلاتى الصبح والعصر ج ١ ص ٤٤٠ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب مواقيت الصلاة . باب فضل صلاة العصر ج ١ ص ١١٥ .

(٣) المستدرك على الصحيحين . كتاب التفسير . تفسير حم عسق ج ٢ ص ٤٨١ .

(٤) شعب الإيمان . كتاب طلب العلم . باب فضل العلم ج ٣ ص ٣٤٧ .

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ أى سبح ربك رجاء أن يرضيك ويطمئنك ... إن

المؤمن يرضى بمعونة الله ، ويسعد بمعيته سبحانه وتعالى .

جاء فى الحديث القدسى الذى رواه النبى ﷺ عن ربه : "يقول الله تعالى :
يا أهل الجنة .

فيقولون : لبيك ربنا وسعديك .

فيقول الله لهم : هل رضيتم ؟

فيقولون : ربنا وما لنا لا نرضى ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟!

فيقول الله لهم : إننى أعطيتكم أفضل من ذلك .

فيقولون : وأى شئ أفضل من ذلك ؟

فيقول سبحانه : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا" (١) .

(٣) الزهد فى الدنيا :

يقول الله تعالى : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ

زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أى لا تنظر إلى

رزق الله لغيرك الذى متعهم الله به ليفتنهم ، وارض بما قسم الله لك لأن عطاء

الله للمؤمنين فى الآخرة خير من الدنيا وما فيها ، وهو الأبقى عند الله تعالى .

إن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، ومتاعها قليل ، وزينتها زائلة

لا قيمة لها .

وقد أمر الله رسوله بأن لا ينظر بعطاء الله لغيره ، ويرضى بما قسم الله

له ، وشبه زينة الحياة الدنيا بالزهرة لسرعة ذبولها ... وبينت الآية أن عطاء

(١) صحيح البخارى . كتاب الرقاق . باب صفة الجنة والنار ج ٨ ص ١١٤ .

(٦٤٦)

الدنيا لغير المؤمنين فتنة ليزدادوا بها غرور وكفر ... وللمؤمنين ابتلاء يرتقون به ، ويعلمون عند الله ، وهو الخير ، وهو الأبقى .

(٤) الاهتمام بالدعوة إلى الله تعالى :

يقول الله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ أى بعد أن تداوم على ذكر ربك ، وتسبيحه ، وتحافظ على الصلوات المفروضة ادع قومك للمحافظة على الصلاة ، وكن صبوراً فى دعوتك لهم ، واعلم أن التكليف يحتاج إلى الفهم والاقتناع والصبر فى الدعوة .

(٥) الإيمان المطلق بأن الله هو الرزاق :

يقول الله تعالى : ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ أى إن كل ما يقع فى الدنيا هو بقضاء الله وقدره ، وكل ما يناله الإنسان هو رزق الله تعالى يقدره الله كما يشاء ، ويبسطه لمن يشاء ، ويقدره عمن يشاء .

(٦) الإيمان باليوم الآخر :

يقول الله تعالى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ أى أن الفوز الحقيقى هو الفوز فى الآخرة ، وقد قدر الله العاقبة الحسنة ، وجنات الفردوس لمن آمن وعمل صالحاً ، واستقام على الصراط المستقيم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أهم الصفات التى يدعو الله رسوله ليتحلى بها ، وهى الصبر فى الدعوة ، وعبادة الله تعالى ، والزهد عن أعراض الدنيا ، والدعوة المستمرة ، والإيمان بأن الله هو الرزاق ، وأن العاقبة للتقوى .

(٦٤٧)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

عبودية المؤمن لله تعالى

المؤمن إنسان هداه الله للحق ، فعرف الطريق ، واستقام على المنهج الصحيح ... وقد رزقه الله الربانية فى أقواله ، وأعماله ، وأحواله ... إنه دائم الذكر ، يقظ القلب ، صادق القول ، سليم العمل ، كريم الخلق .

إنه يرى السعادة فى مناجاة ربه ، ويرى الخير فى أن يكون مؤمنا .

إنه عضو نشيط فى مجتمع المؤمنين ، يقول الله عنهم : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ

اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا

مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾^(١) ، ويقول الله عنهم :

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ

يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾^(٢) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٧٣ ، ١٧٤ .

تعنت المشركين مع رسول الله ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِمْ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ
الْأُولَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا
رَسُولًا فَتَنَّا بَعَائِنَاكَ مِن قَبْلُ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٣﴾ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ
فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٤﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة الصفات التي تحتاجها الدعوة جاءت هذه الآيات
ليبين تعنت المشركين في طلبهم الآيات ، ولجوءهم إلى طلب آيات مبهرة تعنتا
منهم كي يعندوا بها .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات تعنت مشركي مكة ، وهم يطلبون الآيات المبهرة ، ولجوءهم
إلى التعنت في كل موقف لهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِمْ ۚ ﴾ أى وقال المشركون : هلا يأتينا
محمد بمعجزة تدل على صدقة في دعوى الرسالة كما أتى الرسل قبله بمعجزات
صدقتهم ... وهذا عناد منهم فقد أنتهم المعجزات العديدة ، ومع ذلك يقولون : لم
تأتنا معجزات قبل هذا .

﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ أى ألم يأتهم القرآن الكريم وهو المعجزة الكبرى ، وفيه الكثير من دلائل الإعجاز ، ومنها أخبار الأمم الماضية ، ومنها هيمنته على الكتب السابقة .

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ أى ولو أنا أهلكناهم فى الدنيا بعذاب الاستئصال من قبل إتيان البينة وهى القرآن الكريم لقالوا يوم القيامة : ربنا هلا أرسلت إلينا فى الدنيا رسولا معه الآيات الدالة على صدقة فننتبع حججه ، ونكون من المؤمنين ، إلا أن ذلك لم يحدث ، لأن الله لم يعذبهم عذاب استئصال ، وجاءهم الوحي ، وسقطت أعدارهم ، وحججهم والمراد بيان أنهم ضالون يفتشون عن أى أكذوبة يقولون بها .

﴿ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبُّصًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ أى قل لهم يا محمد لهؤلاء المشركين : الكل متربص ومنتظر لمعرفة من سينال الفلاح والفوز ، ومع من يظهر الحق ؟ وسيعلم الجميع أى الناس قد استقام أمره ، وهدى إلى صراط مستقيم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المشركين يطلبون معجزة تثبت لهم صدق محمد ، وهذا تعنت منهم لأنهم رأوا كثيرا من المعجزات وعلى رأسها القرآن الكريم بوجوه الإعجاز الكثيرة فيه ، ومنها هيمنته على الكتب السابقة وتأكيده ما كان فيها صادقا .

(٦٥٠)

ولو أهلكهم الله واستأصلهم لقالوا : لو عشنا لاهتدينا ، ولسمعنا لرسول الله .

وتنتهى الآيات ببيان أن الكل متريص منتظر ، وسيعلمون أى الناس خير مقاما ، وأعلى منزلة ، وأكثر مثوبة .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

الكفر بالله تعنت وضلال

تبين الآيات التعنت الذى يظهره المشركون بلا سند من العقل والواقع .
إنهم يطلبون آيات تنزل عليهم من عند الله تعالى يصدقون بها رسول الله ﷺ ، وهذا مطلب سفيه لأنهم يتجاهلون أن الله أنزل لهم آيات عدة حسية ومعنوية ، ومنها القرآن الكريم الذى عرفهم بقصص الأمم السابقة ، واشتمل على وجوه عديدة للإعجاز إلا أنهم لعنتهم لم يتأثروا به ، وطلبوا غيره .
أن المشركين يبحثون عن معاذير واهية يتمسكون بها ... فلو أن الله أهلكهم واستأصلهم لكفرهم لقالوا : لو عشنا لآمنّا واتبعنا الرسول فى الدنيا ... وهذا لون آخر للخداع والكذب . لقد عاشوا فى الدنيا ، وسمعوا الرسول ، ولم يأتهم الهلاك فأين إيمانهم ؟ ... إن يوم القيامة حق ، وستظهر النتائج فيه بدقة ، وكل نفس بما كسبت رهينة .

❖ ❖ ❖

إلى هنا ينتهى تفسير سورة "طه" بتوفيق الله تعالى .

التعريف
بـسورة "الأنبياء"

(٦٥٢)

(٦٥٣)

التعريف بسورة "الأنبياء"

يحتاج التعريف بسورة "الأنبياء" إلى المباحث التالية :

- أولا -

تنزيلات السورة

سورة "الأنبياء" سورة مكية بإجماع المفسرين ، ولم يشذ عن ذلك إلا الحافظ السيوطي في الالتقان فذكر أن قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ^(١) آية مدنية إلا أن القول بمكية كل آيات السورة هو الأولى لأن معنى الآية متسق مع ما حولها من آيات ، وجواز نزول الآية مرة في مكة ، ومرة ثانية في المدينة أمر مقرر .
وقد سماها الصحابة بسورة "الأنبياء" ولم يذكروا لها اسما آخر .
وقد نزلت سورة "الأنبياء" بعد سورة "حم السجدة" وكان نزولها قبيل الهجرة .
وعدد آياتها مائة واثنى عشرة آية عند الكوفيين ، ومائة وأحد عشر آية عند غيرهم .

- ثانيا -

صلة سورة "الأنبياء" بسورة "طه"

تتصل سورة "الأنبياء" بسورة "طه" بعدة أوجه ... منها :
الوجه الأول :

تقدم سورة "الأنبياء" تفصيلات لقصص رسل لم يرد لهم ذكر في سورة "طه" ، وبذلك تكمل سورة "الأنبياء" ما جاء في قصص سورة "طه" .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٤٤ .

الوجه الثانى :

انه لما جاءت آخر سورة "طه" تؤكد التريص وانتظار اليوم الآخر ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا ۚ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ ^(١) قال المشركون : إن محمدا يهددنا بجزاء الأعمال في الآخرة ، وليس ذلك بصحيح جاءت أول آية في سورة "الأنبياء" ترد عليهم ، وتؤكد قرب مجئ يوم القيامة .

الوجه الثالث :

تحدثت السورة السالفة عن أن الناس قد شغلتهم زهرة الدنيا التي جعلها الله لهم فتنة ، وأن الله نهى رسوله أن يتطلع إليها ، وأمره بالصلاة والصبر عليها ، وأن العقوبة للمتقين . جاءت هذه السورة بمثل ما ختمت به السالفة ، فذكر فيها أن الناس غافلون عن الساعة والحساب ، وأنهم إذا سمعوا القرآن استمعوه وهم لاعبون ، وقلوبهم لاهية عنه .

- ثالثا -**موضوعات السورة**

سورة "الأنبياء" سورة مكية تهتم بموضوعات السور المكية وهى إثبات العقيدة بأركانها ، وتدعو إلى حسن الخلق . وهى من خلال مجادلاتها تبين اليوم الآخر الذى يغفله كثير من الناس مع أنه واقع لا محالة . وتناقش منكرى رسالة البشر وترد مزاعمهم ، وتؤكد رسالتهم للأمم السابقة كلها .

(١) سورة طه ، الآية ١٣٥ .

وتبين السورة بأدلة متعددة أن الله واحد لا شريك له ، وتنتهى الآيات إلى أنه : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِاهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ^(١) .

ويأتى القصص فى السورة فى أكثر من نصف آياتها لبيان ما حدث بين الرسل ، وأقوامهم من جدل ونقاش لإثبات أركان العقيدة كما هى منذ وجود الإنسان فى الأرض .

فالله واحد لا شريك . يقول الله تعالى :

- ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ۚ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٨﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ ^(٢) .

والرسل بشر اختارهم الله للناس . يقول الله تعالى :

- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ ^(٣) .

والله منزل الكتب . يقول الله تعالى :

- ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ^(٤) .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٢٢ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ١٩ ، ٢٠ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ٧ ، ٨ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية ١٠ .

- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾^(١) .

واليوم الآخر لا ريب فيه . يقول الله تعالى :

- ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾^(٢) .

- ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۖ وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾^(٣) .

إن السورة تربط نواميس الكون بقضايا العقيدة ، وتجعل العقيدة جزءا من قصص الرسل لما بينهما من ارتباط وصلات لأن أركان العقيدة ثابتة في سائر الرسالات .

والعقيدة وثيقة الارتباط بالآيات الكونية الكبرى فهي براهينها وأدلتها ، ولولا قدرة الله ما وجد منها شئ ... وثبات آيات الكون جعلت الرسل ينادون بالعقيدة الواحدة يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾^(٤) ...

وقد اقتضت مشيئة الله أن يكون الرسل كلهم من البشر : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ ﴾^(٥) .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٢٥ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٣٥ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ٤٧ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية ٢٥ .

(٥) سورة الأنبياء ، الآية ٧ .

وكما أن العقيدة وثيقة الارتباط بنواميس الكون الكبرى نرى آثار هذه العقيدة في أحداث الأرض التي وضع الله سننها لا تتخلف ولا تتحول ولا تتبدل. فمن السنة التي لا تتخلف أن يغلب الحق وينتصر وأن يزهق الباطل ويذول ، لأن الحق قاعدة ثابتة مقررة وغلبته سنة إلهية يقول الله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾^(١) ...

ومن هذه السنن الثابتة أن يحل الهلاك بالظالمين المكذبين ، وينجي الله الرسل والمؤمنين يقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾^(٢) ...

ومن السنن أن يرث الأرض عباد الله الصالحون يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾^(٣) ...

ومن ثم تستعرض السورة أمم الرسل في سلسلة طويلة استعراضا سريعا يطول بعض الشيء عند عرض حلقة من قصة "إبراهيم" عليه السلام وعند الإشارة إلى داود وسليمان عليهما السلام . ويقصر عند الإشارة إلى قصص نوح ، وموسى ، وهارون ، ولوط ، واسماعيل ، وإدريس ، وذو الكفل ، وذو النون وزكريا ، ويحيى ، وعيسى عليهم السلام .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ١٨ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٩ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٥ .

وفي هذا الاستعراض تتجلى المعاني التي اهتمت بها السورة . وقدمتها مصورة في وقائع من حياة الرسل والدعوات .

كذلك تتضمن السورة بعض مشاهد القيامة من خلال عرضها لأركان اليوم الآخر بدءا من البعث إلى دخول الجنة أو النار ...

وهكذا تتجمع الدلائل المتنوعة في السورة وتلتقى عند هدف واحد ، هو إثارة القلب البشري لإدراك الحق الأصيل ، ومعرفة العقيدة التي جاء بها خاتم الرسل ﷺ فلا يتلقاها الناس غافلين ، معرضين ، لاهين ، كما يصفهم في مطلع السورة : ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ يُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۚ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۚ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴾ ﴿٣﴾ (١) .

إن هذه الرسالة حق . كما أن هذا الكون حق . فلا مجال للهو في استقبال الرسالة ، ولا مجال لطلب آيات أخرى غير الآيات المثبوتة في الكون والحياة .

وسنن الكون كله . توحى بأن الله هو الخالق ، القادر ، الواحد ، والرسالة من لدن ذلك الخالق القادر الحكيم .

سورة "الأنبياء"

التفسير

(٦٦٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٦١)

غفلة المشركين عن اليوم الآخر

يقول الله تعالى :

﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الناس يعيشون فى غفلة عن مصيرهم النهائى ، وهو حسابهم فى اليوم الآخر ، وقد اقترب منهم ، وجاءت هذه الآية فى أول سورة "الأنبياء" وكأنها تعبير على حقيقة الناس جميعا مع رسلهم وهى نفس الحقيقة التى سار عليها مشركو مكة مع رسول الله ﷺ .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ أى دنا حساب الناس على أعمالهم التى عملوها فى دنياهم ، وعلى غفلتهم النعم التى أسداها الله لهم ، وسوف يسألهم ربهم وهو يحاسبهم :

— ماذا فعلوا بنعم الله تعالى ؟

— وهل هم مقرون بأن هذه النعم من الله تعالى ؟

— وهل يعلمون أن الله خالق كل شئ ، وأن الأمر كله لله ؟

— وهل يفسرون سبب معصيتهم لله تعالى ؟

— وهل يستفيدون من الفساد والضلال ؟

لقد غفل الناس عن هذه الأسئلة ، ونسوا المنعم ، واستهوتهم الشهوات ، وضيعهم شيطانهم الذى أغرقهم فى المعاصى والآثام ... وذلك معنى قوله

تعالى : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ أى وهم في وسط نعم الله يعرضون عن طاعة الله صاحب النعم ، وقد رضوا بالغفلة التى صرفتهم عن متاعب يوم القيامة كما صورها القرآن الكريم ... لقد تركوا الفكر والاستعداد ليوم الحساب جهلا منهم بما سيلاقونه يوم القيامة من بلاء ، وهوان ، والمراد بالناس المشركين . وقيل المراد كل الناس .

والغفلة تعنى الذهول عن الشئ وترك التدبر فيه ... والإعراض صرف العقل عن الفكر والنظر .

فإن قيل : المشركون منكرون للبعث أصلا فلم تناقشهم الآية في الحساب دون الإنكار الكلى ليوم القيامة ؟

أقول : جاءت الآية هكذا لبيان أن البعث حق . واكتفت الآية ببيان الغفلة عن الحساب ، لأنه الأمر الذى يدفعهم إلى تحسين أعمالهم ، والاستعداد للسؤال والحساب ... وأيضا فإن الإقرار بأحد جوانب اليوم الآخر إقرار بكل ما فيه . إن العقل يؤكد ارتباط السبب بالمسبب ، ويبين أن لكل عمل جزاء ، وأن المسؤولية تقوم على الحق والواجب ... ولا يصح مع هذا الفهم أن يشعر الإنسان بالعبثية في إيجاده وخلقه ، وأنه ليس مسئولا عما يفعله . والإقرار بهذه المسؤولية يحتم الإقرار باليوم الآخر ، وبضرورة الحساب والجزاء ، وقد اقترب موعده ، ودنا أجله ، ويجب الانتباه له ، والاستعداد لمواجهته .

- ٣ -

معنى الآية

تبين الآية أن الناس يبتعدون عن الحقائق ، ويتلهون بأمور بعيدة عن الواجب والصواب ، لأنهم يغفلون عن الحساب في الآخرة ، ولا يستعدون له ، ويعيشون في غفلة عن الآخرة ، وعن ما فيها من حساب ، ومن جنة ونار .

(٦٦٣)

- ٤ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

الشمس طالعة

وإن أنكرها العميان

القضية العادلة ثابتة بعدلها ، والحق حق وإن أنكره المبطلون ، بهذا ينطق الشرع فيقول تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۖ ﴾^(١) و ﴿ أَلْحَقْ أَهَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ﴾^(٢) ولسوف يتأكد الحق ويظهر الصواب بدلائل الكون والحياة ، وينزل وحى الله المبين للمنهج السليم فى الدنيا والآخرة .

وكما نطق الشرع آمن العقل ، وذهب العقلاء إلى النظر فى الكون المخلوق ، والنظام المركز فى المخلوقات ، والدلالات الكثيرة الشاهدة على أن البعث حق ، والحساب ضرورى لينال كل إنسان ما قدمت يداه ... ومع منطق الشرع ، وبدهيات العقل نجد كثيرا من الناس يغفلون عن اليوم الآخر ، وعدم التفكير فيه ... وبهذا يبتعدون عن الحق والصواب ، وبعد ذلك يدعون أنه لا حساب ، ولا بعث ، ولا وجود لحياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا .

إن المنكرين للبعث والحساب لن يضرروا إلا أنفسهم ، ولذلك ننادى العقلاء بأن يتدبروا حياتهم ، وأن يؤمنوا بدين الله تعالى ، ويعملوا للحساب ، ويقدموا لأنفسهم لأن المصير مرتبط بالعمل ، وهو إما إلى الجنة ، وأما إلى النار .

(١) سورة الرعد ، الآية ١٧ .

(٢) سورة يونس ، الآية ٣٥ .

إن الموت حق ، والبعث حق ، والحساب حق ، والجنة والنار حق :
﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١) .

ضلالات المشركين

يقول الله تعالى :

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١﴾
لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۚ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۚ
أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٢﴾ قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ
شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٤﴾ مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ ۚ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن المشركين غفلوا عن الحساب الأخروي وأنهم
أعرضوا عن الحق وضلوا في صور عديدة . جاءت هذه الآيات لبيان أنهم كانوا
في لهو ، وعبث ، وتآمر ، وأنهم زعموا أن الرسول ساحر ، وشاعر ، وكذاب ،
وسوف يحاسبهم الله تعالى ويعذبهم بعذاب أليم .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٦٤ .

(٦٦٥)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات صورا متعددة من ضلال الذين غفلوا عن الحساب والبعث وزعموا أنه من سحر رسول الله ﷺ ، وذهبوا فى اتهاماتهم مذهبا بعيدا ، وأظهروا عدوانهم فى مواقف شتى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

أخذت الآيات تبين صور الضلال التى وقع فيها مشركوا مكة ... وهى :
(١) الكفر بالقرآن الكريم :

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ
لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ أى أن هؤلاء المشركين إن جاءتهم آيات القرآن الكريم تذكرهم بالحق ، وتدعوهم إلى الله ، وتبشرهم ، وتنذرهم ، لا يسمعونها ، ويتلونها عنها ، وتتصرف قلوبهم عن الحق إلى الهوى ، واللذائذ التافهة .
إنهم أناس لا يعرفون المواقف الجادة ، ويتركون الصواب ، ويضعون الهزل فى مكان الجد ، ويستهزئون فى وقت الخطر والقداسة .
ونزول القرآن الكريم المتجدد يعنى تكراره وتصاريفه مع الموضوع الواحد ، بلا ملل ، أو خلل ، فهو فى كل مرة يحدث الذكر السابق ، ويؤكدده ، ويبينى عليه وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ ﴾ .
إن القرآن الكريم حين يصل لهؤلاء الغافلين لا يهتمون بسماعه ، ويلعبون أثناء قراءته ، ولذا لا يصل معناه إلى قلوبهم اللاهية العابثة .

(٢) التآمر الخفى :

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى أنهم يتناقشون فى أمر محمد ، وفى القرآن الكريم ، وفى أحوالهم ، وأصنامهم بطريقة سرية إنهم يتتاجون فيما بينهم حتى لا يشعر بهم أحد لأنهم يتناقشون فى طرق القضاء على محمد ودينه ، ويخافون أن تظهر أخبارهم ويعلم بها رسول الله ﷺ فيواجههم ، ويرد كيدهم ... وقد سمتهم الآية باسم الموصول ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ لبيان اتصافهم بما فى حيز الصلة ، وقدمت الآية المفعول على الفاعل للمبادرة بإظهار سوء ما يعملون .

وسبب ذلك أنهم يريدون مفاجأة محمد بما يتفقون عليه لإحداث تأثير ضار له ، ولأتباعه المؤمنين ، وأيضا فإنهم كانوا يرون ضعف مذهبهم فأخفوا عملهم حتى لا يسخر منهم العقلاء ، ويستهزئ بهم غيرهم من الناس .

(٣) رد بشرية الرسول :

﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أى إن محمدا ﷺ بشر مثلهم ، ولهذا فهم لا يصدقون برسالته ، لأنهم يرون وجوب أن يكون الرسول إليهم من الملائكة لأن البشر يأكل ، ويشرب ، ويصح ، ويمرض ، ويموت ، وهم لا يرون الرسول كذلك .

ويظهر ضلال مذهبهم هذا فى أن الرسول مع بشريته قد صنعه الله صناعة خاصة ، ومكنه من الاتصال بالمالئ الأعلى ، وتلقى الوحي ... وأظهر الله المعجزات الخارقة على يديه لتشهد بصدقه ، وتؤكد رسالته .

(٤) مجئ محمد بالسحر :

﴿ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى أى

أن ما جاء به محمد إليكم ما هو إلا سحر ، وأنتم ترون ذلك ، وتعرفونه فكيف بكم تسكتون عن رده ، ولا تتقضون دعوته .

وقد رد رسول الله مقالتهم فى بشريته ، وتصويره ساحرا بقول الله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى رد

رسول الله ﷺ عليهم ، وقال لهم : الله الذى يتولى أمور خلقه جميعا ، ويدعوكم إلى الإيمان به يعلم كل قول ، سرا أو جهرا ، فى الأرض ، أو فى السماء ، أو فى أى مكان فى الوجود ، إنه سبحانه يعلم السر والأخفى منه ، ويعلم حديث النفس ، وخواطر الفؤاد . يقول الله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ^(١) .

فعلمه سبحانه وتعالى لا يحده حد ، ولا يمنعه عد ، فهو سبحانه عليم منذ

الأزل بكل معلوم موجود ، سميع لكل مسموع . يقول سبحانه :

- ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ^(٢) .

- ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة الأنعام ، الآية ٥٩ .

(٢) سورة الملك ، الآية ١٣ .

(٣) سورة الملك ، الآية ١٤ .

(٥) انقسامهم فى اتهام رسول الله ﷺ :

ثم بينت الآيات أن المشركين لم يقتصرُوا على اعتراضهم على بشرية الرسول ، وقولهم إنه ساحر ... وإنما اتجهوا اتجاهات كثيرة فى اتهامه ﷺ بما ليس فيه : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمَ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ أى أنهم لم يكتفوا بما سبق منهم من أكاذيب ، بل زادوا على ذلك ، وانقسموا فى اتهاماتهم فمنهم من قال إن ما يقول محمد أضغاث أحلام ، فهى أخلاط نفسية وخیالات يتمناها فتتلبس بها نفسه ، يغلبه عالم اللاشعور وهو نائم ، ويتصور الأمر حقيقة ، وهو ليس كذلك .

ومنهم من يقول : إن محمد يكذب على الله ، ويؤلف كلاما من قبل نفسه ويزعم أنه كلام ربه .

ومنهم من يقول إن ما جاء به محمد شعر قائم على الخيال والمغالبة ، ومعانيه لا حقيقة لها فى عالم الواقع .

إن المشركين انفقوا على معارضة محمد ﷺ إلا أنهم انقسموا وتفرقوا فى التهم التى قالوا بها ، وهذا اضطراب منهم لأن كل فريق يكذب الآخرين ، ويدعى غير ما يدعون ، ولو كانوا صادقين لاجتمعوا على رأى واحد ، وهو ما يشاهدونه فى واقع محمد الذى يرونه ، ويعرفونه ، ويعيشون معه .

إنهم فى عبثهم الكاذب لا يقفون عند تهمه حقيقية ، ولذلك تراهم يتفرقون فى الاتهام ، فكلما جاءتهم تهمة أكبر من سابقتها قالوا بها ... وما دروا أنهم فى ترفيهم فى الأكاذيب ينتقلون من تهمه لأخرى ، فلقد بدأوا باتهام السحر ، والسحر أيسر من القول بأضغاث الأحلام لأن من البيان لسحرا ، وهو أرقى من الأضغاث لأنها تعنى الكلام غير المنضبط ، ولا شبه لها بهذا النظم البديع وادعاء كونها مفتریات أبعد وأبعد ، لأنه عليه الصلاة والسلام قد اشتهر بالأمانة

والصدق ، وهم أعرف الناس بالفرق بين المنظوم والمنثور ، وبين ما يساق له الشعر ، وما سيق له هذا الكلام ، إنهم يعلمون من مخالطته ﷺ مدى أربعين سنة أنه لا يتسهل له الشعر وإن أراد .

(٦) طلب مزيد من الآيات :

زاد المشركون في ضلالهم ، وتعنتهم ، فبعد أن اتهموا رسول الله ﷺ بما سبق من اتهامات عادوا لطلب آية مبهرة كآيات الرسل السابقين .

وقالوا : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِعَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ أى إن كان محمد صادقا فى أن الله قد اختاره وبعثه رسولا إلينا وإلى الناس فليأتنا بآية كبرى تشهد على صدقه ، وتؤيده كما جاء الرسل لأقوامهم بآيات مثل سفينة نوح ، ونار إبراهيم ، وناقة صالح ، وإبراء الأكمه والأبرص ، والتعنت ظاهر فى طلبهم هذا لأنهم فيه يسلمون بإرسال رسول من البشر وهم ينكرون ذلك على محمد .

وأيضا يقرون بتنوع الآيات لتناسب مع المدعويين ومع ذلك ينكرون آيات الله التى أتاهم بها محمد ﷺ مناسبة لهم . فلقد جاءهم ، وتحداهم بأن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، وأبقاه بينهم يتلى عليهم فى كل وقت ، ويصلح لهم الحياة كلها .

ثم بين الله أن عدم ظهور هذه الآيات رحمة بهم لأن الأمم السابقة لما كفروا بالآيات أهلكهم الله ، واستأصلهم ، وليس ببعيد أن يحدث لهم ذلك إن لم يؤمنوا حين ظهور الآيات التى طلبوها ، وهذا معنى قوله تعالى .

﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ ...

الاستفهام للإنكار والتعجب . ومعناه : هل تؤمنون إذا جاءتكم الآيات أم ستسمرون على الجحود والكفر فيهلككم الله كما أهلك من كان قبلكم .

(٦٧٠)

إن إنكارهم للمعجزات التي رأوها دليل على استمرار جحودهم ، ولذلك لم يستجب الله لهم فهم متعنتون ... وحسابهم على كفرهم وعذابهم مؤجل إلى يوم القيامة .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن هؤلاء الغافلين اللاهين يسمعون القرآن ، وهم فى لهو ولعب ، وهم متآمرون سرا على رسول الله ﷺ ، يتهمونهم بالكذب ، والسحر ، والشعر ... ويتسلون باتهامه ﷺ حيث يقولون أقوالا كثيرة لا حقيقة لها ، ولا معنى فيها .

إنهم يطلبون آيات كبرى ، وما دروا أن مجيئها يعنى استئصالهم لأنهم ضالون متعنتون .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

صفات أهل اللهو والعبث

للحق دائما أعداؤه وخصومه ... وقد قضى الله بذلك ليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر للناس ما هم فيه من حق أو صواب ... يقول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾^(١)

(١) سورة الأنعام ، الآية ١١٢ .

ويقول سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ ^(١) وهؤلاء الخصوم يظهرون بنمط واحد ، وبصورة واحدة ، عرفنا الله بهم لنعرفهم ، ونحذرهم ... ومن أهم صفاتهم :

- (أ) إنهم يستمعون للقرآن الكريم وهم يلعبون ، ويتلهون ، وينصرفون عنه مع أن الله أنزله بصروف من ألوان البيان ، وروائع البلاغة ، وصادق القول ، وتحديد منهج النجاح إلا أنهم فى غيهم يعمهون .
- (ب) إنهم يلجأون إلى التآمر والخداع ، ويخفون مكرهم برسول الله ، ودعوته فظلموا بذلك أنفسهم ، وكفروا بالله رب العالمين .
- (ج) إنهم يتهمون رسول الله بما ليس فيه . فيقولون هو ساحر ، وكاذب وساحر ، ويتعجب بعضهم من بعض لسكوته على سحر محمد مع أنهم علماء مبصرون بالسحر ، وخيالاته .
- (د) إنهم يهتمون بنشر مزاعمهم الباطلة بلا اهتمام بفسادها ، وتناقضها فيقولون إنها أضغاث أحلام ، أو هى الكذب . أو هى الشعر ... يناقضون أنفسهم لأنهم بعد أن اتهموا محمدا بما اتهموه به ، عادوا يطلبون آيات كبرى ، وما دروا أن فيها هلاكهم لأنهم لن يؤمنوا بها لو جاءتهم .
- هذه الخصائص هى سمات خصوم الحق أعداء الدعوة الإسلامية فى كل زمان ومكان ... إنهم يعتمدون على قوتهم وسلطانهم ، ويدعون سماع القرآن الكريم وهم لا يسمعون ...
- إنهم يتصفون بسوء الخلق فيخترعون الأكاذيب ، وينشرون البهتان ، ويتهمون غيرهم بما ليس فيه جرأة فى الكذب ، وسفاهة فى الخلق .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢٣ .

(٦٧٢)

إنهم يدعون استفادتهم بالبراهين ، وهم لها كاذبون .
إنهم قد كفروا بالله ، وأنكروا وحدانيته ، وعارضوا رسول الله ﷺ ومع ذلك
يطلبون الآيات ليؤمنوا ويصدقوا .
إن منهج الأعداء واحد ، والحذر منهم ضرورة واجبة .

الركيزة الثانية **الله غالب على أمره**

لم يأت رسول من الله تعالى إلى قومه إلا ويواجهه أعداء الله في الأرض
برد دعوته وتكذيبه ، إلا أن الله غالب ، عزيز ، حكيم ينصر عبده ، ويؤيد جنده
، ويهزم الأحزاب وحده ... فالله عليم بكل شئ ، يسمع القوال ، ويبصر الأحوال
، ويحق الحق ، ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون .
قد أهلك الله الأمم السابقة لما كذبوا بآيات الله تعالى ، إلا أنه قضى بعدم
استئصال أمة محمد ﷺ وحكم بتأجيل حسابهم وجزائهم إلى يوم القيامة .
إن أمل الدعاة في ربهم ، وقدرته سبحانه غالبية ، ولكن أكثر الناس لا
يعلمون .

(٦٧٣)

الرسل بشر من الناس

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۚ ﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۚ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ۚ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۚ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة إنكار مشركى مكة أن يكون الرسول بشرا جاءت هذه الآيات لبيان أن الله اختار رسله من البشر ، ومحمد ﷺ واحد منهم .

- ٢ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أرسل رسله قبل محمد ﷺ ، واختارهم من البشر يأكلون الطعام ، ويمشون فى الأسواق ... وصدق الله وعده لهم ونصرهم ، وأهلك أعداءهم ، وأنزل عليهم وحيه .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ﴾ أى وما أرسلنا قبلك يا محمد رسولا إلى أمة من الأمم التى قد خلت من قبلك إلا رجلا منهم نوحى إليه ما نريد من أمر ونهى .

واختيار الرسول من البشر هو الأسلم ليتمكن من مخاطبة البشر ، والاتصال بالله . فهو ببشريته يعرف أحوال الناس ، ويخاطبهم بلغتهم ، ويبرهن لهم على وجود الله من الواقع الذى يعيشون فيه ... وهو بصفائه الروحي ، وتجليات الله تعالى يتصل بالملأ الأعلى ، ويخاطب الملائكة . وقد جرى الأمر على هذا النحو مع الأمم السابقة ، فلا مانع من استمرار هذا الواقع الطبيعى .

﴿ فَسَئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى إن كنتم لا تعلمون هذه الحقائق عن رسل الله السابقين فاسألوا أهل الكتاب الذين سبقوكم ، وهم اليهود والنصارى ليخبروكم بهذه المسألة ، وتعرفوا منهم أن رسل الله جميعا كانوا من البشر .

﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ أى أن الله اختار رسله من بشر عاديين عاشوا حياة الناس ، ولم يخلقهم بخاصية معينة بأن يكونوا ملائكة لا تأكل ، ولا تشرب ، ولا تموت ، وتتشكل بأشكال البشر .

إن الرسل لو لم يكونوا بشرا عاديين ما أمكنهم أن يتصلوا بالناس ، ولعاش الناس معهم فى اضطراب ، وضياح .

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ أى صدقهم الله ما وعدهم به فنصرهم ، ونجاهم ومن آمن معهم ، وأهلكنا المشركين لأنهم أسرفوا فى التكذيب ، ولم يتمسكوا بحجة وبرهان ، واستمروا فى الجحود والنكران .

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟ ... أى أنزلنا إليكم القرآن الكريم يعلى شأنكم ، ويذكركم بالحق بلغتكم ، وبالبراهين

(٦٧٥)

والآيات التي تفضل الله بها عليكم . ألا تذكرون ذلك وتتأملوا فيه ، وتفهموا أن اختيار الله للرسول هو الحق ، وتستفيدوا بكل مواضع القرآن الكريم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله يختار رسوله من البشر ، ويرسلهم إليهم ، ليحسن التعامل فيهم ، وهذا حقيقة ثابتة يعرفها أهل الكتاب لأنهم رأوا رسلهم رجالا من بينهم .

إن الله جعل الرسل من البشر ، ولم يجعلهم من الملائكة ، لأن البشر يأكل ويشرب ويتحرك ، ويموت ، وبذلك يعيش مع قومه ، ويعلم أحوالهم ، ويقدر على خطابهم ودعوتهم .

لقد صدق الله رسوله وعده فنصرهم ونجاهم والمؤمنين معهم ، وأهلك المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والضلال .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

الداعية واحد من الناس

تصور فريق من الناس أن الدعاة نوع خاص من المخلوقات ، وتصورهم من الملائكة ، أو من غيرهم المميزين بمواصفات ، ومزايا خاصة .

يبين الله أن الرسل والدعاة من جنس المدعوين ، يعرفون مشاعرهم ، ولغتهم ، وطرق التأثير فيهم ، فأرسل نوحا إلى قومه ، وأرسل إلى عاد هودا وبعث إلى ثمود أخاهم صالحا ، وأرسل إلى الإسرائيليين أنبياءهم ، وأرسل إلى البشر جميعا محمد ﷺ ، ونزل القرآن الكريم بلغة العرب ليفهمه العرب ، ويؤمنوا

(٦٧٦)

به ، ويتحملوا مسئوليته بنشره فى العالمين ، وقد تحقق هذا مع العرب فحملوا الإسلام إلى الدنيا كلها بلغات العالم كله التى أقدر الله العرب عليها .
إن الله اختار محمدا ﷺ من البشر وفق اختياره لسائر الرسل ، ونصره الله تعالى وأعانه على رسالته .

ومن هنا ...

نذهب إلى ضرورة معايشة الدعاة للناس ، والتعاون معهم لتكوين ثقة بينهم ، وبذلك يقبل المدعوون ، ويسمعون .
إن المعايشة بين الداعى ومدعويه ييسر عملية التعليم ، ويقدم الأسلوب الأمثل ، والداعية الناجح يقتنص الفرص والمناسبات ، ويحىي فيها دعوته ، ويربط جماعته بطاعة الله تعالى .

طرق هلاك الأمم السابقة

يقول الله تعالى :

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ ﴿١﴾
فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ
فِيهِ وَمَسْكَنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿٣﴾ قَالُوا يَبْوِلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤﴾ فَمَا زَالَتْ
تِلْكَ دَعْوُهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿٥﴾ ۞ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة هلاك الأمم السابقة جاءت هذه الآيات لبيان طرق هلاك الضالين فى الأمم السابقة .

(٦٧٧)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات طرق إهلاك الأمم السابقة على كثرتها ، وتوضح أن قوما نشأوا بعد الأمم السابقة فروا هاربين حينما رأوا عذاب الله تعالى فاستهزأ الله بهم وعرفهم أن الفرار لا يفيد .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ أى قد أهلكنا فى الأمم السابقة قرى عديدة كفر أهلها ، وظلموا أنفسهم فأهلكهم الله تعالى ، وقصم ظهورهم ودمرهم أجمعين .

﴿ وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ أى وأوجدنا بعد هلاك الأمم السابقة أمما أخرى ساروا سيرة السابقين فى الكفر والضلال إلا أنهم كانوا خائفين ومترفين .

﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أى لما شعروا بقرب مجئ العذاب وتيقنوا مجيئه فروا هاربين وهم مسرعون ، متعجلون ... والركض هو المشى بين السير العادى والجري السريع .

﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنُكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ أى يستهزئ الله منهم ، ويبين لهم أن الفرار لا يفيد ، لأنهم يفرون من أرض الله إلى أرض الله ، ومن قدر الله إلى قدر الله ... والأولى منهم أن يرجعوا إلى ما كانوا فيه من مسكن كبير ، وترف كثير ، ومتاع مثير ، عسى أن يبسر الله سؤالكم ويخففه عنكم ، ويهديكم للخير والصواب .

(٦٧٨)

﴿ قَالُوا يَبْوَيْلَنَّا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى أنهم سيقرون بكفرهم وظلمهم
وحيث يرون العذاب يفرون من مساكنهم ، وحين يطلب منهم الرجوع إلى
مساكنهم ومتعم أبوا ذلك ويقولون ﴿ يَبْوَيْلَنَّا ﴾ أى يا هلاكنا الذى ينتظرنا عسى
الله أن يتوب علينا .

﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوُهُمْ ﴾ التى يكررونها ويعلنونها حتى يتم
هلاكهم .

﴿ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ أى حتى يتم هلاكهم ، ويذهب
بأثرهم وعملهم .

- ٤ -

معانى الآيات

تبين الآيات أن الله أهلك كثيرا من أهل القرى فى الزمن السحيق ، فقد
كفرت فأهلكها الله تعالى ، ثم نشأت من بعدهم أمم أخرى كفرت مثلهم فلما
تيقنوا من عذاب الله فروا هاربين بعيدا عن مساكنهم وترفهم ، وهنا يقال لهم :
ارجعوا إلى ما كنتم فيه حتى يأتىكم الحساب وعسى الله أن يخفف عنكم ...
فيقرون بأنهم ظلموا وكفروا ويستمرون فى الإقرار حتى ينزل به الهلاك والعذاب.

(٦٧٩)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركزة هامة ... هى :

عدالة الله

فى هلاك السابقين

لن يفلت مجرم من العقاب مهما حاول الإفلات منه ، لأن قدرة الله تحيط به ، وعلم الله شامل لعاليته وسره ... نعم ... قد يتمكن المجرم من الإفلات من عقوبة البشر بالهرب ، أو بالتزوير والكذب ، أو بضعف السلطان ... إلا أنه لن يتمكن من ذلك مع قدرة الله تعالى القائمة على العدل والرحمة ، ومع القهر والسلطان .

وللعقلاء عبرة ودرس بما وقع للأمم السابقة . فقد أهلكهم الله تعالى ، واستأصلهم بسبب ما كانوا فيه من ظلم وطغيان .

ولما حاولت أمم منهم الهرب من عذاب الله ، قيل لهم : لا تركضوا ولا تهربوا ، وارجعوا إلى مساكنكم ، ومتعمك عسى الله أن يخفف عنكم السؤال والجزاء .

وقد أهلكهم الله أيضا ، فلما اعترفوا بظلمهم ، وأقروا بما فعلوا لم ينتفعوا بهذا الإقرار . فقد حدث بعد فوات وقت التوبة والرجوع ، ولذلك لم يستفيدوا باعترافهم ، وقرارهم ، وكانوا من الهالكين .

لن يغيب عن الله أمر من أمور عبادته ، وعمل الإنسان مدون فى كتابه الذى ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾^(١) ... وعند الحساب تشهد على الإنسان جوارحه ، والأرض التى عاشوا فيها تنطق بما حدث فوقها ، ومن كان يراقبه من الملائكة من الشاهدين ...

(١) سورة الكهف ، الآية ٤٩ .

على المسلم أن يدرك هذه الحقيقة ويستعد لها بالعمل الصالح ، والإيمان الصحيح .

إن الله لن يهلك أمة الإسلام بظلمها ، وإنما قدر سبحانه وتعالى أن ﴿ يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ ﴿١﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْعِدْتُهُمْ هَوَاءً ﴿٢﴾ ﴿١﴾ .

إن الإنسان العاقل يعمل للنجاة ، ولا يرضى لنفسه الهلكة والضياع والطريق واضح ، والمنهج معلوم . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ ﴿٣﴾ كَلَّا نُمَدُّ هَتُولَاءِ وَهَتُولَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٤﴾ ﴿٢﴾ .

تنزه الله عن أى نقص

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴾ ﴿٥﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ هَوًا لَّاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَعِلِينَ ﴿٦﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿٧﴾ ﴿٣﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة صور هلاك الأمم السابقة جاءت هذه الآيات لبيان تنزه الله عن أى عبث يتصوره المشركون . فقد خلق الكون ، ونظمه ،

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١٩ ، ٢٠ .

(٦٨١)

وحفظه ، وكل فعله سبحانه وتعالى قائم على الحكمة ، وظهرت الحاجة إليه ، ومعجزاته سبحانه وتعالى لرسله دقيقة محكمة تناسب من تظهر بينهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله منزّه من أى عبث . فمن أنكر النبوة ، ورد المعجزات زعم وجود العبث فى خلق الله ، وحاشا لله تعالى أن يكون عابثا فقد خلق السموات والأرض ، ونصر الحق ، وزهق الباطل .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴾ أى ما خلقنا السماء والأرض وما بينهما من أصناف المخلوقات البديعة ، وتنوعاتها العديدة لعبا وعبثا . بل خلقنا ما خلقناه لتحقيق فوائد دينية ، وحكم ربانية ، ولتكون دليلا على وجود صانع حكيم لهذا الوجود الذى لا يقدر على إيجاده ، والمحافظة عليه ، وامداده بحاجاته ، وهدايته لما خلق له إلا إله قادر حكيم .

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوَ لَا تَخَذُنْهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ ﴾ أى لو أردنا أن نلهو ونلعب لاتخذناه بعيدا عنكم ، وجعلناه فيمن عندنا من الملائكة ، والهور العين ، وسائر المخلوقات العلوية ، ولا ننتزل باللعب مع المشركين ، ولا نكون مثلهم ، ولذلك كانت نسبة العبث إلى الله تعالى عمل وقح وكذب صريح ، وقول جرئ لا يفيد شيئا ، لأن الله خلق الخلق لحكمه وغاية .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أى أن الأمر ليس كما يزعمون ، بل يرمى الله الباطل بالحق فيزيله ، ويبقى الحق بين الناس .

(٦٨٢)

﴿ وَلَكُمْ أَلْوَيْلٌ مِّمَّا تَصِفُونَ ﴾ أى ولكم العذاب الشديد بسبب وصفكم
ريكم بغير صفته وزعمه أن له ولدا وزوجة .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله خلق خلقه كله لحكمة وغاية قضى بها سبحانه وتعالى
ولا عبث في خلق الله تعالى أبدا ... ولو أراد الله أن يلعب . وحاشاه . لاتخذ من
خلق الله من يلعب بهم بعيدا عن المشركين .
إن الله يرمى الباطل بالحق حتى يزيله ويزهقه ، والهالك الأخرى والعذاب
فى الآخرة ثابت للعصاة بسبب قولهم على الله بما لا يجوز .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

عظمة الله تعالى

أودع الله فى خلقه أسرار حكمته ، ودليل قدرته ، وبرهان عظمته ،
وقدسيته . فقد خلق الله كل شئ بقدر موزون ، ودقة مشهودة ، فلا عبث فى
أمر مخلوق ، ولا لعب فيما يريد الله تعالى .
وكل من يتأمل فى نفسه ، وفى الكون القريب والبعيد يقف على هذه
الحكمة التى أظهرها الله فى خلقه كله .
لينظر الإنسان إلى جوارحه ، ويتأمل فى تهيئتها لدورها يرى الحكمة فى
التنسيق والإبداع ، لينظر إلى الوجه وما ركب فيه من عين وفم وأنف .
ولينظر إلى البطن وأجهزتها ، وقيامها بدورها .

ولينظر إلى الكون وما فيه من ماء وهواء ، وسهل وجبل ، وطير وهوام ،
 لينظر إلى كل خلق الله ليعلم أنه الله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ
 فَهَدَى ۖ ﴾^(١) .

وهذه الدقة الحكيمة فى الخلق تتفى أى عبث فى خلق الله ، وقد تعالى الله
 وتنزه عن اللعب والهوى .
 يجارى الله أفهام الناس ويبين لهم قداسته ، وعظمته ، وتعالىه من العبث
 بطريقتين :

الطريق الأول : دقة الخلق :

فمن ينظر إلى السماء والأرض وما بينهما يرى الدقة ، ورعاية المصلحة
 والتوازن التام ، والحكمة الشاملة ، وهذا يؤكد أن الله منزه عن اللعب ...
 ولو تصور الإنسان عنصرا خلقه الله لم يوجد أصلا ، وتأمل فى هذا
 التصور لعلم قيمة كل جزئية خلقها الله فى انتظام الحياة .
 ولو تصور زيادة أو نقصا فى أى عنصر خلقه الله لوجد خلا ، واضطرابا
 ... إن الله خلق الكون بحكمته ، وتعالى الله عما يقول المشركون علوا كبيرا .

الطريق الثانى : مجارة المشركين :

يجارى الله المشركين ويبين لهم أنه لو أراد أن يلعب للعب مع خلق بعيد
 عن الناس ، ولا ختار مخلوقات علوية ليكون بعيدا عن أنظار البشر بعيدا عن
 كلامهم ... إلا أن ذلك لم يحدث فتبارك الله رب العالمين .
 إن الله قضى فى خلقه أن ينتصر الحق ، وينهزم الباطل ، ويحيا الكون
 فى نعم الله تعالى .

(١) سورة الأعلى ، الآية ٢ ، ٣ .

الله واحد لا شريك له

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿٦٨﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفُتُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَٰهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٧٠﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبِّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٧١﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٧٢﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلَٰهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۚ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعَىٰ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۚ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٧٤﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة عظمة الله تعالى ، وتعالیه سبحانه عن اللعب والعبث جاءت هذه الآيات لبيان أن الله واحد لا شريك له ، له الملك كله ، مع رد مزاعم الشرك والمشرکين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله له ملك السموات والأرض ، وأن الملائكة تعرف قدره ، وتسبحه ، أما البشر فقد ضل منهم كثير ، وأشركوا بالله تعالى مع أن الله أرسل فيهم رسوله لدعوتهم إلى الله ، والأخذ بهم إلى الصراط المستقيم .

(٦٨٥)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى الله تعالى جميع مخلوقاته .

فقد خلقها ورزقها ، ودبر شئونها ، ومميتها ، وليس لأحد من غيره شيئاً من هذا وملكية الله لخلقه ملكية حقيقية ، فهو الذى أوجدها ، وقدر لها كل ما فيها ، واليه المرجع والمآب .

﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أى

ومن عنده من الملائكة الذين رفع الله منزلتهم ، وأعلى قدرهم ، وهم يتواضعون لله ، ولا يتكبرون عن الطاعة والعبادة ، ولا يشعر بتعب وكلل يمنعهم من عبادتهم لله تعالى ، وعندية الملائكة تعنى رفع المنزلة والمكانة .

﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْطُرُونَ ﴾ أى أن الملائكة مستمرون فى

تقديس الله وعبادته ليلاً ونهاراً ، ويتجهون لله مخلصين طوال الوقت ، لا يكسلون ولا ينقطعون .

هؤلاء هم الملائكة ، وتلك هى منزلتهم عند الله تعالى . أما البشر فقد عبدوا غير الله ، واتخذوا من دونه آلهة . يقول الله عنهم :

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ أم للإضراب الانتقالى

لأنها تفيد الانتقال من إنكار الألوهية مطلقاً إلى اتخاذهم آلهة أخرى مع الله تعالى ... والاستفهام فى الآية إنكارى لأنه ينكر على المشركين أموراً معينة :

أولاًها : اتخاذهم آلهة غير الله تعالى لأن هذا عمل مستنكر غير مسلم .

ثانيها : اتخاذهم من الأرض آلهة ، لأنها لا تكون إلا حادثة بحدوث

الأرض ، وهذا غير جائز .

ثالثها : اتخاذهم آلهة من جماد الأرض لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تعي عمل مردول لا يصح القول به .

رابعها : إسنادهم أى قدرة لأصنامهم كلام كاذب لا يؤيده الواقع ، ولذلك كان سؤالهم . هل ﴿ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ أى هل تحيى الأصنام الموتى وتنتشرهم إلى المحشر ، وتحاسبهم .

إن المشركين لا يؤمنون بيوم القيامة ، ولذا كان الحديث عن الحشر والتشر استهزاء بهم وبأصنامهم ، وبيان ثبوت اليوم الآخر ، وأن الله سيحشر عباده ويحاسبهم ، ويجازيهم .

ثم جاءت الآيات بالدليل العقلى المؤكد لوحداية الله تعالى ، وهو قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِاهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ والعلماء يسمون هذا الدليل بدليل "التمانع" القائم على توقع حكم ممتنع ناشئ من تصور شئ ممتنع ، فهما أمران ممتنعان يثبتان عكس المتصور .

وبيان ذلك انه لو تصورنا وجود آلهة أخرى مع الله لما وجد هذا العالم ولفسد قبل إيجاده إلا أنه وجد واستقام ، وهذا يثبت عدم وجود إله مع الله تعالى ، وبيان ذلك أنه لو وجد إلهان فإما أن يتفقا أو يختلفا ، فإن اختلفا فمن نفذت إرادته فهو الإله ، ومن ثبت عجزه فليس بإله ... وأما اتفاقهما فى شئ فلن يتكرر لأن لكل منهما إرادة خاصة ، ولذلك يستحيل التوافق الدائم بينهما ، ولو تساويا فى القدرة مع اختلافهما لما صنعا شيئا .

وعلى هذا :

يستحيل وجود العالم مع وجود إلهين اتفقا أو اختلفا إلا أن العالم قد وجد فدل ذلك على أن الله إله واحد لا شريك له .

وعلى هذا فإن وجود العالم ، ومشاهدته فى الماضى والحاضر والمستقبل دليل على أن الله واحد لا شريك له .

و ﴿لَوْ﴾ حرف امتناع لامتناع يدخل على شرط ممتنع وهو تعدد الآلهة لينتج جزاء ممتنعا وهو فساد العالم ... وبهذا الامتناع فى طرفى الجملة الشرطية تتحقق وحدانية الله تعالى .

﴿ فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى تنزه سبحانه وتعالى عن أن يكون له شريك كما يفعل المشركون .

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ أى أن الله فوق خلقه جميعا تنزه عن مشابهة خلقه ، وتعالى عليهم بقدرته . يفعل ما يشاء . لا معقب لحكمه . لا يسأله غيره أبدا ... وهو سبحانه يسأل الخلق عن أعمالهم ، وأقوالهم ويجازيهم عليها .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ينكر الله عليهم فيه اتخاذهم آلهة أخرى معه ... ويتحداهم ويطلب حجتهم فى هذا الشرك . ويقول لهم : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أى اثبتوا بأدلتكم على ألوهية هذه الأصنام من النقل أو من العقل . وفى هذا الطلب تحد واضح ، ومواجهة مباشرة مع المشركين ، ولن يجدوا لهم دليلا على شركهم . فقد أبطل دليل "التمانع" إفكهم ، ولا وجود لنص شرعى يثبت ألوهية الأصنام ، وليس لهذه الآلهة أى صفة ترفعهم عن المخلوقية التى هم عليها .

﴿ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعَى وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلَى ﴾ هذا اسم إشارة يشير إلى كتب الله المنزلة ، والمراد بذكر من معى القرآن الكريم ، ويذكر من قبلى الكتب السماوية السابقة مثل التوراة والإنجيل ... ففى هذه الكتب بيان أن الله واحد لا شريك له . فمن أين لكم اتخاذ الأصنام آلهة مع الله تعالى .

(٦٨٨)

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أى أن أكثر

المشركين لا يميزون بين الحق وبين الباطل ، وبذلك لا يتأثرون بالدليل ، ولا يستفيدون بحجة ، ولذلك فهم يعرضون عن الإيمان ، ويكفرون بالله تعالى .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ أى لم نرسل قبلك يا محمد رسولا إلى قومه إلا وأوحينا إليه بما

بعث به غيره من الرسل ، وهو أن الله إله واحد ، متصف بكل كمال يليق به ، لا شريك له ، وأن العبادة لا تكون إلا لله وحده ... وقد جاء الرسل بهذه الحقيقة ، ودعوا الناس إليها .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله له ملك السموات والأرض ، والملائكة تسبحه أناء الليل وأطراف النهار ... وتوضح الآيات أن المشركين اتخذوا غير الله آلهة معه وهذا أمر باطل بمنطق العقل وفى لسان الشرع . فالله إله واحد ، والعبادة له وحده سبحانه وتعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تبين الآيات ركيزة هامة ... هى :

ثبوت وحدانية الله تعالى

الله خالق الخلق ، وهو على كل شئ قدير ، وهو واحد لا شريك له ، وقد

بينت الآيات وحدانية الله بطرق متعددة :

فهى . أولا . تقدم الدليل من خلال ذكر صفات الله تعالى ، فهو المالك لما خلق ، وكل من فى السموات والأرض عبيده وخلقه ، والمملوك يطيع ماله ، وينقاد له .

وهى . ثانيا . تقدم النموذج الحسن للعبودية والطاعة ، ويتمثل هذا النموذج فى الملائكة ، الذين أكرمهم الله تعالى ، وأعلى منزلتهم ومقامهم ، وجعلهم يخشون ربهم ، ولا تنقطع عبادتهم لله تعالى .

وهى . ثالثا . تبين ضلال المشركين وتنكر عليهم اتخاذ الأصنام آلهة من دون الله تعالى ، وتسأل عن هذه الأصنام ، وهل لديها القدرة على بعث الناس وحشرهم وسؤالهم يوم القيامة ؟ ... وحيث أن ذلك لم يحدث ، ولن يتحقق يثبت عدم صلاحية الشركاء للألوهية .

وهى . رابعا . تقيم الدليل العقلى المثبت بوحدانية الله تعالى لأنه لو وجد إله غير الله لفسد الكون ، وانعدم .

وهى . خامسا . تطلب من الإنسان برهان إيمانه ليكون إيمانه قائما على الاقتناع والرضى .

وهى . سادسا . تتعارض مع ما أجمع عليه الرسل ، فلقد جاءوا صلواتهم الله عليهم بدعوه التوحيد الخالص ، وضرورة عبادته وحده سبحانه وتعالى . والآيات تقدم المذكور ليكون منهجا للدعاة فى كل زمان ومكان ، فلا بد بدأن تحدد القضية ابتداء ، وتبين أهميتها ، وموقف عباد الله منها ، وبخاصة عباد الله تعالى .

ولابد من مناقشة الشبه المثارة ، واتخاذ القدوة ، وإقامة الدليل العقلى على توحيد الله تعالى .

(٦٩٠)

ولابد من تعريف الناس براهين الإيمان ليقوموا بإيمانهم على العلم ، ويتركوا الزيف والكذب .
ومن الممكن الاستفادة بهذا المنهج ، أو ببعض آياته فى الدعوة إلى الله تعالى من خلال كلمات الدعاة ومواعظهم .

الملائكة عباد الله صادقون

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ سُبْحَنَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٦٩٠﴾
لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩١﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٦٩٢﴾
وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّنْ دُونِهِ ۖ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ ﴿٦٩٣﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة وحدانية الله تعالى ، وأثبتت بطلان اتخاذ الأصنام آلهة جاءت هذه الآيات لبيان أن الله سبحانه وتعالى لم يتخذ من الملائكة ولا من البشر ولدا .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن القول بوجود أبناء لله أمر يتعارض مع توحيد الله تعالى وهو شرك به سبحانه وتعالى ، وأن الله سبحانه سيحاسب الناس ، وسيعاقب المشركين على شركهم .

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ سُبْحَنَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ أى

وقال فريق من المشركين ، وهم بطون من خزاعة ، وجهينة ، وبنى سلمة : إن الملائكة بنات الله . فرد الله عليهم بقوله : ﴿ سُبْحَنَهُ ۚ ﴾ أى تنزه الله عن قولهم هذا ، لأن القول ببنات الله يعنى أن الله هو والدها ، ويتحقق بذلك الشبه بين الوالد والولد ، ويعدد الآلهة ، وهذا يتنافى مع توحيد الله تعالى .

﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ أى أن الملائكة عباد الله تعالى خلقهم ، وقد هداهم

وأكرمهم بالقرب منه ، ورفع منزلتهم عنده ، وأكرمهم بالعديد من النعم .

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ أى لا يتكلمون

إلا بما يأمرهم به الله ، ويسمح لهم بقوله ، ولا يخالفونه فيما يأمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله ، إنهم يعرفون قدره ، ويعظمونه ، ويوقنون بأنه : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أى إن الله سبحانه وتعالى يعلم ما عملوا وما يعملون ، وما سيعملون ، ولذلك فهم ملازمون لأمره ، ولا سبيل لهم في أدنى مخالفه .

﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ﴾ أى أن الملائكة لن تشفع لأحد

من خلقه إلا بعد أن يأذن الله لها ، ويكون راضيا عنهم .

﴿ وَهُمْ مِّنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ أى أنهم دائمو الخشية والخوف من الله تعالى ، لا لذنب فعلوه ، وإنما لفرط حبهم ، وشدة تعلقهم ، فهم يخافون من أى قصور يبعدهم عن الله تعالى ، ويحرمهم عن عبوديتهم المطلقة لله رب العالمين . فكل عملهم : ﴿ وَخَنُ نُسَيْحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾^(١) .

﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِي جَهَنَّمَ^ع كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أى ومن يدعى من الملائكة أنه إله مع الله . فقد ظلم نفسه ، وظلم غيره ولذلك يعاقبه الله ، ويدخله جهنم بنارها وسعيرها ، وذلك جزاء كل ظالم أثيم .

- ٤ -

معانى الآيات

تبين الآيات أن بعض مشركى مكة قالوا : إن الملائكة بنات الله ، وهذا أمر غير صحيح ، لأن اتخاذ الله ولداً أو بنتاً يجعله والداً يحتاج لغيره ، ويتجزأ وهذا لا يجوز .

إن الملائكة عباد الله مخلصون لا يعصون الله ما أمرهم ، ويطيعون أمره والله عليم بهم يجازيهم الخير ، فإن عصى أحدهم كإبليس وادعى الألوهية فله عذاب أليم .

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٠ .

(٦٩٣)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

بيان حقيقة الملائكة

خلق الله الخلق كله ، وجعله أجناسا ، وأنواعا ، وكلف منهم الإنس والجن ، وأرسل لهم الرسل والأنبياء .

وقد خلق الله الملائكة ، وخصهم بالطاعة ، وقربهم إليه ، وأعلى منزلتهم وحددت الآية أوصافهم ... وهي :

(١) إنهم مكرمون عند الله . فقد قربهم إليه ، وأعلى منزلتهم ، وأحاطهم بمعيته ، ومعونته .

(٢) إنهم مطيعون لله ، خاشعون له ، لا يفعلون شيئا إلا بأمره ، ولا يعصون شيئا فيما يأمرهم به .

(٣) مكنهم الله من الشفاعة لعباد الله تعالى ، فهم يشفعون بإذن الله وبما يرضيه سبحانه وتعالى .

(٤) يمتلئ الملائكة بالطاعة خشية لله ، وخضوعا له سبحانه وتعالى ، ويستمرون في حبهم وتعلقهم به سبحانه وتعالى .

والملائكة برئيون من كل مزاعم المشركين ، فهم ليسوا بنات الله ، ولم يدع أحدهم الألوهية ، ولم يعصوا الله تعالى أبدا ، وقد طرد الله إبليس من بينهم بعد أن أبى واستكبر ، وكان من الكافرين .

شواهد الكون على وجود الله

يقول الله تعالى :

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا^ط
وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ^ط أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٦﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ
تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٧﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا
مَحْفُوظًا^ط وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ^ط كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٩﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة مقالات المشركين عن الملائكة من أنهم بنات
الله جاءت هذه الآيات بعدد من آيات الله في الكون تدل على وجوده سبحانه
وتعالى .

- ٢ -

معنى الآيات

تبين الآيات عددا من الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تبين الآيات عددا الآيات الكونية الدالة على وجود الله وقدرته ، وهي أدلة
تدور في فلك الحياة البشرية ، ويلمس وجودها سائر الناس ... وهي :

(١) تفنق الأرض عن السماء :

يقول الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ، والواو حرف عطف

يعطف ما بعدها على محذوف مقدر قبلها . تقديره أعمى الذين كفروا ولم يروا ... وهو أسلوب ينعى جهل الكفار عن هذه الحقيقة ، وينكر عليهم عدم الاستفادة بهذه الآية .

والمعنى أن السموات والأرض كانتا مرتوقتين وملتحمتين ، ففصلناهما عن بعضهما وجعلنا لكل منهما فلكا معيناً تسبح فيه لا يتغير .

وقد بينت البحوث العلمية الحديثة أن الكون كان كتلة نارية واحدة أخذت تدور حول نفسها ، وفى أثناء دورانها انفصلت منها أجزاء منها الأرض ، والكواكب ، والأجرام الأخرى .

إن العقل البشرى وهو يبحث فى الأجرام والكواكب الفلكية يكتشف ما كان بين السماء والأرض من صلة تحدث القرآن الكريم عنها منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، وهذا يؤكد صدق محمد ﷺ ، ويبين أن الله واحد لا شريك له .

(٢) ربط الكائنات الحية بالماء :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ أى وجعلنا كل شئ مرتبطاً بالماء

وخلقناه منها .

﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى أجد الناس الحق فهم لا يؤمنون بالله ، ولا

يصدقون بآياته .

(٣) الجبال أوتاد الأرض :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أى أوجدنا في الأرض

جبالا عالية ثابتة في أماكنها ، وجعلها أوتادا لئلا تميد وتضطرب .

(٤) إيجاد الطرق للتواصل :

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أى أوجدنا في الأرض

سهلها ، ومرتفعاتها طرقا يسلكها الناس في أسفارهم ، ورحلاتهم ليهتدوا بها في أعمالهم ، ومقاصدهم .

(٥) رفع السماء بلا عمد :

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى رفع السماء

بلا عمد ، وجعلها سقفا كبيرا يحفظ ما تحته من شمس وأقمار .

﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ أى أن المشركين يعرضون عن هذه

البراهين والأدلة ولا يستفيدون بها .

(٦) وجود آيات الكون الكبرى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۚ كُلٌّ فِي فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ ﴾ أى خلق الله الكون الكبير ، ونظمه ، فأوجد الليل والنهار ، وجعل

الشمس والقمر ، ووضعهما في فلك خاص بهما ، يسبح كل منهما فلكه .

إن هذه الآيات شاهدة على وحدانية الله تعالى ، واتصافه بكل كمال يليق

به سبحانه وتعالى .

(٦٩٧)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات الشواهد المبنوثة في الحياة والكون الشاهدة على وجود الله تعالى ، واتصافه بكل كمال يليق به سبحانه وتعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

آيات الله شاهدة عليه

يعيش الناس في كون الله الكبير ، ويتمتعون بنعمه وأفضاله ، وليس عليهم إلا يعبدوا الله تعالى الذى خلقهم ، ورزقهم ، وهداهم لدينه الحنيف .
ومن رحمة الله بالناس أن ربطهم بكونه المخلوق ، وعرفهم بالآيات الدالة على قدرته ووجوده ، وعلى كل كمال يليق به سبحانه وتعالى .
وقد ذكرت الآيات عددا من الأدلة الكونية التى يلمسها كل إنسان ، ويراها في حياته ونشاطه .

ومن هنا ...

نبين للدعاة ضرورة أن يبرهنوا للناس على ما يدعون إليه بأسلوب بين وبقضايا مسلمة لديهم من خلال معاشتهم لها ، واستفادتهم منها .
ويمكن للدعاة إبراز واحدة من آيات الله في النفس والكون ، وتعريف الناس بها ، وبيان نعمة الله فيها ، وضرورة شكر الله عليها .
إن إيراد القرآن الكريم لهذه الآيات دليل واضح على ضرورة اقتناع الإنسان بقضايا الإيمان ، ولذلك كثرت البراهين في القرآن الكريم .

كل نفس ذائقة الموت

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَيْءٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ ١
 نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٢ وَإِذَا رَأَوْكَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا إِتَّخَذُوا مِنكَ إِلَّا هُزُوًا أَلْذَى الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ
 بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ٣ ۝

- ١ -

سبب نزول الآيات

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي "أنه ﷺ مر على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحادثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال : هذا نبي بنى عبد مناف ، فغضب أبو سفيان وقال : أنتكر أن يكون لعبد مناف نبي ؟ فسمعها النبي ﷺ فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوفه وقال : ما أراك منتهيا حتى يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة ، وقال لأبي سفيان : أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية ، فنزلت الآية (١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أدلة وجود الله تعالى في هذا الكون جاءت هذه الآيات بأن هذه الدنيا ما خلقت للخلود ، وكل آياتها إلى فناء ، وأن الموت سيلحق بكل إنسان .

(١) تفسير المراغي ج ١٧ ص ٢٩ .

(٦٩٩)

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الموت حتم يذوقه كل الإنسان ، وسيبعث الله الناس يوم القيامة ، ولن يبق إلا بالعمل الصالح ، والذكر الجميل فلا تشمتوا في رسول الله حين يموت .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ أى ما كتب الله لأحد من البشر قبلك يا محمد أن يخلد في الأرض ، ولا يموت ، فكل إنسان ميت عند أجله : ﴿ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾^(١) .

﴿ أَفَلَا يَن مِّتَّ فَهُمْ آلْحٰلِدُونَ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ينكر الله شماتة المشركين في موت محمد وقت مجيئه ، ويسألهم منكر . أبعد محمد تخلصون أيها المشركون ولا تموتون ؟ ... وفى هذا استهزاء بهم فهم ميتون كأسلافهم وأهليهم .

عن عائشة رض الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه دخل على رسول الله في موته فقبله وقال : طبت حيا وميتا يا رسول الله . أما المودة التى كتبت عليك فقد ذقتها ... وأنبياء ... وأخيلاه ... واصفياه ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾^(٢) .

(١) سورة يونس ، الآية ٤٩ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب لو كنت متخذًا خليلا ج ٥ ص ٦ بنحوه .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ أى كل نفس خلقها الله تعالى ستذوق مرارة الموت ، وتتجرع كأسه ، وتفارق الأهل والأحبة ، والملك والجاه ... يقول النبی ﷺ : "إن للموت لسكرات" (١) .

﴿ وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ أي ونختبركم أيها الناس بالمضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد ، وبنعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من حصول ما تريدون ، لنرى أتصبرون في المحن ، وتشكرون في المنح ؟ فيزداد ثوابكم عند ربكم إذا قمتم بأداء ذلك .
والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر ، فالمنحة أعظم البلاءين ، ومن ثم قال ﷺ : "بلىنا بالضراء فصبرنا ، وبلىنا بالسراء فلم نصبر" (٢) ، وقال علي كرم الله وجهه : "من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مكر به فهو مخدوع" (٣) .

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة ، وإن خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر ...
إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ، ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير .

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة . ويكبحون جماح القوة الهائلة في كيانه ، الجامعة في أوصالهم .

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم ، ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالרגائب ، والمناصب ، والمتاع ، والثراء ! كثيرون يصبرون على الكفاح

(١) المعجم الكبير للطبراني ج ٢٣ ص ٣١ .

(٢) حلية الأولياء ، وطبقات الأصفياء ج ١ ص ١٠٠ .

(٣) تفسير المراغي ج ١٧ ص ٣٠ .

والجراح ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح . ثم لا يصابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال . وبالإسترخاء الذي يقعد الهمم ، ويذل الأرواح ! إن الإبتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ، ويستحث المقاومة ، ويجند الأعصاب ، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها . أما الرخاء فيرخي الأعصاب وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة^(١) !

﴿وَالْيَنَّا تُرْجَعُونَ﴾ أى أنكم سترجعون إلينا ونحاسبكم ونجازيكم بالخير

والشر الذى بلوناكم به .

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا﴾ أى إذا رآك

مشركو مكة سخروا منك ، واستهزأوا بك بدل أن يسمعوا دعوتك ، ويفكروا فيها ، ويتبعوك .

وكانوا يقولون : ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أى يشيرون إليك

يا محمد ولا يذكرون اسمك استهزاء بك ، ويتعجبون من سب آلهمتهم ، وبيان فساد دينهم ، ويذكرون محمدا بسوء ، لأنه تجاسر على ذكر آلهمتهم بسوء ، شأنهم في ذلك شأن الظالمين في كل وقت ومكان ، فهم يفعلون المنكر ، ويأنفون من إنكاره عليهم .

﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أى أنهم يستهزئون

برسول الله ﷺ بسبب ما هم فيه من كفر بالله تعالى ، وإنكارهم لآياته ، وتمسكهم بالكفر والضلال .

(١) في ظلال القرآن ج ٥ ص ٥٣٢ .

(٧٠٢)

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الموت حق ، ولا خلود لإنسان في هذه الدنيا ، ولا قيمة لشماتة المشركين في وفاة رسول الله ﷺ ، وسوف يحاسبهم الله على شركهم ، وعملهم واستهزائهم برسول الله ﷺ .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الموت الحق

جعل الله الدنيا دار التكليف والعمل ، وجعل الآخرة دار الثواب والجزاء وقضى بنهاية الدنيا ، وجعل نهاية كل حي الموت ... وكل نفس ذائقة الموت ، ولن يفلت منه أحد ... ولما أخبر الله بهذه الحقيقة سر المشركون لوفاة رسول الله ﷺ فعرفه الله أن الموت محتّم لكل نفس ولن يخلد أحد من الناس ، وتعجب الله من شماتة المشركين لأنهم لن يخلدوا فلم يشمتون في موت غيرهم ؟ ... وقد أخبر الله كثيرا عن حتمية الموت ، وانقطاع العمل به ... وذلك ليجتهد المؤمنون في أعمالهم ، ويحذروا أى ظلم يبعدهم عن رضوان الله تعالى .

إن الموت حق يقول الله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ^(١) .

(١) سورة الأعراف ، الآية ٣٤ .

(٧٠٣)

الركيزة الثانية

حتمية البلاء في الدنيا

يقيم الله الحجة على عباده وهم في دنياهم ، ويظهر ما فيهم من خير أو شر ، وذلك بابتلائهم بالخير وبالشر ، فيوسع رزقهم ، ويكثر ولداهم ، ويعطيهم السلطان والجاه ، ويمد لهم في العمر ، ويكلفهم بما يجب عليه ، ويجعل ذلك اختبارا لهم ، فإن تيقنوا بفضل الله عليهم ، وأدوا ما عليهم ، وحافظوا على منهج الله تعالى . فقد نجحوا في الاختبار الذي تعرضوا له ... وإن اغتروا ونسوا ما كلفهم الله به فقد استحقوا عذاب الله تعالى ، ورسبوا في الاختبار .

ومثل الابتلاء بالخير يكون الابتلاء بالشر من مرض ، أو فقر ، أو ضعف ، أو هوان عسى أن يصبر المبتلى فيفوز ، أو ييأس فيضيع .
إن الابتلاء ضرورة حتمية ولا بد منه ليظهر الخبيث من الطيب ، ولتقوم الحجة على كل إنسان بموقفه من البلاء .

الركيزة الثالثة

تعمل مشاق الدعوة

الدعاة إلى الله تعالى يحملون للناس أعدل قضية وسط ركام من الزيف والظلام ، وعليهم أن يعدوا للأمر عدته .

إن أعداء الدعوة سيقاومونهم ، ويواجهونهم بالعدوان ، والاستهزاء والتكذيب ، وعليهم أن يتحملوا ، ويصبروا ، ويثابروا في تقديم الدعوة وأخذ الناس بالحسنى .

عند بدء الدعوة في المدينة المنورة جاء زعماء المدينة إلى مصعب بن عمير رضي الله عنه يريدون طرده من بلدهم ، لأنهم رأوه خطرا على معتقدهم وأوضاعهم ... فكان عليه السلام يرد ردا حسنا ، ويقول لمن يأتيه أو تجلس فتسمع ؟ ... فإن

(٧٠٤)

رضيت دخلت فيما أَدْعُو إليه ، وان لم ترض تركتكم ... واستمر ﷺ في تحمله الأذى ، وتمسكه بحسن الخلق حتى دخل الإسلام في كل بيوت المدينة في عام واحد .

ورسول الله ﷺ أسوة الناس في تحمل المشاق ، فقد قابله أهل مكة بالضرر ، والأذى ، والاستهزاء ، ومع ذلك استمر في الدعوة حتى نصره الله تعالى .

إن الدعوة تصنع الإنسان ظاهرا وباطنا ، وتخرجه من الظلمات إلى النور ، وهذا أمر شاق يحتاج إلى التحمل ، والصبر ، والمثابرة .

النهى عن تعجل الموت فهو حق

يقول الله تعالى :

﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝١٧
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٨ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ
۝١٩ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٢٠
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فَأَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ۝٢١﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة استهزاء المشركين ، وتكذيبهم بحتمية الموت ، وقولهم : متى هذا الوعد ؟ جاءت هذه الآيات تنهى عن عدم التعجل لأن الموت آت لا ريب فيه .

(٧٠٥)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الإنسان خلق عجولا ، ولذلك ينهاه عن تعجل الموت ، لأنه سيكون حسرة وندامة للكافرين يوم يأتيهم مباغتاً لهم ، ولقد هلكت أمم من قبل لم تصدق به ، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى فطر الإنسان على العجلة والتسرع وجعل ذلك سجية فيه وجبلة ، إذا بدأ بأمر تعجل نهايته وإذا تمنى شيئاً رغبه في وقت قصير ... ومن هذه العجلة طلب المشركين إنزال عذاب الله بهم ، فإنهم لما خوفوا من نعمة الله طلبوها بسرعة استهزاء بها وتكديبا لرسول الله ﷺ وكان من الأولى لهم أن يتدبروا الأمر ، ولا يتعجلون ، ولو نظروا إلى الأمم السابقة لعلموا أن قدرة الله غالبية ، ووعدده حق ، وعقوبته نافذة وهذا يستدعى الأناة ، والنظر ، والتفكير ، ويتركوا العجلة لأنها تطلب الشئ قبل أوانه...

﴿ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أى سيربهم الله قدرته في أخذهم ، وعقوبتهم ، فلا تتعجلوا نزول العذاب الذى وعدكم الله به ، فهو سبحانه لا يخلف الميعاد .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى ومن عجلة هؤلاء المشركين انهم يستهزئون بنزول العذاب ، ومجئ الموت مع أنهم يشاهدون مصير الأمم قبلهم ، ويتساءلون مستهزئين ، ويقولون للنبي والمؤمنين

(٧٠٦)

معه : متى يجيئنا هذا العذاب الذى تخوفوننا منه ، وتعدوننا به إن كنتم صادقين ؟ ...

﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أى أن هؤلاء المشركين سيثبت جهلهم ويظهر لهم ما لم يكونوا به مصدقين ، وحين يحيط العذاب بهم سيصدقون به ، ويعلمون أنهم كانوا في ضلال وبهتان .
وس يظهر لهم الحق ساعة إحاطة العذاب بهم ، ولفخ النار وجوههم ، وتحريق ظهورهم ، وهم في عجز لا يستطيعون ردها ومنعها ، ولن يروا نصيرا ينصرهم ، ولن يكون لهم ولى يتولى شئونهم .

فإن قيل : النار تحيط بهم إحاطة كلية . فلم خص الوجه والظهر بالذكر ؟
أقول : خص الله الوجه والظهر بالذكر لأن مس العذاب بهما أشد ، ولأنها أكثر ظهور لمن يراها من أمامهم ، ومن خلفهم ، ... ولأن اشتعال النار في الوجه يمنع من التقدم ، واشتعال النار في الظهر يقعد عن القيام والصمود ، والتقهقر .

﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾
بل للإضراب والمعنى ليس الأمر كما يتصورون لأن انتهاء الدنيا كلها يكون مفاجئا وستأتى الساعة ، وستقوم القيامة بنفخة الصور الأولى فيتحيرون حينها ويعجزون عن أى عمل حين ذاك ، ولا يمكنهم رد الموت والعودة إلى الدنيا ليتوبوا ، ولا يمهلهم الله بعد ذلك ، ولا يحقق لهم الأمانى حين يقولون :
﴿ يَلَيِّنَا نُرَدُّ وَلَا نُكْذِبُ بِعَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) ... لقد انتهت

(١) سورة الأنعام ، الآية ٢٧ .

دار العمل والطاعة ، وبدأت دار الجزاء والثواب وحينئذ يعلم المشركون ما كانوا به يكذبون .

إن هؤلاء المشركين لم يستفيدوا وهم فى الدنيا برسلى الله الذين أرسلهم الله إليهم ، واستهزأوا بهم ، فحاق بهم عذاب الله بسبب ما كانوا فيه من استهزاء وتكذيب ، وهذا معنى قوله تعالى .

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى لقد تحقق من المشركين السابقين أن كفروا بدين الله ، وسخروا من الرسل ، واستهزأوا بهم فعاقبهم الله تعالى ، وأهلكهم بسبب ما فعلوه مع رسلهم ، وليعلم أهل مكة هذا "وهم به عارفون" ويبتعدوا عن هذا المصير الأليم الذى خوفهم الله منه .

ومن اليسير أن ينزل عذاب الله بمن يكذب برسول الله ﷺ ، ويستهزئ به ويسخر من دعوته كما عذب الأمم السابقة ، ولذلك كان التذكير بهم ترهيباً من مصيرهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنْتَهُمُ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴾^(١) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الإنسان بصورة عامة خلق متعجلاً يطلب الشئ قبل أوانه ، ومن ذلك أن المشركين لما خوفوا من عذاب الله استعجلوا مجيئه ، ولم يصدقوه بلا تفكير ونظر ... وسيعلم الكفار خطأهم فى الاستهزاء برسول الله

(١) سورة الأنعام ، الآية ٣٤ .

(٧٠٨)

وعدم إيمانهم بما جاء به حين يرون النار تحيط بهم ، وتحرق وجوههم وظهورهم
بلا نصير ينصرهم ، أو قدرة لهم تمكنهم من منعها وردّها .
إن الساعة تأتي فجأة ، ويلحق الموت بهم فيتحирون ويضطربون
ويصابون بالحسرة والندم ... إن حكم الله فى الناس عادل ، وقد أنزل الله عقوبته
بمن استهزأوا برسل الله ، ولم يؤمنوا بدين الله تعالى ، ولا مانع أن يلحق بهم
العذاب كما نزل بالأمم السابقة .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

تعنت المشركين

توضح الآيات تعنت المشركين أمام الحقائق الثابتة ... فمع أنهم يرون
نزول الموت بالناس كل يوم ، ولو نظروا إلى أسلافهم وأجدادهم وآبائهم لتيقنوا
من موت كل إنسان عند أجله .
إن إنكارهم للموت والبعث عنت وجحود منهم كمن يرى الشمس وينكرها .
إن القيامة حق ، والحساب حق ، والجنة والنار حق ، وسوف يندمون يوم
تحيط بهم النار من كل جانب ، وسيأتىهم الموت فجأة ، وتقوم الساعة فجأة
ويعذبهم الله تعالى كما عذب الذين استهزأوا برسل الله تعالى .

(٧٠٩)

ضلال الكافرين وعدم استفادتهم بآيات الله ، ونعمه عليهم

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ۚ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ
مُعْرِضُونَ ﴿٥٧﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٥٨﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ
عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمْ
الْغَالِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة عجز الكفار أن يمنعوا أنفسهم من عذاب الله تعالى إذا حل بهم جاءت هذه الآيات لبيان عناية الله بالناس ودعوته لهم للإيمان ، واحاطتهم بالنعم ، وهم ضالون .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله يحيط عباده برحمته ، ومع ذلك يكفرون به ، ويتخذون من دونه آلهة لا تتفع ، ولا تفيد ، وينصرفون عن آيات الله ، ولا يستفيدون بها .

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ ؟ ... السؤال

لإنكار أى قل لهم يا محمد ، وعرفهم أن الله هو حافظهم وهم نيام ليلا ، أو وهم يعملون نهارا ، واجعلهم يعلمون ذلك بسؤالهم ليقررروا بأنفسهم الواقع ، وليفكروا في رحمة الله بهم . والمعنى اسألهم سؤال إنكار وتوبيخ ليخبروك عن من يحميهم ، ويحفظهم وهم يعلمون ، وهم ينامون وهل هناك آلهة أخرى تحميهم من عذاب الله لو أنزله عليكم في هذه الأحوال .

وفى ذكر ﴿الرَّحْمَنِ﴾ بيان أن الذى يرحمهم ، ويحفظهم هو الله ، وليس لآلهتهم في ذلك شئ ، وتوضيح أن الله الذى يرحمهم هو الذى يخوف من عقوبته ... أما الأصنام فإنها لا تنفع نفسها ، ومن باب أولى لا تنفع غيرها . وذكر الحماية في الليل والنهار تعنى حاجة الإنسان إلى الرعاية والحفظ دائما في منامه ويقظته ، وفى راحته ، وأثناء عمله ... وعليه أن يذكر الرحمن في كل حياته ليكون معه في دنياه .

﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ أى أن هؤلاء المشركون أعرضوا عن الله في دنياهم . فقد أنعم الله عليهم بنعمه وفضله فانشقوا بها عن المنعم المتفضل سبحانه وتعالى .

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أى هل للمشركين آلهة تحميهم ، وترد عنهم عذاب الله تعالى ، وهو تصور باطل لأن هذه الأصنام لا تستطيع نصر نفسها ولم يصحبها نصر من لدنا .

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ أى أنا

أكرمنا هؤلاء القوم ، وأعطيناهم وآباءهم كثيرا من المتع والنعم ، وامتد بهم العمر حتى ظنوا أنفسهم على الحق ، واغتروا بفضل الله الذى جاءهم .

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ أى

أعمى هؤلاء القوم فلا يرون قدرتنا في إتيان الأرض من جوانبها ففتحنها للمؤمنين ، وزدنا سلطانهم فيها ، وأضعفنا المشركين ، وهزمناهم ، وجعلنا دورهم جزءا من ديار المسلمين .

﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ؟ ... أى هل هؤلاء الكفار هم الغالبون أم نحن

حتى يستمروا على كفرهم وضلالهم .

إن نعم الله وأفضاله آيات للإيمان به ، إلا أن الكافرين لا يؤمنون بالله ، ولم يقدره حق قدره .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله رحيم بعباده ، يرييهم ويحفظهم ، ويسأل الله المشركين منكرًا عليهم سوء ما يقولون ، ويسألهم عن من يحفظهم ليلا ونهارا ؟ أم أنهم رضوا بالمعاصي وكفروا بالله تعالى ؟ أم لهم آلهة من الأصنام تحرسهم وتدافع عنهم مع أن من المعلوم أن الأصنام لا تفعل شيئا ، ولا تقدر على شئ وكل ما في الواقع أن المشركين اغتروا بنعم الله ، ولم يفكروا في آيات الله التى تأتيهم .

(٧١٢)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

حسن الخطاب في عرض الدعوة

تدعو الآيات الناس إلى الله تعالى ، وتخاطبهم بالحسنى ، وتورد عددا من الاستفهامات لإنكار ما هم فيه من عدة جوانب :

فالسؤال الأول : ينكر عليهم جحود نعم وأفضاله ، فالله يحميهم ، ويحفظهم ليلا ونهارا ، ويذكرون ذلك ويعرضون عنه ، وهذا لا يجوز لأن من يحفظ يجب أن يذكر ويشكر .

ويأتى الاستفهام الثانى ينكر عليهم اتخاذ الأصنام آلهة من دون الله مع أنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تفيد نفسها أو غيرها ، ولن ينزل عليها نصرنا ، ويصاحبها ، ويظهرها به .

ويأتى الاستفهام الثالث فينكر عليهم ظنهم أن الغلبة والانتصار للمؤمنين في النهاية ، فأثبتوا بذلك أنهم لا يفهمون الواقع ، ولا يتدبرون في الآيات ، ولو تأملوا ورأوا أن المؤمنين ينصرهم الله تعالى ، ويقوى دولتهم ، ويوسعها على حساب دولة المشركين ... لو تأملوا ذلك لعلموا أن الغلبة للمؤمنين والنقص والهزيمة للمشركين ، وبأن فساد رأيهم ...

ومن حسن البيان الانتقال في الآيات فقد بينت أن المشركين معرضون عن ذكر ربهم ، ثم انتقلت بهم إلى حالة الغفلة التى سيطرت عليهم بسبب نعم الله التى أوتتهم وأبأهم .

ومن حسن البيان إيراد اسم الله بصفتي "الرحمن" و "الرب" لبيان جحود المشركين وانكارهم الخيرات التى يعيشون بها .

وعلى الدعاة :

أن يستفيدوا من الآيات حسن عرض الدعوة ، وحسن مخاطبة المدعويين
وتقدير عقولهم ، وأشخاصهم ، وضرورة الحرص على هدايتهم .

عدل الله في الحساب والجزاء

يقول الله تعالى :

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ
﴿٤٤﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿٤٥﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا
وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة جحود المشركين ، وانكارهم لنعم الله تعالى
جاءت هذه الآيات لبيان أن الحق واضح لا لبس فيه ، وهو وحى من الله تعالى
، وانكاره جحود وعمى ، والهروب ضلال مبين ، وسوف يقر به المشركون حين
نزول العذاب العادل بهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن رسول الله دعا الناس ، وأنذرهم بوحي الله الذى جاءه ،
ولن يسمعه جاحد ، لأن الأصم لا يسمع شيئاً ، ويبين أن الضالين سيقرون
بصدق الإيمان يوم يحيط بهم العذاب ... وفى يوم القيامة ينال كل إنسان جزاء
عمله ، ولن يضيع عمل ما ... ولن يظلم ربك أحدا .

(٧١٤)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا

يُنذَرُونَ ﴾ أى قل لهم يا محمد إن كل ما أدعوكم به ، وأخوفكم من عصيانه هو من وحى الله تعالى وليس من قبل نفسى ... ويبين الله لرسوله أن سبب انصراف المشركين عن الإيمان أن الله أعمى أبصارهم ، وجعل على قلوبهم غشاوة فهم كالأصم لا يسمع شيئا ، ولا يستجيب لأى إنذار .

﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا

ظَالِمِينَ ﴾ أى ولئن نزل جزء قليل من العذاب بهم لأقروا بذنوبهم ، واعترفوا بظلمهم لأنفسهم ولغيرهم ... إلا أن زمن هذا الإقرار ولى .

وفى يوم القيامة يتحقق العدل التام وتنال كل نفس ما أسلفت يقول الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ

وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ۖ وكفى بنا حسيين ﴾ أى ونحضر يوم القيامة الموازين العادلة التى نزن بها صحائف الأعمال فلا نظلم أحدا مثقال ذرة ، فمن ثقلت موازين حسناته فاز ، ومن خفت حسناته عذب ودخل النار ، ويكفى الله عادلا حكيما .

- ٤ -

معنى الآيات

يبين الله تعالى أن إنذار رسول الله للناس نزل الوحي به ، ولن يسمع الجاحدون لما يقال لهم ، لأن الأصم لا يسمع الإنذار إذا وجه إليه ، ولن يقر

(٧١٥)

الجاحدون بالحق إلا إذا نزل العذاب بهم ... وفى يوم القيامة يضع الله الموازين العادلة لينال كل ما قدمت يداه بلا ظلم أو تقصير .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

المشركون كالأنعام في الإدراك

خلق الله في الإنسان عوامل الإدراك ، ومكنه من الاستفادة بها ... وهى :

- (١) الجوارح التى تمكّنه من إدراك المحسوسات وهى أساس المعارف .
- (٢) العقل وبه تدرك المعقولات وفق عمليات ذهنية كثيرة .
- (٣) الإشراف وتشمل المعارف التى تأتى عن طريق الوحي المنزل على رسول الله ﷺ .

وهذه العوامل مترابطة لأن الجوارح تبدأ بالمحسوس ، وتقدم للعقل المبادئ العامة القائمة على المحسوس ... وأيضا فإن العقل هو الذى يصدق بالوحي ، ويستفيد بإشراقاته الروحية ... وقد أبطل المشركون حواسهم فلم يروا بعيونهم ، ولم يسمعوا بأذانهم ، ولم يتكلموا بلسانهم ، وبالتالي تعطل عقلهم ، وأنكروا الوحي وكفروا بالله تعالى .

وحين ننظر إلى المشركين نجدهم قد ارتضوا لأنفسهم منزلة أدنى من الأنعام حينما عطلوا عوامل الإدراك لأن الأنعام تستعمل عوامل الإدراك التى وهبها الله لها .

وعلى الدعاة :

إيقاظ عوامل الإدراك في الإنسان ، لأنها هي الإنسان ، بها يتميز عن سائر المخلوقات ، وعليهم عرض الآيات وتحليلها أمام الطاقات البشرية ليستفيد بها المدعوون .

الركيزة الثانية

العدل المطلق في الحساب والجزاء

تبين الآيات أن الله أقام الأرض بالعدل ، ووضع الميزان في المحشر لتتال كل نفس ما قدمت : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (١) ولذلك وجب على المؤمنين السعي الدءوب ، والإكثار من العمل الصالح ، وهو مطمئن لينال في الآخرة ما يتمنى والعقلاء هم الذين ينتظرون حسنات الله ، ويلتزموا بما قضى لهم به ، والله يهdy من يشاء إلى صراط مستقيم .

(١) سورة الزلزلة ، الآية ٧ ، ٨ .

مع قصص سورة "الأنبياء"

سميت السورة بـ "الأنبياء" لكثرة ورود ذكر الأنبياء فيها . فقد ذكر الله فيها سبعة عشر نبيا ولم يرد هذا العدد في سورة أخرى إلا في سورة "الأنعام" فقد ذكرت ثمانية عشر نبيا . جاء ذكرهم عدا في قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ^(١) .

وقصص سورة "الأنبياء" متمم لموضوع السورة وهو إثبات العقيدة في أساليب بيانية ، متعددة .

وقصص السورة يأتى قصيرا مكتفيا بطرف يسير من القصة ما عدا قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه الذين يعبدون الأصنام ، وأطالت في حوارهم معهم وبينت كيدهم لأصنامهم ، ووضحت طريقة إبراهيم عليه السلام في إقامة الحجة ... إلى أن أنقذه الله من النار ، وجعلها له بردا وسلاما .

وقد أوردت السورة هذا القصص في إطار موضوع السورة فهي لا تقصد عرض القصة كاملة ، ولا تهدف إلى غير الهدف الرئيسى لهذا القصص ، ومع طول قصة إبراهيم عليه السلام نجدها لا تغادر الهدف العام للقصص .

وبلاحظ أن السورة ركزت في قصصها على نجات الرسل من ظلم وظلمات المكذبين ، وهى تبين وتؤكد هذه الغاية في كل قصة طالت أو قصرت . وسوف أورد عقب القصص كلها الركائز المستفادة منها .

(١) سورة الأنعام ، الآية ٨٣ .

(٧١٨)

القصة الأولى

قصة "موسى" و "هارون" عليهما السلام

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾
الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٢﴾ وَهَذَا ذِكْرُ
مُبَارَكٍ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٣﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

الآيات تبين طرفا يسيرا من قصة موسى وهارون عليهما السلام ،
وتوضح نزول التوراة عليهما هدى ونورا لبنى إسرائيل الذين اتبعوهم ، وكانوا من
المتقين ، وقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم لذلك .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أى
لقد أتى الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام كتابا جامعا لأوصاف عظيمة
وهى أنه فرق بين الحق والباطل ، وأنه نور ينير الطريق ، ويذهب الظلام ، وأنه
تذكير بدين الله تعالى الذى أتى به موسى عليه السلام لبنى إسرائيل مشتملا على
عقيدة وشريعة وأخلاق ... وهذا الكتاب يستفيد به المتقون ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ أى الذين يستفيدون بكتاب
موسى هم الذين يؤمنون بالله ، ويقدرّون فضله واعانته ، ويستسلمون بكل

صفاته التى يؤمنون بها عقلا ، ولا يرونها حسا ، ويرجون رحمته ، ويعملون ليوم القيامة أملا فى الفوز بالجنة .

﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ اسم الإشارة للقرآن الكريم خاطب الله

به العرب لأنهم لما رأوا اليهود يؤمنون بموسى وهارون ، ويتمسكون بالتوراة حثهم الله على أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويتمسكوا بكتابه ففيه من الصفات ما للتوراة وأكثر فهو رفع لشأنهم ، وتذكير بدين الله تعالى ، وهو كثير النفع والفائدة لمن اتبع هديه ، واستقام على منهج الله فيه .

﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ، وفيه ينكر الله على

المشركين عدم إيمانهم بالقرآن الكريم ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة ويعلمون أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، ويرون فيه روعة النظم ، وحلو الأسلوب ، ويدركون من معانيه دين الله تعالى ، ويعيشون منهجه لتحقيق سعادة الدنيا والآخرة ... وكيف ينكرون القرآن الكريم مع علو شأنه ، وهم يرون بنى إسرائيل يتمسكون بالتوراة مع أنهما من معين ؟!

- ٣ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل على موسى وهارون عليهما السلام التوراة للفرقة بين الحق والباطل ، ولتكون نورا وهداية وذكرى للمؤمنين الذين يخشون الله تعالى ، ويخافون الحساب فى الآخرة ، وتدعو المشركين إلى الإيمان بالقرآن الكريم ، مثل إيمان بنى إسرائيل بكتابهم ، فهو منزل من عند الله تعالى وفيه الخير والنماء والسعادة .

يقول الله تعالى :

﴿١٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿١١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَكِفُونَ ﴿١٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا هَا عِبَادِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿١٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِءَالِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٢٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٢١﴾ قَالُوا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِءَالِهَتِنَا يٰئِبْرَاهِيمُ ﴿٢٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ أَتَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٢٦﴾ أَفَلَا تَكُفِّرُونَ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْنَا يَبْنَازُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٢٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٣٠﴾

(٧٢١)

- ١ -

موضوع الآيات

أوردت السورة قصة إبراهيم عليه السلام مع عبدة الأصنام ، وأبرزت مناقشاتهم معه فبينت أن إبراهيم عليه السلام قد من الله عليه بالنبوة قبل موسى وهارون عليهما السلام .

فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ أى أن الله تعالى أتى إبراهيم عليه السلام النبوة قبل موسى وهارون عليهما السلام ، ووقفهما للحق وأضاء لهما سبيل الرشاد ، ومن قبلهما جاء إبراهيم عليه السلام مؤمنا بالله تعالى ، بعيدا عن شرك الناس وأصنامهم .
وبعد ذلك عرضت الآيات القصة في مواقف متعددة ... هى :

الموقف الأول

المواجهة القولية

واجه إبراهيم عليه السلام قومه وأباه بما هم فيه من شرك : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَاكِفُونَ ﴾ ؟ ... أى ما هذه الصور والأصنام التى أراكم مقيمين على عبادتها ، والتقرب إليها ، وهو سؤال إنكارى يتعجب فيه إبراهيم من فعل قومه وعبادتهم للتماثيل التى صنعوها بأيديهم على صورة إنسان أو شجر ، أو هيكل ، وهى الأصنام التى كانوا يعبدونها .
ردوا عليه و ﴿ قَالُوا لَهُ ﴾ ﴿ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا هَا عِبِدِينَ ﴾ أى ليس معنا برهان على صحة ما نفعل ، وانما نحن مقلدون لأبائنا فقد وجدناهم يصنعون الأصنام ، ويعبدونها ففعلنا مثلهم .

وكان ردهم على إبراهيم عليه السلام دليل خزيهم لأن العبادة والعقيدة تقوم على الفهم والإقناع ، ولا ينفع التقليد فيها ، ولا يصح أن يكون التقليد أساسا لبناء كبير .

﴿ قَالَ ﴾ لهم إبراهيم عليه السلام ﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى لقد كنتم وأباؤكم بعبادة هذه الأصنام في ضلال واضح جلى ، لأنها أحجار صنعتوها بأيديكم على هيئات ترونها ، ومن الضلال والخطأ عبادتها واتخاذها آلهة :

- فهي حادثة وجدت بعد عدم .
 - وأنتم صانعوها فهي أقل منكم شأنا .
 - وهى لا تسمع ، ولا ترى ، ولا تعى شيئا .
 - وهى متعددة ، ومحدودة في حيز معين .
- وهى بهذا لا يصح تأليها ، وعبادتك لها ضلال بين ، وكفر صريح ، ولا حجة لأبائكم في اتخاذها آلهة ، وعبادتها ولا يجوز أن تقلدوا أبائكم في هذا الضلال الواضح .

ولما رأوا عمق فهم إبراهيم عليه السلام وجراته عليهم سألوه ، و ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ أى بين لنا حقيقتك ، وعرفنا بما تريد وهل تقصد الوصول للحق أم أنك تهزأ وتلعب ، وتعبث . فإن كنت تقصد الحق فأت لنا ببرهان على قولك .

ف ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام لهم : ﴿ بَلْ رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أى قد جئكم بالحق ولست من اللاعبين ، جئت أعرفكم بالله الذى خلقكم ، ورزقكم ، ورعاكم ،

(٧٢٣)

وعرفكم بالطريق المستقيم ، فهو ربكم ، وهو رب العالمين الذى خلق السموات والأرض ، وما بينهما ، وأؤكد لكم أننى مؤمن بالله تعالى ، ومعى براهين الصدق ، وأدلة اليقين بما أقول لكم .

الموقف الثانى

المواجهة العملية

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ اشتدت المناقشة بين إبراهيم عليه السلام وقومه فحاولوا أخذه معهم إلى عيدهم ، فاعتذر عن مرافقتهم ونوى في نفسه الكيد لهذه الأصنام ، فعلم بعضهم بما نوى .
وحدد إبراهيم عليه السلام وقت كيده للأصنام ، وبين أنه سيكون حين يذهبون إلى عيدهم ويتركون خلفهم إبراهيم عليه السلام .

﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا هُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أى أحضر فأسا ، كسر بها الأصنام ، وقطعها جميعا إلا أكبرهم ، عساهم يرجعون إلى صنمهم الكبير ، ويسألونه عن فاعل هذا ليعلموا أن هذه الأصنام كلها لا تسمع ، ولا تتكلم ، ولا تعى ، أو يرجعون إلى إبراهيم عليه السلام يسألونه الحق ، ويدخلونه في دينه .

وكان عدد هذه الأصنام اثنين وسبعين صنما متفاوتة أحجامها ، ومختلفة مكوناتها . فبعضها كان من الذهب ، وبعضها كان من الفضة ، وبعضها كان من نحاس ، أو حديد ، أو رصاص ، أو حجر ، أو خشب .
وكان الصنم الكبير مكونا من الذهب مكللا بالجواهر .

يقول السدى : كان لهم فى كل سنة مجمع عيد ، وكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام ، فسجدوا لها ، ثم عادوا إلى منازلهم ، فلما كان

ذلك العيد قال أزر : يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ، فخرج معهم ، ولما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه ، وقال : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أشنكى برجلي ، فلما مضوا نادى فى آخرهم ، وقد بقي فيهم ضعفاء الناس : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ ﴾ فسمعوها منه ، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهى فى بهو عظيم ، وكان فى أول هذا البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه ، والأصنام بعضها إلى جنب بعض ، كل صنم يليه أصغر منه إلى باب البهو ، وإذا هم قد جعلوا طعاما ، فوضعوه بين يدي الآلهة وقالوا : إذا رجعنا وباركت الآلهة عليه أكلنا منه .

فلما نظر إبراهيم ﷺ إلى الأصنام والى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم مستهزئا : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ؟ ﴾ ، فلما لم يجيبوه قال لهم : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾ ﴿ ١٧ ﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿ ١٨ ﴾ ، وجعل يكسرهن بفأس فى يده حتى إذا لم يبق إلا الصنم الأكبر علق الفأس فى عنقه (١) .

الموقف الثالث

التحقيق مع إبراهيم ﷺ

عاد القوم من عبيدهم إلى أصنامهم فوجدوها مكسرة ، مقطعة فاستاءوا وغضبوا ، و ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى

(١) تفسير المراغى ج ١٧ ص ٤٦ .

قال بعضهم لبعض من فعل هذا بالهتتا ؟ إن من فعل ذلك معتد ظالم يستحق العقاب والمؤاخذة ، ولا بد أن نعرف هذا المعتدى لمعاقبته .

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ أى قال من سمع إبراهيم وهو يتوعد بكيد الأصنام إنه إبراهيم الفتى الذى سمعته يذكر الأصنام بسوء .

فلما بلغ الخبر نمرود ذاك الزمان وأشرف قومه ﴿ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ أى جيئوا به ظاهرا ليراه الناس ، ويحضروا عذابه ، ويحذروا أى عدوان على الآلهة ، أو ليشهد عليه من سمعه يقول سوءا فى الأصنام .

أتوا بإبراهيم عليه السلام ، و ﴿ قَالُوا ﴾ له ﴿ أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِغَاهِتِنَا يَتَّبِرَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ أى أنت الذى كسرت الأصنام ، وتركت كبيرها ، وعلقت الفأس فى رأسه رد إبراهيم عليه السلام عليهم ، و ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ أى أسألوهم فإن نطقوا سيقولون فعل ذلك كبيرهم فعلق بيان الفاعل بنطقهم ، وحيث أنهم لا ينطقون فكل ما تصوره فى نطقهم لا وجود له .

وقيل : إن إبراهيم عليه السلام لما رأى تعظيمهم لهذا الصنم أشد من تعظيمهم لسائر الأصنام الأخرى غضب أشد الغضب ، ففعل ما فعل ، فأسند الفعل إلى الصنم الأكبر لأنه هو الذى هيجه ، وفعل ما فعل ، ومقصده الأسمى إلزامهم الحجة على لطف وجهه ، وأحسنه مع حملهم على التأمل فى الأصنام التى يعبدونها .

سمع القوم رد إبراهيم عليه السلام فلاموا أنفسهم ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ أى عادوا إلى أنفسهم ، ولاموا عبادتهم ﴿ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى قال بعضهم لبعض : إنكم أنتم الظالمون بعبادة غير الله تعالى ، وتجلعون الأصنام آلهة مع أنها لا تتنطق ولا تعي .

﴿ ثُمَّ نَكُسُوهُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ أى تركوا لوم أنفسهم وأخذوا فى اتهام إبراهيم وقالوا له : كيف تأمرنا بسؤالهم وأنت تعلم أنهم لا يسمعون ولا ينطقون .

الموقف الرابع

حكم القوم فى إبراهيم

ونصر الله له

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ لما أقر القوم بفساد ما هم فيه لأن الأصنام لا تسمع ، ولا تتنطق استمر إبراهيم عليه السلام فى توبيختهم ، ولومهم وقال لهم : كيف تعبدون آلهة غير الله تعالى ، وأنتم تعلمون أنها لا تملك خيرا ولا نفعا ، وكيف تدعونها ، وترجونها وهى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تعي .

﴿ أَفَلَا لَكُمْ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى قبحا لكم ، وهلاكاً لكم ولمعبوداتكم التى اتخذتموها من دون الله تعالى .

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من ضلال وكفر وكأنكم فقدتم الفهم والإدراك ؟

وأخيرا أصدروا حكمهم على إبراهيم ، و ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا
 آلَهُتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَعَلِينَ ﴾ أى إن كنتم تريدون نصر آلهتكم فاحرقوا
 إبراهيم بالنار ، وقد اختاروا لعنهم الله هذه الوسيلة فى القتل ليشترك الناس
 جميعا فى الإعداد لها ، ويرون القضاء على إبراهيم ، ويعلموا مقام الأصنام ،
 ويستمرروا فى عبادتها .

لما اجتمع نمrod وقومه لإحراق إبراهيم حبسوه فى بيت ، وبنوا بنيانا
 كالخظيرة بقرية يقال لها "كوثى" بالعراق ، ثم جمعوا له صلاب الحطب ،
 وأصناف الخشب مدة شهر ، حتى كان الرجل يمرض فيقول : لئن عوفيت
 لأجمعن حطباً لإبراهيم ، وكانت المرأة تتذر فى بعض ما تطلب لئن أصابته
 لتحتطبى فى نار إبراهيم ، وكانت المرأة تغزل وتشتري الحطب بغزلها احتسابا
 فى دينها ، وكان الرجل يوصي بشراء الحطب من ماله لإبراهيم ، فلما جمعوا ما
 أرادوا أشعلوا فى كل ناحية من الحطب نارا فاشتعلت النار واشتدت حتى إن
 الطير إذا مر فى سمائها يحترق من شدة وهجها وحرها ، فأوقدوا عليها سبعة
 أيام ، فلما أرادوا أن يلقوا إبراهيم لم يعلموا كيف يلقونه ، فقليل : إن إبليس جاء
 وعلمهم عمل المنجنيق ، فعملوه ، ثم عمدوا إلى إبراهيم فقيدوه ورفعوه على رأس
 البنيان ، ووضعوه فى المنجنيق مقيدا مغلولاً^(١) .

يروى كعب الأخبار أن إبراهيم عليه السلام لما أوثقوه بالجبال ليلقوه فى النار قال
 : لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ، ولك الملك ، لا شريك لك ، ثم رموا به فى
 المنجنيق إلى النار .

فاستقبله جبريل فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٩٦ .

فقال إبراهيم عليه السلام : أما إليك فلا .

قال جبريل عليه السلام : فاسأل ربك .

فقال إبراهيم عليه السلام : حسبي من سؤالي علمه بحالي^(١) .

وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾

قال : قالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقي به في النار وقالها محمد ﷺ

حين ﴿ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ قال كعب الأحبار :

جعل الله كل شئ يطفئ عن إبراهيم النار إلا الوزغ فإنه كان ينفخ في النار^(٢) .

وعن أم شريك أن رسول الله ﷺ : "أمر بقتل الأوزاغ ، وقال : كان ينفخ

على إبراهيم^(٣) .

﴿ قُلْنَا يَنَّاؤُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى أمر الله تعالى

النار ألا تحرق إبراهيم ، وأن تكون بردا وسلاما ، فتركت النار خاصية الإحراق

حتى لا تحرق إبراهيم ، وأمرها الله أن تكون سلاما على إبراهيم حتى لا يموت

إبراهيم من شدة البرد .

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ أى أنهم أرادوا إحراق

إبراهيم بالنار فأخزاهم الله تعالى ، ونجى إبراهيم ، وجعلهم الخاسرين فى الدنيا ،

وفى الآخرة .

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٩٦ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الآداب . باب استحباب قتل الوزغ ج ٤ ص ١٧٥٧ .

(٣) تفسير الخازن ج ٣ ص ٢٩٧ .

(٧٢٩)

- ٣ -

معنى الآيات

تبين الآيات قصة إبراهيم عليه السلام وهو يسأل الناس عن عبادة التماثيل التي صنعوها بأيديهم ، وقلدوا فيها آباءهم ، وهو يرد مزاعمهم ، ويكيد لهذا الأصنام فيكسرها بفأس يعلقها في رقبة الصنم الأكبر الذي أبقى عليه سليما ، ويسألون إبراهيم عن فعله فيستهزئ بهم ، فيقرون إحراقه بالنار فينجيه الله منها ، ويجعلها عليه بردا وسلاما ، يخزي القوم الكافرين .

قصة "إسحاق" و "يعقوب" و "لوط"

عليهم السلام

يقول الله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَاهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٧﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ ﴿٧٨﴾ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَفَسَقِينَ ﴿٨٠﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨١﴾ ۝ ﴾

- ١ -

موضوع الآيات

الآيات تتحدث عن أطراف من قصص لوط وإسحاق ، ويعقوب عليهم السلام ، وتجمع بينهم في حديث مترابط لأن لوطا هو ابن خالة إبراهيم وهاجر معه من العراق إلى الشام ، وإسحاق هو ابنه ، ويعقوب هو حفيده عليهم جميعا الصلاة والسلام .

(٧٣٠)

- ٢ -

بيان القصة من الدلالات اللغوية

﴿ وَجِئْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى

ونجيننا إبراهيم ولوطا عليهما السلام من موطنهما الأول بالعراق إلى مهجرهما بالشام ، وكانا يسكنان بلدة "كوئى" بها ، فلما كفر الناس بإبراهيم وأرادوا إحراقه آمن به لوط عليه السلام وقال : إني مهاجر إلى ربي ، فهاجرا سويا إلى بلاد الشام ، وطوف ببلاد عديدة ثم أقام إبراهيم فى الخليل ، وأقام لوط بـ "سدوم" ... وقد بارك الله فى أرض الشام بالخصب ، وكثرة الأشجار ، والثمار ، والأنهار ، وظهور أنبياء عديدين فيها .

عن أبي قتادة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب : ألا تتحول إلى المدينة ، ففيها مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره .

فقال كعب : إني وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين إن الشام كنز الله من أرضه ، وبها كنز من عباده^(١) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ستكون هجرة بعد هجرة ، فخير أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم"^(٢) . وأراد بالهجرة الثانية الهجرة إلى الشام يرغب في المقام بها .

وعن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "طوبى لأهل الشام فقلت وما ذاك يا رسول الله قال لأن الملائكة باسطة أجنحتها عليها"^(٣) .

(١) جامع معمر بن راشد ج ١١ ص ٢٥١ .

(٢) سنن أبى داود . كتاب الجهاد . باب في سكنى الشام ج ٣ ص ٤ .

(٣) سنن الترمذى . كتاب أبواب المناقب . باب في فضل الشام واليمن ج ٦ ص ٢٢٨ .

(٧٣١)

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ما أفاضه على إبراهيم عليه السلام من النعم ،
وفيها طرف من سيرة إسحاق ويعقوب عليهما السلام ... وهذه النعم هي :

(١) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ أي ووهبنا لإبراهيم إسحق ولدا

ويعقوب ولد ولد ، عطية منا وفضلا ، لا جزاء مستحقا .

(٢) ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ أي وجعلنا كلا من إبراهيم واسحق

ويعقوب مطيعين لله ، متمسكين بدينه ، مجتنبين محارمه .

(٣) ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أي وجعلناهم أئمة يدعون الناس

إلى دين الله تعالى ، وإلى الخيرات بأمرنا واذننا .

(٤) ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ أي وأوحينا إليهم فيما أوحينا ، أن

افعلوا الطاعات ، واتركوا المحرمات .

(٥) ﴿ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ﴾ أي وأوحينا إليهم ، أن أقيموا الصلاة

وآتوا الزكاة ، وقد خصهما بالذكر من بين سائر العبادات ، لأن الصلاة

أشرف العبادات البدنية ، والزكاة أفضل العبادات المالية ، والمال شقيق

الروح ، ومجموع العبادتين تعظيم الخالق والشفقة على المخلوق .

﴿ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴾ أي أنهم كانوا عابدين لله ، مطيعين لأوامره ،

ملتزمين بالخشوع والخضوع له .

(٧٣٢)

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ أى وآتيناه لوطا عليه السلام الحكم ، وفصل الخطاب والحكم بين المتخاصمين ، وآتيناه علما بأمور دينه ، وما يجب عليه ، وأرسلناه إلى قومه فى "سدوم" .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ أى ونجينا لوطا من العذاب الذى أنزلناه على أهل القرية ، لأنها كانت تعمل الخبائث ، وهو إتيان الذكران ، وإهمال النساء شذوذا فى الطبع والسلوك .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴾ أى إن قوم لوط عليه السلام وهم أهل القرية كانوا خارجين عن طاعة الله ، منهمكين فى الحرام ، قد دنسوا أنفسهم بقبيح الأفعال والأقوال .

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى وأدخلنا لوطا عليه السلام فى رحمتنا ، وجعلناه نبيا ، وأرسلناه إلى قومه لأنه من الصالحين فى أقوالهم وأفعالهم

- ٣ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله نجى لوطا وإبراهيم عليهما السلام ومكنهما من الهجرة من بلاد المشركين فى العراق إلى بلاد الخير فى الشام التى بارك الله فيها حيث كثرة الزرع ، والضرع ، وكثرة الرسل ، وقد أكرم الله إبراهيم فأعطاه إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، وقد أصلح الله شأنهما وعملهما ، وجعلهما رسلا وأئمة يهدون الناس بالوحى ، ويقىمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويعبدون الله تعالى وحده ... وقد أتى الله لوطا عليه السلام الحكم والحكمة والنبوة ، ونجاه الله من القرية التى كانت تعمل الخبائث التى أهلكها الله لفسقها وظلمها .

(٧٣٣)

قصة "نوح" ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۚ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن نوحا ﷺ نادى ربه ، ودعاه قبل إبراهيم ﷺ فاستجاب الله دعاءه ونجاه من الغرق ، ونجى أتباعه معه ، وأهلك الله الباقيين بالغرق .

- ٢ -

بيان معنى هذا المقطع من الدلالات اللغوية

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ أى واذكر يا محمد نوحا فقد دعا ربه قبل إبراهيم ﷺ وسألنا أن نهلك قومه لتجذر الكفر والضلال فيهم ، فاستجاب الله دعاءه ، ونجاه وأتباعه من الغرق ، وأمره بصنع سفينة ركبها هو ومن معه ، وجاء الطوفان فأغرق الجميع ما عدا من ركب السفينة مع نوح ، وكان بلاء شديدا ، وكرها رهيبا نجاه الله ومن معه منه .

(٧٣٤)

﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ
سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى أن الله نصر نوحا عليه السلام ومن آمن به على
الذين كفروا بدعوته ، واستهزأوا به وبرسالته فلقد أغرقهم الله بالطوفان لأنهم كانوا
كفاراً أهل سوء وبغى ، فأغرقهم الله تعالى .
وبذلك كان نوح عليه السلام أبا البشرية الثانى ، فقد عمت سالتة من عاش على
ظهر الأرض بعد الغرق .

- ٣ -

معنى القصة

تبين الآيتان أن الله أرسل نوحا عليه السلام إلى قومه فبغوا وكذبوا ، وكفروا بالله
تعالى واستهزأوا بنوح عليه السلام فأهلكهم الله بالغرق ونجى نوحا عليه السلام ومن آمن
معه .

(٧٣٥)

قصة "داود" و "سليمان" عليهما السلام

يقول الله تعالى :

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ
وَكَُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٣٥﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۖ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا
وَعِلْمًا ۖ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۖ وَكَُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٣٦﴾
وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٧٣٧﴾
وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَكَُنَّا بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٧٣٨﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا
دُونَ ذَلِكَ ۖ وَكَُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٧٣٩﴾ ۝

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات طرفا من قصة داود وسليمان عليهما السلام وهما من أنبياء
بنى إسرائيل .

- ٢ -

بيان هذا الطرف

من قصة "داود" و "سليمان" عليهما السلام
من خلال دلالة الآيات

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ
الْقَوْمِ وَكَُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٣٥﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۖ وَانْذِرْ يَا
مُحَمَّدُ قِصَّةَ دَاوُدَ ، وولده سليمان عليهما السلام إذ عرض عليهما قضاء حكم

(٧٣٦)

فيه داود ، إلا أن الله سليمان ﷺ حكم بغير حكم أبيه فقال به داود ، وصدقه ﷺ .

وهذا الحكم متصل بالحرث والزرع الذى أكلته الغنم وأتت عليه ... وبيان هذه القضية أن غنما أقبلت ليلا على مزرعة ، وليس معها راعيها ، فأفسدت الزرع ، وأتت عليه ، فاحتكم أصحاب الزراعة إلى داود ﷺ قائلين له : يا نبي الله ، إنا حرثنا أرضنا وزرعناها ، وتعهدها حتى أن أوان حصادها ، وجاءت غنم هؤلاء القوم ليلا ، فانتشرت في زرعنا ، وأكلته حتى لم يبق منه شئ .

فقال داود لأصحاب الغنم : أحقا ما يقول هؤلاء ؟

قالوا : نعم .

فقال لأصحاب المزرعة : كم تقدرون ثمننا لزرعكم ؟ فذكروا له الثمن ...

فقال لأصحاب الغنم : كم تقدرون ثمننا لغنمكم ؟ فذكروا له الثمن .

رأى داود ﷺ أن الثمنين متقاربان ، فقال لأصحاب الغنم : ادفعوا أغنامكم إلى أصحاب المزرعة ؛ تعويضا لهم عن زرعهم .

وهذا الحكم يؤدي إلى فقدان أصحاب الغنم كل شئ ، وإلى حصول أصحاب الزرع على الأرض ، وعلى الغنم معا .

وهنا يلهم الله سليمان بن داود الحكم الصحيح ، فيستأذن أباه في إظهار حكمه ، فيأذن له ، فيقضي بأن يقوم أصحاب الأرض برعي الغنم ، ويقوم أصحاب الغنم بزراعة الأرض ، فإذا ما جاء وقت الحصاد ، تسلم أصحاب الأرض أرضهم بزرعها ، وتسلم أصحاب الغنم غنمهم بتمامها ... وبهذا يأخذ كل طرف حقه كاملا .

فإن قيل : فما بال أصحاب الأرض يرعون الغنم لأصحابها ؟

(٧٣٧)

أقول : يرعونها ويأخذون صوفها ، ولبنها ، ونتاجها ، جزاء عملهم .
رضي الجميع بهذا الحكم ، وسعد به داود عليه السلام وحكم به ، وعاد عن حكمه الأول .

﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ أى وقدر الله لداود وسليمان حكما صائبا ، وعلما بالحق ، وأرسلناهما لقومهما بنى إسرائيل .
وبعد ذلك أخذت الآيات تبين فضل الله لهما ، ونعمه عليهما ... وهى :

- أولا -

نعم الله على داود عليه السلام

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾
أى وسخرنا الجبال والطير لداود تقديس الله معه بحيث تتمثل له مسبحة ، فيكون ذلك أملك لوجدانه وجميع مشاعره ، فيستغرق فى التسبيح ، وكنا فاعلين لأمثاله ، فليس ذلك ببدع منا وان كنتم أنتم تعجبون منه ، فإن المستغرقين فى التسبيح والتقديس يحصل لهم من الأنس بالله ما يجعل العالم كله خاضعا مسبحا .
﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ أى وعلمنا داود صنعة الدروع ، وقد كانت صفائح فجعلها حلقا ، فتمنع عنكم إذا لبستموها ولقيتم أعداءكم . أذى الحرب من قتل وجرح ونحوهما .
﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ ؟ أى فاشكروا الله على ما يسره لكم من هذه الصنعة التي تمنع عنكم غوائل الحروب ، وتقيكم ضررها وعظيم أذاها .

(٧٣٨)

- ثانيا -

نعم الله على سليمان عليه السلام

ورث الله سليمان من داود ملكه ونبوته وزاده أمرين أشار إليهما بقوله :

﴿وَلَسُلَيْمَنَّ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾

أى وسخرنا لسليمان الريح عاصفة شديدة الهبوب تارة ، ورخاء لينة تارة أخرى .

وفى كل حال منهما تجرى بأمره إلى أي بقعة فى الأرض المقدسة ، فيخرج هو وأصحابه حين الغداة إلى حيث شاءوا ثم يرجعون فى يومهم إلى منزله بالشام .

وقد روي أنه كان له بساط من الخشب يضع عليه كل ما يحتاج إليه من أدوات الحرب كالخيل ، والجمال ، والخيام ، والجند ، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ، ثم تحركه ، ثم ترفعه وتسير به ، وتظله الطير لتقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض ، ثم ينزل وتتخذ الآلات إلى حيث شاء كما قال : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾^(١) ، وقال : ﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾^(٢) .

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ أى فما آتيناها الملك والنبوة وما سخرنا له

الريح تجرى بأمره إلا لعلمنا بما فى ذلك من الحكمة والمصلحة ، وأن قومه سيعرفون نعمتنا فيشكرونا عليها .

(١) سورة ص ، الآية ٣٦ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ١٢ .

(٧٣٩)

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أى وسخرنا له من الشياطين من يغوصون له فى البحار ويستخرجون منها اللؤلؤ والمرجان ونحو ذلك .

﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى ويعلمون له غير ذلك كبناء المحاريب والتماثيل والقصور والجفان ونحو ذلك .

﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أى وكنا حافظين لأعمالهم فلا يناله أحد منهم بسوء ، فكل فى قبضته وتحت قهره لا يجسر على الدنو منه وهو المتحكم فيهم إن شاء حبس وإن شاء أطلق كما قال : ﴿ وَءَاخِرِينَ مُقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾^(١) .

- ٣ -

معنى قصة "داود" و "سليمان"
عليهما السلام

تبين الآيات قصة داود وسليمان عليهما السلام ، وتبين حكمهما فى قصة الحرث والغنم ، وتوضح نعم الله تعالى لكل من داود وسليمان عليهما السلام .

(١) سورة ص ، الآية ٣٨ .

(٧٤٠)

قصة "أيوب" عليه السلام

يقول الله تعالى :

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا وَذَكَرَىٰ لِلْعَبِيدِ ۖ ﴿٢﴾﴾ .

- ١ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان قصة أيوب عليه السلام لما فيها من بلاء وصبر فقد صبر أيوب عليه السلام على ما ابتلاه به ربه فنجاه الله وأزاله عنه .

- ٢ -

بيان هذا الطرف من قصة "أيوب" من خلال دلالة الآيات

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١﴾﴾

أى اذكر يا محمد نبأ أيوب عليه السلام حين دعا ربه ، وقد مسه الضر والبلاء فوصف نفسه بما تستحق به الرحمة ، ووصف ربه بأنه احكم الحاكمين ، فهو الرحمن الكريم المنعم المتفضل .

وقد ابتلى الله أيوب عليه السلام بلاء عظيمًا فصبر ، وتحمل لينال رضوان ربه وقد نزل البلاء بأيوب ففقد ماله ، وأهله ، وولده ، ولم يبق معه إلا زوجته ، وأصيب بعد ذلك في بدنه حتى لم يبق في جسده عضو سليم .

(٧٤١)

وقد عاش أيوب عليه السلام في البلاء مدة طويلة ، اختلف العلماء في تحديدها ، وأقلها في أقوالهم ثلاث سنين ، وأكثرها ثمانى عشرة سنة ... وقد قابل أيوب هذا البلاء بالصبر ، والاستسلام لله ، عبودية وخضوعا .
قالت له زوجته : يا أيوب لو دعوت ربك لفرج عنك ...
فقال لها : لقد عشت سبعين سنة صحيحا ، فهل قليل لله أن أصبر على البلاء سبعين سنة^(١) ؟

وكما اختلف العلماء في تحديد مدة البلاء ، اختلفوا في صورته وأنواعه ، وبخاصة ما كان في بدنه ، ويذهبون في ذلك إلى آراء كثيرة ، وأوصلها الإمام القرطبي إلى خمس عشرة صورة .

والذي أراه . والله أعلم . أن الله ابتلى أيوب عليه السلام فصبر حتى صار يضرب بصبوره المثل ، وكان مما ابتلى به المرض ، وأراه مرضا لا ينفر الناس منه ، ولا يلحق به نقصا في شخصه ، فهو عليه السلام رسول ، مكلف بدعوة الناس ، ولو كان به نقص ذاتي ، أو مرض منفر ، لاعتذر الناس به عند الله ، وكان لهم عذرهم في أن الذي نفرهم هو المرض .

ولذلك فهو مرض لا ينفر ، كالروماتيزم ، وآلام العظام ، والضعف العام وهكذا ... والابتلاء متحقق بهذه الأمراض التي لا تنفر ، كما يتحقق بغيرها ، والضرر به لشدة ، ولمدته الطويلة ، وحينما قال الله له : ﴿ أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ ﴾^(٢) ضربها ، ولم يكن عاجزا .

وأي فائدة تترتب على إلقائه في مزبلة ، أو امتلاء جسده بالدود ، أو تقيح جسده ، أو عبث الدواب به ؟ لا فائدة في كل هذا ؟ والأنبياء والرسل كرام عند الله تعالى .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٨٨ .

(٢) سورة ص ، الآية ٤٢ .

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَاَنشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَاَتَيْنَاهُ اَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ

مَعَهُمْ ﴾ أى استجاب الله لأيوب عليه السلام ورفع عنه المرض والغمة ، وأعاد له أهله ومثلهم معه .

وللعلماء في إعادة أهله له ، أقوال متعددة :

الأول : أن الله أحياهم بأعيانهم ، وآتاه مثلهم في الدنيا ، وينسب هذا القول إلى ابن عباس وابن مسعود ومجاهد رضي الله عنهم .
الثاني : أن الله تعالى خيره بين إحضارهم بذواتهم ، أو تركهم في الجنة على أن يؤتى له بأمثالهم ، فاختر بقاءهم في الجنة ، واحضار أمثالهم له في الدنيا .

الثالث : أوتي أجرهم في الآخرة ، وأعطي أمثالهم في الدنيا^(١) .

ومع الآراء الثلاثة ، فقد أوتي بأمثالهم ، وضاعف الله في نعمه ... ومن عجيب قدر الله أن زوجته لما جاءت به بعد أن اغتسل ، وألبسه الله حلة من الجنة لم تعرفه ، فقالت له : يا عبد الله ، أين ذهب هذا المبتلى الذي كان ههنا ؟ فوالله القدير ما رأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحا ، فقال لها : فإني أنا هو ، وأعاد الله لزوجته شبابها ، وأنجبت له عددا من الأولاد .

﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ أى نجينا أيوب من الغم

رحمة من الله ، وتذكرة للمؤمنين ليصبروا كما صبر أيوب عليه السلام وليعلموا أن النصر مع الصبر ، وأن مع العسر يسرا .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٨٩ ، ١٩٠ . وقد رجح الرازي في تفسيره الرأي الأول ج ١٣ ص ٢١٥ .

(٧٤٣)

- ٣ -

معنى قصة "أيوب" عليه السلام

تبين الآيات أن الله ابتلى أيوبا ببلاء شديد فصبر ودعا ربه فأكرمه الله ونجاه من البلاء وأعاد له صحته وأهله وولده رحمة منه سبحانه وتعالى ، وذكرى لأولى الألباب ليصبروا ، ويحتسبوا .

قصة "إسماعيل" و "إدريس" و "ذى الكفل" عليهم السلام

يقول الله تعالى :

﴿وَأِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ .

- ١ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان طرفا يسيرا من قصص إسماعيل وإدريس وذى الكفل عليهم السلام .

- ٢ -

المعاني المقصودة من الآيات

﴿وَأِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي واذكر نبأ هؤلاء الرسل الكرام الذين صبروا على ما ابتلاهم الله به وأخبتوا له ، فقالوا رضاه وأدخلهم الله جنته .

(٧٤٤)

(١) أما إسماعيل فإنه صبر على الانقياد للذبح ، وصبر على المقام ببلد لا زرع فيه ولا ضرع ، وصبر على بناء البيت ، وتكلف المشاق في ذلك وقد أكرمه الله فأخرج من صلبه خاتم النبيين .

(٢) وأما إدريس عليه السلام فهو موضع التجلة والاحترام لدى قدماء المصريين وهو المسمى عندهم "أوزيس" ويزعم كثير من الناس أنه أول من خاط الثياب ، ولبس المخيط ، وكانوا من قبل يلبسون الجلود ، وأول من اتخذ السلاح عدة .

(٣) وأما ذو الكفل . والكفل : الحظ والنصيب . فقد اختلف العلماء في شأنه فمن قائل إنه نبي وهم الأكثرون ، وقالوا إنه ابن أيوب عليه السلام ، بعثه الله نبيا بعد أبيه وسماه ذا الكفل ، وأمره بالدعاء إلى توحيد الله ، وأقام عمره بالشام . وقال أبو موسى الأشعري ومجاهد : لم يكن نبيا بل كان عبدا صالحا استخلفه اليسع عنه على أن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب ففعل .

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي وأدخلنا

كل هؤلاء جنات النعيم جزاء لهم على ما فعلوا من صالح الأعمال .

- ٣ -

معنى هذا القصص

تبين الآيات أن إسماعيل وإدريس ، وذا الكفل صبروا وتحملوا فأكرمهم الله بالنبوة ، وأدخلهم في الصالحين من عباده .

(٧٤٥)

قصة "ذی النون"

يقول الله تعالى :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَخَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّضُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيتين

الآيتان تبينان طرفا من قصة يونس عليه السلام الذي سماه الله صاحب الحوت .

- ٢ -

معانى قصة "يونس" من خلال دلالة الآيات

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا ﴾ "ذو النون" هو يونس عليه السلام وقد

اشتهر بأنه صاحب الحوت . والمعنى اذكر يا محمد يونس عليه السلام حين بعثه الله إلى أهل نينوى ، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته ، فأبوا عليه ، وتمادوا في كفرهم فتركهم مغاضبا لهم ، وأنذرهم بعذاب الله تعالى الذى سيأتىهم بعد ثلاثة أيام ، فلما تحققوا من صدقه ، وأن العذاب نازل بهم لا محالة وعلموا أن الرسول لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم . ثم تضرعوا إلى الله ، ودعوا الله أن ينقذهم بما هم فيه .

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم فى سفينة ، فلما وصلوا اللجة تكفأت بهم وأشرفوا على الغرق ، فاقترعوا على رجل منهم يلقونه فى البحر يتخفون منه ، فوقع القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوها فوقع

(٧٤٦)

القرعة عليه أيضا فأبوا ، ثم أعادوها فوَقَّعت عليه أيضا كما يرشد إلى ذلك قوله : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾^(١) .

ثم قام يونس وتجرد من ثيابه وألقى بنفسه في البحر ، فأرسل الله إليه حوتا يشق البحر فالتقمه .

يفسر العلماء ذهابه مغاضبا بما يليق بمقام النبوة بعدة أوجه :

الأول : أن المعنى ذهب مغاضبا من أجل ربه ، والمؤمن يغضب الله إذا عصي أمره ، وترك طاعته .

الثاني : أنه غضب على قومه من أجل كفرهم ، واشتد عليهم وفر منهم ولم يصبر على أذاهم .

الثالث : أنه ترك الناس وذهب مغاضبا للملك الذي يتولى أمور الناس ؛ لأنه لم يكن معه في دعوته لهم^(٢) ، ووقف منه موقفا سلبيا .

وأحسنها الرأي الأول ... وتدل هذه المغاضبة أيا كان المراد بها ، على ضيق صدر "يونس" ، وأنه لما تحمل أمر النبوة قام به بمشقة وعسر ؛ ولذلك لم يصبر على قومه ، وكان يتوعدهم بالعذاب يحل بهم ، فلما أظلمهم العذاب تركهم ، ولكنهم تابوا فرفع الله العذاب عنهم ، وعانتب الله يونس لأنه تعجل بتركهم^(٣) .

﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أى ظن يونس عليه السلام حين ترك قومه وهجرهم أن الله يضيق عليه بالجنس أو بغيره . إلا أن الله قضى عليه بالمكث في بطن الحوت ، فتاب إلى الله بها .

(١) سورة الصافات ، الآية ١٤١ .

(٢) كان الوحي ينزل على أنبياء بني إسرائيل ، ويتولى الحكم والسياسة الملوك .

(٣) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٣٢٩ .

﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ

مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي أنه عاش في بطن الحوت ، وعاش ظلمة الليل ،

وظلمة البحر ، وتاب ﷺ عما خالف فيه من ترك دعوة قومه وعدم الصبر عليهم ، وضجره من كفرهم ، وسأل الله أن يفرج عنه ما هو فيه .

لما محصه الله تعالى ، وأدبه ، وعلم صلاته ، وتسبيحه أمر الحوت أن يقذفه على الساحل ، فقذفه ضعيفا ، نحिला ، يقول الله تعالى : ﴿فَأَسْتَجَبْنَا

لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّضُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، ونجاه الله تعالى إلا أنه كان عاريا يحتاج لستر ، وظل ، وطعام ، وشراب ، وأتم الله تعالى فضله عليه .

وما نزل بـ "يونس" ﷺ تمحيص وتأديب ؛ ولذلك كانت رحمة الله معه وجرت أقدار الله لتحقيق مراده سبحانه وتعالى ، في إعادته لدعوة الناس ، بعدما عاش هذه المدة سجيناً في بطن الحوت .

ولا ينبغي لأحد من الناس أن يتصور نقصاً بـ "يونس" ﷺ فهو رسول الله ﷺ . يقول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما : "ما ينبغي لعبد أن يقول : إني خير من يونس بن متى" (١) .

ويقول الحافظ ابن حجر : "خص يونس بالذكر لما يخشى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيص له ، فبالغ في ذكر فضله لسد هذه الذريعة" (٢) .

(١) صحيح البخاري . باب ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ج ٦ ص ٤٥٠ .

(٢) فتح الباري ج ٦ ص ٤٥٢ .

(٧٤٨)

- ٣ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن يونس عليه السلام غاضب قومه وهاجر إلى الله تعالى وتركهم فابتلعه ، وبقي وعاش في ظلام فدعا ربه فنجاه من الغم لإيمانه ، وصلاحه ، وتقواه .

قصة "زكريا" و "يحيى" عليهما السلام

يقول الله تعالى :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٨﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۚ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٨٩﴾ ۝ ﴾

- ١ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان دعاء زكريا ربه أن يرزقه ولدا يرث عنه الدين والعلم فاستجاب الله له وأصلح زوجته ، ووهب لهما يحيى عليه السلام بسبب مسارعتهما للخير ، ودعاءهما الله في خشية ورهبة وخشوع .

- ٢ -

بيان القصة

من خلال دلالة الآيتين

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾
أى واذكر يا محمد خبر زكريا حين طلب أن يهيه الله ولدا يكون من بعده نبيا .

فنادى في خفاء وستر ربه ليهبه ولدا حتى يرثه ويرث نبوة آل يعقوب .

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ أى فاستجبنا

لذكرى سؤاله ، وأزلنا عن زوجته موانع الحمل ، ووهبنا لهما يحيى عليه السلام .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ أى قد استجاب الله

دعاء ذكرى عليه السلام لأنه كان وزوجته يسارعون فى الطاعة ويتقربون إلى الله بصالح الأعمال .

﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ أى كان ذكرى وزوجته يعبدان الله فى حب

وخوف راجين الفوز بالجنة ، خائفين من عذاب النار .

﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ وكانوا لنا متذللين خاشعين عابدين .

- ٣ -

معنى القصة

تبين الآيتان أن ذكرى عليه السلام بعد أن شاخ عمره ، وأيست زوجته وكانت

عقيما دعا الله ليرزقهما ابنا صالحا يحرث عنهما العلم والنبوة ... وتبين الآيتان

أن الله استجاب لذكرى دعاءه ، ورزقه يحيى عليه السلام هبة وعطاء من الله تعالى .

(٧٥٠)

قصة "مريم" و "عيسى" عليهما السلام

يقول الله تعالى :

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً
لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

تبين الآية طرفا من قصة مريم وابنها عليهما السلام . فقد جعلها الله تعالى وابنها آية شاهدة على وحدانية الله ، وقدرته للإنس والجن .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ واذكر يا محمد مريم عليها السلام . فقد أحصنت فرجها ، واعتزلت الرجال ، وانقطعت للعبادة فقد نفخ الله فيها من روحه فحملت بـ "عيسى" ﷺ بلا قرب من الرجال .
﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أى وجعلنا مريم وابنها عيسى عليهما السلام من آيات الله الكبرى .

فقد حملت مريم عليها السلام بعيسى بغير اقتراب رجل منها ، وأن الله يأتينا برزقها رغدا بقدرته .

وأما عيسى ﷺ فقد تكلم فى المهد وبرا أمه ، وآتاه الوحي صغيرا .
وقد جعل الله آيات مريم وعيسى عليهما السلام للعالمين من الإنس والجن إلى يوم القيامة .

(٧٥١)

- ٣ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان آية الله في مريم عليها السلام ، وابنها عيسى عليه السلام ، وقد أبقي آياتهما في كلام الله المنزل ، وحفظه للعالمين .



الركائز المستفاد

من قصص السابقين

يمكننا أن نستفيد من قصص الرسل المذكورين في سورة "الأنبياء" عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

نصر الله للدعاة والمؤمنين

الدين كله لله تعالى ، والخلق جميعا عبيده ، وقد أرسل الله بعباده رسلا وأنزل كتبه ، وفصل لهم دينه ومنهجه .

وجادت عادة الناس انقسامهم أما دين الله تعالى فمنهم المؤمنون ، ومنهم الكافرون ، ومن سنة الله في الناس أن جعل في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ ^(١) .

وبهذه السنن عاشت الإنسانية في تاريخها ، وتكرر القصص القرآني في أطر ثابتة كأنها واحدة ، فكل رسول أرسله الله تعالى يدعو الناس إلى توحيد الله تعالى ، وقصر العبادة له ، والدعوة إلى ترك عبادة الأصنام وعدم تأليهها جاء كل رسول يدعو إلى هذه القضية الثانية في كل الدعوات ويبحثها يوجد بعض

(١) سورة الأنعام ، الآية ١١٢ .

المؤمنين ، وكثير من الكافرين ... ويستمر الصراع بين الفريقين إلى أن ينتهى بنصر الله تعالى للمؤمنين ، والهزيمة الساحقة للكافرين .

هذا النمط المكرر مع سائر الرسل يدلنا على ركيزة كبرى ، وهى الإيمان بأن انصر بيد الله ، ينصر عباده المخلصين . فقد نصر رسوله ، وأعلى دعوتهم ، ومكن لهم فى الأرض هزم عدوهم ، وخذله .
ولهذا ...

يجب على الدعاة أن يلتزموا بدين الله ويعلموا دينهم ليعلموه لغيرهم ويتركوا أى مخالفة لدين الله تعالى .

على الدعاة أن يكونوا أمثلة أمام المدعويين ، ويخلصوا دعوتهم لله ويعلموا أن الله ينصر المخلصين من عباده . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ ^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ^ط وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ^ط أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ^(٢) .

الركيزة الثانية

أهمية حسن عرض الدعوة

الدعاة وهم يقومون بواجب يخاطبون عديدا من الناس ، تختلف مشاربهم وتتنوع ثقافتهم ، وتوجهاتهم ، ولذلك وجب على الدعاة أن يختاروا من الأساليب ، والقضايا ما يناسبهم المدعويين ، فهم المقصودون بالخطاب وهم مجال نجاح الدعوة .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٧ .

(١) سورة غافر ، الآية ٥١ .

(٧٥٣)

وبعد إبراهيم عليه السلام نمونجا للدعاة فى استخداماه الواقع ، وربط الناس به دليلا يسوقه إليهم ... نجده عليه السلام يستعمل أسلوب الاستفهام مع قومه ، وهو فى نفس الوقت ينكر ما يفعلون .

كافة الوسائل التى تمكنه من تبليغ دين الله للناس الذى أرسل إليهم به .
فلقد استفاد بوسيلة الاتصال الشخصى ، ويراد بها التوجه إلى أشخاص معروفين ، ومخاطبتهم فردا فردا .

وللاتصال الشخصى فائدة ، وهو أن الداعي يطلع على أثر دعوته فيمن مخاطبه ، ويمكنه مناقشته فى الشبه التى يثيرها معه ... ومن فوائده أنه يدفع العقل إلى التفكير والنظر بعيدا عن الجماعة .

استفاد إبراهيم عليه السلام بهذا الأسلوب فدعا أباه ، ودعا الملك على ضوء ما فهمنا من القرآن الكريم .

وتوجه إبراهيم عليه السلام إلى الناس بوسيلة الاتصال الجمعي ، ويراد به مخاطبة جمهور من الناس بواسطة ، أو بغيرها ، سواء كان اجتماعهم وفق نظام وخطة ، أو بصورة تلقائية دعا إبراهيم عليه السلام قومه وهم مجتمعون فى يوم عيدهم ، وبين لهم هوان آلهتهم وفسادها .

ودعا إبراهيم عليه السلام بالوسيلة العملية بعد أن كسر الأصنام ، ووضح لهم أنها آلهة لا تنفع نفسها ، ولا ترد عدوانا يقع عليها ، ودعاهم إلى ترك عبادتها وعبادة الله وحده .

ولما خاطب عبدة الكواكب ، اتخذ من الكواكب نفسها وسيلة توضيحية تشرح عدم استحقاتها للعبادة أبدا .

والمجارة فن ناجح فى الدعوة إلى الله تعالى ، وهو أن يسلم الداعية للمخاطب ظاهرا بما يؤمن به ، ويجعل نفسه شريكا له فى معتقده ، ثم يأخذ فى التساؤل عن هذا المعتقد ؛ ليظهر حقيقته ، ويوضح مدى قربته أو بعده عن الحق .

(٧٥٤)

لقد اتبع الغزالي هذا المنهج حينما شك في كل المذاهب ، وأخذ يناقش أصحاب كل مذهب بأسئلة يظهر بها فساد المذهب ، حتى وصل إلى المذهب الحق ، ووضع منهج الإنقاذ من الضلال .
وهذا لون من المجازاة ...

اتبع إبراهيم عليه السلام هذا المنهج مع من دعاهم إلى الله ، وقد أورده القرآن الكريم للعبرة والفائدة .
إن الدعاة إلى الله تعالى يأخذون من الرسل قدوة لهم ، ويعملون بهذه القدوة إلى تبلغ دين الله للناس .

الدين الحق انقياد لله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۚ وَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ۚ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ۚ وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرِيَّةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۚ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة طرفا من قصص رسل الله ، وبينت إنجاء الله لهم من ظلم وعدوان الطغاة الظالمين جاءت هذه الآيات لبيان أن دين الله واحد ، وقد اتفق الأنبياء والرسل على ذلك ... ثم بينت الآيات تفرق المسلمين إلى شيع وأحزاب ، وبينت أن الله سيحاسب كل إنسان بما قدمت يداه .

(٧٥٥)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن البشرية أمة واحدة ، وأن الله رب العالمين ، وتوضح انقسام المسلمين إلى فرق وشيع ، وأن الله سيحاسب كل إنسان بما يستحقه في الآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى أن الدين عند الله واحد لأنه يعنى الاستسلام لله ، والانقياد له ، وتطبيق منهجه سبحانه وتعالى فى عباده ، وبين خلقه ... أما أحكام الأحداث فهى تنتوع بتنوع الأمم إلا أنها تقوم على مبدأ العبودية لله تعالى .

﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ وأنا الخالق الرازق فاخلصوا لى العبادة وانقادوا لأمرى ، واتبعوا دينى .

﴿ وَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ أى أن المسلمين فرقوا أمرهم ، وصاروا فرقا شتى كل فرقة تشيد بمفاخرها ، وتدعى صواب رأيها ، وثثم غيرها ، ولم يستفيدوا بالأمم السابقة ، وكيف بعدت عن الله ، وكيف أهلكها الله تعالى .

﴿ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ أى أن جميع الخلق سيرجعون إلى الله تعالى وسيحشرهم للحساب والجزاء .

وهذا إخبار بالغيب بين الله فيه حال الأمة فى مستقل أيامها بعد عصر رسول الله ﷺ ، ولذلك جاء بعده بما يفتح باب الفوز للعاملين ليستقيموا على صراط الله المستقيم فقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ

(٧٥٦)

مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدٍ وَإِنَّا لَهُ كَنُتُوبٌ ﴿٧٥٦﴾ أى أن الله تعالى لا يضيع عمل عامل ، فمن آمن بالله تعالى ، وعمل صالحا . فقد سلمت عقيدته وظهرت شريعة الله في علمه وقوله وعمله ، وسوف يجازيه الله الجزاء الأوفى . فقد أحصى كل عمله ، وأعد له كتابا جامعا شاهدا لحياته كلها .

﴿وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أى وقد قضى الله تعالى على الأمم الهالكة أن تعيش معذبة فى قبرها إلى يوم البعث ، ولا ترجع إلى الدنيا مرة أخرى .

وبذلك تحددت قيمة الدنيا ، وقيمة الآخرة ، ومن مات لا يعود إلى الدنيا مرة أخرى إلى أن يأذن الله له للبعث ، للحشر ، والجزاء .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن دين الله واحد ، وأن البشر جميعا عبيده ، وقد خلقهم سبحانه وتعالى لعبادته .

وتوضح الآيات أن داء الفرقة والانقسام سيوجد فى الأمة الإسلامية حيث يعتز كل فريق برأيه ، ويفرح بما ذهب إليه إلا أن الحق لا يضيع عند الله تعالى ... فمن آمن وعمل صالحا ، واستقام على أمر الله تعالى فسوف يجازيه الله جزاء طيبا ، ولن يضيع له عمل صالح ، وسيبقى عمله مدونا مكتوبا ... ولن يعود إلى الدنيا من فارقتها ، وسيدوم فى قبره حيث يكون قبره روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار .

(٧٥٧)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

دين الله واحد لا يصح الاختلاف فيه

الله إله واحد ، أنزل دينه الواحد على رسله جميعا ، وعرفهم القضايا الثابتة في دينه ، وعرفهم بالمتغيرات التي تأتي مناسبة لأحداث وواقع نزولها .
وكان على الناس أن يتمسكوا بالثوابت ، وهى أركان العقيدة ، فالله واحد لا شريك له ، والرسول بشر اختارهم لتبليغ دينه وفق الوحي المنزل عليهم ليعرفوا ما لهم من حقوق ، وما عليهم من واجبات ، وهذه الثوابت هى المرادة من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾^(١) ، ومن قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾^(٢) .

إلا أن الضعف الإيماني ، وأراجيف الشياطين فرقت الناس في هذه الحقيقة الثابتة بالعقل والوحي ، فحرف البعض جزءا منها ، وادخلوا في العقيدة ما ليس منها وضلوا ضلالا بعيدا .

كان على الأمة الإسلامية أن تبقى على هذه العقيدة الواحدة لتعيش أمة واحدة كما أمرها الله تعالى إلا أن الأهواء فرقته . فتقطع شملها ، وتحولت إلى فرق شتى ، وفي كل يوم نرى المزيد من الخلاف والتنازع .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩ .

(٢) سورة الشورى ، الآية ١٣ .

(٧٥٨)

من الممكن تصور الخلاف الفقهي ، فهو رحمة للناس ، وكله مستمد من رسول الله ﷺ نصا أو اجتهادا ، إلا أن الخطر الأكبر امتد إلى الثوابت الدينية .
والواجب :

العودة إلى الحق ، والتمسك بالدليل الشرعي ، وأخذ دين الله من العلماء
الثقات .

الركيزة الثانية

تأكيد العدل في الحكم والجزاء

الدنيا مزرعة الآخرة . فمن زرع حصد ، ومن قدم وجد ، ومن دان نفسه
وعمل لما بعد الموت فاز ونجا .

إن التكليف في الدنيا يقوم على دعامتين لا بد منهما :

أولاهما : الإيمان التام بأصول الدين إيمانا يلامس شغاف القلب ، ويحرك
الوجدان ، وينطلق من عالم الباطن إلى الظاهر ، ليصير قولاً في اللسان ،
وخلقاً في السلوك ، ونورا في الحياة .

ثانيهما : التزام العمل الصالح ، ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان
موافقاً لشرع الله ، ملتزماً بتعاليم الإسلام مفيداً لصاحبه وللناس أجمعين .
وبهاتين الدعامتين يكون المسلم عبداً لله تعالى .

ليس من العبودية الصحيحة أن يعيش الإنسان التوحيد في عالم الثقافة
النظرية ، والفكر المجرد بعيداً عن التطبيق في عالم الواقع .

وليس من العبودية الصحيحة أن يحاول العابد إقناع نفسه بخيرية دينه
بالمقارنة بالنظم الأخرى ... لأن مصدر الخيرية في الحقيقة هو الله تعالى ،
والمؤمن به لا يحتاج لمقارنة .

لقد أكرم الله رسله بهذه العبودية ، فوصفهم بها ، وكانوا أحق بها ، وأهلها يقول تعالى : ﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ۚ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝ ^(١) ۚ وَيَقُولُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَادْخُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۝ ^(٢) ۚ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۝ ^(٣) ۚ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ۝ ^(٤) ۚ وَيَقُولُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ ۚ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝ ^(٥) ۚ وَيَقُولُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَادْخُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝ ^(٦) ۚ وَيَقُولُ تَعَالَىٰ : ﴿ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ ^(٧) ۚ

ولقد دعا رسل الله عليهم السلام أقوامهم إلى عبادة الله الواحد ، الأحد ، واستمروا عليها مع امتداد الزمن ، وتباعد المكان .

وحينما ننظر إلى هذا الموكب المتتابع لرسل الله ، واجتماعهم حول هذه القضية ، ندرك على الفور أهمية هذه القضية ، التي التقوا حولها ، وعاشوا جميعا لها .

وندرك كذلك أن ذكر القرآن الكريم لهذه الدعوات أمر مقصود ، أراد الله به أن يوقظ همم الأمة الإسلامية ، ليؤمنوا بالله إلها واحدا ، ويخصوه وحده بالعبادة ، ويعبدوه بما أمر وشرع ... وكأن هذه التجارب أدلة مثبتة لصدق ما دعا إليه الرسل عليهم السلام ...

(١) سورة ص ، الآية ١٧ .

(٢) سورة ص ، الآيات ٤٥ . ٤٧ .

(٣) سورة ص ، الآية ٣٠ .

(٤) سورة ص ، الآية ٤١ .

(٥) سورة الإسراء ، الآية ٣ .

(٧٦٠)

على المسلمين أن يستفيدوا بها ، ويأخذوا منها ما ينفعهم في حركة الدعوة إلى الله تعالى .

وقد يتصور البعض أن دعوة الرسل عليهم السلام لأقوامهم ، كانت سهلة ميسرة لقلة الناس ، ولصلتهم برسولهم ... قد يتصور البعض ذلك إلا أن الواقع يؤكد غير ذلك ، فلقد واجه الرسل ، المأ والجباية ، وأعداء الحق ، وأخلصوا في دعوتهم وأدوا ما عليهم من واجب ، وتركوا الأمر لله بعدما بذلوا كل ما أمكنهم من بيان ، وتوضيح .

مصير الكافرين في الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْوِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٧٧﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءِ إِلَٰهَةً مَّا وَرَدُوها ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٨﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٧٩﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن يوم القيامة هو يوم الجزاء العادل ، وأن من مات فقد قامت قيامته جاءت هذه الآيات لبيان مصير الكافرين في الآخرة .

(٧٦١)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الكافرين فى الآخرة يعيشون العذاب الأليم ، وأنهم يقرون بقصورهم ، وغفلتهم ، وظلمهم لأنفسهم إلا أن هذا الإقرار لن يفيدهم . فقد جعلهم الله وأصنامهم التى عبدوها حطب جهنم ، يدومون فيها ، ولو كانت آلهتهم صادقة لمنعوا أنصارهم من دخول جهنم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ حَتَّىٰ ۚ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ

يَنْسِلُونَ ﴾ أى ويستمر بقاء المشركين فى قبورهم ، وعدم خروجهم منها حتى تقوم القيامة ، ويفتح سد يأجوج ومأجوج ، ويأتون الناس سراعا من كل مرتفع من الأرض ، ويبعثهم الله تعالى ويسوقهم إلى أرض المحشر .

﴿ وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

أى وقد قرب مجئ يوم القيامة ، حيث تصيب الدهشة الكافرين فتشخص أبصارهم ، ولا تغمض أجفانهم ، ويقولون : ﴿ يَوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى يا هلاكنا أحضر إلينا . فقد كنا فى غفلة من هذا المصير الذى عرفنا الله به ، وبين لنا ضرورة البعث الذى ظلمنا أنفسنا بإنكاره ، وعدم الاستعداد له .

إن الآية تثبت حتمية البعث ، وأن منكبيه سينالهم خزي فى الآخرة ، وسيقرون بغفلتهم عن الحق ، واعترافهم به فى وقت ذهب زمانه ، وذكرت الآية فتح سد يأجوج ومأجوج وجعلته رمزا لاختلال الأرض وخرابها .

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا

وَرْدُونَ﴾ أى إنكم أيها المشركون بالله تعالى ، ومعكم آلهتكم التى عبدتموها

وقود جهنم التى ستردونها ، وتدخلون فيها .

والحكمة فى إدخال الأصنام فى جهنم مع من عبدها أنهم كلما رأى الكفار

أصنامهم معهم ازدادوا غما وحسرة ، لأنهم لم يعذبوا بنار جهنم إلا بسببها .

وأنهم كلما رأى الكفار أصنامهم معهم علموا خبال عقولهم ، وسوء فهمهم

، فلقد كانوا ينتظرون شفاعتهم فى الآخرة ، ويتصورون منهم النفع فإذا هم

يرونها لا تملك لنفسها شيئا ، ولا تملك لغيرها أى شئ .

وأنهم عندما يلقون مع أصنامهم فى النار يعلمون أنهم لا قيمة لهم ، وأن

ذلك يعد استهزاء بهم ، وبآلهتهم ، واطهار أن هذه الأصنام ليست بآلهة أبدا .

﴿لَوْ كَانَتْ هَتُؤَلَاءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُّوَهَا﴾ أى لو كانت الأصنام آلهة

كما زعمتم ما وردوا جهنم وما دخلوها ... لكنهم دخلوها ، الأمر الذى يؤكد أنها

لا تنفع نفسها ، ولا غيرها والقول بألوهيتها زعم باطل مردود .

﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى وكل الأصنام ومن عبدها سيدخلون النار

ويستمررون فيها .

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أى أنهم فى النار تتقطع أنفاسهم من شدة ما ينالهم

من العذاب .

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أى وهم فى النار لا يسمعون ، ولا

يدركون غيرهم .

(٧٦٣)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أنه فى يوم القيامة ينفتح السد الذى يحجز يأجوج ومأجوج فيقدمون سراعاً إلى المحشر ، وتزلزل الكائنات ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وحينئذ يقر الكافرون بظلمهم وغفلتهم ، وفى يوم القيامة يفاجأ المشركون بعذاب الله فلا تغمض لهم عين ولا يسمعون ، ويجعل الله الأصنام وعبدتها وقوداً لجهنم ، ولو كانت الأصنام آلهة ما دخلت النار ، ولنصرت نفسها .

إن عبدة الأصنام تنقطع أنفاسهم ، ولا يسمعون شيئاً لما هم فيه من هم وحزن وألم ، ويخلدون فى جهنم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

توضح الآيات ركيزة هامة ... هى :

سوء مصير الكافرين فى الآخرة

يجئ يوم القيامة بهوله مفاجئاً للناس أجمعين ، ويقابله كل إنسان بما كان يؤمن به ، فالمسلمون يقابلونه بالرضا ، ويسعدون بما أعد الله لهم . والكافرون والعصاة يفاجأون به لأنهم لم يكونوا يؤمنون به ، ولم يتوقعوا مجيئه ، ولذلك يصيبهم الذهول ، ويسيطر عليها الاضطراب والهول ... تراهم ينظروا بعيونهم إلى كافة مشاهد القيامة لا يغمض لهم جفن ... ويرون يأجوج ومأجوج يأتون من كل جهة وحينئذ يقرّون بأنه ظلموا أنفسهم ، ويدعون بالهلاك والثبور لذواتهم فقد أصموا آذانهم ، وأعموا أعينهم ، وختموا قلوبهم بالغشاوة ما استحقوا اليوم ما هم فيه .

(٧٦٤)

هل يتأمل الناس فى هذا المصير ، ويعملوا للنجاة منه . يقول الله تعالى :
﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفَى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾^(١) .

مصير المؤمنين فى الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١﴾ لَا
يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿٢﴾ لَا تَحْزَنُهُمْ
الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ۖ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنْتُمْ
تُوعَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة مصير الكافرين جاءت هذه الآيات لبيان مصير
المؤمنين فى الآخرة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات المصير الذى أعده الله للمؤمنين فقد أبعدهم الله عن النار ،
وأدخلهم الجنة التى رغبوها ، لا يخافون من صوت النفخة الثانية ، وتتلقاهم
الملائكة بالبشرى والسلام ، ويعيشون الأمان والطمأنينة فى يوم يتزلزل الكون
وتتبدل الأرض والسموات بغيرهما ، ويتحقق البعث ، والحساب والجزاء .

(١) سورة العصر .

(٧٦٥)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ أى

إن الذين وفقهم الله تعالى للطاعة ، وجعلهم من عباده ، المستقيمين على منهجه المتمسكين بدينه وهديه أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وأبعدهم عن النار ، ونجاهم من هولها وآلامها .

إن هؤلاء المؤمنين الصالحين يعيشون سعادة غامرة فى الآخرة لأن الله يحقق لهم جزاء طيبا ... هو :

(١) البعد التام عن آثار النار :

يقول الله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أى ينجيهم الله من

النار ، ويبعد عنهم صوتها المفزع ، ولا يرون شدة توهجها واضطرابها ولا يزعجهم صوت المجرمين المعذبين فيها .

(٢) الحصول على كل ما يرغبون :

يقول الله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِي مَا آسَتْهتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ أى أن

هؤلاء المؤمنين يضعهم الله تعالى فى كل ما يرغبون ، ويحقق لهم ما يتمنون ويشاءون فهم فى روضة غناء فى غرف الجنات ، ولهم الحور العين ، وحولهم الأنهار ، والأشجار ، والنعيم الدائم المستمر .

(٣) النجاة من هول البعث :

يقول الله تعالى : ﴿ لَا تَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ أى أن الله ينجيهم من

أهوال يوم القيامة الذى يبدأ بالنفخة الأولى ويستمر فى البعث ، وفى النشر ، وفى الحشر ، وفى السؤال إلى أن يتم دخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار بالنار .

(٧٦٦)

إن هول يوم القيامة شديد ... يقول الله تعالى :

- ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾^(١) .

- ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾^(٢) .

(٤) الاستقبال الجميل فى الجنة :

يقول الله تعالى : ﴿ وَتَلَقَّوهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنْتُمْ

تُوعَدُونَ ﴾ أى أن الملائكة تتلقاهم بالترحيب ، والسلام ، وتهنئهم بما هم فيه من سعادة ونعيم ، فقد وعدهم الله بالنعيم فى الآخرة ، ودعاهم إلى طاعته ، والإيمان بدينه ، والالتزام بالعمل الصالح ، وتذكرهم الملائكة بهذا الوعد ، وتهنئهم بفوزهم بجنات النعيم .

إن هذه السعادة العامة يعيشها المؤمنون الصالحون .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، يفوزون بجنات النعيم وقد أبعدهم الله عن النار وأهوالها ، وحقق لهم ما يشاءون فى جنات النعيم ، ولا يصيبهم هول البعث والحساب ، وتستقبلهم الملائكة بالبشرى والتهنئة والسلامة والإسلام .

(١) سورة النمل ، الآية ٨٧ .

(٢) سورة عبس ، الآية ٣٧ .

(٧٦٧)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

حسن عاقبة المؤمنين

تشير الآيات إلى قضيته جوهريّة ، وتعرف يحسن العاقبة للمؤمنين الصادقين فى الآخرة . فقد أبعدهم الله عن النار ، وأهوالها ، فلا يرون لنارها لهيبا ، ولا يسمعون لمن فيها صوتا ... ويصفهم الله فى نعيم الجنة التى استحقوها بعملهم فى الدنيا . فقد جازاهم الله الجزاء الأوفى ، وحقق لهم كل ما يشاءون ويرغبون ، وكلما أرادوا شيئا أتاهم بلا نصب ولا تعب ، وحين يفرح الناس ينفخ الصور لا يفرحون فقد أطاعوا الله وعلموا هذا وعملوا له وتزداد سعادتهم فى الحشر والحساب حيث يظلمهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ويأخذ كتابه بيمينه ، ويحاسب حسابا يسيرا .

إن لحظة واحدة فى نعيم الآخرة أفضل من الدنيا وما فيها ، وإن برهة نجاة من عذاب النار تنادوا الناس خذوا حذرکم .

ويدخل أهل الجنة دارهم التى أعدها الله لهم فى موكب جميل تحفهم الرحمة ، وتتلقاهم الملائكة بالتهنئة والبشرى ، ويقول لهم :

﴿ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾^(١) .

﴿ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾^(٢) .

ولهذا فليعمل العاملون ، ويجتهد المؤمنون الصادقون .

(١) سورة الزمر ، الآية ٧٣ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٣ .

(٧٦٨)

السماء عند قيام الساعة

يقول الله تعالى :

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ
نُعِيدُهُ ۚ وَعَدًّا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة مصير المؤمنين فى الآخرة جاءت هذه الآية
ببعض أهوال يوم القيامة التى ينجى الله المؤمنين من شدتها وآلامها .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية بعض ما يحدث يوم القيامة للسماء وللناس .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أى ينال

المؤمنون جزاءهم العادل عند الله تعالى يوم أن تزول الدنيا وما فيها ، وتطوى
السماء ، وتختفى كما يطوى الكتاب بين غلافه ليبقى سليماً فى مستودعه الذى
سيوضع فيه .

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ أى وكما بدأنا الخلق الأول فى الدنيا

سنبعث هذا الخلق مرة ثانية ، ونعيد له الحياة ، ونجمعه فى المحشر للحساب
والجزاء ، وبهذا يعود الإنسان مرة أخرى كما تعود سائر العوالم .

(٧٦٩)

﴿وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أى أن الله محقق ما وعد به من
العودة مرة أخرى للحساب والجزاء .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الكون كله تتغير ينفخ الصور حيث تطوى السماء كطوى
الكتاب فى غلافه ، وسيعود للإنسان مرة أخرى ببعثه ، وحشره للحساب والجزاء

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

الأمر يومئذ لله

ينتشر الفزع ، ويكثر الهول ، وتبدأ حياة جديدة يراها الناس فتنزل الأرض
، وتصعق الخلائق ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات وتعود الأرواح إلى
أجسادهم ، ويبعث الله من فى القبور .

وتجتمع الخلائق جميعا فى أرض المحشر جفاة ، عراة ، عزلا ﴿لِكُلِّ
أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾^(١) .

إن الموقف يومذاك رهيب ، والحال شديد ، والفوز فيه هو الفوز ، والهوان
هو الهوان ... فلينتبه المسلم فى الدنيا ، ويعلم لهذا اليوم العظيم .

(١) سورة عبس ، الآية ٣٧ .

(٧٧٠)

التمكين للمؤمنين فى الأرض

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ ﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿٧٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآية السابقة تغير أحوال الآخرة عن أحوال الدنيا . جاءت هذه
الآيات لبيان أن الصالحين سيرثون الأرض ، وقد جاء الرسول للناس بلاغا
للناس ، ورحمة للعالمين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآية أن الله أنزل فى كتبه أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون ، وقد نزل
بذلك الوحي ، وبلغه رسول الله للناس فقد أرسله الله رحمة للناس أجمعين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا
عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ أى كتب الله عنده فى اللوح المحفوظ ، وأثبتته بعلمه
الأزلى ، وأنزله على رسله ، وذكره فى كتبه المنزلة .
والمراد بالزبور الكتب المنزلة إن قال بعضهم إنها زيور داود عليه السلام ،
والمراد بالذكر اللوح المحفوظ وإن قال بعضهم إنها التوراة ^(١) .

(١) انظر زهرة التفاسير ج ٩ ص ٤٩٢٦ .

(٧٧١)

وقد قضى الله فى كتبه أن عباد الله الصالحين سيرثون الأرض لينشروا منها دين الله تعالى ، ويخرجون للناس أمما تتميز بالعدل ، والعزة ، والكرامة .

﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَبِيدٍ ﴾ إن هذه الحقيقة بلاغ للمؤمنين الصادقين ليسارعوا إلى الخير والصلاح ليتمكنهم الله فى الأرض ، يأمرهم بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويخرجون خير أمة للناس .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أى وما أرسلناك يا محمد بدين الله إلا رحمة للناس وهداية لهم لصراط الله المستقيم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله قضى منذ الأزل ، وذكر فى اللوح المحفوظ ، وأنزله فى كتبه على الرسل أن الأرض لله يورثها عباده الصالحين ، وقد بلغ الرسل ذلك للناس ليتمكنوا من الأرض بإيمانهم وصلاحهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

الأرض لله

يرثها عباده الصالحون

من حكم الله العادل ، وقضائه النافذ أن مكن للصالحين من عباده فى جميع الأمم ، وعلى لسان جميع الرسل ، وجعلهم قادة الخلق ، وأئمة الهدى ... ومهما طال اضطهادهم فإن التصرف فى النهاية لهم .

وقد بلغ رسول الله ﷺ ذلك للناس ، ودعاهم إلى العبودية القانتة ، والفوز
برحمة الله للناس أجمعين .

الدعوة إلى الإسلام وتحذير المخالفين

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۚ
﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا
تُوعَدُونَ ۚ ﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۚ ﴿
وَإِنْ أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ ۚ ﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ۚ وَرَبُّنَا
الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۚ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة أن الله حكم بأن الصالحين يرثون أرض الله
تعالى جاءت هذه الآيات لبيان أن الله دعا جميع الخلق إلى الإسلام والإيمان
فمن آمن فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وسيأتى يوم الحساب بعد هذه الدنيا لتتال
كل نفس ما عملت بحكم الله الحق وهو العليم بكل شئ .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أمر رسوله ﷺ بدعوة الناس ليؤمنوا بإله واحد ليكونوا
مسلمين فإن أبوا ذلك فاتركهم ، وتبرأ منهم ، وستأتى القيامة التى يحاسبهم الله
فيها فهو سبحانه العليم بكل أمر ، وقد أختبرهم فى الدنيا ليظهر أمرهم ، ويقيم
الحجة عليهم .

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُهُ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ؟

أي قل لهم يا محمد إني ادعوكم بالحق الذي جاءني من ربي وهو أنه سبحانه وتعالى إله واحد ... فهل تعقلون ذلك ، وتؤمنون به وحده ، وتسلمون الأمر لله وحده ، ومعنى الاستفهام هنا الأمر . والمعنى أسلموا لله وآمنوا برسوله .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ أي فإن أبوا الإسلام

وأصروا على الكفر فقل لهم يا محمد لقد عرفتكم مخاصمتي ، وأعلنت الحرب بيني وبينكم لنستوى في العلم به ومواجهته أنا وأنتم .

﴿ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبَ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ أي لا أدري ولا

أعرف متى يوم القيامة حيث لا يعلم موعده إلا الله تعالى فاستعدوا له بما استطعتم .

﴿ إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُونَ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أي أن

الله سبحانه وتعالى يعلم ما ظهر وما خفى ، ويعلم ما فى الصدور ... فتذكروا ذلك واعملوا له .

﴿ وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي ولا أدري علة

تأخير عذابكم ، وعدم استئصالكم ، وعساه اختبارا لكم ، فتمتعوا فى عطاء الله إلى وقت انقضاء آجالكم .

﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ﴾ أي قال محمد ﷺ لله بعد أن يؤس من

إيمان المشركين وطلب من ربه أن يفصل بينه وبين من كذبه بالحكم العادل ،

(٧٧٤)

والحق النافذ ، ورجاء أن ينزل العذاب بهم إن شاء ، وهذا الطلب يشير إلى ما كان يرغبه رسول الله ﷺ .

﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أى قال رسول الله للمشركين أن الله رحيم به وهو المستعان على رد مزاعمهم ، وإبطال أكاذيبهم القائمة على الكذب ، والباطل ، والكفر ... وهو سبحانه يلقى عوناً لرسول الله ﷺ وللمؤمنين أجمعين .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن رسول الله ﷺ قال للمشركين إن الله إله واحد بعثه الله إليهم ليعرفهم بهذه الحقيقة ، ويدعوهم إلى توحيد الله تعالى ، فإن أصروا على إعراضهم فبين لهم الخصومة ، وليكن بينكما النزاع يستويان فيه هو وهم ، وأمره الله أن يعرفهم بأن يوم القيامة لا يعلمه إلا الله ، وتأخيره ابتلاء لهم . وفى النهاية يطلب رسول الله من ربه أن يحكم بينه وبين قومه بالحق ، فهو يسلم أمره إليه ، ويستعين به على أوصافهم وأحوالهم وأقوالهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الله إله واحد

تختتم سورة "الأنبياء" بما بدأت فتؤكد على وحدانية الله تعالى بعدما طوفت مع المؤمنين ، وبينت ما أعد الله لهم من الحسنى والجنة ، وعاشت مع الرسل وهم يدعون لى وحدانية الله ، وضرورة أن يعبد وحده ، وسيعلم الجميع

(٧٧٥)

أن الحكم لله تعالى في الآخرة كما كان في الدنيا ، وإن أنكره الغافلون الصالحون .
إن المؤمن يستعين بربه في دنياه وفي أخراه ، وسينعم برضوانه ولقياه .

الركيزة الثانية **الخصومة في الدنيا** **بين المؤمنين والكافرين**

إن المسلم محب لدينه ، مسئول عن الدعوة إليه ، فإن رأى كافرا عنيدا منكرا لما يرى ويسمع فهو مخاصم شديد ... والأولى تركه الله يفعل فيه ما يشاء بعدما عرف الدعوة ، وكفر عن بينة ، والله عليم بسائر خلقه ، وهو على شئ قدير .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الأنبياء" بتوفيق الله تعالى .

التعريف بـسورة "الحج"

(γγ γ)

التعريف بسورة "الحج"

يحتاج التعريف بسورة "الحج" إلى بيان المسائل الآتية :

- أولا -

تنزيلات السورة

تعرف السورة باسم سورة "الحج" وليس لها اسم غير ذلك .

يدل على هذه التسمية ما يلي :

- عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أفضلت سورة "الحج" على سائر القرآن بسجديتين ؟ قال ﷺ : نعم^(١) .

- وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن الكريم منها ثلاث في المفصل ، وفي سورة "الحج" سجدتان^(٢) .

وقد فرض الحج بآيات سورتي "البقرة" و "آل عمران" ، ولم تتعرض سورة "الحج" لهذه الفريضة الإسلامية ، وسميت السورة باسم "الحج" لأنها تبين دعوة إبراهيم عليه السلام الناس للحج إلى بيت الله في مكة ، وبيان ما شرع للناس في الحج من نسك ، ومنافع ، وفضائل .

وعدد آياتها ثمان وتسعون آية عند الكوفيين ، وسبع وتسعون آية عند المكيين ، وخمس وتسعون آية عند البصريين ، وأربع وتسعون آية عند الشاميين^(٣) .

(١) مسند الإمام أحمد . مسند عقبة بن عامر ج ٢٨ ص ٥٩٣ .

(٢) المستدرک على الصحيحين ج ١ ص ٣٤٥ .

(٣) تفسير الألوسی ج ٨ ص ١١٠ .

وقد اختلفت آراء المفسرين حول مدنية السورة ومكيته ، وأحسب أنه لم تتعين آيات منها متوالية نزلت بمكة ونزل ما بعدها بالمدينة ، بل نزلت آياتها متفرقة ، وكان ترتيبها بتوقيف من النبي ﷺ ومثل ذلك كثير .

وقد قيل في قوله تعالى : ﴿ هَذَا نِ حَصْمَانِ أَحْتَصِمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ ^(١) أنه نزل في وقعة "بدر" ، لما في "الصحيح" عن علي وأبي ذر : أنها نزلت في مبارزة حمزة ، وعلي ، وعبيدة بن الحارث ، مع شبيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة يوم "بدر" وكان أبو ذر يقسم على ذلك ^(٢) .

وقد نزلت السورة آخر مقام النبي ﷺ بمكة كما يقتضيه افتتاحها بـ ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ فقد تقرر أن ذلك غالب أساليب القرآن المكي ، وأن بقيتها نزلت في مدة مقام النبي ﷺ بالمدينة .

وروى الترمذى عن عمران بن حصين ؓ أنه لما نزلت على النبي ﷺ : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ ، قال : أنزلت عليه هذه وهو في سفر ؟ ^(٣)

وساق حديثاً طويلاً . فافتضى قوله : أنزلت عليه وهو في سفر ؟ أن هذه السورة أنزلت على النبي ﷺ بعد الهجرة فإن أسفاره كانت في الغزوات ونحوها بعد الهجرة .

(١) سورة الحج ، الآية ١٩ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب التفسير . باب تفسير سورة "الحج" ج ١٠ ص ٥٩ .

(٣) سنن الترمذى . كتاب التفسير . باب تفسير سورة "الحج" ج ٤ ص ١٤٥ .

ويبدو أن عمران بن حصين لم يسمع الآية إلا بعد إسلامه في العام السابع الهجرى فظنها أنزلت يومئذ ، ... والراجح أن هذه الآيات مكية .
 وذكر القرطبي عن الغزنوي أنه قال : سورة "الحج" من أعاجيب السور
 نزلت ليلا ونهارا ، سفرا وحضرا ، مكيا ومدنيا ، سلما وحربا ، محكما
 ومتشابهة^(١) .

- ثانيا -

صلة سورة "الحج" بسورة "الأنبياء"

ترتبط سورة "الحج" بسورة "الأنبياء" من جهات عدة ... منها :
 الوجه الأول :

تتشابه الآيات الأولى في السورتين . ففي سورة "الأنبياء" جاء الحديث عن
 قرب يوم القيامة والناس غافلون . يقول الله تعالى : ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ
 وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ يُحَدِّثُ إِلَّا أَصْنَعُوهُ
 وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ .

وفى سورة "الحج" جاء بيان هول يوم القيامة الذى يغفل الناس عنه . يقول الله
 تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُؤًا رَّكْعَمٌ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾
 يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا
 وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ ﴿٣﴾ .

(١) التحرير والتنوير ج ١٧ ص ١٨٠ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ١ ، ٢ .

(٣) سورة الحج ، الآية ١ ، ٢ .

ففى بداية السورتين نجد الحديث عن قرب يوم القيامة وما فيها من أهوال ،
والآلام .

الوجه الثانى :

تبين السورتان جدل المشركين حول وحدانية الله تعالى وتؤكد هذه
الوحدانية بالدليل ، وترد مزاعم المشركين .

ففى سورة "الأنبياء" نزل قوله الله تعالى :

- ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ
عِبَادَتِهِ ۚ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۚ ﴾^(١) .

- ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا
يَصِفُونَ ۚ ﴾^(٢) .

- ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهُ مِّنْ دُونِهِ ۚ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَلِكَ
نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۚ ﴾^(٣) .

- ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم
مُّسْلِمُونَ ۚ ﴾^(٤) .

وفى سورة "الحج" نقرأ قوله تعالى :

(١) سورة الأنبياء ، الآية ١٩ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٢٢ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ٢٩ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٨ .

- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) .
- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^(٢) .
- ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٣) .

الوجه الثالث :

تحدثت سورة "الأنبياء" عن قول المشركين عن القرآن الكريم ، وزعمهم أنه ليس كلام الله تعالى . يقول الله تعالى : ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾^(٤) وجاءت سورة "الحج" تؤكد ما قاله الكافرون عن القرآن الكريم وظهور ذلك في أحوالهم وأقوالهم . يقول الله تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ نَّعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ۚ قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مِّنْ ذَلِكُمْ أَنتَارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ﴾^(٥) .

الوجه الرابع :

تتضمن السورتان أطرافاً من سير رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه وبذلك

(١) سورة الحج ، الآية ٦ .

(٢) سورة الحج ، الآية ٦٢ .

(٣) سورة الحج ، الآية ٧٤ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية ٥ .

(٥) سورة الحج ، الآية ٧٢ .

(٧٨٤)

تكمل أحدهما الأخرى .

الوجه الخامس :

السورتان مليئتتان بالبراهين ، والآيات الدالة على أركان العقيدة ، وتعرفان بالله ، وبصفاته التي تليق به سبحانه وتعالى .

- ثانياً -

القضايا الرئيسية في سورة "الحج"

تتناول سورة "الحج" موضوعات العقيدة ، وتتناول أركانها ركنا ركنا بطرق متعددة وبأساليب مختلفة .

فتبدأ بذكر البعث ، وتخوف من هول يوم البعث ، وتؤكد أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، وتؤكد إمكانية هذا البعث بخلق الإنسان من نطفه ، ثم من علقه ، ثم تنتقل بالإنسان إلى أن يصير هرما حتى يموت ، ويبعث .

وتنتقل السورة إلى الحديث عن الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله تعالى ، وتبين الآيات طرفا من قصص الرسل عليهم السلام ، وتفصل في دعوة إبراهيم عليه السلام الناس إلى حج بيت الله تعالى ، والمحافظة على مناسكه ، ومنافعه ، وتمضى السورة في عرضها لموضوعاتها ، وتبين مصير المكذابين ومصير المؤمنين الذى يحققه الله لهم ووعدهم به .

سورة "الحج"

التفسير

(٧٨٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٨٧)

الدعوة لتقوى الله تعالى والعمل للأخرة

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآية

ينادى الله تعالى الناس جميعا ليؤمنوا به ، ويتقوه ، ويخافوا هول يوم القيامة ، وعذاب الله تعالى .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ۚ ﴾ ينادى الله الناس ليتقوا الله تعالى ، لما فى النداء من تأثير نفسى ، وتحريك عملى ، ومخاطبة للعواطف والعقول .
والخطاب للناس جميعا رجالا ونساء ، شيوخا وشبابا ، مؤمنين وغير مؤمنين ، وفى هذا النداء يأمر الله الناس بالتقوى التى تقوم على الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل ... إنه خوف يقوم على الحب ، ويؤدى إلى الطاعة ، ويحقق التواصل مع الله رب العالمين .
وأول فريق من الناس أتاهم هذا الخطاب هم المشركون من أهل مكة لنزوله فيهم ، ويضم معهم سائر المشركين فى المدينة وغيرها .

وفى التعبير عن الله باسم الرب ، واضافته إلى ضمير المخاطبين ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ للإشارة إلى استحقاقه أن يتقى وحده ، فهو سبحانه وتعالى بربوبيته يفعل ما فيه مصلحة للناس أجمعين .
والأمر بالتقوى يقتضى النهى عن أى مخالفة تتعلق بذات الله ، أو بأفعاله وصفاته سبحانه وتعالى .

﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ هذا تعليل للأمر بالتقوى بذكر أمر هائل يدعو إليها ، لأن ملاحظة زلزلة الساعة ، وهولها ، وفضاعتها يلزم الناس بالتقوى خلاصا من هذه الزلزلة التى تعنى التحريك الشديد ، والازعاج العنيف الذى يصاحبه ، لأنه يزيل الأشياء من مقارها ، ويخرجها عن مراكزها .
واضافة الزلزلة إلى الساعة مجاز مرسل لعلاقة الحدث بزمانه لا بفاعله لأن الفاعل هو الله ، ومن يخاف من هذه الزلزلة عليه أن يتقى الله .
وبينت الآيات الزلزلة أنها ﴿ شَيْءٌ ﴾ ووصفتها بـ ﴿ عَظِيمٌ ﴾ لتذهب النفس فى تقديرها كل مذهب ، والحق لا يعلمه إلا الله تعالى .

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ أى إن هذه الزلزلة فى هولها ، وفضاعتها شديدة الأثر ، عنيفة الوقع فهى تنسى ما لا ينسى فالام لا تنسى رضيعها الذى ترضعه إلا أن هول الزلزلة ينسيها ما ولدت ، وما ترضع .

﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا ﴾ أى وتضع كل امرأة حملت فى بطنها جنينا ما حملت قبل تمام وضعه لهول الموقف .

﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ ﴾ أى وترى الناس فى ذهولهم ، وحيرتهم ، واضطرابهم كأنهم سكارى يفقدون الوعى ، والإدراك ، وهم ليسوا بسكارى فى الحقيقة .

﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ أى ما ألجأهم إلى ما هم فيه إلا شدة الموقف وهول البعث ، ومجئ الناس إلى أرض المحشر من كل حذب ينسلون .
عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "يقول الله سبحانه وتعالى يوم القيامة : يا آدم .

فيقول : لبيك وسعديك" . والخير في يدك .

فينادى بصوت : إن الله تعالى يأمرك أن تخرج من ذريتك بعث النار .
قال : رب وما بعث النار ؟

قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون .

فحينئذ تضع الحوامل ، ويشيب الوليد ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم" .
قالوا : يا رسول الله أينما ذلك الرجل ؟

فقال رسول الله ﷺ : "من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ، ومنكم واحد ، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود" . كالرقمة في ذراع الحمار ، وأني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ... فكبرنا .

ثم قال : ثلث أهل الجنة ... فكبرنا .

ثم قال : شطر أهل الجنة فكبرنا" (١) .

(١) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ ﴾ ج ٦ ص ٩٧ .

(٧٩٠)

- ٣ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله ينادى الناس جميعا ، ويأمرهم ليتقوا الله الذى خلقهم ورزقهم ، واعتنى بهم ، ولينجوا بتقواهم من هول يوم القيامة الذى ينسى الأم رضيعها ، ويجعل الحامل تضع حملها ، وترى الناس كالسكارى ، وهو ليسوا كذلك بسبب هول الساعة ، ورؤيتهم عذاب الله تعالى .

- ٤ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

توضح الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

النجاة فى تقوى الله

قدر الله للدنيا أن تكون دار ابتلاء واختبار ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمل فعليها فى يوم ينال كل إنسان ما قدم .
وأعظم الناس مقاما من آمن بالله ورسوله ، وعمل ليوم القيامة ، يقول الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (١) .

فى يوم القيامة يشتد الهول ، ويتحرك الكون ، وتزول الدنيا ، وتبدأ الآخرة فى أرض جديدة ، وسماء جديدة ، ومخلوقات عادت لخلقها الأول لتجرى كل نفس بما كسبت .

(١) سورة النازعات ، الآية ٤٠ ، ٤١ .

(٧٩١)

فى هذا الوقت العصيب ينصب الله الميزان ، وتتجمع الخلائق تحت الشمس المحرقة ، والعرق المتكاثر ، والنتن المنتشر ، ويتمنى الجميع الخلاص ، وأنى لهم به !!

فى هذا الموقف يتمنى الجميع الانتهاء منه ولو إلى النار .

فى هذا الموقف تتجلى رحمة الله على المؤمنين من عباده ، فيظلمهم بظله ويحيطهم بنعمه ، فلا يرون من هذه الشدة إلا صورا بعيدة عنهم ، ويعلمون أن ما هم فيه بسبب تقواهم لربهم .

إن هذه هى حقائق القرآن الكريم ، ولذلك كانت دعوته إلى التقوى ، فهى طريق النجاة والفوز يوم القيامة .

والعقلاء فى الدنيا حين يؤمنون بهذه الحقائق يسارعون إلى الخيرات ، ويتقون الله حق التقوى لينالوا فضل الله فى الآخرة ، ويتمتعون بظل الله فى هذا الموقف العصيب .

الركيزة الثانية

شدة هول يوم القيامة

حذرت الآيتان من هول يوم القيامة ، وبينت شدته فى صورة واقعية . ففى هذا اليوم تنسى كل أم وليدها الذى ترضعه ، وهذا أمر خطير يشير إلى شدة التشاغل التى صرفت الأم عن ولدها ، وهى لا تنسأه ، ولا تتصرف عنه ومع ذلك تصاب بالذهول فتتنسى وتتشغل ... وإن كانت تفعل ذلك مع رضيعها لشدة الموقف فغيرها يصاب بأشد من ذهولها وشغلها .

وأىضا فإن المرأة الحامل تسقط جنينها من بطنها من الفزع والخوف فغيرها أشد منها فزعا وخوفا .

وأيضاً فإن الناس يعيشون فى حيرة واضطراب كأنهم سكارى لا يدرون ما يفعلون ، وهم ليسوا بسكارى .
 إن العاقل هو من يستعد لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح لينجوا من هول هذا اليوم العظيم .

من أعمال المشركين

يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿١﴾
 كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلْسَعِيرٍ ﴿٢﴾ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيتان

نزلت الآيتان فى النصر بن الحرث وكان كثير الجدل ، وكان يقول :
 الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، وكان ينكر البعث ، ويستبعد إحياء من صار تراباً^(١) .

- ٢ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما بينت الآيتان السابقتان ضرورة تقوى الله وأنها طريق النجاة من هول يوم القيامة جاءت هاتان الآيتان لبيان أن فريقاً من الناس لم يتق الله ولم يصدق باليوم الآخر ، وأخذ يجادل فى الله بغير برهان ولا دليل .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٣ .

(٧٩٣)

- ٣ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن من الناس من يستمر يجادل في الله بغير علم ولا دليل ، ويتبع إغواء الشيطان ، وغروره مع أن الله أخبره بأن من اتبع الشيطان فإنه يضلّه ، ويبعده عن الصراط المستقيم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ﴾ أى ومن الناس من يجادل في ألوهية الله ، وفي صفاته ، وفي قضائه وقدره ، وفيما أوجبه على الناس من إيمان ، وتصديق ، وفي قدرته على البعث والجزاء .

﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى أنهم يجادلون في الله ، وصفاته ، وأفعاله بلا دليل وبرهان من الشرع أو من العقل .

﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ أى ويتبع في جدله الباطل كل شيطان متمرد مستمر في تمرده ، وعصيانه ، والمريد هو الشيطان المتجرد للفساد ، المعادى للخير من الجن أو من الناس .

ذهب الجمهور إلى أن الآية تشمل شياطين الإنسان والجن جميعا ، وذهب البعض إلى أن المراد بالشياطين إبليس وجنوده .

والقولان بينيان أن دور الشيطان إنسانا أو جنا ، هو إضلال الإنسان وإبعاده عن الحق ، واغراقه في الجدل والمراء .

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

أى كتب الله على من يتبع الشيطان ، ويتولاه ، ويطيعه ، ويتخذة وليا فإن الله

(٧٩٤)

يضلّه ، ويبعده عن الخير ، ولا يوفقه لمصلحة ، ويسوقه إلى نار جهنم ، ويدخله عذاب السعير .

- ٥ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن بعض الناس لا يستفيد بيوم القيامة ، ويستمر في الجدل في الله وصفاته ، وقدره ، وفعله بلا دليل من عقل ، أو حجة من دين ، وهؤلاء يتبعون الشيطان التي قضى الله بإضلاله لاتباعه وادخالهم في سوء المصير .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هي :

ضلال المشركين وهوانهم

المجادل بالباطل عدو لنفسه ، وخصيم للحق ، ومعاند لله رب العالمين .
أما أنه عدو لنفسه فلأنه غفل عن ذاته تماما ، ونسى كيفية وجوده في الدنيا ، ونسى أنه كان عدما . فقدّر الله خلقه ﴿ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۖ ﴾^(١) . وقدّر الله أن يخلق من هذا الماء إنسانا سويا يتمتع بأسباب الحياة فخلقه ، ومكنه فيها ، وأحاطه بكون فسيح يأتيه بكل ما يحتاج إليه من طعام وشراب ، وحسن وجمال ، وملاه بالمخلوقات العديدة واختاره خليفة له ... أبعد كل هذا يكفر ويجادل !!؟

(١) سورة الطارق ، الآية ٦ ، ٧ .

أما أنه خصيم للحق فلأنه يجادل بلا برهان وحجة ... إن الإنسان ذو عقل فاهم ، والتوجه إليه يحتاج إلى الحجج والبراهين ... أما هذا الجدل فإنه لا يعتمد على حجة عقلية ، أو برهان ديني ... ومع ذلك يكفر ويجادل !!؟
والمجادل معاند لله تعالى لأنه بدل أن يطيع الرسول الذي أرسله الله إليه وأيده بالمعجزات الدالة على صدقه بدل ذلك عارضه ، واتبع الشياطين من الإنس والجن التى تتادى بالفجور والمعاصي ، وترك الإيمان بالله رب العالمين .

إن المجادل عميت بصيرته ، وغرته شهواته ، وصار ألعوبة للشيطان الرجيم ، وسوف يلقي جزاء ضلاله ، وفساده .
إن الله سبحانه وتعالى عليم بعباده ، محيط بخلقه ، وقد قضى ، وعرف الناس بما قضى ، وهو أن اتباع الشيطان مهلكة لأنه يضل من يتبعه ويستمتع له ويأخذه إلى الطريق الموصل لعذاب السعير .

هذا هو طريق المشركين ، وقد بينه الله تعالى تحذيرا لأصحاب العقل ، ولمن هداه الله للحق ليستعينوا بالله من الشيطان الرجيم ، ويتبعوا الصراط المستقيم ، ويلتزموا بما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية .
يقول النبى ﷺ : "تركتم فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتى" (١) .

إن الإنسان مسئول عن عمله ، والمؤمنون بطاعتهم لله يسعدون فى الدنيا وفى الآخرة ، والطرق إلى رضا الله ورضوانه بين ، وواضح ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، والله ملك السموات والأرض .

(١) الشريعة للأجرى. كتاب جامع فضائل أهل البيت رضى الله عنهم . باب ذكر أمر النبى ﷺ ج ٥ ص ٢٢٢٠

إثبات البعث ويوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ
مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي
الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ خَرَّجُكُم طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلُّغُوا أَشُدَّكُمْ
وَمِنْكُمْ مَّن يَمُوتُ ۚ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ
عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ
وَأُنْبِتَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ
وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ
مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن من المشركين من يجادل في قدرة الله ، وينكر
البعث ، ويوم القيامة بغير علم أو برهان ، جاءت هذه الآيات تثبت وقوع البعث
، ومجيئ القيامة ، وتؤيد ذلك بالحجة والبرهان من واقع الناس .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات إثبات البعث بدليلين :

أحدهما : كيفية خلق الله للإنسان .

وثانيها : كيفية خلق الله للبنات ، فمن خلق من العدم قادر على إعادة

المخلوق بعد تبعثره .

(٧٩٧)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ ﴾ أى قل يا محمد

للناس جميعا ، الموجودين معك ، أو غيرهم إلى آخر الزمان .
والخطاب وان كان موجها لمشركى مكة فهو يعم الناس جميعا ليعلموا
دائما أن البعث حق ، والساعة حق .

وعبرت الآية بالريب والشك مع أن المشركين منكرون للبعث لبيان عدة أمور :
(١) بيان أن المشركين لا يمكنهم إثبات عدم البعث ولا يقدرّون على الإتيان
بدليل ، ومنتهى ما يستطيعونه هو الشك والريب .

(٢) فى التعبير بالريب عموم يشمل سائر الفطر التى جبلت على التردد
والشك وبخاصة فى الأمور الغيبية ، والقرآن الكريم بهذا يدلّ لهم على
حقيقة ما يمكن الشك فيه ليهتدوا ، ويعلموا ، ويؤمنوا .

(٣) فى التعبير بالريب دعوة للمنكرين أن يضعوا أنفسهم موضع المرتابين
ويعاودوا النظر فى الدليل عسى أن يزول شكهم ، وينتهى إنكارهم
وجحودهم .

وآخذت الآيات تعرض دليلين لإثبات البعث .

فى الدليل الأول تبين الآيات مراتب خلق الإنسان .

وفى الدليل الثانى تبين الآيات قدرة الله فى إخراج النبات من الأرض .

أما الدليل الأول فقد جاءت الآيات به مفصلا ... وهى :

(١) ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن تُّرَابٍ ﴾ أى خلقناكم من التراب على صورتين

أولاهما فى أصل الخلق حين صورت الملائكة آدم ﷺ من التراب ونفخ
الله فيه من روحه .

وثانيهما بالحمل والولادة ، لأن الأب والأم يتعذبان من نبات الأرض ، ويتحول الغذاء إلى عناصر يوجد منها الإنسان ، ولذلك كانت العناصر المكونة للإنسان هي عناصر تراب الأرض .

(٢) ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أى صار تكوين الجنين من نقطة من منى يمنى ، وهو متولد من الغذاء المنتهى إلى التراب .

(٣) ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ أى ثم تتحول النطفة إلى دم جامد غليظ ، ولا يخفى ما بين الماء والدم من المباينة والمخالفة وذلك بيان لقدرة الله على فعل ما يريد .

(٤) ﴿ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ أى ثم تتحول العلقة إلى قطعة من اللحم مسواة ، لا نقص فيها ، ولا عيب فى ابتداء خلقها ، ومضغة غير مسواة ، فيها عيب ، وبهذا التفاوت فى الخلق يتفاضل الناس فى صورهم وأشكالهم ، وطولهم ، وقصرهم .

﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ أى خلقناكم على هذا النمط البديع ، لنبين لكم جميل نظامنا ، وعظيم حكمتنا ، التي من جملتها أمر البعث .

﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى ونبقى ما نشاء من الأجنة فى أرحامها إلى الوقت الذي قدر الله فيه أن تلد فيه المرأة .

(٥) ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أى ثم نخرجكم من أرحام أمهاتكم إذا بلغت الأجل الذي قدره الله لخروجكم أطفالاً صغاراً فى المهد .

(٦) ﴿ ثُمَّ لِنَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ أى ثم يمد عمركم ، ويسهل تربيتكم ، حتى تبلغوا كمال عقولكم ، ونهاية قواكم .

(٧) ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا

يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أى ومنكم من يتوفى على كمال قوته وكمال

عقله ، ومنكم من يبقى حتى يبلغ الهرم والخرف ، فيصير كما كان فى أول طفولته ، ضعيف البنية ، سخيـف العقل ، قليل الفهم .

يقول النبى ﷺ : "إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل عمل أهل الجنة ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها"^(١) .

إن الذى أوجد الإنسان من عدم على النحو المذكور قادر على أن يعيده بعد تفككه ، وتناثره .

وأما الدليل الثانى فهو قوله تعالى :

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ

وَأُثْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ﴾ أى وترى أياها الإنسان الأرض ترابا ساكنا

جافا ، خاليا من النبات والزرع ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتز سكونها ، وظهر النبات فوقها ، تحركه الرياح ، والشمس ، والقمر ، وينمو فوقها إلى أعلى ، وتربوا وتعلو فى شكل حسن ، وصورة بهية ، وأخرجت زروعا مختلفة فى حسنها وجمالها ، وطعومها ، وروائحها ، ومنافعها ، وفوائدها .

(١) صحيح البخارى . كتاب التوحيد . باب قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَأْمُنًا﴾ ج ٩ ص ١٣٥ .

وذكرت الآية الماء النازل من السماء مطرا فقط لأن منه الماء الذى تجرى به الأنهار ، وما ينبع من العيون ، لأن المطر هو أصل سائر أنواع الماء . والدليلان يتميزان بما يلى :

(١) كلا الدليلين يوضح إعجاز الخلق مع تنوعه ، وتبين أن الخلق كله حادث بعد عدم ، وهو متجدد فى حدوثه وظهوره .

(٢) كلا الدليلين مرتبط بإدراك العقل للمحسوسات التى لا يمكن إنكارها .

(٣) ارتباط الدليلين بحياة الإنسان بصورة عامة فكل إنسان يراها ، ويعلم دورهما معه فى حياته .

(٤) ظهور قدرة الله التامة فى كلا الدليلين ، والتدبر الواعى فيهما يحقق

الإيمان ، ويؤكد قدرة الله تعالى ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ

أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ^(١) ، وقال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي

أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ ^(٢) .

(٥) يؤدى التسليم بهذين الدليلين إلى الإيمان بالبعث وقيام الساعة لأن من

قدر على الإيجاد قادر على الإعادة .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ "ذلك" إشارة إلى الدليلين المذكورين لأنهما

يثبتان أن فاعل ذلك هو الله رب العالمين ، وأنه واحد أحد ، حى قيوم ، وأن

العبادة يجب أن تكون له وحده سبحانه وتعالى .

(١) سورة الذاريات ، الآية ٢١ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٥٣ .

(٨٠١)

﴿وَأَنَّهُ تُحَيِّ الْمَوْتَى﴾ أى أنه سبحانه وتعالى سيحيى الموتى ، ويبعثهم

من قبورهم ، ويحشرهم للحساب والجزاء .

﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى أن قدرته سبحانه وتعالى عامة

شاملة منذ الأزل إلى الأبد ... يفعل ما يريد .

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أى أن الساعة التى وعد الله بها

ستأتى لأنه سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد .

﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أى وأن الساعة ستبدأ ببعث من

فى القبور وحيائهم ، وجمعهم للحساب والجزاء .

وقد أكدت الآيات النتائج الثابتة بالأدلة المذكورة لبيان أن غاية الدليل

إثبات المدلول .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات الحق لمن يشك فى البعث ، ويتصور استحالته ، وتخطب

الناس جميعا بالدليل إن شكوا فى وقوع البعث ، وتصوروا صعوبته ، وعليهم أن

ينظروا فى خلق الناس ، وخلق الزرع والنبات ، فقد خلق الله خلقه من العدم

وأوجد من الجماد حياتا تتمثل فى إنسان ، وزرع ، ونبات ، ومن قدر على ذلك

قادر على أن يعيد المخلوق بعد تجزئه وتفتته .

(٨٠٢)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية واقعية الدليل

الإنسان يهتم بذاته ، ويحب أن يناقش أموراً تتصل به وتدور من حوله كما يحب أن يعلم ذاته ومكوناتها ، وأن يعرف كونه المحيط به ، المترابط معه الذى يفيد ويغنيه على الحياة .

ولذلك ننادى الدعاة حتى لا يبعدوا بالإنسان عن عالمه الذى يعيش فيه ولا يأخذوه لأمر بعيد لا يدرك عنها شيئاً .

ونطالبهم بمراعاة قدرة المخاطب على الفهم والاستيعاب ، لأنهم إن لم يفهم لن يؤمن ويصدق وإذا لم ينزل الدعاة إلى مستوى الناس فلا قيمة لعملهم ودعوتهم .

وقد قال العلماء عن أرسطو : إنه استنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض يوم إن قال للإنسان : اعرف نفسك بنفسك .

والإسلام دعوة صريحة فى معاشة الإنسان ، يدعو ، ويتمنى هدايته ويقدم له الدليل تلو الدليل لإقناعه .

وفى الآيات نلمس ما يلى :

أولاً : التركيز على أفعال الله وقدرته الخارقة للعادة التى لا تكون إلا من إله قادر حكيم .

ثانياً : إظهار حاجة الإنسان لله ، فلو قدرته سبحانه وتعالى لما وجد من النطفة إنساناً سوا .

(٨٠٣)

ثالثا : بيان نعم الله وأفضاله التي تؤكد ضرورة الإيمان بالله ، وضرورة طاعته والاستسلام له .

رابعا : بيان الرجوع إلى الله لأن لكل أجل كتابا يحاسبه الله على ما فيه .
وقد عاش دليل الخلق مع الإنسان ، وعرفه بما هو كائن قبل أن يكون .
ثم أوردت الآيات دليلا آخر متميزا بما يلي :

(١) ربط الإنسان بالحاجات الضرورية التي لا يستغنى عنها من نبات الأرض التي يأخذ الطعام والشراب والملبس والمأوى فقد أخرجها الله من الأرض ، وجعلها متنوعة لتناسب كل الأذواق والحاجات ، ووزعها على فصول السنة ليجد الإنسان حاجته على مدار العالم .

(٢) إن هذا الدليل يراه الإنسان ، ويتعامل معه بالجهد والتعب ، ولذلك يرى فيه القدرة الإلهية ، والرحمة العامة .

إن الأرض السوداء مع البذور الجافة ، والمطر الهابط تتحول إلى خضرة نضرة وتصير ثمرا و فاكهة وطعاما ... كل ذلك يقدم البرهان على قدرة الله وعلى البعث .

(٣) إن تعدد الدليل أمر حسن ليعم الناس جميعا . فقد يتأثر إنسان بدليل ، ويستفيد غيره بغيره ... وهكذا .

وعلى الدعاة :

- أن يتعلموا منهج مخاطبة المدعوين ، ومعايشتهم . فما أجمل أن تخاطب إنسانا عن حياته ، وتعرفه نعمة الله عليه .
- أن يتركوا تقعر الفلاسفة ، ومتاهات المتكلمين ، ويأخذوا أدلتهم من القرآن الكريم فهي أدلة سهلة مفهومة ، تعيش واقع الناس .
- ربط الدليل بما يدل عليه ، والله على كل شئ وقدير .

الركيزة الثانية

إثبات البعث والحساب

قضى الله أن تنتهى الحياة الدنيا بنفخة الصور الأولى وبعدها يكون البعث بالنفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين .

لما شكك المشركون في البعث بين الله لهم قدرته في خلقه سائر الكائنات ليعلموا قدرته على بعث الخلائق ، واعدتهم إلى الحياة مرة أخرى واستدل على ذلك بدليل بدهى مسلم ، وهو أن من أوجد المخلوق من عدم قادر على إعادته من تقنت .

إن الإيجاد الأول يقوم على خلق الأنواع ، والأجناس ، وسائر المخلوقات من إنسان ، وحيوان ، وطير ، وهوام ، وحشرات ، وزواحف ... إلى آخر المخلوقات في السهل والجبل والماء ، وفي الأرض ، وفي السماء .

إن مشاهدة عجائب الخلق ، وتنوعها ، وكثرة وظائفها ، ودورانها حول منفعة الإنسان ومصلحته ... تدل على أن الله إله واحد قادر على إحياء الموتى ، وبعثها ، وحسابها ... أما الإعادة فهي أيسر وأسهل لأن ما كان في الدنيا سيعيده الله مرة أخرى ، وبيعته على الصورة التي كان عليها في الدنيا فلا جديد لخلق آخر ، ولا إبداع في الإعادة .

إن الله على كل شئ قدير ، وأنه سيبعث الناس للحساب والجزاء ، لينال كل إنسان ما يستحق من جزاء ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴾ ١٧٤ ﴿ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ١٧٥ ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ١٧٦ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ ١٧٧ ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ١٧٨ ﴿ ^(١) .

(١) سورة النازعات ، الآيات ٣٧ . ٤١ .

كشف ضلال الكافرين

يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ﴿٨﴾
ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة حتمية البعث والحساب ، وأثبتت ذلك بالدليل
جاءت هذه الآيات لبيان حال أهل الضلال من الكافرين ، والمبتدعين ،
والمناققين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن من المشركين من يجادلون في وحدانية الله ، وصفاته بلا
علم من عقولهم ، ولا شرع نزل عليهم ... إنهم يسيرون متكبرين بين الناس
لإضلالهم ، وسوف يحاسبهم الله على أعمالهم ، ويخزيهم في الدنيا ، ويعذبهم
في الآخرة عذاباً أليماً .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ
مُّنِيرٍ ﴾ أى ومن الناس من يجادل ويخاصم فى قضية الألوهية ، وتوحيد الله ،

وصفاته سبحانه وتعالى بلا علم يسنده ، أو حجة يعتمد عليها ، ولا هداية تدله على الصواب ، أو كتاب ينزل لبيان الحق ، وتوضيح الطريق السليم .
والمقصود من الناس فى هذه الآية هم المشركون الذين يعتمدون على عقولهم الذاتية ، ويضلون بفكرهم وتصوراتهم بغير سند من غيرهم ، أما المراد منهم فى الآية السابقة رقم (٣) فهم المشركون الذين يتبعون شياطين الإنس والجن .

﴿ ثَانِي عَظْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى يأتى هذا الفريق من الناس لاوى العنق والجنب ، متكبرا متعاليا ليتصوره الناس صادقا فيثقون فيه والمعنى : ومن الناس من يجادل فى الله متجبرا متعاليا ليضل الناس ، ويصددهم عن دين الله الذى هداهم الله إليه .

﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى أن الله أعد للجاحدين الذين يصدون عن سبيل الله هوانا ، وذلا ، وهزيمة ، وفى يوم القيامة يحرقهم الله بنار جهنم التى يجعلها الله مأواهم ، ومثواهم .
﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ أى هذا العذاب والخزى الذى قدره الله للجاحدين ، المنكرين للبعث بسبب أعمالهم التى قدموها فى الدنيا ، وأن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن من المشركين من يجادل الله فى ألوهيته ، وصفاته ، وينكر البعث بحسب جحوده وكفره ، وليس له كتاب منزل ، ولا عقل واع ، وسوف يخزيهم الله فى الدنيا ، ويحرقهم فى الآخرة بنيران السعير بسبب عملهم ، وأفعالهم ، وأقوالهم .

(٨٠٧)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى أهمية الحرب النفسية فى الدعوة والدعاية

تشير الآيات إلى أحد عوامل النصر فى الصراع والحرب ، وهو الاهتمام برفع الروح المعنوية ، واستخدام التأثير النفسى .

ومن هذا الباب قول النبى ﷺ للمسلمين يوم عمرة القضاء : يرحم الله رجلا يرى القوم من نفس قوة^(١) .

ولقد دخل أبو سفيان ؓ فى الإسلام يوم فتح مكة لما رأى جيش المسلمين ضخما كبيرا وهو مع العباس ؓ .

إن النصر أو الهزيمة يبدأ من الروح المعنوية فمن قويت روحه ، ووثقت نفسه ينتصر ... ومن تضعف روحه ، وتقوى شكوكه يخسر وينهزم .

وهنا يصور الله المشركين بأنهم يتصرفون تصرف الواثق المنتصر فيلزون أعناقهم ، ويثنون أعطافهم ليدل حالهم على انتصارهم ... وهذا أمر يجب فهمه وعدم التأثير به ... وبخاصة أن الإسلام هو الدين الحق ، وأن النصر والتمكين لاتباعه فى الأرض ، وماعدا ذلك فهو خيال ، ووهم ، وأباطيل .

إن النصر للمسلمين وللإسلام فى النهاية ، وعلى المسلمين أن لا يتأثروا بسفاهات المشركين ... وأن يعلوا على الاستفادة بكافة النصر والتمكين .

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٣١ .

الركيزة الثانية

مصير الكافرين في الدنيا والآخرة

يتصور المشركون أن الغلبة لهم ، وهذا تصور كاذب ، فإمهال الله لا يعنى إهمالهم ، والآيات تؤكد صورة التعالى التى يظهر بها الضالون المشركون ومحاولاتهم إفساد الناس .

إن الله لا يظلم الناس شيئاً ، وسيقيم عليهم الحجة ، ويعذبهم بما قدموا فى الدنيا ، ولا يتصور المشركون أن الدنيا لهم . فقد قضى الله عليهم بالخزى فيها حيث الذل والهوان ، والهزيمة والانكسار ... لأن العبرة بالخواتيم .
إن الصراع يمر بمراحل كبيرة ، وفى النهاية يفرح المؤمنون ينصر الله ينصر من يشاء ، وهو القوى العزيز .

كشف ضلال المنافقين

يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَنْفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلِبِئْسَ الْعَشِيرُ ۝ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

نزلت في قوم من الأعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا قدم المدينة ، وصح جسمه ، وولدت فرسه مهرا ، وولدت امرأته

(٨٠٩)

غلاما ، وكثر ماله ، وكان يقول : هذا دين حسن ، وقد أصبت فيه خيرا ، واطمئن له .

وان أصابه مرض ، وولدت امرأته جارية ، ولم تلد فرسه ، وقل ماله قال : ما أصبت منذ دخلت في هذا الدين إلا شرا فينقلب عن دينه ، وذلك هو الفتنة فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾^(١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة صورة من ضلال الكافرين جاءت هذه الآيات لبيان ضلال المنافقين .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المنافقين بعض الناس ، وأنهم يعبدون الله على شك ، وتردد ، فإن أصابه خير ثبت على الإيمان ، وإن جاءت فتنة انقلب على وجهه وخسر بذلك الدنيا والآخرة لأنه يعبد صنما لا يضر ولا يفيد فبئس العبادة ، وبئس العشير .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ أى ومن الناس فريق ضعيف الإيمان ، منافق القلب ، يعبد الله على شك وريبة يتأثر بما يعرض له ولا يتمسك بما آمن به .

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٥ .

﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴾ أى إن أصابه رخاء فى العيش ،
وصحة فى البدن ، وزيادة فى الولد والجاه فرح بإيمانه ، وتمسك به .

﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ أى وأن أصابه بلاء فى
بدنه ومعيشته ، وعمله ، وأهله ارتد عن الإيمان وتحول إلى الكفر ، وانقلب
انقلابا عما كان فيه .

﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴾ أى ضيع نفسه ، وخسر منفعة الدنيا ،
ومنفعة الآخرة ...

وسبب هذا الخسران أن الإيمان بالله يجب أن يقوم على الاقتناع الحر ،
والفهم الواعى الذى يثبت مع الحق ، ويتحمل صاحبه مع هذا الثبات كل ما
يتعرض له من أذى وعدوان ، ... وكل ذلك لا يتمسك به المنافقون .

﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ أى أن الذى خسر دينه خسر كل شئ
وهذا أمر واضح بين .

﴿ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ﴾ أى أن هذا
المنافق بعد رده يعبد أصناما غير الله تعالى لأنها لا تضر ولا تنفع .
﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ أى إن عبادة الأصنام ضلال كبير وكفر
صريح بالله تعالى .

﴿ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ۚ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ
الْعَشِيرُ ﴾ أى يدعو المنافق الأصنام مع الله ، ويعبدها من دون الله مع وضوح
الضرر المترتب على هذه العبادة ، وبئس هذه الأصنام لمن اتخذها إلها ، وبئس
اتخاذها أنيسا أو نصيرا .

(٨١١)

فإن قيل : فى الآية السابقة جاء نفي الضر والنفع بصورة مطلقة ، وفى هذه الآية أثبت الضر والنفع ، وبين أن الضر أقرب من النفع ... فكيف ذلك ؟
أقول : إن النفي فى الآية الأولى متعلق بالأصنام فإنها لا تضر ولا تنفع أما الضر والنفع هنا فهل متصل بعبادة المشرک . والمعنى إن الضر المترتب على عبادة الأصنام أقوى من أى نفع ينتظره المشرک الضال منها ، ويأتى هذا الضرر من غضب الله ، وعذابه للمشرکين .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المنافقين يظهرون الإيمان وهم فى شك منه ، فإن أتاهاهم خير من مال ، وولد ، وسلطان أعلنوا إيمانهم ، وإن أصابهم بلاء واختبار انتكسوا ، وكفروا بالله ، وتركوا الإيمان الذى كانوا فيه ... وبذلك خسروا الدنيا والآخرة .

إنهم يعبدون أصناما لا تنفع ولا تضر ، ويضلون ضلالا بعيدا ولا يستحقون إلا الخزي والهوان فى الدنيا والآخرة .

- ٦ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

النفاق خور فى الإيمان والعزيمة

النفاق ادعاء الإيمان مع البعد عنه ... ذلك أن المنافقين يعلنون الإيمان وهم يشكون ويترددون .

إن المنافقين يبنون استمرار الإيمان على أساس ما يأتىهم من منافع دنيوية وهذا خطأ كبير .

إن الإيمان يقين بالله تعالى ، وإذا ما استقر في القلب ثبت ، وقوى ولا يتصور زواله مطلقا ، يضحى المسلم بحياته ولا يضحى بإيمانه .

إن الإيمان يعنى الحياة فى معية الله تعالى ، وهذا يؤدى إلى التمسك به .
لما آمن سحرة فرعون هددهم بالقتل والصلب والتعذيب فردوا عليه و
﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَاسْتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾^(١) .

أما المنافقون فإنهم يظهرون كفرهم حين إصابتهم بمكروه ، ويلجأون إلى عبادة الأصنام مع ما فيها من ضلال وكفر .

مصير المؤمنين فى الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة مصير الكافرين والمنافقين جاءت هذه الآية لبيان مصير المؤمنين .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية الجزاء الحسن الذى أعده الله للمؤمنين ، وهو إدخالهم الجنة بسبب إيمانهم ، وعملهم الصالح ، والله فعال لما يريد .

(١) سورة طه ، الآية ٧٢ .

(٨١٣)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى مطلع على عباده ، فمن آمن وعمل صالحا يدخله الله الجنة ، ويجازيه أحسن الجزاء ، ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ، والله يفعل ما يريد .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، ولا يظلم الله أحدا فى حسابه وجزائه .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

الترغيب فى الإيمان

تدعو الآية المؤمنين إلى التمسك بإيمانهم ، والاستمرار فى العمل الصالح ليستمر عطاء الله لهم فى الدنيا ، ويجزيهم فى الآخرة أحسن الجزاء .
والآية تبين ما أعده الله للمؤمنين فى الآخرة . فقد أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأكرمهم بالحياة الرغدة ، والصحبة الطيبة ، والله يعطى المؤمنين ما يشاء ، فهو على كل شئ قدير ، وهو سبحانه يفعل ما يريد .

نصر الله لرسوله ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ ﴿١﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿٢﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآية السابقة دخول المؤمنين الجنة جزاء لإيمانهم ، وعملهم الصالح .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الله سينصر رسوله ﷺ الذي اختاره للرسالة ، وأنزل عليه الوحي ، والله يفعل ما يريد ، وكل من يتمنى هزيمة رسول الله ، وعدم عناية الله به فليقتل نفسه حسرة ، وألماً ، وندماً .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ أى من كان يحسب أن الله لن ينصر محمداً ، ودينه ، وكتابه فى الدنيا والآخرة فليذهب إلى بيته ، ويقتل نفسه بحبل يعلقه فى سقف بيته ثم يشنق نفسه به ،

ويقطع رقبتة . ثم يتأمل ذلك ، ويرى هل يذهب غيظه من محمد بذلك ؟ ...
وينتهي حقه وفكره حينئذ !!

وليعلم هذا الجاحد الحاقداً أن الله ناصر رسوله في كافة مواقفه وغزواته
يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ
يَقُومُ الْآلَشَّهَدُ ﴾ ^(١) . فهو سبحانه ناصر لرسوله في الدنيا ، يعلى دينه ، ويرفع
درجته ... ومن يعاديه يغيظه هذا النصر فغاية أمره الهوان ، والحسرة يقول الله
تعالى : ﴿ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾ ^(٢) .

فإن قيل : هزم النبي والمسلمون في أحد وحنين ؟!
أقول : إنها كانت هزائم مؤقتة انتهت بنصر ، ولم يحدث فيها اندحار ،
وانكسار .

ودل قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنْ ﴾ على أن المراد من كان مستمرا
في حقه وكراهيته لمحمد وللمسلمين ... أما من تاب وآمن فقد خرج من دائرة
الحاقدين .

وفى قوله تعالى : ﴿ هَلْ يُذْهِبْنَ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ استفهام إنكارى ينفى
ذهاب الغيظ عن الحاقدين مهما دبروا ، ومكروا ، وكادوا ... وهذا النفى مستفاد
من ناحيتين :

أحدهما : دخول نون التوكيد على الفعل ﴿ يُذْهِبْنَ ﴾ يدل أن معنى
الاستفهام النفى .

ثانيهما : الاستفهام هنا للإنكار ، وهذا نفى آخر .

(١) سورة غافر ، الآية ٥١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٩ .

(٨١٦)

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَنِ يُرِيدُ ﴾ أى

وبمثل ما أنزلنا يا محمد الحجج والبراهين أنزلنا عليك القرآن الكريم مشتملا على البيان الواضح ، والهداية التى يريدّها الله لمن يشاء من عباده .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان لمشركى مكة ومن يماثلهم فى حقده ، وكراهيته لمحمد ودينه واتباعه أن الله سينصر رسوله ودعوته ومن يغتاز من ذلك فليقتل نفسه أو يفعل ما يريد ، فكل فعله وبال عليه ، لأنه يعادى الحق ، ويحارب الخير ، ويبغى الفساد فى الأرض .

وقد أنزل الله الدين الحق على محمد ﷺ وأنزل معه القرآن الكريم بآياته البينة ، وهديه العظيم ... والله يفعل ما يشاء .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ليذهب الحاقد يغيظه

خلق الله الناس ، وجعلهم مذاهب شتى ، وخلق فيهم نوازغ عديدة واتجاهات كثيرة ، وأرسل رسله للناس لبيان الحق من الباطل ، وتفصيل الآيات لقوم يعقلون .

ويستمر التنافس والصراع بين الناس . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ ^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ ^(٢) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ ^(٣) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ^(٤) .

ولو أنصف الإنسان لتعامل مع غيره في حدود الاختلاف ليستمر الود ، والتعاون في إطار الإخوة الإنسانية العامة ... إلا أن الحقد سيطر على الجاحدين فغاضهم وآلمهم انتصار محمد ﷺ ودينه واتباعه ... ولقد قطع الله عليهم أحلامهم ، وعرفهم أنه لا نهاية لحقدهم ، ومكرهم إلا بأن يتخلصوا من أنفسهم لتنتهى معاناتهم .

وفي هذا ركيعة لأصحاب الدعوة الصادقين تدلهم على ما يلي :
أولاً : وجود عداوات لدينهم تتجه إليهم بالاتهام والكيد ، لأن هؤلاء الأعداء عجزوا عن اتهام الإسلام ، والعدوان عليه فلجأوا إلى العدوان على الدعوة الممثلين للإسلام بين الناس .

ثانياً : أن يعدوا للتنافس مع خصوم الإسلام عدتهم ، وذلك يكون بالعلم الجاد ، والعمل المخلص ، والتوكل المستمر على الله تعالى .

ثالثاً : التعالى مع الدعوة عن سفايف الأمور ، وعدم التسفل مع الخصوم بمثل أفعالهم وأقوالهم ، والاكتفاء بتحصيل جوانب الدعوة ببراهين العقل ، ودلالة الآيات .

(١) سورة الليل ، الآية ٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥١ .

(٣) سورة هود ، الآية ١١٨ ، ١١٩ .

رابعاً : الإدراك المسبق بوجود هذه المعارضات ، والاستعداد لمواجهة لها لقد اتهم المشركون رسول الله ﷺ بالسحر ، والشعر ، والكذب وما أبعد ذلك عن الدعوة ... ودائماً كان يقول للناس : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون .

الركيزة الثانية

التوكل الدائم على الله تعالى

يحتاج المؤمن في حياته إلى التوكل الدائم على الله تعالى ، فهو سبحانه القادر على حفظ دينه ورسوله على الزمن كله .
وقد بين الله الحق في كتابه المنزل في بيان واضح ، ويسر في الفهم والوضوح .

إن التوكل على الله تعالى يمكن الإنسان من طريق الهداية ، ويؤكد معية الله لعباده المخلصين .
إن علم الله تعالى وقدرته مطلقة ، ولذلك كان اللجوء إليه سبحانه وتعالى لجوءاً إلى العلم المحيط ، واستعانة بالقدره الطليقة المطلقة .

حكم الله في الناس

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٤٧ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيتان السابقتان أن الله سينصر محمداً ﷺ ودينه ، ويخزي أعداءه جاءت هذه الآية لبيان أن أمر الخلائق بمذاهبهم وأديانهم إلى الله تعالى .

- ٢ -

(٨١٩)

معنى الآية

تبين الآية أن أمر الناس بكافة مذاهبهم وأديانهم إلى الله تعالى يفصل بينهم يوم القيامة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى إن الله سوف يفصل بالحق بين سائر الناس على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم .

وقد تحدثت الآية عن أصناف ستة تضم ما عداها من مذاهب الناس ...

وهى :

(١) المؤمنون : وهم الذين دخلوا فى الإسلام ، وآمنوا بكل ما جاء به رسول الله ﷺ وهم ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ .

(٢) اليهود : وهم الذين آمنوا بموسى عليه السلام ، وكتابهم التوراة ، وهم المراد من قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ .

(٣) الصابئون : وهم عبدة الكواكب ، وعنهم يقول الله تعالى : ﴿ وَالصَّابِئِينَ ﴾

(٤) والنصارى : وهم اتباع عيسى عليه السلام بمختلف طوائفهم ، ومذاهبهم قديما وحديثا ، وهم المراد من قوله : ﴿ وَالنَّصَارَى ﴾ .

(٥) المجوس : وهم عبدة النار وهم : ﴿ وَالْمَجُوسَ ﴾ .

(٨٢٠)

(٦) ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ : وهم الذين عبدوا آلهة غير الله تعالى ، وجعلوا لله

شركاء عبدوهم ، وتوجهوا إليهم بأقوالهم ، وأفعالهم .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أى أن الله يفصل بين كافة

الطوائف ويحاسبهم بما عملوا فيثيب الصالحين ، ويعاقب العصاة والضالين .

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أى أن الله يجازى الناس على عملهم

وهو سبحانه وتعالى عليم بما فعلوا ، وهو على كل شئ شهيد .

وميزان الفصل هو دين الله الذى ارتضاه الله للناس وختم به سائر الأديان

، وأودع فيه الحق والصواب ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ

دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١) .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن كافة الناس بمذاهبهم وأديانهم سيرجعون إلى الله ،

وسيحاسبهم على ما كانوا فيه ، وما عملوا .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

كل نفس بما كسبت رهينة

الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الدين ، وهو يؤكد أن الدنيا ستنتهى

لتبدأ الآخرة بكل مشاهدتها ، وصورها .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٨٥ .

والآية توضح أن أمر الآخرة إلى الله تعالى ، وسيحاسب جميع الناس على ما كانوا عليه فى الدنيا من دين ومذهب ، وعمل وقول ، وسوف ينال كل فريق ما استحق بعدل ودقة ، فالله عليم بعباده ، وهو على كل شئ شهيد .

سجود الخلق لله رب العالمين

يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۚ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۚ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝۱۸ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآية السابقة أن أمر العباد جميعا إلى الله يفصل بينهم يوم القيامة جاءت هذه الآية تبين أن جميع الخلق يسجد لله تعالى ماعدا كثير من الناس الذين أبوا الإيمان فاستحقوا اللعنة والعذاب .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن جميع الخلق يسجد لله تعالى ماعدا بعض الناس فإنهم عصوا الله ، وأبوا السجود له فاستحقوا الهوان والعذاب .

الدلالات اللغوية

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾

أى ألم تر أيها المخاطب أن الخلائق التى أوجدها الله تعالى فى السموات والأرض مسخرة بقدرته ، خاضعة لجبروته ، منقادة لأمره ، فهى تؤدى دورها ، وتقوم بما خلقت له .

و ﴿ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ شامل لسائر خلق الله ، فالخلق إما فى السموات ، أو فى الأرض ، أو بينهما أو فوق السماء أو تحت الأرض وفى ذلك دلالة على خضوع كل الخلق لله تعالى .

﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ

مِّنَ النَّاسِ ﴾ أى أن هذه المخلوقات تسجد لله كسائر المخلوقات ، وخصها بالذكر لأن بعض الناس اتخذوها آلهة . فقد عبدت الشمس حمير ، وعبدت كنانة القمر ، وعبدت لخم الشعري ، وعبدت طئ الثريا ، وعبد المصريون العجل ، وعبدت غطفان العزى ، واتخذ المصريون الفرعون إلها .

فهذه المخلوقات تسجد لله تعالى مع ضلال من اتخذها إلها : ﴿ وَكَثِيرٌ

حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ أى أن الخلق يسجدون لله طائعين مختارين إلا أن كثيرا يسجدون مكرهين لا مختارين فاستحقوا العذاب الذى سيحل بهم .

﴿ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ ﴾ أى أن من يقدر الله شقاه ،

وسوء عاقبته فلن يتحقق له خير وكرم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُشَاءُ ﴾ أى أن الله يفعل بخلقه ما يريد حسب مبولهم

واستعدادهم .

(٨٢٣)

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الخلق يسجدون لله تعالى طوعا أو كرها إلا أن الكفار يسجدون مكرهين ، وبذلك يستحقون العذاب والهوان وليس لهم من دون الله ناصر أو شفيع .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

الله رب العالمين

خلق الله الخلق ، وجعل لكل مخلوق هدفا وغاية ، ومكنه من القيام به ، وأدائه . يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ 》^(١) .

وظهرت رحمه الله في خلقه كله حيث التكامل والتوازن ، فكل مخلوق يحتاج لغيره ، ويكمّله ، ويتعاون الخلق كله في منظومة واحدة تقدم الحياة الدنيا .

إن ما خلق الله في السموات يخدم الأرض ، وما خلق في الأرض ينفع السماء ، ولا يستغنى مخلوق عن غيره .

وعلى الإنسان أن يستفيد بغيره ، ويحافظ على حق غيره عنده في حدود شرع الله تعالى ، وبصر على القيام بما وجب عليه .

ومن منارات الإنسانية في دين الله تعالى نقراً :

- ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^(٢) .

- ﴿ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾^(١) .

(١) سورة الأعلى ، الآية ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٠ .

(٨٢٤)

- ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٢) .
 - ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(٣) .
 - ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾^(٤) .
 - "الدين النصيحة"^(٥) .
 - "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"^(٦) .
- إن هذه المنارات دعائم قيام المجتمع المؤمن الذي يؤمن بدين الله تعالى
ويعلم أن الله رب العالمين .

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٢ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ١٠٥ .

(٤) سورة العصر ، الآية ٣ .

(٥) سنن أبي داود . كتاب الأدب . باب في النصيحة ج ٤ ص ٢٨٦ .

(٦) السنن الكبرى للبيهقي . كتاب الشهادات . باب بيان مكارم الأخلاق ج ١٠ ص ٣٢٣ .

انقسام الناس

يقول الله تعالى :

﴿ هَذَانِ حَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۚ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٦﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿١٧﴾ وَهُمْ مَّقْمِعُ مِنَ حَذِيدٍ ﴿١٨﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُخْلَلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٠﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿٢١﴾ ﴾ .

- ۱ -
سبب نزول الآيات

نزلت في الذين برزوا يوم بدر حمزة ، وعلي ، وعبيدة بن الحارث من المسلمين وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة من مشركى مكة^(١) .

قال قيس بن عبادۃ فيهم نزلت : ﴿ هَذَانِ حَصْمَانِ اٰخْتَصَمُوْا فِي رِيْهِمْ ﴾
 وهم الذين تبارزوا يوم بدر علي ، وحمزة ، وعبيدة بن الحارث ، وشيبة بن ربيعة ،
 وعتبة بن ربيعة ، وابنه الوليد بن عتبة .

قال محمد بن إسحاق : خرج يوم "بدر" عتبة بن ربيعة ، وابن أخيه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد بن عتبة ، ودعوا إلى المبارزة فخرج إليهم فئة من

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ٨ .

(٨٢٦)

الأنصار ثلاثة عوف ، ومعوذ ابنا الحارث ، وأمهما عفراء ، وعبد الله بن رواحة فقال المشركون : من أنتم ؟
قالوا : رهط من الأنصار .

فقال المشركون : أكفاء كرام ، ثم نادى مناديهم يا محمد اخرج إلينا أكفاءنا من قومنا .

فقال رسول الله ﷺ : "قم يا عبيدة بن الحارث ، ويا حمزة بن عبد المطلب ويا علي بن أبي طالب فلما دنوا منهم قالوا : من أنتم فذكروا أنفسهم .
قالوا : نعم أكفاء كرام .

فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز علي الوليد ابن عتبة .

فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة ، وقتل علي الوليد ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتان كلاهما أثبت صاحبه ، فكر حمزة وعلي بأسيا فهما على عتبة ، فذففا ، واحتملا عبيدة إلى أصحابه ، وقد قطعت رجله ومخها يسيل .
فلما أتوا به إلى رسول الله ﷺ قال : أليست شهيدا يا رسول الله .
قال : بلى ^(١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الخلق جميعا يسجدون لله تعالى طوعا ، أو كرها ، وأن كثيرا من الناس عصوا الله جاءت هذه الآيات لبيان أحوال طرفي الخصومة في قضية الإيمان بالله تعالى .

(١) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب غزوة "بدر" ج ٦ ص ٢٤٣ بنحوه .

(٨٢٧)

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الناس ينقسمون إلى طرفين في الإيمان بالله تعالى ، والاستسلام له .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ هَذَا نِ حَصْمَانِ أَحْتَصِمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ أى أن أهل الأديان الذين سبق ذكرهم وهم سائر الناس انقسموا إلى فريقين متعارضين في قضية الألوهية وما يتصل بها من صفات الله وكمالاته .

وقد تخاصم الفريقان وتنازعا ، وتمسك كل فريق بما ذهب إليه ، ويشمل الفريق الأول المشركين الذين اتخذوا مع الله إلها ، والجاحدين الذين أنكروا وجود الله تعالى ، والمحرفين الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، والله ثالث ثلاثة .

والفريق الثانى يشمل المؤمنين بالله تعالى وحده ، الذين لا يشركون معه غيره ، ويعبدونه حق العبادة ، ويسلمون بكل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ . وقد أظهرت الآيات صواب أو خطأ كل فريق بإظهار الجزاء الذى سيوضع فيه فى الآخرة ، لأنه جزاء على ما كانوا فيه فى الدنيا ... فمن حسنت عاقبته ، ودخل الجنة كان فى الدنيا مستقيما ، سائرا على الحق والصواب ... ومن ساءت عاقبته ، ودخل جهنم كان فى الدنيا من الضالين المفسدين .

وجزاء فريق الكافرين واضح فيما يلى :

(١) ﴿ فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ ﴾ أى فقد اعد الله للكافرين

نيرانا تحيط بهم ، كأنها ثياب قدت على قدر أجسامهم ، ولا يخفى ما فى هذا الأسلوب من التهكم بهم ، واحتقار شأنهم .

والتعبير بـ ﴿يُثَابِتُ مِنَ النَّارِ﴾ ، للإشارة إلى تراكم طبقات النار المحيطة بهم ، وكون بعضها فوق بعض .

(٢) ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ

وَالْجُلُودُ ﴿﴾ أي يصب من فوق رؤوسهم الماء الحار الذي يذيب

أمعاءهم وأحشاءهم كما يحرق جلودهم ، فله أثر في الباطن والظاهر .
عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه تلا هذه الآية فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
: "إن الحميم ليصب على رؤوسهم ، فينفذ من الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان" (١) .

(٣) ﴿وَلَهُمْ مَقْعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ أي ولتعذيبهم سياط من حديد ، تضرب بها

رؤوسهم ، ووجوههم ، يقيمون بها ، وإذا أرادوا الهرب من النار ردوا إليها ، وأعيدوا .

والى هذا أشار الله بقوله : ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ

أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أى إنهم كلما حاولوا الهرب من جهنم

والفرار منها أعيدوا فيها ، وضربوا بسياط من حديد ويقال لهم : ذوقوا عذاب هذه النار التي تحرق الأمعاء والأحشاء .

وبعد أن بين الله تعالى سوء حال الكافرين أردف ذلك ببيان ما يناله المؤمنون من الكرامة فى المسكن ، والحلية ، والملبس ، وحسن القول والعمل فقال تعالى :

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب صفة جهنم . باب صفة شراب أهل النار ج ٤ ص ٧٠٥ .

(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى إن الله يدخل من آمن به ، وبرسله ، وأدى

صالح الأعمال التي تزكى نفسه ، وتقربه إلى الله تعالى جنات تجرى من تحت قصورها وأشجارها الأنهار الواسعة ليتمتعوا بها كما يشاءون .

(٢) ﴿تُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أى يلبسون فى أيديهم

حلية من ذهب ، وفى رءوسهم تيجانا من لؤلؤ .

(٣) ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أى ويلبسون الحرير الذي حرم عليهم لبسه

فى الدنيا ، وكان فيها عنوان العزة والكرامة فأوتوه فى الآخرة إجلالا وتعظيما لهم .

(٤) ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أى وأرشدوا إلى القول الطيب

وهو قولهم حين دخول الجنة .

(٥) ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أى وأرشدوا إلى الطريق الحميد الذي

يجعل أقوالهم وأفعالهم مرضية عند ربهم ، محمودة لدى معاشريهم واخوانهم لما فيها مما يجمل فى المعاشرة والاجتماع .

عن معاوية هو جد بهز بن حكيم عن النبي ﷺ قال : "إن فى الجنة بحر

الماء ، وبحر العسل ، وبحر اللبن ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار بعد" (١) .

وعن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : "جنتان من فضة أنيتهما

وما فيهما ، وجنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا

إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن" (٢) .

(١) سنن الدارمى . كتاب الرقاق . باب فى أنهار الجنة ج ٣ ص ١٨٧٣ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب التفسير . باب قوله : ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ج ٦ ص ١٤٥ .

(٨٣٠)

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة"^(١) .
وبهذا يظهر فساد ما كان فيه المشركون ، وصلاح ما كان عليه المؤمنون .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الناس ينقسمون إلى فريقين متخاصمين . أحدهما فريق الكفار ، ولهم عند الله عذاب أليم . وفريق المؤمنين ولهم جنات النعيم .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

وضوح المستقبل أمام العقلاء

تبين الآيات انقسام الناس إلى فريقين ، فريق آمن بالله ، واستقام على دينه ... وفريق عصى الله ، وكفر به ، وضل طريقة إلى دين الله الحنيف .
وهذا الفريقان متقابلان متعارضان في الدنيا والآخرة .
وقد فصلت الآيات في مصير كل فريق ليختار كل عاقل لنفسه على بصر بما سيؤول إليه حالته .
إن القضية التي اختلفوا حولها هي إيمانهم بالله وعبادته ، وقد أدى اختلافهم إلى وقوع الكافرين فيما وقعوا فيه ، وفوز المؤمنين بما فازوا به ...
فليختار العاقل لنفسه ، وإلى الله ترجع الأمور .

(١) صحيح البخارى . كتاب اللباس . باب لبس الحرير ج ٨ ص ٣٩٧ .

(٨٣١)

حرمة البيت الحرام

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكِافُ فِيهِ وَالْأَبَادُ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقُهُ مِنْ عَذَابِ الْيَمِّ ﴾ .

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الناس ينقسمون إلى فريقين متعارضين ، فريق المؤمنين ، وفريق الكافرين جاءت هذه الآية لبيان عقوبة الكفار الذين يصدون عن دين الله ويمنعون الناس من دخول المسجد الحرام .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية أن الذين يكفرون بمحمد ﷺ يصدون الناس عن سبيل الله ، ويمنعونهم من دخول المسجد الحرام الذي جعل الله الناس فيه على سواء ، وقضى بأن من يظلم غيره فيه يذقه الله من عذاب أليم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكِافُ فِيهِ وَالْأَبَادُ ﴾ أى إن الذين يجحدون نعم الله ، وآياته ، ويكفرون به ، ويعبدون غيره ، ويمنعون الناس من الدخول فى

(٨٣٢)

الإسلام ويصدونهم عن دخول المسجد الحرام الذى جعله الله للناس كافة ، سواء كانوا مقيمين بمكة ، أو طارئين إليها ... هؤلاء الكافرون لهم عذاب أليم .

﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نَذَقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ أى ومن يرد أن يميل إلى الظلم فى المسجد الحرام فيعصى الله ، ويخالف أوامره نذقه يوم القيامة العذاب الموجه الأليم .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية أن الله أنذر الذين كفروا بمنعهم الناس من اعتناق الإسلام ، ومن الدخول إلى مكة بعذاب أليم ، لأن هذا ظلم يضاعف الله العذاب لمن يفعله فى الحرم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

توازن الجريمة والعقاب

فى حكم الله تعالى

يرجع الخلق جميعا إلى الله تعالى وقد تجردوا من دنياهم ، وعلائقهم فيها وأمانيتهم التى كانوا عليها ... ويتلقاهم ربهم بأعمالهم ، ويحاسبهم عليها . وفى اليوم الآخر يبرز الإنسان بعمله ، ويعلوه كتابه وهو يشهد له أو عليه بلا خفاء أو ستر .

فى هذا اليوم ترى كل نفس جزاء ما قدمت ، وتوفى كل نفس بما عملت وهم لا يظلمون ، ويرى الإنسان نفسه فى مصير يتوافق مع عمله ... ولذلك

(٨٣٣)

كان التحذير من عدم الإيمان ، ومنع صد الناس عن البيت الحرام لأن ذلك جرم مؤلم العقوبة ، ونار جهنم هي مأوى المجرمين .

بناء "إبراهيم" ﷺ للبيت ونداؤه بالحج

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ
لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٦٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ
يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٦٧﴾ لِيَشْهَدُوا
مَنْفَعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ
الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا
نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٦٩﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآية السابقة مصير الكافرين الذين يصدون الناس عن دين الله وعن البيت الحرام جاءت هذه الآيات لبيان أن إبراهيم ﷺ هو الذى بنى البيت ، ودعا إلى الحج ، ونادى بأداء مناسكه ، وما كان لهم أن يصدوا الناس عنه ، وكان عليهم أن يهيئوا البيت الحرام لمن جاءه حاجا أو معتمرا .

(٨٣٤)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن إبراهيم عليه السلام بنى البيت ، ونادى بتوحيد الله تعالى ، ودعا الناس للحج ، وأداء المناسك ، والمجيء للبيت أفرادا ووحدا لعبادة الله تعالى ، والانتفاع بالتعارف ، والتجارة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ أى اذكر يا محمد للمشركين

الذين يصدون الناس عن البيت ، وعن دين الله تعالى الوقت الذى جعل الله فيه البيت مباءة للناس ، يرجعون إليه للعبادة وهو الوقت الذى وقعت فيه حوادث جسام حيث عرف إبراهيم عليه السلام مكان البيت ، وقام ببناؤه ومعه ابنه إسماعيل ليتذكروا فضل الله ، ويدعوا الناس لدين الله تعالى ، والمحافظة على شعائره .

﴿ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ

وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ أى قلنا لإبراهيم عليه السلام حين عرفناه مكان البيت : وحد الله ، وخصه بالعبادة ، ولا تتخذ غيره إلها ، وطهر البيت من الأقدار والأصنام التى تحيط به ليكون مكانا طاهرا لمن يطوف به من الحجاج والمصلين ، والقائمين .

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ

يَأْتِيَنَّ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ أى كلفنا إبراهيم عليه السلام وقلنا له : ادع الناس إلى حج بيت الله الحرام ، وزيارته . فقد تم إعداده بأمر الله ليأتى الناس إليه زائرين ، وحجاجا سائرين مشاة على أرجلهم ، أو راكبين ضوامر الإبل قادمين من أماكن عديدة قريبة أو بعيدة .

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ

عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ أى ادع يا إبراهيم الناس إلى حج بيت الله الحرام ليأتوا إليه حاجين وزوارا ، ويقوموا بتحقيق منافع دنيوية ، كعمل تجارى ، وتوحد سياسى ، وتنوع ثقافى ، ويحققوا أيضا منافع أخروية مثل ذكر الله ، وأداء مناسكه ، وإسالة الدم شكرا لله على أن وفقهم لحج بيته الحرام ، وسوق الهدى ، وذبحه فى الحرم ، وإيصاله لمستحقه .

والأيام المعلومة هى يوم العيد وأيام التشريق الثلاثة على الأرجح وهى الأيام التى يتم فيها ذبح الهدى من الإبل والبقر والغنم على نحو ما فصل الفقهاء .

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ أى اذكروا الله على ذبائحكم

وكلوا من لحومها ، واطعموا منها فقراء الحرم المحتاجين .

﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

أى ثم يتحللون من إحرام الحج بالحلح ، وقص الشارب ، ونتف الإبط ، وبذلك يتخلصوا من أى وسخ علق بهم .

وأيضا يوفون بنذرهم التى نذروه من أعمال البر ، ومساعدة الآخرين .

ويطوفون بالبيت عند رجوعهم لوطنهم مودعين لبيت الله الحرام أول بيت

بنى فى الأرض .

والطواف ثلاثة أنواع هى :

(١) طواف القدوم : وهو الذى يؤديه القادم إلى مكة عند قدومه فيطوف

بالبيت سبعا ، يرمل ثلاثا من الحجر الأسود إلى أن ينتهي إليه ، ويمشى

أربعا وهذا الطواف سنة لا شئ على من تركه .

(٨٣٦)

(٢) طواف الإفاضة : وهو طواف الحج يؤديه الحاج عقب نزوله من المزدلفة يوم العيد وبعده .

(٣) طواف الوداع ، ويكون لمن أراد ترك مكة ، ويبدأ به الرجوع لبلده .
إن أعمال الحج رموز عملية منظورة تؤكد معان إيمانية ، وتبين أن الحج مدرسة ربانية تعلم الطاعة ، والوفاء بالعهد ، والتمتع بالحسن والجمال .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله عرف إبراهيم عليه السلام مكان البيت وأمره ببنائه ، وكلفه أن ينادى الناس بالحج بعد أن أعد البيت للحج ، وطهره من الأصنام والأوثان ، وتبين أن الناس سيأتون إلى مكة حاجين ومعتمرين مشاة على أقدامهم ، أو ركابا على ظهور الدواب الضامرة ، ليحجوا ، ويقوموا بأعمال تنفعهم في الدنيا مثل التجارة ، والتعارف ، والتعاون ، كما يقومون بأعمال للأخرة فيذبحوا الهدى في وقته ، ويوصلوها إلى مستحقيها من فقراء الحرم ويأكلون منها ، ويزيلوا الوسخ ، ويحلقوا رؤوسهم ، ويطهروا البيت من الأصنام والأوثان ، ويودعوا البيت بطواف الوداع .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة ... وهي :

الحج مؤتمر إسلامي جامع

منذ أن بنى إبراهيم عليه السلام البيت بعد أن عرفه الله مكانه ، وأمره ببنائه ، وكلفه بدعوة الناس إلى عدة قضايا هي دينه التي دعا الناس إليه ... وأهمها :

(٨٣٧)

(١) الإيمان بأن الله الواحد الأحد ، ليس له ند أو شريك لأن كل شئ هالك إلا هو سبحانه وتعالى .

(٢) إعداد البيت الحرام للعبادة ، وتطهيره من مظاهر الشرك ، وعبادة غير الله تعالى .

(٣) تخصيص البيت الحرام للعبادة يقصده الناس من كل صوب للصلاة والحج ، وعبادة الله تعالى .

(٤) الاستفادة بالتجمع الكبير فى الحج فى كافة قضايا الدين والدنيا ففيه تكون التجارة ، ويكون التعليم ، ويكون التعاون ، وفيه يكون العيد ، وفيه يكون الطعام والفرح والسرور .

(٥) تربية النفس ، وتعود الطاعة والذكر بصورة فردية وجماعية .

وجاء الإسلام ، ودعا الإسلام إلى الحج على نفس مبادئه الأولى التى نادى بها إبراهيم عليه السلام لقد مكن الله لإبراهيم أن يبنى الحرام فى مكة مع إسماعيل عليهما السلام ، وهى البلدة التى لم يظهر فيها بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام سوى محمد ﷺ ليعلم الجميع أن مكة هى بلد الله الحرام ، وأن الحج إليها شعيرة إسلامية تحقق العبودية لله ، والنفع للمسلمين أجمعين .

تعظيم حرمة الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَةَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۚ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ۚ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعِيرَةَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَىٰ الْقُلُوبِ ۚ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلَاهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۚ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام ببناء البيت ، وتطهيره من الأصنام ، ونداء الناس بالحج ليشهدوا بعض منافعهم الدنيوية والأخروية جاءت هذه الآيات لبيان المحرمات التي يجتنبها المحرم حال إحرامه ، وأهمها تجنب الأوثان والشرك ، وشهادة الزور ، لأن الشرك يجلب على المشرك الضرر ، والأذى ، والهلاك .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن من أعظم أعمال الإيمان تعظيم حرمة الله ، وتحليل ما أحله ، وتحريم ما حرمه ، وقد أمر الله تعالى باجتناب الأوثان ، وقول الزور ، والتمسك بتوحيد الله ، وتجنب الشرك لأن من يشرك بالله يلق عذاباً أليماً .

إن تعظيم شعائر الله جزء من التقوى ففيها منافع الدنيا والآخرة ، وفيها الخوف والرجاء .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾

اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يشير إلى ما ذكر في الآيات السابقة من تحليل وتحريم لبيان أن ذلك هو الفرض الواجب على الحاج حين إحرامه ، وأن تعظيم جرم الحرام وضرورة البعد عنه ، وتحسين الحلال وأهمية القرب منه ، لأن ذلك يحقق الخير في الأرض بين الناس وفي الكتاب عند الله تعالى ليرى صاحبه ثوابا حسنا في الآخرة .

﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآنِعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أى وأحل الله لكم

أيها الناس أن تأكلوا الأنعام إذا ذكيتموها ماعدا ما ينلى عليكم فى كتاب الله منها وهو الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع ، وما ذبح على النصب ، فإن كل ذلك رجس لا يجوز أكله .

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ أى فابتعدوا عن عبادة الأوثان ، وطاعة الشيطان ، فإن ذلك رجس ، واتقوا قول الكذب والفرية على الله كقولكم فى الآلهة : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾^(١) ، وقولكم : الملائكة بنات الله ، ونحو هذا من القول ، فإن ذلك كذب ، وزور ، وشرك بالله تعالى .

(١) سورة الزمر ، الآية ٣ .

﴿ حُتَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ أى تمسكوا بهذه الأمور على وجه العبادة لله وحده ، دون إشراك غيره معه .

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ أى إن من أشرك مع الله سواه فقد أهلك نفسه بهلاك ليس وراءه هلاك ، وكانت حاله أشبه بحال من سقط من السماء فتخطفته الطير فتبتلع أجزائه فى حواصلها إربا إربا ، أو أشبه بمن عصفت به الريح فهوت به فى المهاوى البعيدة التي لا رجعة له منها .

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ "ذلك" إشارة لمن يلتزم بأحكام الله السابقة ، فإن التزامه بتعظيم شعائر الله قولاً وعملاً يدل على امتلاء قلبه بالتقوى والخشية .

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى لكم فى هدى الأنعام منافع قبل ذبحها ، وقبل وصولها إلى مكة مثل ركوبها ، وشرب لبنها عند الضرورة .

﴿ ثُمَّ مُحَلَّاهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ أى أن المحل الذى تذبح فيه يكون عند بيت الله الحرام الذى اعتقه الله من الجابرة ، وأهلك عنده الظالمين .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن تعظيم شعائر الله من أعظم دعائم التقوى ، وقد أحل الله الأنعام إلا ما حرم منها كالميتة والمنخنقة وغيرها ، وتبين ضرورة اجتناب الأوثان وقول الزور ، وإن نؤمن بالله وحده ، ونستقيم على هديه لأن من أشرك

(٨٤١)

بالله . فقد هلك وضاع ، وحال كحال إنسان سقط من السماء ، فتخطفه الطير
أو يهوى به الريح فى مكان سحيق .
إن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب ، ومن الخضوع لله رب العالمين .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ضرورة البعد عن حرمة الله تعالى

خلق الله الإنسان ليكون عبدا مطيعا ، يؤمن بالله الواحد الأحد ، ويلتزم
بشرعه ومنهجه ، ويستقيم في سلوكه وخلقه .
ورتب الله على أعمال الإنسان في الدنيا الجزاء في الآخرة حيث الجنة
أو النار .

والإنسان العاقل هو من دان نفسه ، وخضع لله ، واستقام على منهج الله
تعالى لأنه حين يلتزم بجوانب العبودية يحقق لنفسه خير الدنيا ، وخير الآخرة
فهو في غيره ، يجد ، ويتعب ، ويعلم ، ويتعلم ليرتقى ويسعد ، وبذلك وغيره
يتمتع بدنياه ، وفي نفس الوقت يسعد بأعماله في أخراه .
إن العبادة نية وعمل وأخلاق ، وكلها تقوم على الخير ، وتلتزم بالمنهج
المستقيم ، ولذلك فهي الخير كله .

الركيزة الثانية

في الحلال غنية عن الحرام

الحلال بين والحرام بين ، وفي الحلال غنية عن الحرام ، وتمسك بالخير
والمصلحة ، وما من حرام إلا وأمامه حلال أعظم منه ، وأكثر فائدة ، فمن رغب
المرأة فليتزوج ، ومن أحب المال فليعمل ، ومن تمنى فليستقم ، ويتعاون .

إن الحرام رجس وعدوان ، ومن يألفه يصعب عليه أن يتركه ، ويتصوره طريق الوحيد للنجاح ... والحق غير ذلك فالحلال طريق الصلاح في الدنيا ، والسعادة في الآخرة .

شرائع الله للأمم متعددة

يقول الله تعالى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ
الَّتَنَعَمُوا ۖ فَالِلْهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۖ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۚ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ
اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُم وَالْمُقِمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ ﴿١٧﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة أن تعظيم شعائر الله من دعائم التقوى جاءت هاتان الآيتان لبيان أن لكل أمة مناسك وشعائر وأذكارا خصها الله بها .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان أن الله جعل لكل أمة منسكا خاصا بها ، فالله واحد ، والعقيدة واحدة إلا أن المناسك والشرائع تختلف باختلاف الأمم ، فطاعة الله واجبة ، والاستسلام لأمره حتمى ، فهو إله واحد يجب الإيمان به والخشوع له ، والمؤمنون يعيشون لله فإذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، ويصبرون عن كل ما يصيبهم ، وينفقون مما رزقهم الله تعالى .

(٨٤٣)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ أى جعلنا لكل جماعة مؤمنة في الأمم

السابقة طريقة ومكانا ومسالك لما أبيح لهم ، وجعلنا لكل منهم شريعة يلتزمون بها ، ويتقربون بها إلى الله تعالى .

﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ ۖ ۖ الْأَنْعَامِ ﴾ أى جعلنا لكل أمة منسكا كي يذكروا الله عند ذبح أنعامهم ، ويشكروه أن أعطاهم ، ومكنهم من الذبح عن البيت الحرام .

﴿ فَالِهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۖ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۖ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ أى أن الله تعالى إله واحد متصف بكل كمال يليق به ، فآمنوا به ، وأطيعوه ، واستقيموا على دينه ، وكونوا من المخبتين الذين طهر الله نواياهم ، وأعمالهم ، ومتعمهم بالصفات التالية :

(١) ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى إذا ذكر الله أمامهم

خشعت قلوبهم ، رغبا ورهبا .

(٢) ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ﴾ أى أنهم صابرون على أى بلاء

يصيبهم فى أنفسهم ، وأموالهم ، وأهليهم .

(٣) ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ ﴾ أى المؤدون لحق الله تعالى الذى كلفهم به ،

وأمرهم بأدائه كإقامة الصلاة والحج ... وغير ذلك .

(٤) ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أى إنهم يخرجون من أموالهم نفقة على

المحتاجين شكرا لله ، وطاعة له ، ومحافظة على التقوى والعبادة .

(٨٤٤)

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيات أن الله جعل لكل أمة منسكا وشريعة خاصة بهم ليذكروا الله بالطاعة والاستقامة ، وليعرفوا أن الله إله واحد ، ولذلك كانت العقيدة الواحدة وأن تعددت الشرائع ، والخضوع لله واجب ، والالتزام بطاعته ضرورة لعبادة المؤمنين ، القانتين ، المخبتين ، المتصفين بوجل القلوب حين ذكر الله تعالى ، الصابرين على ما أصابهم ، والمقيمين لله بالصلاة والعبادة ، وإخراج جزء من أموالهم للفقراء والمحتاجين .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

اختلاف الشرائع

رحمة من الله تعالى

دين الله مكون من عقيدة وشريعة وخلق حيث تقوم العقيدة على أركان الإيمان الثابتة على الزمن ، لا تتغير في شئ أبدا .
وأما الشريعة فهي الأحكام المتعلقة بأفعال المكلفين ، وهي أحكام تتغير بمناسباتها مع ارتباطها بالحكم الكلي .
وأما الخلق فهو تحسين لما يكون في العقيدة والشريعة .
واختلاف الأمم في الشريعة رحمة من الله تعالى ليستمر دين الله مع الناس رغم تطورهم ، وتغير أحداثهم ، وظهور مستجدات في الدنيا تحتاج لأحكام تناسبها ... وقد وضع الله في دينه مبادئ كلية تساعد على استنباط الأحكام لما يستجد من أحداث .

من شعائر الحج

يقول الله تعالى :

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۚ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٦﴾ لَّن يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۚ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿١٨﴾﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلهما

بعد أن بينت الآيات السابقة التقرب بالأنعام جاءت هذه الآيات لتخص منها الإبل والبقر .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله شرع ذبح الإبل والبقر في الهدى وأحل الأكل منها واطعام فقراء الحرم ، وجعل ذلك من التقوى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ "البدن" جمع بدنة سميت بذلك لضخامتها ، وعظمتها ، ويراد بها الإبل والغنم لضخامتهما ، وقوتهما ، ولا تسمى الغنم بدنا لصغر جسمها ، وقد تفضل الله على الناس

(٨٤٦)

فرزقهم البدن ، وجعلها لهم ، وأمرهم بإهدائها إلى الحرم فهي من الشعائر التي يهذى بها ، وتعلم .

﴿ لَكُمُ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ أى يمكنكم أن تنتفعوا بها بعد أن تعلموها ، وتسوقوها للهدى كأن تركبوها ، وتشربوا لينها قبل ذبحها ، وتأكلوا من لحمها بعد ذبحها ، ويشيبكم الله عليها خيرا فى الآخرة .

﴿ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ أى صفوا أيديهن وأرجلهن وهى واقفة على نحو معين ، وقيدوهن واذكرن اسم الله عليهن قبل الذبح وقولوا : بسم الله ، والله أكبر ، اللهم منك واليك .

﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ أى إذا ذبحت ، وزهقت روحها ، وسقطت على الأرض ، ووقع جنبها على الأرض ، ولم يبق لها حركة .

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ أى أبيع لكم الأكل منها لأن الأمر للإباحة ، واطعموا من لحمها القانع الجالس فى بيته ، المتعفف ، الذى يقنع ويرضى بما يصله ، ولا يسأل شيئا ، واطعموا كذلك المعتز الذى يتعرض لكم عند الذبح ، ويطلب منكم .

﴿ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ ﴾ وكما وصفنا لكم كيفية ذبحها ، دللناها لكم لتستسلم عند الذبح مع ضخامتها ، وتناولوا بذلك خيرا فى الدنيا وفى الآخرة .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى لتشكروا الله على هذا ، وتخلصوا فى الطاعة والانقياد .

﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ﴾ أى إن رضا الله عليكم يكون بتقواكم واستقامتكم ، فهو سبحانه يعطيكم ، ويسخر

(٨٤٧)

لكم ، وهو غنى عن اللحوم والدماء ، وكل حبه أن تستقيموا ، وتطيعوا ، وتكونوا مؤمنين ، وتملأوا قلوبكم بحب الله تعالى .
يقول النبي ﷺ : "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم" (١) .

﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ ﴾ أى هذا التسخير كان فضل الله عليكم إذ مكنكم من ذبحها ، لتشكروا الله ، وتكبروه على هدايته لكم أن عرفكم معالم الدين ، ومناسك الحج .
﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى وبشر يا محمد الذين عرفوا فضل الله عليهم فاحسنوا الطاعة ، والاستسلام .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى إن الله يحمي المؤمنين المطيعين لله ، ويصونهم فى حلهم وترحالهم .
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ أى أنه سبحانه يكره من خان أمره فعصاه ، وكفر به ، وعبد غيره .

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن الله جعل للحجيج الهدى يسوقونه من الإبل والبقر معلما ويركبونه ، وبشربون لبنه ، ويأكلون من لحمه بعد ذبحه ، ويثابون على القيام بهذا المنسك الذى جعله الله من شعائره .
واذا وقعت البهيمة ، وانقطع حراكها بعد الذبح فكلوا منها ، واطعموا الفقراء ، من طلب ومن لم يطلب ، واعلموا أن الله يحب منكم أن تشكروه على هذا ،

(١) صحيح مسلم . كتاب البر والصلة . باب تحريم ظلم المسلم ج ٤ ص ١٩٨٧ .

(٨٤٨)

وتكبروه فقد نذل لكم البدن رغم ضخامتها ، وبشر المطيعين برضوان الله تعالى ، وعرفهم أن الله يدافع عنهم ، ويحميهم من الخائنين الكفرة الذين لا يحبهم الله تعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هى :

الله غنى عن الناس

تلزم الشريعة المؤمنين بأعمال يعود عليهم نفعها ، ويستفيدون بها فى شكل فردى أو جماعى ، وكل ما يكون لله منها هو إظهار شكره ، والإكثار من ذكره ، والخضوع له سبحانه .

فليس لله حاجة فى إلحاق المشقة بالإنسان كجوع فى صوم ، أو تعب فى صلاة ، أو طعام من هدى ... وكل ما يريده الله من الناس ظهور تقواهم وخشيتهم منه من خلال عبوديتهم له سبحانه وتعالى .

ولذلك كانت الشريعة أعمالاً رمزية تؤكد جوانبها الإيمانية التى لو خلت منها ما قبلها الله تعالى .

إنما الأعمال بالنيات ، والله عليم بها ، ولذلك وجب أن تتبع الأعمال من القلوب ، وأن ترتبط بتعاليم الله ، ليفوز بها صاحبها ، ويكون من المؤمنين .

الإذن في الجهاد للمهاجرين

يقول الله تعالى :

﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ۖ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝
الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ
النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ هُدَّيْتُمْ صَوَامِعَ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا
أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۚ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝
الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ
وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ أَلْمُورِ ۝﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

كان مشركوا أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون يجيئون ما
بين مضروب ومشجوج ، ويشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ فيقول لهم : "اصبروا
فإني لم أؤمر بقتال" حتى هاجر رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية وهي
أول آية أذن الله فيها بالقتال^(١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة أن المشركين يصدون عن سبيل الله ، وأن
المسلمين في حجه يسوقون الهدى أمامهم ، ويذبحونه ، ويعطونه لفقراء الحرم

(١) تفسير الخازن ج ٥ ص ١٩ .

(٨٥٠)

جاءت هذه الآيات لبيان الوسيلة التي تصون الأمن في الحرم ، وتمكن الحجاج من الذبح ، وأداء المناسك وهو الجهاد في سبيل الله .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أذن للمسلمين بالقتال في غزوة "بدر" لأنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وأهلبيهم ، وتبشروهم بالنصر .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ اٰذِنَ لِلَّذِيْنَ يُقْتَلُوْنَ بِاَنَّهُمْ ظَلَمُوْاۙ وَاِنَّ اللّٰهَ عَلٰى نَصْرِهِمْ لَقَدِيْرٌۭ ﴾

أى صرح الله للمهاجرين الذين سكنوا المدينة بعد الهجرة أن يقاتلوا مشركى أهل مكة الذين ظلموهم ، وأخرجوهم من بلدهم ، واستولوا على أموالهم ودورهم ، وسوف ينصرهم الله تعالى .

والآية تمثل المرحلة الثانية فى تشريع الجهاد ، فلقد أمروا فى المرحلة الأولى بكف الأيدى والاقتصار على عبادة الله تعالى ، فلما تمت الهجرة أذن الله للمهاجرين وحدهم بالجهاد قتالا لمن ظلمهم ، واعتدى عليهم^(١) .

وقد وعدهم الله بالنصر القريب الذى تحقق بانتصارهم فى غزوة "بدر الكبرى" ثم وصف الله تعالى أحوال المهاجرين ، واستحقاقهم لنصر الله تعالى فقال سبحانه : ﴿ الَّذِيْنَ اُخْرِجُوْا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ اِلَّا اَنْ يَقُوْلُوْا رَبُّنَا اللّٰهُ ﴾ أى أن هؤلاء المهاجرين يستحقون نصر الله تعالى بسبب أن أهل

(١) انظر تفسير آية (١٩٠) من سورة "البقرة" .

مكة أخرجوهم من ديارهم "مكة" بغير ذنب ارتكبوه ، أو جريمة قاموا بها ... وكل جرمهم فى نظر المشركين أنهم آمنوا بالله تعالى ، وصدقوا رسول الله وتيقنوا أن الله هو ربهم ، بيده الأمر كله ، وهو على كل شئ قدير .

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ هَلَّامَتْ صَوَامِعُ وَبِيعٌ ﴾

وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿ أى ولولا تشريع الجهاد الذى يدفع المؤمن لمواجهة المشرك ، والتصدى له لانتشر الفساد ، وعم الظلم ، وهدمت دور العبادة لسائر الأديان وهى :

﴿ صَوَامِعُ ﴾ وهى دور العبادة للربان المنقطعين للعبادة فيها .

﴿ وَبِيعٌ ﴾ وهى دور العبادة للنصارى .

﴿ وَصَلَوَاتُ ﴾ وهى دور العبادة لليهود .

﴿ وَمَسْجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ أى ولهت مساجد

المسلمين مع أن المسلمين على الدين الحق ، يملأونها بالذكر ، والصلاة ، وقراءة القرآن الكريم .

﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ﴾ الواو واو القسم دخلت على قسم

محذوف تقديره والله لينصرن الله ، وهذا تأكيد من الله تعالى على نصره لعباده ، واعلاء كلمته ، وقد تم ذلك فنصر الله حزبه ، واعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى أن الله قوى غالب عزيز لا يغلب أبدا ولا

يغلبه أحد .

ثم وصف الله المهاجرين بما هم فيه . فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّهُمْ

فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ

الْمُنْكَرِ ۚ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ۝ أَى أَنْ هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ

ﷺ صادقون فى إيمانهم ، وطاعتهم ، وحين ينصرهم الله ويمكن لهم فى

الأرض يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويحافظون على سائر الطاعات

ويعيشون عبيدا لله فى الأرض ، فيأمرهم بالمعروف ، وينهون عن المنكر

والعاقبة فى النهاية لهم ، يثيب الله من استحق الثواب ، ويعاقب من وجبت عليه

العقوبة ، وسائر أمور خلقه راجعة إليه يقضى فيها بما يريد .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أذن للمهاجرين فى القتال لأنهم ظلموا ، وأخرجوا من

ديارهم ، وأخذت أموالهم ، وسوف ينصرهم الله تعالى ، فقد أخرجوا من ديارهم

بغير حق ، وكل جرمهم أنهم آمنوا بالله تعالى ، لقد أذن الله بالجهاد لينتصر

الحق بهم ، ولولا الجهاد فى الأمم السابقة لهدمت دور العبادة ، ولما عبد الله

فى الأرض .

إن المؤمنين بعد نصرهم يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويأمرون

بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، والأمر فى النهاية لله رب العالمين .

(٨٥٣)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الجهاد وسيلة حماية الضرورات

قامت شريعة الله على حماية النفس ، والولد ، والمال ، والدين ، والعقل وهي الضرورات التي لا بد للإنسان منها ، وقد اتفق على هذه الضرورات العقل والشرع لأن بها تكون الحياة ، ولا حياة بدونها .
وقد شرع الله الجهاد لحمايتها ، وصيانتها . فقد أذن للمهاجرين بالجهاد حماية لحقوقهم المالية .

إن الحياة لا تخلو من التنافس والصراع ، وعلى المسلمين أن ينظموا طرق المقاومة ، ويستعدوا لمجاهدة أعدائهم حتى لا يضيعوا بين الطغاة والظالمين .

الركيزة الثانية

تمكين الله في الأرض لأهل الحق

توضح الآية الأمل أمام المخلصين ، وتحدد منهج معونة الله تعالى لأن التمكين في الأرض بأمر الله تعالى يحتاج إلى جماعة من الناس ، يؤمنون بالله تعالى ، وتحافظون على الإسلام بصورة كلية ، ويعيشون في الأرض عبادا لله تعالى يأمرهم بالمعروف ، وينهون عن المنكر ... حينئذ ينصرهم الله تعالى ، ويهزم أعداءهم ، ويحقق لهم سعادة الدنيا والآخرة .

تكذيب المشركين وعدم اعتبارهم بالأمم السابقة

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿١٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٌ مُعَطَّلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ﴿١٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَلَيْسَ بَلَاغٌ لِلنَّاسِ إِلَّا بِآيَاتِنَا وَلَكِنْ تَعْمَىٰ الْأَلْبَابُ ۖ آلَتْ فِي الصُّدُورِ ﴿١٦﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الله أذن للمهاجرين بالقتال بعد أخرجوا من ديارهم بغير حق جاءت هذه الآيات بذكر تكذيب الأمم السابقة تسليية لرسول الله ﷺ ، وتنبيها له أمام مشركي مكة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن رسل الله صلوات الله عليهم كذبهم قومهم ، ولم يؤمنوا بهم وقد أمهلهم الله تعالى ثم أخذهم ، وأهلكهم ، ولو نظر المشركون للأقوام الماضية لاستقاموا إلا أنهم عطلوا حواسهم ، وضيعوا مصادر الإدراك لديهم .

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴾^{٥٢}
 وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾^{٥٣} وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ^{٥٤} وَكُذِّبَ مُوسَى ﴿ أَىٰ إِن
 كذبك يا محمد أهل مكة فقد سبقهم لهذا الجرم أشباههم من أقوام الرسل ... فهم
 فى التكذيب على منهج واحد ، يبادرون إليه ، وان لم يعلموا المطلوب منهم .
 وقد أسندت الآيات التكذيب إلى أقوام الرسل أما موسى عليه السلام فقد جاء
 التكذيب بصيغة المجهول مسندا لموسى عليه السلام وذلك لأن قوم موسى لم يكذبوه
 وانما كذبه المصريون ، وهم ليسوا قوم موسى عليه السلام .
 ﴿ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ^{٥٥} فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أَى أمهلت
 الكافرين فترة ليتوبوا ويرجعوا فلما تمالأوا فى الكفر أهلكتهم ، وعاقبتهم بالدمار
 واستأصلتهم بالخسف والدمار .
 ﴿ فَكَانَ مِنَ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
 وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ أَى أهلكنا كثيرا من القرى التى طغى أهلها ،
 وعبدوا غير الله تعالى ، وعصوا الرسل ، وردوا التدبر الذى أمروا به فأهلكهم الله
 بسبب ظلمهم ، وأبقى آثارهم شاهدة عليها .
 وها هى القرى قد انهدمت حيطانها ، وجفت آبارها ، وخلت قصورها ،
 وصارت عبرة لمن أن أراد أن يتذكر ويعتبر .
 ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ
 يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أَى هل سار هؤلاء الغافلون فى أرض الله لينظروا ، ويتأملوا
 ويعقلوا ، ويسمعوا بقلوب واعية ، وآذان سامعة .

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

أى إن الحالة التى هم فيها تجعل عماهم فى بصيرتهم لا فى أبصارهم ، ولذلك لا يفهمون بعقولهم ، ولا يرون بأعينهم ، وهم فى ضلال مبين ، وقد أهلكهم الله فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الأمم السابقة كذبت رسل الله إليهم فأهلكهم الله تعالى ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فأهلكهم الله ، وأبقى ديارهم شاهدة على كفرهم وبغيهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الكفر ملة واحدة

تشير الآيات إلى مسألة عاشها الرسل جميعا ، ويعيشها دعاة الحق دائما وهى تعرضهم للتكذيب والعدوان من أعداء الله تعالى .

إن أعداء الدعوة يريدون إطفاء نور الله فى الأرض ، وكنتم صوت الحق ، وابعاد الدعوة من نشر الصلاح بين الناس .

لقد كذب المشركون رسل الله جميعا بدءا بنوح عليه السلام إلى محمد ﷺ ، وهم بذلك يقدمون نموذجا مكررا من الناس مع الدعوة ...

إن المشركين لا يخلون من الكذب ، ولم يملكهم أسف وهم يفترون عن عمد ، ويزعمون بلا دليل .

إنهم لا يكتفون بنشر الشبه حول دين الله تعالى ، وإنما يعملون على اتهام الدعاة أنفسهم ، ويشيعون بين الناس الفحشاء والفجور .
والأمر يحتاج إلى يقظة أصحاب الحق لحمايته ، ورد العدوان عنه ، وعدم التأثر بمزاعم الأفاكين ... لأن الحق سيبقى ما بقى رجاله ، ومادام المخلصون يدافعون عنه ... ويحسن أن يستفيد المخلصون من دروس الماضي وعبر التاريخ .

الركيزة الثانية **أهمية الاعتبار بالماضي**

الماضي صورة المستقبل ، ويجب على من يعيش الحاضر أن يأخذ من الماضي عبرة ومنهجاً ، وعليه أن يعرف القرى التي أهلها الله تعالى لظلم أهلها ، وينظر إليها ، وقد خلت من السكان ، وتعطل كل ما فيها من آبار ، وزروع ، وقصور .

يجب العودة إلى الماضي ، وتدبر أحداثه ، ووقائعه بعقل واع ، وبصيرة نافذة لأخذ الدروس والعبر ، والاستفادة منها في الحاضر والمستقبل .
ومن المؤسف أنه لا يستفيد من الماضي إلا العقلاء ، والمخلصون ...
وأين هم الآن في حياة الناس !!؟

تسليّة النبي ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ وَبَسَّتَ عِجْلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ وَعْدُهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ
كَأَنَّ سَنَةً مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ١٧٧ وَكَأَيُّنَ مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِّمَن
أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴾ ١٧٨ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿ ١٧٩ ﴾
فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿ ١٨٠ ﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا
فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿ ١٨١ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الله أهلك الأمم السابقة لتكذيبها الرسل جاءت
هذه الآيات لبيان قدر من استهزاء القوم برسول الله ﷺ .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ ويستعجلون
العذاب الذي خوفهم منه فعرفهم الله أن وعده حق ، وعليهم أن ينتظروا ويأخذوا
عبرة من الأمم السابقة .
وتمر الآية رسول الله ﷺ ليبلغ الناس ، وينذرهم ، ويعرفهم بأن من أبصر
فلنفسه ، ومن أساء فعليها .

الدلالات اللغوية

﴿ وَدَسْتَعِجْلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ وفيه خبر عن كفار مكة فلقد كانوا يأتون للنبي ﷺ ويطلبون منه أن يسرع الله بإنزال العذاب الذى يخوفهم منه لأنهم ينكرونه ، ولا يتصورون وقوعه .

﴿ وَلَنْ تُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أى أن ولن يتخلف وعد الله ، وسينزل العذاب بالمشركين كما أنذرهم رسول الله ﷺ ، وقد وقع ذلك يوم "بدر" .

﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أى أنهم يستعجلون العذاب ، ويتصورون عدم وقوعه ، مع أنه سيقع ، وإن يوما من أيام عذابهم فى الآخرة كألف سنة فى الشدة والاستطالة والعدد من أيامهم فى الدنيا ولذلك كان استعجالهم ضلالا منهم ، لأنهم مهما عاشوا فى الدنيا سيعذبون ، وسيعلمون حين نزول العذاب بهم أن الدنيا على طولها كانت بعض يوم .

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَاهَا وَالِىَّ الْمَصِيرُ ﴾ أى وكم من قرية أخرت اهلاكها مع استمرار ظلمها فاغترت ، وتمسكت بالكفر حتى نزل بها العذاب المهلك الشديد .

﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أى قل لهم يا محمد لا تستعجلوا العذاب فأنا رسول الله إليكم ، أنذركم بالوحي ، وادعوكم ، وأعرفكم بالله الخالق القادر ، وأبين لكم أنكم راجعون إليه للحساب والجزاء .

﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

أى فالذين آمنوا بالله تعالى وعملوا الصالحات يغفر الله ذنوبهم ، ويستتر عيوبهم ، ويدخلهم فى جنات النعيم .

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ أى

والذين سعوا واجتهدوا فى رد الدعوة ، ونقض الآيات ، وأخذوا يثبطون الناس عن الإيمان ظنا منهم أنهم سيغلبون الله ، وسيعجزونه ، وأنهم لن يبعثوا للحساب والجزاء فأولئك أصحاب النار المقيمون فيها بسبب كفرهم وضلالهم فى الدنيا ، وبئس المصير .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المشركين كانوا يستعجلون العذاب الذى خوفهم منه رسول الله استهزاء به ، واستبعادا لوقوع العذاب . فبين الله لهم أن الله لن يخلف وعده ، وأن يوما من أيام عذابهم فى الآخرة يساوى ألف سنة من أيام دنياهم شدة ، واستطالة ، وعددا .

ويأمر الله رسوله بأن يعرف المشركين أنه رسول الله يبلغهم الدين ، وينذرهم بما أوحى إليه ، ويعرفهم بالحساب العادل ، فمن آمن وعمل صالحا يغفر الله له ، ويدخله الجنة ، ومن صد عن دين الله ، ورد الآيات ، وظنوا أنفسهم غالبين الله فأولئك لهم عذاب جهنم وبئس المصير .

(٨٦١)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

توضح الآيات ركيزة هامة ... هى :

دعوة الله فى مواجهة الضالين

فى سيرة رسول الله ﷺ دروس للدعاة ، فلقد تعرض ﷺ للاستهزاء ، والعدوان ومع ذلك صبر وصابر حتى نصره الله تعالى ، وهذا واجب الدعاة ...
إن النور فى وسط ركام الظلام يجب أن يستمر شعاعه إلى أن ينتصر الحق ، ويسود الخير .

لقد بين رسول الله ﷺ للناس أن عذاب الله قائم ، وأن الدنيا ليست بشئ أمام ما سيكون فى الآخرة .

وعلى الدعاة أن يهتموا بالقضايا التالية :

أولاًها : بيان أن الدعوة تقوم على وحى الله تعالى الذى بلغه رسول الله ﷺ للناس ، وتركه محفوظاً فيهم ، وليس للدعاة أن يخترعوا شيئاً من عندهم .

ثانيها : ترغيب المؤمنين بالخير ، وترهيب العصاة من عذاب الله تعالى .

ثالثها : الاستفادة من دعوات الرسل السابقين فهم القدوة والأسوة .

دور الشيطان فى الفساد

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن مشركى مكة كانوا يستهزئون بالنبى ﷺ ويستعجلون نزول العذاب الذى خوفهم منه رسول الله ﷺ ، فلقد كانوا يكذبونه ويتهمونه بالسحر جاءت هذه الآيات بذكر نوع آخر من معارضة النبى ﷺ ، وهو إلقاء الشبه والأوهام على القرآن الكريم لصرف الناس عنه ، وكان الشيطان يعينهم فى ذلك إلا أن الله رد كيدهم فنصر دينه ، وأيد رسوله ، وقوى الإيمان فى القلوب .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الشيطان يعمل على صرف الناس عن رسول الله ، وعن دعوة رسول الله ﷺ بإلقاء الشبه ، وإثارة الشبهات فيفسد الله كيدهم ، ويحكم آياته ، ويجعل ما يلقيه الشيطان فتنة لضعاف الإيمان ، وقوة للمؤمنين ، وثبت

(٨٦٣)

الصادقين على الحق ، وتبين الآية أن هذا التنازع سيستمر إلى يوم القيامة
لينال الكافرون عقابهم ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى
الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ أى وما أرسلنا قبلك يا محمد رسولا ولا نبيا إلا
وحاول الشيطان صرف الناس عنه حين يقرأ عليهم ما نزل عليه من الله ، وذلك
بالقاء الشبه ، والالتهام فيما يقرأ ، وادعاء أنه سحر ، أو شعر ، أو
أساطير .

والآية تشمل كل مبعوث من الله للناس سواء كان رسولا جاء بشرع جديد ،
أو نبيا دعا بشرع غيره كأنبياء بنى إسرائيل .
و ﴿ مِنْ ﴾ بيانية لبيان هذا العموم .

ومعنى ﴿ تَمَنَّى ﴾ قرأ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ
الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ ﴾^(١) أى لا يعلمون القرآن إلا قراءة .

﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ أى دخل الشيطان إلى قلب القارئ ،
وألقي فيه أن القرآن الكريم سحر ، أو شعر ، أو كذب ، وكان الكفار من الإنس
يقولون ذلك ، وكانوا من الجن يوحون بذلك لأوليائهم .
﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ أى يزيل الله ويبطل ما يلقيه
الشيطان من مزاعم .

(١) سورة البقرة ، الآية ٧٨ .

﴿ ثُمَّ تُحَكِّمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ ﴾ ثم يجعل الله آياته محكمة ثابتة قوية .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى والله عليم بكل خلقه فيجازى كلا بما يستحق

ويظهر دينه بإحكام آيات الله ، وابطال مزاعم الشياطين .

إن الحق دائما يعاديه أهل الباطل ، وتكون لهم صولة ، وجولة لا تدوم
لأن أنوار الحق تبطل الباطل وتزهقه ، والله لا يصلح عمل المفسدين وازاء هذا
الصراع ينقسم الناس إلى فريقين هما :
الفريق الأول : فريق الضالين :

يقول الله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أى
يجعل الله ما يلقيه الشيطان ابتلاء ، واختبارا للمنافقين والكافرين فقد قست قلوبهم
، واسودت بصائرهم ، وبعدت عن الحق بعدا كبيرا .
وقد قضى الله تعالى باستمرار المنافقين والكافرين فى الغى والضلال ،
والريب والكفر .

الفريق الثانى : فريق المؤمنين :

وعنهم يقول الله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى سوف يعرف المؤمنون بعد إبطال عمل الشيطان أن
الحق والصواب هو ما جاءهم من عند الله تعالى فيؤمنون به ، ويخشعون له ،
ويطيعون الرسول فى كل ما يأمرهم به وهم مطمئنون ، وسبب ذلك أن الله
سبحانه وتعالى يهدى المؤمنين ويوفقهم إلى صراط الله المستقيم .

(٨٦٥)

والآية تشير إلى أن هذا الحق قائم على العلم الصحيح ، القائم على الدليل والبرهان ، ولذلك فإيمان المؤمنين قائم على قناعه تامة ، ورضى كامل ... أما غيرهم فقد ساروا وراء الهوى ، وبعدوا عن الحق والصواب .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن كل رسول أو نبي قرأ لمن بعث إليهم وحى الله المنزل وكان الشيطان يحاول صرف الناس عن قراءته ، بإلقاء الشبه والمزاعم ، فيبطل الله عمل الشيطان ، ويحكم آياته ، وهو العزيز الحكيم ، وبذلك يجعل الله ما يلقيه الشيطان فى القراءة فتنة لأوليائه من المنافقين ، والكافرين فقد بعدوا عن الله بعدا شديدا ... ويجعل سبحانه القراءة نورا فى قلوب المؤمنين فيزداد إيمانهم ، وتقوى عزائمهم ، ويستمرون فى طاعتهم لله رب العالمين .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

نصر الله لدينه وللمؤمنين

تبين الآيات أن الشيطان حاول ويحاول فتنة الناس ، وصرفهم عن دين الله تعالى ، وذلك بإلقاء الشبه والمزاعم حول ما يتلى من كلام الله تعالى ويؤوله بغير مراد الله منه .

وقد بينت الآيات أن الله يبطل عمل الشياطين ، ويبين الحق ، ويحكم آياته وبذلك يتحقق ما يلى :

(١) إبطال مؤامرات الشياطين ، وعمل المفسدين بإظهار الحق ، وإثباته بالدليل والبرهان ، وتحقيقه فى عالم الواقع الذى يعيشه المخلصون الصادقون .

- (٢) تحويل فتنة الأعداء على رعوس فاعليها لأن الباطل لا جذور له ، فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحق .
- (٣) ثبوت الحق ، وتجمع الناس حوله لأن للحق نورا يخترق المادة ، ويصل للروح ، ويبصرها بطريق السعادة ، ومنهج الوصول لله تعالى .
- إن الأمر لله فى الدنيا والآخرة ، وهو على كل شئ قدير .

عاقبة الناس فى الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِئَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الملك: ١٠] يَوْمَ يَخْلُفُ اللَّهُ تَحَكُّمَ بَيْنَهُمْ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٢﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١٣﴾ لَيَدْخِلْنَهُمْ مُّدْخَلَ بَرٍّ طَافَ بِهِمْ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ ﴿١٤﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة موقف الناس من شبه الشيطان ومزاعمه فى الدنيا جاءت هذه الآيات لبيان أحوال الناس فى الآخرة .

(٨٦٧)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المنافقين والكافرين يستمرون فى ضلالهم حتى تأتيهم الساعة فجأة أو ينزل بهم عذاب أليم مهين .

أما المؤمنون فلهم جنات النعيم ، والأمر كله لله رب العالمين ...
وأما من مات مجاهدا فى سبيل الله بعد هجرته فله عند الله رزق حسن ،
ومقام طيب ، وسوف يدخلهم الله فى مقام يليق بهم .
ومن ظلم من المؤمنين فرد العدوان بمثله ثم بغى عليه بعد ذلك فى الدنيا
بما لا يستحق فسينصره الله ، ويغفر له ، ويدخله الجنة ، والله غفور رحيم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

تبين الآيات أحوال الناس يوم القيامة لأنهم بسبب عملهم فى الدنيا
سيكونون على أنحاء شتى ، وأنواع كثيرة .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ
تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ أى سيستمر الكافرون
فى شكهم وضلالهم الذين تلقوه من الشيطان فى الدنيا حتى يأتى أمر الله فيهم
فيموتون فجأة ، أو يهلكهم الله بعذاب ينزل عليهم ، وبذلك تنتهى دنياهم بلا
إيمان فيهم ، ولا خير لديهم .

﴿ أَلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى يبعث الله الخلق جميعا ،
ويجمعهم للحشر والجزاء ، ويأخذ كل فريق جزاء عمله الذى كان فيه فى
الدنيا .

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أى يأخذ

كل فريق ما يستحقه فى الآخرة فالذين آمنوا بهذا القرآن ، وبمن أنزله ، وبمن جاء به ، وعمل بما فيه من أوامر ونواه ، يثيبهم ربهم بجنات النعيم ، يتمتعون فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، جزاء وفاقا على ما زكوا به أرواحهم ، وأخلصوا له فى أعمالهم ، وراقبوه فى السر والعلن ، وخافوا عذابه فى ذلك اليوم الذي يشيب من هوله الولدان .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

أى والذين كفروا بالله ، وكذبوا رسوله ، وجحدوا بآيات كتابه ، وقالوا : إنه إفك افتراه محمد وأعانه عليه قوم آخرون . أولئك لهم عذاب عند ربهم يذلهم ويخزيهم كفاء استكبارهم عن النظر فيها وجحودهم بها عنادا ، وقد كان لهم فيها لو تأملوا حق التأمل ما يكون صاددا لهم عن غيهم ، ورادعا لهم عن ضلالهم .

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ

رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أى ويجازى الله الذين فارقوا أوطانهم لله تعالى ، ثم جاهدوا فقتلوا أو ماتوا ليثيبهم الله الجزاء الذى أعده للمجاهدين .

﴿لَيَدْخِلْنَّهُمْ مُّدْخَلَ بَرْزَخٍ بَاطِنٍ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ أى أن

الله يجازى المجاهدين الذين هاجروا وجاهدوا أو ماتوا ويدخلهم مدخلا يرضيهم فى الجنة ، ويكرمهم بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، لأن الله يعلم أعمالهم وأحوالهم فيجازيهم خير الجزاء .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ

اللَّهُ ﴾ أى هذا الجزاء الحسن الذى جازى الله به المهاجرين المجاهدين يجازى به من ظلم من المسلمين وأجبر على ترك وطنه وماله ، وسوف ينصره الله فى النهاية .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ ﴾ أى أن الله يعفوا عن سيئات المخلصين ، ويغفر لهم ويمتعههم بجنته .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المشركين والمنافقين سيستمرون فى شكهم إلى قيام الساعة حيث الملك الله يفعل ما يشاء .
وتبين الآيات أحوال الناس فى الآخرة حيث يعيش كل إنسان بما قدمت يداه .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

الجزاء العادل فى الآخرة

نهاية الدنيا قضية حتمية لتبدأ الحياة الأخرى لينال كل ما يستحقه بعمله فى الدنيا .

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم .

والذين كفروا بالله تعالى ، وكذبوا بآيات الله فلهم العذاب المهين ، والذين هاجروا ، وتركوا ديارهم فلهم عند الله مقام كريم ، سواء قتلوا فى الجهاد ، أو ماتوا عند أجلهم .

والذين قاوموا ، وعاقبوا بمثل ما عوقبوا به ، ثم بغى عليهم بعد ذلك فسوف يأخذون حقهم ، وينتقم الله ممن ظلمهم .
إن تنوع الجزاء يؤكد عدالة الله ، ودقته ، والله على شئ قدير .

الله مالك الملك يفعل ما يشاء

يقول الله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَمِيدُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أحوال الناس في الآخرة جاءت هذه الآيات لبيان صفات الله تعالى ، وتميزه سبحانه وتعالى بكل كمال يليق به ، وتفضله على عباده جميعا .

(٨٧١)

- ٢ -

موضوع الآيات

الآيات تبين دلائل قدرة الله تعالى ، وانعاماته ، وأفضاله على عباده .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

توضح الآيات عددا من آيات خلقه فى النفس ، والكون ، والحياة لتأكيد أن وعد الله حق ، وأن نصره لعباده المؤمنين أمر يسير ، وذلك فيما يلى :

(١) تحكمه سبحانه فى الليل والنهار :

يقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أى أن الله سبحانه يتصرف كما يشاء فى الزمن ليلا ونهارا فيدخل بعضها فى بعض ، ويقلب أحوالها ، وأجواءها .

(٢) هو السميع البصير :

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أى أن الله تعالى محيط بخلقه جميعا فهو سبحانه سميع لأقوالهم ، بصير بأعمالهم وأحوالهم .

(٣) الله واحد لا شريك له :

يقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى إله واحد لا شريك له ، فهو الإله الحق ، وأن سائر الأصنام والأوثان التى يعبدونها المشركون ، ويتجهون إليها آلهة باطلة لا قيمة لها .

(٤) ثبوت عظمة الله وعلوه :

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ
وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى فوق كل شئ ، وكل
شئ دونه ، ولا شريك له إذ لا شئ أعلى منه شأنًا ، ولا أكبر سلطانًا .
(٥) إنزال المطر من السماء :

يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ أى ألم تبصر أيها الرائي أن الله ينزل من السماء
مطرًا ، فيحيى به الأرض ، فتنبت ضروبًا مختلفة من النبات ، بديعة الألوان
والأشكال ذات خضرة سندسية تبهر العين بحسن منظرها ، وبديع تنسيقها .
ثم ذكر ما هو كالدليل على ذلك فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أى إنه
تعالى لطيف يصل علمه إلى الدقيق والجليل ، خبير بمصالح خلقه ومنافعهم .
(٦) مالك الملك :

يقول الله تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ
لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى إن كل ما فى السموات وما فى الأرض منقاد له
غير ممتنع من التصرف فيه ، وهو الغنى عن حمد الحامدين ، لأنه كامل لذاته
غنى عن كل ما عداه ، وقد فعل ما فعل إحسانا منه إلى عباده ، وتفضلا عليهم .
(٧) تكريم الإنسان واعانتة :

ثم تبين الآيات تكريم الإنسان ، وتخص بالذكر أربع حالات ... هى :

(أ) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى إنه تعالى سخر
ما فى ظاهر الأرض وباطنها ، لينتفع به الإنسان فى مصالحه ، ومرافقه

المختلفة ، وبصرفه فيما أراد من شئون معاشه ، ولا يزال العلم يهديه إلى غريب الأمور مما لم يكن يخطر لأسلافه على بال مما لو حدث به السالفون لقالوا : إنه ترهات وأباطيل ، ما صدقه بشر ، ولا يزال العلم يولد كل يوم جديد .

(ب) ﴿ وَالْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ أى وسخر لكم السفن تجرى فى

البحار برفق وتؤدة حاملة ما تريدون من نائى الأصقاع ، وبعيد المسافات ، من سلع وحيوان وأناسى ، وبذلك يتم تبادل مرافق الحياة بالأخذ والعطاء .

(ج) ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ أى وإن الله

يمسك أجرام الكواكب من شمس وقمر وكواكب نيرات بنظام الجاذبية ، إذ جعل لكل منها مدارا خاصا بها لا تعدوه بحال ، ولا تزال كذلك ما بقيت الحياة الدنيا ، حتى إذا اقتربت الساعة اختل نظامها وانتشرت فى الفضاء .

ولولا هذا النظام الخاص لاصطدمت الكواكب العظيمة بعضها ببعض ، وفسد العالم الأرضى ، ولم يعيش على ظهر البسيطة إنسان ولا حيوان .

(د) ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أى إنه تعالى رحيم بهم ، إذ جعلهم

على تلك الشاكلة ، ليتسنى لهم البحث عن أسباب معاشهم ، وأسباب منافعهم ، وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية على وجوده وبعثة رسله .

﴿ وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أى وهو الذي

أنعم عليكم بهذه النعم ، وجعلكم أجساما حية بعد أن كنتم ترابا ، ثم يميتكم حين انقضاء آجالكم ، ثم يحييكم بالبعث والنشور إلى عالم آخر تلقون فيه حسابكم

(٨٧٤)

وجزاءكم من نعيم أو جحيم ، ثم بين طبيعة الإنسان التي فطر عليها فقال :
﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ أى إن الإنسان لم يوجه همه إلى كل هذه الآلاء
التي يتقلب فيها ليل نهار ، بل جردها وجد خالقها على وضوح أمرها وعبد
غيره ، وجعل له الأنداد من الأصنام والأوثان .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات عددا من صفات الله تعالى ونعمه وأفضاله على عباده ،
وتأكيد نصره لعباده المؤمنين .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

الإنسان ظالم لنفسه

الإنسان عبد الإحسان ، يتأثر بالمعروف ، ويحب من يعامله بالخلق
الكريم ، ويتعاون مع من يتعاون معه ، وهذا كله حق وعدل ... إلا أن إغواء
الشیطان ، وبواعث الشهوة ، وعوامل الكبر والاستعلاء جعلت كثيرا من الناس
ينسون فضل الله ، ولا يؤدّون حق الله عليهم ، وينسون أفضاله ونعمه ، ونسوا
أن الله يصرف الكون كله ، وهو السميع العليم ، وأنه مالك الملك ، واليه يرجع
الأمر كله ، ومنه المحيا ، واليه الممات ، وما من شئ فى هذا الوجود إلا من
خلق الله تعالى .

إن كل هذه النعم تدفع الإنسان إلى معرفة الله تعالى ، وإلى الإخلاص فى
العبادة ، وإلى العبودية الصادقة لله رب العالمين .

إن الإنسان يغفل عن هذه النعم ، وينسى حق الله تعالى بسبب غفلته ، وجهله ، وكفره .
 إن توجيه الإنسان إلى الله من أهم أعمال الدعاة ، وتلك مسئوليتهم الكبرى .

تنوع الشريعة ووحدة الدين

يقول الله تعالى :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۚ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٧ وَإِنْ جَادُلُوكَ فَقُلِ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٧٨ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٧٩ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ ۖ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٨٠ ۖ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة صفات الله ونعمه على الناس جاءت هذه الآيات لبيان ان لكل أمة شريعة خاصة بها ، وتأمّر رسول الله ﷺ بالتمسك بما نزل عليه من ربه .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن لكل أمة شريعة خاصة بها ، فلا ينبغي لمن سبق بشريعة أن ينازع غيره بشريعته ، فأثبت على ما أتت عليه ، ودع الأمر لله يحكم بين الناس يوم القيامة ، واعلم أن الله يعلم كل شئ ، وهو خبير بصير .

الدلالات اللغوية

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ المنسك هو الشريعة

والمنهج العملى الذى يرتضيه الله لعباده ، أى إنا أنزلنا لأهل كل دين من الأديان السماوية شريعة خاصة يعملون بها ، ولا يتخطونها إلى غيرها ، فليهود شريعتهم ، وللنصارى شريعتهم ، وللمسلمين شريعتهم فكل زمان ما يناسبه ، وما كان يصلح للماضى قد لا يصلح للحاضر والمستقبل .

﴿ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ ﴾ أى لا ينبغي أن ينازعك يا محمد من سبقك

من الأديان بشريته فأثبت أيها الرسول على دينك ، وتمسك به ، حتى لا تتأثر بمزاعمهم ، واعلم أن ما شرع الله لك هو الحق والصواب .

﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۚ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أى وادع هؤلاء

المنازعين إلى توحيد الله وعبادته وحده ، لأنك على الحق الذى هداك الله إليه وهو الصراط المستقيم .

﴿ وَإِنْ جَدُلُواكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى وإن جادلوك هؤلاء

المشركون فى دينك وشريعتك فقل الله عليم بما تعملون ، وسيجازى كل بما يستحق من جزاء .

﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أى

دع الأمر لله تعالى فالكل راجع إليه ، وسيحكم بين الناس جميعا يوم القيامة ، ويبين الحق من الباطل .

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي

كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ؟ ... الاستفهام للتقرير . ومعناه : اعلم يا

(٨٧٧)

محمد إن الله علیم بسائر خلقه ، فهو معهم أينما وجدوا ، وكل ما يقع مدون فی اللوح المحفوظ منذ الأزل ، وعلم ذلك أمر یسير على الله تعالى لأن الله لا تخفی علیه خافية فی الأرض ، ولا فی السماء ، یعلم خائنة الأعین وما تخفی الصدور .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله جعل لكل أمة شريعة خاصة ، يناسب زمنها ، وحاجتها ، وواقعها ... ولا یصح أن ینازع الشرع السابق شرعا یأتی بعده ، ولا ینبغی أن ینازع أصحاب الأديان السابقة شريعة محمد ﷺ لأن ما ناسب الماضي لا یناسب الحاضر والمستقبل ، ولا یصح منازعتك ، فاستمر يا محمد على دينك وشريعتك ، وادع الناس إلى الله فأنت على الصراط المستقیم ... وان جادلوك فدع الأمر لله ، فهو العليم بكل خلقه ، وعلمه محیط شامل ، واعلموا أن یعلم الله ما فی السموات وما فی الأرض وقد دونه الله فی اللوح المحفوظ منذ الأزل ، وذلك أمر یسير على الله تعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة فی الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

الإنسان ذو طاقة بشرية

یعيش الإنسان فی الإطار الذى خلقه الله تعالى ، ولذلك شرع الله له ، وهو العليم بما یناسب عصره ، ویتطابق مع إمكاناته وطاقاته ، ولذلك جعل الله لكل أمة شريعة ، ولا شئ فی هذا الاختلاف ، ولا نقیضه فی هذا التنوع التشريعی .

ومن هنا صار على الدعاة أن يدعوا التنازع حول الشريعة ، ويسلموا الأمر لله .

على الدعاة أن يركزوا على تمكين العقيدة في القلوب ، واعطاء اللسان والجوارح حق التعبير عن ما في القلب من إيمان ، ويبلغوا الناس أن الآخرة حق ، وأن كل إنسان سينال جزاء ما كان عليه في الدنيا .

من ضلال المشركين

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مِّنْ ذَٰلِكُمْ أَتَارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبهما

لما بينت الآيات السابقة أن لكل أمة شريعة وأن الله عليم بكل شئ حتى لا يتأثر الرسول ﷺ بمن ينازعه في شريعته ويدع الأمر لله جاءت هاتان الآيتان لبيان بعض ضلالات المشركين وسخافاتهم .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان بعض أباطيل المشركين في عبادتهم غير الله تعالى ، وكراهيتهم سماع الحق ، وحقدهم على المسلمين .

الدلالات اللغوية

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أى إن المشركين يعبدون غير الله تعالى من آلهة اتخذوها من الأصنام والأوثان بلا حجة ولا دليل .

إن قضية التوحيد تحتاج إلى حجة عقلية ، ودليل شرعى قائم على العلم والفهم ... إلا أن المشركين أهملوا هذه القواعد فعبدوا غير الله تعالى بلا حجة عقلية ، أو علم شرعى .

﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ وليس للظالمين من نصير ينصرهم يوم القيامة ويدفع عنهم عذاب الله تعالى .

﴿ وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْمُنكَرَ ﴾ أى وإذا تتلى آيات القرآن الكريم على المشركين بدلالاتها الواضحة ، وحجتها البينة يظهر الحقد فى وجوههم ، وتبدو الكراهية عليهم .

﴿ يَكَادُوكَ يَسْطُوبُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ﴾ أى يقتربون من شدة حقدهم أن يثبوا على المؤمنين ، ويبطشوا بهم ، ويؤذوهم بأيديهم وألسنتهم بسبب الآيات البينة التى يذكرونها لهم .

﴿ قُلْ أَفَأُنذِرُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ﴾ ؟ ... الاستفهام للإنكار والتعجب . ومعناه أخبركم بما هو أشد شرا من هذا الحقد وتلك الكراهية .

﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى قد وعد الله الذين كفروا بعذاب جهنم جزاء كفرهم ، وحقدهم ، وانصرافهم عن الحق ، وهو مصير سئ بئيس .

(٨٨٠)

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن المشككين يعبدون غير الله بلا دليل شرعى أو عقلى ،
وأنهم إذا سمعوا القرآن الكريم يمتثلون غيظا يدفعهم إلى إيذاء المسلمين ، وسوف
يعاقبهم الله بنار جهنم بلا نصير ينصرهم أو مدافع يحميهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان ركيزة هامة ... هى :

معاداة المشركين للحق

المشركون هم أعداء الله فى الأرض ، لأنهم عبدوا غير الله تعالى
وخاصموا رسول الله ﷺ ، ولم يرتضوا بدين الله تعالى ، وهذا أوقعهم فى أخطاء
عدة .

فأخذوا يجادلون فى الألوهية بلا دليل عقلى ، وبلا برهان دينى ، وبلا
نصير لهم من العلماء والناس .
وأبوا أن يستمعوا للقرآن الكريم ، وكانوا إذا تلى على أسماعهم يمتثلون
حقدا ، وتظهر عليهم العداوة ، ويكادون يفتكون بالمؤمنين .
وسوف يحاسبهم الله تعالى ، ويعاقبهم على ما فعلوا .

هوان الأصنام

يقول الله تعالى :

﴿ يَنَافِيهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا سَمِعُوا لَهُ ^ع إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ^ط وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا
يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ^ع ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٣٦﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ^ط إِنَّ
اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٣٧﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ^ع
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٣٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ^ط وَإِلَى اللَّهِ
تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٣٩﴾ ۞ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة سفاهة المشركين في عبادتهم آلهة غير الله تعالى
جاءت هذه الآيات لبيان أن الأصنام والأوثان لا تضر ولا تنفع ، ولا تستطيع
أن تفعل شيئا ، وتبين أن المشركين لا يقدر الله حق قدره .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الآلهة المزعومة لا تستطيع ولو اجتمعت أن تخلق ذبابة
واحدة ، ولا تستطيع حماية نفسها من الذبابة ... لقد ضل هؤلاء المشركون ،
وما قدروا الله حق قدره ، فقد اختار رسله ، وبعثهم للناس ، وهو عليهم بهم .

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ ينادى الله الناس ليستمعوا لهذا الكلام البين الواضح المؤثر كالمثل العجيب ، وتدبروا فيه ، واستفيدوا منه ... وهو :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ أى أن الأصنام التى تعبدونها لا تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة على صغر حجمها ، وضعفها ، وقتلتها ولو اجتمعت الآلهة جميعا على ذلك .
﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ أى وإن أخذ الذباب منهم شيئا ، أو سلبه منهم لا يمكنهم أن يمنعوا الذباب ... وهذا منتهى الجهل فى عبادة آلهة غير الله تعالى .

﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ أى قد ثبت عجز الطالب وهو الآلهة وعجز المطلوب وهو الذباب .

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أى لم يعظموا الله حق التعظيم ، إذ عبدوا غيره واتخذوا من الأوثان والأصنام آلهة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى أن الله سبحانه هو الإله القوى القادر الغالب ، وهو الإله الواحد الأحد ، وله العبادة وحده .

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أى إن الله يصطفى من الملائكة رسلا يحملون الوحي ،

(٨٨٣)

ويصطفى من الناس رسلا يرسلهم إلى العباد ، يدعونهم إلى الإيمان بالله الواحد وهو سبحانه سميع للأقوال ، بصير بالأحوال والأعمال .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

أى أن الله تعالى يعلم ما بين يدي الملائكة والرسل ، وما وراءهم ، وإلى الله ترجع الأمور كلها . فيحاسب ويجازى عليها .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الأصنام وإن اجتمعت لا تستطيع أن تخلق ذبابة ، وإن أخذت منهم الذبابة شيئا لا يستطيعون رده .

إن المشركين لن يقدروا الله حق قدره ، فهو متصف بكل كمال ، وهو الذى يختار الرسل ويرسلهم إلى عباده ، وهو العليم بكل شئ .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

تذكر فضل الله تعالى

تحيط نعم الله الإنسان من كل جانب ، ويكفى منها المخلوقات العديدة المسخرة للإنسان ، ومع ذلك يكفر بالله رب العالمين ، ويتخذ من الحجر والخشب آلهة مع أنها لا تحقق نفعا ، ولا تدفع ضرا .
إن الله هو الخالق القوى ، وقد أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، وقد أحاط بكل شئ علما ، وسترجع كافة الخلائق لله للحساب والجزاء .

الأمر بالدعائم الرئيسية للإيمان

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا
الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ
وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ
عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ
الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة أنه لا إله إلا الله ، وأن الأصنام ولو اجتمعت لا
تستطيع أن تخلق ذبابه ، وأن المشركين لم يقدروا الله حق قدره جاءت هاتان
الآيتان بنداء المؤمنين ليعبدوا ربهم ، ويجاهدوا في الله فهم اتباع إبراهيم عليه السلام
وعليهم أن يؤمنوا بالله تعالى ويكونوا من المؤمنين .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان نداء الله للمؤمنين ليقوموا لله ، ويعبدوا الله حق العبادة ،
ويلتزموا بالإسلام فقد يسره الله تعالى ، وليعلموا أنهم اتباع أبيهم إبراهيم في
التوحيد فقد سماهم المسلمين ، وسيشهد عليهم رسول الله ﷺ فاستقيموا ، واعملوا
لله مولاكم فنعمة المولى ونعم النصير .

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ
وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ينادى الله المؤمنين الذين انفادوا له ،
ودخلوا فى دينه ليحافظوا على صلواتهم ، ويعبدوه حق العبادة ، وأن يعملوا
الخير ما أمكنهم عسى أن يفوزوا برضاه ورضوانه سبحانه وتعالى .
﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ أى وابدلوا طاقتكم فى طاعة الله .
﴿ هُوَ أَجْتَبَاكُمْ ﴾ أى قد اختاركم وجعلكم اتباع محمد ﷺ وعلى دينه .
﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أى يسر لكم دينكم ، ولم
يكلفكم بجرح وضيق .

﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى جعلكم
الله على دين أبىكم إبراهيم عليه السلام فهو الذى سماكم المسلمين فى الكتب السابقة .
﴿ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
النَّاسِ ﴾ أى وسماكم أيضا فى القرآن الكريم ليشهد الرسول عليكم ، وتشهدوا
على الناس بالبلاغ .

﴿ فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ﴾
أى فقابلوا نعم الله عليكم الذى اختاركم لدينه ، وتبعيتكم لرسول الله ، وأبىكم
إبراهيم عليهما السلام ، فاعبدوا الله حق العبادة فهو ربكم ووليكم .
﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ أى فأكرم بهذا الولاء ، ونعم هذا
النصير .

(٨٨٦)

- ٤ -

معنى الآيتين

تتحدى الآيتان المؤمنين لعبادة الله تعالى ليفوزوا ، وتأمروهم ليجاهدوا في الله حق الجهاد فقد اختارهم لدينه ، وجعلهم على ملة التوحيد ملة إبراهيم عليه السلام فلقد سماهم المسلمين في الكتب السماوية ، وفي القرآن الكريم ، وجعلهم شهداء على الناس ، وجعل الرسول شهيدا عليهم ، وفي ذلك من الفضل ما يجعلهم مؤمنين عابدين ليتولى الله أمرهم فنعم المولى ، ونعم النصير .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيتين

تبين الآيتان ركيزة هامة ... هي :

أهمية الإخلاص في العبادة

المؤمنون هم عباد الرحمن الذين قدروا الله حق قدره ، وتيقنوا من الرجوع إليه فعملوا لذلك ، واستعدوا للقاء مولاهم وسيدهم .
إن معرفة حقيقة الدنيا والآخرة بداية الإيمان الصحيح ، وهي المنارة التي تشد المؤمن إلى طاعة الله تعالى ليعيش الدنيا عبدا مطيعا ، ويعيش الآخرة فلاحا ونصرا .

إن معرفة الحقيقة هي النصر في الواقع ، وهي السبب الكبير للإخلاص في العبادة وملازمة طاعة الله تعالى .

إن العبادة الدائمة تحقق الخير ، وتسعد المؤمن بولاية الله تعالى .



**إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الحج"
وبه ينتهى تفسير المجلد التاسع**

الختامة

(^^^)

الخاتمة

الحمد لله الذى تتم بنعمته الصالحات ، والشكر له سبحانه وتعالى أن أعاننى على إخراج هذا القدر من التفسير ، وآمل من رحمته أن يمكننى من الانتهاء من تفسير القرآن الكريم كله لأقدم من خلاله ركائز القدوة للدعاة من خلال تفسير الدعوة .

ولا أنسى في مجال الشكر أن أرجو من العلماء والدعاة ما يلى :

(١) أن ينصحوا لى بما يروونه صالحا لدينى ودنيانى ، فأنا احتاج لنصحهم ، وتوجيهاتهم في حياتى العلمية والعملية ، وأعدهم يتتبع أى توجيه صادق يقربنى من الصدق والإخلاص الذى اتمناه ليومى وغدى ، ولا خير في إن لم أسمع لهم وأستفد منهم ، ولا خير فيهم إن علموا أمرا يصلحنى ، ولم يقولوه لى .

(٢) أن يرشدنى العلماء عن أى قصور في مؤلفاتى ، فالمرء قليل بنفسه كبير بإخوانه ، وأقر هنا بمسئس الحاجة إلى إرشاد إخوانى العلماء ، فأنا بذاتى ضعيف محدود ، وبآراء غيرى يزداد علمى ، ويقوى ضعفى ويشدد أزرى .

(٣) أن يكثرُوا دراسات الدعوة والدعاة ، ويخرجوا لها المؤلفات التى تقف شامخة مع غيرها من العلوم الكثيرة المتخصصة وحتى لا يقال .

أين علوم الدعوة ؟

أين الجهد العلمى للدعاة ؟

وما سبب غيابهم عن المكتبة العلمية الإسلامية ؟

لقد ظهرت معارف الدعوة منذ ظهور الإسلام ، وحمل الدعاة الإسلام إلى العالم كله وهم يبلغون الدين بمنهج الله تعالى ، قدوتهم الرسل ، وغايتهم الوصول إلى الله تعالى ، والسعادة في الآخرة بالنظر إلى وجه الله الكريم

(٨٩٠)

، إلا أن عصر التخصص العلمى يدفعنا إلى السعى لإبراز علوم الدعوة
في منهجية متخصصة وموضوعية علمية .

(٤) أن يقدموا للمسلمين ، والطلاب العلم الذى يأخذهم إلى صراط الله
المستقيم بأسلوب سهل ، ومعان بيّنة ظاهرة ، ودائما يفيد الابتكار والتكرار
، وينفع الصالحين من الناس .

إن هذه الآمال هى أحلامى ، وهى أمنياتى من كل ما أكتبه ، وأشعر
بتوفيق الله عند انتهاء أى قدر في هذا التفسير ، واطمع في المزيد ... واحلم
بانتهاء هذا التفسير ، وإذا قضى الله بعدم تمكّنى من ذلك فدعوتى إلى الله أن
يلهم من عباده من يتمه ، ويتقبل سبحانه ما قمت به .

إنى لم أقصد من هذا التفسير إلا خدمة دينى ، وارضاء ربى ، جهد
طاقتى ، وقدر علمى ، فإن أصبت فهو توفيق الله ، وإن أخطأت فهو من
بشريتى ، واستغفر الله تعالى وعلى الله قصد السبيل ، وهو ربى ، عليه توكلت
واليه أنيب ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

فهرس موضوع الآيات

(۸۹۲)

فهرس موضوع الآيات

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٩	المقدمة	.
سورة "الإسراء"		
١٥	التعريف بسورة "الإسراء"	.
١٥	أولاً : تنزلات السورة	.
١٧	ثانياً : مسميات السورة	.
١٨	ثالثاً : صلة سورة "الإسراء" بسورة "النحل"	.
٢١	رابعاً : موضوعات سورة "الإسراء"	.
التفسير		
٢٥	معجزة الإسراء برسول الله ﷺ	[١]
٤٢	رسالة "موسى" عليه السلام لبنى إسرائيل	[٣ . ٢]
٤٨	فساد بنى إسرائيل فى الأرض	[٨ . ٤]
٦٠	دور القرآن الكريم فى الدعوة إلى الله	[١٠ . ٩]
٦٣	الإنسان الضال يعادى نفسه	[١١]
٦٥	آيتا الليل والنهار	[١٢]
٦٩	حالة الإنسان يوم القيامة	[١٥ . ١٣]
٧٧	عاقبة الترف والمترفين	[٢٢ . ١٦]
٨٧	تشريعات بناء المجتمع الصالح	[٣٧ . ٢٣]
١٢٠	بيان ماهية الأحكام السابقة	[٣٩ . ٣٨]
١٣٣	فساد مواقف المشركين من الدعوة	.
١٣٣	الموقف الأول : جعلهم البنات لله والذكور لأنفسهم	[٤٠]
١٣٥	الموقف الثانى : عدم الاستفادة من القرآن الكريم	[٤١]
١٣٧	الموقف الثالث : اتخاذ الأصنام شركاء لله	[٤٤ . ٤٢]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
١٤٢	الموقف الرابع : وجود حجاب عازل بينهم ، وبين القرآن الكريم	[٤٥ . ٤٦]
١٤٦	الموقف الخامس : استهزاء المشركين برسول الله ﷺ	[٤٧ . ٤٨]
١٤٨	الموقف السادس : إنكار البعث	[٤٩ . ٥٢]
١٥٦	الدعوة إلى الله بالقول والخلق الكريم	[٥٣ . ٥٥]
١٦٢	نفى الشريك عند الله تعالى	[٥٦ . ٥٧]
١٦٦	عذاب الله للضالين	[٥٨]
١٦٩	سبب عدم نزول الآيات المبهرة لأهل مكة	[٥٩]
١٧٤	تكريم الله لمحمد ﷺ	[٦٠]
١٨٠	عمل إبليس وذريته فى الناس	[٦١ . ٦٥]
١٨٨	تكريم الله للإنسان وفضله عليه	[٦٦ . ٧٠]
١٩٣	أحوال الناس فى الآخرة	[٧١ . ٧٢]
١٩٧	لا مهادنة مع أعداء الله تعالى	[٧٣ . ٧٧]
٢٠٢	منهج الشريعة الإسلامية فى إصلاح الحياة	[٧٨ . ٨١]
٢١٤	تقلب الإنسان وجحوده	[٨٢ . ٨٤]
٢١٩	الروح غيب يعلمه الله تعالى	[٨٥]
٢٢٢	ثبوت القرآن الكريم	[٨٦ . ٨٩]
٢٢٧	طلب المشركين الآيات المبهرة	[٩٠ . ٩٣]
٢٣٤	رد إنكار بشرية الرسول	[٩٤ . ٩٧]
٢٤١	البعث حق لا ريب فيه	[٩٨ . ٩٩]
٢٤٤	أصالة الشح فى الإنسان	[١٠٠]
٢٤٧	بين موسى ﷺ وفرعون اللعين	[١٠١ . ١٠٤]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٢٥٢	القرآن الكريم كتاب هداية وبناء	[١٠٩ . ١٠٥]
٢٥٧	تنزيه الله وعبادته وحده	[١١١ . ١١٠]
سورة "الكهف"		
٢٦٥	التعريف بسورة "الكهف"	.
٢٦٥	أولاً : تنزلات السورة	.
٢٦٦	ثانياً : الصلة بين سورة "الكهف" وسورة "الإسراء"	.
٢٦٩	ثالثاً : موضوعات السورة	.
٢٧١	رابعاً : أساليب الدعوة في السورة	.
التفسير		
٢٧٥	عظمة القرآن الكريم	[٥ . ١]
٢٨٢	حرص النبي ﷺ على إيمان الناس	[٨ . ٦]
٢٨٨	قصة أصحاب الكهف إجمالاً	[١٢ . ٩]
٢٩١	تفصيل قصة أصحاب الكهف	.
٢٩١	المشهد الأول :- تمسك المفتية بالإيمان	[١٥ . ١٣]
٢٩٥	المشهد الثاني : الفتية يعتزلون القوم وأصنامهم	[١٦]
٢٩٧	المشهد الثالث : الفتية في الكهف	[١٨ . ١٧]
٣٠٠	المشهد الرابع : يقظة أصحاب الكهف من النوم	[٢٠ . ١٩]
٣٠٤	المشهد الخامس : معرفة الناس في المدينة	[٢١]
٣٠٨	المشهد السادس : مناقشة القضايا المتصلة بأصحاب الكهف	[٢٦ . ٢٢]
٣١٦	ضرورة التزام ما جاء الوحي به	[٢٧]
٣١٨	الاهتمام بالمؤمنين عامة	[٢٩ . ٢٨]
٣٢٤	جزاء المؤمنين في الآخرة	[٣١ . ٣٠]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٣٢٨	قصة أصحاب الجنتين	[٤٤ . ٣٢]
٣٣٧	مثل الحياة الدنيا	[٤٦ . ٤٥]
٣٤٢	من مشاهد القيامة	[٤٩ . ٤٧]
٣٤٧	باب ضلال الكفار في الدنيا واستحقاقهم ما أعد الله لهم من عذاب	[٥١ . ٥٠]
٣٥٤	خزى الكافرين في الآخرة	[٥٣ . ٥٢]
٣٥٧	عوامل الكفر والضلال في الإنسان	[٥٩ . ٥٤]
٣٦٣	قصة موسى مع الخضر "عليهما السلام"	[٨٢ . ٦٠]
٣٨١	توطئة في أول الجزء السادس عشر	.
٣٨٢	قصة "ذى القرنين"	[٩٨ . ٨٣]
٣٩٦	جزاء المفسدين يوم القيامة	[١٠٢ . ٩٩]
٤٠٠	أصحاب الأعمال الخاسرة	[١٠٦ . ١٠٣]
٤٠٣	جزاء المؤمنين في الآخرة	[١٠٨ . ١٠٧]
٤٠٥	بيان علم الله المحيط	[١٠٩]
٤٠٧	طريق الفوز في الآخرة	[١١٠]
سورة "مريم"		
٤١٣	التعريف بسورة "مريم"	.
٤١٣	أولاً : تنزلات السورة	.
٤١٤	ثانياً : صلة الآية بما قبلها	.
٤١٧	ثالثاً : موضوعات السورة	.
التفسير		
٤٢١	تنوع الحروف المقطعة	[١]
٤٢٤	قصة رحمة الله بذكرى عليه السلام	[١١ . ٢]
٤٣٢	قصة "يحيى" عليه السلام	[١٥ . ١٢]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٤٣٩	قصة "مريم" عليها السلام	.
٤٣٩	المقطع الأول : إخبار "مريم" بولادة ابن من غير أب	[٢١ . ١٦]
٤٤٢	المقطع الثاني : قصة "مريم" عليها السلام من الحمل إلى الولادة	[٢٦ . ٢٢]
٤٤٦	المقطع الثالث : مواجهة "مريم". عليها السلام قومها بولدها	[٣٣ . ٢٧]
٤٥٣	عبودية "عيسى" ﷺ لله رب العالمين	[٣٨ . ٣٤]
٤٥٩	التحذير من يوم القيامة	[٤٠ . ٣٩]
٤٦٢	دعوة "إبراهيم" ﷺ لأبيه	[٥٠ . ٤١]
٤٧٢	قصص رسل بني إسرائيل	.
٤٧٢	أولاً : طرف من قصة موسى وهارون "عليهما السلام"	[٥٣ . ٥١]
٤٧٤	ثانياً : طرف من قصة "إسماعيل" ﷺ	[٥٥ . ٥٤]
٤٧٦	ثالثاً : طرف من قصة "إدريس" ﷺ	[٥٧ . ٥٦]
٤٧٧	رابعاً : خضوع الرسل جميعاً لله تعالى	[٥٨]
٤٨٣	عاقبة من خالف الرسل أو أطاعهم	[٦٠ . ٥٩]
٤٨٨	وصف الجنة	[٦٣ . ٦١]
٤٩٠	نزول الملائكة بأمر الله تعالى	[٦٥ . ٦٤]
٤٩٣	ضرورة البعث والحساب	[٧٢ . ٦٦]
٥٠١	رد مقالة الكافرين عن القرآن الكريم	[٧٦ . ٧٣]
٥٠٧	الرد على المستهزئين بالبعث	[٨٠ . ٧٧]
٥١٠	ضلال المشركين وضياح آمالهم	[٨٧ . ٨١]
٥١٦	رد القول بأن الله ولداً	[٩٥ . ٨٨]
٥٢٠	جزاء المؤمنين في الآخرة	[٩٨ . ٩٦]

سورة "طه"		
الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٥٢٧	التعريف بسورة "طه"	.
٥٢٧	أولاً : تنزلات السورة	.
٥٢٨	ثانياً : أسماء السورة	.
٥٢٨	ثالثاً : صلة سورة "طه" بسورة "مريم"	.
٥٣٠	رابعاً : موضوعات السورة	.
التفسير		
٥٣٣	اسم السورة "طه"	[١]
٥٣٥	تحقيق القرآن الكريم	[٤ . ٢]
٥٤٠	بيان عظمة الله تعالى	[٨ . ٥]
٥٤٤	قصة "موسى" عليه السلام	.
٥٤٥	المقطع الأول : تكليف موسى عليه السلام بالرسالة	[١٦ . ٩]
٥٥٠	المقطع الثانى : كلام الله لموسى عليه السلام	[٣٦ . ١٧]
٥٥٦	المقطع الثالث : نعم الله على موسى عليه السلام قبل الرسالة	[٤١ . ٣٧]
٥٦١	المقطع الرابع : تكليف موسى وهارون "عليهما السلام" بدعوة فرعون	[٤٨ . ٤٢]
٥٦٥	المقطع الخامس : حوار فرعون لموسى وهارون "عليهما السلام"	[٥٥ . ٤٩]
٥٧٠	المقطع السادس : فرعون يتحدى	[٥٩ . ٥٦]
٥٧٤	المقطع السابع : مقدمات الاجتماع العام	[٦٤ . ٦٠]
٥٧٨	المقطع الثامن : وقائع اللقاء وظهور الحق	[٦٩ . ٦٥]
٥٨٢	المقطع التاسع : موقف فرعون من إيمان السحرة	[٧٦ . ٧٠]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٥٩٠	المقطع العاشر : نجاة موسى وقومه ، وهلاك فرعون	[٨٢ . ٧٧]
٥٩٤	المقطع الحادي عشر : فتنة السامري لبني إسرائيل	[٨٦ . ٨٣]
٥٩٧	المقطع الثاني عشر : تفصيل فتنة السامري	[٩١ . ٨٧]
٦٠١	المقطع الثالث عشر : عتاب موسى ﷺ لأخيه هارون	[٩٤ . ٩٢]
٦٠٣	المقطع الرابع عشر : غضب "موسى" ﷺ من السامري	[٩٨ . ٩٥]
٦١٣	إيراد القصص القرآني للاعتبار والعظة	[١٠٤ . ٩٩]
٦٢٠	أحوال الكائنات والناس يوم القيامة	[١١٢ . ١٠٥]
٦٢٥	حفظ الله للقرآن الكريم	[١١٤ . ١١٣]
٦٣٠	قصة "آدم" ﷺ	[١٢٧ . ١١٥]
٦٤١	أهمية الاعتبار بالأمم الماضية ومواصلة الدعوة إلى الله تعالى	[١٢٩ . ١٢٨]
٦٤٤	خصائص الدعوة إلى الله تعالى	[١٣٢ . ١٣٠]
٦٥٠	تعنت المشركين مع رسول الله ﷺ	[١٣٥ . ١٣٣]
سورة "الأنبياء"		
٦٥٥	التعريف بسورة "الأنبياء"	.
٦٥٥	أولاً : تنزلات السورة	.
٦٥٥	ثانياً : صلة سورة "الأنبياء" بسورة "طه"	.
٦٥٦	ثالثاً : موضوعات السورة	.
التفسير		
٦٦٣	غفلة المشركين عن اليوم الآخر	[١]
٦٦٦	ضلالات المشركين	[٦ . ٢]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٦٧٥	الرسول بشر من الناس	[١٠ . ٧]
٦٧٨	طرق هلاك الأمم السابقة	[١٥ . ١١]
٦٨٢	تنزه الله عن أى نقص	[١٨ . ١٦]
٦٨٦	الله واحد لا شريك له	[٢٥ . ١٩]
٦٩٢	الملائكة عباد الله صادقون	[٢٩ . ٢٦]
٦٩٦	شواهد الكون على وجود الله	[٣٣ . ٣٠]
٧٠٠	كل نفس ذائقة الموت	[٣٦ . ٣٤]
٧٠٦	النهى عن تعجل الموت فهو حق محدد	[٤١ . ٣٧]
٧١١	ضلال الكافرين وعدم استفادتهم بآيات الله ، ونعمه عليهم	[٤٤ . ٤٢]
٧١٥	عدل الله في الحساب والجزاء	[٤٧ . ٤٥]
٧١٩	مع قصص سورة "الأنبياء"	.
٧٢٠	القصة الأولى : قصة "موسى" و "هارون" عليهما السلام	[٥٠ . ٤٨]
٧٢٢	القصة الثانية : قصة "إبراهيم" عليه السلام مع عبدة الأصنام	[٧٠ . ٥١]
٧٣١	قصة "إسحاق" و "يعقوب" و "لوط" عليهم السلام	[٧٥ . ٧١]
٧٣٥	قصة "نوح" عليه السلام	[٧٧ . ٧٦]
٧٣٧	قصة "داود" و "سليمان" عليهما السلام	[٨٢ . ٧٨]
٧٤٢	قصة "أيوب" عليه السلام	[٨٤ . ٨٣]
٧٤٥	قصة "إسماعيل" و "إدريس" و "ذى الكفل" عليهم السلام	[٨٦ . ٨٥]
٧٤٧	قصة "ذى النون"	[٨٨ . ٨٧]
٧٥٠	قصة "زكريا" و "يحيى" عليهما السلام	[٩٠ . ٨٩]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٧٥٢	قصة "مريم" و "عيسى" عليهما السلام	[٩١]
٧٥٦	الدين الحق انقياد لله تعالى	[٩٢ . ٩٥]
٧٦٢	مصير الكافرين في الآخرة	[٩٦ . ١٠٠]
٧٦٦	مصير المؤمنين في الآخرة	[١٠١ . ١٠٣]
٧٧٠	السماء عند قيام الساعة	[١٠٤]
٧٧٢	التمكين للمؤمنين في الأرض	[١٠٥ . ١٠٧]
٧٧٤	الدعوة إلى الإسلام وتحذير المخالفين	[١٠٨ . ١١٢]
سورة "الحج"		
٧٨١	التعريف بسورة "الحج"	.
٧٨١	أولاً : تنزلات السورة	.
٧٨٣	ثانياً : صلة سورة "الحج" بسورة "الأنبياء"	.
٧٨٦	ثالثاً : القضايا الرئيسية في سورة "الحج"	.
التفسير		
٧٨٩	الدعوة لتقوى الله تعالى والعمل للآخرة	[١ . ٢]
٧٩٤	من أعمال المشركين	[٣ . ٤]
٧٩٨	إثبات البعث ويوم القيامة	[٥ . ٧]
٨٠٧	كشف ضلال الكافرين	[٨ . ١٠]
٨١٠	كشف ضلال المنافقين	[١١ . ١٣]
٨١٤	مصير المؤمنين في الآخرة	[١٤]
٨١٦	نصر الله لرسوله ﷺ	[١٥ . ١٦]
٨٢٠	حكم الله في الناس	[١٧]
٨٢٣	سجود الخلق لله رب العالمين	[١٨]
٨٢٧	انقسام الناس إلى مؤمنين وكافرين	[١٩ . ٢٤]
٨٣٣	حرمة البيت الحرام	[٢٥]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٨٣٥	بناء "إبراهيم" عليه السلام للبيت ونداؤه بالحج	[٢٩ . ٢٦]
٨٤٠	تعظيم حرمانات الله تعالى	[٣٣ . ٣٠]
٨٤٤	شرائع الله للأمم متعددة	[٣٥ . ٣٤]
٨٤٧	من شعائر الحج	[٣٨ . ٣٦]
٨٥١	الإذن في الجهاد للمهاجرين	[٤١ . ٣٩]
٨٥٦	تكذيب المشركين وعدم اعتبارهم بالأمم السابقة	[٤٦ . ٤٢]
٨٦٠	تسليية النبي صلى الله عليه وسلم	[٥١ . ٤٧]
٨٦٤	دور الشيطان في الفساد	[٥٤ . ٥٢]
٨٦٨	عاقبة الناس في الآخرة	[٦٠ . ٥٥]
٨٧٢	الله مالك الملك يفعل ما يشاء	[٦٦ . ٦١]
٨٧٧	تنوع الشريعة ووحدة الدين	[٧٠ . ٦٧]
٨٨٠	من ضلال المشركين	[٧٢ . ٧١]
٨٨٣	هوان الأصنام	[٧٦ . ٧٣]
٨٨٦	الأمر بالدعائم الرئيسية للإيمان	[٧٨ . ٧٧]
٨٩١	الخاتمة	.
٨٩٥	فهرس الموضوعات	.

الكتب المطبوعة للمؤلف :

- (١) دعوة الرسل إلى الله تعالى .
- (٢) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكى .
- (٣) السيرة النبوية والدعوة في العهد المدنى .
- (٤) القول الدقيق فى سيرة وعصر الصديق ﷺ .
- (٥) نظم الدرر فى سيرة وعصر عمر ﷺ .
- (٦) حسن البيان فى سيرة وعصر عثمان ﷺ .
- (٧) القول الجلى فى سيرة وعصر علي ﷺ .
- (٨) موسوعة فى الأديان والنحل (دراسة موسوعية للأديان والمذاهب) .
- (٩) الدعوة الإسلامية . أصولها . ووسائلها من القرآن الكريم .
- (١٠) الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث .
- (١١) قواعد الخطابة وفقه الجمعة والعيدىن .
- (١٢) الخطابة العملية .
- (١٣) النظام السياسى فى الإسلام .
- (١٤) النظام الاقتصادى فى الإسلام .
- (١٥) النظام الاجتماعى فى الشريعة الإسلامية .
- (١٦) أصول الدعوة الإسلامية .
- (١٧) عوامل النجاح من خلال تجربة حية ، ونماذج رائدة .
- (١٨) الرسالة الغراء فى تربية الأبناء .
- (١٩) خيال الروح فى زمن الصبا (ديوان شعر كتب قبل سنتين عاما) .
- (٢٠) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الأول .
- (٢١) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الثانى .
- (٢٢) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الثالث .

(٩٠٤)

- (٢٣) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الرابع .
- (٢٤) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الخامس .
- (٢٥) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد السادس .
- (٢٦) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد السابع .
- (٢٧) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الثامن .
- (٢٨) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد التاسع .

والله ولى التوفيق ،،،